
من قصص الشعوب الحرة 4/1
قصة الصراع
بين الحرية والاستبداد
بروما العتيقة
المصطفى حميمو

من قصص الشعوب الحرة 4/1

قصة الصراع
بين الحرية والاستبداد
بروما العتيقة

المصطفى حميمو

فهرس الكتاب

المقدمة

"من قصص الحرية في تاريخ البشرية" هو عنوان سلسلة من أربعة كتب. ألفتها من بعد حصولي على المعاش وتفرغي للبحث في تاريخ الأمم التي تيسر فيها تحقيق مطلب الحرية في صراع ضد الاستبداد. ذلك المطلب الذي تعذر تحقيقه مما عُرف بثورات الربيع العربي. ثورات سرعان ما تحولت إلى ما لا يزال يوصف بالخريف العربي.

بحثٌ شيق ومُمتع، استفدت منه كثيرا واكتشفت فيه ما لم أجد له مثيلا بلغتنا العربية. فتفتحت شهيتي لتدوين ثمراته بقصد تعميم الفائدة، ولا سيما كوني الداعي المتحمس لتدريس تاريخ الشعوب الحرة، علاوة على تدريس تاريخنا على حقيقته بحُلوه ومُره كما وردنا في كتب المؤرخين المسلمين أنفسهم. وذلك بقصد تحصين الشباب في المقام الأول، من آفة التطرف ومما قد ينجم عنه، لا سمح الله، من تهديد لأمن البلاد والعباد. وبقصد تعميم الفائدة بالنسبة للجميع من جهة ثانية. وتلك الكتب الأربعة هي بالترتيب :

1. قصة الصراع بين الحرية والاستبداد بروما العتيقة
2. قصة الحرية بجمهورية البندقية البائدة
3. قصة الحرية بالمملكة البريطانية المتحدة
4. قصة الحرية بالولايات المتحدة

للحرية قصص في تاريخ شعوب بلدان أخرى. فتبقى لك، أيها القارئ الكريم، فسحة البحث عنها ومتعة اكتشافها للاستفادة من الاطلاع عليها، من بعد تعرفك على قصصها في سلسلة كتبي الأربعة. حينها تكون قد أدركت المقصود بالحرية، كما تكون قد علمت إذا ما كانت لها قصص في تاريخ أسلافك أم لا. وذلك هو بالذات المقصود من تأليف تلك الكتب الأربعة.

من بعد معرفة قصة الحرية بروما العتيقة، قد تتساءل عن الفائدة من الاطلاع على قصتها في غيرها. فلماذا ذلك التكرار؟ معك حق في ذلك. والجواب يكمن في أن الحرية، لما ستدرك المقصود منها في الكتاب الأول، لها قصص مختلفة من مكان لآخر ومن زمان لآخر. قصصها كبصمات الأصابع، تتشابه لكنها مختلفة عن بعضها البعض. جوهرها واحد، لكن أشكالها وظروف نشأتها مختلفة، كما ستعلم ذلك من قصتها في أي من الكتب الأربعة. فمن أسباب نشأتها ونمائها ما هو من فعل البشر، ومنه ما هو من فعل القدر الذي لا دخل فيه للبشر. سوى أنه بمقدوره دفع قدر بقدر متى ما فطن لذلك واستطاع إليه سبيلا. وبما أن جوهر الحرية واحد وأن لها أشكال وظروف نشأة ونماء مختلفة من مكان لآخر ومن زمان لآخر، فليس من الضروري قراءة السلسلة انطلاقا من الكتاب الأول.

ثم قد تتساءل وبحق أيضا، عن المقصود بالحرية في تلك القصص. كما ستتساءل بحق وكما تقدم، عما إذا ما كانت لها قصص في تاريخ أسلافك أم لا. يسرّني ذلك كثيرا، لأنه المقصود بالذات من تأليف ونشر تلك الكتب الأربعة على الشبكة للقراءة فقط، وبالمجان. وأفضّل أن لا أجيبك عليها، لأنه مهما اجتهدت لن أوفي تلك الأجوبة حقها مثل ما توفيه قراءة أي من تلك الكتب الأربعة. أخشى من ذلك خذلانها وظلمها.

لكن ما اكتفيت فيها بترجمة ما جاء في كتب المؤرخين. بل سأرافقك معهم في تلك الرحلة الشيقة في الزمان إلى روما العتيقة التي دامت بفضل الحرية قوية ومستقرة سبعة قرون، ثم إلى جمهورية البندقية التي دامت من جهتها وبفضل الحرية دائما قوية ومستقرة مدة إحدى عشر قرنا من الزمن، وإلى بريطانيا وأخيرا إلى الولايات المتحدة. تقرأ الكتاب وأنا برفقتك أتصور وأخمن أنك تضع تساؤلات حول

الأحداث التي ستكتشفها. ولا يسعني حينها إلا أن أدلي لك بتعليقاتي عليها. قد لا تتّفق معها. لكنك ستستأنس بها كي تشكل آراءك الخاصة بك.

وستجد أنه من خصوصيات تاريخ البندقية كونه غير متوفر على شاكلة كتب تاريخ روما وبريطانيا والولايات المتحدة. مع صغر حجمها والإمبراطوريات القوية من حولها كانت تلك الجمهورية تجد مصلحتها الأمنية في التكتم على أسرارها. ومن شدة خوفها من الجواسيس ظلت لا تسمح لأحد بالاطلاع على أرشيفها ولا على اجتماعات كبار القوم بها. فقط من بعد إنهاء وجودها باحتلال فرنسا لها سنة 1797م سطى نابوليون كعادته على أرشيفها، ورحّله إلى باريز. وفقط حينها بدأ البحث العسير في تاريخها الذي دام إحدى عشر قرنا مع ما فيه من المخطوطات والوثائق المدونة بلغة لاتينية قديمة ظلت تتطور مع مرور الزمن. لهذا اعتمدت في تحرير الكتاب الخاص بها على كتب ثلة من المؤرخين، قرأتها دفعة واحدة، مرحلة بمرحلة، ولخصت لك ما جاء في تعاليقهم على الأحداث التي لها علاقة بقصة الحرية.

واعلم أن كتبي الأربعة ليست كتب تأريخ بقدر ما هي رواية لقصة الحرية في كل منها. فلا تنتظر مني فيها الصرامة والدقة الأكاديمية. أعرض عليك قصتها من دون الرجوع كل مرة إلى المراجع والمصادر التي أستقيتها منها. وإذا ما تفتحت شهيتك للدقة في البحث فيسرني ذلك كثيرا، وأحيلك في نهاية كل كتاب إلى المراجع التي اعتمدتها، كما سيبقى في وسعك البحث في غيرها.

أما تعريب بعض الألفاظ فوارد جدا أن يشوّه معناها الأصلي. قال في ذلك الدكتور عبد الله العروي وبحق: "مشكل قائم باستمرار هو كيف يتم تعريب الألفاظ دون أن يستدعي ذلك تعريب المفاهيم، وبالتالي طمس الخصوصيات التي هي لبّ التاريخ". إلا أن هذا كان واردا عند العرب قديما في موضوع الحرية ونحوها، لما ما كان بوسعهم معرفة وجود أنظمة حكم غير تلك التي كانوا يعيشون فيها. أما اليوم فأنت على علم بمختلف الأنظمة السياسية الموجودة بالعالم القديم والحديث. ولن تفوتك المفاهيم الأصلية للكلمات المترجمة للغة العربية، ولا سيما في خضم الأحداث التي من شأنها أن توضح لك تلك المفاهيم.

والذي ينبغي، في تقديري، أن يحظى بكبير اهتمامك كعربي، هو قصة الحرية في تاريخ شعوب كل من تلك البلدان الأربع. ذلك ما حاولت التركيز عليه في تعليقاتي على الأحداث المستوحاة من تعليقات المؤرخين الذين اعتمدت على كتبهم. وستجدني برفقتك في تلك الرحلات السياحية الشيقة والممتعة عبر الزمان بكل من روما العتيقة وجمهورية البندقية البائدة وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة منذ نشأتها ووسط الأجيال الأولى من شعوبها. أتمنى لك معي سفرا ممتعا ومفيدا، تكسر به متى ما شئت رتابة الحياة اليومية وتستريح به من متاعبها. فهيّا بنا مع قصة الحرية بأي من تلك الكتب الأربعة تريد، مع ثلة من المؤرخين الذين يعودن للحياة من أجلك مع عدة أجيال فيها. وأولهم المؤرخ الروماني المشهور تيت ليف. فمن هو ؟ وكيف كتب تاريخ شعبه ؟

Titus Livius، تيتوس ليڤيوس، المعروف عند العرب بتيت ليف، هو مؤرخ روماني من مواليد سنة 59 ق.م. وقد توفي سنة 17 م. نشأ في أسرته الرومانية الأصيلة بمسقط رأسه مدينة بادو أو بادوڤا بشمال إيطاليا، حيث ظلت القيم النبيلة التي عرفتها روما العتيقة قائمة. ولما أكمل تكوينه في القانون والخطابة انتقل إلى العاصمة سنة 40 ق.م. يبحث فيها عن المقام الرفيع الذي يليق به. لكنه انتقل إليها في عز الحرب الأهلية بين قادتها الثلاثة من بعد مقتل قائدها يوليوز القيصر في الحرب الأهلية التي أنهت عهد الجمهورية سنة 27 ق.م. فاستنكف تيت ليف مما اكتشفه فيها من انحطاط سياسي ومن تفشى للفساد، وكأن كل القيم السلوكية النبيلة قد اختفت منها تماما. لم يجد فيها من مظاهر الحياة السياسية ما يجذبه. ولم يجد فيها المستقبل الذي كان يرجوه من الحياة السياسية في عهد حاكم مطلق، فقد الشعب مع حكمه حريته التي اكتسبها طوبة طوبة طيلة سبعة قرون من الزمن. اضطر حينها للبحث عن طريق آخر لتأمين مستقبله. وشاء القدر أن يقرّبه منه أكْسطس أول إمبراطور في عهد الإمبراطورية التي أنهت عهد الجمهورية وأعقتبه. فدخل معه في جدال حول الأحداث التي أفسدت مسار الحياة السياسية بروما. ولما

المقدمة

أنس منه أكسطس معرفته الجيدة بماضيها كلفه بتأليف تاريخها، ومكنه من أجل ذلك من ولوج أرشيفها ومن البحث فيه. وكان في مساء كل يوم تقريبا يعرض عليه ما كتبه ويناقشه فيه بكل حرية، مع ما كان يعرفه أحيانا ذلك النقاش بينهما من خلافات حادة. وكان أكسطس معجبا بتشبثه بآرائه وباستقلاليته لما يخالفه فيها.

في تلك الظروف تم تأليف هذا الكتاب. الكتاب الذي كان تأليفه بمثابة مهرب لمؤلفه من الواقع السياسي المزري إلى أمجاد الماضي السياسي لروما العتيقة. وقد أكد ذلك لما قال في مقدمة الكتاب : "بالنسبة لي أجد في هذا العمل مزية كبيرة. سيلهيني ولو لفترة عن التفكير في هذه المشاهد المؤلمة التي يعرفها عصرنا منذ مدة طويلة. فمن دون تحويل فكري عن حقيقة واقعنا، سيكون عقلي منشغلا كليا بدراسة هذا التاريخ القديم، فيتخلص بذلك من تلك المخاوف التي من شأنها أن تكون مصدرا للقلق"

هكذا يعد تيت ليف أحد أشهر المؤرخين الرومان. تناول كتابه الذي نحن بصدد ترجمته. ويعتبر هذا العمل مصدراً قيماً للحياة الاجتماعية والثقافية، ولا سيما الحياة السياسية التي عرفها الشعب الروماني في عهد الملكية ثم في عهد الجمهورية التي تلتها عقب انقلاب على ثامن ملوكها بسبب غطرسته ضد الفئة الأرسطقراطية التي كانت متشبعة بالحرية ومتشبثة بها. عمر تيت ليف ست وسبعين عاما، قضى منها أكثر من أربعين سنة في تأليفه لهذا الكتاب. ألفه في 142 جزء، لم يصلنا منها سوى 35 جزء. لكنها أجزاء كافية لتتبع قصة الصراع بين الحرية والاستبداد في روما العتيقة. وهي موجودة على صفحات الأنترنت بعدة لغات، ومن بينها اللغة الفرنسية التي اعتمدناها لترجمة الكتاب إلى اللغة العربية مع التعليق على أحداثها.

وقصة الصراع بين الحرية والاستبداد بروما العتيقة والتي تهمنا تبدأ مع عهد الملكية. فخشينا أن تصيبك مرحلة ما قبل نشأة الحاضرة الرومانية بالملل بالنظر لما تحويه من أساطير لا فائدة من عرضها عليك. وقد قال في حقها المؤرخ تيت ليف : "أخشى من أن تكون بدايات روما والأزمنة القريبة من نشأتها، قليلة الجاذبية بالنسبة لغالبية القراء الذين يتشوفون لما حصل في هذه العصور الأخيرة، حيث هذه القوة العظمى التي كانت سيدة العالم لمدة طويلة صارت تسلط أسلحتها على نفسها". لذا قفزنا على سرد أحداث مرحلة ما قبل النشأة، وبدأنا قصة ذلك الصراع بين الحرية والاستبداد بروما العتيقة انطلاقا من نشأة الدولة مع عهد الملوك. لكن قبل ذلك ينبغي الاطلاع فيما يلي على مقدمة المؤلف تيت ليف نفسه لما قال :

"هل أستحق الثناء على نفسي بسبب ما أردت فعله بالخوض في كتابة تاريخ الرومان منذ بدايته ؟ لا أدري. ولو كنت أعرف ذلك ما كنت لأجرؤ على البوح به. ولا سيما حين أقدّر كم هي الأحداث بعيدة من عصرنا، وكم هي معروفة عندنا بفضل العديد من الكتاب الذين يتناسلون باستمرار، ويتبجحون إما بعرضها كحقائق لا شك في تاريخيتها أو بأساليبهم المنمقة التي تمحو بساطة أساليب المؤرخين الأوائل. على كل حال، ستكون لي على الأقل متعة المساعدة من جهتي على تخليد ذكرى أعظم الإنجازات التي حققها أول شعب شعوب الأرض. وإن صار إسمي مغمورا من بين هذا الكم الهائل من الكتاب، فسأجد مواساة نفسي في بريق وعظمة من غمروه.

المهمة ضخمة جدا، لكونها تشمل مدة تزيد عن سبعة قرون من الزمن، انطلاقا من البدايات البسيطة لروما، ووصولا حتى هذا العهد الأخير الذي صارت تنحني فيه تحت ثقل عظمتها. كما أخشى من أن تكون بداياتها والأزمنة القريبة من نشأتها، قليلة الجاذبية بالنسبة لغالبية القراء الذين يتشوفون لما حصل في هذه العصور الأخيرة، حيث هذه القوة العظمى التي كانت سيدة العالم لمدة طويلة صارت تسلط أسلحتها على نفسها.

بالنسبة لي أجد في هذا العمل مزية كبيرة. سيلهيني ولو لفترة عن التفكير في هذه المشاهد المؤلمة التي يعرفها عصرنا منذ مدة طويلة. فمن دون تحويل فكري عن حقيقة واقعنا، سيكون عقلي منشغلا كليا بدراسة هذا التاريخ القديم، فيتخلص بذلك من تلك المخاوف التي من شأنها أن تكون مصدرا للقلق.

المقدمة

الأحداث التي سبقت أو رافقت نشأة روما وصلتنا منمقة بالقصص الشعري، بدلا من أن تكون مدعمة بشهادات تاريخية لا شك في صحتها. ولا أنوي لا تأكيدها ولا الاعتراض عليها. بل سأتسامح مع تلك العصور العتيقة التي كانت تُدخل الآلهة في شؤون البشر. بذلك كانت تطبع نشأة المدن بهالة العظمة الأسطورية. وإذا ما جاز السماح لشعب أن يجعل أصله أكثر قداسة بانتسابه للآلهة، فيجوز ذلك، وبلا شك للشعب الروماني. لما أراد أن يجعل من الإله مارس Mars أبا له ولمؤسس المدينة، جعل مجده في السلاح الذي عانى العالم من هيمنته عليه.

لكن رفض أو قبول هذا التاريخ الأسطوري ليس له أهمية في نظري. بل المهم الذي يجب أن يحظى باهتمام كل الناس هو معرفة حياة وطباع الرومان الأوائل، ومعرفة من هم رجالهم العظام وما هي الفنون التي كانت في السلم كما في الحرب أساسا لعظمة أمّتهم ورفعت من شأنها. وهو أخيرا تتبع التضاؤل الخفي والبطيء للانضباط وما رافقه من تراخي في القيم التي دخلت في انحدار متسارع كل يوم إلى أن عجّلت بالانهيار يومنا هذا، حتى أصبح العلاج أشد ألما من الأزمة نفسها.

الامتياز الرئيسي والأفيد الكامن في سرد أحداث التاريخ هو أن نعرض على أنظارك، في إطار واضح، الدروس والعبر من كل نوع، حتى تبدو وكأنها تقول لك هذا هو ما ينبغي لك فعله من أجل مصلحتك ومصلحة الجمهورية، وهذا ما يتوجب عليك تفاديه، لما فيه من خزي لمجرد التفكير فيه ولما فيه من جرم بارتكابه.

في المحصلة، فإما أن أكون مخطئا في تقديراتي، أو ما كانت يوما جمهورية أكبر عظمة من روما ولا أكثر قداسة ولا أكثر عطاء من الإنجازات الهائلة. ولا توجد جمهورية بقيت مثلها طويلا مغلقة في وجه الترف ومن دون الظمأ للثراء، ولا بقيت مثلها وفيّة للزهد وللتقشف بقدر ما كانت تُوائم بين رغباتها وإمكانياتها. فقط في أيامنا هذه، ظهر البخل والتقتير بسبب الثراء الفاحش والتعاطي الجامح لإشباع الشهوات. لا أدري أي غضب سيصيب الدولة كي يرديّها في الحضيض بسبب ما هي منغمسة فيه من ترف ومجون.

لكن حتى في حال ما كان التشكي ضروريا فلن يزيدنا ربما إلا ألما. فلا نبدأ به هذا العمل الجليل. ولو كان للمؤرخ ما للشاعر من عطف الآلهة لكان من الأفضل له أن يصلي لها كي يحصل على النجاح في تحقيق مثل هذا العمل الضخم".

ذ. المصطفى حميمو

الفصل الأول :عهد الملكية
(753 ق.م. – 509 ق.م.)

مقدمة الفصل

لو اطلع ابن خلدون على تاريخ روما العتيقة لكانت المقدمة غير المقدمة التي نعرف، ولكان له فيها عن أنظمة الحكم وأحوال الشعوب غير الذي جاء في مقدمته. نجده يقول إن : "الانفراد بالمجد من طبيعة الملك"[1]. ثم يجد لذلك الاستبداد الفردي بالحكم تبريرا بتأويل قوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}(الأنبياء 22). مع العلم أنه ليس من حق الملوك أن يكونوا أربابا وآلهة من فوق العباد. وهو معذور ولا يلام على ذلك، لأنه ما أتيحت له ولا لغيره من العرب والعجم بالمشرق فرص للاطلاع على الملكية بالاختيار monarchie elective بروما العتيقة ومن دون توريث، ثم الجمهورية التي تلتها حيث صار الحكم من نصيب قنصلين منتخبين من طرف الشعب لولاية سنوية. وبذلك كان الشعب الروماني حرا سيد نفسه. وما اطلع ابن خلدون أيضا على نظام حكم حاضرة إسبارتا اليونانية حيث كان الشعب حرا كذلك، وكان المُلك فيها شركة بين ثلاثة ملوك في آن واحد ومنتخبين أيضا. والدولتان الرومانية واليونانية دامتا مستقرتين وقويتين قرونا طويلة تحت سيادة شعبين حرين. وقال ابن خلدون في المقدمة أيضا إن تولي السلطة لا يتم إلا بالغلب. وهذا صحيح، لكن فقط مع الشعوب الوضيعة التي ما عرف المؤلف غيرها، بالرغم من أن عصره تزامن مع وجود جمهورية البندقية حيث كانت السيادة بيدالجمعية العامة الممثلة لعلية القوم، وكان تولي السلطة يتم كل مرة بانتخاب الجمعية لدَوْق doge جديد مدى الحياة ومن دون توريث، وليس أبدا بالغلب. وبفضل ذلك عرفت تلك الجمهورية على امتداد أحد عشر قرنا مائة وعشرين دوقا كلهم منتخبين.

ومع ذلك لم يسلم ابن خلدون من نقد الدكتور عبد الله العروي، لما قال في حقه : "لا يحق لنا أن نؤاخذه، بما جاء بعده، من الاكتشافات الجغرافية والمكاسب في مجال الحفريات واللغويات. لكن أي عيب في مؤاخذته بما كان قبله، بتلك المراجع التي كانت جاهزة، في متناوله لو توافرت الشروط ؟ ما العيب أن نقول متأسفين آه، لو اطلع في النص على أخبار اليونان وروما ؟ اعتمد هو الآخر منهج المقارنة، لكن بين من ومن؟ بين البدو والحضر، العرب والفرس، العرب والترك، العرب والبربر. استخلص من ذلك ثنائية العمران البدوي والعمران المدني، وتابع نتائج تلك المعارضة على كل المستويات. فعل ذلك ببراعة وحذق وجرأة. لم يحجم عن ربط هذه الثنائية بأخرى ذات طابع سياسي. فميز بين حكم مدني مطلق عادل سديد يتوخى خير الجميع، أو متهور جائر يستهدف إشباع الشهوة، وبين حكم شرعي يضمن سعادة الفرد في الدنيا والآخرة. أمسك بهذا الاستنتاج لأنه تيقن أن الجمهورية، حكم الغوغاء، فاسد من الأصل، ينتهي حتما إلى الفوضى وعموم الظلم. هذا ما وجد في كل مراجعه، من فلاسفة متأخرين ومؤرخين مسيحيين. ماذا لو اطلع على نصوص الأوائل، وعلى أقوال قدماء اليونان والرومان دون تأويل الوسطاء وتحريف التراجمة ؟ ماذا لو أتيح له ما أتاحته الأقدار لمونتسكيو؟ قد يقال، اطلع على جانب من أحوال الروم والإفرنج المعاصرين له، عبر آداب الرحلة، على أوضاع الصين والهند والسودان، كما تدل على ذلك عبارات «المقدمة». لا ينفع في هذا الباب السمع المبهم، لا بد من تلمس الأصول وفحصها بمثابرة وانتظام. يعترضنا هنا ذلك السقف المعرفي الذي أوضحنا في مناسبات عدة آثاره على المفكرين المصلحين"[2].

ولا يصح أن يبقى المشارقة من العرب والعجم، مسلمين ومسيحيين كابن خلدون وأمثاله وحتى اليوم، يجهلون تاريخ الشعوب الحرة، ومنه تاريخ روما العتيقة الذي عرف نظام حكم ملكي أرستقراطي متبوعا بنظام حكم جمهوري. نظام حكم جمهوري بدأ ارستقراطيا وصار بالتدريج ديمقراطيا. وذلك بفضل الصراع بين حرية العوام من جهة واستبداد النبلاء من جهة ثانية. لكن ليس ذلك لأن الرومان وغيرهم من الشعوب الحرة كانوا أذكى من باقي الشعوب. بل لأن الشعوب الحرة عاشت في ظروف استثنائية لم تتح لباقي الشعوب. فيقول المؤرخ فرنسوا ڭيزو : "إنها حالة الشعب التي ينبغي فحصها أولاً وقبل كل شيء، لمعرفة نظام الحكم الذي يليق به، ولمعرفة طبيعة الحكم القائم في واقعه"[3]. فما هي إذا حالة الشعب الروماني عند نشأة دولته، والذي أدى إلى نشأة ملكية بالاختيار monarchie élective وليس بالغلب

---

[1] الفصل العاشر من كتاب المقدمة لابن خلدون

[2] د. عبد الله العروي، أعلاه. الصفحة 12

[3] François Guizot, *ESSAIS SUR L'HISTOIRE DE FRANCE*, Pourrat frères, Paris, 1833, p 59

كتلك التي لم يعرف المشرق وابن خلدون غيرها ؟ والذي أدى إلى نشأة الجمهورية الرومانية من بعد الملكية الأرستقراطية ثم الملكية المطلقة والإطاحة بنظام الحكم الملكي ؟ الجواب على ذلك السؤال نتلمسه في تتبع عهد روميلوس كأول ملك منتخب بروما العتيقة ومؤسس دولتها.

عهد الملكية الديمقراطية (753 ق.م. - 616 ق.م.)

قال المؤرخ الروماني تيت ليف في مقدمة كتابه : "الأحداث التي سبقت أو رافقت نشأة روما وصلتنا منمقة بالقصص الشعري، بدلا من أن تكون مدعمة بشهادات تاريخية لا شك في صحتها. ولا أنوي لا تأكيدها ولا الاعتراض عليها. بل سأتسامح مع تلك العصور العتيقة التي كانت تُدخل الآلهة في شؤون البشر. بذلك كانت تطبع نشأة المدن بهالة العظمة الأسطورية. ... لكن رفض أو قبول هذا التاريخ الأسطوري ليس له أهمية في نظري". وليس ذلك هو موقف المؤرخين المتأخرين الذين بالبحث والتحقيق والتدقيق قربوا لنا حقيقة نشأة روما، بعيدا عن أساطير القصاصين التي تسامح معها تيت ليف في تأليف كتابه. فماذا عن تأسيس مدينة روما سنة 753 ق.م وفق المؤرخين المحققين ؟

تأسيس مدينة روما سنة 753 ق.م

ينبغي أن نتوقف هنا عند عدة ملاحظات. أولها أن المؤرخ الروماني تيت ليف لم يعرف التقويم الميلادي، وإن كان قد توفي سنة 17م. ميلاد المسيح عليه السلام في زمانه كان شأنا إسرائيليا خاصا بمملكة اليهود بفلسطين التي كانت تتمتع بحكم ذاتي في ظل سيادة الإمبراطورية الرومانية. لذا التقويم الميلادي كما تجده هنا هو من ابتكار المؤرخين المسيحيين المتأخرين بكثير عن زمان المؤرخ تيت ليف. أما الرومان فقد بدأوا تقويمهم انطلاقا من سنة نشأة روما. هكذا يكون مولد المسيح في السنة 753 انطلاقا من نشأة المملكة الرومانية. فنقول نشأت روما سنة 753 ق.م. والحدث الذي حصل مثلا في السنة الثالثة من عمر روما يكون قد حصل سنة 750 ق.م. بمنعنى (753ق.م. - 3 يساوي 750ق.م.). ثم استبدل الرومان تقومهم انطلاقا من سنة نشأة الجمهورية. هكذا يكون مولد المسيح في السنة 509 انطلاقا من نشأة الجمهورية الرومانية. فنقول نشأت تلك الجمهورية سنة 509 ق.م.

أما المكان الذي نشأت فيه الدولة الجديدة، فله نصيبه في نشأة الحرية بروما العتيقة. فلا من التوقف عند لتوصيفه. كان عبارة عن هضاب في وسط مستنقع فسيح بسبب الفياضانات الموسمية لنهر التبر المجاور له. بذلك كانت أراضيه من حول تلك الهضاب خصبة جدا مثل خصوبة الأراضي من حول نهر النيل بمصر ولا سيما عند مصبه في البحر المتوسط. وقد كان في البدء خاليا لا يطمع فيه أحد. فصارت تهاجر إليه من مدن اللاتين الإيطالية المجاورة عوائل نبلاء مع مواليهم من العوام وعبيدهم. مدن كانت كل منها دولة في حجم مدينة Etat-cité مثل مكة بالجزيرة العربية، أو في حجم بلدية من البلديات في دول العصر الحديث.

موقع كل من الهضاب السبع بروما العتيقة

وأسباب تلك الهجرات كانت متعددة. منها اكتظاظ المدن بساكنتها. ومنها الهورب من الأوبئة والمجاعة. ومنها الحروب في بيئة شديدة العدوانية. ومنها غياب الفرص للتميز والتألق في الموطن الأصلي بالنسبة لمن له فائض من الطموح والرغبة في الرقي. وبخصوص الأمن فعلاوة على خصوبة الأراضي من حولها من أجل الزراعة وتربية المواشي كانت تلك الهضاب وجنباتها تشكل حصونا وقلاعا طبيعية للساكنة الوافدى إليها. فأغرت خصوبة أراضيها وحصانتها بالهجرة إليها.

واستنادا إلى الأساطير يتحدث المؤرخ تيت ليف عن تعطش الأخوين روميلوس وريموس للسلطة وعن تنافسهما على من تكون له من دون الآخر كي يسن قوانينها. معنى ذلك أنه كان يوجد من تحتهما شعب من المهاجرين وضيع ومستكين، وينتظر من يغلب الآخر منهما كي يستبد بهم على المنوال الخلدوني. فهذا في تقدير المحققين من خيال القصاصين الذين كان يحلو لهم أن ينسبوا الإنجازات العظمى للأشخاص ويؤلهونهم. وكانوا يريدون أن يكون روميلوس ذلك البطل ابن الآلهة الذي حول رفاقه من اللصوص وقطاع الطرق والصعاليك إلى أولئك الرجال الأفداد والأباء الأوائل الذين أسسوا تلك المدينة العظيمة. فيقول في ذلك المؤرخ تيت ليف : " تلك كانت تقريبا الأحداث العسكرية والسياسية التي طبعت عهد الملك روميلوس. وذلك مما يوافق الرأي القائل بألوهية أصله". بخلاف ذلك، وكما تقدم، كان المهاجرون للسكن في تلك الهضاب قد جاؤوها من مواطنهم الأصلية نبلاء أحرار مع أهلهم ومع مواليهم من العوام وبأموالهم المنقولة. وذلك لسبب من الأسباب التي ذكرناها آنفا. فلم يكونوا وضيعين حتى يستبد بهم روميلوس ولا أخوه ولا غيرهما. وقد جاؤوا في الغالب من المدن اللاتينية les latins بجنوب الهضاب السبع.

جاؤوا ومعهم تقاليدهم السياسية بمواطنهم الأصلية، التي كانت كل منها دولة في حجم مدينة أو بلدية أريستقراطية. وكان في كل منها طبقة النبلاء أو الأشراف من جهة وطبقة العوام من مواليهم من جهة ثانية، بما فيهم العبيد الذين لم تكن لهم حقوق سياسية. وما كان بوسع تلك الدول الصغيرة أن يكون لها جيش نظامي. الجيش عند النفير للدفاع عن المدينة أو للهجوم على الغير كان يتشكل من الأهالي. وكان يتجمع للحرب في شكل مليشيات لكن خارج أسوار المدينة حفاظا على حرمتها. لذا قل ما كان بمقدور فرد فيها أن يستبد بالحكم. قدتستبد به أقلية أو فرد مدعوم من أقلية قوية.

وما من مدينة في إيطاليا واليونان إلا وكان فيها مجلس للأعيان كمجلس بلدي يرأسه الملك المنتخب من بينهم. وما كانت في مصلحتهم جميعا فض المشاكل فيما بينهم بالاعتماد على قوة السلاح. وذلك مخافة حرب أهلية تشجع الشعوب الأخرى من حولهم والمتربصة بهم على الهجوم عليهم فتهزمهم وتحتلهم وتحوّلهم إلى عبيد من بعد ما كانوا سادة أحرار في موطنهم. لذا كان من مصلحتهم أن يحتكر الملك القوة داخل المدينة ويحتكر المجلس الجباية. وبدلا من الاحتكام إلى السلاح المدمر لهم جميعا لفض النزاعات فيما بينهم كانوا يحتكمون إلى قوانين العيش المشترك المتفق عليها في مدينتهم. فلا يقتتلون بل يترافعون Ils plaident au lieu de se battre. وهكذا ازدهر تعليم وتعلّم فن الخطابة عندهم ومنذ الصغر، لأنه كان عندهم من حاجيات العيش في دولة في حجم مدينة. وقد أكد ذلك تيت ليف بقوله : " كان من عادة الإيطاليين تكليف نفس المعلم بتعليم وبتربية أبنائهم مجتمعين في نفس الفصل. وهو تقليد ما يزال قائما باليونان حتى يومنا هذا[1]. كان المترفون يختارون لأطفالهم أفضل المعلمين دراية وشهرة". وكانوا يتداولون في مجلسهم الشأن العام ويشرّعون القوانين التي تحكمهم بالتوافق فيما بينهم، لكن من دون إشراك مواليهم من العوام. هكذا تشكلت شعوب تلك المدن من مواطنين أحرار وراشدين وناضجين لا يسقطون في الفوضى في حال فراغ كرسي الحكم الذي يحتكر القوة في المدينة. وهكذا جاء المهاجرون من مدنهم الأصلية إلى هضاب روما السبع بنفس التقاليد السياسية.

وتعذرت نشأة مثل تلك الأنظمة الأرستقراطية على شعوب الدول شاسعة الأطراف مثل مصر والصين وبلاد الفرس قديما، ومن بعدها الإمبراطورية الرومانية ثم وريثتها بيزنطا شرقا. دول كان يسهل فيها بالمنطق الخلدوني كما جاء في المقدمة، والتي ما عرف ابن خلدون غيرها. فساد فيها الاستبداد الأسري بمنطق الراعي والرعية حيث ظلت الشعوب وضيعة، وظلت الحرية حكرا على الأسرة الحاكمة ليس بقوة القانون وإنما بقوة سيوفها. لكن قوة السيوف لا تدوم. غالبا ما تظهر سيوف أسرى أخرى أطول وأقوى فتهزمها وتأخذ مكانها وتتسلط على رقاب نفس الشعوب الوضيعة كغنيمة حرب. لكن لم يكن صغر حجم الدولة في إيطاليا واليونان العامل الوحيد الذي أعطى أنظمة الحكم الآرستقراطية التي سادت فيها. بل كان للمعتقدات الدينية دورها الحاسم في ذلك.

---

[1] حتى زمن المؤلف تيت ليف (ت 17م).

فعلاوة على تقاليدهم السياسية جاء المهاجرون إلى هضاب روما بتقاليدهم الدينية كذلك. بل تلك التقاليد الدينية هي التي يسرت في مدن إيطاليا واليونان ازدهار تلك التقاليد السياسية. فبالرغم من كونها وثنية، قد كان لها نصيبها الأوفر في استتباب الحرية في روما العتيقة. كيف ذلك ؟ كل هضبة كانت تأوي عائلات نبيلة les gens، بمعية مواليها من العوام والعبيد. وكانت تستمد نبلها من معتقداتها الدينية. عائلات تتشكل من العديد من الأسر الفرعية ومستقلة عن بعضها البعض، لكنها كانت متساكنة فيما بينها. وبفضل معتقداتهاالدينية الوثنية كانت أسر كل عائلة متآلفة ومتضامنة فيما بينها ماديا ومعنوا وكأنها جسد واحد. الذي كان يجمع فيما بينها ويقوي تماسكها كالبنيان المرصوص هو افتخارها بانتسابها لأب قديم اشتهر بإنجازات عظيمة. كانت إنجازاته في اعتقادهم من وحي الآلهة. فكانت تقدس روحه وأرواح كل نسله من الرجال من بعده. بل كانت تألهها كذلك وتقيم لها طقوس دينية خاصة ومسترسلة حول من مذبح autel موجود بكل بيت، تنحر عليه الأضاحي المهدات لآلهتهم وتعلوه شعلة من النار لا تنطفئ أبدا. وكان رب كل أسرة هو الكاهن الساهر على كل تلك الطقوس الدينية. فما كان في ذلك من تفاضل فيما بينهم. الأمر الذي حال دون تشكيل هيئة اسقفية تستبد بهم سياسيا باسم الدين، أو تمكن من هم أقوى منها من الاستبداد بهم، كالذي كان يحصل في الدول الشاسعة الأطراف.

كانت تلك الشعوب بإيطاليا واليونان تعتقد ان أرواح الأباء تظل حية من بينهم بفضل تلك الطقوس التي تقام لها بالبيوت باستمرار وبانتظام، وأنها تحميهم، كما أنها تنفع وتضر، وتفرح وتغضب، وتعاقب وتكافئ. لذا بقدر ما كانوا يجلونها ويحتمون بها كانوا يخشونها أشد خشية. وكانت لهم منظومة قيم يعتقدون أن الأرواح المؤلهة تغار عليها وتلزمهم بها فيخشون مخالفتها. فكان الظالم ينتهي لم يهدده المظلوم بأن يشتكيه لإلهه. وكان الشاهد يشهد بصدق لما يُستحلف بإلهه. ولنا في ذلك نظير عند بعض المسلمين الذين لا يبالون بالقسم بالله وبالقرآن الكريم على الكذب، لكن لا يجرؤون على ذلك لما يُستحلفون بمن في قبور الأضرحة من الأولياء والصالحين. فكانت تقوى الآلهة الوثنية عند تلك الشعوب الإيطالية واليونانية أقوى مفعولا من مواثيق الشرف. وهكذا ساهمت بقوة في تثبيت الحريات فيما بينهم بمدنهم.

وكانوا يستشيرون آلهتهم في كل شؤونهم الخاصة والعامة. لاستشارتها كان الكهنة منهم ينظرون إلى السماء فيؤولون ما يحدث فيها بالصدفة على أنها إشارات من تلك الأرواح المؤلهة بقبول وبرفض المستفتى فيه، فيفتون أفراد العائلة النبيلة بتلك التأويلات. هكذا كانت كلها عائلات دينية وثنية بالأساس. ويرأس كل منها أكبر أفرادها ككاهن وحاكم وقاضي يسهر على الالتزام بمنظومة القيم التي تُرضي أرواح آبائهم، التي كانت، في اعتقادهم، تراقبهم وتحاسبهم فتكافئهم أو تعاقبهم. كلما أصابهم مكروه كانوا يعتقدون أنه عقاب من الآلهة فيهرعون للتكفير عن ذنوبهم ويستغفرونها بطقوس خاصة[1].

وأفراد أسر كل عائلة نبيلة كانوا يُعدون بالعشرات وبالمئات وحتى بالآلاف. وكان عددهم يزيد أو ينقص بحسب الظروف. وكانوا يحملون إسم نفس الجد النبيل الذي هم من نسله كأب روحي وكإله. هكذا كان إسم كل فرد يتشكل من ثلاثة أجزاء. الجزء الأول منه هو الإسم الخاص بالفرد، والثاني هو إسم الأب الأول المؤلهة روحه والمشترك بين كل أفراد أسر نفس العائلة، والجزء الثالث هو الكنية التي تتميز بها الأسرة التي ينتمي إليها.

هذا المعتقد الوثني جعل من رجال كل عائلة نبيلة سادة فيما بينهم ومواطنين أحرار بموطنهم. لهم أبوهم الأول، وروحه هي إلاههم الخاص بهم. فلا يقبلون بأن يستبد بهم أيا كان من عائلة نبيلة أخرى التي لها إلهها الخاص بها. لا يجوز عند كل عائلة أن يكون أيا من آلهة باقي العوائل أعلى وأفضل من إلهها. هكذا الدين، بالرغم من كونه وثنيا، جعل من رجال أسر كل عائلة نبيلة أشخاصا متعودين على الحرية في حياتهم اليومية ومعتزين بنسبهم وبأنفسهم بين باقي العائلات. فالحرية عندهم كانت مقدسة لكونها حاجة

[1] انظر في ذلك مرة أخرى كتاب "المدينة العتيقة" للكاتب الفرنسي فوستيل دوكولانج

من حاجيات الدين الذي يتدينون به. وكان في الاستكانة للاستبداد بهم مهانة لدينهم. بل كان فيه سبب لغضب أرواح آبائهم المؤلهة والتي لا بد، في اعتقادهم، من أن تعاقبهم على ذلك الجرم المهين لها.

هكذا كان روميلوس مع أخيه كنبلاء مثل غيرهما ينتمون إلى إحدى تلك العائلات النبيلة المهاجرة من وطنها الأصلي إلى هضبة من هضاب روما. وقد هاجروا إليها بتقاليدهما السياسية والدينية. فما كان بإمكانهما الاستبداد بغيرهم لإنشاء دولة روما كما تقول بذلك الأساطير الواردة في كتاب المؤرخ الروماني تيت ليف وغيره. بل تشكلت الحاضرة la cité الرومانية من ائتلاف مجموع العوائل النبيلة المهاجرة والقاطنة بهضاب روما. فنشأة الحاضرة كانت سابقة على تأسيس المدينة la ville. الحاضرة تتشكل من ائتلاف الساكنة كمواطنين أمرهم شورى بينهم وليس بيد غيرهم. أما المدينة فهي الأرض التي وُجدت عليها تلك الحاضرة. وهكذا كانت تتم نشأة الدول الجديدة للشعوب الحرة في إيطاليا واليونان بشكل تصاعدي من الأسفل إلى الأعلى، مثل بناء منشأة معمارية من عدة طوابق. تتشكل في الأسفل من بيوت أسر العائلات الحرة ثم من ائتلافها بالحي ثم من ائتلاف الأحياء بالبلدية الحرة ذات سيادة. تتزامن مع ذلك نشأة المؤسسات السياسية التي تدبر شؤونها بالاتفاق فيما بين كل المواطنين وباختيار حر منهم وبشروطهم، فيراقبونها ويحاسبونها مع الحفاظ على سيادتهم مثل الشركاء في مؤسسة أو مقاولة تجارية. كان أمرهم شورى بينهم في العائلة كا في الحي وفي البلدية. ولم يكن أمرهم بيد غيرهم. وكان ولي أمرهم من بينهم. فكان كل فرد منهم مواطنا بحق في عائلته وفي حيه وفي بلديته أو مدينته. كان له رأيه ونفوذه في تدبير شؤونها العامة بشكل أو بآخر ولم يكن مجرد مقيم أو غيريب فيها مثل حال العوام والعبيد.

ولتقريب الصورة التي كان عليها حال رجال أسر العوائل الرومانية من البطريقيين سياسيا بمدينتهم منذ تأسيسها، نسوق لك حال أفراد الساكنة في إقامة من الإقامات (résidences) بالملكية المشتركة، كما نعرفها اليوم. تكون إقامة في شكل عمارة لها باب محروس، أو في شكل مجموعة من العمارات أو المنازل أو الفيلات أو مختلطة، ومحاطة بسور، ولها أبواب محروسة. أمر الإقامة وتدبيره شورى بين كل سكانها. يجتمعون دوريا وأحيانا بشكل طارئ تحت رئاسة قيّم syndic منتخب من بينهم، ويتدارسون فيما بينهم تدبير الفضاء العام المشترك بينهم في إقامتهم. ثم يتخذون القرارات بشكل مّا متوافق عليه مسبقا فيما بينهم، على أن يتكلف القيم بتنفيذها. بذلك تكون الإقامة حاضرة une cité، وليس مجرد تجمع سكني. ويكون أفرد الساكنة فيها مواطنين أحرار.

فكذلك نشأت البلديات الإنڭليزية في مستوطنة ماساسوشتس بشمال أمريكا منذ القرن السابع عشر. وذلك بفضل معتقدات المستوطنين الذين كانوا من البرتستنت الطهرانيين. والشيء نفسه هنا بروما العتيقة بالنسبة للبطريقيين ومنذ تأسيسها بفضل معتقداتهم الوثنية الخاصة بهم كما بسطناها أعلاه. بخلاف مواليهم من العوام، الذين كانوا من بينهم مجرد مقيمين فيها وكأنهم أجانب. لم تكن لهم فيها كلمة ولا نفوذ طيلة عهد الملكية. وذلك حتى بدايات عهد الجمهورية، لما بدأوا يطالبون بنفس الحقوق السياسية. ومن تم انطلق الصراع بين العوام والبطريقيين، وقد كان صراعا بين الحرية والاستبداد بروما العتيقة. فماذا عن عهد الملك روميلوس ؟

عهدالملك روميلوس (753 ق.م. – 716 ق.م.)

تأسست دولة روما إذا بإرادة حرة من رجال أسر النبلاء المهاجرين إلى أراضيها، وليس بإرادة روميلوس وأخيه. ومثل باقي المدن الجديدة في عصرهم خضع تأسيسها لاستشارة مختلف آلهة العوائل المقيمية بهضابها. فكان يتطلب منهم اعتماد إله مشترك فيما بينهم. إله من الطبيعة هذه المرة كي يكون حاميا لها وراعيها في اعتقادهم. فاختاروا الإله جوبتير Jupiter. اتخذه الرومان إلها بوصفه ملكا لآلهة كل العوائل الرومانية. وكان في اعتقادهم هو إله السماء والبرق، وراعي روما. وكانوا يعتقدون أنه يقرّ القوانين المتخذة في الحاضرة من بعد استشارته من طرف الكهنة، فيُلزم بها الموطنين ويضمن بذلك العدالة بينهم. وكان ينبغي أن يكون له كاهن خاص به يصهر على كل ما تتطلبه نشأة المدينة الجديدة من طقوس دينية. ومن بعد ذلك يصبح هو الملك بها. وكان على المرشح لتلك المهمة أن يتحمل كل النفقات

المترتبة على مهمته ككاهن ثم مهمته كملك. كون الملك يحتكر القوة كان لا بد له من إثنى عشر حارس مسلح يحمونه وينفذون أوامره ويرافقونه حيثما حل وارتحل وعلى نفقته. بذلك كان الملك تكليفا لا يترشح له إلا من يأنس من نفسها ومن عائلته القدرة على تحمل نفقاته وتبعاته. لم يكن هناك تفاضل بينهم كمواطنين وككهنة. لكن كان التفاضل فيما بينهم مشروعا ومقبولا بمقدار الثروات المتراكمة وعدد الموالي والعبيد من جهة، ومن جهة ثانية بمقدار التطوع للإنفاق على الصالح العام والمساهمة في بناء المنشآت العمومية والإنجازات والجهود المبذولة في الحروب. وكذلك كان الحال بين أشراف مكة بالجزيرة العربية مثلا.

هكذا تم اختيار روميلوس لتلك المهمة على أساس أنه كان أعلى مرتبة في التفاضل فيما بينهم على تلك الأسس، وكان بذلك الأقدر من غيره على تحمل نفقاتها ومشاقها ومتاعبها، بدعم من عائلته البطريقية. فترأس اجتماعات كبار رجال العوائل النبيلة التي تحدد فيها نظام حكم المدينة الجديدة على غرار أنظمة حكم مدنهم الأصلية. ومن أولئك الرجال تشكلت فئة نبلائها الجدد كمؤسسين. تشكلت بالتساوي فيما بينهم في الحقوق والواجبات كأفراد عائلات نبيلة وحرة. وكالعادة بإيطاليا واليونان. فصار بذلك روميلوس ملكا للدولة الجديدة. وككاهن منتخب أشرف على تحديد حدودها، وعلى بناء سورها. وقد كان حينها سورا من الخشب. وما تم التفكير في إعادة بنائه من الحجر سوى في عهد طاركان، وقد كان هو الملك الخامس. وبناء السور وغيره من المنشآت العمومية كان فرصة للتنافس فيما بين العوائل البطريقية على المشاركة فيه وعلى الإنفاق على تشييده، من أجل اكتساب المزيد من الشرف بين باقي العوائل. وبتوفقه في حسن تدبير ذلك الحدث العظيم طيلة عهده اتخذ الرمان من روميلوس إلها من بعد موته.

ومرة أخرى، لو اطلع ابن خلدون على انتخاب روميلوس وغيره من بعده ملوكا لروما، لما عمّم وقال في المقدمة : "ولما كانت الرئاسة إنما تكون بالغلب، وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب ليقع الغلب بها وتتم الرئاسة لأهلها". وكما تقدم، فقد وجد الأستاذ عبد الله العروي عذرا لابن خلدون في ذلك لما قال : ""اعتمد هو الآخر منهج المقارنة، لكن بين من ومن ؟ بين البدو والحضر، العرب والفرس، العرب والترك، العرب والبربر". ولو قارن بين العرب والرومان وبين العرب واليونان وبين العرب والبندقيين في عصره، لكان له مع المقدمة شأن آخر. وهكذا بدأت قصة الحرية بالمملكة الرومانية مع البطريقيين من دون غيرهم من العوام. فتشكل بذلك نظام حكم أرستقراطي بمعنى نظام حكم الأخيار. فماذا عن معالمه وعن معالم الحرية فيه ؟

ترأس الملك روميلوس المجلس الشامل لكل رجال العوائل النبيلة، الذين، بخبرتهم وثقافتهم السياسية التي جاؤوا بها معهم من مدنهم الأصلية. وناقشوا وصوتوا على القوانين المؤسسة لنظام الحكم بالمدينة الجديدة. فكان ذلك من أبرز معالم الحرية بروما العتيقة والمقتصرة على البطريقيين من دون غيرهم. كان التشريع فيها من حق كل النبلاء من دون استثناء، وبالتوافق فيما بينهم على أساس رضا الأقلية بقرارات الأغلبية. فكان كما ينبغي أمرهم شورى بينهم كما تقتضي ذلك الحرية في بلد شعب حر.

ولو اطلع ابن خلدون على ذلك، لما عمّم كذلك وقال في مقدمته : "أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد". ثم استرسل في الشرح ليقول : "وذلك أن الملك كما قدمناه إنما هو بالعصبية. والعصبية متألفة من عصبات كثيرة. تكون واحدة منها أقوى من الأخرى كلها فتغلبها وتستولي عليها حتى تصيرها جميعاً في ضمنها. وبذلك يكون الاجتماع والغلب على الناس والدول. وسره أن العصبية العامة للقبيل هي مثل المزاج للمتكون. والمزاج إنما يكون عن العناصر. وقد تبين في موضعه أن العناصر إذا اجتمعت متكافئةً فلا يقع منها مزاج أصلاً. بل لا بد من أن تكون واحدة منها هي الغالبة على الكل حتى تجمعها وتؤلفها وتصيرها عصبيةً واحدةً شاملةً لجميع العصائب". وقوله أن العناصر إذا اجتمعت متكافئةً فلا يقع منها مزاج أصلاً، فذلك صحيح بالنسبة للشعوب الوضيعة في دول شاسعة الأطراف. أما هنا بروما فقد اجتمعت العناصر متكافئةً ووقع منها مزاج على حد تعبيره. وذلك بفضل ما تميز به شعبها من معتقدات دينية علاوة على كونهم مواطنين في دولة في حجم مدينة.

ومدينة روما الحديثة النشأة كانت في حاجة لاستقطاب المزيد من خيرة الرجال للاستقرار بها ولحمايتها. فكان لا بد لروميلوس كملك منتخب من توفير كل ما يغريهم بالوفود إليها. هكذا يقول تيت ليف : "ظلت المدينة تكبر كل يوم. وكان وسطها يتوسع، بحسب عدد الأهالي المتوقع أن تضمه لاحقا وليس بحسب الحاجيات الآنية لعدد سكانها في الحاضر. حتى يحقق عظمة تلك المدينة في الواقع، وعملا بالمثل القائل بأن المدينة تنجب سكانها، والذي اعتاد مؤسسوا المدن الجديدة على تبنيه، فتح روميلوس ملاجئ كي تأوي إليها وتقطنها أعداد غفيرة من العبيد وكل الأحرار من الرجال الذين كان يستهويهم التجديد والتغيير. فكان ذلك هو أول مرتكز من مرتكزات عظمتنا الناشئة".

يقول تيت ليف : "مسرور بما اجتمع له من قوات، قرر الملك روميلوس جعلها خاضعة لإدارة دائمة. فأسس لذلك مجلس الشيوخ le sénat، مكونا من مائة عضو. إما ظهر له أن ذلك هو العدد المناسب، أو لم يجد من بين كبار القوم بالمدينة أكثر من ذلك العدد كي يستحق ذلك التشريف. الموثوق به هو تسميتهم بـ "الآباء" patres. فكان ذلك هو لقب تشريفهم. ثم صار لقب البطريقيين les Patriciens بالتواتر عبر الأجيال هو لقب تشريف من ورثوهم من أبنائهم بالمجتمع الروماني". فنشأة كل مدينة جديدة بإيطاليا وباليونان العتيقتين كانت في حاجة إلى قوات لحمايتها. لذا كان من متطلبات تلك الحماية استقطاب ما يكفي من الرجال القادرين على حمل السلاح كي يصبحوا من أهلها وتصبح حماية حرماتهم فيها من حماية حرماتها.

وكما تقدم، لم يكن للدولة في حجم مدينة جيش نظامي متفرغ للدفاع عنها كما كان الشأن في الدول الشاسعة الأطراف، والذي كان يمكّن من الاستبداد بها وبشعوبها. بل كان لروما جيش شعبي يلتئم فقط عند النفير ويتشكل من كل الرجال المدنيين القادرين على حمل السلاح ومن دون تمييز بين النبلاء والعوام. وما كان يتجمع عند النفير سوى خارج المدينة. وذلك صونا لحريتها من خطر كل استبداد عسكري بالسلطة، اللهم في حال الحرب الدفاعية من داخل الأسوار. ورتبة كل جندي فيه كانت بمقدار نوعية وقيمة سلاحه الشخصي الذي يحمله معه للمساهمة به في المجهود الحربي. وكانت توزع عليهم مغانم الحرب بمقدار الرتبة المتوافقة مع نوعية سلاح الجندي. الأمر الذي كان يفاقم الهوة بين الفقراء والأغنياء. وما أن يستتب السلم حتى ينحل الجيش ويعود كل جندي إلى الحياة المدنية لمزاولة نشاطه المعتاد. هكذا ما كان بإمكان الملك أن يستبد بشعبه وهو لا يتوفر على جيش نظامي من تحت يده ؟ مليشياته كانت من نفس الشعب. فكيف يستطيع أن يستبد به ؟

وإنشاء مجلس الشيوخ كان تقليدا بمدن إيطاليا حتى لا يستبد الملك بقرار السلم والحرب. هكذا ما كان بوسع الملك المغامرة بأمن شعب حر في الحروب من أجل تحقيق مصالحه الشخصية. وهكذا كان المجلس شريك للملك في الحكم لما كان من صلاحياته الخاصة به الشؤون الخارجية والدفاع. فكان أعضاؤه بمثابة مائة ملك. مؤسسة دائمة لا تحتمل مهامها الشغور بالنظر للبيئة العدوانية التي تحيط بالمدينة. يموت الملك وفي انتظار انتخاب آخر لتدبير الشؤون الداخلية يظل المجلس قائما على الشؤون الخارجية والدفاع ووصيا على الشؤون الداخلية والقضاء وقيادة الجيش إلى حين انتخاب ملك جديد. يظل قائما بمن ظل حيا من اعضائه حتى في حال الوباء الذي قد يقضي على عدد منهم.

فصونا لحرية روما وشعبها ما كان بوسع الملك خوض الحرب سوى بإذن من المجلس، اللهم في حال دفع خطر داهم. كيف كان يتم ذلك ؟ يقول تيت ليف : ""كان كاهن الحرب يقف عند حدود أرض الشعب المعتدي، فيغطي رأسه بثوب من الصوف ثم يقول : "اسمع يا جوبتير، اسمعوا يا سكان الحدود (ويسمي شعبهم) واسمع أيها العدل، أنا نذير الشعب الروماني. جئت بأمره من أجل قضية عادلة ومقدسة، فصدقوني". ويعرض شكواه. ثم يتوجه إلى الإله جوبتير مرة أخرى ويقسم قائلا : "إذا ما أنا، نذير الشعب الروماني، خالفت قوانين العدالة والدين، بطلبي استرجاع رجالنا وممتلكاتنا، فاحرمني إلى الأبد من رؤية وطني". ثم كان يردد نفس القسم عند عبوره الحدود على أول رجل يلتقي به، وعند دخوله مدينة العدو، وعند وصوله إلى ساحتها العامة، مع تغيير طفيف في بعض الكلمات وفي الإيقاع. وإلّم يُستجاب لطلبات النذير، يعلن هو الحرب من بعد مرور ثلاثة وثلاثين يوما كمهلة مقررة رسميا. يعلن الحرب

بقوله : "اسمع يا جوبتير، وأنت يا جانوس[1] وأنتم جميعا آلهة السماء والأرض والجحيم، اسمعوا : أشهدكم على ظلم هذا الشعب (ويسميه) وعلى رفضه أن يعيد لنا ما ليس له. ويبقى لشيوخ وطننا[2] واسع النظر في كيفية استرجاع حقوقنا"".

"ثم كان يعود النذير فورا إلى روما كي يُشرع في مداولة الأمر. وللتّو كان الملك يبعث بالقضية إلى مجلس الشيوخ، في سؤال موجه لكل عضو منه كي يقول فيه تقريبا : "الأمور والمظالم والأحكام التي عرضها كاهن الرومان وناقشها مع كاهن شعب كذا (ويسمي الشعب الخصم) وطالبه بها، والتي كان من واجبه ردها والتعويض عن أضرارها، ما تمت إعادتها ولا تم إصلاح أضرارها ولا تم حلها. فقل لي إذًا ما هو رأيك فيما سمعت ؟" فيجيب السامع قائلا : "أعتقد أن إعلان الحرب أمر عادل ومشروع من أجل استرجاع حقوقنا. وعليه، فأنا موافق عليه موافقة مطلقة وتامة". هكذا كان الملك يسأل كل عضو على حدة. وإذا ما كانت الأغلبية مع ذلك الرأي كانت تعلن الحرب".

هكذا كان أمر الحرب والسلم من اختصاص أعضاء مجلس الشيوخ وكأنه مجلس ملوك، فلا يعبث به الملك المنتخب ولا يقامر بأمن وحرية شعب روما الحر. ويسترسل تيت ليف قائلا : "كانت الأصول تستوجب من كاهن الحرب أن يحمل رمحا مهندا أو وتدا مقرّنا[3] إلى حدود الشعب المعادي. وهناك يقول في حضور على الأقل ثلاثة رجال بالغين: "بما أن شعب كذا اعتدى على شعب الرومان وأخل بواجباته اتجاهه، فقد قرر شعب الرومان إعلان الحرب على شعب كذا. لقد اقترح ذلك مجلس شيوخ الرومان ثم قرره وأمر بتنفيذه. وأنا ومعي شعب الرومان نعلن الحرب على شعب كذا، وأبدأ المواجهات". وبقوله ذلك يرمي كاهن الحرب بالرمح في أراضي العدو. وتلك كانت الشكليات المتبعة في الحرب مع شعب اللاتين ثم مع غيرهم من بعدهم. وظلت متبعة حتى اليوم[4]".

فلم يشكل روميلوس المجلس بمحض إرادته كما تقدم مع المؤرخ تيت ليف. بل شكله بتفويض من مجموع النبلاء الحريصين على دوام حماية حريتهم من المخاطر الخارجية ومن مغامرات الملوك العسكرية غير المحسوبة العواقب. وبتشكيله لمجلس الشيوخ من مائة عضو صارت كل الشؤون الخارجية، علاوة على قرار الحرب والسلم، بيد المجلس من دون غيره، اللهم في حال ما فوّض المجلس صلاحياته إلى الملك أو لحدالجنرالات في حال الطوارئ.

وقد ظل الأمر كذلك طيلة عمر الجمهورية من بعد وضع حد للنظام الملكي سنة 509 ق.م. وافتخر بذلك المؤرخ تيت ليف عند حديثه عن الحروب التي شنها الأسكندر الأكبر المقدوني على بلدان الشرق الأوسط، واحتل بسهولة كبيرة كل من تركيا والشام ومصر وبلاد فارس، فقال : " من الملاحظ أنني حرصت منذ بداية هذا الكتاب على عدم الابتعاد كثيرا عن تسلسل الأحداث وعلى تفادي قصص جانبية، بالرغم مما فيها من متعة للقارئ ومن استراحة لفكر الكاتب. إلا أنني لم أستطع مقاومة التعرض لحياة الإسكندر المقدوني كملك وكجنرال، كي أبسط هنا في حقه أفكارا طالما راودت عقلي وشغلت بالي. فلننظر فيما لو أن هذا الجنرال توجه بجيشه غربا[5]، ماذا كان سيحصل معه في حربه على الجمهورية الرومانية ؟......هل كان بإمكان عبقرية رجل واحد كالإسكندر أن يتفوّق على مجلس الشيوخ الذي وصف نفسه بمجلس ملوك ؟..."

توسع روما بانضمام هضبة الصابيين les Sabins إليها

كان قد هاجر إلى الهضبة الشمالية المسماة Quirinal طائفة من نبلاء قوم الصابيين. بلادهم الأصلية توجد شرق روما. ولم ينضموا إلى المدينة الجديدة عند تأسيسها من طرف غالبية سكانها من اللاتينيين. لكن حصل أن تم ذلك الانضمام لاحقا واعتلى ملكهم نفس عرش روميلوس. فصار لها ملكان. أما عن كيفية حصول ذلك فنجد قصة اختطاف الرومان لنساء الصابيين كما أوردها تيت ليف في كتابه لما

[1] وهو كما تقدم، إله الحرب والسلم الذي أقره الملك نوما والمجسد بوجهين متاقابلين في رأس واحد، يرمز أحدهم لزمن الحرب في الماضي والثاني لزمن السلم مستقبلا. وكان يُفتح باب معبده وقت الحرب ويُقفل وقت السلم.

[2] يعني مجلس الشيوخ الذي كانت وظلت له صلاحية الحسم في السلم والحرب منذ عهد روميلوس الذي أسسه لهذا الغرض.

[3] له قرون كغصن الشجرة

[4] أي حتى زمان المؤلف تيت ليف.

[5] يعني باتجاه روما.

قال : "كان لمدينة روما حينها ما يكفي من القوة لإرهاب وتخويف ما حولها من المدن[1]. لكن ما كان فيها ما يكفي من النساء لإنجاب الأجيال التي من شأنها أن ترث وتديم عظمتها. علاوة على ذلك لم يكن للرومان حلفاء من بين الجيران. حينها، وبنصيحة من مجلس الشيوخ، أرسل روميلوس إلى كل حكام المدن المجاورة نوّابا عنه ليعرضوا عليهم عقد تحالف بالمصاهرة وبعقد معاهدات مع هذه الأمة الجديدة. كانوا يقولون لهم : "المدن ككل شيء في هذه الدنيا تولد ضعيفة. لكن إذا ما كانت شُجاعة وساعدتها الآلهة ستكون قوة عظمى وسيكون لها إسم كبير. وكما تعلمون فقد باركت الآلهة ميلاد روما. ولن تكون للرومان قيمة من دون ذلك الأصل السماوي. فلا يليق بكم ألا تمزجوا بالمصاهرة مع هؤلاء الرجال دماءكم وعرقكم. لكن لم تجد تلك البعثة الرومانية حسن استقبال من تلك الشعوب، بسبب ما كان عندها من احتقار لأهل روما وفي الوقت نفسه من خوف علي أمنها وأمن أجيالها القادمة من تهديدات تلك القوة الصاعدة بجانبها. فجُلها سألت تلك البعثة وبسخرية منها، من قبل ردها خائبة على أعقابها : "لماذا لم تفتحوا أيضا ملجأ للنساء ؟ لأن ذلك هوالسبيل الوحيد لعقد زيجات تليق بكم[2]".

"اعتبر الشباب الروماني رد تلك الشعوب على طلبهم مهينا لكرامتهم. حينها صار كل شيء يُنذر باندلاع حرب وشيكة. لكن روميلوس، وهو يُعدّ الوقت والمكان المناسب للانتقام، أخفى غضبه وهيأ ألعابا مهيبة على شرف الإله نبتون Neptune. فأمر بالإعلان في كل البلدات المجاورة عن إقامة تلك الألعاب بروما. وأظهرت الاستعدادات بالمدينة الجديدة كل الفخامة والبهرجة التي تليق بالعظمة الرومانية، حتى تُبهر كل السامعين بها وتذكي فضولهم لرؤيتها بأعينهم. فجاءها الزوار مهرولين في أعداد غفيرة، ولا سيما من المدن المجاورة، ومتشوقين في الوقت نفسه لاكتشاف تلك المدينة الجديدة".

"من بين الزوار كان شعب الصابيين Sabins بأكمله، بما في ذلك النساء والأطفال. استحسن الزوار فتح الرومان بيوتهم لهم، وقد تعجبوا من موقع المدينة ومن سرعة نمائها ومن أسوارها ومن كثرة المنازل بها. ثم جاء يوم الاحتفال، وقد تقرر تنفيذ الخطة المضمرة في غمرة المشاهد التي تجذب الأنظار والعقول. عند إطلاق الإشارة هرع الشباب الروماني من كل جانب لخطف الفتيات الصابينيات. كان أكبر عددهن فريسة لأول من اختطف منهن نصيبه. بعضُهن الأكثر حسنا وجمالا كُنّ من نصيب أهم أعضاء مجلس الشيوخ. تم ذلك بواسطة مواليهم من العوام الذين كانوا مكلفين بتلك المهمة".

"زرع اختطاف الفتيات السابينيات الرعب والاضطراب في الاحتفال، مع هروب آبائهن وهم يتألمون لما حصل لهن. كانوا يحتجون ضد انتهاك الرومان لواجب حسن الضيافة، وضد تدنيس قدسية الإله الذي جلبوهم باسمه للتغطية على كمين غادر. الفتيات ضحايا الخطف كن يتقاسمن مع أهاليهن نفس السخط والغضب. لكن روميلوس كان يزور كل واحدة منهن ويقول لها أن سبب ما حصل يعود لآبائهن الذين رفضوا التحالف بالمصاهرة مع شعب جار لهم، وأنه بوصفهن زوجات سيتاقسمن مع الرومان عظمتهم ووطنهم بألطف رباط يجمع بين البشر، حين يصبحن أمهات لإبنائهم. فعليهن التخفيف من استيائهن وأن يهبن قلوبهن لمن جعلهن حظه من نصيبه. كان هذا الحديث مشفوعا بمداعبة الخاطفين لهن وهم يتذرعون لهن بحبهم لهن وادعوا أن ذلك الحب هو الذي كان سببا فيما صدر منهم من عنف. فكان لنبل ذلك العذر وقعه القوي على قلوبهن. الشعور بالظلم في مثل تلك الظروف، غالبا ما يترك المكان لعواطف لطيفة. كنّ يرين رهانات تحقيق سعادتهن الأسرية مضمونة، بقدر ما سيشعر أزواجهن الجدد من الرومان بواجب حسن رعايتهن لتعويضهن عن أسف فقدانهن لأسرهن ووطنهن".

فلا شك في أن هذه الحكاية تطرح في ذهنك عدة أسئلة قد تجعلك وبحق تشك في صحة ثبوتها، وتجدها جيدة فقط لتسلية السامع والقارئ، كما كان يحلو ذلك للقصاصين. ستتساءل عن الحالة المدنية للوافدين على روما للاستقرار بها، هل جاؤوها كلهم عزّاب ومن دون أهل ؟ وهل انقطعت صلتهم بأهاليهم ؟ ثم هل النساء اللواتي اختُطفن كن كلهن عازبات، أم كان من بينهن زوجات وأمهات ؟ فكيف يقبلن بالتخلي عن أزواجهن وعن أبنائهن للزواج ممن اختطفوهن ؟ وقبل كل شيء، هل يصح أن يصدر مثل ذلك القرار الخبيث ضد الجيران والضيوف، عن أعضاء جلس الشيوخ الروماني المتديّنون والمحافظون على منظومة القيم التي تليق بالنبلاء، والذي ما كانوا ليقبلوا به في حقهم من قِبل غيرهم ؟ وماذا سيكون حال الرومان الذين كانوا في حاجة للسفر إلى باقي المدن من أجل التجارة والعمل ولقضاء غير ذلك من الحاجيات مع باقي شعوب إيطاليا ؟ أكانوا يقبلون بأن يوصفوا بالصعاليك من بين غيرهم ويشتموا ويعنفوا حيث ما حلوا وارتحلوا ؟ أكانوا يقبلون بأن توصف مدينتهم المقدسة بمدينة الصعاليك ؟

[1] ارجع إن شئت إلى ما نوهنا به إعلاه بخصوص جيش الدولة في حجم مدينة.
[2] بمعنى كل قوم يتزوج من القوم الذي يناسبه. فلا يصلح للاجئين سوى زوجات من اللاجئات.

كن على يقين من أن المؤرخ تيت ليف قد طرح على نفسه نفس الأسئلة. نستشف ذلك من موقفه من مثل تلك الأخبار لما قال في المقدمة : "الأحداث التي سبقت أو رافقت نشأة روما وصلتنا منمقة بالقصص الشعري، بدلا من أن تكون مدعمة بشهادات تاريخية لا شك في صحتها. ولا أنوي لا تأكيدها ولا الاعتراض عليها. بل سأتسامح مع تلك العصور العتيقة التي كانت تُدخل الآلهة في شؤون البشر....إلا أن رفض أو قبول هذا التاريخ الأسطوري ليس له أهمية في نظري. بل المهم الذي يجب أن يحظى باهتمام كل الناس هو معرفة حياة وطباع الرومان الأوائل، ومعرفة من هم رجالهم العظام وما هي الفنون التي كانت في السلم كما في الحرب أساسا لعظمة أمّتهم ورفعت من شأنها". فلا شك في أن لانضمام الصابيين إلى روما أسباب وجيهة غير تلك التي جاءت بها أساطير القصاصين.

لكن قبل عرض تلك الأسباب الوجيهة لا بأس من الاطلاع على تتمة القصة كما جاءت في كتاب تيت ليف عن القصاصيين دائما. فقال : "نسي النساء سخطهن على من اختطفوهن. في حين ما يزال فيه أباؤهن غاضبين أكثر من أي وقت مضى. من شدة الحزن والألم ظلوا يرتدون ألبسة متسخة حدادا على ما أصابهم. كانوا يستنهضون بشكاواهم وبدموعهم العديد من باقي المدن الإيطالية ضد الرومان المذنبين. لم يتركوا بذلك حزنهم وأساهم حبيس جدران مدنهم. فجاءتهم ثلاثة شعوب أخرى أصابها نفس العار وتجمعت من كل مكان حول ملك شعب الصابيين. لكنها وجدت مملكته تتباطأ وتماطل في اتخاذ موقف من الواقعة. فتحالفت فيما بينها لحرب الرومان. مع ذلك لم تجد إحداهن في الأخريات حزما. فنفذ صبرها على الانتقام، واعتمدت على قواتها الخاصة وهاجمت أراضي الرومان. لما كان القوم ينهبونها متفرقين، واجههم روميلوس بجيشه، فمزق صفوفهم شر ممزق ثم تبعهم ليفتك بالفارين منهم إلى أن قتل ملكهم بيده واستولى على سلبه، وتمكن بذلك من احتلال مدينتهم. وبانتصاره السريع عليهم علمهم أن الغضب من دون قوة عاجز عن الانتقام[1].

برجوع جيشه منتصرا، وحتى يضيف إلى عظام الأمور المهارة في تثمينها، علق ملك روما روميلوس سلب الملك المقتول على مشجب كان مُعدا سلفا لذلك الغرض، ثم صعد به إلى جبل Capitole[2]، ووضعه عند قدم شجرة بلوط كانت لها قدسية عند الرعاة. وضعه قربانا للإله Jupiter، ثم سطر هناك أساسات بناء معبد باسمه، وصاح يقول: "أنا الملك المنتصر، أهدي لك أنت Jupiter سلب الملك المهزوم، وأخصك هنا بمعبد سطرت أساساته. وهنا وكما فعلت أنا، سيضع أحفادي المنتصرون الغنائم المسلوبة من الملوك ومن قادة الأعداء". تلك كانت قصة نشأة ذلك المعبد الشهير. كان هو الأول الذي شهدت روما تدشينه وبناءه. وبالرغم من كثرة الحروب، لم يقتدي الخلف بروميلوس مؤسس المعبد، سوى مرتين وضعوا فيها سلب الأعداء المنهزمين.

بينما كان الرومان منشغلين بتلك الطقوس الدينية انتهزت الفرصة إحدى الشعوب المظلومة وهاجمت حدود روما التي كانت حينها مهملة. فخرج لهم فيلق روماني وفاجأهم متفرقين في البوداي. وما أن سمعوا برد فعل الفيلق حتى فروا، واحتُلت مدينتهم[3]. في غمرة انتشاء الرومان بفرحة ذلكما الانتصارين المتتاليين، انتهزت زوجة روميلوس الفرصة، وبإلحاح من شريكاتها المختطفات، لتلتمس منه الصفح عن آبائهن واستقبالهم في تلك المدينة الناشئة، لخلق جو من الوئام معهم ومع باقي الجيران، كوسيلة في نظرها، لتنمية عظمتها. استجاب روميلوس لطلبها من دون كبير عناء. وأرسل مستعمرين رومان لكلا المدينتين المحتلتين. أغلبهم ذهبوا لمدينة Crustuminum بسبب خصوبة أراضيها. في حين تعددت هجرات أهالي الفتيات المخطوفات من تلكما المدينتين إلى روما فتعاظم بها عدد سكانها.

وآخر حرب حصلت كانت مع شعب الصابيين Sabins، وكانت جديّة. بما أن ذلك الشعب كان يتصرف من دون لا تسرع ولا غضب، تفادى التهديدات التي تسبق الهجوم. لكن حذره لم يلغي العمل بنصائح الخديعة. أغروا بنت قائد قلعة روما بالذهب كي تساعدهم على اقتحامها واحتلالها. فتحت لهم فعلا بابها من بعد ما ادعت أنها خارجة لجلب الماء من أجل قرابين الأضاحي. وما أن اقتحموا القلعة حتى دهسوا بأسلحتهم المرأة المتواطئة معهم وقتلوها، إما لإيهام العدو بأنهم احتلوا القلعة بقوة سلاحهم، أو ليؤكدوا للرومان أنه لا أحد مجبر على الوفاء لقوم غادر مثلهم. وصارت القلعة بأيديهم.

في صباح الغد تجمع جيش روما وغطى بصفوفه ما بين الجبلين Palatin و Capitolin[4]. ومن دون انتظار نزول جنود Sabins لمواجهته، وتحت ضغط الغضب والرغبة في استرجاع القلعة، انطلق جنوده صاعدين إليها، فحصل الصدام. وفي وضعية غير مريحة من أسفل العدو المحتل، قُتل قائدهم الذي كان في المقدمة ففروا من المعركة. حينها رفع

---

[1] فكانت تلك أول حرب يخوضها جيش روما بقيادة مؤسسها روميلوس.
[2] أحد الهضاب السبعة بروما
[3] فكانت تلك هي الحرب الثانية التي انتصرت في روما
[4] انظر الخريطة أعلاه.

روميلوس سلاحه إلى السماء وهو يصيح قائلا : "Jupiter، إنما سطرت هنا على جبل Palatin أساسات هذه المدينة[1] طاعة لك وبفتواك المقدسة. وها هي القلعة بيد العدو وقد بيعت وسلمت له بجريمة خيانة. فتجاوز الأعداء منتصف الوادي ويتقدمون إلى هنا. لكنك أنت أب الآلهة وأب الرجال، فادفعه على الأقل من تلك الأماكن، وأعد الشجاعة للرومان، وأوقف هروبهم المخزي. هنا أشيّد لك معبدا كمعلمة خالدة تشهد على نجاة روما وعلى صونها بقوتك". لما ظن بأن دعاءه مستجاب، صاح يقول :"أيها الرومان، إن Jupiter العظيم والرءوف يأمركم بالتوقف عن الهرب وبالعودة للمعركة". وفعلا توقفوا كمن يستجيب لنداء من السماء.

أما قائد كتيبة شعب Sabins فقد نزل من القلعة من وراء الرومان الهاربين من المعركة، وهو يصيح بدوره قائلا "لقد انهزموا هؤلاء المضيفين الغادرين، هؤلاء الأعداء الجبناء. ليتعلموا اليوم أن خطف الفتيات أمر، أما قتال الرجال فذاك أمر آخر". وما أن أنهى خطابه المتبجح حتى انطلق إليه روميلوس مع أشجع فتيان الرومان، فاندحر أمامه هاربا على فرسه. حينها انبهر باقي الجيش الروماني بشجاعة ملكه، واشتعل حماسه وانهال بدوره على العدو الذي نجا قائده. تكررت المعركة مرة أخرى لكن بقي الامتياز فيها دائما بجانب الرومان.

ونفس الفتيات من شعب Sabins اللواتي تسبب خطفهن في تلك الحروب، كن متأثرات بما يحدث بين أهاليهم من جهة وبين أزواجهن وآباء أبنائهن من الرومان من جهة ثانية. فتحدّين حشمتهن الطبيعية، وارتمين بين الجيشين وهن يصرخن تارة في وجه أهلهن وأخرى في وجه رجالهن من الرومان، لإيقاف القتال بين الفريقين ولوضع حد لسفك وتدنيس الدماء المقدسة، دماء الأب والأخ ودماء الزوج والصهر. دماء امتزجت بإنجاب أبناء بروما لهم آباء وأعمام في طرف، وأجداد وأخوال في الطرف المقابل. فقلن لأهلهن: "إذا كنتم تبغضون هذه المصاهرة المفروضة بينكم وبين الرومان والتي تجسدت فينا، فسددوا سهامكم لصدورنا، نحن سبب هذه الحرب وسبب الفتك بأزواجنا وآبائنا. نفضل إذا الموت على أن نعيش من بعد قتلكم يتيمات وثكلى".

تأثر بذلك القادة والجنود من الجيشين. فسادهم الهدوء والصمت. تقدم القادة من الطرفين لعقد ليس فقط معاهدة صلح بينهم، بل معاهدة تدمج الشعبين في شعب واحد ودمج الدولتين في دولة واحدة وهي روما. بذلك صار لروما ملكان وهما روميلوس وTitus Tatius، فتضاعفت بذلك قواتها. وبما أن أسم مدينة شعب Sabins كان هو Cures أو Quirium، تكنى الرومان بكنية الكوريين Quirites . الاندماج بين الشعبين في شعب واحد، والعيش في الدولة الواحدة الناشئة عن سلام مفاجئ من بعد حرب طاحنة بينهما، جعل من فتيات شعب الصابيين نساء جد محبوبات من آبائهن ومن أزواجهن، ولا سيما من الملك روميلوس. لما قرر تقسيم الشعب المندمج إلى ثلاثين مجموعة سمّى تلك المجموعات باسم قومهن curies[2]. ثم أنشأ في نفس الوقت ثلاث فيالق من الخيالة، تتكون كل منها من مائة فارس وتسمى centurie[3]. ومنذ ذلك الحين لم يشترك الملكان فقط في السيادة على مدينة روما وعلى أراضيها، بل مارسها في وئام تام بينهما".

في حين المرجح عند المحققين بخصوص الخصومة بين الصابيين والرومان هو خلاف على أراضي المراعي الخصبة بين الدولتين الجارتين. ومن ذلك قول تيت ليف : "أن توسع حدود روما باستمرار أقلق الجيران من أهالي مدينة Fidènes. ومن دون انتظار ما يعدهم به المستقبل دخلوا معها في الحرب. فسلحوا شبابهم ودفعوهم للهجوم على الأراضي الفاصلة بين المدينتين. وزرعوا أمامهم الرعب والخراب. فهرب الأهالي من البدو في اضطراب. وفقط بنزوحهم لروما علمت المدينة بذلك الغزو".

وكانت لمواطني روما كغيرها حصانة في بلاد غيرهم. لما تعتدي مثلا مواشيي مواطن من الصابيين على مرعى جاره من الرومان يطالب هذا الأخير غريمه بتعويضات عن الخسائر لجبر الضرر. إن أبى يرفع المواطن الروماني القضية إلى عائلته، وذلك بغض النظر عن كونه من النبلاء أو من مواليهم من العوام والعبيد. وسيد العائلة كان يرفع القضية بدوره إلى الملك. فيتدخل الملك لدى سلطات بلد الخصم كي تجبره على جبر الضرر. ومن ذلك قول تيت ليف في شأن الحرب بين روما ومدينة آلبا : " شاءت الصدفة وشاء القدر أن كان مزارعون بوادي كل من روما ومدينة آلبا يقومون بتخريب متبادل للحقول فيما بينهم. بعث كل طرف للآخر وبشكل شبه متزامن مبعوثين لطلب التعويض عما لحقه من خسائر.". إن أبى الخصم ذلك يستدعي الملك مجلس الشيوخ كي يتولى القضية بنفسه على أساس أنها من الشؤون الخارجية التي

---

[1] يذكر هنا برؤيته للنسور الإثنى عشر كإشارة من الإله جوبتير بحسب الكهنة، على موافقته ومباركته لتأسيس مدينة روما.

[2] نسبة لمدينتهن المسماة *Cures* أو*Quirium*

[3] أو**ميئية** إن صح التعبير، بمعنى مجموعة من مائة جندي.

تخصه، وقد تتسبب في حرب لصيانة هبة الدولة ومصالحها وهيبة مواطنيها خارج أرضهم. فيبعث المجلس وفدا إلى سلطات بلد الخصم طلبا لجبر الضرر. إن أبت يلتئم مرة أخرى المجلس لينظر في شن حرب عليها كي ينتزع حق مواطنه بقوة السلاح مع ما في ذلك من غنائم حرب. وقد يحدث اعتداء ما على مواطن روماني في الطريق خارج بلده أو في سوق مدينة أخرى. فتجري الأمور على نفس المنوال أعلاه.

وذلك لأن كل تراخي في حماية المواطنين بالخارج كان يؤخذ في تلك البيئة العدوانية على أن دولتهم ضعيفة ويمكن التحرش بها لجرها للحرب على أمل الانتصار فيها وجني مغانم كبيرة من هزيمتها. وبغض النظر عن الحرب الدفاعية، كانت الحرب مغامرة تُفتعل أحيانا لجني مغانم مادية وبشرية ومكاسب سياسية ولا سيما في فترات الأزمات الاقتصادية. فالحرب كانت بذلك وكأنها قطاع اقتصادي. وكانت تدخل بعض الدول في تحالفات مع دولة مظلومة أو ظالمة فقط لجني نفس المكاسب. فلهذا كانت كل من تلك الدول تُعد لبعضها البعض ما استطاعت من قوة ومن رباط الخيل لترهبها. وبذلك كانت للمواطنين حصانة في بلدان غيرهم.

وكانت تتم المصاهرة بالزواج المختلط بين مختلف المدن الإيطالية، ولا سيما بين الجيران. هكذا النساء اللائي تدخّلن لمنع الاقتتال بين الرومان والصابيين، قد يكن من عوائل الطرفين واللائي سبق أن تزوجن عن تراض بين العائلات من هنا ومن هناك، بدلا من أن يكن مختطفات كما تقول بذلك الأسطورة. بخصوص مثل تلك القصص يقول تيت ليڤ في تاريخ ما قبل حريق روما سنة 390 ق.م على يد قوم الكُول[1]. : "إنه تاريخ مبتور بسبب الحريق التام، زمن احتلال قوم الكُول للمدينة، والذي طالت ناره سجلات الكهنة وسجلات رجال الدولة ومؤسساتها، وحتى المدونات الشخصية للمواطنين" ثم يستطرد قائلا : "لكن انطلاقا من هذا الكتاب سأقدم بمزيد من اليقين ومن الوضوح الأحداث المدنية والعسكرية التي تلت تلك الولادة الثانية لروما، لما نبتت المدينة من جديد انطلاقا من جذورها، وبمزيد من النُّسغ[2] والحياة". معنى ذلك أن الأحداث المهمة والكبيرة التي كانت تعرفها روما من حروب وكوارث وغيرها كانت كلها مدونة ومرفوفة في الأرشف بمعبد الإله جوبتير. وظلت كذلك إلى حين حرقها من طرف قوم الكُول. لكن استمرت نفس عملية التوثيق من بعد ذلك. وكيف كان يحصل ذلك التوثيق ؟

كل القرارات التي تخص الحياة العامة بالداخل من محاكمات وغيرها والتي تخص الشؤون الخارجية كالحروب مثلا كانت تُعرض على استشارة الآلهة كي تقول فيها كلمتها قبل تنفيذها أو التراجع عنها. وكان الكهنة المكلفون بتلك الاستشارات يدونون تفاصل تلك القرارات مع كل ما سبقها من أحداث وتسبب فيها ومع الترانيم والطقوس التي صاحبت استشارتها للآلهة. ثم كان يحتفظ بكل ذلك في أرشيف المعبد مرتبا بشكل ما.

ولا تستغرب من جود التدوين في تلك العصور الغابرة، لأن تعليم وتعلّم القرأة والكتابة والحساب منذ الصغر كان من ضروريات الحياة المستقرة بالحواضر في إيطاليا واليونان. وذلك بالإضافة إلى تعليم وتعلم النحو والمنطق وفن الخطابة والرياضيات والهندسة المعمارية والموسيقى وعلم الفلك في المرحلة الثانية من عمر الطلبة. وكما تقدم كان الرجال الأحرار في حاجة لتعلم فن الخطابة كسلاح في الحجاج والمرافعات في بيئة سياسية أساسها الاحتكام إلى القانون وليس إلى القوة الفردية والعنف. كانوا يترافعون بدلا من أن يقتتلوا. زد على ذلك تعليم وتعلم علم الطب والصيدلة ومختلف الفنون المهنية التقليدية التي تتطلبها الحياة المدنية بالحواضر. وصلابة وجمال الآثار المعمارية الرومانية القائمة حتى اليوم تدل على مدى ازدهار التعليم بروما العتيقة. بخلاف نمط عيش البدو والترحال الذي كان أهله في غنى عن كل ذلك. فتجد ابن خلدون مثلا يخصص للعرب في المقدمة الفصل السادس والعشرون تحت عنوان : "في أن العرب

---

[1] السكان الأصليون لفرنسا الحالية

[2] *sève* نُسغ وهوسَائِلٌ يَجْرِي فِي أَنْسَاجِ النَّبَاتِ لِتَغْذِيَتِهِ

إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب". فما كانوا في حاجة للقراءة والكتابة والحساب، اللهم البعض ممن استقروا في الحواضر.

فكل ما تقدم يدخل في خانة الحاجة للتعرف على حال الشعب الروماني لمعرفة نظام الحكم الذي يليق به والنظام القائم في واقعه. والذي يهمنا نحن من قصة ضم الصابيين إلى مملكة روما هو طبيعة العلاقات السياسية والاجتماعية التي نشأت ونمت بين نبلاء روما فيما بينهم من جهة، ثم مكنتهم لاحقا في عهد الجمهورية من العيش المشترك قرونا طويلة مع العوام من جهة ثانية. حصل ذلك بفضل صراعات سياسية لكن من دون أبدا حروب أهلية. فازدهرت بفضلها الحاضرة الرومانية واحتلت روما جل العالم من حولها، وإن كنا لا نرى في احتلال الشعوب مزية تذكر. واليوم من أهم ما يدعو الشعوب للافتخار به هو العيش في ظل دولة الحق والقانون. فهل في تلك العصور الغابرة استمتع الرومان بالعيش في دولة الحق والقانون الذي يشكل اليوم مطلب كل الشعوب ؟ ذلك ما ستجيب عليه بنفسك بتتبعك معنا للأحداث خطوة بخطوة.

إعادة تنظيم شعب روما مدنيا وعسكريا

تضاعف تعداد المواطنين بذلك الاندماج بين والصابيين واللاتين في مملكة واحدة. فتمت إعادة تنظيم الشعب الموحد سياسيا وعسكريا. سياسيا، تضاعف من جهة عدد أعضاء مجلس الشيوخ بإضافة مائة عضو من الصابيين إلى المائة الأوائل من اللاتين. مطلب المناصفة كان حاضرا. وتم من جهة ثانية تقسيم مجمل العوائل البطريقية من الصابيين واللاتين إلى ثلاثين عشيرة curies . أما عسكريا فقد تضاعف كذلك عدد الرجال القابلين للتجنيد، فصار يعادل 6000 جندي من المشات بمقدار 200 جندي من كل عشيرة، و600 فارس بمقدار عشرين فارس من كل عشيرة. وهذه الأعداد ليست اعتباطية. بل كان الرومان في معتقداتهم الوثنية يستفيلون خيرا بالعددين ثلاثة وعشرة ومضاعفاتهما.

هكذا صارت كل عشيرة ممثلة عسكريا بالتساوي في الجيش الروماني. والشيء نفسه بالنسبة للسابيين واللاتين سياسيا في مجلس الشيوخ. وسيكون للتقسيمين لاحقا أهمية كبيرة جدا في فهم النظام السياسي الروماني وفي تتبع تطوراته. لذا لا بد من انتهاز فرصة ذكره هنا لتوضيحه، ولا نعول على تيت ليف كي يفسره لنا لاحقا. ما سنوضحه لك هنا هو من استنباطات التاريخ السياسي والاجتماعي للرومان. فما المقصود بالتقسيمين ؟

سياسيا تم تقسيم المدينة إلى ثلاثة أحياء أو مقاطعات. سكان كل حي صاروا يشكلون قبيلة بالمفهوم الترابي للكلمة وليس بالمفهوم العرقي. والقبيلة قسمت بدورها إلى عشر عشائر. بذلك يكون عدد عشائر روما هو ثلاثون كما تقدم. وكل عشيرة كانت مكونة من مجموع عائلات بطريقية من اللاتين والصابيين مع مواليهم من العوام والعبيد. واتخذت كل منها لنفسها إسما يميزها عن باقي العشائر. ونال رجالها شرف كونهم آباء روما، ومن تم صاروا هم نبلاءها. وصار أحفادهم من نسلهم جيلا بعد آخر هم أحفاد آباء روما. لذلك سيلقبون أنفسهم "البطريقيون" les patriciens في مقابل من ليس منهم من باقي سكان روما من الموالي ومن الوافدين عليها، وهم العوام la plèbe. وسيشكل البطريقيون طبقة النبلاء الكبار حتى نهاية عهد الإمبراطورية الرومانية. الانتماء لهذه الطبقة كان بالولادة من أب بطريقي أو بالتبني من طرف نبيل بطريقي تعذر عليه الإنجاب من صلبه. وسيكون لهذه العشائر الثلاثين دور سياسي في عهد المملكة حتى الملك الرابع سرڤيوس. أول وأهم تلك الأدوار كان يتمثل في صلاحية انتخاب الملك.

وحتى تتضح الصورة الاجتماعية بالمدينة الجديدة أكثر، ينبغي التوقف عند ما يميز البطريقيين عن العوام الذين سيتكرر معنا ذكرهم مرات عديدة. لن يكون للعوام دور في الصراع السياسي بين الحرية والاستبداد سوى انطلاقا من القرن الأول من عهد الجمهورية. ومع ذلك فضلنا التوقف عند ما يميزهم عن البطريقيين من الآن لأنهم كانوا في العهد الملكي حاضرين ويشاركون في كل المجالات المدنية والعسكرية عدى المجال السياسي. والحرص على التمييز بين الفئتين كان من جهة البطريقيين.

كان البطريقيون يعتقدون أن العوام ليست لهم آلهة يُعتد بها كالتي كانت لهم. وكانوا يعتقدون أنهم بذلك نجس عند آلهتهم. وديانات البطريقيين تخصهم كنبلاء ومغلقة في وجه غيرهم من العوام. والدولة كانت دينية وثنية بامتياز Etat théocratique païen. فكانت تقع في اعتقادهم تحت رعاية ومراقبة آلهتهم. وكانوا كلهم كهنة وما كانوا يقومون بعمل سياسي إلا من بعد استشارة الآلهة بإقامة قداس ومراسيم وذبح الأضاحي، فلا يحضرها سوى البطريقيون من دون العوام مخافة تدنيسها وجلب غضب الآلهة. جاء في ذلك عن المؤرخ تيت ليف قوله : "لما سأل أحد نواب العوام (في عهد الجمهورية) عن السبب في منع غير البطريقيين من تقلد المناصب العمومية فقال القنصل البطريقي : "لأنه ما كان يوما الاستقسام بالطيور من نصيب أي رجل من العوام. وما منع المفوضون الزواج المختلط بين العوام والبطريقيين سوى لتلافي إرباك الاستقسام بسبب رجال مشكوك في نقاء منبتهم".

وكان البطريقيون معروفين حيث ما حلوا وارتحلوا فلا يستطيع العوام التحايل والادعاء بالانتماء إلى طبقتهم. كانوا يعيشون جنب إلى جنب لكن بملابس ومظاهر تميز بين الفئتين. ولما يزداد مولود عند البطريقي كان يقدمه لباقي رجال العائلة البطريقية كي يشهد أمامهم بأنه من صلبه، فيقام من أجله القداس الذي به يسجل بطريقيا. ولا تفارقه تلك الصفة التي باركتها الآلهة حتى في حال ما صار عبدا بسبب الإفلاس أو بسبب الأسر. فتسعى حينها عائلته لفك رقبته أو يتم تحريره بتبادل الأسرى ولا يصير أبدا من العوام. والشيء نفسه بالنسبة للعوام لا يصيرون من البطرقيين. كانوا في روما وفي غيرها بإيطليا واليونان كالماء مع الزيت في كأس واحد. يمتزجان لكن لا يتحول الزيت إلى ماء ولا الماء إلى زيت.

وكان البطريقيون يحرّمون الزواج المختلط فيما بين الفئتين. لكن طالب به العوام في عهد الجمهورية. ووجد البطريقون في مطلبهم وقاحة لا تطاق. تأمل ذلك عن المؤرخ تيت ليف دائما، في رد أحد القنصلين على ذلك المطلب، لما قال لأعضاء مجلس الشيوخ : "هل سبق أن رأيتم مشروعا أكثر وقاحة من مشروع هؤلاء النواب ؟ يريدون بالزواج المختلط الخلط بين الأجناس، وبين الطقوس والمراسيم الدينية المقدسة العامة والخاصة، حتى لا يبقى شيء نقيا ولا صافيا. من بعد محو كل ما يميز بعضنا عن البعض، لن تبقى وسيلة ليُعرف أي منا من يكون هو ولا من يكون أهله. وإلا فما هو مآل مشروع ذلك الزواج المختلط حيث البطريقيون والعوام يختلطون في أسرة واحدة كالبهائم ؟ ألا ترون أن الأبناء الذين سيُنجبون من مثل تلك الأسر لن يعرفوا من أي دم هو دمهم الذي يجري في عروقهم، ولا لأي جنس ينتمون. سيكونون هُجُنا من جنسين متميزين فلن يعرفوا في أنفسهم لا وحدة ولا نقاء في الهوية".

فما كان للعوام حقوق سياسية بالحاضرة. بل ما كانت لهم حتى الحقوق المدنية. بالرغم مما كان يتميز به بعضهم حتى عن كبار البطريقيين من ثراء، فما كان بوسعهم حتى حماية حرماتهم من شطط وعسف الأدنى مكانة من البطريقيين. ما كان لهم الحق في مقاضاة من اعتدى عليهم لا من البطريقيين ولا من العوام. فكان لا بد لكل منهم من كفيل بطريقي يحتمي به من شطط وعسف غيره. فقط بواسطته كان بإمكانه مقاضاة من اعتدى على حرماته. لأن القضاء كغيره من السلطات كان له طابع ديني ما ينبغي تدنيسه بحضور العوام.

في المقابل كان العوام من موالي البطريقي الكفيل clients الذي يحميهم. كانوا يؤازرونه ماديا ومعنويا عند الحاجة، كأن يساهموا في تصفية ديونه وفي تزويج بناته وفي فكه من الأسر الخ... فكانوا يقفون في كل صباح أمام منزله حتى يخرج لهم فيسلمون عليه ويسيرون من ورائه حتى الساحة العامة كي يعرف الناس بمن يحتمون، ويفتخر هو بعددهم من ورائه كمؤشر على علو مقامه بين البطريقيين. وما كان من مصلحته أن يشتط في حقهم أو يخذلهم، مخافة تحولهم بالولاء إلى غيره. وكان من مصلحة الغني من العوام أن يتخذ كفيلا من كبار البطريقيين. وكان الفقراء يقنعون كارهين بصغارهم. هكذا ظلت الوضاعة المهينة تطبع حال كل العوام كتلك الوضاعة التي لا تليق إلا بالعبيد والأقنان. وضاعة انتفضوا للتخلص منها طلبا للحرية في صراع سياسي طويل ومرير طيلة عهد الجمهورية الذي دام خمسة قرون تقريبا.

ومع ذلك الرجال القادرون على حمل السلاح من العوام كانوا يشكلون الجزء الأكبر من جيوش روما. كانوا يشاركون في حروبها بدرجات مختلفة بحسب نوعية وقيمة السلاح الذي يشارك به كل منهم فيها. كان من مصلحتهم المشاركة في جيوشها دفاعا على حرماتهم بروما وعلى حرياتهم. كان في انهزام جيشهم خطر تخريب ونهب ممتلكاتهم من طرف العدو وخطر أسرهم هم وأهاليهم وتحويلهم إلى عبيد من بعد ما كانوا أحرار. فما كان يُسمح للعبيد بالمشاركة في الجيش لأنه لا ثقة في ولائه. قد يحوّل ولاءه للعدو لأنه ليس له ما يخسره كعبد هنا أو هناك، بل قد يشتري حريته من العدو بخيانة جيشه. الأمر الذي ما كان من مصلحة العوام القيام به.

وفي عهد الجمهورية ظلت مشاركتهم الضرورية في الجيش تشكل ورقة ضغط قوية بيدهم في صراعهم مع البطريقيين من أجل الحرية. وحققوا بها عدة مكاسب سياسية في ذلك الصراع الطويل والمرير. يقول تيت ليف في أولى محطاته : "جاء نبأ هام وخطير من اللاتين بخصوص قوم الفولسك الذين تحركوا بجيش عظيم صوب روما لحصارها. فابتهج به العوام معتقدين أن الآلهة ستنتقم لهم من وقاحة البطريقيين. صاروا ينهون بعضهم البعض عن الامتثال لنداء النفير العام. كانوا يقولون "فلنهلك جميعا وليس فقط نحن. على البطريقيين وحدهم حمل السلاح وتجنيد أنفسهم للحرب، فتكون بذلك مخاطرها من نصيب فقط من يجني ثمارها[1]". حينها وجد مجلس الشيوخ نفسه بين نارين. وتوسل للقنصل سرڤيليوس صاحب المزاج الشعبي كي يخلص الوطن من الاهوال التي صارت تحيط به من كل الجوانب".

هذا فيما يخص بعضا من أحوال كل من البطريقيين والعوام سياسيا واجتماعيا في عهد الملكية. أما عسكريا فقد كان لتنظيم الجيش فيه علاقة بالتقسيم المدني كما تقدم. وسيتطور لاحقا هذا التقسيم هيكليا. وسيأخذ في عهد الجمهورية الدور السياسي الذي كان للعشائر الدينية. فلا نستبق الأحداث، فقط نسجل هذين التقسيمين هنا حتى نفهم بعض الجوانب من الحياة السياسية والاجتماعية الرومانية التي تهمنا أكثر من الحروب ومن غيرها من الأحداث.

الخلافات السياسية إثر موت الملك روميلوس

عن موت الملك روميلوس تقول الأسطورة كما أوردها المؤرخ تيت ليف : "من بعد إنجازاته الخالدة، كان ذات يوم يحضر مجلسا بجانب مستنقع من أجل إحصاء رجال جيشه. فإذا به يُفاجأ بعاصفة مصحوبة بدوي الرعد. سُحب حينها عن الأنظار مغمورا ببخار كثيف. لم يظهر من بعدها لأحد على وجه الأرض. ولما هدأ الفزع وحل يوم هادئ وصافي مكان الظلام الدامس، كان الشعب قريبا من تصديق أعضاء مجلس الشيوخ الذين كانوا رفقة الملك روميلوس وزعموا مؤكدين أنه رُفع إلى السماء مع قيام العاصفة". ثم يعاق على ذلك تيت ليف بقوله : "أتصور أنا أنه لم يخلو حينها المكان ممن يتهمون بصوت خافت أعضاء مجلس الشيوخ بتمزيق روميلوس بأيديهم. تفشت تلك الإشاعة إلا أنها لم تحظى أبدا بكثير من الاتساق. سوى أن التقدير الذي كان يحظى به الملك ورهبة اللحظة قد فرضت الروعة الخارقة للمزاعم التقليدية".

وقد سبق أن تم اغتيال شريكه في الملك Tatius من الصابيين في مؤامرة ضده بإحدى مدن اللاتين والتي قال فيها تيت ليف : "من بعد بضع سنين، جاء نواب عن مدينة Laurentum للملك Tatius شريك روميلوس في عرش روما. جاؤوه يشتكون من ظلم أهله لشعبهم. فانحاز Tatius في الفصل بين الفريقين لذويه. لكنه أدى ثمن ذلك الحكم بحياته لما جاء لمدينة Lavinium لحضور طقوس تقديم القرابين الدينية بها. فقُتل في ثورة من الأهالي عليه. وقيل أن روميلوس لم يظهر بما يلزم من الحزن والحزم على تلك الواقعة، إما بسبب ندمه على اقتسام العرش مع ذلك الملك، أو بسب ما ظهر له من أن قتله كان حقا وعدلا فلم يحرك ساكنا". وللتذكير قد كان نصف أعضاء مجلس الشيوخ من الصابيين. فلا يبعد أن يكونوا هم الذين انفردوا به واغتالوه انتقاما لملكهم المقتول وأخفوا جثته، ثم جاؤوا الرومان بتلك الخرافة التي كان عندهم استعداد نفسي وديني لتصديقها. وكذلك كان بحسب ما ورد عن تيت ليف : "وكأن فكرة بقاء الشعب إلى الأبد من دون ملك جعلته مرعوبا، فبقي مدة في صمت كئيب. وأخيرا واقتداء

[1] في إشارة غير مباشرة لتوزيع غنائم الحرب العينية والسياسية المتحيز للكبار على حساب الصغار من العوام بجيش روما.

بالبعض صار الجميع يهتفون محيين روميلوس إلها وابن إله وملكا وأبا لروما. فصاروا يدعون روحه ويتوسلون إليها كي تحيط دوما مدينته روما بعين ترعى ازدهارها".

ويستطرد تيت ليف قائلا : "ثم جاءت رؤيا رجل يحظى بثقة الناس لتؤكد نفس الاعتقاد. حصل ذلك لما كانت روما قلقة تتأسف على موت ملكها، وبدأت تبدي حنقها ضد مجلس الشيوخ. فقام الرجل الموثوق بصدقه، كما كان يقال، حتى في موضوع خطير وغير مسبوق كهذا. وتقدم إلى وسط المجلس، ثم قال : "أيها الرومان، روميلوس أب هذه المدينة نزل فجأة من السماوات، وظهر لي عند طلوع الفجر. ومن شدة الخوف والتقدير بقيت هامدا محاولا بصلواتي أن ألتمس منه متعة النظر إلى وجهه. فقال لي "إذهب إلى مواطني بمدينتي روما التي أسستها، وأخبرهم أنها ستكون هي ملكة العالم، وأن تلك هي مشيئة السماء. فعلى الرومان كلهم أن يهتموا بفنون الحرب، وليعْلموا هم وأحفادهم من بعدهم أنه لن توجد قوة في الدنيا قادرة على مقاومة أسلحة روما". ثم من بعد هذه الكلمات ارتفع إلى السماء". ومن المدهش أن صدّق الناس مثل هذا الخطاب. وكم كان اليقين بخلود روميلوس ملطّفا لحزن وأسى الشعب والجيش".

لما مات الملك أصبح فقط منصب تدبير الشؤون الداخلية، بما فيها القضاء، شاغرا إلى حين انتخاب ملك جديد. أما الشؤون الخارجية والدفاع فقد ظلا كما ينبغي قائمين بيد أعضاء مجلس الشيوخ الذي لا تحتمل مهامه أي شغور. مات الملك وبقي مائة ملك بالمجلس حتى لا يجرؤ أي عدو على التحرش بالمدينة. لكن من سيخلف روميلوس ؟ قال في ذلك تيت ليف : " كانت طموحات اعتلاء العرش والتنافس عليه، تحرك مجلس الشيوخ[1]. لم يظهر في هذا الشعب الجديد من هو أسمى من غيره. لم تعلو بعدُ المطالبة بتنصيب ملك من بين المواطنين. المسألة كانت محل نقاش بين فئتي الشعب[2]، ولا سيما من فئة الصابيين الذين لم يُعيّن ملك منهم كي يعوض وفاة ملكهم Tatius[3]. كانوا يخشون فقدان المساواة في الحقوق التي نشأت على أساسها هذه الدولة الجديدة. فصاروا يلحّون على أن يُنتخب الملك من بينهم. أما الفئة الثانية فتتشكل من أوائل الرومان من اللاتين[4]. كانوا من جهتهم يرفضون تنصيب ملك غريب عن قومهم[5]. لكن هذا الخلاف لم يمنع المواطنين من الإجماع على قبول حكومة ملكية. كانوا ما يزالون يجهلون نعمة الحرية".

هكذا حصل انقسام في مجلس الشيوخ بين الصابيين واللاتين فعطل انتخاب ملك جديد. لكن، كما قال تيت ليف، قد أجمع المواطنون على قبول حكومة ملكية. ومعنى الحكومة الملكية هو أن يكون تدبير الشؤون الداخلية والقضاء بيد عدد من الملوك من بين أعضاء مجلس الشيوخ إلى حين انتخاب ملك جديد. لم يكن هناك دستور يحسم تلك الخلافات كما هو الحال اليوم ومنذ زمان. فكان الرومان يسنون دستورهم خطوة خطوة بالحلول التي كانوا يواجهون بها الطوارئ. لكنهم كانوا بذلك يقامرون بحريتهم.

وهذه الأخبار، ومثلها كثير، هي مما لم يطلع عليها مرة أخرى ابن خلدون وغيره من المشارقة حتى عصره ومن بعد عصره، والتي حتى اليوم لا يزال المطلعين عليها يشكلون قلة صغيرة من خاصتهم. فسجل معنا هنا أمرا جد مهم. المُلك في روما لم يكن بالوراثة. وذلك على غرار ما سبق أن ذكره تيت ليف بخصوص ملوك الإتريسكيين شمال روما الذين كانوا يُنتخبون من طرف مختلف الشعوب المكونة للمملكة. أما المقصود بالشعب الجديد في كلام تيت ليف فهم النبلاء من الآباء اللاتين المؤسسين لروما ونسلهم، علاوة على النبلاء من قوم الصابيين الذين ضمهم روميلوس لمدينته. وكما تقدم لم يكن العوام حينها يعدون من نفس الشعب الحر، بل كانوا لا يزالون يعيشون في روما تحت كفالة النبلاء الذين يحمونهم ويصونون حقوقهم كموالي.

[1] لم تذكر الرواية هل خلف روميلوس أبناء أم لا. لكن مسألة وراثة العرش لم تكن مطروحة. ومسألة تنصيب ملك جديد صارت كما ترى موكولة لمجلس الشيوخ.
[2] من اللاتين ومن الصابيين
[3] ملكهم الذي كان شريكا في الملك مع روميلوس حتى حين اغتياله.
[4] *Les latins* الذين بحسب الأسطورة سماهم الأمير الطروادي كذلك منذ زمان، ونشأوا في مدينة آلبا الطويلة حيث ولد ونشأ الأخوان ريموس وروميلوس.
[5] وهم العشائر الثلاثين بمدينة روما، من دون غيرهم من الوافدين على روما والذين سيشكلون لاحقا فئة العوام.

بخصوص خلافة روميلوس قال تيت ليف : "المسألة كانت محل نقاش بين فئتي الشعب[1]، ولا سيما من فئة الصابيين الذين لم يُعيّن ملك منهم كي يعوض وفاة ملكهم Tatius[2]. كانوا يخشون فقدان المساواة في الحقوق التي نشأت على أساسها هذه الدولة الجديدة". وهذا يذكرنا نحن المسلمين بما حدث بسقيفة بني ساعدة إثر وفاة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. لكن المسراين والمآلين كانا مختلفين هنا وهناك. بالمدينة المنورة ثقافة الحرية التي جاء بها الرسول الكريم كأمر جديد لم تكن من تقاليد العرب السياسية. في حين كانت بمدن إيطاليا واليونان، وقبل نشأة روما، من التقاليد السياسية الراسخة عند نبلاء شعوبها. وهكذا عرف مآل خلافة روميلوس منحى الحرية. لماذا ؟

ليس روميلوس هو الذي جاء بالحرية إلى روما. بل كانت راسخة في ثقافة عوائل نبلائها من قبل نشأة روما. وهي التي أسست الدولة وجاءت به ملكا. البناء انطلق من القاعدة إلى المركز. أفراد أسر كل عائلة بطريقية، والذين يعدون بالعشرات والمئات وحتى الآلاف، كانوا متراصين بإسمنت الدين العائلي وبالنسب. بذلك كانت كل عائلة تشكل حزبا سياسيا مستقلا وقوة ضغط وازنة ومهيكلة بين باقي العائلات. فتلك العائلات القوية وذات سيادة هي التي صنعت الدولة والملك وليس العكس. هكذا لما صار العرش فارغا ما سقطت في الفوضى. لأنها ما عرفت الفوضى لما كانت عوائل متفرقة. فظلت منتظمة كما كانت من قبل نشأة روما. وما فقدت حريتها بشغور العرش. بل ظلت قوية ومتشبثة بها وتخشى عليها من أي استبداد. حتى أنها كانت يخشى فقدان المساواة في الحقوق التي نشأت على أساسها هذه الدولة الجديدة، كما قال ذلك تيت ليف. ولذا نجد المؤرخ لابولاي يقول : "إذا لم يكن المواطنون أولا متعوّدون على الحرية في حياتهم اليومية، ثم إذا لم تكن الحرية عندهم حاجة من حاجيات القلب، فالدستور الأكثر كمالًا ولبرالية هو وهم خطير. وتجربة أمريكا اللاتينية تكفي لإثبات ذلك."[3].

وعندنا تجربة العرب بالأندلس مثلا التي أتبثت الشيء نفسه مرتين. ما أن سقطت الدولة الأموية بالشرق حتى سقطوا في الفوضى. وما استعادوا استقرارهم حتى جاءهم عبد الرحمان الداخل الأموي فارا بجلده من بطش العباسيين، فاستكانوا لاستبداده بهم. وسقطوا في نفس الفوضى مرة أخرى لما سقطت دولة الأمويين بالأندلس نفسها. فما استكانوا حتى استبد بهم ملوك الطوائف من قضاة أو وُلات الأقاليم بدعم من الحاميات العسكرية البربرية، أو من قادة تلك الحاميات. وتأمل ذلك مرة أخرى في كتاب التبيان لعبد الله بن بلّقين رابع وآخر ملوك الطوائف بغرناطة، لما قال : "كان أهل البيرة في بسيط من الأرض. وكان بهم من الغش بعضهم لبعض ما إن الرجل منهم ليتخذ بإزاء داره مسجدا وحماما فرارا من جاره. لا يرجعون إلى طاعة ولا حكم وال[4]. وكانوا مع هذا من أجبن الناس"[5]. فصار كبار القوم بالمدينة يستجدون استبداد قائد حامية الجيش من البربر حينها، كي يحمي الناس بسلطته المطلقة من شر وبأس بعضهم على بعض. وقال في ذلك الأمير بن بلقين : "فجاؤوا شاكين مما هم فيه. ويقولون 'إن كنتم جاهدتم قبل اليوم فهذا الجهاد آكد عليكم : أنفس تحيونها، وديار تحمونها، وعزة تأوون إليها. ونحن شاركوكم بأموالنا وأنفسنا. لكم منا الأموال والسكنى، ولنا منكم الحماية والذب عنا"[6].

فما الفرق بين عرب الأندلس وشعب روما العتيقة. في الأندلس الوحدة المتراصة في القاعدة كانت هي فقط الأسرة الصغيرة بكل بيت. ذلك البيت الذي اتخده كل فرد من نفس الأسرة مسجدا وحماما فرارا من جاره لما سقط البنيان الذي كان يجمعهم فقط بقوة السلطان بالمركز. فالسلطان بالمركز هو صانع ذلك المجتمع المُتفتت ككومة الرمل في الكف. وما أن يزول السلطان حتى ينهار البنيان. أما العائلات العريضة والواسعة في روما فقد شكلت على الأرض وبعيدا عن المركز، أحزابا سياسية متماسكة ومهيكلة بعرى

[1] من اللاتين ومن الصابيين

[2] ملكهم الذي كان شريكا في الملك مع روميلوس حتى حين اغتياله.

[3] Édouard **LABOULAYE** *Histoire politique des États-Unis: depuis les premiers essais de colonisation jusqu'à l'adoption de la constitution fédérale, 1620-1789*, Charpentier, Paris, 1867, p VI

[4] وقد زال حينها المستبد بقرطبة الذي كان يحكم الوالي باسمه

[5] طيبي، أمين توفيق ،"التبيان" لمؤلفه الأمير عبد الله بن بلقين، منشورات عكاظ، 1995، ص 18

[6] المصدر نفسه، ص 19

الدين العائلي. بل هي التي صنعت السلطان بالمركز. هي التي صنعت فيها العرش ومجلس الشيوخ من مائة عضو أو مائة ملك. ولما مات الملك بقي العرش كمؤسسة شاغرة بمعية المجلس من مائة ملك. مؤسستان من صنع العائلات البطريقية التي بقيت بدورها قائمة ومتماسكة كالبنيان المرصوص بمقوماتها الذاتية. كان الإسمنت الذي يجمع بقوة بين أفراد أسرها مزيجا بين وحدة الدين العائلي ووحدة النسب.

وذلك هو النظام الذي ينطلق بناؤه من الأسفل، ويقترحه اليوم الأستاذ قيس سعيد. نظام حكم متشكل انطلاقا من الأسفل على الصعيد المحلي من وحدات اجتماعية منتظمة على شاكلة انتظام أهالي الإقامات السكنية بالملكية المشتركة، تنتخب مجلسها البلدي المسؤول أمامها فتراقبه وتحاسبه مع إمكانية سحب الثقة من أي من أعضائه. ثم يتشكل مجلس جهوي من مجموع رؤساء المجالس البلدية ويكون مسؤولا أمامها. ثم تتشكل الحكومة الوطنية من مجموع رؤساء المجالس الجهوية وتكون مسؤولة أمامها. نظام سياسي عتيق بإيطاليا واليونان تشكل فيه التجمعات السكنية المحلية أحزابا سياسية ومن دون أحزاب سياسية وطنية.

لكن يتعذر استنساخه في دولة قائمة الأركان مهما كان نوع نظام الحكم فيها. هو نظام حكم قد ينشأ فقط مع نشأة دولة جديدة في حجم محدود جدا، وحيث تكون الفوراق الاجتماعية بين مكونات شعبها شبه معدومة. حينها تكون فيها شؤون الحياة العامة الداخلية بسيطة ويكون اقتصادها بسيطا فيكون إجماع على الصالح العام من دون تضارب مع المصالح الشخصية لأفرادشعبها. لكنه نظام حكم لا يدوم طويلا. فما أن تتعاظم فيه تلك الفوارق الاجتماعية حتى ينقسم المجتمع إلى ئاتآت غنية وأخرى متوسطة الحال وفقيرة. وتتعقد فيه الحياة العامة ويتم الاختلاف فيه على الصالح العام بسبب تضارب المصالح بين فئاته. فيحتاج حينها إلى نخب سياسية محترفة تديره وتدبر الخلاف فيه. نخب تنتظم حتما في حزبين سياسي أو أكثر. أحزاب مهيكلة لكنها غير مستقلة عن مختلف فئات المجتمع. غير مستقلة تماما عن الكتلة الناخبة في إطار التنافس فيما بينها على أصواتها. وغير مستقلة عم تكتل اللوبيات الاقتصادية. لوبيا لا تحتاج للانتخاب بنفسها، لكنها تشارك فيها بقوة عبر الأحزاب التي تمولها، في مقابل أن تراعي مصالحها لما تكون في الحكم. ومن مثل تلك الضغطات على الحزبين بالولايات المتحدة ضغوط المجتمع لمنع الحرية في بيع وشراء وحمل السلاح وضغوطات مصنعي وتجار السلاح. وحتى يومنا هذا ظلت ترجح كفة الفئة الثانية على حساب أمن وسلامة الفئة الأولى بالرغم من الفواجع المتكررة التي تتسبب فيها.

هكذا تكون الأحزاب كالشر الذي لا بد منه، والتي لا تستقيم الحياة في دول العالم الحر الحديث من دونها. فيتعذر استنساخ ذلك النظام البدائي والبسيط كالذي ينادي به رئيس تونس الجديد قيس سعيد في دولة قائمة بأحزابها السياسية. لأنه نظام يفضي إلى تهميش السياسيين المحترفين في تلك الأحزاب لصالح مستقلين محليين جلهم سياسيون هواة. زد على ذلك العديد من الأسئلة التي ستظل عالقة حولة فعالية مشروعه. إلى حين توضيحها سيبقى التفاعل معها من نصيب الأحزاب السياسية في المجالس التشريعية التي لن تحكم على نفسها بالإعدام ؟ ثم في حال ما قبلت بذلك الانتحار هل ستقبل به القوى الرأسمالية النافذة التي تحتاجها لقضاء حاجياتها بالتوفيق بين مصالحها وبين مصالح باقي فئات الشعب ؟ بالطبع لا. الذي يوازي ضغط تلك القوى على الأحزاب السياسية هو ضغط المجتمع المدني.

ثم إن ذلك النظام البدائي البسيط هو الذي كان يصنع الدولة وليس العكس كما حصل في المدن العتيقة بإيطاليا واليونان وفي أرخبيل البندقية عند نشأة الجمهورية في أواخر القرن السابع وفي مستوطنات البرتستنت الطهرانيين بشمال أمريكا منذ سنة 1620م انطلاقا من مستوطنة بليموث. والمشترك بينها كان هو ما تميز به المعتقد الديني الذي شكل اللحمة بين الأفراد وهيكل الشعوب من القواعد في وحدات دينية متراصة وقوية تشكلت منها السلطات المحلية، ثم تآلفت وكونت بلديات مستقلة تتحكم فيها. ثم من مجموع بلدياتاتها شكلت مدنا وأقاليم تتحكم فيها كذلك. وشكلت أخيرا من مجموع الأقاليم الدولة بالمركز والتي كانت تتحكم فيها أيضا.

لكن تلك التجمعات البشرية المحلية بدأت تتفكك وتضعف لما بدأ يتلاشى المعتقد الديني الذي كان يجمع بين أفرادها مع مرور الوقت، وبسبب الاختلاط بالوافدين الجدد وتنامي الفورق الاجتماعية فيما بينها، وتعقّد الحياة الاجتماعية والاقتصادية. ففقدت بذلك محليا وجهويا ووطنيا السيادة التي انتقلت إلى أحزاب سياسية وطنية مع ما من ورائها من قوى اقتصادية نافذة لتستبد بالبلديات وبالأقاليم وبالحكم بالمركز. ومع ذلك ظل يقال أن الشعب فيها هو صاحب السيادة بمجرد أنه ينتخب أعضاء المجالس البلدية والمجالس الجهوية والبرلمان وحتى الرئيس في الجمهوريات. إلا أنه لم يعد مهيكلا كما كان في البدء. فلم تعد له أدوات إعداد برامجه الخاصة لتحقيق ما يريد التي كانت له في بيئة بسيطة للغاية. ووقع بذلك تحت رحمة برامج الأحزاب السياسية الوطنية التي أخذت مكانه وأخذت منه السيادة. وأصبح أعزلا من دون أدوات الرقابة الفعالة كي يحاسبها على وعودها الانتخابية. بذلك صار عمليا هو الحلقة الضعيفة بل الأضعف في الدول المفترض فيها أنها ديمقراطية. وبذلك فهي في الواقع دول "حزبقراطية" particratie ، بمعنى دول السيادة فيها من نصيب الأحزاب الوطنية وليست من كما ينبغي من نصيب الشعوب المتفتتة.

ولاحظ معنا حديث المؤرخ تيت ليف المتوفى سنة 17 م، عن الحرية التي عاش هو في كنفها لما كان شعبه يتمتع بها في داخل أسوار حاضرة المدينة حتى أواخر عمر الجمهورية الرومانية، ثم عاش تحت نيْر استبداد الإمبراطورية لما تفسخت المقومات التي كانت تجعل من الشعب هو صاحب السيادة بروما، فتأسف على زمان الحرية بقوله في مقدمة كتابه : "بالنسبة لي أجد في هذا العمل مزية كبيرة. سيلهيني ولو لفترة عن التفكير في هذه المشاهد المؤلمة التي يعرفها عصرنا منذ مدة طويلة...وفي المحصلة، فإما أن أكون مخطئا في تقديراتي، أو ما كانت يوما جمهورية أكبر عظمة من روما ولا أكثر قداسة ولا أكثر عطاء من الإنجازات الهائلة. ولا توجد جمهورية بقيت مثلها طويلا مغلقة في وجه الترف ومن دون الظمأ للثراء، ولا بقيت مثلها وفيّة للزهد وللتقشف بقدر ما كانت تُوائم بين رغباتها وإمكانياتها. فقط في أيامنا هذه، ظهر البخل والتقتير بسبب الثراء الفاحش والتعاطي الجامح لإشباع الشهوات. لا أدري أي غضب سيصيب الدولة كي يرديّها في الحضيض بسبب ما هي منغمسة فيه من ترف ومجون.".


رسم يظهر فيه الوصي على العرش يتقدمه حراسه الإثنى عشر

وبخصوص ما آلت إليه الأوضاع بروما من بعد موت روميلوس يقول تيت ليف : "لكن مدينة من دون حكومة ولا جيش ولا قائد، ومحاطة بدويلات صغيرة عديدة كانت في حال فوران دائم، جعلت مجلس الشيوخ يخشى من هجوم مفاجئ من طرف بعض الشعوب الأجنبية[1]. فالشعور بالحاجة لقائد يحمي روما كان تحصيل حاصل. لكن ما كان أحد من الفئتين على استعداد للتنازل على القيادة لغيره. ثم حصل أخيرا الاتفاق فيما بينهم على حل وسط. فقسّموا مجلسهم المكون من مائة عضو إلى عشر مجموعات من عشرة أعضاء. واختارت كل مجموعة عضوا منها لمزاولة السلطة. فصار الحكم بذلك جماعيا. لكن قيادة ذلك الحكم الجماعي كان يتجسد بحمل واحد من العشرة لشارات السلطة لمدة خمسة أيام بالتناوب فيما بينهم. كان يتميز عنهم بالمشي مسبوقا بالحراس.".

وقد تستغرب من ذلك التوافق السلمي المتوازن فيما بين أعضاء مجلس الشيوخ. لكن لم يكن لهم من خيار غير التوافق للحفاظ على الدولة ومؤسساتها وعلى قوتها في وجه القوى العدوانية من حولها. أما الاقتتال فمستبعد لما كان فيه من تدمير شامل لهم كلهم ولعائلاتهم. ثم يقول تيت ليف : "هكذا ظلت الملكية معلقة لمدة سنة. وسُميت بفترة الوصاية على العرش **l'interrègne**[2]، المعمول بها حتى اليوم[3]. حينها اشتكى الشعب

[1] لاحظ ما يؤكد هنا ضرورة دوام اختصاص واهتمام مجلس الشوخ بالشؤون الخارجية والدفاع حتى في حال فراغ العرش.

[2] فترة فراغ العرش الفاصلة بين عهدي ملكين.

[3] أي في زمن المؤرخ تيت ليف

وبقوة من استفحال الاستبداد به. كان يقول أنه بدلا من أن يكون له ملك واحد صار له مائة ملك[1]. فكان عازما على ألا يبقى من دون ملك، وأنه سيختاره بنفسه". فمن اختار ؟ وكيف ؟

عهد نوما ثاني ملك منتخب (715 ق.م. – 673 ق.م)

حتى الآن ظل الكلام عن الكبار بمجلس الشيوخ لوحدهم كفاعلين سياسيين في ظل شغور العرش. مجلس لم يكونوا منتخبين من طرف الشعب المكوّن من الطبقة النبيلة الموزعة بين العشائر الثلاثين من اللاتين ومن الصابيين. بل تم بالتعيين من طرف روميلوس بتفويض من الشعب صاحب السيادة. فدخل الشعب على الخط كفاعل سياسي ضد ما اعتبره استبدادا جماعيا بالسلطة في شؤونه الداخلية والقضاء. هكذا لم يكن الشأن السياسي مجرد شأن أفقي فيما بين الكبار، بل كان وظل كذلك شأنا عموديا بين الكبار في المركز وعموم المواطنين من طبقة النبلاء أصحاب السيادة في القاعدة. ذلك ما أتاحته ظروف الدولة في حجم مدينة وطبيعة المجتمع الدينية الخاصة. أمران لم تعرفهما غالبية شعوب الدول الشاسعة الأطراف التي كانت طبيعة الملك فيها هي الانفراد بالمجد، كما جاء في مقدمة ابن خلدون[2]. ما كانت الشعوب فيها سوى كمّا هملا بصفتها رعية في ملك الراعي، كالقطيع الأنعام. لذلك كانت تُنعث في أدبيات الإخباريين بالدهماء والغوغاء، من باب الاستخفاف بها والتقليل من شأنها. ما كانت تشتغل بالسياسة. وما أن تثور أحيانا ضد الفساد حتى تُقمع بشراسة، فلا يعلو لها صوت من بعد ذلك. حينها يبقى الصراع العنيف والدموي على السلطة أفقيا بالمركز بين الكبار في حروب أهلية طاحنة من فوق رأس الشعوب التي تنتظر المنتصر فيها كي يستبد بها ويعيد لها هدوءها وأمنها.

وفي ظل ذلك الاستبداد كان رجال الدين يفتون شعوبهم بالأخذ بمبدأ "من غلبت شوكته وجبت طاعته" تفاديا للفوضى والدمار الذي لا يبقي ولا يدر. والشعوب المستأنسة بالاستبداد لا تتطلع للحرية أصلا، بل تخشاها باعتبارها مصدرا للفوضى. وبالفعل ما أن يزول نير الاستبداد من على رقابها حتى تدخل في هرج ومرج مآسيه أسوأ بكثير من شطط وبطش الاستبداد. حينها تبحث عن مستبد جديد ليعيد لها أمنها واستقرارها.

ومن الحيف الحكم على المستبد أيا كان، بأنه ظالم وأن شعبه الوضيع ضحية. لو لم يكن زيد هو المستبد لكان مكانه عمرو أو غيره. فالعلاقة بين المستبد والشعب الوضيع المستأنس بالاستبداد علاقة طبيعية إلى أبعد الحدود. ليس فيها ظالم ولا مظلوم. ولا بديل لهما عنها ما دام الشعب وضيعا مستأنسا بالاستبداد، ولا يرى نفسه سيد نفسه ومحكوما بتفويض منه ووفق إرادته الحرة. لكن حينما يشعر الشعب بالاستضعاف، ويتوق للحرية كي يكون سيد نفسه، حينها فقط يكون من يستبد به ظالما إن هو أصر على الاستبداد به، وكذلك يفعل. وتلك كانت حالة عوام روما من بعد بدايات عهد الجمهورية. صاروا يشعرون بالاستضعاف. وبدلا من السقوط في أتون الفوضى لجأوا للجبل المقدس مسالمين يطالبون خصومهم البطريقيين بإنصافهم ونزع نير الاستبداد من على رقابهم.

وبخصوص من يخلف روميلوس يقول تيت ليف : "مع ذلك الضغط من الشعب توصّل أعضاء مجلس الشيوخ إلى القناعة بضرورة تدبير تنازلهم عن استبدادهم الجماعي بالسلطة حتى لا تُنزع منهم بالقوة[3]. وقد فعلوا. إلا أنهم أبقوا منها بأيديهم أكثر مما تنازلوا عنه[4]. ذلك أنهم اشترطوا في حق الملك الذي يختاره الشعب ألا يُنصّب إلا من بعد موافقة

---

[1] ويعني بذلك استبداد العشرة من بين أعضاء مجلس الشيوخ

[2] الفصل العاشر الانفراد بالمجد من طبيعة الملك من كتاب المقدمة لابن خلدون

[3] لأنهم بكل بساطة غير منتخبين ولا مفوضين لمزاولة سلطة تدبير الشؤون الداخلية والقضاء التي هي في ملك الشعب صاحب السيادة وليست ملكا للمجلس. فيفوضها لمن يريد باختيار حر منه.

[4] وتلك طبيعة فئة الكبار حتى اليوم وفي كل مكان لما يشكولون أحزابا سياسية وطنية. يميلون دائما للهيمنة حتى على بعضهم البعض ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. يهيمنون بمقدار ما يجدون في غيرهم فرصة لذلك. أما الشعوب فلا تصبوا سوى إلى المساواة ما استطاعت إلى ذلك سبيلا. ولا يتاح لها ذلك سوى بمقدار ما تكتسب من قوة للتدافع مع الكبار. ومن بين ذلك ما يعرف اليوم بالمجتمع المدني كقوى منظمة للضغط.

مجلسهم عليه. وانتزاع مجلس الشيوخ لهذا الامتياز دام حتى اليوم[1] بالنسبة لسن القوانين وللتّعيين بمناصب السلطة التنفيذية، وإن صار مجرد امتياز شكلي ومن دون فائدة. لكن في ذلك الزمان، وفي انتظار تنصيب الملك الجديد، استدعى الوصي على العرش الهيئات العشائر وقال فيها : "أيها الرومان، باسم المجد، ورفاه وازدهار روما، عينوا ملككم بأنفسكم. فتلك إرادة مجلس الشيوخ. نحن من بعد ذلك سنوافق على اختياركم إن كان من اخترتموه يستحق أن يخلف روميلوس". فكان الشعب مزهوّا بما اعتبره تنازلا من مجلس الشيوخ. وحتى لا يظهر أقل تواضعا منه تنازل عن ذلك العرض وفوض له اختيار من يريد ملكا".

فقد كانت هناك مؤسستان، وهما مجلس الشيوخ والهيئات العشائر Les comices curiates، المألفة من ثلاثين عشيرة. وكل عشيرة كانت تتشكل من ائتلاف حر بين عدد غير محدد من العوائل البطريقية. وبتفويض الهيئات لصلاحياتها في انتخاب الملك لمجلس الشيوخ، نال هذا الأخير امتيازا أكبر مما توقعه وخطط له. لكن في المرات اللاحقة لن تفوض له مرة أخرى تلك الصلاحية. وقد كان ذلك أمرا جليلا يُحسب للرومان كتراث سياسي أملته الظروف السياسية بالمدينة والتقاليد الدينية والسياسية والاجتماعية التي كانت سائدة بإيطاليا وباليونان العتيقتين، وليس لأن شعوبها كانت أذكى من باقي شعوب العالم.

ثم يقول تيت ليف : "في ذلك الزمان كان Numa Pompilius معروفا بعدله وبتقواه. كان مستقرا بمدينة Cures ببلاد الصابيين les Sabins. وتعود خصاله الحميدة لما عُرف به الصابيون من انضباط. كانوا الأمة الأكثر زهدا في تلك العصور القديمة[2]. ولم يجد أي من أعضاء مجلس الشيوخ من هو أفضل من Numa Pompilius لاعتلاء عرش روما، لا من بين أعضائه ولا من بين باقي المواطنين. فقرر المجلس تنصيبه ملكا على المدينة". ونفهم من هذا الخبر أن روميلوس لم يضم إلى شعب روما سوى الجزء من شعب الصابيين الذين لجؤوا من بلادهم إلى الهضبة الشمالية بروما. وأن بلادهم الأصلية ظلت قائمة شرقا بمن بقي فيها من أهلها حرة ومستقلة. ثم كان لا بد من وجود رجل مثل Numa Pompilius مُجمع عليه ومن خارج روما كي يخلف روميلوس. فعدله وتقواه كان مسألة ضرورية بالنسبة لمجلس كانت فيه بلا شك مختلف القوى متوازنة. وبالرغم من كونه من فئة الصابيين ما وُجدت في المجلس قوة متميزة عن غيرها كي تكون قادرة على فرض رجلها المتحيز لصالحها وعلى حساب البقية.

وبحسب التقاليد الدينية بإطاليا وباليونان ما كان النبلاء يستطيعون الاستغناء عن استشارة آلهتهم قبل تنفيذأي قرار. بلا شك فعل ذلك الرومان بخصوص تنصيب Numa ملكا عليهم ووافقت آلهتهم على ذلك. لكن ماذا عنه هو ؟ قال في ذلك تيت ليف : "لكن Numa Pompilius أراد استشارة الآلهة بخصوص انتخابه، على غرار ما سبق أن فعله روميلوس لما شاء تأسيس المدينة واعتلاء عرشها. فأخذه الكاهن المختص بالتواصل مع الآلهة إلى معبد الإله جوبتير بجبل الكابطول[3]. ومن بعد ما قام بطقوس أوّلية[4]، وضع يده على رأس نوما وقال : "جوبتير العظيم، إذا كانت مشيئة الآلهة مع تعيين نوما ملكا على الرومان، أخبرنا عن ذلك بإشارات واضحة في الفضاء الذي عينته". فظهرت للكاهن تلك الإشارات التي كان ينتظرها، وأعلن نوما ملكا على عرش روما، ثم غادرا كلاهما المعبد". الإجراء خرافي بالنسبة لنا. لكنه ليس كذلك بالنسبة لهم. والمهم هو آثاره في السياسة. فقد كان له أهميته في جعل المؤسسات وقوانينها ومنظومة القيم فيها مقدسة يحرم تدنيسها بمخالفتها وخذلانها.

وسيشير تيت ليف لاحقا إلى تدوين الكهنة لتلك المناسبات في سجلات وإلى تركها مرتبة بالمعبد، كي يرجعوا إلى التلاسيم التي بها يعتقدون أن الآلهة قد تفاعلت معهم بها. فكان من شأن تلك السجلات أن شكلت أرشيفا يوثق للأحداث المهمة في تلك العصور. إلا أن قبائل قوم بلاد الكُول، وهي فرنسا الحالية،

[1] حتى عهد كتابة تيت ليف لمؤلفه هذا في ظل الإمبراطورية التي نشأت أثر انتهاء عهد الجمهورية الزاهر.
[2] وتأمل منظومة القيم النبيلة التي كانت سائدة في ذلك الزمان وحتى زمان المؤلف تيت ليف. لم أترجم مناقشة تيت ليف لقول من يزعمون أن تكوين نوما كان على يد الفيلسوف اليوناني بيطاقور، والتي لا يصدقها هو نفسه. سوى أنه كروماني نلمس من خلاله ما كان من أهمية وشأن كبير للفلسفة ولباقي الفنون والعلوم في تلك العصور باليونان وبروما.
[3] الذي أسسه وبناه روميلوس
[4] أعفيك من ترجمة تفاصيلها

احتلت روما في عهد الجمهورية وأحرقت كل تلك السجلات. لكن الكهنة استمروا في تسجيل الأحداث من بعد التغلب عليهم وطردهم واسترجاع روما. فشكل ذلك الأرشيف مرجعا وثق بفضله تيت ليف الأحداث اللاحقة منذ تلك الحقبة.

تعزيز المنظومة الأخلاقية.

نشبت حروب عديدة ومتتالية ضد روما من طرف الجيران المتخوفين من هذا الكيان الجديد. فخشنت بذلك طباع الرومان ضد الأجانب بحق وبباطل. ولا يمكنهم الاستغناء عن غيرهم من حولهم. كما كانوا في حاجة للمزيدمن الوافدين إلى مدينتهم من المهندسين المعماريين والحرفيين والمعلمين لسد حاجياتهم الاجتماعية. كما كانوا في حاجة لقضاء للسفر إلى باقي المدن لقضاء من أجل التجارة وغيرها. لذا كان لا بد من تليين طباعهم الخشنة نحو الأجانب. فلا يظهرونها إلا عند الحاجة لما يتحرشوا بهم. ذلك كان أحد عناصر برنامج الملك نوما السياسي. فقال في ذلك تيت ليف : "Numa Pompilius، وهو منذ الآن صاحب العرش، أراد للمدينة الناشئة أن تكون في عهده مؤسسة على العدل والقانون وحسن الخلق، من بعد ما قامت بالأمس على أساس العنف والسلاح. ولما ظهر له استحالة قبول برنامجه في جو عمته الحروب المتتالية وشحنت العقول بطباع قتالية شرسة، قرر البداية بتلطيف ذلك المزاج العنيف بحرمانه تدريجيا من الفكر الذي كان يغذيه[1]. لهذا الغرض شيّد معبدا للإله جانوس Janus[2]، كرمز للسلم والحرب. فكان في فتح بابه إشارة للمواطنين على النفير وحمل السلاح. أما كونه مقفلا فكان علامة لكل المواطنين على حال السلم مع الشعوب المجاورة.

ولما أقفله، من بعد عقد معاهدات سلام مع الجيران ووثق بذلك اتحاد روما معها، وأزال المخاوف من عودة الخطر الخارجي، خشي من تفشي فساد أخلاق الرجال بسبب العطالة. خشي من ظهور الفساد الذي ما كان يكبته حتى ذلك الوقت سوى جو الحرب والخوف من العدو. فقدر أنه باستطاعته أن يلطف من خشونة وغلظة سلوكيات تلك الجموع ومحو جهلهم، بغرس الشعور العميق بالخوف من الآلهة في نفوسهم. لكن ما كان بالإمكان تحقيق ذلك من دون أن تتدخل الخوارق. فادعى أنه كانت له محادثات في رؤيا ليلية مع الإلهة إيجيري Égérie. وللالتزام بأوامرها كان يقول أنه من الواجب إقامة الطقوس الدينية الجماعية الأكثر إرضاء للآلهة مع طقوس أخرى خاصة بكل منهم.

وقبل كل شيء قسّم نوما السنة إلى إثنى عشر شهرا قمريا. وبما أن عدد أيام الشهر القمري ليس دائما ثلاثين يوما، وأن السنة القمرية أقصر من السنة الشمسية، عوض نوما ذلك النقص بشهور بينية، حتى تتحد بذلك بداية السنة القمرية مع بداية السنة الشمسية كل أربعة وعشرين سنة. حدد أيضا أيام السعد وأيام النحس[3]، لأنه توقع ضرورة تعليق الحياة السياسية أحيانا".

وسيكون في عهد الجمهورية لمعتقد يوم السعد ويوم النحس، دور في السياسة. ذلك من حيث سيكون لمن له السلطة العليا أن يوقف ويؤجل اجتماعات مؤسسات دستورية كاجتماع مجلس الشيوخ وإجراء انتخابات والتصويت على قوانين وعقد جلسات المحكمة، بحجة أن اليوم يوم نحس لا ترضى فيه الآلهة عن أي من تلك الإجراءات. ورجل الدولة الذي من صلاحياته استدعاء تلك المجالس هو الذي كان يقرر ذلك بصفته كاهنا كذلك. تلك كانت ذريعة تُعتمد كلما رأى صاحب السلطة في تلك الإجراءات السياسية مخاطر على أمن وسلامة الدولة وتقتضي التأجيل حتى تنضج القرارات الصائبة. والفضل في ذلك يرجع كما رأيت للملك Numa Pompilius.

ثم يقول تيت ليف : "ففكر الملك نوما في خلق كهنوت رسمي، بالرغم من أنه كان يتكلف بغالب المهام التي يقوم بها اليوم خادم الإله جوبتير le flamine. كان يتوقع أن روما العسكرية سيكون لها ملوك أكثر تشابها مع روميلوس من

---

[1] وذلك من حكمة الرجل الذي كان يعي العلاقة الجدلية بين الفكر والواقع. لكل واقع فكره الذي أنتجه. وتغيير الواقع يقتضي بداية تغيير الفكر. والفكر الجديد يولد واقعا جديدا. وفي هذا درس وعبرة لكل المفكرين والسياسيين الذين يواجهون التطرف باسم الدين. فكر المتطرفين هو فكر من إنتاج أخبار الماضي التي تبجل العنف. فمراجعة قراءة أخبار الماضي وفق منظومة قيم دين الحق من شأنها إنتاج فكر جديد ليؤسس للواقع السلمي المنشود.

[2] وهو إله السلم والحرب في الأساطير الرومانية، ومجسّد برأس له وجهين. أحدهما ينظر لعهد الحروب بالماضي والآخر لعهد السلم بالمستقبل. ويظل المعبد مقفلا في حال السلم فلا يفتح إلا في حال الحرب

[3] *les jours fastes et les jours néfastes*

تشابههم معه هو. ملوك يسيرون للحروب وهم في مقدمة جيوشهم. وخشية طغيان مهامهم العسكرية على مهامهم الدينية، أنشأ Numa منصب راهب le flamine خاص بخدمة الإله جوبتير، لا يفارق أبدا مذبح معبده[1]. فألبسه شارات الجلال ووهبه كرسيا مثل عرش ملوك روما la chaise curule. ثم ألحق بنفس المعبد راهبين، أحدهم لخدمة الإله مارس Mars والثاني لخدمة الإله كيرينوس Quirinus. وأضاف لمجموع أولئك الكهنة مجمّعا من الراهبات العذارى des Vestales. كان ذلك من تقاليد اللاتين. وهو أمر ليس بغريب عن أسرة روميلوس مؤسس روما[2]. وخصّصهن براتب من خزينة الدولة حتى يتفرغن لمهامهن الدينية[3].

هكذا صار الشعب الروماني يعرف من أين يغرف حاجياته الروحية، فلم ينسى الدين بطقوسه وشعائره الوطنية، المحلية والأجنبية التي صبغت كل مراحل حياته الخاصة والجماعية. صار للمدينة كاهنها الوسيط Le grand pontife[4]، يخبرهم بمشيئتها وبغضبها وبتنبؤاتها بالصواعق وغيرها من الظواهر الكونية، والتي كانت تتطلب من الشعب استغفار الآلهة للتكفير عن ذنوبه.



إحدى الراهبات تسهر على بقاء نار المعبد مشتعلة — لباس وكرسي الملك بروما — نماذج من كراسي ملوك روما

كل تلك التدابير ذات الطابع الديني جعلت الشعب ينشغل بما يكسب به رضا الآلهة بدلا من انشغاله بالحروب وبالسلاح[5]. ومع تنامي ذلك التديّن في مدينة روما صارت الخشية من غضب الآلهة عند المواطنين أقوى من خشية عقوبات القوانين. وصار الملك Numa هو المثل الفريد، حتى كان الجميع يقتدي بتدينه وبأخلاقه الفاضلة[6]. وهكذا، الشعوب المجاورة التي كانت حتى وقت قريب لا ترى في روما سوى ثكنة عسكرية مستتبة في وسطهم وتهدد أمنهم، بدأت شيئا فشيئا تكن لها قدرا كبيرا من التبجيل، لدرجة كانت تعتبر معها أدنى عدوان ضد هذه المدينة المكرسة كلها لخدمة الآلهة بمثابة تدنيس للمقدسات. وأجمل وأروع منجزات الملك Numa، طوال عهد ملكه، كان الحفاظ على السلم وعلى صلابة المؤسسات. هكذا ساهم ملكان في عظمة روما. ساهم فيها الأول بالحرب والثاني بالسلم. حكم روميلوس أربع وثلاثين سنة[7] وحكم نوما مدة ثلاث وأربعين سنة[8]. كانت حينها روما قوية. والفنون التي اكتسبتها من الحرب ومن السلم طورت حضارتها".

عهد Tullus ثالث ملك منتخب (672 ق.م. – 641 ق.م.)

---

1 وهو الأمر الذي ما كان يستطيع القيام به ملك في حال خروجه من المدينة للحرب

2 لعل المؤلف يشير بذلك إلى أم التوأمين ريموس وروميلوس التي عينها عمها المغتصب لعرش أبيها راهبة كي تبقى عذراء حتى لا تنجب أبدا أولادا.

3 نكتفي بذلك مع الإشارة إلى أنه في النص هناك بقية لذلك الكهنوت وبرنامج سنوي من الطقوس الدينية العمومية.

4 *pontife* بمعنى وسيط بين الآلهة والبشر، من كلمة قنطرة *pont* أي قنطرة بين الآلهة والبشر. وهي ربما أصل لقب الحبر الأعظم *le pape* على رأس الكنيسة المسيحية التي نشأت في عهد الإمبراطورية منذ أن اعترف الإمبراطور قسطنطين سنة 313م بالمسيحة كدين رسمي للدولة.

5 من بعد ما أمّن الملك نوما مدينة روما من الخطر الخارجي بمعاهدات سلام مع كل الجيران الذين سبق لهم أن خسروا كل الحروب التي خاضوها مع روما. وبتلك المعاهدات اطمأنوا من جانبهم على أمنهم من تهديداتها.

6 والمؤرخون يلقبونه بـ "نوما الطيب" *le bon Nouma*

7 (753 ق.م. - 715 ق.م.)،

8 (715 ق.م. -673 ق.م.)

دام عهد نوما الطيب ثلاث وأربعين سنة من دون حرب. يقول تيت ليف : "موت نوما جلب مرة أخرى فترة الوصاية على العرش interrègne، إلى حين انتخاب الشعب Tullus Hostilius ملكا". والشعب في ذهن تيت ليف هنا يتشكل فقط من الهيئات العشائرية من دون العوام. في المرة السابقة كان مجلس الشيوخ هو الذي اختار نوما ملكا بتفويض من الشعب. وهذه هي المرة الأولى التي مارس فيها الشعب مباشرة صلاحياته في انتخاب الملك كما سبق ان سن ذلك مجلس الشيوخ.

قد تتساءل وبحق عن نمط الاقتراع الذي انتُخب به الملك والذي لم يفصّل فيه المؤرخ تيت ليف. تستشف ذلك فقط من الدراسات والبحوث في هذا الموضوع، والتي تقول أن العشائر الثلاثين كانت تجتمع بمن حضر في الساحة العامة باستدعاء من الوصي على العرش. ثم كان يطرح عليها السؤال المستفتى فيه. فتفي بالتصويت على مرحلتين. يتم التصويت بلا أو نعم في المرحلة الأولى داخل كل عشيرة على أساس صوت واحد لكل رجل حاضر من رجال العوائل المشكلة لها من بعد مناقشة الموضوع المسفتى فيه. ونتيجة الفرز بنعم أو لا كانت تعد بصوت واحد للعشيرة. وفي المرحلة الثانية كان يتم الحسم في موضوع الاقتراع بالأغلبية البسيطة لصالح الجواب بنعم أو بلا الذي حصل على ستة عشر صوتا وما فوق من أصوات العشائر الثلاثين المعبر عنها. وحق التصويت في كل عشيرة كان مقتصرا على الرجال أرباب الأسر البطريقة من دون غيرهم. وقد كان هذا النمط من الاقتراع كان فه امتياز للعشائر الصغيرة الحجم التي يقل فيها عدد الناخبين، على حساب العشائر الوفيرة العدد. لكن لم يعترض على ذلك أحد. لكن من يصلح ليخلف نوما في هذه المرحلة من تاريخ روما حتى يختاره يختاره الشعب ملكا جديدا ؟

رسم لاقتراع الرومان في العشيرة

حكم نوما مدة ثلاث وأربعين سنة لم تشهد فيها روما أية حرب. ورث من خلفه شعبا محاربا وخشنا في طباعه، وترك من ورائه شعبا آخر مسالما. وترك مجلس شيوخ آخر. لكنه كان قلقا جدا على أمن وسلامة روما في بيئة عدوانية من جيل جديد من الرجال لم يتعود على الحرب. فكان لا بد هذه المرة من اقتراح ملك خشن الطباع وشغوف بالحروب حتى يخرج رجال الشعب الروماني رخوتهم ومن دعّتهم ويجعل منهم قوة عسكرية شديدة البأس كحصن حصين ضد التحرش بمدينتهم وبحرية شعبها. فتم اقتراح Tullus Hostilius. وهو حفيد القائد الذي تألق في الحرب على الصابين بسفح القلعة[1] في عهد روميلوس. وقد كان يفتخر بذلك. وعرف بين الرومانيين بقلقه من طباعهم الوديعة والمسالمة، وبالرغبة الشديدة في إحياء الأمجاد العسكرية للآباء الأوئل. لذا كان هو ارجل المناسب في الوقت المناسب والصالح للمنصب المناسب فتم اقتراحه على الهيئات العشائرية كي تختاره ملكا خلفا لنوما. وتم له ذلك.

بانتخاب الهيئات لأول ملك تكرّس ذلك العرف كقانون ملزم مستقبلا. ودوّنه الكهنة في سجلات معبد جوبتير إله المدينة. وقد كانت تلك الأحداث وتلك القوانين من بين ما يُدرّس لأبناء الكبار وعلى يد العوام والعبيد كمدرسين. بذلك كانت القوانين معروفة على الأقل عند عموم الخاصة من الشعب. وكانوا يُشهدون الآلهة عليها وعلى قدسيتها حين سنّها، فلا يجوز التطاول عليها بالنظر لما كان في ذلك في اعتقادهم من تجديف وكفر بالآلهة ومن استخفاف بها من شأنه أن يصيبهم بغضبها. وقد تعززت خشية

[1] فهو إذا بطريقي بمعنى أصله من أوائل الأسر الرومانية. بخلاف الملك نوما الذي كان أجنبيا من بلاد الصابيين الذين تم ضم جزء منهم لروما وصار نسلهم من البطرقيين كذلك.

الآلهة في عهد الملك نوما، حيث قال في ذلك تيت ليف : "ومع تنامي ذلك التديّن في مدينة روما صارت الخشية من غضب الآلهة عند المواطنين أقوى من خشية عقوبات القوانين ".

هكذا على عكس سلفه، عُرف الملك الجديد Tullus Hostilius بكونه محاربا. فتميز عهده بهزيمة مدينة آلبا اللاتينية جنوبا، وأصبحت تابعة لروما. إلا أن حاكمها خان جيشها لاحقا في حربها ضد مدينة أخرى، فقبض عليه تولوس وأعدمه ثم أمر بتدمير مدينته وقام بتهجير مواطنيها إلى روما، حيث تم دمجهم وأصبحوا مواطنين رومان. كما خاض تولوس عدة حروب ضد مدن أخرى وانتصر فيها. وقد أورد تيت ليف القصة الكاملة لهزيمة المدينة اللاتينية التي دمرها الملك وضم أهلها إلى الرومان. لم نستطع مقاومة ترجمتها لك بالرغم مما جاء فيها من أخبار من خيال القصاصين لا تستقيم مع سيادة شعب حر. لكنها تسلي القارئ. ومعرفتها خير من جهلها.

فيقول تيت ليف : "كان الملك الجديد Tullus هو حفيد القائد الذي تألق في الحرب على الصابين بسفح القلعة. فكان أبعد من أن يشبه في طباعه الملك نوما. كان أكثر عدوانية حتى من روميلوس. شبابه وحزمه ومجد جده، كل ذلك كان يذكي فيه شجاعته. مع قناعته بأن الدولة يعمها التوتر بسبب طول جمود حالة السلم. فصار يبحث عن ذرائع للحرب في كل مكان". لكن ليس من دون إذن مسبق من مجلس الشيوخ المختص بالشؤون الخارجية والدفاع. وقد وُجد المجلس من مائة عضو بمثابة مائة ملك في وجه الملك المنتخب حتى لا يغامر ولا يقامر بأمن وبسلامة البلاد في حروب غير محسوبة العواقب. فكل ما سيقوم به الملك الجديد فيما يخص الحروب كان بلا شك بتفويض من المجلس. وهذا ما كان يتجاهله القصاصون في رواياتهم.

ويسترسل تيت ليف قائلا : "ثم شاءت الصدفة وشاء القدر أن كان مزارعون بوادي كل من روما ومدينة آلبا يقومون بتخريب متبادل للحقول فيما بينهم. بعث كل طرف للآخر وبشكل شبه متزامن مبعوثين لطلب التعويض عما لحقه من خسائر. لكن Tullus ملك روما كان هو من سبق بإرسال مبعوثيه لتقديم طلباتهم. وكان يتوقع رفضا من آلبا حتى تكون له بذلك ذريعة كي يشن عليها حربا مشروعة. لكن أهالي آلبا تماطلوا ومططوا مدة المفاوضات. ولما استقبل Tullus مبعوثيهم وأجلسهم على مائدته، نافسوه في إظهار مكارم الأخلاق والمجاملة. في الوقت نفسه كان المبعوثون الرومان يقدمون طلباتهم لأهالي آلبا الذين رفضوها". ولما يقول تيت ليف أهالي آلبا فيعني ذلك أن الشؤون الخارجية والدفاع لم تكن فيها أيضا بيد الحاكم لوحده. الأهالي هنا هم أعيان المدينة في مقابل مجلس الشيوخ بروما.

ثم يقول تيت ليف : "فأنذرهم مبعوثوا الرومان ببداية الحرب من بعد ثلاثين يوما. ثم أخبروا بذلك ملكهم Tullus. حينها فقط استدعى مبعوثي آلبا وطلب منهم ما المقصود من سفارتهم. ولجهلهم بما حصل، ولكسب الوقت، قدموا اعتذارات واهية، ووجدوا أنفسهم في وضع مغضب للملك بالرغم عنهم. لكنهم خضعوا لما تمليه عليهم الأوامر، فقالوا بأنهم مأمورين بطلبه بالتعويض عما لحقهم من خسائر وإلا توجّب عليهم إعلان الحرب على بلاده. فقال لهم : "أخبروا إذا ملككم بأن ملك روما يُشهد آلهة الشعبين[1] على أن من بدأ برفض طلب المبعوثين هو المسؤول عن العواقب الفادحة لهذه الحرب".

"فحمل مبعوثوا آلبا الخبر لملكهم. وبدأت الاستعدادات بحماسة للحرب بين الجانبين. كانت فيها كل مقومات الحرب الأهلية، لأنها تضع في المواجهة الآباء مع الأبناء[2]. كان للشعبين نفس الدم الطروادي الأصل[3]. أصل مدينة Lavinium طروادي[4]. وأصل آلبا من Lavinium . وأصل الرومان من ملوك آلبا. لكل تلك الاعتبارات التي خامرت نفوس الفريقين

---

[1] هذا مؤشر على ما كان للدين والآلهة الوثنية من تأثير فعلي وحقيقي في النفوس. كانوا كلما حصل لهم مكروه تجدهم حتما يفسرونه بغضب الآلهة عليهم. كانوا يخشونها أكثر من خشيتهم من بعضهم البعض. من ذلك توطدت بروما الخشية من الإخلال بالقوانين التي كانوا يشهدون على سنها الآلهة بمحضر كهنة المعابد، مع العلم أن كل الكبار في كل البلاد كانوا بطبيعتهم كأرباب بيوتهم كهنة بالنسبة لأسرهم.

[2] بحسب الأسطورة الأخوان روميلوس ريموس وُلدا وترببا وترعرعا بربوع آلبا الطويلة. وهما من أحفاد ملوكها. وقد تشكلت أول ساكنة روما من أبناء آلبا الذين تبعوا الأخوين لمكان تأسيسها.

[3] بحسب الأسطورة دائما فذلك نسبة لنسل من هاجر مع الأمير إيني من طروادة إلى إيطاليا قرونا من قبل.

[4] بحسب الأسطورة مرة أخرى، فقد أسسها الأمير إيني الطروادي وسماها باسم زوجته اللاتينية بنت الملك لتينيوس.

صار المخرج من المواجهة أقل فداحة، من حيث لم تتم الحرب في صفوف متقابلة، بل اكتفى كل من الطرفين بهدم بعد بيوت كل من المدينتين، وانتهت حتى باندماج الشعبين[1]"

لحد هنا القصة معقولة ومقبولة. سوى أن اندماج الشعبين كان يعني استسلام آلبا لروما التي قدّر مجلس أعيانها أن خصمه كانت هو الأقوى. وبدلا من أن يتركه يهزم جيشه ويدمر مدينته ويحول أهلها إلى عبيد ويستحوذ على كل أموالها كغنيمة، فضل الاستسلام إليه والوقوع تحت سيادته، فيحارب من حاربه ويسالم من سلمه. لكن كان للحدث في كتاب تيت ليف رواية أخرى أفضل وأمتع بالنسبة للسامعين. فأوردها في كتابه تحت عنوان المناولة البطولية بين الهوراس والكورياس. لم نجد على حدعلمنا من يشكك في واقعية تلك الرواية. لكنها لم تستقم في ذهننا لعدة اعتبارات معقولة. فهي في اعتقادنا من نسيج خيال القصاصين. وتصلح فقط كي تكون دراما جيدة للمسرح كما حصل مع الأديب الفرنسي كورناي، وللسينما كما حصل مع المخرج Young Terence سنة 1961 والمخرج Baldi Ferdinando سنة 1964. لكنها تسلي القارئ. ومعرفتها خير من جهلها. فماذا عن تلك المنازلة كما وردت كتاب تيت ليف ؟

المنازلة البطولية بين الهوراس والكورياس.

يقول فيها تيت ليف : "في البداية هاجم الآلبيون أراضي روما في جيش ضخم. لكن مع حلول الليل تجاوز الملك Tullus خطوط العدو وهاجم مدينة آلبا. الأمر الذي جعل ملكها في وضع كان يرى فيه العدو قد اقترب من صفوف جيشه، فأرسل رسولا إلى الملك Tullus يعرض عليه مقابلة فيها فائدة للطرفين، من قبل الشروع في الحرب. حينها لم يتلكأ Tullus في الاستجابة للطلب بالرغم من أنه ما كان ينتظر منه كبير فائدة. وضع جيشه في وضعية الهجوم وكذلك فعل ملك آلبا. تقدم جينرال من آلبا وقال للملك Tullus: "هجومات على أراضينا غير مشروعة، وغنائم منهوبة بالرغم من المعاهدات، طالبنا بها ولم تُرد، فكانت هي أسباب هذه الحرب. تلك هي على الأقل المبررات التي سمعتها من ملكنا، والتي ستقول بمثلها بلا شك من جهتك يا Tullus. من دون اللجوء لأعذار خادعة، وللتصريح بالحقيقة، فإن الجشع فقط هو الذي يجعل الشعبين الجارين يحملان السلاح ضد بعضهما البعض. هما شعبان تجمع بينهما روابط الدم. هل نحن نقوم بعمل جيد أم قبيح ؟ هذا ما لن أحسم فيه. ذلك يخص من تسببوا في الخصام. أما بخصوص هذه الحرب، وبوصفي قائدا لأهل آلبا، يجب علينا مساندتها. لكني أريد أن أعرض عليك أيها الملك Tullus رأيا بسيطا. نحن محاطون وأنتم كذلك، بأمة الإيتريسكيين la nation étrusque. والخطر كبير بالنسبة للجميع، ولا سيما بالنسبة لكم. تعلمون ذلك جيدا لكونكم الجار الأقرب منهم. الإتريسكيون جد أقوياء في البر وهم أقوى في البحر. تذكر أنه في الوقت الذي تعطي الإشارة باندلاع الحرب، ستكون عيون ذلك الشعب ترصد الجيشين وتنتظر حين نكون كلانا متعبين وضعفاء لينقض في الوقت نفسه على الغالب والمغلوب. بدلا من القناعة بحرية محققة، نغامر بها وننقاد للعبودية وكل منا يطمع في هيمنة على الآخر غير مضمونة. فباسم الآلهة، ومن دون خسارة فادحة بالنسبة للشعبين ومن دون سفك للدماء المشتركة، فلنبحث عن سبيل يمكننا أخيرا من تقرير من منا سيحكم الآخر"

"بالرغم من الأمل في النصر الذي كان يدعوه إلى ألا يساوم، لم يرفض ملك روما Tullus رفع ذلك التحدي. وبينما قائدا الطرفين كانا يبحثان عن مخرج للأزمة، إذا بالقدر يجود به عليهما. كان يوجد بكل من الجيشين ثلاث إخوة توأم. كان لهم تقريبا نفس القوة ونفس العمر. أولئك هم les Horaces و les Curiaces . كانت الدقة في ذكر أسمائهم ملحوظة بما يكفي، حتى أن حوليات العصور العتيقة لم تعطي إلا قليلا من الأعمال الجليلة كأعمالهم. مع ذلك لم يرقى قدر جلالها إلى درجة الشك حتى اليوم في الشعب الذي ينتسب إليه كل من الفريقين. فالمؤلفون مختلفون في ذلك. إلا أن الأغلبية مع كون les Horaces الثلاثة رومان. وأنا أرجح ذلك الرأي[2]. كلف كل ملك فريقه لقتال الفريق الآخر من أجل وطنه كي تقوم الإمبراطورية حيث ما تحقق النصر. تم الاتفاق على ذلك وحُدد للقتال الزمان والمكان. تنص مقدما مادة رئيسية في الاتفاقية بين الرومان والألبانيين les Albains، على أن الشعب الغالب سيمارس على الشعب المغلوب حكما رفيقا ومعتدلا".

وينبغي أن نتوقف هنا عند قول تيت ليف في حق الملك Tullus أنه بالرغم من الأمل في النصر الذي كان يدعوه إلى ألا يساوم، لم يرفض رفع ذلك التحدي. يصعب تصديق ذلك. من جهة كان واثقا من النصر، ومن جه ثانية خرج بإذن من مجلس الشيوخ لترويض الجيش على القتال. فكيف يصح أن يقامر بمصير روما في

[1] فكان هذا هو الشعب الثاني الذي اندمج مع الشعب الروماني من بعد اندماج شعب الصابيين من قبل.
[2] فهذا التعليق كما ترى هو للمؤلف تيت ليف

نزال غير مضمون النتائج بين فريقين من الإخوة ثلاثة توأم من كل جانب ؟ مثل هذه المقامرة كانت في صلح مدينة آلبا فقط. ثم ماذا عن تلك الصدفة العجيبة التي أوجدت ثلاثة إخوة توأم من كل جانب ولهم نفس العمر تقريبا ونفس الليلقة البدنية. احتمال حصول ذلك شبه معدوم اللهم في مخيال القصاصين. تلك الاعتبارات وغيرها تقول بأن قصة تلك المنازلة الطولية كانت مجرد خرافة من نسيج خيالهم. لذا سنقفز هنا على ترجمة حيثيات عقد ذلك الاتفاق المزعوم لطولها . سوى أنه كان من تقاليد ذلك العصر أن يسهر على كتابته وعلى تلاوته على مسامع كل من الطرفين كهنة يُشهدون الآلهة على واجب احترام بنوده ويتوعدون من استخف به وخرقه بسخطها وبغضبها. فيحلف المثقفون على ذلك العقد وتقام المراسيم الدينية لتثبيته. وتيقن من أنهم ما كانوا يستخفون بذلك، بل كانوا يعتقدون حقا أن الآلهة تنتقم من المُخالف لما أقسم عليه في تلك المراسيم. أما بقية القصة فتليق بفيلم هوليودي كما حصل مع المخرجين السالف الذكر أعلاه.

فيقول فيها تيت ليف : "قُتل في المعركة إثنان من الإخوة الرومان وفقط جُرح الثلاثة من الفريق المقابل، فالتفوا حول الناجي من خصومهم، الذي من حسن حظه لم يُصب بأي جرح. فقدّر أنه سيكون ضعيفا في مواجهتهم مرة واحدة، وقوي بما يكفي لمواجهة كل منهم على حدة. وللانفراد بكل منهم، واحدا تلوالآخر، قرر الابتعاد قليلا من وسط الميدان، كي يلحقوا به فرادى واتّباعا بحسب شجاعة ومستوى جروح كل منهم. ما أن ابتعد عن مكان المعركة قليلا حتى رآهم يتبعونه على مسافات جد متفاوتة. كان واحد منهم فقط جد قريب منه. فاستدار فجأة وانهال عليه بقوة وأرداه قتيلا. ثم قصد الثاني مع هتاف الجيش الروماني وصياح جيش آلبا من الهول، فقتله كذلك قبل أن يصل إليه المقاتل الثالث".

"ما بقي حينها في ساحة القتال سوى رجلين. الأول هو الروماني، وكان سليما في جسمه، ومزهوا بقتل الخصمين الجريحين. وثالثهما كان مثخنا بالجراح، ومتعبا بالمشي للحاق به، ومصدوما من رؤية قتل أخويه، فاستسلم ومد رقبته لسيف غريمه من دون قتال. مغمورا بالفرح، صاح الروماني يقول : "ذبحت منهم إثنان قربانا للآلهة من أجل أخوي، وسأنحر هذا من أجل قضية هذه الحرب. سأُضحّي به من أجل أن تحكم روما شعب آلبا". وغرس رأس السيف في حنجرته، ثم في قلبه وأخذ سلبه".

"استقبل الرومان بطلهم بالهتاف وأحاطوه بمظاهر النصر، وقد كانوا أقرب ما يكون مما يخشونه خلال المعركة من انهزام وخضوع لشعب آلبا. اهتم كل من الشعبين بدفن قتلاه، لكن بمشاعر مختلفة. أحدهما ربح الهيمنة والآخر خسر حريته ليقع تحت حكم أجنبي. ما زلنا نرى مكان دفن كل من المقاتلين حيث سقط قتيلا. الرومانيان معا من جهة آلبا. والثلاثة من آلبا من جهة روما، وعلى مقربة من بعضهم البعض. قبل افتراق الطرفين، تقدم ديكتاتور آلبا إلى Tullus ملك روما، يسأله بماذا يأمر، بموجب الاتفاق بينهما. فأجابه قائلا : "أبقي شباب آلبا تحت السلاح، لأستعملهم ضد les Véiens إذا ما دخلنا معهم في حرب". ثم انسحب من بعد ذلك كل من الجيشين".

وما كان يكفي أن تقف القصة عند ذلك الحد. بل تم فيها إضافة محاكمة Horace بسبب قتله لأخته. فكيف حصل ذلك وفق الرواية المزعومة في نظرنا ؟ يقول في ذلك تيت ليف : "مشى Horace، المنتصر على المقاتلين الثلاثة، في مقدمة الرومان وهو يحمل أمامه أسلابهم. كانت أخته خطيبة لأحد ضحاياه الثلاثة. فوجدها في طريقه، وقد تعرّفت على صدريّة خطيبها التي خاطتها بيدها والتي كان يحملها أخوها فوق كتفه. صارت تنتف شعرها وتصيح بعودة حبيبها والبكاء يخنق أنفاسها. امتعض أخوها من رؤية دموعها التي كانت في نظره تُبخّس من نصره وتشوش بها على فرح روما. حينها أخرج سيفه وغرسه في جسمها وهو يثقل كاهلها باللوم والعتاب قائلا : "إذهبي مع حبك المجنون لتلحقي بخطيبك، أنت التي نسيت أخويك المقتولين وأخاك الناجي ووطنك. ولتهلك هكذا كل رومانية تبكي موت عدو روما".

"لكن تلك الجريمة أثارت حفيظة كل من الشعب ومجلس الشيوخ. إلا أن بريق انتصاره في القتال قد خفف من فظاعة جريمة قتله لأخته. مع ذلك جيء به أمام الملك للمحاكمة. لكن الملك خشي تحمل مسؤولية الحكم بما يقتضيه القانون من عقاب لازم في حق بطل أنقذ روما من العبودية، فيترك ذلك استياء منه في نفوس الجموع[1]. وخشيته كانت أكثر من يوم

[1] وهم هنا مجموع العشائر البطريقية الثلاثين من دون غيرهم من العوام. ولاحظ معنا الوزن السياسي الذي كان حتى في روايات القصاصين لرأي تلك الجموع، أو ما يسمى اليوم بالرأي العام. لاحظ في رواياتهم الثقل الذي كان له في ذهن الملك المنتخب من طرف نفس الجموع.

إنزال العقاب الذي يلي يوم إصدار الحكم. فدعى إلى اجتماع الهيئات العشائرية[1]، وقال : "سأعيّن وفق القانون قاضييْن مفوضيْن duumvirs للنظرفي جريمة Horace".

غير أن الحكايات التي كان يحلو سماعها كان القصاصتن يضمنونها ما كانوا يعرفون عن نظام حكم روما. ونستشف منها عدة أمور. أولها أن القضاء كان من صلاحيات الملك. وسيتغير ذلك لاحقا في عهد الجمهورية. ثانيها أن القانون كان يسمح للمؤسسات الدستورية بتفويض صلاحياتها لغيرها من المؤسسات. ونجد هنا الملك يفوض حقه في القضاء لقاضييْن مؤقتين duumvirs. وقد رأينا سابقا كيف فوضت الهيئات العشائرية صلاحية انتخاب الملك لمجلس الشيوخ. وثالثها هو مبدأ سيادة القانون، وهو الأهم. بزعم القصاصين كان Horace بطلا غير عادي من حيث أنجى روما من العبودية. لكنه ارتكب جريمة قتل يعاقب عليها القانون. بمنطق وميزان العاطفة كان يجب أن يكفر سابق نصره عن جريمته اللاحقة. لكن بمنطق العقل وبميزان العدل، نصره شيء، وتجب مكافأته عليه، وجريمته أمر آخر، ويجب معاقبته عليه. لذا يُجازى على إنجازه ثم يعاقب على جريمته. لماذا ؟ بنصره المزعوم قد أنجى روما من العبودية لعدو خارجي. لكن جعْله من أجل ذلك فوق القانون والعفو عنه، من شأنه أن يشكل سابقة من شأنها أن تعرض روما لاحقا للعبودية من داخلها. وذلك لما كل من قدّم لها إنجازا بطوليا يصير متحررا من قيود القانون، فيفعل بها وبشعبها ما يشاء من دون لا حسيب ولا رقيب. بذلك تفقد المدينة حريتها من الداخل حين تسقط في عبودية الطغاة من أهلها. فسجل معنا هنا في ذلك العصر الحكمة التي استقرت حتى في عقل القصاصين وجعلتهم كما ينبغي يصورون في قصصهم الشعب الرومان وهو يبجّل سيادة القانون للحفاظ على أغلى شيء بالنسبة لكل شعب وهو حريته.

ثم يروي تيت ليف بقية القصة قائلا : "كان القانون شديدا في العقوبة على جريمة القتل. فقال الملك : "على القاضيين الحكم بما يجب. وإذا ما استأنف المذنب الحكم فسيُقبل منه. وإذا ما تأكد نفس الحكم، فسيُغطى حينها رأس الضنين المدان ويعلق على شجرة الموت، ثم يجلد داخل أو خارج الأسوار". فظن القاضيان مع تلاوة ذلك القانون أنه لا يمكنهم تبرئة حتى من كان بريئا من بعد الحكم عليه. ونادى أحدهم المتهم باسمه وقال له "أنت Publius Horatius أصرح بأنه قد حق عليك الموت. خذه أيها الحارس وقيّد يديه". فاقترب الحارس، ولما بدأ في شد الحبل حول يديه، وبنصيحة من الملك Tullus المُؤول الحليم للقانون، صاح المتهم هوراس قائلا : "أستأنف".

"بذلك تحولت القضية من القاضيين المفوضيْن إلى الهيئات العشائرية[2] كي تنظر فيها. فجاء الأب ليرافع حينها عن ولده. وتأثر الجميع لما سُمع Horace الأب يصيح قائلا بأن قتْل ابنته كان عادلا. وقد كان من حقه كأب، ووفق القانون الأسري أن تكون له الأولية في الحكم على ولده[3]. كان بذلك يتوسل للرومان كي لا يحرموه من ابنه من بعد ما فقد بقية ذريته. ثم عانق ابنه وأشار لسلب الـ Curiaces جنود آلبا الثلاثة، وهو يقول: "أيها الرومان، هذا الذي رأيتموه قبل قليل بإعجاب يمشي بينكم منتصرا ومحمّلا بسلب مجيد، هل تقبلون رؤيته مقيدا إلى عمود حقير، ثم يُجلد ويعذب ؟ الآلبانيون Les Albains أنفسهم لن يتحملوا رؤية ذلك المشهد. فاذهب أيها الحارس، وقيد يديه اللتين وهبتنا الهيمنة. اذهب وغطي رأس محرر روما، وعلقه على شجرة الموت، واضربه داخل المدينة إن شئت. وليث ذلك يكون أمام سلب أعدائه، وخارج المدينة. وليث يحصل ذلك بين قبور Curiaces. فحيثما اقتدتموه لن يُبنى نصب تذكاري تخليدا لمجده على أنقاض فظاعة تعذيبه". غلبت المواطنين دموع الأب وشجاعة الولد. وفي تحدي لكل المخاطر[4]، صوتوا بالعفوعن المذنب، الذي انتُزع منهم بفضل شجاعته وليس من أجل قضية عادلة[5]. بالرغم من ذلك، وحتى لا تبقى جريمة واضحة المعالم كتلك من دون

---

[1] ومجلس الشعب هو اجتماع رجال العشائر الثلاثين بمن حضر منهم في الساحة العامة. وهوالذي سبق أن انتخب الملك.

[2] مرة أخرى الشعب في تلك المرحلة كان يتشكل من العشائر البطريقية الثلاثين والتي تصدر حكمها هنا بالتصويت على شاكلة هيئة المحلفين اليوم في بعض الدول الغربية من بعد تتبعها لكل أطوار القضية.

[3] بالفعل، وفق قوانين الأسرة الخاصة في تلك العصور كانت للأب سلطة مطلقة على أبنائه وبناته مثل التي كانت له على عبيده، وذلك مهما بلغ شأنهم في البلاد. كان ذلك من السيادة داخل الأسرة التي لم تفوَّض سلطاتها إلى المؤسسات العمومية. فما كان للسطات العمومية سوى النفوذ الذي تنازلت لها عنه العائلات النبيلة. ولم تتنازل لها عن سلطة الأب في أسرته.

[4] المقصود بذلك هو بلا شك مخاطر جلب غضب الآلهة على عدم تنفيذ القانون في جريمة قتل.

[5] التعليق للمؤلف، وتشعر فيه بعلو الحس الأخلاقي في زمانه وفي قومه.

عقاب، تم إجبار الأب على دفع غرامة للتعويض بها عن ذنب ولده لتخليصه[1]. وذبح هو أضاحي للآلهة ثم نصب في الزقاق عمودا ليمر من تحته الإبن المذنب ورأسه مغطى للتكفير عن ذنبه".

على كل حال السياسة العدوانية التي انتهجها الملك Tullus بإذن من مجلس الشيوخ أثمرت مراس الرومان على الحرب من جديد وعلى جعل مدينة آلبا تحت سيادة روما، تحارب من يحاربها وتسالم من يسالمها. وقد كان بلا شك في حاجة للمزيد من الحروب. وبدلا من أن يفتعلها بنفسه ساقها له حاكم آلبا الذي ظل جنرالا على رجاله، مع النية في الانتقام منه ومن الرومان واسترداد الحرية لمدينته.



فيقول تيت ليف في ذلك : "لم يدم السلام طويلا. مع مدينة آلبا لأنه ما كان لحاكمها ما يكفي من الصرامة لمقاومة حنق شعبها عليه، لما ترك مصير حرية دولته بيد ثلاثة مقاتلين. وبما أن الظروف خانت نواياه الحسنة، قرر اللجوء إلى الغدر لاستعادة شعبيته. فسار يبحث عن الحرب في السلام كما سبق أن بحث من قبل عن السلام في الحرب. لما لم يجد عند قومه سوى الكثير من الحماس مع القليل من القوة، فكر في الاستقواء بشعوب أخرى. دفع شعب مدينة Fidènes المستعمرة من طرف الرومان للثورة على المستعمر ولمواجهته بشكل صريح. واحتفظ لنفسه ولقومه، بمهمة الخيانة، مع الظهور مع روما بمظهر الحليف الصادق. لكن Les Fidénates أشركوا معهم في المؤامرة جيرانهم les Véiens. وبيقين وثقة الشعبين[2] في تطمينات حاكم آلبا بأنه سيلتحق بهما، أخذ كل منهما السلاح واستعدا للحرب"

"ثم انفجرت الثورة بالمستعمرة، فأمر Tullus ملك روما حليفة حاكم آلبا بالقدوم لميدان المعركة بمعية جيشه، وتوجه هو صوب مواقع المتمردين. لما وصل حليفه دخل هو في مواجهة مع les Véiens وكلف جيش آلبا بالتصدي لجيش Fidénates. لكن حاكم آلبا لم يكن شجاعا بقدر ما كان خائنا. هكذا لم يكن قادرا على الاحتفاظ بالمكان الذي عُين فيه ولا على مواجهة العدو. فانحاز قليلا بجيشه للجبال. ولما أحس أنه أصبح بعيدا عن أنظار الجيش الروماني أمر جنوده بالتوقف. وأخذ يتظاهر بإعادة انتشار صفوف قواته، لكسب الوقت وانتظار لصالح من سترجح كفة النصر ليلتحق به".

"انتبه الرمان باندهاش لبقاء جوانب جيشهم من دون حماية. لكن سرعان ما جاء جندي مسرعا ليخبر Tullus ملك الروم بالانسحاب الفعلي لجيش آلبا من المعركة. فصاح Tullus في وجهه حتى يسمعه العدو، وهو يأمره بالعودة إلى القتال وبألا يكترث، مضيفا بأن تراجع جيش آلبا كان من تدبيره لأخذ العدو من الخلف. وجعلت هذه المناورة الذكية جل المشاة الرومان لا يصدقون أن حليفهم قد انسحب فعلا من المعركة. وبتصديقهم أنها مجرد خدعة من تدبير ملكهم تحمسوا للقتال أكثر. في الوقت نفسه أصيب جنود جيش Fidénates بالذعر، لأنهم سمعوا ما قاله ملك روما وفهموه وصدقوه، ولا سيما وأغلبهم تعلموا اللغة اللاتينية بمدينتهم كمستعمرة رومانية. وخوفا من أن يقطع جيش آلبا عليهم الطريق إلى مدينتهم، كما ظنوا ذلك، ولّوا الأدبار منسحبين من ميدان المعركة. فتخلص منهم حينها Tullus، وكرس كل جهده لجنود جيش les Véiens الذين كانوا مشدوهين لرؤية انهزام حلفائهم. فلم يستطيعوا تحمل الصدمة وهربوا بدورهم. لكن حاصرتهم مياه النهر ومنعتهم من الرجوع إلى مدينتهم. فمنهم من ألقوا السلاح وارتموا في المياه ليقطعوها سباحة، ومنهم من بقوا مترددين حتى لحقهم الرومان ففتكوا بهم. ولم يسبق للرومان أن عرفوا معركة سفكوا فيها مثل ذلك القدر من الدماء".

تم بذلك الانتصار الثاني للملك الجديد. لكن كان لا بد له من معاقبة حاكم آلبا على خيانته في حرب كادت تفقد فيها روما حريتها بسببه. فيستطرد تيت ليف قائلا : "حينها نزل جيش آلبا من الجبل إلى السفح من بعد ما ظل يتفرج على المعارك. فهنأ قائده الملك Tullus بنصره. ورد عليه ملك روما بشكره شكرا جميلا. ثم طلب من الجميع الاستعداد للاحتفال يوم الغد بالنصر. وما أن أشرق نور النهار حتى كان كل شيء مهيأ. حينها استدعى الملك الجيشين

[1] ربما كان ذلك هوالمخرج مع الآلهة من جهة، ومع خطورة سيادة القانون من جهة أخرى لحماية حرية الشعب من تفشي الطغيان لاحقا.
[2] اللذان سبق لهما أن حاربا روميلوس مؤسس روما وهزمهما.

كالعادة لجمع عام. وبتدبير منه بدأ المنادون بالنداء على الصفوف الأخيرة وقدموا جنود جيش آلبا على غيرهم. في انتظار سماع الخطبة الحماسية للملك كان جنود آلبا متشوفين لما سيحدث. فوقفوا على قرب شديد منه. وبأمر من الملك أحاط بهم الجيش الروماني على استعداد لتنفيذ الأوامر التي تلقواها مسبقا وفور تلقي الإشارة".

"ثم بدأ Tullus خطابه بهذه الكلمات: "أيها الرومان، إن كنتم في أي حرب قد قدمتم يوما المنّة أولا للآلهة الخالدة ثم لشجاعتكم فقد حصل ذلك في معركة الأمس. بالفعل دافعتم عن أنفسكم ليس فقط ضد سلاح العود، لكن ضد أمر أخطر بكثير. دافعتم ضد خيانة وغدر حلفائكم. وحتى لا تبقوا طويلا مخدوعين، اعلموا أنني لم آمر أبدا قائد جنود الآلبانيين باللجوء للجبال. صحيح أنني تظاهرت وزعمت أنني أصدرت ذلك الأمر. لكن كان ذلك من باب الحذر، وحتى لا تفشلوا بإظهار انسحاب حاكم آلبا من المعركة، وحتى أُدخل بذلك الرعب في قلوب جنود العدو وأشتت صفوفهم، بإيهامهم أنهم سيكونون محاصرين من كل جانب. ولا أتهم كل الجنود الآلبانيين. لقد تبعوا قائدهم، كما كنتم ستفعلون معي لو عزمت على تغيير خططي. Mettius وحده كان هو قائد ذلك الغدر. Mettius كان هو وحده المتآمر في هذه الحرب. Mettius هو وحده الناقد للعهد الذي أقسم الشعبان على الالتزام به. لكن أريد من الآن أن لا يجرؤ أي كان على تقليد خيانته، إلّم أجعل اليوم من شخصه عبرة باهرة للبشر".

"حينها أحاط الجنود بالقائد الخائن Mettius. واستطرد Tullus يقول : "من أجل السعادة والمجد، ومن أجل ازدهار الشعب الروماني وأنت أيضا يا شعب آلبا، قررت ترحيل كل ساكنة آلبا إلى روما، وإعطاءهم حق المواطنة الرومانية وحق كبارهم في العضوية بمجلس الشيوخ. باختصار لن تكون روما سوى مدينة واحدة ودولة واحدة. آلبا كانت بالأمس منقسمة إلى شعبين، فلتتحد اليوم في شعب واحد". إثر سماع هذه الكلمات، كان الآلبانيون من دون سلاح ومحاطين بجنود مسلحين. فغمرتهم مشاعر مختلطة. لكن تحت سطوة الرعب التزموا بالصمت. ثم استأنف Tullus يقول : "أما أنت يا Mettius ، لو علمتُ أنك قادر على تعلم الوفاء بالعهود لأبقيتك حيا حتى تأخذ مني فيه دروسا. لكن الغدر مرض عضال لا يُرجى الشفاء منه. فليكن في تعذيبك إذا درس للرجال كي يؤمنوا بقداسة القوانين التي خرقتها. وكما قسّمت أنت قلبك بين روما وعدوها، سيُقطع جسدك حتى تشتت أوصاله".

"وجيء حينها بعربتين عسكريتين تجرهما أربعة خيول. وربط بها المذنب Mettius. والخيل المتجهة في اتجاهين معاكسين جعلت كل عربة من العربتين تذهب بجزء من أطراف جسده ممزقة ومخضبة بالدماء. تحولت عندها كل الأنظار عن رؤية ذلك المشهد الفظيع. كان ذلك هو المثال الأول والأخير فيما بين الرومان، على تعذيب لم تكن فيه القوانين العقابية الإنسانية معروفة. بل كان من أعظم مفاخرهم تفضيلهم دائما للعقوبات المخففة[1]".


رسم لمشهد تقطيع أوصال القائد الخائن

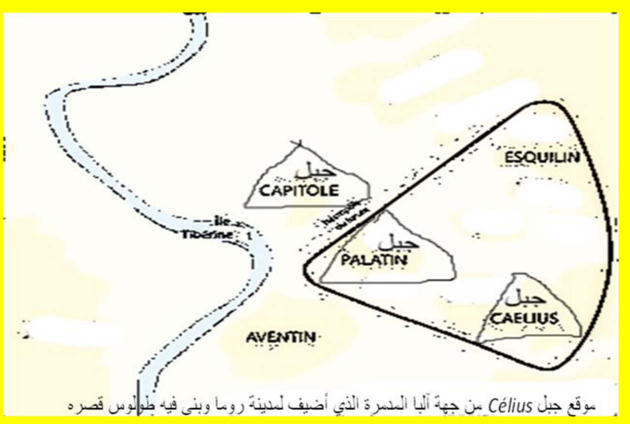
ثم جاء وقت تنفيذ أمر الملك الثاني بتدمير آلبا وترحيل ساطنتها إلى روما كي يصبحوا فيها مواطنين رومانيين مثل إخوانهم الذين سبقوهم بالهجرة إليهامن قبل نشأة الدولة. لكن الأمر كان قاسيا بالنسبة لهم هم الذين لم يرتكبوا أية خيانة في حق أحد. فماذا عن تفصيل تلك المأساة من شعب روماني حر في حق شعب أجداده البريئ.

تدمير مدينة آلبا وآثاره على روما

يقول تيت ليف : "في ذلك الوقت أرسل الملك Tullus الخيالة لترحيل أهل آلبا إلى روما. ثم أرسل جحافل الجيش لهدم المدينة. ولما دخلتها لم ترى فيها ذلك الاضطراب وذلك الرعب الذي يعم عادة المدن عند احتلالها، لما تكون أبوابها قد كسرت وجدرانها قد هدمت وقلعتها قد احتلت، والعدو يصيح فيها صيحات الموت وهو ينتشر ويتنقل بسرعة بين أزقتها حيث يزرع حر الحديد والنار. بل خيم فيها على القلوب حزن كئيب وصامت. لم يعرف ناسها ماذا يتركون ولا ماذا يأخذون. شدة الخوف ذهبت برشدهم. فصاروا يتساءلون فيما بينهم. وهؤلاء بقوا جامدين على أعتاب أبوابهم. وأولئك ساروا هائمين على وجوههم في عقر منازلهم كي يروها آخر مرة. لكن لما سمعوا تهديدات الخيالة تأمرهم بالرحيل، وسمعوا دوي سحق البيوت الآتي من كل جنبات المدينة، ولما رأوا الغبار يتطاير من تحت الأنقاض ومن كل جهة ثم يملأ

[1] والتعليق للمؤلف تيت ليف بحسب منظومة قيم عصره منذ أزيد من ألفين سنة خلت.

الفضاء بسحاب كثيف، كل منهم حمل بسرعة ما استطاع من متاع، وابتعد تاركا وراءه آلهته وأصنامه[1]، والسقف الذي ولد وكبر تحته".



موقع جبل *Célius* من جهة آلبا المدمرة الذي أضيف لمدينة روما وبنى فيه طولوس قصره

"ومُلئت الطرق بطوابير طويلة من النازحين. ومشهد مأساتهم البئيسة كان يجدد من انهمار دموعهم. كانت تُسمع صيحات النحيب، ولا سيما نحيب النساء لما كن يرين في طريقهن الجنود يدنّسون معابد الآلهة باقتحامها، والآلهة نفسها التي يتركنها هكذا في الأسْر. وما أن خلت المدينة من سكانها حتى سُويت بالأرض كل المباني العمومية والبيوت الخصوصية. عمّرت آلبا أربعة قرون. ثم كانت ساعة من الزمن كافية لتدميرها وتخريبها. ما نجت من ذلك التدمير سوى معابد الآلهة، لأن طولوس أمر بذلك. حينها تعاظمت روما بحطام غريمتها، وتضاعف عدد سكانها. وأضيف جبل Célius لمدينة روما. ولجلب السكان من حوله بنى فيه Tullus قصره ومقر إقامته"."وشاء Tullus أن يكون لمجلس الشيوخ نصيبه من توسيع وتنامي الدولة. ففتح فيه باب العضوية للعديد من الأسر النبيلة[2]. وبنى للمجلس قصرا جديدا وأكبر، كي يكفي لاحتواء عدد أعضائه الجدد[3]. وحتى يكون ضم الشعب الجديد لروما مفيدا لكل مؤسسات الدولة، أنشأ عشر فيالق من الخيالة كلهم من شعب آلبا. بذلك أكمل جحافله القديمة وشكل منها أخرى جديدة من نفس الشعب".

وهكذا صار شعب ألبا رومانيا مثل ما صار كذلك جزء من شعب الصابيين من قبل. أما انفراد الملك Tullus بقرارات خطيرة ومصيرية بخصوص الشؤون الخارجية فبإذن من مجلس الشيوخ صاحب الاختصاص. وقد كان من صلاحيات الملوك استدعاء المجلس وتعويض من مات من أعضائه وتوسيع حجمه. فلا غرابة من واتباعا لنفس السياسة التي سطرها له المجلس، ولا سيما من بعد الانتصارات التي حققها، وجد الملك الفرصة لمنازلة قوم الصابيين شرقا والذين كانوا أكثر عدوانية من غيرهم.

وقد تتستغرب كيف للرومان من الصابيين أن يشاركوا في الحرب على بلد أجدادهم. لكن الحرب على آلبا كانت حرب الرومان اللاتين على بلاد أجدادهم من اللاتين. وفي الحرب على بلاد الصابيين حرب الرومان الصابيين على بلاد أجدادهم كذلك. الروامن من اللاتين ومن الصابيين صار ولاؤهم عقديا لروما وليس لبلدان أجدادهم. فلا غرابة في مشاركتهم بالجيش الروماني ضدها. ونترجم لك تفاصيل تلك الحرب حتى تدرك كيف كان الطرف المتصيّد للحروب يفتعل الذرائع لخوضها من أجل تحقيق الكاسب التي خطط لها.

الحرب على الصابيين les Sabins

يقول تيت ليف : "حينها وبكامل الثقة في قواته أعلن Tullus الحرب على الصابيين، وهم الأمة الأكبر في ذلك الوقت والأكثر عدوانية من بعد الإتريسكيين les Étrusques. كان كل من الشعبين يشتكي من الآخر بسبب بعض المهانات التي لحقته. وكان كل منهما يطالب الآخر بالتعويضات عنها، لكن من دون فائدة".

---

[1] نذكرك أن القوم في تلك العصور كانوا وثنيين يعبدون أرواح الأموات من آبائهم ويدفنونهم بالمنزل ويسهرون على رعاية قبورهم من فوقها مذابح عليها شعل من نار يتوسلون بها إليهم لأنهم كانوا يعتقدون أنها تنفع وتضر، فكانوا يخشونها ويخشون إهمالها. فكانت هي أقدس وأثمن ما يوجد في كل بيت. وانظر في ذلك مرة أخرى كتاب "المدينة العتيقة" لفوستيل دوكولانج.

[2] التي لا فائدة من ذكر أسمائها والتي نالت نبل المنبت في روما إما بالنسب للأثرياء ملاك الأراضي أوبالحسب لمن قدموا إنجازات عظيمة لشعوبهم.

[3] ونذكرك أن روميلوس سبق أن ضم من قبل لروما من كان بالهضبة الشمالية من شعب الصابيين.

"وكان الملك Tullus يدّعي أن تُجارا من الرومان قُبض عليهم في السوق قرب معبد الإلهة Féronie. وكان الصابيون من جانبهم يشتكون من أسْر الرومان لبعض أهاليهم بالرغم من أنهم قد لجأوا للاحتماء بحرمة الغابة المقدسة. تلك كانت الذرائع المقدمة لإعلان الحرب. والصابيون الذين لم ينسوا أن ملكهم السابق Tatius قد رحّل معه قسما من جيشهم إلى روما، ويعلمون أن القوة الرومانية قد تعاظمت بالاتحاد مع الآلبان، شرعوا في البحث من حولهم عن النجدة الأجنبية. بجوار بلاد الإتريسكيين، كان الصابيون محاذين لأراضي الفيسيين الذين ما يزال يعمّهم الاستياء من هزيمتهم السابقة على يد الرومان. فوجدوهم مستعدين لنقد العهود. لكنهم توقفوا عند الهدنة الموقعة مع روما، فما استطاع الصابيون أن يستنفروا إلا بعض المتطوعين منهم. وما جلبوا بأموالهم سوى بعض المغامرين المرتزقة من أراذل ذلك الشعب. أما المدينة نفسها فلم تقدهم بشيء. بدأت الاستعدادات للحرب بين الجانبين. وبما أن النصر رهين بالسرعة التي يداهَم بها العدو، بادر Tullus بالدخول لأراضي الصابيين، فوقعت معركة دامية. فجأة هاجم الخيالة الرومان صفوف العدو وشتتها. لم يستطع الصابيون لا تحمّل الصدمة ولا إعادة تترتيب الصفوف ولا حتى فتح طريق للهورب. فألحق بهم الرومان مذبحة عظيمة".

لكن لما يتحدث تيت ليف عن الصابيين ببلادهم الأصلية المتواجدة بعيدا شرق روما، ويقول أنهم لم ينسوا أن ملكهم السابق Tatius قد رحّل معه قسما من جيشهم إلى روما، يكون قد خلط بين الصابيين في بلدهم الأصلي وبين من هاجر منهم للاستقرار بإحدى هضاب روما من قبل نشأتها. بل هؤلاء كانوا مثل اللاتين الذين هاجروا للاستقرار بباقي الهضاب وكان أغلبهم من مدينة آلبا اللاتينية. ففرق بين من هاجروا ومن بقوا بالبلاد الأصلية. ونترجم لك نهاية الملك Tullus حتى تدرك كيف وكم كان للمعتقدات الدينية الوثنية آثارها في الحياة العامة والخاصة في تلك العصور بإيطاليا واليونان.

قصة موت الملك Tullus

يقول تيت ليف : "لما كانت روما تنتشي بثمار هذا النصر الجديد في عهد Tullus، جاء للملك ولمجلس الشيوخ خبر بأن السماء أمطرت حجارة على جبل آلبا. وبما أنه كان من الصعب تصديق حدوث هذه المعجزة، أرسلوا إلى المكان من يتأكد منها. فشاهد من تكلف بذلك فعلا هطول مطر غزير من الحجارة المضغوطة كالبرَد". بل هو مجرد برَد متكون من كتل من الجليدا الكروية الشكل، ويتراوح قطرها من بضعة ميليمترات إلى عدة سنتيمترات، كما نرى ذلك أحيانا حتى يومنا هذا. لكن القصاصين يحلو لهم الحديث عن حجارة حقيقية على ذوق السامعين.

ولن نترجم لك بقية هذه الفقرة بالنظر لما فيها من معتقدات هي بالنسبة لنا خرافية، لكنها بالنسبة لهم كانت علامات حقيقية على سخط الآلهة على الشعبين الآلبي والروماني. وللتكفير عن معاصيهم أقاموا طقوسا لمدة تسعة أيام يذبحون فيها القرابين للآلهة كي تكف غضبها عنهم. وكان كلما حصل ذلك مرة أخرى أعادوا إحياء نفس الطقوس. وتأويلهم لمثل تلك الأحداث بأنها من علامات غضب الآلهة كان يزيد من خشيتهم لها. فكانوا يُشهدونها على المعاهدات فيما بين دولهم وعلى القوانين الأهلية التي كانوا يسنونها في بلدهم حتى يتم الالتزام بها خشية من سخطها.

ثم يقول تيت ليف : "من بعد ذلك بقليل أصيبت روما بوباء جلب لأهالها الشعور بالاشمئزاز المطلق من الحرب. لكنهم لم يسْلموا من طموحات Tullus العدوانية. فقدر الملك أن اللجوء إلى المخيمات خارج المدينة أفضل للصحة من المكوث بداخلها. ثم شعر بأنه هو نفسه مصاب بذلك الوباء الذي كبله واستنفد قوة روحه المشاغبة. حينها، هذا الأمير الذي كان يعتقد أنه لا يليق بملك أن ينشغل بأمور الدين، صار فجأة يصدق الخرافات الأكثر تفاهة[1]، ويملأ المدينة بالطقوس الدينية. وعلى منواله عاد الرومان إلى التقاليد التي طبعت عهد الملك الراحل نوما. وظنوا أن العلاج الوحيد لأمراضهم يكمن في تهدئة الآلهة وثنيها عن إصابتهم بغضبها. حتى قيل أن Tullus اكتشف في سلسلة من كتيبات الملك نوما تفاصيل ذبح بعض الأضاحي قربانا للإله جوبتير، فاختفى ليتفرغ للقيام بتلك الطقوس الغامضة. لكن بإغفاله بعض الأمور الأساسية، إما خلال الاستعدادات أو خلال ممارسة الطقوس أغفل عن ذكر روح أحد الآلهة. وبسبب ذلك التدنيس للطقوس أصابه الإله جوبتر هو وقصره بصاعقة فنسفتهما. وقد حكم الملك Tullus إثنان وثلاثون سنة، وخلف من ورائه لروما سمعة عسكرية مجيدة".

[1] التعليق للمؤلف تيت ليف. وانظر كيف تطور في عصره موقف الرومان من الوثنية ومن معجزاتها الخرافية.

كان هذا ثالث ملك منتخب منذ نشأة روما. وقد تستغرب من عدم توريث الحكم للأبناء فتقول أنهم ماتوا من دون أولاد يخلفونهم. هذا محال. ما من نبيل إلا كان من واجبه أن يتزوج فور بلوغ سن الرشد كي يخلّف على الأقل ولدا يُبقي روحه حية من بعد موته بين أرواح الآباء المؤلهة. موته من دون ولد يعني تبخر روحه في العدم في اعتقادهم، وهو الأمر الذي لا يطاق. ومن تعذر عليه الإنجاب مع أي زوجة يطلقها ليتزوج أخرى تنجب. وإذا كان هو الذي لا ينجب فلا بد له من تبني ولد غيره كي يسهر على روحه من بعد موته. لهذا كل الملوك السابقين كان لهم على الأقل ولد واحد من صلبه أو متبنى. وما ورثوا العرش، لأن الملكية في روما كانت بالاختيار. كان بالإمكان أن يكون العرش من نصيب أحد أبناء الملوك السابقين لكن فقط بالاختيار، اللهم في حال اغتصاب العرش بقوة السلاح كما حصل مع سابع وآخر ملوك روما. فكيف تم اختيار رابعهم ؟

عهد Ancus رابع ملك منتخب (641 ق.م. – 616 ق.م.)

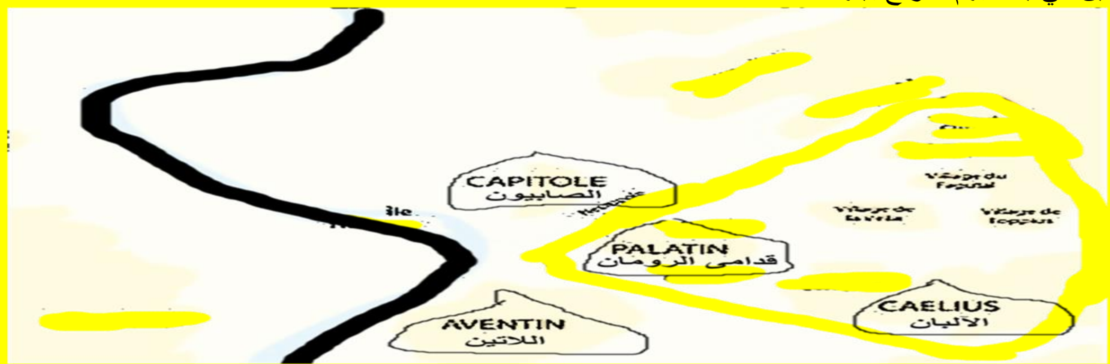
يقول تيت ليف : "من بعد وفاة الملك Tullus عادت السلطة كالعادة لمجلس الشيوخ. فعين المجلس وصيا على العرش un interroi. وبدعوة منه اجتمعت الهيئات العشائرية، وانتخبت Ancus Marcius ملكا. ثم صادق مجلس الشيوخ على انتخابه. وكان هذا الأمير هو حفيد الملك نوما من ابنته". كما تقدم، الملك الخامس هو أول من تم اختياره بسعي منه. لهذ يكون Ancus Marcius قد تم اقتراحه على الهيئات العشائرية ليكون ملكا. وعلى كل حال لم ترد الأخبار بمشاكل تذكر بخصوص الشؤون الداخلية بروما حتى هذه الفترة من تاريخها، اللهم تلك حصلت من بعد موت روميلوس بخصوص من يخلفه. ظلت المؤسسات تسير فيها وفق شروط الهيئات العشائرية. فقط الشؤون الخارجية كانت تخلق فيها الحدث.

وكون الملك الجديد حفيدا للملك نوما الطيب ربما تم اختياره لتهدئة الآلهة التي كانت في اعتقاد الرومان ساخطة عليهم بسبب كثرة الحروب مع الملك السابق مع استخفافه بما كان ينبغي أن تصاحبها من طقوس دينية وفق الأصول. وقد عرف Ancus Marcius بكونه من بين الغاضبين على سياساته العدوانية.
فيقول في حقه تيت ليف : "مزهوا بمجد جده نوما، كان Ancus Marcius يعتبر عهد سلفه عهدا تعيسا بالرغم من كل بريقه العسكري، إما بسبب إهمال Tullus للطقوس الدينية أوبسبب إخلاله بحسن أداء شعائرها. فما أن باشر الحكم حتى رأى أنه من أول واجباته إعادة تلك الطقوس إلى صفاء مؤسساتها. فكلف الراهب الأكبر بتدوين تعاليمها على ألواح بيضاء وبالالتزام في ذلك بنصوص جده نوما، وبنشْرها على أنظار عموم الناس. بعثت هذه البداية الأمل في نفوس المواطنين الرومان وبالدول المجاورة المتعطشين للسلام على أساس أن الملك الجديد سيتحلى في سيرته وفي سياساته بخصال جده الحميدة. لكن شعوب اللاتين التي كانت مقيدة بمعاهدة سلام مع Tullus خرجت من جمودها واستعادت جرأتها. فقامت بغارات على أراضي روما، وواجهت بالتحدي المتغطرس مبعوثي الرومان الذين جاؤوها يطالبون بالتعويض".

فمن جهة، تفاصيل تلك الشعائر والطقوس الدينية كانت تنشأ بحسب المؤرخ فوستيل دوكولانج، وفق نتائج التجارب في تعامل الكهنة مع الآلهة. عند كل استشارة أو كل أزمة كان الكاهن يتوسل للآلهة بطقوس وترانيم من ابتكاره ويسجلها. ولما يتحقق مسعاه كان يعتقد أن الآلهة قد وافقت على ما ابتكره من ترانيم وطقوس ورضيت بها، فيحتفظ بها مدونة كما هي مع الأحداث التي تسببت فيها، ليستعملها مرة أخرى عند الحاجة لنفس الأسباب لكونها مجربة ونالت في اعتقادهم رضا الآلهة، فلا يغامر بابتكار أخرى جديدة لا يدري ماذا سيكون مآلها خصوصا في الحرب. وبذلك تصبح من الطقوس والشعائر المقدسة. ومن جهة ثانية، لم يعد الملك الجديد يفتعل الحروب، لكن من واجبه التصدي لمن يتحرش بروما. فقد كان ذلك واجبا وطنيا وواجبا دينيا لا يسخط الآلهة بل يرضيها، لأن تلك الآلهة في اعتقادهم ما كانت سوى أرواح آبائهم والذيي ما كنوا لترضوا بذل الاستكانة لمن يتحرش بأمن بلدهم.

فقال في ذلك تيت ليف : "أساءت شعوب اللاتين التقدير لما تصورت أن Ancus الهادئ سيمضي حياته عاكفا في المعابد. إلا أنه كان يجمع بين خصال جده نوما الدينية والسلمية وبين مزاج روميلوس العسكري. كان يشعر بأن السلم كان ضروريا بالنسبة لجده نوما كي يحضّر أمة جديدة كانت ذات خصال جد شرسة. وسيكون من الصعب عليه هو تحقيق نفس الإنجاز من دون التعرض لمهانات. سيبدأ حينها الناس باختبار صبره، وسينتهون بالاستخفاف به. في مثل هذه الظروف ينبغي استعمال شراسة الملك Tullus وليس طيبوبة جده الملك نوما. الملك نوما أسس مؤسسات دينية لزمن السلم. وحفيده الملك Ancus هذا، أنشأ منها ما يليق بزمن الحرب. فأراد أن تكون هناك شعائر دينية خاصة بالحرب. منها ما يقام عند إعلانها وأخرى تؤدى طيلة سيرها. وانتحل تلك الطقوس مما كان موجودا عند شعوب إيطاليا. كان منها كهنة الحرب les féciaux، المكلفون بإقامة تلك الشعائر حسب الأصول".

"مشى الملك Ancus على رأس جيشه إلى مدينة اللاتين Politorium[1]. فهاجمها واحتلها من بعد ما ترك مهمة رعاية المعبد بها وطقوسه للكهنة المختصين بذلك. وعلى غرار باقي ملوك روما رحّل إليها السكان اللاتين وضمهم للشعب الروماني. وبما أن الرومان الأقدمين قد استقروا حول جبل بلاتان والصابيون قد سبق أن استقروا بجبل الكابطول والقلعة واستقر الآلبانيون بجبل سيليوس فقد تقرر توطين اللاتين الجدد بجبل أفاتان بعد ذلك اضطر الرومان لمهاجمة مدينة اللاتين مرة أخرى لما استرجعها أهلها من بعد ما هُجّروا منها. فسويت بالأرض خشية اتخاذها ثانية ملجأ لأعداء روما. ثم عاد الملك Ancus محملا بغنائم هائلة، وأعطى حق المواطنة الرومانية لآلاف اللاتين الجدد. وطّنهم ما بين جبلي بالتان وأفانتين كي يملأ بهم الفراغ بينهما".



مواقع الجبال الأربعة بروما على يمين نهر التيير
والشعوب التي استوطنتها من بعد ضمها إلى الشعب الروما ني

أصبحت روما بذلك تضم فئتين من النبلاء. الفئة الأولى تتشكل من الرومان الأوائل الذين أنشأوا روما بمحض إرادتهم وأصبغوا عليها قدسية معتقداتهم مع الصابيين الذين انضموا إليها بمحض إرادتهم كذلك وأصبغوا على انضماهم قدسية دينه. والفئة الثانية من اللاتين التي تم ضمها غصبا عنها. الأولى كانت تشعر بالحرية. والثانية كانت تشعر بالاستضعاف بالرغم من منحها حق المواكنة الكاملة وانضمت عوائلها إلى مختلف العشائر الثلاثين. فكان منهم الراضون بوضعهم الجديد، وربما شكلوا الأغلبية فصاروا رومان بحق. لكن لا بد من تواجد الساخطين من بينهم على ترحيلهم قصرا وتدمير مدنهم الأصلية. بالنسبة لهؤلاء ليست روما مقدسة كما هي مقدسة بالنسبة لغيرهم من البطرقيين. فما كانوا يخشون آلهتها وما كانوا يجدون حرجا في انتهاك حرماتها. فيقول في ذلك تيت ليف : "منذ هذا النمو العظيم لمدينة روما صار من الصعب التمييز بين المواطن الصالح والمواطن الطالح من بين كل تلك الجموع الغفيرة، فتفشت الجرائم التي لم تكن معروفة من قبل. ولفرض الرعب والحد من الفساد شيّد الملك Ancus سجنا بوسط المدينة، كان يطل على الساحة العامة le Forum. في عهده اتسعت مدينة روما بتكاثر سكانها ومبانيها. كما وصلت حدود أراضيها إلى البحر عند مصب نهر التيير".

[1] المدينة التي لم تعد قائمة من بعد تدميرها في تلك الحرب



هذه بعض معالم الساحة العامة وما حولها بروما العتيقة

قد تتعجب من فخامة العمران في تلك العصور الغابرة. لم يكن ذلك ترفا بمقدار ما كان من معالم السياسة الخارجية لتلك المدن في بيئة عدوانية. كان من حاجيات الترهيب النفسي للأعداء بالخارج ولدوي النفوس الضعيفة بالداخل. وأثاره الباقية حتى اليوم تشهد على عظمته وجمايته وصلابته وعلى مستوى الفنون الهندسية والحرفية في تلك العصور الغابرة. وترجمنا Forum بالساحة العامة la place publique بدلا من الميدان كما ترجمها الدكتور العروي في كتابه تأملات في تاريخ الرومان لمنتسكيو. وهي عبارة عن ساحة مستطيلة الشكل تقع في مركز مدينة روما القديمة. كانت محاطة بالعديد من الأبنية الحكومية الرومانية الهامة وبمتاجر متنوعة وبحوانيت للمهن الحرة. كانت هي قلب الحياة العامة في روما القديمة. كانت تقام فيها الاحتفالات الشعبية والانتخابات الحكومية، وكانت مركزاً لإلقاء الخطابات الرسمية ولإجراء المحاكمات العلنية ولعرض الألعاب الفرجوية الموسمية. كما شكلت مركزا للتجارة وللحياة الاقتصادية. كانت مملوءةً بتماثيل تخلّد ذكرى رجالٍ رومان قدماء. وكانت توجد بآتينا اليونانية ساحة دائرية شبيهة بالساحة العامة الرومانية. كانت تُسمى أكْورا Agora. كانت في البداية ملتقى للمزارعين . لكنها لم تظل حكراً عليهم بل صارت موضع للقاءات الفلاسفة أيضاً.


لوحة تصور مختلف الأنشطة الاجتماعية بالساحات العامة بروما العتيقة

ثم يحكي تيت ليف عن قصة الملك اللاحق، فيقول: "في عهد Ancus جاء إلى روما رجل غريب إسمه Lucumon. كان ثريا ونشيطا. جلبه إليها الطموح والأمل في الحصول على التشريف الذي حُرم منه ببلاد الإتريسكيين شمال روما، حيث كانت أسرته غريبة أيضا. أصْل أبيه يوناني لجأ إلى إيطاليا فارا من ويلات حرب أهلية ببلاده. تزوج هناك من بلاد الإتريسكيين، وصار له ولدان، أحدهما هو Lucumon. لما مات الأب، بقيت كل التركة من نصيب إبنه هذا، لأن أخاه توفي من قبلُ وترك زوجته حامل. قبل موته كان الأب يجهل ذلك الحمل فما وصّى بشيء من تركته لحفيده. لما ولد الحفيد نشأ فقيرا وسمي بسبب ذلك Égérius[1]".

[1] كما سترى ذلك لاحقا، سيكون ابن هذا الأمير هو أول قنصل بالجمهورية الرومانية مع أمير آخر كانا كلاهما من أبطال إنهاء الملكية الرومانية.

"تزوج Lucumon من فتاة إتريسكية من بيت نبيل، إسمها Tanaquil. لكنها لم تتحمل استخفاف نبلاء بلدها بزوجها لكونه غريبا ولكون أبيه يونانيا منبوذا ومنفيا من وطنه. ففضلت على حب وطنها العمل على ترقية زوجها إلى المقام الذي يليق بهما. غادراه طلبا لذلك المجد بروما. وذلك لما علمت أن ولوج فئة النبلاء الناشئة في هذه المدينة الجديدة كان يتم أيضا باستحقاق وجدارة الأشخاص وليس فقط بالوراثة. فمن الممكن إذا لزوجها Lucumon أن يجد مكانه بين نبلائها بالنظر لما كان يتصف به من شجاعة وإقدام. ولا سيما وقد سبق أن كان لروما ملكان أجنبيان. بل عُرض عرشها على نوما وهو مستقر ببلده. وكان الملك Ancus من أم أجنبية عن روما فما كان له من النبل سوى عن طريق وراثة مجد جده نوما. لكل ذلك لم تجد Tanaquil صعوبة في إقناع زوجها الطموح بالالتحاق بروما مع ثروتهما، ومغادرة وطنهما الذي لم يكن يربطه به سوى أصل أمه الإتريسكي".

"قيل أنه لما اقتربا من روما نزل نسر ببطء من السماء حتى نزع قبعة Lucumon من فوق رأسه، ثم حلق بها في السماء وعاد ووضعها في مكانها على رأسه. قدرت زوجته، كعادة الإتريسكيين في حبهم لتأويل الخوارق، أن تلك كانت بشرى من الآلهة[1]. فبشرت زوجها بالمجد القادم بالنظر لنوعية الطير وللمكان وللقبعة كأعلى شيء فوق الجسد. نزْعها والصعود بها إلى السماء ثم ردها إلى مكانها فوق الرأس، كل ذلك يعني أن نصيب زوجها في المجد الذي حرم منه هناك في وطنهما سيعود إليه بمشيئة الآلهة هنا بروما". وهذا لا يعدو أن يكون خرافة من نسيج خيال القصاصين الذين ربما سمعوا أن الواقعة كانت رؤيا رأتها الزوجة في المنام ثم حولوها هم إلى واقعة حقيقية كما كان يحلو للناس سماعها.

ويسترسل تيت ليف قائلا : "فدخلا المدينة مغمورين بالفرح واشتريا بها منزلا. بدأ Lucumon بتغيير أسمه باسم Lucius طاركان Priscus ius[2]. وكان يظهر متميزا عن الرومان بثروته وبكونه أجنبيا. كان يعمل بنفسه على تنمية حظه بين كل الناس بفضل ما كان يكنه من ود للجميع وبكرم الضيافة وبفعل الخير الذي جعل جميع من عرفهم يتعلقون به. وصل خبره للملك Ancus. ولما التقى به وتعامل معه صارت تربط بينهما صداقة بفضل سخائه ومهارته في حسن القيام بما كان يُكلفه به من مهام. حتى صار من كبار مستشاري الملك في كل الأمور الخاصة والعامة، بما فيها أمور الحرب والسلم. ومن بعد ما جربه الملك في كل شيء عيّنه في وصيته ولي أمر أبنائه. لكنه لم يقنع بذلك فكان أول ملك اعتلى عرش روما بسعي منه، بخلاف سابقيه الذين تم اقتراحهم على الهيئات العشائرية لاختياره. فما السبب في ذلك ؟

عند وفاة كل ملك من الملوك السابقين كان مجلس الشيوخ والمواطنون بالهيئات العشائرية يطرحون أسئلة سياسية على أساسها كان ينبغي اختيار الملك الجديد. من بعد روميلوس كانت الحاجة تدعو لتهذيب أخلاق وسلوكيات الشعب من بعد حروب متواصلة. فجيئ بنوما الطيب ملكا. ومن بعده صارت الحاجة إلى ترويض الرجال على خوض الحروب من بعد فترة طويلة من السلم حماية لحرية روما وشعبها. فتم اختيار Tullus Hostilius ملكا. ثم تبين أنه قد أفرط في إهمال الجانب الديني في حروبه واغضب الآلهة في اعتقاد الشعب البطريقي. لذا من بعده تم اختيار Ancus Marcius ملكا. وهو حفيد الملك السابق نوما الطيب. وكما كان منوقعا منه، توفق في تحقيق التوازن بين متطلبات كل من الدين السياسة العسكرية.

لكن حال الشعب في هذه الفترة من تاريخ روما ليس هو حال أجيال الشعب السابقة. وتحوّل حال الشعب يتبعه حتما التحوّل اللازم في نظام الحكم. عند الهجرة إلى البقاع الخالية من الأرض غالبا ما يسود المهاجرين شيء من التكافؤ الاجتماعي فيما بينهم. كذلك كان مثلا حال المستوطنين الأوائل بأرخبيل البندقية حتى نشأة الجمهورية في آواخر القرن السابع للميلاد. وكان ذلك هوحال المستوطنين الطهرانيين الإنݣليز في شمال أمريكا منذ بديات القرن السابع عشر للميلاد. لم تكن هنالك فوارق كبيرة بين الأغنياء

---

[1] كما يقول تيت ليف في مقدمة الكتاب، كان يحلو للأوائل أن ينسبوا كل الأمور العظيمة للآلهة حتى في حال ما كانت أسبابها الموضوعية واضحة. ذلك حتى تكسب قداسة لما فيها من عبر متفقة مع منظومتهم الأخلاقية.

[2] نسبة إلى مسقط رأسه طاركينيا *Tarquinia* ببلاد الإتريسك وطن أمه وزوجته الإيتريسكية. وهو الإسم الذي يرثه منه نسله كأسرة نبيلة وبطريقية، على أساس أنه الأب الروحي لها.

والفقراء وبين الأقوياء والضعفاء. فتيسر لهم إنشاء أنظمة ديمقراطية. أنظمة يشارك فيها جميع المواطنين المؤهلين على قدم المساواة، إما مباشرة أو من خلال ممثلين عنهم منتخبين، في اقتراح وتطوير واستحداث القوانين. أنظمة السلطة التشريعية فيها بيد الشعب مباشرة إو بصفة غير مباشرة. هكذا كان التشريع في روما من نصيب الملك بتفويض من الشعب البطريقي الذي كان ينتخبه بواسطة الهيئات العشائرية التي يصوت فيها كل رجل بطريقي على قدم المساواة.

لكن مع مرور الزمن ومع تتالي الحروب التي خاضتها روما ظلت الهوة تتسع بين الفئتين. وكان حينها امتلاك الأراضي الزراعية والمراعي والغابات هو أهم مصدر للثروة. وكل انتصار في الحرب كان يُسفر عن توزيع الأراضي المحتلة على كبار رجال الجيش من الخيالة، إما بالتملك أو بالإيجار في حال ما قرر الملك أنها أراضي عمومية في ملك الدولة الرومانية.

فيصير من الصعب على الأغنياء القبول بالتساوي في التصويت بينهم وبين متوسطي الحال والفقراء من البطريقيين بكل من مجلس الشيوخ والهيئات العشائرية حيث كانت تتجسد سيادة الشعب البطريقي. من موقعهم كانوا الأدرى من غيرهم بشؤون الدولة وبمصالحها. ثم كان الجزء الأوفر من المغرم من نصيبهم في الحرب وفي السلم. فكان لا بد لهم من نظام حكم جديد يحقق التوازن بين مصالحهم وبين مصالح غيرهم من البطريقيين. وما كان بإمكانهم فرض ذلك بالقوة. كل حرب أهلية كانت مدمرة ومهلكة للجميع. والاستبداد بالحكم غير وارد مع شعب لا يزال متشبعا بقيم الحرية والتي يضفي عليها قدسية دينية. فكان لا بد من انقلاب أبيض على الوضع القائم بالتحايل عليه، ومن دون ضجيج ولا حوادث تذكر.

كانت المرحلة تقتضي منهم اختيار ملك جديد يحقق بحنكته التوازن بين مصالح الفئتين. فذلك كان هو البرنامج السياسي للملك الخامس لروما. وكالعادة كان لا بد من أن يكون غريبا حتى يكون على نفس المسافة بين كبار القوم من اللاتين ومن الصابيين. وكان لا بد من أن يكون بثرائه الخاص من بين المستفيدين من ذلك البرنامج السياسي. كما كان ينبغي أن يكون متمرسا على إدارة الدولة في السلم والحرب. وقد تجمعت تلك المواصفات كلها في طاركان الإتريسكي، مستشار الملك السابق وصديق الجميع من عليّة القوم بروما.

لكن ربما كان في اقتراحه من طرف أقرانه على الهيئات العشائرية شُبهة قد تجعلها ترفضه. ففضلوا أن يتقدم لها بنفسه. هكذا على غير العادة، يكون هو أول من سعى لاعتلاء العرش، بدلا من أن يتم اقتراحه على الشعب البطريقي. وكان من السهل عليهم هم التأثير على التصويت لصالحه حتى بشراء أصوات الفقراء ومتوسطي الحال بالهيئات العشائرية ثم بمجلس الشيوخ. بذلك تنتقل السيادة من يد عموم الشعب البطريقي لتستقر في يد عليّة القوم وتنتهي عمليا الديمقراطية، ويبدأ عصر حكم الأخيار أو عهد الملكية الأريستقراطية. نظام حكم جديد متوافق مع متطلبات تلك الفترة من تاريخ روما، والذي سيبدأ في ظاهره ديمقراطيا، لكنه سيصير مع الملك اللاحق أرستقراطيا سافر الوجه. فماذا عن هذه المرحلة الانتقالية من الديمقراطية إلى الحكم الأريستقراطي ؟

المرحلة الانتقالية

بمناسبة وفاة الملك يقول تيت ليف: "حكم Ancus أربع وعشرين سنة. وكان عظيما ككل من سبقه في السلم والحرب. وعند وفاته كان أبناؤه قريبين من البلوغ. وكان طاركان يُلح على انتخاب ملك جديد. لما استدعي الهيئات العشائرية للاقتراع، كان قد أبعد الأمراء عن المدينة بذريعة خروجهما للصيد. ويقال أنه كان أول من اقتنص عرش الملك بسعي واضح منه". والتقاليد كانت تريد أن يؤول العرش من بعد وفاة كل ملك إلى مجلس الشيوخ كوصي عليه إلى حين انتخاب الملك الجديد من طرف الهيئات العشائرية. لكن من الظاهر أن الملك Ancus لم يترك مستشاره طاركان فقط وصيا على أبنائه، بل حتى على العرش من بعده وبإيعاز منه. وإلا كيف

يصح أن يستدعي الهئة العشائرية لانتخاب الملك الجديد ؟ أما أبناء الملك السابق فلم يكونوا بعدُ بالغين. فما كان من داعي لإبعادهم عن المدينة بذريعة خروجهما للصيد حتى يخلو لولي أمرهما طاركان الترشح لاعتلاء العرش من دون منافس.

ولتبرير سعيه للملك بخلاف من سبقه، قال عنه تيت ليف : "كان طاركان يخاطب الهيئات العشائرية البطريقية بحماسة من أجل كسب أصواتها. كان يقول لها : "طلبي لاعتلاء العرش ليس ببدعة[1]. الأمر الذي كان من شأنه أن يثير استغراب الجميع واستياءهم. لكن أنا الأجنبي الغريب الثالث الذي يطمع[2] في اعتلاء العرش. فملك الصابيين لم يكن فقط غريبا بل كان عدوا لروما. ومع ذلك قد اختاره روميلوس ليشاركه في الجلوس على عرش مملكته. ونوما لم يكن يعرف روما سوى بالإسم، ومع ذلك استُدعي لحكمها من دون حتى مجرد تفكيره هو في طلب ذلك. فجاءها ملكا مع زوجته وبثروته. ومنذ أن وصل لذلك العمر الذي يمكّن من إسداء خدمات نافعة للدولة، عاش ملكا بروما أكثر مما عاش مجرد مواطن بوطنه. منه تعلم حفيده الملك Ancus كل شيء. وكان ينافس باقي المواطنين الرومان في التعلق بالملك. كان ينافسهم مع المَلك في خدمة الوطن". ثم علق تيت ليف على ذلك بقوله : "وبما أن طاركان لم يقل شيئا متنافيا مع الحقيقة، أجمعت الهيئات العشائرية على انتخابه ملكا جديدا لروما". ولُقّب لاحقا بـ طاركانl'Ancien أي طاركان القديم، للتمييز بينه وبين إبنه لمّا صار آخر ملوك روما.

بخلاف من سبقوه ولتبرير اعتلائه للعرش بسعي منه، انصب اهتمامه على الشؤون الداخلية حتى يتميز بها عن غيره. ويقول تيت ليف في إنجازاته : "جلب هذا الرجل المتميز لعرش روما نفس العبقرية الطموحة التي فتحت له الطريق إليه. لتعزيز سلطته ولتوسيع حدود مملكته عيّن مائة عضو جديد بمجلس الشيوخ[3]، بوصفهم منذ ذلك الحين آباء الأمة patriciens لكن من الدرجة الثانية. هكذا انشأ بالمجلس، وبصفة مكشوفة، حزبا مواليا له بفضل ما أغدق عليه من تشريف". فقد صار بذلك ملكا ورئيس حزب أو نادي علية القوم ليس فقط بمجلس الشيوخ بل خارجه. ففقد المجلس حريته وصارت سلطاته بيد الملك وحزبه من حوله. ويزيد تيت ليف قائلا : "ووزع على بعض الخواص الأراضي المحيطة بالساحة العامة le Forum ليشيدوا فيها أروقة ومحلات تجارية". ربما كان ذلك السخاء الطائي من نصيب من كان هو لا يزال يشك في ولائهم له ولمشروعه السياسي الذي تم على أساسه تدعيم انتخابه ملكا من طرف علية القوم بحزبه. وبذلك كان يشتري حرية بقية الشعب البطريقي لصالحهم.

ثم يقول تيت ليف : "وكانت أول حروبه ضد اللاتين[4]. هاجم المدينة الثائرة وعاد منها بغنائم أوفر مما كان يتوقع من غزو قليل الأهمية كهذا. فاستعملها في تنظيم ألعاب فرجوية أكثر فخامة وبهجة مما كان في عهد الملوك السابقين. وهناك حيث أقيمت تلك الألعاب سطر أساسات السرك الكبير. وعند بنائه عين فيه أمكنة خاصة بأعضاء مجلس الشيوخ وأخرى خاصة برجال الخيالة. كل منهم تكلف ببناء شرفته فيه". هكذا لم يعد الأثرياء من علية القوم من البطريقيين يختلطون بغيرهم من فئتهم حتى بالسرك. فصار لتلك النخبة الأريستقراطية مكانة متميزة بروما. وبما أنه ما كانت للدولة مرافق للأشغال العومية حتى تشرف عليها بنفسها فلا شك في انتفاعهم من المال العام المخصص كمقاولين لتشييد تلك المشآت الضخمة. وزاد تيت ليف قائلا بخصوص الأنشطة المقامة بالسرك : "ومن بين الألعاب التي كانت تقام فيه سباق الخيول ومباريات المصارعة بين الأبطال الرياضيين[5]. فصارت تلك الألعاب سنوية، وسميت حينا الألعاب الكبرى وحينا آخر الألعاب الرومانية". منذ ذلكالحين ظلت السياسة العامة القارة بروما تكمن في توفير القمح والفرجة.

---

[1] كما سترى ذلك، الذي يعنيه بالبدْعة هنا ليس هوالطلب لأنه بدعة حقا، بل الذي ليس ببدعة هو كونه أجنبي الأصل.

[2] لكن ما طمع أحد ممن سبقه في العرش، بل عُرض عليهم فقبلوا به.

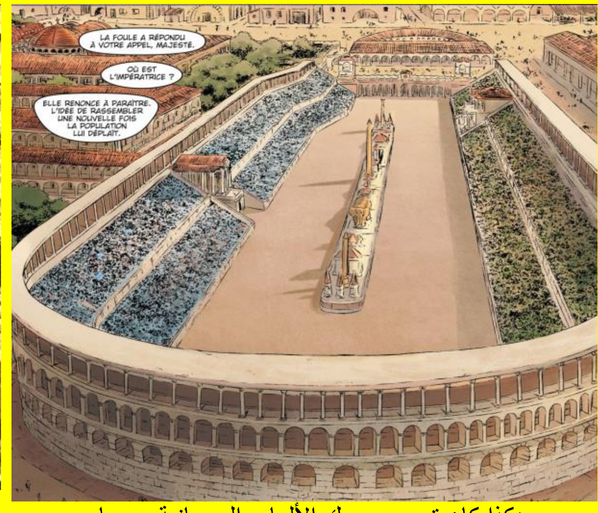
[3] كان تعيين أعضاء مجلس الشيوخ من اختصاص الملك منذ عهد روميلوس مؤسس روما الذي أسس ذاك المجلس للحسم في أمور الحرب والسلم. وقد أضاف المجلس لنفسه حق المصادقة على الملك الذي كان ينتخبه الشعب أو يرفضه.

[4] الذين عادوا وأعادوا تشييد مدينتهم من بعد تدميرها من طرف *Ancus* وضم أهاليها لروما ولشعبها.

[5] وكذلك العبيد والأسرى



لوحة تظهر شكل السرك في وسط مباني المدينة



هكذا كان تصميم سرك الألعاب الرومانية بروما




لوحات تصور مشاهد بعض الألعاب التي كانت تقام بالسرك

ثم يقول تيت ليف : "كان طاركان بصدد بناء سور من الحجر حول روما، لولا أن جاءت حرب الصابيين لتعترض طريق ذلك المشروع. تفاجأ الرومان بهجومهم فلم يتمكنوا من إيقافه. فأخذ روما شعور بالرعب. وفي اللقاء كانت المجزرة كبيرة بالجانبين ولم يكن النصر محسوما لصالح أي منهما. لكن انسحاب العدو لمواقعه ترك للرومان فرصة استنفار قوات جديدة. فرأى الملك طاركان أن سبب ضعف الجيش كامن في قلة عدد الخيالة. وقرر إضافة مجموعات جديدة للمجموعات الثلاث التي شكلها روميلوس. وبما أن روميلوس استشار العرافين من قبل تشكيله لتلك المليشية، زعم الكاهن العراف Attus Navius، وكان هو أشهرهم حينها، أنه لا يمكن تغيير عددها من دون الاستقسام بالطيور[1]. فاستنكف الملك من جرأة ذلك العرّاف وتطاوله عليه. وقيل أنه للسخرية من علمه، قال له : "استقسم يا عراف طيورك وقل لي إذا ما كان ما أفكر فيه الآن قابلا للإنجاز". فسأل العارف الطالع ثم رد عليه بالإيجاب. فقال له الملك "كنت أفكر في أنك قادر على قطع هذه الحجرة بشفرة حلاقة. خذها إذا وقم بما قالت لك تلك الطيور بأنه ممكن". قيل أن Navius قام من حينها ومن دون تردد فقطع فعلا الحجرة بالشفرة. وشيد تمثال لذلك العراف برأس مغطى بالمكان الذي حصلت فيه تلك المعجزة مع الحجرة التي قطعت بشفرة، لتخليد ذكراها". ويشك تيت ليف في صحة تلك الخرافة فيقول : "لكن المؤكد هو حصول العرافين منذ ذلك الحادث على مصداقية كبيرة[2]. صار لطقوسهم شأن عظيم، بحيث لم يعد بالإمكان الإقدام على أي شيء كالحرب والسلم من دون المرور باستقسام طيورهم. فاستدعاء الهيئات العشائرية ومجلس الشيوخ واستنفار الجيش أو مناقشة الأمور الأشد خطورة صارت كلها تتوقف وتُأجل أحيانا إذا لم توافق عليها طيور العرافين المستقسم بها. فعدل حينها الملك طاركان عن تغيير عدد الخيالة، واكتفى بمضاعفة عدد المشاة لتقوية جيشه".

"ومن بعد تقوية جيشه هاجم الملك طاركان الصابيين. وبالرغم مما كان لديه من قوة استعان كذلك بالخداع. أشعل النار في عدد كبير من الحزمات الخشبية، وأمر بإلقائها مشتعلة في النهر. وبمعونة الريح ظلت مشتعلة حتى وصلت إلى أعمدة قنطرة خشبية فانتشرت فيها النار. أرعب ذلك المشهد الصابيين وهم يقاتلون، لأنه كان يشكل لهم مانعا من الانسحاب إلى مدينتهم في حال ما صاروا في وضع صعب[3]. فهلك عدد كبير منهم في النهر هربا من حر سيوف الرومان. وأسلحتهم التي حملها النهر حتى روما كانت إعلانا لأهاليها بالنصر الباهر للملك طاركان، من قبل أن يصلهم رسوله بالخبر. كان

[1] الطالع *auspices* وهي بعض العناصر الكونية كالطيور المارة في السماء مثلا، والتي كنت تعطي بزعم العراف إشارات، تدله على جواز فعل الشيء أوعلى واجب الامتناع عن فعله، اتقاء لغضب الآلهة.

[2] قد تكون تلك القصة من نسيج خيال القصاصين، وبالضبط من أجل إعطاء العرافين تلك المصداقية.

[3] وذلك هوما تيسر لهم المرة السابقة ونجوا من الهزيمة.

طاركان مقتنعا بواجب انتهاز فرصة رعب العدو المهزوم للقضاء عليه. فبعث بالغنائم والأسرى إلى روما. ثم أحرق كل أسلاب الصابيين المكدسة، واقتحم أراضيهم. لكن بالرغم من هزيمتهم وقلة أملهم في المستقبل وانعدام الوقت للتداول، تجرأوا على مواجهة الرومان بجنود جَمعوهم على عجل ومن دون تنظيم. فكانت الهزيمة الثانية التي قضت على كل مقوماتهم واضطروا لطلب السلم. فقدوا مدينة Collatie[1] وأراضيها. وسلّم طاركان حكمها لابن أخيه Égérius[2]. وقد استسلم سكانها على النحو التالي. توجه الملك لمندوبي الأهالي وسألهم : "هل أنتم من انتدبهم شعب مدينة Collatie لتكونوا أنتم وشعبكم تحت حكمي ؟" فقالوا "نعم". ثم قال : "هل شعبكم مستقل في قراراته ؟"، فقالوا "نعم". ثم قال : "هل تسلمون أنفسكم أنتم شعب Collatie ومدينتكم وبواديكم ومياهكم وحدودكم ومعابدكم وممتلكاتكم المنقولة وأخيرا كل أشياء البشر والآلهة لحكمي وحكم الرومان"، فقالوا "نعم". وقال أخيرا : "أقبَل إذا ذلك منكم بإسمي وبإسم الشعب الروماني"[3]. وما أن انتهى من الحرب على الصابيين حتى عاد منتشيا بنصره إلى روما. ثم وجه سلاحه ضد اللاتين القدامى الذين لم تحسم أبدا روما أمرهم[4]. بالهجوم على كل مدنهم واحتلالها واحدة تلوالأخرى أخضع جميع من يحمل إسم اللاتين.". ومثل هذه الغنائم في الحروب كانت توزع على كبار الضباط بالجيش من حزبه الأريستقراطي، فكانت توسع الهوة بينهم وبين باقي البطريقيين.

لكن لم تكن كل مكاسب الحروب توزع على كبار الضباط بالجيش. بل كان جزء كبير منها يعود بأمر من الملك إلى خزينة الدولة. ومنها إيجار الأراضي المحتلة والتي صارت بأمر منه ملكا عموميا. وبذلك المال العام المكدس استطاع الملك طاركان الاستمرار في تشييد المعالم العمرانية الكبرى بروما من أجل أضفاء هيبة على ملكه وعلى المدينة بالداخل ولا سيما بالخراج. هكذا يقول في حقه تيت ليف : "ومع الانتهاء من الحرب، شرع في تنفيذ مشاريع عمرانية بالمدينة. فأتم بناء السور من الحجر المنجور. وكانت المياه العادمة المنحدرة من المرتفعات المأهولة تكوّن مستنقعات مزعجة لراحة السكان بالأراضي المنخفضة بوسط المدينة حول الساحة العامة Forum. فأمر بتجفيفها وشيّد قنوات لتصريف كل تلك المياه العادمة إلى نهر التيبر. ثم خطط لتشييد قلب المعبد المخصص لجوبتير بمناسة حربه على الصابيين والذي كانت أساساته تبشر بمستقبل روما العظيم". وقد كان مرة أخرى يستفيد من تلك المنجزات الأثرياء بحزبه الأريستقراطي.

وبخلاف الملوك السابقين تشكل حزب معارض للملك طاركان ولحزبه. أوائل ملوك روما ما كانوا ممتنّين لأحد في اعتلاء عرشها حتى يتحيزون له على حساب بقية الشعب. لم يعتلوه بسعي منهم. فظلوا يحظون بالإجماع عليهم طيلة حياتهم، اللهم روميلوس الذي لم يُعثر على جثته وظل الشك قائما في أن أعضاء مجلس الشيوخ من الصابيين هم الذين فتكوا به انتقاما منه لملكهم الذي اغتاله قوم من اللاتين ولم ينتقم منهم.

أما الملك طركان فقد كان زعيم حزب أريستقراطي مكشوف، واعتلى العرش على أساس مشروع سياسي متحيز لأعضائه من الأثراياء على حساب غيرهم من البطريقيين. زد على ذلك اعتلاؤه لعرش روما بسعي منه. فكان ينبغي أن يكون ممتنّا للهيئات العشائرية التي وافقت عليه. وما كان ينبغي أن يفضل عليها الأثرياء من بينها. هكذا وبصفة طبيعية تشكل بروما حزب معارض له ولحزبه. حزب كان يتشكل من البطريقيين متوسطي الحال وفقرائهم الذين صاروا من أجل اكتساب الرزق يجدون أنفسهم في السلم مختلطين بالعوام وحتى بالعبيد بأوراش البناء ومختلطين في الحرب بالعوام. وكان من بينهم الأثرياء الذين لم يسعفهم الحظ في الحصول على نفس الامتيازات التي حصل عليها غيرهم.

---

[1] على بعد خمسة عشر كيلومترا شمال شرق روما.

[2] الأمير *Égérius* هو الذي توفي جده أب طاركان من دون أن يعرف أن أمه كنت حاملا به، فلم يوصي له بشيء من تركته التي آلت كلها لعمه طاركان. وابن هذا الأمير *Égérius* هو الذي سيكون لاحقا مع أمير آخر سببا في نهاية عهد الملكية وبداية عهد الجمهورية ويصبح أحد قنصليها الأولين.

[3] فكان في ذلك مذلة عظيمة للشعب المهزوم.

[4] نفهم حينها أن الأمر كان كذلك مع باقي الشعوب. كنا نستغرب من ضم قوم للشعب الروماني ثم نجده مرة أخرى في حرب معه. الذي لم يوضحه ربما النص هو أن الأمر كان يتعلق بمدينة من باقي مدن ذلك الشعب وليس بكل مدنه.

وبما أن مجلس الشيوخ والهيئات العشائرية أصاب كل منهما الضعف والهوان فقد تسرب التخوف من توريث العرش لأحد أبناء الملك من بعد وفاته حتى يحافظ لأعضاء حزبه على مكاسبه. وكان ولدا الملك السابق أنكوس من بين أشد المعارضين لذلك الحزب وللتوريث. فتحلقت من حولهما باقي المعارضة، وصار التفكير في التخلص من الملك طاركان باغتياله. لكن الذي ورث منه لاحقا العرش وزعامة الحزب الأريستقراطي كان واحدا من عبيده وليس واحدا من بين ولديه. وهو الأمر الغريب، الذي أغرى القصاصين بنسج الأساطير من حوله. قال في ذلك تيت ليف : "في ذلك الوقت حصل أمر غريب في طبيعته وفي ما سيليه من أحداث بالقصر الملكي. قيل[1] أن لهيب نار اشتعل بشعر طفل نائم اسمه Servius Tullius. فملأ ذلك الحدث الغريب القصر صياحا، وجلب إليه الملك وأسرته. ولما جاء أحد الخدم بالماء لإطفاء لهيب تلك النار، أوقفته الملكة، وأمرت بالهدوء ومنعت الاقتراب من الطفل حتى يستيقظ بنفسه. لكن النار خف لهيبها ثم انطفأت مع بقاء الطفل في سباته. حينها انفردت الملكة بزوجها وقالت له : "هل ترى هذا الطفل الذي نتبناه في ظروف متواضعة؟ اعلم أنه سيكون ذلك النور الذي سيُنعش آمالنا حين تكون تلك الآمال على وشك الانطفاء. وسيثبت عرشنا يوم يزلزل. فعلينا أن نحُفّ عربون عظيم مجدنا هذا ومجد روما بكل عنايتنا وبكل عطفنا"". إذا كانت قد أفردت زوجها بهذا الحديث الخطير فكيف وصل للقصاصين ؟ لكن من يحلو لهم سماع مثل تلك الأساطير كان يحلو لهم عدم التفتيش فيها عن الواقع البسيط والخالي من الإثارة.

ثم يسترسل تيت ليف قائلا : "فتعهدا الطفل وكأنه ولدهما من صلبيهما. وربياه التربية التي تليق بأمير يتشوف لمستقبل عظيم. ولا بد لمشيئة الآلهة أن تتحقق. حينها نمت في هذا الطفل صفات الملك طيلة شبابه. ولما بحث الملك طاركان عن صهر ليزوجه ابنته لم يجد من بين شباب روما أفضل من الشاب Servius Tullius فزوجه إياها". وعن مبررات القبول بتلك الخرافة يقول تيت ليف ملمحا لحقيقة أصل الطفل : "هذا الشرف المتميز، مهما كان سببه، كان لا يسمح بالاعتقاد أن Servius Tullius قد أنجبته أمَة من إيماء زوجة الملك[2] ولا أنه كان هو نفسه عبدا في طفولته". ثم يعرض وجهة النظر المعقولة فيقول : "وأنا أقبل بسهولة الرأي التالي فيه. لما احتل الرومان مدينة Corniculum من بلاد اللاتين، قُتل ملكها Servius Tullius وترك زوجته حاملا. ولما تعرفت زوجة الملك طاركان عليها وعلى علو منبتها من بين الأسيرات، حررتها وأسكنتها معها بالقصر. هناك وضعت ذلك الطفل Servius. ونمت بين المرأتين علاقة حميمة وثيقة. تلك العلاقة التي في كنفها تربى ذلك الطفل وحظي بكل ما يستحقه من احترام. فلم تكن أمّه أمة ولا هو كان عبدا كما هو شائع".

لكنه تربى في القصر تربية الأمراء وكان أذكى من أبناء الملك. ولما بلغ الرشد صار كما تقدم صهرا للملك وكان من مستشاريه المقربين، فتعرف عليه أعضاء حزبه من كبار الأثرياء. بل صار عضوا بارزا في نفس الحزب يحظى بتقدير الجميع وبالأهلية لاعتلاء العرش من بعد طركان. وذلك للحفاظ على تركته السياسية ولتطويرها. ولهذا كانت زوجة الملك تفضّله على ولديها لأنه بفضله كان بالإمكان أن تستمر الأسرة في الملك بشكل أو بآخر. فقال في ذلك تيت ليف : "بلغت مدة حكم طاركان القديم ثماني وثلاثين سنة تقريبا. وكان صهره الشاب Servius يحظى بكامل التقدير ليس فقط من جهة الملك بل كذلك من جهة أعضاء مجلس الشيوخ والشعب"

ولم يكن كل ذلك سرا. الأمر الذي أجّج مشاعر الغضب والكراهية عند ولدي الملك السابق وعند عموم المعارضة من حولهما. كيف للغريب وابن الأمة أن يغتصب العرش من بعد موت سيده ؟ فيقول تيت ليف : "كان ولدا الملك السابق Ancus ما يزالان حاقدين على ولي أمرهما الملك طاركان القديم بسبب حرمانهما من عرش أبيهما لصالحه. كان يحز في نفسيهما أن طاركان اعتلى عرش روما بالرغم من كونه أجنبيا عنها، وأنه لم يكن حتى من أصل إيطالي[3]. وما زاد في حقدهما عليه هو ليس فقط حرمانهما مرة أخرى من اعتلاء عرش روما من بعد وفاته

---

[1] وإيراد المؤلف تيت ليف للخبر هنا مصدّرا بكلمة "قيل" فيه إشارة منه على خرافة. لكن لها أهميتها في التاريخ. لأن الناس كانوا يحبون أن تُلفّ الأمور العظيمة بالخوارق لتفسيرها وتغليفها بصبغة دينية حتى تكتسي قدسية فيصدقها الناس وتحظى بالاحترام والإذعان لأبطالها حفاظا على الأمن والسلم الاجتماعي. لكن تيت ليف سيورد لاحقا ما يعتبره القصة الراجحة عنده.

[2] لدحض تلك الخرافة يورد هنا تيت ليف ما يعتقده معقولا بخصوص أصل ذلك الطفل.

[3] تذكّر أن أباه كان من أصل يوناني وأمه كانت إيطالية من الإتريسكيين

هو، بل تدنيس ذلك العرش ثانية بجعله في يد عبد من عبيده[1]. كانا يقولان أن هذه المدينة التي أسسها من قبل روميلوس، وهو الإله وابن الإله الذي حكم الأرض، ستصبح هكذا خاضعة من بعده لعبد وابن أمة لم يُخلق سوى للاسترقاق. فاعتبرا إنْ هما، أبناء الملك Ancus، تركوا العرش، وهما أحياء، بيد أجانب وعبيد، فسيكون ذلك خزي وعار على الرومان وعلى بيتهم الملكي. اعتبرا أن الحديد وحده قادر على منع تلك المهانة". وبلا شك كان الحزب المعارض من حولهما يؤيدهما ويحرضهما على تنفيد مشروعهما من داخل القصر.

ثم يقول تيت ليڤ : "لكن حقدهما على طاركان القديم كان أكبر من حنقهما على صهره Servius. فلو بقي الملك من بعد قتل صهره، سيكون انتقامه منهما أكثر قسوة من الانتقام من إنسان عادي. ثم من بعد قتل الصهر لن يتوانى طاركان على ضمان مرور العرش لصهره الجديد الذي سيحلو له اختياره. فصارا يخططان لقتل الملك نفسه. اختارا لتنفيذ تلك المؤامرة إثنين من الرعاة متحمسين لارتكاب الجريمة، واللذان دخلا إلى ساحة القصر بأدوات الرعي وافتعلا عراكا صاخبا جمّع من حولهما انتباه الحرس. بتوسلهما لعبيد الملك وصلته أصواتهما فأمر بإحضارهما. ثم شرعا في الكلام معا. حينها أسكتهما الحارس وأمرهما بالحديث واحدا تلوالآخر لما يأتي دوره. فامتثلا للأمر. ولما كان الملك ملتفتا ينصت لمن يتكلم منهما انهال الآخر على رأسه بخنجر كان تحته، ثم همّ بالفرار هو وشريكه تاركين الحديد في الجرح، لولا أن تمكن الحرس منهما". لكنهما عجّلا بذلك بداية عهد صهره من بعده. بل عجلا به العهد الذي ستنتقل فيه السيادة من عموم الشعب البرطريقي إلى الأثرياء من علية القوم. عجلا به الانتقال من الملكية الديمقراطية إلى عهد الملكية الأريستقراطية. كيف حصل ذلك التحول ؟

عهد الملكية الأرستقراطية (616 ق.م. – 535 ق.م.)

يقول تيت ليڤ : "سقط طاركان الجريح يحتضر بين أيدي من حوله. فاعتلى الصياح وحضرت جموع الشعب تتساءل عما حصل. هناك تدخلت زوجة الملك وأمرت بإقفال الأبواب وبإبعاد الناس عن القصر وبعلاج جرح الملك. ثم أحضرت صهرها Servius ليرى ما حصل واستحلفته بأن ينتقم للملك وألا يتركها عرضة لنكاية الأعداء. قالت له "إذا كنت رجلا فالعرش لك، وليس للأعداء الذين انتدبوا أيادي الغرباء ليرتكبوا هذه الجريمة البشعة. قم واخضع لأوامر الآلهة التي ندبتك لسلطان المُلك، أنت الذي بشّرتك بعلو شأنك حين أوقدت في شعرك الشعلة السماوية وتوجت رأسك بنورها. فلتوقد تلك الشعلة اليوم همّتك، وليبدأ اليوم عهدك. نحن قد كنا كذلك أجانب، ألم نحكم ؟ فكّر في من أنت وليس في من أين أتيت. وإذا حال شيء مّا غير متوقع دون عزمك، فاتركني على الأقل أقود خطاك". بطبيعة الحال في هذا الخطاب شيء من نسيج القصاصين. كما تقدم، مثل ذلك الحديث يُسرّ به ولا يجهر به، فكيف للقصاصين وغيرهم سماعه ؟

وزاد تيت ليڤ قائلا : "حينها تعالت أصوات الجموع التي صار صبرها لا يقاوم. فأطلت زوجة الملك من إحدى نوافد القصر، وصارت تخاطب منه الناس بحماس كي يهدّئوا من روعهم، وقالت لهم : "فُجائية الضربة دوّخت الملك. لكن الجرح غير عميق وقد كف دمه. قد استعاد الأمير وعيه وهو في مأمن من كل خطر. سيخرج إليكم بنفسه عما قريب. وإلى ذلك الحين فعليكم بطاعة صهره Servius Tullius الذي سيتحمل من الآن مسؤولية القضاء ويتكلف بباقي المهام الملكية". ثم خرج عليهم للتو الأمير Servius في لباس الملوك، يتقدمه الحرس. وجلس على العرش وحسم في بعض الأمور، وتظاهر بعزمه على استشارة الملك في أخرى. هنالك أدرك الأخوان المتآمران أبناء الملك Ancus أنه قد قُبض على المهاجمين، وظنا أن الملك طاركان ما يزال حيا، ورأيا سلطان Servius يتعاظم كل يوم أكثر. لحقهم اليأس وخرجا من المدينة مهاجرين إلى منفى إرادي بعيدا عن روما. هكذا كان الملك طاركان القديم قد توفي منذ مدة، وكان صهره Servius المُخفي لوفاته، يقوي من سلطاته بدعوى ممارستها بالنيابة عن غيره، إلى أن تكشف الأمر أخيرا. حينها وفي وسط النحيب الذي كان يضج به القصر، خرج Servius محاطا بحرس وفيّ له وآمن، واستولى على عرش روما. وبذلك كان Servius أول من صادق مجلس الشيوخ على تنصيبه ملكا لروما من دون سابق اختيار من الجموع العشائرية[2]". ولا غرابة في ذلك فالمجلس كان مليئا بأعضاء من نفس حزب الملك وصهره ومن صنائعهما. فشكل ذلك الخطوة الأولى العملية في إبعاد هيئات العشائر عن الحق السياسي كلية لكن من دون حلها، فلم يبقى من اختصاصها سوى الشؤون الدينية.

---

[1] والمقصود به هو الشاب *Servius* الذي كان عبدا وابن أمة من جراء الأسر. وقد أصبح صهر الملك طاركان القديم كما تعلم.

[2] كما كانت توجب ذلك الأصول المتعارف عليها بين جميع الرومان

بذلك ارتكب سيرفيوس نفس الخطأ الذي ارتكبه من قبله صهره الملك طاركان وأودى بحياته في هذه المآمرة التي دبرها ضده ولدا الملك السابق. طركان ترك هو كذلك ولدان. وحز في نفسيهما أيضا أن اعتلى سيرفيوس هذا عرش روما بالمكر والخداع على حساب حقهما في الترشح له. ومثله مثل طركان سيكون سيرفيوس لاحقا ثاني وآخر ملوك روما الذي سيؤدي حياته بصفة بشعة ثمنا لاغتصابه لعرش روما. سيحصل ذلك بالرغم من الاحتياط الذي اتخذها وقال فيه تيت ليف : "من بعد ما حمى مُلكه من كل معارضة شعبية، أراد سيرفيوس أن يحميها من كل طارئ داخلي. كان للملك طاركان المتوفى ولدان. وحتى لا يكون مصيره مثل مصير طاركان مع أبناء الملك أنكوس، زوّج سيرفيوس ابنتيه من إبني طالاكان". وفي ذلك دليل على أنه كان يكْبرهما سنّا وبكثير.

لكن المعارضة لم يهدأ لها بال. ظلت تتطلع لاقتلاعه من عرش روما. فقط الحروب الخارجية كانت تعطيه فرص لتثبيت ملكه. فقال تيت ليف : "لكن حذر الرجل لم يصمد أمام قانون القدر. فقد تولّد عن التعطش للسلطة أعداء وخونة بكل جانب من داخل القصر الملكي. من حسن حظ الملك Servius حصل أن انتهت مدة معاهدات السلام مع بعض الجيران[1]. فاندلعت الحروب معها من جديد. وفيها تفجر حظه مثل ما تفجرت شجاعته. مزق العدو شر ممزق بالرغم من كثرة عدده. ثم عاد إلى روما مزهوا بنصره الباهر وملكا معتَرفا به منذ ذلك الحين من طرف مجلس الشيوخ ومن طرف الشعب". وفقط حينها شرع بكل اطمئنان في تثبيت الحكم الأريستقراطي الموروث من سلفه بإحداث المؤسسات الدستورية التي تعطيه شرعية وتضمن بقاءه. تغيير الدستور، ذلك كان مشروعه السياسي.

فبدلا من الهئات العشائرية التي كان التصويت فيها من حق كل بطريقي بالتساوي فيما بينهم، جاء الملك Servius بإيعاز من حزبه الأرستقراطي بمؤسسة الهيئات الميئية من خمس طبقات مرتبة تنازليا بمقدار مجمل ثروات أعضائها من البطريقيين والعوام. وللتصويت فيها كان لكل طبقة نسبة مئوية من مجموع أصوات كل أفراد المجتمع متساوية مع نسبة مجمل ثرواتها من الثروة الوطنية. كيف كان يتم احتساب ذلك ؟ على رأس كل خمس سنوات كان يتم إحصاء ثروات كل أفراد المجتمع الروماني في سجلات مع تصنيفهم في ست مجموعات مرتبة تنازليا بحسب مقدار ثروة مجموع أفرادها. المجموعة الأولى كانت هي التي تمتلك أكبر قدر من الثروة، والذي يمثل ما يفوق خمسين في المائة من مجمل الثروة الوطنية. تليها المجموعة الثانية ثم الثالثة ودواليك.

وعند الاقتراع على أي شيء، كان يتم البدأ الهيئة الميئية الأولى المشكلة من بطريقيين وعوام الأكثر ثراء. وبما أن مجمل ثرواتهم كان غالبا ما يشكل أكثر من خمسين في المائة من مجمل الثروة الوطنية كان التصويت ينتهي عندها. وفقط في حال ما مجموع ثروتها تشكل خمسين في المائة أو أقل كان يتم الحسم في الاقتراع باللجوء لتصويت الهيئة الميئية الثانية، وعندها ينتهي التصويت. فصارت باقي الهيئات الميئية بمن فيها من البطريقيين من دون حقوق سياسية.

هكذا حق المواطنة والحرية السياسة والسيادة صار من نصيب كبار الأثرياء بالطبقة الأولى وأحيانا الطبقة الثانية من دون غيرهم. وهو عين نظام الحكم الأريستقراطي. وكان يتم تبريره بتحقيق التكافؤ بين المغنم والمغرم في السلم وفي الحرب. في السلم كانت تُجبى الضرائب من كل مواطن من البطريقيين والعوام بمقدار ثروته المحصاة على رأس كل خمس سنوات. وكان يشارك كل روماني من الفئتين في الحرب على نفقته بمقدار نفس ثروته المحصاة على رأس كل خمس سنوات. هكذا كانت الطبقة السادسة المعدومة من البطريقيين ومن العوام معفاة من الضرائب ومن المشاركة في الحرب.

وقد لخص تيت ليف كل ذلك بقوله : "هكذا في فسحة جو السلم قام Servius بإنجازات ضخمة. إذا كان الملك نوما هو المنشئ للمؤسسات الدينية، فقد ظلت الأجيال اللاحقة تنسب للملك Servius مجد تنظيم الدولة بواسطة التقسيم الميئي للمواطنين le cens، الذي يرتب سكان روما بحسب مراتب فئاتهم الاجتماعية بمعيار مقدار ثرواتهم الفردية.

---

[1] هكذا كانت الحروب مع الجيران مرغوبا فيها أحيانا فقط لخدمة مصالح الحاكم ضد خصومه بالداخل.

كان ذلك النظام من أنفع المؤسسات بالنسبة لشعب موعود لمثل تلك العظمة التي بلغها لاحقا. فقد فرض ذلك التنظيم على كل مواطن المساهمة في تغطية حاجيات الدولة، في حال الحرب كما في حال السلم، ليس بأداء ضرائب فردية موحدة كما كان عليه الحال في السابق، وإنما بحسب مقدار ثروته". لكنه حتى هنا لم يتعرض للمكاسب السياسية التي حصل عليها الأثرياء على حساب بقي طبقات المجتمع. وليس في ذلك من غرابة، فحال الشعب يفرض نظام الحكم الذي يوائمه.


قطعة عملة "as" أثرية رومانية [2]

ثم يفصل تيت ليف ذلك التقسيم الجديد بقوله : "صار المجتمع مقسما إلى طبقات. تتشكل الطبقة الأولى من الأهالي الذين تُقدر ثروة كل منهم بمائة ألف as[1] وما فوق من عملة روما العتيقة. وقُسمت هذه الطبقة إلى ثمانين مجموعة مئوية centuries. أربعين مجموعة منها من الشباب، وتُستنفر عند الحاجة للحرب خارج المدينه. والأربعين الأخرى من الرجال الأكثر نضجا، مكلفة بحماية المدينة. وكان لكل فرد من المجموعتين أسلحة دفاعية من خوذة، ودرع، وطماق للساقين وصدرية. وكانت كلها من معدن البرونز، علاوة على أسلحة هجومية من رمح وسيف[3]. وألحق الملك Servius بهذه الطبقة مجموعتين من العمال عُزّل من السلاح، كانت مهمتهم هي إعداد آليات الحرب".



الخوذة الدرع الصدرية طماق الساقين

صور لبعض عناصر سلاح ضباط وجنود الجيش الروماني من الطبقة الأولى

ثم يسترسل قائلا : "تتشكل الطبقة الثانية من الأهالي الذين تتراوح ثروة كل منهم ما بين أقل من مائة ألف as وستين ألف as من عملة روما العتيقة. كانت مقسمة بدورها إلى عشرين مجموعة مئوية centuries مختلطة، من الشباب ومن أكبر منهم. كان لكل من أفرادها نفس أسلحة الطبقة الأولى مع درع أطول لكن من دون الصدرية. وتتشكل الطبقة الثالثة من الأهالي الذين تتراوح ثروة كل منهم ما بين خمسين ألف as وأقل من ستين ألف as من عملة روما العتيقة. تتشابه هذه الطبقة مع الطبقة الثالثة في التقسيم والتسليح، سوى الطماق فقد أعفاها منه الملك Servius. أما الطبقة الرابعة فتتشكل من الأهالي الذين تتراوح ثروة كل منهم ما بين عشرين ألف as وأقل من خمسين ألف as من عملة روما. لا تختلف مع الطبقة الثالثة سوى في السلاح. لم يكن لها سوى الرمح والخنجر. وكانت الطبقة الخامسة:تتشكل من الأهالي الذين تتراوح ثروة كل منهم ما بين إحدى عشر ألف as وأقل من عشرين ألف as من عملة روما. كانت هي الأكثر عددا ومقسمة لمجموعتين. كانت مسلحة بالمقاليع والحجارة، وتحمل معها الأبواق وآلات النفير. باقي الأهالي العاديين كانوا يشكلون مجموعة واحدة ومعفية من الخدمة العسكرية. هكذا كان الأثرياء يتحملون نفقات كل التكاليف التي كان يُعفى منها الفقراء". هكذا كان يقدم ذلك التقسيم على أنه مجرد تقسيم عسكري معقول ومنطقي ومن دون خلفية سياسية.

وما لم يقله تيت ليف هو أن معيار الثروة في هذا التقسيم كان لا يفرق بين البطريقيين والعوام. تلك الطبقات كانت مختلطة من الفئتين في الجيش عند النفير، بأغلبية من البطريقيين في الطبقات العليا بالنظر لثرواتهم الكبيرة وبأغلبية من العوام في الطبقات الدنيا بالنظر توسط أحوالهم وفقرهم. وسنّ الملك عملية إحصاء للأهالي وثرواتهم كل خمسة سنوات. وكل فرد كان ملزما بالالتحاق بمكان الإحصاء مع ما يثبت مقدار ثرواته حتى يسجل في الطبقة المتناسبة معها. وكان يعاقب المتخلفون عن الإحصاء بغرمات قد تشمل كل ما يملكون.

[1] وكلمة آس aes تعني باللغة اللاتينية معدن البرونز الخام.

[2] قطعة عملة "*as*" أثرية رومانية من معدن "البرونز الخام" وذلك هومعنى كلمة آس باللغة اللاتينية. وهي معروضة بالمتحف البريطاني. وكان وزنها يتراوح ما بين 1،250 كلج و1،500 كلج

[3] والتجهيز بهذا السلاح كان على نفقة كل فرد من هذه الطبقة.

ثم يكشف تيت ليف عن الامتيازات السياسية التي صارت لكبار الأغنياء من حزب الملك على حساب غيرهم لما قال : "لكن الملك Servius عوّض الأغنياء عن ذلك بامتيازات سياسية[1]. منذ عهد روميلوس كان لكل فرد من المواطنين البطرقيين الحق في الاقتراع من دون تمييز. لكن نظام الاقتراع الجديد سنّ الأسبقية في التصويت لمجموعات الخيالة القديمة ثم تليهم مجموعات الطبقة الأولى من الطبقات الجديدة. إن حُسم الأمر المُستفتى فيه بالإيجاب أو بالسلب في هذه المرحلة ينتهي التصويت من دون استشارة باقي الطبقات. وإلم يحصل فيها الاتفاق بين تلك المجموعات، وهو أمر نادر، كان يتم الفصل فيه باللجوء لتصويت مجموعات الطبقة الثانية. لكن قلما كان الاقتراع يحتاج إلى تصويت ما تبقى من الطبقات". لكن تيت ليف لم يوضح سبب ذلك التصويت المتحيز للطبقة الأولى مع الخيالة. وحقيقة الأمر أن مجمل ثروات أعضائها كان يشكل أكثر من خمسين في المئة من مجمل الثروة الوطنية بحسب الإحصاء الذي يتم على رأس كل خمس سنوات. ولذا وصف بالتقسيم الميئي أو المئوي le cens.

فهذا النمط من التصويت شبيه بذلك المتبع اليوم في الجمع العام السنوي للشركات المجهولة رأس المال. الثروة في روما كانت بمثابة الأسهم في الشركة. من يملك فيها مثلا 10% من مجموع الأسهم فصوته في اقتراع الجمع العام يمثل نفس النسبة المئوية من مجموع أصوات المساهمين. والحسم في التصويت يعود للمجموعات التي تملك أكثر من 50% من مجموع الأسهم ولو شكل عددها فقط 2 أو 5 أو 6% من مجموع عدد المساهمين. كذلك كان شأن المواطنين في روما. وزن كل منهم في المغرم وفي المغنم كان بمقدار ثرواته المحصاة على رأس كل خمس سنوات. فذلك كان شأنه في المجهود الحربي وفي دفع الضرائب وفي تقسيم مغانم الحرب وفي الاقتراع.

وهذا ما استقر عليه قانون الاقتراع الروماني حتى في عهد الجمهورية لاحقا. لكن ما لم يقله تيتت ليف مرة أخرى، هو كون تلك الطبقات كانت مختلطة من البطريقيين ومن العوام. فصار من حق العوام من الطبقتين الأولى والثانية مشاركة البطريقيين في الاقتراع، وإن كان أثره محدودا جدا بالنظر لغلبة عدد البطريقيين في تلكما الطبقتين. ولكونهم من مواليهم فقد كانوا يصتون بتصويت وكلائهم البطريقيين.

هنا انتهى العمل السياسي بالهئات العشائرية البطرقية Les comices curiates، المكونة من ثلاثين عشيرة. كانت تلك العشائر الثلاثين هي التي تنتخب الملك بصوت لكل عشيرة كنتيجة لاقتراع أفرادها على حدة. فاستبدلها الملك Servius بهذا التقسيم الميئي الذي أعطى على أساس الثروة ودفع الضرائب خمس طبقات. وكانت تسمى Les comices centuriates والتي ترجمناها بـالهيئات الميئية في مقابل الهيئات العشائرية Les comices curiates.

ونضيف إلى ذلك أن بداية حكم الملك Servius بروما سنة 575 ق.م. تزامنت بقليل مع نهاية فترة حكم Solon بأثينا (594 - 572 ق.م.). وهو الحاكم اليوناني الذي سن قوانينه المشهورة، وكان المشترك بين قوانين الرجلين، وفي زمن متقارب، هو تقسيم المجتمع إلى طبقات اعتمادا على التقسيم المئوي le cens. والراجح عندنا هو تأثر الملك Servius وحزبه من الأثرياء بالحاكم Solon لأن هذا الأخير فعل ذلك مضطرا، وليس كالملك Servius الذي كان ينفذ مشروع حزبه الأرستقراطي.

ويهمك كثيرا وبلا شك معرفة قوانين Solon حتى تدرك مدى تقدم البشرية في مجال الحقوق بصفة عامة والحقوق السياسية بصفة خاصة، ستة قرون قبل الميلاد. فننقل لك هنا ملخص قانونه، عن المؤرخ الأمريكي ويل ديورنت[2]، الذي يقول أن صولون Solon الحكيم والشاعر أنتُخب حاكما لأثينا في الفترة ما بين 594 و 572 ق.م.. وبعد توليه الحكم قام بوضع شرائع أو أحكام عُرفت باسم "قانون صولون" أو "شرائع صولون". وكان الهدف منها وضع دستور تُحكم به البلاد. وكان من قوانينه ما يلي:

- ✓ إعلان العفو العام لتصفية آثار الماضي.

---

[1] تطبيقا لمبدأ المغرم بمقدار المغنم.

[2] ويل ديورانت، قصة الحضارة. كتاب حياة اليونان، دار الجيل - بيروت 1988، ص 208.

- ✓ السماح للمنفيين بالرجوع إلى وطنهم مع إعادة حقوقهم المدنية إليهم ، عدا المحكومين بجرائم القتل.
- ✓ إلغاء جميع الديون، سواء كانت للأفراد أم للدولة، وإعادة الأملاك المرهونة إلى أصحابها، وتحرير الأفراد الذين كانوا قد أصبحوا أقنانا مرتبطين بالأرض بسبب عجزهم عن دفع ديونهم .
- ✓ إصدار قانون يحرم استرقاق أي شخص في المستقبل مقابل دين يعجز عن تسديده.
- ✓ القيام بإصلاحات اقتصادية وضريبية واسعة حيث تم تقسيم المجتمع إلي أربع طبقات حسب مقدار الثروة، وحساب الضريبة وفق ذلك[1].
- ✓ إحداث مجلس من أربعمائة عضو منتخب من قبل القبائل الأربع في أثينا، بمقدار مائة عضو لكل قبيلة. ومهمة هذا المجلس هي تهيئة المشاريع التي يجب عرضها على مجلس الشيوخ.
- ✓ إحياء مجلس الشعب الذي يشترك جميع المواطنين في مناقشاته، والذي عُهدت إليه مهمة انتقاء الحكام، من بعد ما كانوا يُنتخبون سابقا من قبل مجلس الشيوخ. كان جميع الموظفين مسؤولين تجاه هذا المجلس الذي يستطيع معاقبة أي موظف، ويحق له أن يحاسب الحكام والقواد عند انتهاء مدة عملهم، وأن يحرمهم من أن يصبحوا أعضاء في مجلس الشيوخ.
- ✓ تأسيس هيئة المحلفين القضائية التي تتألف من ستة آلاف عضو، يُنتقون بالقرعة من جميع الطبقات، والتي تنقسم إلى محاكم متعددة تنظر في جميع القضايا عدا حوادث القتل. ويحق لها أن تنظر في كل اعتراض على أي عمل من أعمال الموظفين.

ونُقشت شرائع صولون على لوحات مثلثة تدور على محور بالمركز. ثم تم وضعها في الرواق الملكي حيث كان يجلس الحاكم والملك للقضاء. وأقسموا جميعاً بأن يتقيدوا بها. هكذا أصبحت إدارة الدولة منذ ذلك الوقت خاضعة لقوانين مكتوبة ثابتة ، بعد أن كانت تسير حسب أوامر وقرارات ارتجالية. قيل أن صولون جعل أهل آثينا يَعِدُونه بالالتزام بقوانينه لمدة عشرة سنوات، ثم ترك البلاد بعد ذلك. وعندما رجع من بعد تلك المدة وجد البلاد تخوض حربًا أهلية، وسرعان ما سيطرفيها بيزيستراتوس على الحكم. فعارضه صولون، ثم تقاعد وابتعد عن الحياة العامة.

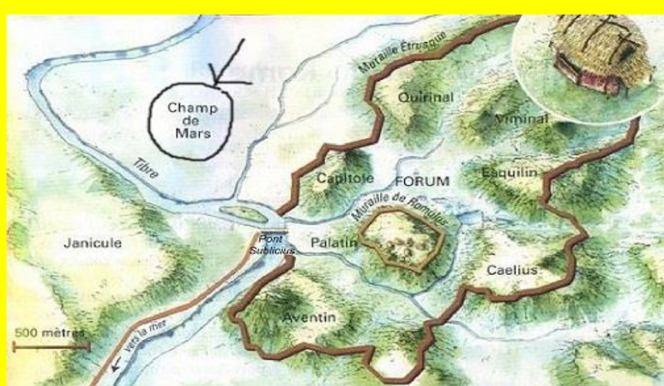
وبالعودة إلى روما، يقول تيت ليف : "أما الملك Servius فقد قسم المدينة إلى أربعة أحياء أو قبائل[2] بدلا من ثلاثة قبائل منذ عهد روميلوس، وبكل منها عشر عشائر. وذلك بمقدار قبيلة في كل هضبة من هضاب روما الأربعة المأهولة. وفرض على كل منها دفع جزية سنوية un tribut لخزينة الدولة بحسب القدرات المادية لكل فرد فيها الموثقة بسجلات الإحصاء الخماسي أي الذي يتم على رأس كل خمس سنوات. ولم يكن لتلك القبائل أية علاقة بالتقسيمات العسكرية والسياسية المذكورة أعلاه".

لكن الذي لم يذكره تيت ليف ووجده الباحثون عند غيره، هو أن الأحياء الأربع هي فقط الأحياء داخل أسوار حاضرة روما. في حين قُسمت أريافها إلى سبعة عشر حي. فصار بذلك مجموع الأحياء واحدا وعشرين. وسيقفز نفس العدد لاحقا إلى خمس وثلاثين من دون تغيير عددها بالحاضرة. شُكلت كلها كما رأيت بقصد جبائي وفق التقسيم الميئي بطبقات الهيئات الميئية. وسيكتسي لاحقا هذا التقسيم الترابي في عهد الجمهورية طابعا سياسيا، وسيتسبب في خلافات سياسية عميقة ومريرة بين فئة البطريقيين وفئة العوام.

وتم أول إحصاء للساكنة وثرواتها في عهد الملك سيرڤيوس نفسه. فقال فيه تيت ليف "لما صدر القانون الذي يعاقب بالسجن وبالإعدام كل من أهمل تسجيل نفسه في سجلات إحصاء الثروات الفردية، سرّع الملك Servius من إجراء ذلك الإحصاء للمواطنين ولثرواتهم. فأصدر مرسوما يأمر فيه كل الخيالة والمشاة بالالتحاق بميدان مارس champ de Mars، ابتداء من طلوع الفجر، كي ينتظم كل فرد في طبقته. هناك في ميدان مارس الفسيح خارج روما نظم الملك Servius المجموعات في وضع التأهب للحرب. ولتزكيتها ومباركتها قدم الأضاحي للإله مارس. وبتلك

[1] مثله في ذلك مثل تقسيم الملك سيرفيوس لشعب روما إلى خمس طبقات بنفس المعيار.
[2] ليس بمفهوم القبيلة المشتركة في النسب، بل المشترك فيها هنا هو مكان السكن. بحيث من انتقل من قبيلة لأخرى يصبح فردا من القبيلة الجديدة. بخلاف قبيلة النسب فالانتماء لها لازم للفرد حيثما وجد.

الأضاحي كان يتم الإعلان عن نهاية الإحصاء المئوي. ويقال أن عدد المواطنين الذين تم إحصاؤهم لأول مرة قد بلغ حينها ثمانون ألف رجل. وأضاف أقدم المؤرخين الرومان فابيوسPictor ، يقول أن ذلك العدد لم يشمل سوى الرجال القادرين على حمل السلاح[1]".



حريطة هضاب روما العتيقة، والسور الذي بناه الملك سيرڤيوس.
وموقع ميدان مارس champ de Mars خارج روما من وراء نهر التيير،
حيث كان يتم دوريا الإحصاء الخماسي للمواطنين ويتجميع الجيش وقت النفير للحرب

ثم كان ينبغي للملك سيرڤيوس أن يظفي على نظام حكمه الجديد قدسية دينية تجعل من المساس به تدنيسا في حق الآلهة. فقال في ذلك تيت ليڤ : "من بعد ما رفع الملك Servius من قوة روما المادية والمعنوية، ومن بعد ما مرّس المواطنين على التمارين الحربية وعلى الأشغال النافعة في السِّلْم، ارتأى ألا يعتمد تنامي نفوذه على فقط إنجازاته العسكرية. فقرر تعزيزه بإجراءات دينية مع الاستمرار في تجميل وتزيين المدينة. وبعلاقاته الطيبة مع شعب اللاتين وبعبادتهم لآلهة مشتركة مع الرومان، أقنعهم ببناء معبد مشترك بين الشعبين بروما للإلهة ديانة Diane. فكان في ذلك اعتراف بسيادة وتفوق المدينة. وهو الادعاء الذي تسبب لاحقا في عدة حروب".

لكن مع كل ذلك لم يخلو عهد الملك سرڤيوس من معارضة سياسية كالتي تسببت في اغتيال سلفه طاركان. معارضة للتحول من نظام حكم ديمقراطي إلى نظام حكم أريستقراطي. تحول فرضته حالة الشعب الجديدة. حالة ما عاد فيها الأثرياء يطيقون التسوية بينهم وبين من دونهم من البطريقيين في الأمور السياسية كامتياز، في حين كان هناك فرق بينهم وبين غيرهم في المجهود الحربي وفي أداء الضرائب كمغرم. فصار النظام الأرستقراطي هو الأنسب بالنسبة لهم والذي فرضوه على المجتمع الروماني في عهد الملك طاركان. لكن الملك سرڤيوس زكاه وضمن بقاءه بإحداث مؤسسات وقوانين جديدة. بذلك لم تعد الحرية بروما تتسع لغير علية القوم من البطريقيين. الامتياز الذي بقي لباقي البطريقيين هو فقط تميّزهم عن العوام بالقانون الذي يحمي حرماتهم من العسف والشطط. فصارت المعارضة بسبب كل ذلك أشد على الملك سرڤيوس مما كانت ضد سلفه.

وكما وجدت المعارضة من يستقطبها من داخل القصر في عهد طاركان، وجدت من يستقطبها مرة أخرى من داخل نفس القصر في عهد سرڤيوس بالرغم من الاحتياطات التي اتخذها للحيلولة دون نشأتها. مع الأول استقطبها والدا الملك أنكوس. ومع الثاني استقطبها ولدا طاركان نفسه. فيقول في ذلك تيت ليڤ : "كان من شأن طول عهد Servius أن يجعله يعتقد أن الأمر قد استتب له نهائيا. لكنه كان على علم باعتراض ابن طاركان القديم على طريقة تنصيبه ملكا من دون استشارة الشعب[2]".

[1] فالمُحصون كانوا هم فقط الرجال من الطبقات الخمس الأولى، من دون الطبقة السادسة المعفية من الخدمة العسكرية وهي الأوفر عددا من باقي الطبقات، ومن دون بالطبع النساء والأطفال والعبيد والموالي.
[2] تذكر أن مجلس الشيوخ صادق على تنصيبه ملكا من دون استشارة الهيئات العشائرية، ومن باب الحذر وخوفا من تكرار ما حصل لطاركان مع إبني أنكوس، زوج سيرفيوس بنتيه من إبني طاركان.

ولما تكون الأمور البسيطة هي السبب في حصول حدث جلل تأبى الأسطورة إلا أن تظفي عليها من عندها الهالة التي تنقصها وتستحقها كي تروق للسامعين. والأمر الجلل هنا يكمن في اغتصاب العرش بقتل الملك الجالس عليه. وهكذا وفقط من باب التسلية وإراحة الفكر نسوق لك حكايتها لأطوار تلك المآمرة ضد الملك سرفيوس للإطاحة به. نسوقها كما أوردها تيت ليف في كتابه. مُصدّقا من جهته لكل تفاصيلها علق عليها بقوله : "كان لـ طاركان الإبن المتحمس للمُلك أخ لطيف ومسالم. وكان الأخوان، كما أشرت إلى ذلك سابقا، متزوجين من بنتي الملك Servius منذ بداية عهده. وشاء القدر ألا يجمع الزواج بين مزاجين عنيفين، وأن يطول بذلك وبلا شك عهد Servius إلى حين تنضج طباع الشعب الروماني لعهد الحرية[1]".

ثم يخوض تيت ليف في سرد الأسطورة كما وجدها فيقول : "كانت زوجة الشاب المسالم متجبّرة ومستاءة من غياب الطموح والشجاعة فيه. أما أخوه الطموح والطامع في العرش فهو الذي كان يحظى بكل اهتمامها وحماسها. في تقديرها كان هو فقط ذلك الرجل الذي يجري دم الملوك في عروقه. وكانت تحتقر أختها التي كانت زوجته، وكانت تحد من طموحاته بنصائحها المليئة بالجبن. لم يتأخر هذا التوافق في المزاج في التقريب بين ابن طاركان الطموح وبين زوجة أخيه التي لا تقل عنه طموحا. ذلك لأن الشر يجلب دائما الشر. لكن هنا، كانت المرأة هي التي ستشعل نار الفتنة. أثناء المحادثات السرية بينهما لم تكن تدّخر جهدا للقدح في أخيه وهو زوجها، ولا في زوجته هو وهي أختها". وبما أنها كانت أحاديث سرية كيف وصلت لأسماع القصاصين ؟ مثل هذا السؤال لا يليق بمن يتمتع بسماع اخرافات.

ثم يستطرد تيت ليف في عرض تلك الأحاديث السرية قائلا : "قالت له أنها تفضل أن تعيش أرملة وأن يكون هو أعزب من أن يكون كل منهما مرتبطا بإنسان دون مقامه، وأن يُحْرما بشكل مخجل من طعم العيش تحت تأثير جبن الآخرين. لو شاءت الآلهة أن تهبها الزوج الذي تستحقه لرأت حينا بين يديها الصولجان الذي كانت ما تزال تراه بين يدي أبيها Servius. لم يمض وقت طويل كي تشحن الشاب بحماسها. وأخيرا أخذ الموت في وقت واحد تقريبا أختها هي وأخاه هو، ومكّنها من زواج جديد بشريكها، الذي لم يوافق عليه أبوها Servius، لكن ما استطاع منعه". قصة تليق بدراما مسرحية أو سينمائية.

ويمضي تيت ليف في حكاية تتمة الأسطوة ليقول : "منذ ذلك الحين صارت شيخوخة الملك Servius يوما بعد يوم أكثر شناعة بالنسبة لهما. وصار عهده أثقل على صبرهما. بتشوقها للمرور من جريمة لأخرى، كانت بنت الملك تحث زوجها ليل نهار على اغتيال أبيها وجني ثمار تلك الجريمة. لتحريضه كانت تقول غاضبة : "أنا لا ينقصني زوج، بل ينقصني عبد يشاركني ما أنا فيه من صمت وعبودية. إن كان زوجي رجلا يعتقد أنه أهل للحكم ويتذكر أنه ابن طاركان القديم، فعليه تفضيل انتزاع السلطة بيده بدلا من انتظار أن تأتي إليه". ثم قالت له : "إن كُنتَ حقا ذلك الرجل الذي تمنيت واعتقدت أنني وجدته، سأعترف بك زوجا لي وملكي، وإلا كان مصيري أسوأ مما كان. لأنه سيكون حينها قد انضم الجبن إلى الجريمة. فماذا تنتظر ؟ لم تكن أنت في حاجة، كأبيك، إلى المجيء من بعيد لاقتناص عرش بلد أجنبي بالمكر والخديعة. آلهتك وآلهة وطنك، وصورة والدك، وهذا القصر الذي سكنه، وهذا العرش الذي جلس عليه، واسم طاركان، كل ذلك يصرّح بأنك ملك، ويناديك كله كي تكون ملكا. إن كان قلبك باردا أمام هذا الشأن الرفيع، فلماذا تخدع روما مدة أطول ؟ ففيم الأسى على رؤية نفسك ابن ملك ؟ إرجع إلى بلاد أجدادك اليونان. عد إلى البلد المظلم من حيث خرجت. ستكون حينها رجلا يليق بأخيه الجبان، ولا يليق أن يكون ابنا للملك طاركان"". كل هذا كان كلاما سريّا بين الزوجين ولم يطلع عليه أحد وسجله سوى خيال القصاصين العجيب والخارق الذي كان يخترق الأسوار والجدران والأبواب الموصدة. ومصدقا لما يقرأ علق تيت ليف على ذلك بقوله : "هي نفسها لم تتحمل أن تكون أقل طموحا وشأنا من الأجنبية زوجة طاركان التي، فقط بفضل قوة شجاعتها، نجحت في تتويج ملكين، وهما زوجها ثم صهرها. في حين هي التي يجري في عروقها دم الملوك لم تستطع لا وضع التاج على رأس ملك ولا خلعه".

الذي يهمنا فيما تبقى من القصة هو كيفية تَحوّل نظام الحكم من ملكية أرستقراطية إلى ملكية مطلقة monarchie absolue. والمؤرخون مجمعون على كون كتاب تيت ليف هو المصدر الرئيسي لأخبار روما العتيقة،والباقي مجرد مراجع. فيبقى على كل قارئ أن يتحرى الغربلة للتبين ما استطاع من حقيقة الأحداث حتى يتمكن من استنتاج من ينبغي استنتاجه من دروس وعبر.

---

[1] التعليق للمؤلف تيت ليف.

فيقول تيت ليف في تتمة قصة ابن طاركان المتمرد : "لهذا قرر جلب تعاطف الجموع الغاضبة من توزيع الملك سرڤيوس للأراضي المحتلة على عموم الشعب. ومباشرة من بعد ذلك تجرأ واستفتاهم، هل إرادتهم كانت مع أن يحكمهم هو أم لا. لم ينقصه شيء من مثل عدد الأصوات الموافقة التي حصل عليها من سبقوه. بذلك لم ييأس من فرصة اعتلاء عرش أبيه. فلاحظ أنه كانت هناك بمجلس الشيوخ أصوات معارضة لتوزيع الملك Servius للأراضي المحتلة على عموم الشعب. رأى في ذلك مناسبة سانحة للتشكي على ذلك الحزب المعارض لسياسة الملك وكسْب ثقته مع تحطيم الثقة في الملك بتلك المناورات". فلا ندري عن أي أراضي محتلة وزعها الملك على جموع الشعب من دون رضا أعضاء حزبه الأرستقراطي. الحروب التي خاضها حصلت في بداية عهده. ووزع الأراضي المحتلة حينها على علية القوم من الجيش إما بالتملك أو بالإيجار. ومنذ ذلك الحين وقد شاخ في الحكم لم يخض حروبا أخرى كي يوزع الأراضي المحتلة على عموم الشعب، وحتى يغضب منه علية القوم من حزبه. وما كان بوسعه ولا من مصلحته ولا مضطرا أن ينتزع الأراضي الموزع قديما من مواليه ويوزعها على غيرهم. فقصة غضب علية القوم بمجلس الشيوخ وغيره لا تستقيم. كل ما في الأمر هو أن طاركان الإبن كان محفوفا ومدعوما بمن تضرروا من النظام الجديد من البطريقيين. كان مدعوما من طرف بطريقيين ثوريين.

أما تحصيل الحاصل فيكمن في قول تيت ليف في حق طاركان الإبن : "كثر مؤيدوه من كل جانب. لما أحس أخيرا بأن الوقت المناسب لتنفيذ مشرعه قد حان، قاد مجموعة من المسلحين واقتحم بهم الساحة العامة le Forum. تحت هول ما أحدثه من رعب جلس على الكرسي المخصص للملك وأمر المنادي بإجبار كل أعضاء مجلس الشيوخ على الحضور أمامه هو بوصفه الملك طاركان[1]". أما قوله : "فجاءوه مسرعين. بعضهم يعرف مسبقا المآمرة والبعض الآخر يخاف من الاتهام لاحقا بجريمة الغياب، مستغربين مما حدث ومقتنعين بأن عهد Servius قد انتهى وولى" ففيه نظر. كيف يصح أن يستجيبوا لمثل ذلكالاستدعاء منه من دون صفة تخوله ذلك والملك لا يزال حيا ولم يعزله المجلس الذي بفضل موافقته اعتلى العرش، ولا سيما أنهم كانوا من الحزم الحاكم بزعامة الملك أو من صنائعه ؟ لا بد أنه جلبهم بقوة السلاح في مدينة كان الملك وحده يحتكر القوة. فقد كان انقلابا مسلحا على الشرعية التي كان يائسا منها لاعتلاء العرش، في ظل حزب حاكم معارض له وزعيمه هو الملك.

ولما جمّع أعضاء مجلس الشيوخ بالقوة صار يخاطبهم قائلا عن صهره الملك سرڤيوس : "هذا العبد وابن الأمة، اغتصب المُلك من بعد اغتيال أبي طاركان القديم، من دون المرور بفترة الوصاية على العرش interrègne بحسب الأصول، ومن دون اعتماد اقتراع الهيئات العشائرية لانتخابه قبل مصادقة مجلس الشيوخ. أخذ الصولجان هدية من يد امرأة[2]. اغتصابه للسلطة كان متوافقا مع سفالة أصله. ميوله للطبقة المنحطة التي جاء منها، وكراهيته للرجال الشرفاء، أمْلت عليه انتزاع الأراضي من أصحابها الكبار لتوزيعها على أحط الأهالي. نفقات الدولة التي كان يتحملها الجميع، وضعها كلها فقط على كاهل الطبقات العليا. ما سنّ قانون التقسيم المئوي le cens سوى لكشف ثروات الأغنياء حتى يطمع فيها الفقير، وليعرف هو من أين يقبض حين يريد، وليحوّل ما قبض إلى عطاءات سخية إلى الطبقات البئيسة".

والواقع السافر الذي ما كان بوسع القصاصين تنميقه يكمن في قول تيت ليف : "أسرع حينها الملك سرڤيوس إلى الساحة العامة من بعد ما أخبره به مخبر، وهو يلهث من شدة الدهشة مما رأى وسمع. لما وصل، كان طاركان ما يزال يلقي خطابه. فأطل من دهليز مجلس الشيوخ وهو يصيح قائلا : "ما هذا يا طاركان ؟ من جرّأك على استدعاء مجلس الشيوخ وعلى الجلوس على عرشي وأنا حي ؟". فرد طاركان بكل فخر ليقول أنه قد أخذ مكان أبيه الذي يليق أكثر بابن ملك ووارث عرشه بدلا من عبده، الذي ظل لمدة طويلة يهين أسياده ويستغني بوقاحة عن دعمهم. عند هذه الكلمات تعالت هتافات صاخبة ومختلطة من المؤيدين للطرفين. ثم توجهت الهيئات العشائرية صوب ميدان الاقتراع. كان واضحا أن المُلك سيؤول لمن انتصر. لكن طاركان الخائف والغاضب من وضعه المتأرجح، صار مستعدا للإقدام على أي شيء يخرجه من تلك الورطة. مستغلا تميزه على غريمه بقوة شبابه أخذه من حزامه وجرّه حتى خارج مجلس الشيوخ ثم دفعه يتدحرج من أعلى الدرج. ثم عاد إلى مجلس الشيوخ كي يحشد إليه أعضاءه. حينها هرب أعوان الملك وضباطه الذين يحيطون به. الملك سرڤيوس نفسه، وهو نصف ميْت، توجه إلى قصره ليختبئ فيه مع من بقي معه من المرعوبين. وما أن لحق به القتلة الذين أرسلهم طاركان ليطاردوه، حتى اغتالوه". فقد احتكم الخصمان للهيئات العشائرية التي استعادت بالمناسبة شرعيتها من أجل قول كلمتها الفصل والحاسمة بينهما. لكن طاركان الإبن كان يشك في النتيجة وفي عاقبتها. الجزب الأرستقراطي حاضر بقوته ونفوذه بين العائلات البطريقية في الهيئات العشائرية. ولا يرضى بما حصل لمجلس النواب المشكل من أعضائه ومن صنائعه، ولا ما حصل من

[1] تسمى باسم أبيه طاركان القديم
[2] وهو يعني بذلك أمه زوجة طاركان القديم

تطاول على الملك سرڤيوس زعيمه. كان طاركان المتمرد يخشى على نفسه من اصطفاف الشعب من وراء خصمه، ثم إعدامه بتهمة الخيانة العظمى والإخلال بالنظام العام. لذا استبق الأحداث وحسم الأمر لصالحه باستعمال القوة ضد الملك، فتسبب في اغتياله.

الملك كان دائما محفوفا بإثنى عشر حارسا لحمايته. لكن المسلحين الذين هاجموه بأمر من طاركان كانوا أقوى منهم فتغلبوا عليهم وقتلوا الملك. هذا كل ما في الأمر بكل بساطة. لكن تلك البساطة لا تستهوي سامعي القصاصين. فاختلقوا لاغتياله أسطورة يتعذر على العقل المتحري للحقيقة القبول بها. ولهذا تجد تيت ليف يبدأ تلك القصة بتحفظ فيقول : "كان يُعتقد أن هذه الجريمة كانت من تدبير توليا Tullia بنت الملك وزوجة طاركان الإبن.". وهو يرجح واقعيتها لأنه كان ممن صدّقوا الحكاية السابقة في حقهما، فقال : "وجارئمُها السابقة[1] تجعل ذلك الاعتقاد راجحا". وعلى هذا الأساس أورد تلك الأسطورة ببشاعتها في كتابه، والتي كالمعتاد نسوقها للقارئ الكريم على بشاعتها من باب إشباع فضوله وليس أكثر.

فيقول : "مما لا شك فيه هو امتطاؤها عربتها ودخولها بها إلى وسط الساحة العامة. هنالك، ومن دون أرتباك ومن مرأى العديد من الرجال المتجمعين، نادت على زوجها ليخرج من مجلس الشيوخ. ثم كانت أول من يحييه بوصفه ملكا. لكن بأمر منه انسحبت من تلك المشاهد المضطربة وتوجهت عائدة إلى منزلها. وفي الطريق توقف سائق عربتها، وبوجه مصفر من هول المنظر أشار لها إلى جثمان والدها ملقى على الأرض".

لكن تيت ليف الشاك في مصداقية بقية القصة قال:

"ويقال أنها ارتكبت حينها جريمة أخرى أشنع، وبوحشية مرعبة. حتى سمي بسببها ذلك الزقاق "زقاق الجريمة"، فخلد بها ذكرى ذلك العمل الآثم، وذكرى تلك المرأة الضالة والتي كانت فريسة لما كان فيها من حنق وانتقام منذ اغتيال أختها مع زوجها. فأمرت سائقها بتمرير عجلات العربة من على جثمان أبيها. ثم مخضبة بدمائه هي وعربتها، توجهت صوب آلهتها المشتركة مع زوجها وجثمت راكعة عند أقدامها. لكن الآلهة كانت ترتب لنهاية هذا الملك اللئيم كارثة تليق ببدايته[2]".

رسم لمشهد الجريمة الزعومة

ويعلق أخيرا تيت ليف على عهد الملك القتيل ليثني عليه ويأسف على اغتياله وعلى اغتيال ما تبقى من الحرية بروما في عهده، فقال : "حكم الملك Servius أربع وأربعين سنة. ساد خلالها الدولة بحكمة صار معها من الصعب أن يأتي من بعده ملك طيب ومعتدل مثله، وأن يتفوق عليه في المجد. وما زاد في مجده هو انتهاء واندثار عهد الملكية الشرعية باغتياله. مع ذلك يقال أنه كان يفكر في التخلي لغيره عن تلك السلطة الوديعة والمتواضعة. كان بوده تحقيق ذلك المشروع السياسي السخي لولا أن تلك الجريمة من داخل القصر جاءت لتعترض على صيانة حرية وطنه وشعبه".

والجدير بالقول هو كون ملوك روما الثلاثة الأوائل من بعد روميلوس ما اعتلوا عرشها بسعي منهم. وإنما اعتلوه باختيار حر من أهلها. وانتهت عهودهم بسلام. أما طركان القديم فقد كان أول من اعتلاه بسعي منه ثم برضا من الشعب ومن مجلس الشيوخ. وذلك بسبب ضرورة تغيير نظام الحكم الذي كان يمليه تغيير حال الشعب البطريقي. وما كان ليحدث ذلك التغيير من دون معارضة. فدفع طاركان حياته ثمنا لذلك. أما الملك سرڤيوي فقد اعتلاه كذلك بالمكر والخداع لكن من دون موافقة الشعب، وفقط

[1] الشك في اغتيالها لأختها ولأخ زوجها.
[2] كما سترى ذلك لاحقا، بنهاية عهد طركان الإبن انتهى عهد الملكية الرومانية وبدأ عهد الجمهورية.

بفضل مباركة مجلس الشيوخ الموالي للحزب الجديد. ومكن نظام حكمه الجديد من المؤسسات التي تضمن دوامه. وما كان ليحدث ذلك أيضا من دون معارضة وانتهى عهده كذلك باغتياله.

أما طركان الإبن فقد كان أول من اعتلى عرش روما بقوة السلاح. فما كان مُمتنّا في ذلك لأحد، اللهم للقوة. هكذا وُصف بالمتغطرس le Superbe من طرف الرومان للتعبير عن رفضهم له ولنظام حكمه الجديد. ولزمه ذلك اللقب في الخفاء لتمييزه عن أبيه، الذي لُقب حينها بطاركان القديم. فتحول نظام الحكم من ملكية أرستقراطية إلى ملكية مطلقة. لكن هل حصل تحوّل في حال شعب روما حتى يتحمل النظام الجديد ؟ الأحداث اللاحقة تشهد بعكس ذلك. لو أن الشعب الروماني كان حينها وضيعا لوافقته الملكية المطلقة ولتحملها ولدامت ولانطمست روما كغيرها في ظلمات التاريخ، ولما خلدت ذكرها فيه ولما عُرفت كما نعرفها حتى اليوم. بل كان ذلك النظام غير متوافق مع حال الرومانيين. فلاقى معارضة سياسية قوية ظلت تتحين الفرصة للقضاء عليه إلى حين انتهت عهده ملكها بل أنهت معه عهد الملكية نفسه واستبدلته بنظام جمهوري يليق بشعبها الذي ظل متشبعا بالحرية ولا يرضى بالعيش من دونها. فماذا عن عهد الملكية المطلقة الجديد وعن مآله ؟

عهد الملكية المطلقة (535 ق.م. – 509 ق.م.)

تأكيدا لما سبق ذكْره يقول تيت ليف : "استولى طاركان الإبن على العرش من دون تردد. لقبه الرومان وغيرهم بلقب le Superbe بمعنى المتعجرف والمتغطرس. وذلك لمّا رفض إقامة مراسيم لدفن صهره الملك الراحل Servius. وبادر بالقضاء على أعضاء مجلس الشيوخ الذين كانوا ضده". وهكذا يفعل بشكل طبيعي كل مستبد. ليست له ثقة في أحد حتى من أقرب الناس إليه. كان يخشى على حياته من الجميع. لذا بخلاف من سبقوه، ومثل غيره من المستبدين، كان من مصلحته تطويق نفسه بحراسة غير عادية وموثوقة الجانب واستعمال الرعب والترهيب في ممارسة الحكم. وقد سجل ذلك تيت ليف بقوله فيه : "لما أحس أن بدعة اغتصابه للعرش بالقوة كان من شأنها أن تحدث انقلابا عليه أحاط نفسه بحرس قوي لحماية نفسه. ذلك لأنه اعتلى العرش من دون الحصول لا على أصوات الهيئات العشائرية ولا على موافقة مجلس الشيوخ[1]. كانت مشروعية توليه الملك مبنية على استعمال القوة. وبما أنه كان يائسا من اكتساب عطف عموم الشعب، كان مضطرا للحكم باستعمال الرعب. ولتوسيع آثار عسفه وشططه استغنى حتى عن كل المستشارين وسرّحهم، ونصّب نفسه القاضي الوحيد الذي يفصل في كل الأمور الهامة[2]. بذلك كان يعدم وينفي ويستصفي الأموال ليس فقط في حق من يشك في ولائهم له أو لا يعجبونه، بل في حق حتى من لا رغبة له إلا في جثامينهم".

هذه شهادة من كتاب تيت ليف منذ بداية القرن الأول للميلاد لكل من لا يزالون يتعجبون من وحشية المستبدين حتى يومنا هذا. المستبد مضطر للحكم بالرغب وبالترهيب كيف ما كان حال غالبية الشعب. إن كانت وضيعة فهي تستحقه، لأنها لا تستقيم ولا تستكين من دونه. وإلم يفعل تدخل في فوضى إلى حين يأتي من هو أقوى منه ليأخذ مكانه من بعد خلعه والتنكيل به فيرد للشعب الوضيع أمنه وهدوءه. وإن كانت غالبة الشعب متشبعة بالحرية ومتشبثة بها فهي تهدده من كل جانب لخلعه وللإطاحة بنظامه. وفي كلا الحالتين يكون هو مضطرا للحكم بالرعب والبطش والتخويف جزاء وفاقا في الحالة الأولى وظلما وعدوانا في الحالة الثانية.

وقد لُقّب الرومان طاركان بالمتغطرس، في السر بطبيعة الحال، ليس فقط بسبب رفضه إقامة مراسيم لدفن صهره الملك الراحل Servius، كما يعتقد ذلك تيت ليف، بل لأنه كما قال هو نفسه، كان يائسا من اكتساب عطف جموع الشعب. فكان مضطرا لحكمه بسلاح الرعب. ومجرد اشتهاره في كتب التاريخ بالمتغطرس وبالطاغية، معناه أنه كان هو ذاك الاستثناء النشاز بروما في ذلك العصر العتيق،

[1] وذلك خلافا لما كان يقتضيه العرف الدستوري الذي تعود عليه الرومان منذ وفاة مؤسس الدولة روميلوس.
[2] أي من دون استئناف لأحكامه

قرونا قبل الميلاد. ولو كانت غطرسة الملوك في روما هي القاعدة لما وصفه بها الرومان، ولما ورد ذكره في كتب التاريخ بذلك اللقب المهين.

ومن بين مبررات غطرسته يقول تيت ليف : "الهدف الرئيسي من تلك السياسة المرعبة كان هو تقليص عدد أعضاء مجلس الشيوخ. فقرر عدم تعيين أعضاء جدد. وذلك لإذلالهم بإضعافهم، وليذوقوا خاضعين ومستكينين مرارة حرمانهم من أي نفوذ في تدبير شؤون الدولة". ثم يعلق على ذلك بقوله : "كان طاركان هو أول ملك يتخلى عن العرف القاضي باستشارة مجلس الشيوخ في كل الأمور[1]. فكان ويحكم بمشورة مستشارين في الظل من وراء ستار. وكان يقرر لوحده الحرب والسلم وفق مزاجه. كان يعقد وينقد معاهدات وتحالفات من دون أي اعتبار لإرادة الشعب. كان يتودد بالخصوص لشعب اللاتين كي يتخذهم بالخارج عضدا له ضد رعاياه بالداخل. كان يعمل على ربط كبارهم بشخصه. وذلك ليس فقط بكرم الضيافة بل حتى بالمصاهرة. فزوج ابنته بكبيرهم. وبذلك جلب من بينهم لجانبه كل أهل وأصدقاء صهره". هكذا منذ تلك العهود الغابرة كان المستبدون في حاجة لمساندة القوى الإقليمية والخارجية في غياب المساندة الشرعية بالداخل. أمور عادية يستغرب منها من ينظر للأمور بمنظار الأخلاق والعطفة وليس بمنظار العقل ومتطلبات الأوضاع السياسية.

بسذاجته السياسية انجرّ طاركان الإبن من وراء الغرور بنسبه لأبيه كملك ومن وراء من حرضوه من المعاضة للحزب الحاكم فكان يظن أن الصراع على الحكم في روما سينحصر في صراع أفقي على العرش بين أميرين والشعب يتفرج إلى حين ينتصر أحدهما فينبطح له كالقطيع. وما أن تجرأ على المحظور حتى وجد نفسه في صراع عمودي بينه كمستبد وبين الشعب المتعطش للحرية. الأمر الذي يعجّل لاحقا بخلعه وبالقضاء على نظام الحكم الملكي نفسه، بل ببُغضه إلى الأبد لصالح نظام حكم الجمهورية.

وكان طاركان قد اتخذ ما يكفي من الاحتياطات لحماية نفسه بروما في حال السلم. لكنه سيضطر إن آجلا أو عجلا لقيادة الجييش في حروب دفاعية على مملكته. ولم يكن تحت يده جيش نظامي يطمئن على ولاءه له. جيش روما كجيوش باقي المدن الإيطالية كان يتشكل من مليشيات من الشعب نفسه. مليشيات تزاوج بين الحياة المدنية في حال السلم والحياة العسكرية في حال الحرب. فمن يضمن له عدم انقلاب الجيش الروماني الغاضب عليه في أول حرب يخوضها، وقد تفرض عليه من الغد ؟ لكن كغيره من المستبدين لم يعدم من حيلة لحل ذلك الإشكال الخطير. ووجدها على حساب حرية قوم اللاتين.

وأوردها تيت ليف في قصة طويلة ومشوقة تكاد تحسبها كذلك من نسيج خيال القصاصين، لما قال: "كان طاركان ذا نفوذ كبير على قادة اللاتين لما اقترح عليهم الاجتماع بهم جميعا في يوم محدد كانت له قدسية دينية، من أجل أمر هام وكانت فيه بزعمه مصالح مشتركة. في صبيحة اليوم المعلوم حضر المدعوون كلهم، وحضر هو كذلك لكن فقط قُبيل غروب الشمس بقليل. وقبل مجيئه وطيلة ذلك اليوم عدة أسئلة شغلت بال الحاضرين المتوجسين منه. حينها كان المسمى تورنوس هو كبير أعيان المدينة، وكان هو الأكثر انزعاجا من تأخر الملك. وكان معروفا بالشغب وبإثارة الشقاق. بذلك كان له نفوذ في قومه. فقام يخطب في الحاضرين قائلا : "هل يجب الاستغراب من أن روما لقبته بالمتغطرس ؟". ثم أضاف قائلا : "أي شيء أكثر وقاحة من التلاعب هكذا بكل الأمة اللاتينية ؟ يأتي بكل قادتها من بعيد عن مدنهم، ثم لا يستجيب هو بنفسه لندائه ؟ ألا يختبر بذلك صبرهم كي يسحقهم تحت نيره في حال ما أظهروا له استعدادا لتحمّله ؟ فمن هذا الذي لا يرى أنه يسعى للهيمنة على كل بلاد اللاتين ؟ ليث فقط قومه كانوا مرحبين به. وليته على الأقل اعتلى العرش برضاهم، وليس بقتله لصهره. حينها يكون بإمكان اللاتين أن يثقوا فيه أيضا. ولكونهم أجانب، فهم ليسوا مضطرين للتعامل معه بنفس الحذر. لكن على العكس من ذلك، الرومان يئنون تحت وطأته بسبب تسامحهم. وبما أنه يقتلهم جماعة تلوالأخرى وينفيهم ويغتصب أموالهم، بأي حق تنتظر شعوب اللاتين منه معاملة أفضل ؟ لو شاؤوا اتباع رأيي، لعاد كلهم إلى مواطنهم، فلا يكلفون أنفسهم أن يكونوا أكثر انضباطا بالحضور لهذا الجمع من الذي دعا إليه"".

"وعند قوله هذه الكلمات الأخيرة حضر طاركان وقاطعه. فالتفت الجميع لتحية الملك، وساد الصمت. من كان بالقرب منه أشاروا عليه بتبرير تأخره. فقال طاركان بأن خصمان، أب وابنه، اتُّخذاه في الطريق حَكما فيما شجر بينهما،

---

[1] وكما رأيت فقد سن الملك أنكوس واجب استشارة مجلس الشيوخ في أمور السلم والحرب من دون الاعتراض على رأي الأغلبية في ذلك.

فتأخر بسبب سعيه لإصلاح ذات بينهما. وبما أن هذا الحدث الطارئ ضيّع عليه يومه فسيعرض عليهم يوم الغد ما جمعهم من أجله. لكن تورنوس لم يستسغ ذلك العذر. فكسّر الصمت بقوله : "ليس هناك من خصام أسرع في الحسم فيه من خصام بين أب وولده. ويُفصل في القضية بكلمتين. تجب الطاعة على الولد وإلا استحق العقاب". ثم فور تعقيبه على كلام الملك انسحب من المجلس. انتاب حينها طاركان الشعور بالمهانة. لكنه أسرّها في نفسه، وأقسم على ذبح ذلك الجسور حتى يزرع بنحره الرعب في قلوب باقي اللاتين، فلا يجرؤ أحد منهم من بعده على الاعتراض عليه. وبما أنه لم يكن يحق له الفتك به علنا، فكّر في أن يحيك له تهمة مهينة. ثم بتواطؤ مع بعض أهالي المدينته أغرى أحد عبيده مقابل مقدار من الذهب كي يقبل بإدخال عدد كبير من السيوف خفية إلى منزل سيّده".

"ليلة واحدة كانت كافية لتنفيذ المآمرة. وقبيل طلوع الفجر استدعى طاركان أعيان اللاتين، وبالتأثر الذي يحدثه أمر غريب، قال لهم أنهم نجوا كلهم وهو معهم من هلاك محقق بفضل الآلهة التي عطّلت بالأمس وصوله إلى مجلسهم. وادّعى أنه قد علم بالفعل بأن تورنوس كان قد خطط لقتله هو عليّة القوم من مواطنيه حتى يحكم اللاتين لوحده، وأن المتآمر خطط لتنفيذ مشروعه يوم أمس البارحة خلال ذلك الجمع. ثم زعم أن شخصه هو الذي كان المستهدف الرئيسي من تلك المآمرة، فتأخر عن الموعد ثم أمر بتأجيل ذلك الجمع. وزاد قائلا أن ذلك كان هو سبب غضب تورنوس المتآمر. ثم أضاف يقول أنه بلا شك، وإن صحت التقارير، فسيحضر تورنوس للاجتماع في الصبح الباكر مسلحا هو والمتواطئين معه. وادّعى أن نفس التقارير تقول أن تورنوس قد حمل عددا كبيرا من السيوف إلى بيته. وللتحقّق من ذلك فما كان عليهم سوى أن يتبعوه حتى منزل المتآمر".

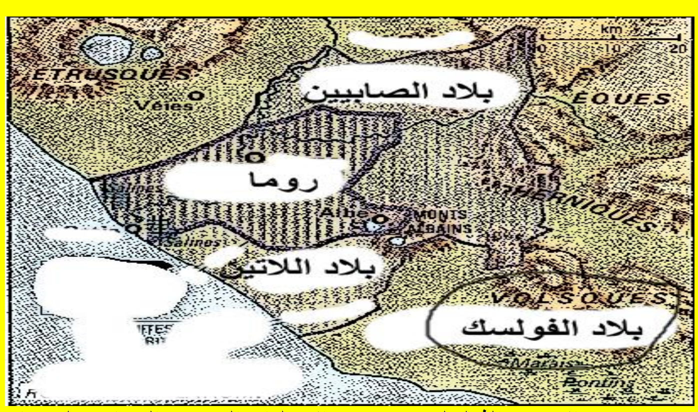
"مزاج تورنوس العنيف وخطابه بالأمس وتأخر طاركان كسبب محتمل في تأجيل تنفيذ الجريمة، كل تلك المعطيات تضافرت كي تولّد الشكوك في نفوس السامعين اللاتين. فصدقوا مزاعم طاركان وتبعوه، لكن مصممين على تفنيد تلك التهم إلم يجدوا الأسلحة المزعومة في بيت تورنوس. ولما وصلوا كان المشتبه به ما يزال يغط في نومه. فأحاط به الحرس، وقُبض على عبيده الذين كانوا يتأهبون لحمايته. ثم جيء بالسيوف من كل جانب من البيت. ظهر حينها للحاضرين أن المآمرة وكأنها كانت حقيقية، فكبل تورنوس في الحديد واستُدعي مجلس اللاتين في وسط صخب كبير. ثم ما أن ظهرت السيوف لكل العيان حتى شعر الجميع بامتعاض شديد لم يُسمح معه للمتهم حتى بحق الدفاع عن نفسه. وحكم عليه بالهلاك في عذاب من نوع غير مسبوق. لفّوه في حصير مثقل بالحجارة ورموه في مياه النهر كي يموت غرقا".

ومن ثنايا هذه الحكاية نستشف أن نظام الحكم الأريسطقراطي، أي حكم الأخيار من دون استبداد، لم يكن حكرا على روما من دون غيرها من المدن بإيطاليا. فهو النظام الذي كانت تمليه ظروف الدولة في حجم مدينة من بعد سنين على نشأتها. وما وصلتنا أخبار أنظمة حكم باقي الأقوام الإيطالية بسبب تعاظم الدولة الرومانية الذي جعلها تحتل كل ما حولها، بل امتد نفوذها لاحقا في نهاية عهد الجمهورية إلى كل البلدان من حول البحر المتوسط. بذلك طغت أخبارها ومحت أخبار باقي بلدان الأقوام الإيطالية من حولها.

في تتمة القصة عرض طاركان مشروعه السياسي الذي كان في ظاهره كله مكاسب للاتين، وفي باطنه كله مكاسب له هو فقط. فيقول تيت ليف : "بعدها استدعى طاركان اللاتين للاجتماع. ولما جاؤوه هنأهم على العقاب الذي أنزلوه بذاك المثير للشقاق، والذي كان تآمره لقتل أهله واضحا، ثم أضاف قائلا : "أصل اللاتين من آلبا. وبمعاهدة معقودة تحت حكم الملك طولوس صارت هذه المدينة وكل المستعمرات التابعة لها جزءا من الإمبراطورية الرومانية. بموجبها وكحق قديم يمكن لروما أن تدّعي وضع كل شعوب اللاتين تحت سيادتها. لكنها تعتقد أنه من الأفضل والأفيد للجميع عقد معاهدة جديدة تمكن اللاتين من مشاركة روما في عظمتها، بدلا من البقاء تحت وطأة الخوف من تخريب مدنهم وقُراهم كما حصل مع الملك انكوس أولا ثم في عهد أبي طراكان ثانية"".

ثم علق المؤلف على ذلك العرض بقوله : "وبالرغم مما كان في ذلك العرض من اعتراف اللاتين بسيادة وتفوق الرومان عليهم، لم يكن من الصعب إقناعهم بتبنيه والموافقة عليه. ولا سيما لما رأوا واقتنعوا بأن كبارهم كانوا متواطئين مع الملك طاركان. أما الموت الأخيرة للمشاغب تورنوس فقد شكلت عندهم تحذيرا لكل من يفكر في الاعتراض والمقاومة". وختم المؤلف عرض القصة بقوله : "فجُدّدت المعاهدة وتلقى شباب اللاتين أمر طاركان بالتجمع بسلاحهم قرب غابة معينة وفي يوم محدد. فاستجابوا كلهم للنداء. وحتى لا تظهر عليهم أية علامة تميزُهم عن باقي الجيش الروماني أدمجهم في مجموعاته لكن مع ضابط روماني على رأس كل مجموعة. بذلك تضاعف عمليا عدد جنود الجيش الروماني". هكذا أمّن طاركان نفسه من الخيانة وانقلاب الجيش الروماني عليه كلما اضطر لخوض حرب على الجيران للدفاع عن مملكته أو بتدبير منه.

ثم جاءت الحرب من تدبيره. دبرها ليجرب نتيجة وفعالية صنيعه مع قوم اللاتين وذلك من قبل أن تفرض الحرب عليه. فدبرها بالعدوان على مدينة قوم الڤولسك البعيدة جدا عن روما. وذلك زيادة في الاحتياط. وقال فيها تيت ليف : "إذا كان طاركان لا يقيم وزنا للقانون في حال السلم، فقد كان أبعد ما يكون من الجهل بفن الحرب. بل تساوى في ذلك حتى مع من سبقه من ملوك روما، لولا أن رذائل المُلك قد سوّدت فيه مجد الجنرال. كان هو من بدأ حربا مع بلاد قوم الڤولسك التي دامت قرنين من الزمن. احتل مدينتهم وجنى من بيع غنائمها قدرا كبيرا من الذهب والفضة الذي احتفظ به لبناء معبد يليق بجوبتير ملك الآلهة والبشر، ويليق بالإمبراطورية الرومانية وبالمكان الذي قامت فيها أسسها".



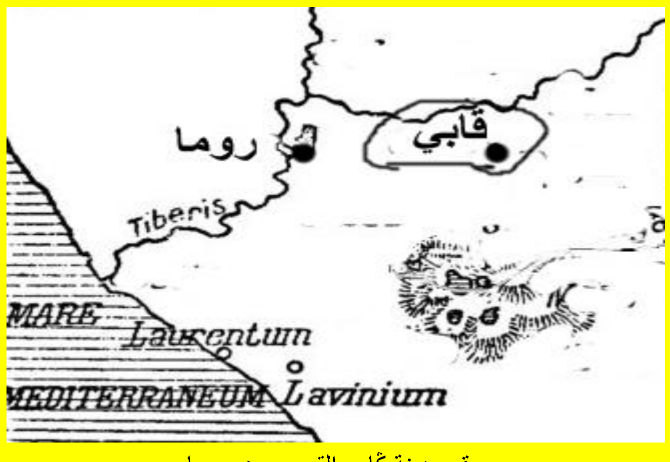
مواقع بلاد الڤولسك من بين مواقع بلدان الشعوب المجاورة لروما

وهكذا كان يفعل المستبدون من باب الاضطرار. كانوا يفتعلون الحروب لقضاء عدة مآرب. منها المآرب السياسية بالداخل التي تجعل تهمة التخابر مع العدو جاهزة لكل من يعترض على حكمهم أو يسعى لأخذ مكانهم. وذلك علاوة على ما تظفي الانتصارات في الحروب من هالة وهيبة على عهود ملكهم. ومنها المآرب الاقتصادية الكامنة في سداد الخصاص من الأموال الكافية لإنفاقها على القوات التي تضمن أمنهم الداخلي، وتخفف من الضغط الضريبي الذي قد يتسبب في ثورات عليهم. كما كانت فيها مكاسب عسكرية لما يتم تدعيم جيوشهم بقوات بشرية أجنبية موالية لهم، كما حصل هنا مع قوم اللاتين بالنسبة لطاركان.

لكن مع الاستبداد بشعب حر يغلي كالبركان من تحت قدميه، ظل طاركان في حاجة للمزيد من الضغط عليه حتى لا ينفجر في وجهه. فكان في حاجة للمزيد من القوة والأموال لتمويله. وبما أن للضغط الضريبي حدود ومخاطر، يبقى المزيد من الغزو هو الحل. هكذا من الانتصارات السابقة تتفتحت شهيته لاحتلال مدينة قريبة جدا من روما. ولما لم تنفع معها الحرب لجأ إلى الخداع والمكر. وأورد ذلك تيت ليف في قصة أخرى جديرة كسابقاتها بالأعمال المسرحية وبالسينما. وليس فيها ما من شأنه أن يضحض مصداقيتها.

فيرويها تيت ليف بقوله : "اتجه طاركان من بعد ذلك لاحتلال مدينة Gabies القريبة من روما، فلم تكن تلك الحرب لا نزهة ولا سريعة النتائج كما توقع هو ذلك. من بعد فشل كل من الهجوم والحصار ارتأى استخدام المكر والخديعة كعادته لاحتلالها. فتظاهر ببناء معبد جوبتير ونسيان مشاريعه الحربية. ثم بتواطؤ مع أبيه هرب إبنه الأصغر[1] سكستوس لاجئا إلى مدينة Gabies يشتكي لأهلها من قسوة والده. وقال لهم بأنه لم يقتنع بالطغيان ضد الآخرين فسلط قسوته حتى على أسرته، وأنه يخاف من عدد أبنائه، وكما أفرغ مجلس الشيوخ من أعضائه يريد إفراغ أسرته من أبنائها، حتى لا يبقى فيها من يرث لا إسمه ولا عرشه. أما هو فقد نجى من سيف أبيه ولم يجد أفضل ملاذ له سوى عند ألد أعداء والده. وعليهم أن يعلموا أن الحرب التي يتظاهر أبوه بالتخلي عنها إنما تهديداتها قائمة دائما وستندلع في الوقت المناسب ثم ستسحقهم على حين غرة. وإن هم لم يستجيبوا لتوسلاته فسيجول هو كل البلاد حتى يجد فيها الملاذ الآمن عند شعب كريم يحمي ولدا مظلوما من بطش أب عاق، ويحمل معه يوما السلاح للتخلص من هيمنة ملك أكثر غطرسة من غيره وشعب أكثر عدوانية من باقي الشعوب"

[1] الذي سيكون لاحقا هوالسبب في سقوط ملك أبيه ونهاية الملكية الرومانية.



موقع مدينة ڨابي القريب من روما.

ثم يسترسل تيت ليف قائلا: "خاف أهالي Gabies إلم يتمسكوا بهذا الأمير أن يغادر المدينة غاضبا منهم. فاحتضنوه بحفاوة، وقالوا له بألّا يستغرب من معاملة طاركان لأبنائه بمثل ما عامل به رعاياه وحلفاءه. حتى أنه في حال ما لم يجد ضحايا كان يوجه قسوته ضد نفسه. رحبوا بالإبن ضيفا عليهم، والأمل يحدوهم بأن يستعينوا بشجاعته وآرائه كي يرحّلوا يوما الحرب من حول أسوار مدينتهم إلى أسوار روما. صار الأمير سكستوس من يومها عضوا في مجالسهم الاستشارية. هناك كان يتبنى أراء أسلاف الڨابيين في كل القرارات المتعلقة بالأمور المدنية التي تعودت عليها. لكن لم يكن ذلك موقفه حين يتعلق الأمر بالحرب مع روما. كان يقول أن آراءه فيها هي الأفضل بالنظر لمعرفته الجيدة بقوات الشعبين، وأن طغيان أبيه طاركان كم كان بغيضا بالنسبة للرومان ولا يطاق حتى من طرف أبنائه".

"وكان يشجع كبار المدينة على الثورة. كان يتزعم مجموعة من الشباب المغامرين للإغارة على أراضي تابعة لروما لنهبها. وحتى يحول دون ظهور مخططاته كان يأخذ مرارا معارك صغيرة ضد الرومان يكون فيها النصر للڨابيين. هكذا بلغ الحماس عند الصغار والكبار درجة كانوا يحسبون معها أن مجيئه إليهم منّة عليهم من الآلهة. كان رائعا مع الجنود من حيث كان يتخلى لهم عن الغنائم ويقاسمهم المحن والمخاطر. نال بذلك كامل وُدّهم حتى صار بينهم أقوى مما كان أبوه بروما. ظل يزيد من نفوذه بأعماله وأقواله المنسجمة مع مخططاته إلى أن حصل على القيادة العامة لجيش الڨابيين". وإذا ما صحت الرواية فقد كان فيها ما يجعل الرومان يصبروا على الأب الطاغية حتى يأتي الخلاص على يد الإبن المتظاهر بالتمرد.

"ولما وثق من أنه أصبح قادرا على فعل ما يريد، أرسل إلى أبيه واحدا من أهله ليخبره بما يجب عليه فعله من الآن وقد منحته الآلهة السلطة المطلقة بمدينة الڨابيين. لم يتلقى الرسول من طاركان جوابا شفويا". وعلق على ذلك تيت ليف ليفسره بقوله : "لأن إخلاصه لم يكن، كما أظن، موثوقا به". ثم يستطرد قائلا : "فانتقل طاركان لحديقة القصر متظاهرا بالتفكير في شيء مّا والرسول يمشي من ورائه. هنالك وهو يتجول في صمت كان يضرب بعصاه الرؤوس الأعلى لنبات الخشخاش. فعاد الرسول إلى مدينة ڨابي من بعد ما تعب من السؤال ومن انتظار الجواب ظانا أنه قد فشل في مهمته. حكى ما قاله وما رآه مضيفا أن الملك إما من باب الحقد أوالغضب أو بالنظر لما في طبعه من كبر لم ينطق بكلمة واحدة. لكن الإبن سكستوس فهم من كل ما سمع تأويل الألغاز الصادرة عن أبيه، فبادر إلى إهلاك المواطنين الرئيسيين جماعة من بعد أخرى باتهامهم أمام الشعب مستغلا ما اكتسبوه من الحقد ضدهم[1]. العديد منهم أذين علنا. وبعضهم كان يصعب اتهامهم فاغتالهم سرا. وآخرون هربوا من دون عراقيل أو نفوا. ووُزعت ممتلكات القتلى والمنفيين على ما تبقى من الشعب. ذاك السخاء كان مما جمع من ذلك السلب، وإغراءات المصالح الخاصة، خنقت عند من تبقى من كبار الڨابيين الفطنة والشعور بالمؤامرة، إلى حين صارت المدينة من دون لا ناصحين ولا قوة، فسقطت أخيرا بيد سكستوس الذي سلمها لأبيه طاركان من دون مقاومة".

ومن أهم ما كان يعتمد عليه المستبدون للتمكن من شعوبهم هو استعمال الدين في السياسة حتى يظفون به قداسة على حكمهم ويصبح المعارضون له من الخوارج المجدّفين الذين ينبغي هدر دمهم إرضاء للآلهة. علاوة على ذلك، كان

[1] وذلك كان تأويل لغز قطع أبيه لرؤوس الخشخاش.

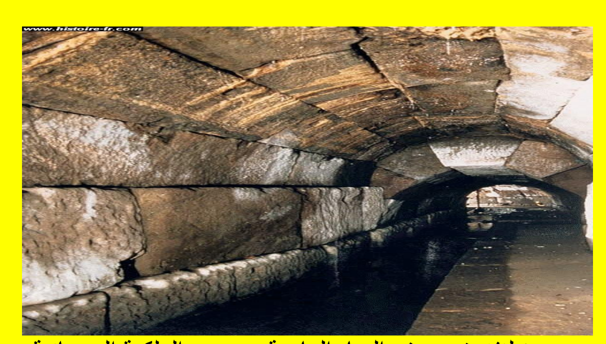
طاركان في حاجة للتصالح مع جوبتير إله روما أمام الشعب الروماني. فصار يتمسح به وتنفيذا لمشروع أبيه شيّد له معبدا لا يزال حتى اليوم يعرف بالكابطول. وجاء عن ذلك في كتاب تيت ليف قوله : "لما أصبح طاركان هو سيد مدينة ڭابي عقد معاهدات سلام مع باقي الجيران، وتفرغ لتشييد المنشآت العمرانية بداخل مدينة روما. كان أهمها معبد جوبتير الذي أراد أن يجعل منه معلمة باسم عهده وتخليدا لإسمه. بالفعل كان الكابطول من آثار كل من طاركان الأب ثم طاركان الإبن. كان الوالد قد تعهد بتشييده، ثم حقق الولد أمل أبيه. وحتى يبقى المعبد خالصا للإله جوبتير أزال من المكان كلما شيده من سبقه من معابد ومذابح لغيره من الآلهة".



لوحة تظهر الجبل من قبل تشييد المعبد

لوحة تظهر المعبد المشيد فوق نفس الجبل

وكعادته، لما يشكك تيت ليف في صحة خبر ما، يعلق عليه بعبارة "قيل" وغيرها. ومنها قوله هنا : "قيل أنه حين وضع طاركان الأسس الأولى لبناء الكابطول ظهرت خوارق تنبئ، حسب تأويلات الكهنة العرافين، بعظمة مستقبل الدولة الرومانية وبطول عمرها". ثم يقول : "الأمر الذي شجع الملك على الإنفاق على هذا المشروع من دون حساب. لم يسخّر للبناء فقط الأموال بل كذلك سواعد أبناء ورجال الشعب، الذين بالرغم من متاعب الحرب لم يستنكفوا من تشييد معبد للإله بأياديهم. لكن طاركان استعملهم من بعد ذلك في مشاريع أخرى لم يكن لها فقط نفس البريق بل كانت علاوة على ذلك جد مضنية. تعلق الأمر ببناء معارض من حول السرك وبحفر نفق لتصريف المياه العادمة". وعلق على ذلك بقوله : "إنجازان بالكاد يصل إلى روعتهما بريق الإنجازات العمرانية في زمننا هذا[1]".



صورة لنفق تصريف المياه العادمة من عهد الملكية الرومانية



صورة لمخرج نفس النفق

لكن كل ذلك لم يُنسي الشعب الروماني البطرقي النبيل بأنه مستضعف من طرف الطاغية طاركان الثاني. وتلك شيّم الشعوب الحرة التي لا تفقد عزتها وأنفتها بفعل الاستبداد، فلا تصبح وضيعة مستأنسة به. الشعب الرماني هو الذي أنشأ الدولة وأنشأ مؤسساتها وحدد سياساتها عبر الأجيال وفق ما يضمن له مصالحه وعزته وكرامته. وقد بلغ عدد المواطنين الذين تم إحصاؤهم لأول مرة في عهد الملك السابق ثمانون ألف رجل. فما كانوا مستكينين لطاركان ولنظامه الاستبدادي الذي لا يليق بهم. بل كانوا يخططون للتخلص منه في انقلاب أبيض من دون إراقة حتى دمه هو. لأن أي اقتتال بينه وبينهم كان فيه اقتتال بين

[1] يعني زمن المؤرخ تيت ليف.

الرومان البطريقيين من داخل كل العائلات والعشائر النبيلة. وكان فيه ما يغضب الآلهة في اعتقادهم، كما كان فيها ما يغري بهم أعداؤهم من حولهم. ففي السر كانوا يجتمعو ويخططوا لمرحلة ما بعد الانقلاب على الطاغية. فأعدوا نظام حكم جديد ومتين من شأنه أن يحافظ على استقرار الدولة وعلى حرية شعبها ويضع حدا لتكرار إراقة دماء كبار رجالها، من بعد ما تم اغتيال الملكين الخامس والسادس تباعا.

ولا شك أن طاركان كان على علم بكل ذلك. فمن طباع المستبدين التجسس على كل الخصوم المتوقعين. لكنه لم يجد في روما خصوما ينافسونه على الاستبداد بشعبها. لأن شعبها ما كان يليق بالاستبداد به. فكان طاركان على وعي من أن خصمه الوحيد هو الشعب نفسه. الشعب الذي كان كبار رجاله يخططون للتخلص ليس فقط منه، بل من نظام حكمه الاستبدادي لاستبداله بالنظام الأرستقراطي الذي أنشاه طركان الأب كزعيم لحزبهم، وعززه من بعده الملك سيرڤيوس بمؤسسات دستورية. نفس النظام، لكنه كان معدّلا هذه المرة بما يضمن صلابته وبقاءه قائما.

إلا أن الأسطورة كعادتها تأبى إلا أن تنسب الأمور الجليلة لأشخاص بعينهم، فيكونون كالشجرة التي تخفي الغابة. تتكلم عن أمير من عائلة طاركان وكأنه لوحده خطط للإطاحة به وبنظامه ولاسبداله بالنظام الجديد. كان يحلو لها أن تنسب كل شيء له وكأن باقي الرجال الرومان كانوا مجرد قطيع لا يصلح سوى للاستبداد به. لو كان الأمر كذلك لاستبد بهم من بعد الإطاحة بطاركان. لكنه كان في الواقع عضوا بالحزب الأريستقراطي الذي كان يخطط للانقلاب على طركان. الذي ميّزه عن بقية أعضاء الحزب هو كونه أحد الأمراء بقصر طاركان. فاتخذوه من أجل ذلك زعيما جديدا لحزبهم خلفا للملك سيرڤيوس القتيل. لكن تلك البساطة لا تحلو للقصاصين ولا تروق للسامعين. فتم ابتكار الأسطورة التي جعلت من ذلك الأمير بطلا خارقا. ونترجمها لك فتتّبعها وأنت تستحضر أنه كان زعيم الحزب الأريستقراطي الذي خطط لكل شيء كان هو يتبع تنفيذ ذلك المخطط في اتصال دائم مع حزبه.

فيقول تيت ليڤ : "في خضم تشييد تلك المشاريع، ظهرت معجزة أخرى مرعبة. خرج ثعبان من أحد أعمدة القصر الخشبية، ففزع وفر منه الجميع. كان الملك طاركان أقل فزعا من غيره، إلا أنه كان يتوقع من حصول ذلك الحدث مستقبلا مخيفا. كان العرّافون الإتريسكيون هم الذين يُستشارون عادة بخصوص الطوالع التي تتجلى في الأماكن العامة. لكن طاركان قدّر أن ما حصل يهدد مستقبل أسرته، فقرر استشارة عراف ديلف الأكثر شهرة بالعالم. وبما أنه كان لا يدري ما ستكون تأويلات الآلهة لذلك الحدث، لم يجرؤ على تكليف أجانب بالذهاب لسماعها. وفضل أن يبعث لذلك الأمر ببلاد اليونان إثنين من أبنائه، مارّين من مسالك برية وبحرية غير معروفة".

ومن هنا ستنطلق قصة الأمير بروتوس بطل الأسطورة. فيقول تيت ليڤ عما جاء فيها : "نذب للمهمة علاوة على إبنيه، إبن أخته الأمير بروتوس الذي كان له مزاج خفي ومختلف تماما عما كان يحب هو أن يظهر به للعموم. لعلمه بما أصاب كبار الدولة من هلاك بسبب قسوة خاله الملك طاركان ، قرر هذا الشاب أن يُخفي حقيقة مزاجه وثروته حتى لا تثير ضده غيرة ذاك الطاغية ولا جشعه. بكلمة واحدة، كان يبحث عن ملاذ آمن من استخفاف الآخرين به في غياب عدالة تؤمنه وتنصفه. كان يتظاهر بأنه مختل العقل، مستسلما بذلك لسخرية الملك، حتى يترك له التصرف في كل ممتلكاته، ومتقبلا حتى للقب بروتوس المهين. بفضل تستره تحت ذلك اللقب، كان محرّر روما في انتظار تحقيق مصيرها". هكذا كان يحلو للقصاصين أن يكون لوحده محرر روما.

ثم يقول تيت ليڤ "وصل أخيرا الأمراء الثلاثة إلى مقصدهم باليونان. لما نفّذ الأخوان أوامر أبيهم الملك، ودّوا لو عرفوا من عرّاف Delphes لمن سيأول العرش من بينهم من بعد موت أبيهم[1]. زعموا أن صوتا ناداهم مجيبا من داخل الموقع المقدس يقول : "من سيقبّل الأول منكم أمه سيمتلك السلطة السيادية". فرض حينها الأخوان التكتم الصارم على هذه النبوءة حتى لا يصل إلى أخيهم الأصغر سكستوس[2] الذي بقي في روما، فتضيع منه فرصة اعتلاء العرش بجهله لها. أما بخصوصهما فقد تركا للقدر تقرير من سيقبّل الأول منهما أمه. لكن ابن عمتهما بروتوس، رأى تأويلا آخر لتلك النبوءة،

[1] وقد كانوا ثلاثة إخوة. وكان أصغرهم قد بقي في روما، وهو سكستوس الذي سبق أن تآمر مع أبيه على الكّابيين لاحتلال مدينتهم.

[2] هو نفس سكستوس الذي سبق أن تآمر مع أبيه على الكّابيين لاحتلال مدينتهم

فتظاهر بالتعثر والسقوط على الأرض وقبّلها باعتبارها الأم المشتركة لكل بني الإنسان[1]. لما رجع الأمراء إلى روما وجدوا طاركان يستعد للحرب على les Rutules. وكانوا أمة قوية وغنية[2]. شُنت عليهم الحرب بسبب فراغ خزينة روما نتيجة التمويل المرهق على مشاريع الملك الباذخة. كان طاركان يريد من تلك الحرب الغنائم لسد ذلك العجز ولاستمالة عطف رعاياه، الذين كانوا جد مستائين من غطرسته ومن استبداده ومن إلزامهم لمدة طويلة بتشييد بنايات عملاقة حوّلتهم إلى عبيد". هكذا وكما تقدم، كانت الحروب المفتعلة مطية لتحقيق مكاسب اقتصادية وسياسية.

وفي هذه المرحلة ستأخذ القصة منحا مأساويا لتكون فيه أميرة من قصر طاركان ضحية اغتصاب ثم انتحار وتشكل مأسها شرارة الانقلاب الأبيض على الطاغية. فيقول تيت ليف : "لكن تلك الحرب على Rutules بدأت بفشل الهجوم، وتحولت إلى حصار طويل لمدينتهم. خلال الحصار الطويل كانت كالعادة تُمنح رخص عطل، لكن فقط للضباط وليس للجنود. كان الأمراء يخففون على أنفسهم من ملل الحصار بإقامة ولائم وحفلات ماجنة. في يوم، دار الحديث في مثل تلك الولائم حول الزوجات بين كل من سكستوس [3] إبن الملك طاركان وإبن عمومته الأمير كولاتان[4]. صار كل منهما يفتخر بمزايا زوجته. لما سخن النقاش بينهما، قال الأمير كولاتان أن الواقع أفضل من الكلام، وأنه في وقت وجيز يمكن أن يبرهن على أن زوجته لوكراس هي أفضل النساء. ثم تحداه بأن يمتطيا فرسيهما ليذهبا ويتحققا من ذلك. وبما أنهن لا يعلمن شيئا من حديثهما فسيريان من نوعية انشغالاتهن من هي الأفضل".

"تحت تأثير مفعول الخمر قررا رفع التحدي وانصرفا مسرعين إلى روما. وصلا القصر في بداية الليل، ووجدا كل الأميرات وفتياتهن مجتمعات من حول طيبات وليمة باذخة. في حين كانت لوكراس زوجة الأمير كولاتان تغزل الصوف في قاع القصر بين نسائها. نالت بذلك كل شرف التحدي، واستقبلت الأميران، زوجها وابن عمه بحفاوة، ليقضوا السهرة في بيتها. وقتها خطر ببال الأمير سكستوس الرغبة البغيضة في امتلاك الأميرة لوكراس حتى ولو كان الثمن اغتصابا غاشما. إلى جانب جمال هذه المرأة، حركت غرورَه سمعة عفتها المؤكدة".

"في نهاية السهرة رجع الأمراء إلى المعسكر. وأياما قليلة من بعد ذلك، عاد سكستوس إلى روما مرفوقا برجل واحد. وبما أنه ما كان أحد يشك في نواياه استُقبل بحفاوة واقتيد من بعد العشاء إلى شقته. هنالك ومن شدة شغفه بالأميرة لوكراس، وبتقديره من الصمت المخيم على القصر أن كل من حوله كان نائما، سل سيفه وقصد سرير الأميرة التي كانت نائمة. ومع وضع يده على ثديها استفاقت فقال لها : "اصمتي لوكراس، أنا سكستوس، وبيدي سيف، وأنت ميّتة إن نطقت بكلمة". مندهشة ومن دون وسيلة للدفاع، رأت الأميرة الموت يحلق من فوق رأسها. فتمنعت منه. لكنه هددها بتلطيخ سمعتها من بعد قتلها حين يضع إلى جانب جسدها جسد عبد عاري ومذبوح حتى يُعتقد أنه طعنها في غمرة استمتاعها بزنا مقيت معه. حينها خوفا من ذلك المصير المُهين، انهارت عفة لوكراس المنيعة لوحشية سكستوس ابن الملك طاركان، والذي انصرف من بعد ذلك وهو فخور بالاعتداء على شرف امرأة. منهارة تحت ثقل مأساتها بعثت لوكراس برسول لأبيها وبرسول آخر لزوجها كي يخبراهما بحصول حدث فظيع يستوجب حضورهما وأن يقدُما عاجلا ومع كل منهما شاهد موثوق به. حضر الأب والزوج ومع كل منهما شاهد كما أمرت".

وهنا يحلو للأسطورة أن تجعل من الصدفة حضور الأمير بروتوس كأحد الشهدين، فتخاط القصة بخيط أبيض ويصبح ذلك البطل الخارق الذي حرر روما لوحده ومن دون غيره. فتقول "كان الأمير بروتوس ابن عمومة الأمير سكستوس هو الشاهد الذي حضر مع الزوج كولاتان. وجدوا الأميرة الضحية جالسة في شقتها، وغارقة في حزن عميق. برؤية أهلها صارت تبكي، فسألها زوجها هل كل شيء على ما يرام . قالت "بالطبع لا، فما هو الخير الذي يبقى لامرأة من بعد فقدان شرفها، وآثار غريب ما زالت في الفراش. لكنه لم يدنس سوى الجسد، أما القلب فما يزال طاهرا. وموتي سيدل على صحة قولي. لكن، أقسموا لي على أن الجريمة لن تبقى من دون عقاب. إنه الأمير طاركان سكستوس الذي جاء ليلا وبيده سلاح ليغتصب مني شهوة، فيجب أن يؤدي ثمنها غاليا مثلي، إن كنتم رجالا".

---

[1] بذلك يكون الأمير بروتوس هو أول من قبّل أمه وستأول له القوة السيادية. لكن ذلك بالطبع مما كان يحلو للأقدمين من تنميق باسم الدين كي يُضفوا على العظماء لمسة إلهية تخلد ذكرهم كقديسين.

[2] اكانو من قوم اللاتين جنوب روما

[3] ونذكرك أنه نفس الإبن الأصغر الذي تحايل على مدينة كَابي ليسلمها لأبيه طاركان.

[4] الأمير *Collatin* هو حفيد أخ طاركان القديم. بذلك يكون طاركان القديم هو عم أب الأمير *Collatin* وطاركان المتغطرس هو ابن عم أبيه..

"فوعدها الجميع بالانتقام لشرفها، وحاولوا التهدئة من روعها برمي التهمة كلها على عاتق الجاني، مؤكدين لها أنه حتى الجسد ليس بمذنب حين يكون القلب بريئا، وأنه ليس هناك ذنب من دون نيّة. فقالت : "تقرير مصير المذنب سكستوس يقع على كاهلكم. أما أنا إن كنت أبرئ نفسي من الجريمة فلن أعفيها من العقاب، حتى لا تعتذر بمثال لوكراس [1] كل امرأة رضيت بالبقاء حية من بعد تدنيس شرفها". وإثر تلك الكلمات غرست في قلبها خنجرا كانت تخفيه تحت فستانها، وسقطت للتو لتلفظ آخر نفس لها، والأب والزوج يصرخان من شدة الألم".

فكان ذلك الحدث المأساوي، وفق تلك الرواية، هو النقطة التي أفاضت الكأس، وكانت الدافع القوي للانطلاق في تنفيذ مخطط الإطاحة بطركان من دون سفك للدماء. فيقول تيت ليف : "حين استسلم الشهود للألم، نزع الأمير بروتوس بروتوس الخنجر من جرح الضحية، والدم ما يزال يتقاطر منه، فرفعه وصاح يقول : "أقسم بالآلهة وأشهدها بهذا الدم الطاهر من قبل التدنيس الذي ألحقه به ابن الملوك البغيض، أقسم بأن ألاحق بالحديد والنار وبكل الوسائل المتاحة لقدرتي، ألاحق بها طاركان المتغطرس وزوجته المجرمة[2] وكل نسلهما، وألا ترزح روما منذ اليوم تحت نيْر الملوك، لا هم ولا غيرهم". ومرّر بروتوس الخنجر على الحاضرين المندهشين من تغير هذا الرجل الذي كان لا يُنظر إليه إلا كرجل أحمق، ورددوا نفس القسم الذي ألزمهم به. بتحول مفاجئ من جو الألم إلى الشعور بالرغبة الجامحة في الانتقام خرج الجميع من وراء الأمير بروتوس الذي كان ينادي ويصيح بتدمير الملكية".

"أخذوا معهم جثمان الضحية لوكراس إلى الساحة العامة. فتولد عن ذلك المشهد الفظيع، وكما كانوا يتوقعون، شعور عام بالرعب. صار الشعب يلعن عنف سكستوس المقيت. وأشفق على ألم الأب. لكن الأمير بروتوس قام وأدان تلك الدموع وتلك الشكاوى لكونها غير مجدية، واقترح الرأي الوحيد الذي يستحق أن يُسمع من طرف الرجال والرومان، وهو حمل السلاح ضد هؤلاء الأمراء الذين يعادونهم. فتقدم الأكثر شجاعة من بين الحاضرين تلقائيا بأسلحتهم. ثم تبعهم الباقون. بقي نصفهم بالمدينة لحمايتها ولمنع وصول نبأ الثورة للملك. واتجه النصف الآخر صوب روما من وراء القائد الثائر الأمير بروتوس. عند وصولهم، حيثما تقدمت تلك الجموع المسلحة، كان الناس يصابون بالحيرة والهلع. لكن لما كانوا يرونها تحت قيادة أمراء من كبار رجال الدولة كانوا يطمئنون على نواياها مهما كانت".

"جاء الناس إلى الساحة العامة من كل جانب من المدينة. جمع المنادي الشعب من حول الأمير بروتوس الذي صار يحرضه. كان خطابه بعيدا عن البساطة المعهودة في كلامه حتى ذلك اليوم. حكى عن الفجور الوحشي عند المذنب سكستوس وعن العنف المقيت الذي كانت ضحيته الأميرة لوكراس، وعن موتها المؤسف، وعن ألم الأب الذي فقد ابنته. كان يتأسف على فقدان تلك الضحية أكثر من تأسفه على السبب في ذلك. ثم صار يصف استبداد طاركان المتغطرس، والأشغال الشاقة وبؤس الشعب الذي زجّ به في الحُفر والبالوعات القذرة كي ينظفها. كان يبدي أساه على تحويله للشعب الروماني المنتصر على كل الشعوب المجاورة إلى مجرد عمّال وبنائين. ذكّر الناس بفظاعات اغتيال الملك سرفيوس، ومرور بنته العاقة بعجلات عربتها على جسده. ثم أخذ يستجدي الآلهة المنتقمة من قاتلي الأقارب. في وسط ذاك الهرج والمرج العام خرجت زوجة طاركان[3] من القصر هاربة. كانت تتعرض من حيث ما مرت للعنات الجماهير، التي كانت تسمعها وهي تطالب برأسها غضبا وانتقاما من قاتلة والدها".

وعلق تيت ليف على كل ذلك بقوله : "جرائم مثل تلك، وأخرى أكثر وحشية بلا شك، يصعب على المؤرخ ذكرها بنفس القوة التي يذكّر بها من كان شاهدا عليها، ألهبت تلك الجموع[4] التي استجابت للخطيب وقررت خلع الملك والحكم عليه بالنفي هو وزوجته وأبناؤه". ثم يقول : "ومن بعد ترك من ينوب عنه بروما، توجه الأمير بروتوس على رأس جموع الشباب المسلح إلى المعسكر المحاصر لمدينة Ardée، كي يثير الجيش ضد الملك طاركان . ولما وصل الخبر للمعسكر فوجئ الملك وخرج خائفا ومسرعا إلى روما لخنق وقمع الثورة وهي في بدايتها. علم الأمير بروتوس بقدومه فغير طريقه حتى لا يلتقي به. وصل كل منهما إلى مقصده وفي نفس الوقت تقريبا وفي اتجاهين متعاكسين ومن طريقين مختلفين. لما وصل طاركان إلى روما وصل الأمير بروتوس إلى معسكر الجيش. لكن طاركان وجد أبواب المدينة مقفلة، وتم إخباره بالحكم عليه بالنفي. بالعكس من ذلك، استقبل الجيش الأمير بروتوس بحفاوة كمحرر لروما، وطرد من صفوفه أبناء الملك. إثنان منهما تبعا أباهما إلى المنفى عند الإتريسكيين[5]. أما المذنب سكستوس فقد ظن أنه سيجد ملجأ آمنا

---

[1] معنى ذلك في نظرها هوأن كل امرأة دُنس شرفها فعليها محو ذلك العار بقتل نفسها

[2] قاتلة أبيها الملك سيرفيوس من أجل تتويج زوجهاز مكانه.

[3] القاتلة لأبيها سيرفيوس

[4] التعليق هنا هومرة أخرى وبالطبع للمؤرخ تيت ليف.

[5] وكما تقدم، فأصل أسرة الطاركان يوناني من جهة الأب وإتريسكي من جهة الأم.

في مدينة الگابيين، وكأنها مدينته، فلقي فيها حتفه على يد من كانوا حانقين عليه بسبب من قتل منهم وسلبهم أموالهم ووطنهم سابقا".

ويختم تيت ليف القصة بقوله : "حكم طاركان خمس وعشرين سنة. ودام حكم كل ملوك روما منذ التأسيس حتى خلاصها مائتان وأربع وأربعين سنة. حينها اجتمعت جموع الشعب بدعوى من محافظ روما وفق التقسيم المئوي le cens الذي سنه الملك Servius، وعيّنت قنصلان وهما الأمير بروتوس والأمير كولاتان زوج الضحية لوكراس. اللذان تزعما الثورة على طاركان المتغطرس". يقول تيت ليف ذلك وكأن ما حصل كان وليد الساعة. في حين كان الأمر بدرجة من التعقيد الذي يتعذر معه أن يخطر على بال أحد فور خلع طاركان من عرش روما. الأمور كانت كما تقدم، من تدبير الحزب الأريستقراطي الذي خطط لكل شيء وكلف زعيمه بروتوس بالتنفيذ. وكما كان مخططا له أيضا صار هو بمعية الأمير كولاتان قنصلين بمثابة ملكين لكن وفق مقتضيات نظام الحكم الجديد والمعلوم مسبقا. يتعلق الأمر بجمهورية. لكن لسيت كل جمهورية هي ديمقراطية. وهذا ما نشاهده حتى يومنا هذا. بل الجمهورية بروما بدأت أريستقراطية. أي جمهورية يحكمها الأخيار من البطريقيين من دون بقية الشعب من البطريقيين والعوام. فما هي طبيعة هذه الجمهورية التي اختارها الحزب الأريستقراطي الروماني كنظام بديل عن النظام الملكي السابق[1] ؟

---

[1] لائحة ملوك روما العتيقة

الملك	عهده	مدة عهده	نمط اعتلائه للعرش	مآله
روميلوس	753 ق.م. -716 ق.م.	37	بتأسيس روما	قصة موت خرافية
و Titus Tatius			بضم بعض شعبه من الصابيين لروما	اغتيال
Numa Pompilius	715 ق.م. –673 ق.م	42	اختيار مجلس الشيوخ بتفويض من الشعب	موت على الفراش
Tullus Hostilius	672 ق.م. –641 ق.م.	31	بانتخاب الشعب وتزكية مجلس الشيوخ	قصة موت خرافية
Ancus Marcius	641 ق.م. –616 ق.م.	25	انتخاب الشعب وتزكية مجلس الشيوخ	موت على الفراش
Tarquin l'Ancien	616 ق.م. –575 ق.م.	41	المكر والخداع ثم انتخاب الشعب وتزكية مجلس الشيوخ	اغتيال
Servius Tullius	575 ق.م. –535 ق.م.	40	المكر والخداع من دون انتخاب الشعب ولا تزكية مجلس الشيوخ	اغتيال
Tarquin le Superbe	535 ق.م. –509 ق.م.	26	بقوة السلاح واغتيال الملك السابق	خلع من العرش

الفصل الثاني : عهد الجمهورية الأرستقراطية (509 ق.م. -493 ق.م.)

-

مقدمة الفصل

يقول تيت ليف : "سأحكي الآن ما قام به الشعب الروماني في الحرب والسلم، وقد أصبح حرا. سأتحدث عن الولايات السنوية لرجال الدولة، وعن هيمنة القانون التي صارت أقوى من هيمنة الرجال. كان استبداد وغطرسة آخر ملوك روما سببا في استقبال الشعب لعهد الحرية بالبهجة والفرح. أما من سبقوا ذلك الطاغية على عرش روما فقد أنصفهم الشعب برضاه عنهم كمؤسسين ومشيدين لتلك الأحياء من المدينة لإيواء الجموع الوافدة عليها، والتي ظلوا يعملون على تنميتها. وعليه، فما من شك في أن الأمير بروتوس الذي نال ما نال من المجد بطرده للملك طاركان المتغطرس، كان سيصيب الدولة بأكبر أذى لو أنه نزع الصولجان من ملك من ملوك روما السابقين من أجل الحصول على الحرية قبل الأوان".

وتجد هنا تناقضا عند المؤلف لما يقول في حق الملوك السابقين أنهم من جهة أن الشعب أنصفهم برضاه عنهم، ومن جهة ثانية أن الأمير بروتوس كان سيصيب الدولة بأكبر أذى لو أنه نزع الصولجان من أحدهم من أجل الحصول على الحرية قبل الأوان، وكأنهم كانوا مستبدين. فبالنسبة له عهد الحرية سيبدأ مع ميلاد الجمهورية. وبالنظر لما تقدم معنا فهذا غير صحيح. عهد الملكية ظل عهد الحرية بالنسبة لعموم البطريقيين من دون العوام إلى حين اغتصاب العرش من طرف طاركان الثاني. أما في بدايات عهد الجمهورية فستظل الحرية من نصيب البطريقيين، لكن بدرجات متفاوتة.

ولتبرير وجهة نظره زاد قائلا : "تصوروا ماذا كان سيحدث حينها في المدينة مع تلك الجموع من الرعاة القادمين من كل حدب وصوب، والهاربين من أوطانهم، والمحميين بحرمة المعبد، لو أنهم، في غياب الخوف من سلطان الملك، لحصلوا ليس على الحرية وإنما على الأقل على الإفلات من العقاب، ثم سقطوا في الهرج والمرج تحت تأثير عواصف المنابر الخطابية. تخيلوا ماذا كان سيقع مع نفس الجموع في مدينة ما تزال أجنبية بالنسبة لها، لو أنها دخلت حينها في صراع مع الكبار من قبل أن تجمعها معهم وتوحدهم مصالح مشتركة بفضل علاقات المصاهرة والقرابة الأسرية وحب الأرض التي لا نتعلق بها إلا بفعل مرور الزمن. الدولة التي كانت ما تزال حينها هشة كانت ستنهار بفعل شدة الخلافات. بينما تأثير هادئ من سلطة معتدلة نمّى قواتها إلى درجة جعلت هذه النبتة الخصبة تصل مرحلة النضج إلى حين أثمرت بسخاء ثمار تلك الحرية". فهو هنا يصدق خرافات الأساطير التي تدعي أن أراضي روما كانت خالية من قبل نشأة الدولة. وأنها من صنيع صعاليك من حول الأخوين ريموس وريمولوس، وأنها ظلت تستقبل المزيد من أمثالهم لمدة طويلة، وما كان يضبطهم فيها سوى صولجان الاستبداد. في حين كل ما تقدم معه عن العهد الملكي يؤكد عكس ذلك تماما.

بل الحرية في ظل العهد الجديد قد عادت إلى روما إثر استبداد طاركان المتغطرس. استبداد كنقمة لكن كان في طيّها نعمة، كما يقال. استبداده جعل مختلف فئات الرومان تقدر الحرية حق قدرها. حرية ألفوا العيش فيها مع ملوك شرعيين، حتى كادوا لا يقدرونها حق قدرها، لولا ذلك الاستبداد الطارئ. لولاه لحولوها مع مرور الزمن إلى فوضى. لكن الشعوب الحرة، في تقديرنا، قلّ ما تهزها رياح التغيير العاثية وعواصف الأزمات القاسية. بل تبقى ثابتة ومستقرة كالجبال إلى حين استعادة هدوئها وطمأنينتها من جديد. فقط الشعوب الوضيعة، التي لا تعرف للحرية لا طعم ولا رائحة، ما أن يزول من على رقابها نيْر الاستبداد حتى تسقط في أتون الفوضى، فلا تنتظم وتستقر مرة أخرى إلا من بعد جُثوها من جديد تحت نير استبداد جديد. وقد سُقنا لك أعلاه مثالا على ذلك من الأندلس من بعد سقوط دولة بني عامر وظهور ملوك الطوائف، علاوة على مثال آخر من فرنسا إثر ثورة 1789. ونتركك تستشف من بعد هذه المقدمة معنى الحرية في قاموس المؤرخ تيت ليف الذي قضى نحبه منذ ألفي سنة. تلك الحرية التي نروي قصتها هنا في تاريخ روما العتيقة، والتي ما عرفتها إلا قلة من الشعوب في تاريخ البشرية.

معالم عهد الجمهورية الجديد

النظام الجديد كان جاهزا وينتظر فقط خلع الطاغية للبدأ في العمل به. أعده الكبار من علية القوم من البطريقيين بالطبقة الأولى من التقسيم الميئي الذي سنه الملك سرفيوس. وكان زعيمهم من داخل قصر الملك المخلوع هو ابن عمته الأمير بروتوس. تم في النظام الجديد تعويض منصب الملك بقنصلين منتخبين لولاية مدتها سنة واحدة. ويتم انتخابهما من طرف الهيئات الميئية فقط، بل بالضبط من طرف الطبقة الأولى فيها. وذلك بدلا من الهيئات العشائرية وموافقة مجلس الشيوخ كما كان الحال بالنسبة لانتخاب الملوك.

ويتقوف التصويت عند الطبقة الأولى من بين الخمس طبقات المشكلة للهيئات الميئية بحجة أنها تمتلك أكثر من خمسين في المائة من الثروة الوطنية. فتتشكل تلك الطبقة من البطريقيين الأكثر ثراء وفق سجلات الإحصاء الخماسي. وفقط في حال لم تُحسم نتيجة التصويت عند هذا المستوى يتم اللجوء لتصويت الطبقة الثانية التي تليها. ووبنفس نمط التصويت صار من صلاحيات نفس الطبقة الأولى انتخاب القنصلين والتشريع وحق النظر والفصل في القضايا المرفوعة ضد رجال الدولة وفي الجرائم ضد أمن الدولة. الهيئات العشائرية حيث لا يزال لكل بطريقي صوت في الاقتراع تم تهميشها كي تستشار فقط في الأمور الدينية. ولذلك كانت الملكية في أول أمرها ديمقراطية. ثم صارت مع طاركان والقديم ومع خلفه أريستقراطية. وبدأ عهد الجمهورية بنظام حكم أريستقراطي. صارت السيادة فيها من نصيب علية القوم الأكثر ثراء بالطبقة الأولى من الهيئات الميئية.

وقد شكل ذلك النظام الجديد مصدر عظمة روما التي خلد التاريخ ذكرها من بين كل مدن إيطاليا. القنصلان كانا في سدة الحكم، وبذلك كانا في المقام الأول جنرالين يقودان الجيوش في الحروب. فكانا بمثابة ربانين في قمرة طائرة. والأعرف والأقدر من غيرهم على حسن اختيارهم كانوا هم علية القوم بالطبقة الأولى من التقسيم الميئي. فهذه النخبة كانت سابقا تشكل كبار ضباط الجيش من حول الملك كجنرال في الحرب. وستظل كذلك من حول القنصلين في النظام الجديد. فهي الأجدر بانتخابهما.

والقنصلان بقيادتهما للجيوش كجنرالين كانا بدورهما الأعلم من غيرهما بمن يستحق أن يخلفهما من بعد ولايتهما السنوية. فكانا هما اللذان يقترحانهما على تلك الطبقة الأولى كي تنتخبهما. كما كان القنصلان هما الأعلم من غيرهما بمن يستحق من بين نفس الطبقة الأولى أن يكون عضوا بمجلس الشيوخ الذي ينظر في الشؤون الخارجية والسلم والحرب. فكان من اختصاصهما تعيين كل عضو جديد كلما شغر مقعد بالمجلس. وصار باقي الشعب الروماني كالمسافرين في الطائرة. أما القيادة والصيانة فقد صارت من صلاحيات أهل الاختصاص من بين أفراد الطبقة الأولى. استشارة الهيئات العشائرية في من يكونان قنصلين على رأس كل سنة كان بمثابة استشارة ركاب الطائرة في من يكونان ربانين بقمرتها. فلا يصح ذلك. ثم إن الطبقة الأولى من التقسيم الميئي لا يمكنها أن تستسلم في هذا الموضوع الحساس للمحاباة ولا للمحسوبية في اختيار القنصلين بالنسبة لأمن الدولة في بيئة عدوانية وبالنسبة لحريتها ، ولا سيما أن نفقات تقلد المهمة كانت تقع على كاهل القنصلين المنتخبين. فكان فيها التكليف أكثر من التشريف.

وصار من اختصاصات القنصلين المنتخبين لولاية سنوية، وبترتيب تصاعدي، تدبير شؤون المدينة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية، وتدبير شؤون المال العام جباية وإنفاقا، والسلطة القضائية من غير ما هو من اختصاص الهيئات الميئية. وذلك مع حق المواطنين البطريقيين في استئناف أحكام كل قنصل لذى زميله فيقره أو يلغيه. وصار من اختصاصهما وبالأساس قيادة الجيش في الحرب، والإشراف على الإحصاء الخماسي، وتعيين أعضاء جدد في الأماكن الشاغرة بمجلس الشيوخ، مع الحق في تحديد حجم المجلس. ومع تعاظم حجم المدينة بتعاظم حجم شعبها، كل تلك الصلاحيات فيما عدا قيادة الجيش ستوزع لاحقا وبالتدريج على مناصب جديدة، مشكلة كل منها من عضوين منتخبين لولاية سنوية. وبقيت لمجلس الشيوخ اختصاته القديمة المنحصرة في الشؤون الخارجية وقرار السلم والحرب. ولا يجتمع إلا باستدعاء من أحد القنصلين.

تلك كانت معالم النظام الجمهوري الجديد الذي أخذ مكان النظام الملكي. وكان فيه ما يكفي من التعقيد الذي يتعذر معه أن يكون من ابتكار الأمير بروتوس لوحده كما تدعي ذلك الرويات الأسطورية الواردة في كتاب تيت ليف. بل كان من إعداد الحزب الأريستقراطي الذي اتخذه زعيما له خلفا للملك سرقيوس، ثم انتخبه مع الأمير كولاتان زوج الضحية لوكراس كأول قنصلين في عهد الجمهورية الجديد الذي علق عليه تيت ليف بقوله : "إذا كان ينبغي تأريخ بداية عهد الحرية بتلك الحقبة، فبالأحرى بسبب حصر مدة ولاية

السلطة القنصلية في سنة واحدة[1]، وليس بمجرد تعويض منصب الملك بقنصلين. القناصلة الأوائل احتفظوا بكل الحقوق التي كانت للملوك وبكل ما كانوا يتميزون به من شارات. لكن حتى لا يظهر النظام الجديد وكأنه قد ضاعف من الرعب الذي تزرعه قوة السلطة العليا في النفوس، كان حريصا على ألا يمنح أسلحة القوة السيادية للقنصلين في آن واحد. فكان الأمير بروتوس هو أول من كانت من نصيبه. حصل ذلك بفضل الإذعان الطوعي من زميله".

ثم علق على شخص القنصل بروتوس وعلى أول أعماله بقوله : "كان ذلك هو الأمير الذي أظهر من أجل الحفاظ على الحرية حماسا أكبر من الحماس الذي أظهره من قبلُ من أجل اسعادتها. منتهزا، قبل كل شيء بهجة الشعب بحصوله على الحرية المسترجعة، وخوفا من أن يستسلم لاحقا لإغراءات المَلك المخلوع ولهداياه وتوسلاته، استحلفه بالآلهة على ألا ترزح مدينة روما أبدا تحت نيْر أي كان من الملوك". بذلك صارت منذ تلك اللحظة كل محاولة انقلاب على النظام الجديد أو مجرد شبهة مشروع للاستبداد بروما وبشعبها جريمة عقوبتعها الإعدام. كان ذلك من ضمن القوانين المعدة سلفا من طرف علية القوم. وما لبث أن كان ولدا القنصل بروتوس نفسه من بين الشباب الأوائل الذين نفذ في حقهم ذلك الحكم بتلك التهمة.

وزاد تيت ليف قائلا : "ثم كي يستعيد مجلس الشيوخ قوته المستمدة من عدد رجاله الذي قلصته بحدة قسوة الملك الأخير، رفع القنصل بروتوس ذلك العدد إلى ثلاثمائة عضو، وسد النقص فيه باختياره للرجال المرموقين من هيئة الخيالة[2]". وسيظل ذلك من صلاحيات القناصلة وفق نفس المخطط سلفا. ثم علق على ذلك الإجراء واسترسل يقول : "فنتج عن ذلك في المجلس التمييز بين الأعضاء الآباء، وبين الأعضاء المنتقين[3]، وهم الذين اختارهم بروتوس ليكمل بهم عدد ثلاثمائة عضو. وقلّ ما يُقدّر هذا الإجراء حق قدره بالنظر لما كان له من مساهمة في الحفاظ على الانسجام بين مؤسسات الدولة وفي تقوية تعلق الشعب بأعضاء مجلس الشيوخ. من بعد كل ذلك تمت العناية بالدين. وبما أن ذبح الأضاحي للآلهة المشتركة كان من اختصاص الملوك، فقد تم استبعاد أي عذر يجعل الناس يتأسفون على حذف الملكية. وتم جعل تلك المهمة من نصيب الحبر الأعظم[4]، وليس من نصيب القنصلين. وذلك حتى لا تتضرر الحرية المحاطة بكل عناية، بسبب إضافة مزيد من الصلاحيات لمنصبيهما". مرة كل ذلك ليس من تدبيره لوجده وإنما تنفيذا لمخططات حزبه سلفا.

علية القوم هم الذين سبق أن انتخبوا الأمير طاركان كولاتان زوج الضحية لوكراس كثاني قنصل بمعية الأمير بروتوس لولاية سنوية. لكن من شدة حساسيتهم من عائلة طاركان قدروا أنه ينبغي أن يستقيل من منصبه قبل نهاية الولاية السنوية لصالح غيره. كان الأمير من عائلة الطاغية وكان يحمل إسمها. أما بروتوس فقد كان من نفس العائلة، لكن فقط من جهة أمه، فلا يحمل إسمها. وصار من واجبه القيام بتلك المهمة المحرجة نزولا عند رغبة حزبه. فعلق تيت ليف على ذلك بقوله : "لست أدري إن كانوا قد تجاوزوا كل الحدود باتخاذهم أدق الاحتياطات من أجل حماية تلك الحرية. حصل ذلك لما لم يبقى شيء يمكن أن يلقي بظلاله عليهم. وصار مجرد إسم ثاني القنصلين هو طاركان كولاتان مصدر قلق لهم. كان يقال أن سلالة الـ طاركان كانت متعودة على المُلك، وأن مُلكهم بدأ مع طاركان القديم. بالرغم من انقطاع عهده بمُلك Servius، لم يتخلى ابنه طاركان المتغطرس عن الطمع في استرجاع العرش. وبعيدا من اعتباره للمُلك غريبا عنه اغتصبه بالعنف والإجرام، لما كان لا يرى فيه سوى ميراثا لأسرته. ومن بعد طرده منه ها قد انتقلت السلطة اليوم للأمير طاركان كولاتان كثاني القنصلين بمعية بروتوس. وبما أن سلالة طاركان لا ترضى بالعيش كأشخاص عاديين، ولكونهم يستنكفون من مجرد أن يذكر إسمهم من دون تشريف، فإنهم يشكلون خطرا على الحرية".

ثم يضيف قائلا : "هذه الخطابات التي كانت تدور عمدا لاختبار الرأي العام، انتشرت شيئا فشيئا بكل أرجاء المدينة، وأثارت شكوك الشعب". معنى ذلك أن المبادرة جاءت من الحزب وليس من عموم الشعب. فقال : "فدعا القنصل بروتوس لاجتماعه بالساحة العامة. هنالك نطق بالقسَم الذي تعهد به الرومان على ألا ترزح روما يوما تحت نير ملك أو أي كان يجعل حريتها في خطر. وأضاف يقول بأن ذلك هو الهدف الذي من الواجب دوام السعي إليه، كما

---

[1] لأنه عوّض منصب الملك بقنصلين منتخبين من طرف الهيئات المئوية *Les comices centuriates* وكانت مدة ولايتهما معا سنة واحدة.

[2] وهي الجزء العلوي من الطبقة الأولى من بين طبقات الهيئات المئوية الخمس *Les comices centuriates* التي تشكلت بسنّ الملك سيرفيوس لقانون التقسيم الميئي *le cens*.

[3] *les pères et les conscrits*

[4] *souverain pontife* أو الحبر الأعظم، وهو منصب كان قد أنشأه الملك نوما.

ينبغي ألّا يُهمل شيء يمكن أن يحول دون تحقيقه. ثم قال أنه يقترح ذلك كارها، وهو يفكر في شخص قد يتسبب فيه. وما كان ليفعل لولا حبه للجمهورية الذي يطغى على كل عاطفة فيه. فقال اخيرا : "أنْ يعتقد الشعب الروماني أنه لم يستعد بعدُ حريته كاملة، وأن تكون سلالة الملوك وأسماؤهم ما تزال موجودة بروما، وأن تحتل المنصب الأعلى بالدولة، وأن يضر ذلك بالحرية ويعوقها، فاسمع يا طاركان كولاتان، خلّصْنا بإرادتك من كل تلك المخاوف. نحن نذكر لك ونعترف لك بأنك طردت الملوك. فأكمل معروفك الكريم، واحمل بعيدا عنا ذلك الإسم البغيض. مواطنوك، أنا أضمن لك ذلك، لن يسلبوك شيئا من ممتلكاتك. بل بسخائهم سيزيدونك عليها إن اقتضى الحال. فاذهب إذا! اذهب يا صديق الشعب الروماني، وخلص الجمهورية من مخاوف قد تكون غير مبررة. لكن الشعب لن يطمئن على ذهاب الملكية إلا بذهاب كل سلالة طاركان".

ثم يستطرد تيت ليف قائلا : "الاندهاش الذي خلفته تلك الخطوة المفاجئة في نفس القنصل كولاتان أخرسه أولا. وما أن همّ بعد ذلك بالجواب حتى أحاط به كبار الرومان مرددين على مسامعه وبإلحاح نفس التوسلات. فتمنّع ولم يجبهم لذلك بشيء. حينها تدخل صهره[1] بنفوذه المستمد من عمره ومن علو مقامه ومن قرابته منه، مستعملا كل وسائل الإقناع، مشيرا عليه بالاستجابة للرغبة التي أجمع عليها مواطنوه. فخاف القنصل إن هو تعنت، فسيُرغَم على ما يكره مع سلبه كل ممتلكاته وغير ذلك من الإجراءات المشينة. وتنازل أخيرا عن القنصلية كارها، ثم رحل بممتلكاته عن روما. حينها وباقتراح من مجلس الشيوخ[2] استصدر بروتوس من الهيئات الميئية[3] Les comices centuriates قانونا يقضي بنفي جميع أفراد سلالة طاركان. واستدعى نفس الهيئات كي تنتخب مكان القنصل كولاتان المستقيل Publiusفاليريوس كقنصل ثاني. وذلك بالنظر لما كان له هو كذلك من فضل في طرد الملوك". هنا تجد أن السلطة التشريعية التي كانت بيد الملك بتوفويض من الشعب صارت بيد الهيئات الميئية بل بيد الطبقة الأولى. قد يقترحها مجلس الشيوخ على القنصل الذي من حقه تقديم مشاريع قوانين للهيئة الميئية التي صار لها دزر البرلمان من صلاحيت أخرى. ومن تم الطبيعة الأريستقراطية للجمهورية.

لكن الملك المخلوع والمنفي مع كل عائلته من روما، بمقتضى قانون من الهيئات الميئية، لم ييئس من استعادة عرشها مرة أخرى وبالقوة دائما. ولهذا سبق أن تم سن قانون يعاقب بالإعدام كل من يحاول الانقلاب على النظام الجديد لصالح الملكية أو يهم بالساهمة وبالمشاركة فيه. طاركان المنفي هو وكامل أسرته لم يرقه أن يكون شعب روما متشبعا ومتشيثا بالحرية. تمنى لو كان وضيعا. كان ولا يزال من أشد ما يخشاه المستبدون هو تحول شعوبهم الوضيعة إلى شعبوب حرة. فمن مصلحتهم أن تبقى وضيعة ويعملون على ذلك. وعدوهم من يسعى لتوعيّتها من أجل إخراجها من وضاعتها. هذا لمن يستغربون من المستبدين لما يعملون على بقاء شعوبهم وضيعة. بل المثير للاستغراب هو العكس. فطاركان المخلوع وجد نفسه أمام شعب حر، وظل يبحث فيه عمن يعيده إلى العرش. ووجدهم من بين البطريقيين الذين كانوا من حوله تستفيدون من استبداده.

لما يكون الشعب وضيعا يكون الصراع من فوقه أفقيا فيما بين عليّة القوم على الاستبداد به، وهو يتفرج إلى حين يفوز به المنتصر فيه كغنيمة حرب. أما هنا بالجمهورية الرومانية فسيكون الصراع عموديا بين شعب حر من جهة وطمع طاغية للاستبداد به مرة أخرى من جهة ثانية. صراع عمودي بين الحرية والاستبداد. وسيعرف هذا الصراع أشواطا متلاحقة طيلة بقية عمر طاركان المخلوع التي دامت تسع سنوات. فماذا عن الشوط الأول من ذلك الصراع ؟

الصراع الأفقي بين الحرية والاستبداد

يقول تيت ليف : "لم يكن أحد بروما يتوقع حربا وشيكة لصالح عودة طاركان المخلوع للحكم. ومع ذلك حصلت في وقت لاحق ما كان ينتظرها فيه أحد. لكن الذي كان مستبعدا التخوف منه، هو أن تصبح الحرية يوما على وشك أن تُدمّر بسبب الغدر والخيانة. كان هنالك في روما بعض الشبان من المنبت الرفيع، والذين كانوا في عهد الملكية يتعاطون بكل حرية لما يشبع شهواتهم". هكذا الاستبداد يستفيد دائما من الفساد والمفسدين. فلا داعي للاستغراب منه. وستذرد تيت ليف قائلا في حق أولئك الشباب الفسدين : "كانوا من نفس الفئة العمرية لأمراء طاركان ولأصدقائهم المشاركين لهم في الحياة الباذخة بالبلاط. لما أصبحوا متساوين مع باقي الناس في الحقوق، صاروا يتأسفون على ما فقدوه من امتيازات ويشتكون فيما بينهم من حرية الآخرين التي تحولت بالنسبة لهم إلى عبودية". فمثل المستبدين، المفسدون من حولهم وفي ظلهم وتحت

---

[1] وهوأبو زوجته لوكريس الضحية. راجع نهاية الكتاب الأول

[2] *un sénatus-consulte*

[3] نضع هذه الملاحظة بين معكوفتين لتذكيرك بنمط الاقتراع المجحف بتحيزه للطبقة الأكثر ثراء في التمتع بالحقوق السياسية.

حماتهم هم بشكل طبيعي أعداء لحرية الشعوب وللمساوات في الحقوق المزعجة لفسادهم. فقد كانوا يقولون فيما بينهم : "كان الملك رجلا نستطيع أن نحصل منه على كل شيء، بحق أو بغير حق. وكان المجال مفتوحا معه للمصالح والفوائد. هو الذي كان يستطيع أن يعاقب أو يعفو. كما كان يعرف كيف يميز بين العدو والصديق. بالعكس من ذلك، القوانين الصماء والتي لا ترحم، ها هي قد صارت تخدم صالح الرجل الفقير أكثر من صالح الرجل القوي. ولا شفقة ولا رحمة لمن يجرؤ على مخالفتها. أليس من الخطير، في وسط هذا الكم من الأخطاء الذي يؤدي إليه الضعف البشري، أن لا يبقى لنا من الدعم سوى البراءة ؟".

لكن، بخلاف الخُطب على المنابر في العلن، فصحيح أن ذلك الكلام المنمّق في مجالس مغلقة كان من صنع القصاصين. وقد تتساءل وبحق لماذا يورده هنا المؤرخ تيت ليف، مع أنه ما كان واقعا يقينا. فنقول لك بأن إيراد بعض كلام القصاصين في كتب التاريخ هو أيضا من التأريخ. لماذا ؟ لأن القصاص كان ينمّق الكلام كي يُعجب السامعين في عصره. وفي إيراد ذلك الكلام المنمق تأريخ لما كان يحبّ المجتمع سماعه في ذلك العصر. ومنه تستشف أنت القيّم التي كانت تسوده. ففي ثناياه إذا تأريخ لمنظومة القيم التي كانت تسود المجتمع. منه تعرف ما كان يُعَد فيه معروفا وما الذي كان يُحسب فيه منكرا. عبر سرد القصاصين كانت تنتقل تلك القيم كما هي في القوم بالسماع من جيل لآخر. والخير كل الخير بالنسبة لكل قوم، حين يكون المُبجل في تلك القصص الموروثة من عصور أسلافه العتيقة يكمن في قيم العدالة والمساواة والحرية كمعروف، كما كان الحال هنا في المجتمع الروماني. والشر كل الشر يكمن في مثل تلك القصص لما تجد المبجل فيها هو الظلم والعنف والاستبداد بإيعاز وبضغط من الحكام الطغاة.

ويسترسل تيت ليف في سرد تتمة قصة المآمرة فيقول : "هكذا انتاب السخط العقول لمّا جاء إلى روما مبعوثون من العائلة المالكية المخلوعة. جاؤوا يطالبون بممتلكات طاركان من دون نيّة في العودة إلى المدينة. فاستقبلهم مجلس الشيوخ وناقش ملتمساتهم أياما طويلة. وقدّر المجلس أن الرفض كان يعني تقديم ذريعة للعدو كي يعلن الحرب على شعبه. أما القبول فكان فيه كذلك تشجيع للعدوعلى نفس الحرب". فترى هنا كيف كانت الشؤون الخارجية من اختصاص مجلس الشيوخ. يتصل الوفد بأحد القنصلين ثم يستدعي هوالمجلس للنظر في مطالبهم. فالمجلس هو الذي يستقبل السفراء ويرسل ويعين سفراء الدولة، ويتداول ويقرر في كل الشؤون الخارجية من دون غيره من باقي مؤسسات الدولة.

ثم يقول تيت ليف : "في نفس الحين كان المبعوثون من طاركان المخلوع يقومون بمهمة مزدوجة. فريق منهم كان يطالب في العلن باسترجاع الممتلكات ليس إلا. والآخر كان يُعد في الخفاء لاسترجاع العرش. بتظاهرهم بإنجاح المهمة التي كانوا يزعمون أنهم قد جاؤوا من أجلها، كانوا يجندون شباب كبار العائلات البطريقية الساخطين على الجمهورية ويُحْكِمون تلاحمهم. كانوا يسلمونهم رسائل من طاركان ويتآمرون معهم كي يفتحوا لهم الأبواب ليلا ويُدخلونهم للمدينة سرا. وكان من بين الشباب المتآمر ولدان للقنصل بروتوس نفسه، بتحريض من أخوالهم[1]". معنى ذلك أن الجمهورية كانت نظام حكم شعب روما وليست نظام حكم القنصل. فما كان فيها من امتيازات لولديه ولا لغيرهما من عائلته، كما كان الحال مع المستبد طاركان. لم يكن أحد في الجمهورية الجديدة فوق القانون. كانت للقنصلين حصانة طيلة مدة ولايتهما السنوية. لكن ما أن تنتهي حتى ترفع الحصانة ويصبحان عرضة للمحاكمة من طرف الهيئات المينية في حال ما رُفعت دعاوى ضد أي منها بتهمة سوء استعمال السلطة واستغلال النفوذ. وقد كان ذلك من مقتضيات النظام الجديد الذي كان معدا سلفا من قبل حزب كبار القوم قبل الإطاحة بالملك طركان الثاني.

واستمر تيت ليف في سرد قصة تلك المآمرة بقوله : "وأخيرا استقر قرار مجلس الشيوخ على القبول بطلبات مبعوثي طاركان المخلوع، الذين استأذنوا حينها القنصل في تمديد مدة إقامتهم حتى يتمكنوا من تحميل ونقل متاع طاركان. لكنهم استغلوا كل ذلك الوقت للتنسيق مع الشباب الروماني المتآمر معهم. وتمكنوا من بعد كبير إلحاح على الحصول منهم على رسالة للمخلوع طاركان يؤكدون فيها ولاءهم وإخلاصهم له، حتى يثق ويصدق تآمرهم على روما لصالحه. كان ذلك من كيدهم، كي تكون تلك الرسالة بأيديهم حجة على جريمة خيانتهم، في حال ما تراجعوا على ما وعدوهم به".

---

[1] نذكرك بأن القنصل بريتوس هو ابن أخت طاركان القديم. وطاركان المتغطرس هو ابن خاله.

"لكن لم ينتبه الطرفان إلى أحد العبيد الذي كان يترصد حركاتهم وسكناتهم، وعلم ما علم بشأن الرسالة. ما أن تسلمها أصحاب طاركان من الشباب المتآمر حتى هرع هو ليعلم بذلك القنصلان اللذان لم يتأخرا بدورهما في القبض على الجميع متلبسين، ووضع حد لتلك المآمرة من دون ضجيج. كان أول ما فعلوه هو تأكدهم من وجود الرسالة. فكُبل الخونة فورا في الحديد. حصل تردد لفترة بشأن سفراء طاركان. وبالرغم من وضوح عدوانيتهم غلبت أصول احترام حصانة السفراء على ما يقتضيه الموقف من حزم في شأنهم. بخصوص ممتلكات الملك طاركان فقد أعيد النظر في القبول بتسليمها. متأثرا بما حصل، قرر مجلس الشيوخ رفض إرجاعها لصاحبها ولا حتى ضمها للممتلَكات العمومية. وتركها لنهب الشعب حتى لا يفكر أبدا في عقد سلام مع الملوك من بعد ما وضع يده على ممتلكاتهم. أما أراضي طاركان ما بين المدينة والنهر فقد وهبها المجلس للإله مارس، وأصبحت بذلك هي ميدان مارس".

"من بعد نهب ممتلكات الملك طاركان المخلوع والمتآمر على الجمهورية الناشئة، حُكم على كل المتآمرين معه بالإعدام[1]. وشوهد الشباب من عليّة القوم وهم مقيّدون بالأعمدة. لكن الأنظار شُدّت إلى إبني القنصل بروتوس وأعرضت عن الباقين وكأنهم أناس عاديين. لم يكن الأسف على مصيرهما المستحَق بقدر ما كان على فداحة جريمتهما. كيف يُتصور أن هذين الشابين يجرؤان على المشاركة في مشروع خيانة الوطن في نفس السنة التي تحرر فيها شعبه من نير الاستبداد، وفي خيانة أبيهم الذي حرّره، وخيانة القنصلية التي نشأت في عائلتهما، وخيانة مجلس الشيوخ والشعب وكل الآلهة وكل أهل روما، لتسليمهم جميعا لشرّير وطاغية متغطرس ما يزال يهددهم من منفاه. لما حان وقت إنزال العقاب بالمتآمرين، حضر القنصلان وأمرا الحرّاس بالشروع في التنفيذ. فعرّوهم وجلدوهم ثم ضربوا رقابهم. ولاستبعاد مثل تلك الجريمة مستقبلا بإجراء متميز آخر تقرر مكافأة العبد الذي بلّغ عن المآمرة بمبلغ مالي من خزينة الدولة، وأعتقوه ومنحوه حق المواطنة". هكذا بفضل موقف القنصل بروتوس الحازم من أبنيه في هذه القضية تيقن الشعب الروماني بأن حريته ستظل أغلى وأقدس من حب الأب لأبنائه.



لوحة تظهر حرس القنصل بروتوس ياتونه بجثماني ابنيه من بعد إعدامهما

لكن طاركان المخلوع كان له رأي آخر. مثل كل من ذاق حلاوة الاستبداد حرية الشعوب ليست في قاموسه، وبخاصة حرية الشعب الروماني الذي سبق أن تمكن من استضعافه. فلما لم يفلح في استضعافه مرة أخرى بالتآمر عليه من الداخل صار يسعى لاستضعافه بالتآمر على حريته من الخارج. فحصلت المآمرة الثانية على الجمهورية. فماذا عنها وعن مآلها ؟

فقال فيها تيت ليف : "إثر تلك الأحداث استسلم طاركان المخلوع للحقد والغضب. لما اقتنع بعدم جدوى الحيل قرر مواجهة روما بالحرب. فلجأ لكل مدن بلاد الإتريسكيين يلتمس منها العون، ولا سيما من الفيسيين ومن أهل مدينته الطاركانيين، يحثهم على عدم تحمل مهانة نفي أمير دمُه من دمهم، جُرّد من سلطانه بمملكة قوية، ويتذمر أمام أعينهم هو وأبناؤه الذين ما يزالون يافعين. وكان يضيره أن ملكين آخرين[2] تم استدعاؤهما لحكم روما، في حين طُرد هو من عرشها بسبب مآمرة دبرها أقرباؤه لمّا كان يوسّع نفوذها بقوة أسلحته. وبما أنه لم يبق فيها من يستحق حكمها وزعوا ملكها فيما بينهم وسلموا ممتلكاته لنهب الشعب، حتى تكون كل الأمة مشتركة في الجريمة. والذي يريد استرداده هو وطنه وملكه. والذين يريد معاقبتهم هم رعاياه على نكران الجميل. فعلى تلك المدن مساندته ومؤازرته والانتقام لما أصابهم قديما من مهانات، ولتمزيق جنود روما شر ممزق ولاغتصاب أراضيهم".

---

[1] نعلم أن القضاء في مثل تلك القضايا كان من اختصاص الملك. وكما ترى لا نجد في الخبر من أي مؤسسة بالضبط من مؤسسات الجمهورية صدر الحكم بالإعدام على المتآمرين.

[2] ويقصد بذلك القنصلين

"حمّس ذلك الخطاب الفيسيين، حتى كان كل منهم يردد بصوت عالي وفيه تهديد لمّا كان يقول : "أما وقد وهب جنرال روماني نفسه لنا، فعلينا انتهاز الفرصة لمحو ما لحقنا من عار ولاسترداد ما سلبتنا الحرب". ثم تطابُق الإسم وعلاقة القرابة شحذا عزم الطاركانيين على مؤازرة طاركان الذي سبق أن شرفتهم أسرته بجعل أمراء من دمهم ومن مدينتهم يحكمون روما. فبعثت المدينتان جيشين مع طاركان ليردّا له ملكه ولشنّ حرب شرسة على الرومان. لكن ما أن وصل الجيشان لأراضي روما حتى مشى القنصلان لمواجهتهما". وهكذا قيادة الجيش في الحرب ظلت من اختصاص مؤسسة القنصلية التي عوضت منصب الملك. بحسب الظروف، كان يقود الجيش القنصلان معا، أو يقوده أحدهما ويبقى الآخر في روما لتدبير شؤونها. أما قرار الحرب والسلم فهو دائما، وكما كان منذ عهد الملك أنكوس حفيد نوما، من اختصاص مجلس الشيوخ. فلا انفراد بالسلطة لأي مؤسسة في نظام حكم روما الجديد. وفي حالة الدفاع كما هو الحال هنا فلا حاجة لإذن المجلس.

ويقول تيت ليف : "كان في مقدمة جنود طاركان إبنه الذي تعرّف على القنصل بروتوس في مقدمة جيش الرومان ومن حوله حرس القنصلية. حينها اشتعل غضبا وصاح يقول "ها هوالرجل الذي طردنا من وطننا يتقدم مزهوا بزينة شارات نياشين سلطاننا. أيتها المنتقمة للملوك كوني بجانبي". ثم انطلق مسرعا برمحه في يده مصوبا نحو صدر القنصل. القنصل الذي رآه قادما إليه تقدم لمواجهته بحماسة، لأنه كان مما يشرف كل جنرال أن يكون هو أول من يوجه الضربات الأولى للعدو. وانقضّ كل من الأميرين على الآخر بغضب شديد لم يكن يفكر معه كل منهما سوى بطعن خصمه ومن دون احتياط لحماية نفسه. فاخترق رمح كل منهما وفي وقت واحد ذرع الآخر وسقطا معا قتيلين وهما ملتصقين بالرمحين. ثم التحم بعدها الجيشان يقتتلان طيلة ما تبقى من النهار".

"ولما حان الليل لم تُحسم المعركة لصالح أي من الجيشين. حينها تملك طاركان المخلوع والإتريسكيين رعب شديد، فقرروا التخلي عن مواصلة القتال، وعادت جيوشهم ليلا لديارها. وما أن طلع النهار حتى تبين للقنصل الثاني ڤاليريوس غياب العدو من ميدان القتال. فأمر جيشه بجمع أسلاب قتلاه والعودة بها منتصرا إلى روما. تضيف الحكاية كالعادة أن أصواتا خارقة نادت الرومان تبشرهم بانتصارهم وبانهزام طاركان المخلوع مع حلفائه". ويعلق تيت ليف على ذلك بقوله : "والحقيقة المتيقن من صحتها هي بالفعل خروج الرومان منتصرين من تلك الحرب. وما أن وصل القنصل ڤاليريوس إلى روما حتى أقام فيها مراسيم جنازة مهيبة لزميله الراحل بروتوس، والتي كان فيها كل ما يليق به من مظاهر الفخامة الممكنة والمتاحة في ذلك الزمان. لكن الحزن العام على موته كان أكبر من ذلك تشريفا وتعظيما لشخص الفقيد. كان من أهم مظاهر ذلك الأسى المتميزة قرار نساء روما ارتداء لباس الحداد لمدة سنة كاملة حزنا على فقدانه كأب انتقم بكل حماس للعفة المُهانة". والمقصود بذلك هو انتقامه لاغتصاب شرف الأميرة لوكريس من طرف ابن الملك طاركان الثاني.

لما تم عزل القنصل طاركان كولاتان بسبب إسمه، استدعى زميله بروتوس، كما كان ينبغي، الهيئات الميئية التي اتنتخب مكانه Publius ڤاليريوس كقنصل ثاني. لكن هذا القنصل لم يبادر، كما يجب، لاستدعاء نفس الهيئات الميئية لانتخاب زميل له في القنصلية كي يخلف القنصل زميله القتيل. وما كان في القانون ما يجبره على ذلك في خلال مدة معينة. علاوة على ذلك شوهد وهو يبني منزلا له على قمة هضبة. الأمر الذي أثار الشكوك من حوله. وقد كان يحتكر القوة المسلحة داخل المدينة، فكان مثل الملوك سابقا وبقوة القانون محاطا بإثنى عشر حارسا. فصار كبار القوم يتهمونه فيما بينهم بأنه كان يخطط لتنصيب نفسه ملكا على روما. ومن دون أن يصارحوه بذلك صاروا يشكون في أنه كان يحضر لارتكاب الجرم الأكبر الذي يعاقب عليه القانون بالإعدام. ظل الحال كذلك إلى حين وصله الخبر. فماذا فعل ؟

علق تيت ليف على ذلك بقوله : "لا تدري كم كانت مشاعر الجموع متقلبة. القنصل ڤاليريوس الناجي من المعركة، ومن بعد ما حظي بأكبر تعظيم، صار محط الكراهية بسبب شكوك واتهامات شنيعة. زعم من زعم أن القنصل كان ينوي تنصيب نفسه ملكا، وأن ذلك هو سبب تأخره في اتخاذ زميل له في القنصلية منذ وفاة القنصل بروتوس، وأنه كان يشيّد منزلا في مرتفع عالي كي يكون له قلعة منيعة. شناعة هذا الاتهام الذي انتشر على نطاق واسع في كل مكان أصاب بشدة القنصل في كرامته. فاستدعى الهيئات الميئية وصعد المنبر وأمر حرسه بخفض سلاحه. فكان مشهدا لطيفا بالنسبة للهيئات الميئية لما رأت شارات السلطة العليا تُخفّض تشريفا لها وبأمر من القنصل، في إشارة منه على أن قوة الشعب كانت وستظل أعلى من هيبة وعظمة القنصل ولما طلب الصمت من الجموع الحاضرة، شرع في ذكر خصال زميله الراحل بروتوس الذي من بعد تخليص وطنه من الاستبداد والتحافه لرداء المنصب الأعلى في الدولة، قُتل في ساحة المعركة من أجل الجمهورية ومؤسسة القنصلية في قمة المجد من قبل أن تُدنس بالكراهية. ما ڤاليريوس، وقد عاش من بعد زميله فما احتفظ بالحياة سوى ليجد نفسه عرضة لاتهامات الحسّاد. ".


رسم للأحد أسلاحة حرس القنصل


رسم لحارسين من حراس القنصل التسعة بسلاحيهما على كتفيهما

ثم خاض في مرافعة يدفع فيها عن نفسه الشكوك فصاح قائلا : "فماذا إذا ؟ ألا توجد عندكم أبدا فضيلة ثابتة بما يكفي حتى لا تُدنس بالاتهامات ؟ أنا العدواللدود للملوك، هل كنت استحق أن أرى نفسي متهما عندكم بالسعي للملك ؟. كيف ؟ فحتى في حال ما سكنتُ الكابطول أو القلعة نفسها، هل كان يجب عليّ حينها أن اعتبر نفسي مصدر خوف لمواطني بلدي ؟ هل شهرتي بينكم لها عندكم هكذا دعائم واهية ؟ هل ثقتكم في شخصي قائمة على هكذا أسس ضعيفة حتى تتهمونني من حيث أنا موجود أكثر من اهتمامكم بمن أكون ؟ لا، لن يكون أبدا محل إقامة ڤاليريوس عائقا لحريتكم. ولن يكون مصدر خوف لكم. سأنتقل منه لأسكن في السفح، بل في سفح الهضبة حتى تكونوا أنتم من يسكن أعلى مني، أعلى من هذا المواطن الذي صار مشتبها به. وليبني هؤلاء المرجفون مساكنهم في أعلى الهضبة حتى تكون حريتكم بأيديهم في أمان أكثر مما هي في يد ڤاليريوس". ثم نقل على الفور جميع مواد البناء إلى سفح التل، وشيد به منزله في أدنى موضع. واستدعى الهيئات الميئية لانتخاب القنصل الثاني كزميل له. رشح لذلك المنصب لوكتريوس. لكن شيخوخته لم تترك له ما يكفي من القوة لتلك المهمة، فتوفي أياما قليلة من بعد انتخابه. وانتخب عوضا عنه شخصا آخر. وتلك كانت هي الأحداث المدنية والعسكرية التي عاشتها روما خلال السنة الأولى من بعد خلع وطرد الملوك طاركان. وفي السنة اللاحقة انتُخب ڤاليريوس قنصلا لولاية ثانية وانتخب كزميل له في تلك الولاية لوكريتيوس". ففي هذه السنة الأولى تاولى منصب القنصلية خمسة قناصلة كي يظل عددهما دوما إثنان، بسبب تعويض من استقال ومن قُتل ومن مات.

أصبحت للجمهورية أربع مؤسسات دستورية، ثلاثة منها قديمة وهي مجلس الشيوخ والهيئات العشائرية والهيئات الميئية. وواحدة جديدة وهي مؤسسة القنصلية من قنصلين مكان الملك. كلها مؤسسات تشكلت وتطورت لاحقا على فترات وفق الظروف والأحداث وليس مسبقا بفعل مشرّع. يتعذر ترتيبها بحسب الصلاحيات والقوة والنفوذ لأنها تكاد تكون متساوية في ذلك. وعليه سنوردها مع صلاحياتها مرتبة بحسب القدم في النشأة، وذلك على النحو التالي :

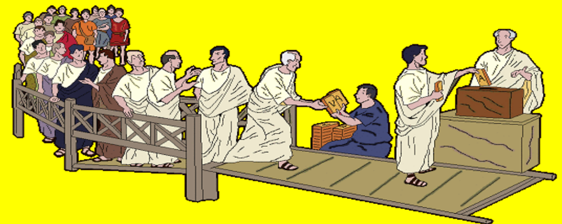
أ) **مجلس الشيوخ : le sénat** : أسسه روميلوس مع نشأة الملكية الرومانية. واستقر عدد أعضائه مع القنصل بروتوس في ثلاثمائة عضو. كانت العضوية فيه تتم بالتعيين من طرف الملك. فصارت في عهد الجمهورية وحتى هذه المرحلة من صلاحية القنصلين أو أحدهما. لا يجتمع المجلس إلا بدعوة من القنصل. ومن صلاحياته الحسم في قرارات السلم والحرب والنظر في كل الشؤون الخارجية، واقتراح القوانين على القنصل الذي إن شاء حولها إلى مشاريع قوانين وأحالها للتصويت على الهيئات الميئية.



لوحة لمجلس الشيوخ الروماني

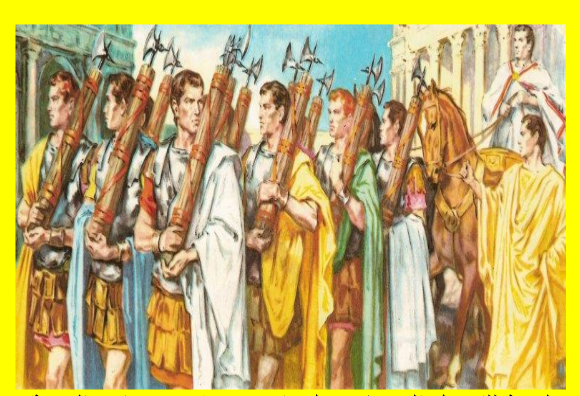
ب) **الهيئات العشائرية**. أسسها الأباء الأوائل من قبل نشأة روما بقيادة روميلوس. بل هي التي تآلفت وأسست الدولة بقيادته. وتتشكل من أربع عشائر من بعد كان عددها ثلاثة. ومقسمة على ثلاثة أربعة بمقدار عشر عشائر في كل منها. تتشكل كل منها من عدد من العوائل البطريقية. وكانت تنتخب الملوك. وتقلص دورها كي ينحصر في الأمور الدينية من بعد ما أحدث الملك سيرڤيوس الهيئات الميئية التي أخذت منها دورها السياسي. فصارت السيادة بيد الطبقة الأولى منها.

ت) **الهيئات الميئية** comices centuriates : أسسها الملك السادس Servius. وتتشكل من خمس طبقات اجتماعية وعسكرية مرتبة بحسب مقدار ثروة كل فئة[1]. تخضع كل طبقة منها لجباية تصاعدية بمقدار مبلغ الثروة. للطبقة العليا فيها وحدها حق الاقتراع. وهو نمط اقتراع منحاز للأثرياء، من حيث ينتهي الاقتراع بتصويت الطبقة الأولى الأكثر ثراء. يتشكل منها الجيش الروماني في حال الحرب. لا تجتمع إلا بدعوة من القنصل. ومن صلاحياتها التشريع بالتصويت على مشاريع القوانين التي يقدمها لها القنصلان، وانتخاب رجال الدولة باقتراح من القنصلين، والقضاء في قضايا أمن الدولة، ومحاكمة رجال الدولة، والقضاء في قضايا المواطنين المستأنفين لأحكام القنصلين. تجتمع بالساحة العامة عند كل اقتراع. يتم التصويت بمن حضر.



رسم لفترة اقتراع جموع الشعب الميئية

ث) **القنصلية :** le consulat : أنشأها الحزب الأريستقراطي الناشئ في عهد طاركان الأول. أنشأها وهو في المعارضة ضد طاركان الثاني. عدد أعضائها إثنان. مدة الولاية سنة قابلة للتجديد من بعد الترشح للانتخاب من طرف الهيئات الميئية. صلاحياتهما تكمن تدبير الشؤون الداخلية للدولة وتدبير المال العام وقيادة الجيش في حال لحرب، والقضاء العادي بين المواطنين، والقيام بدور النيابة العامة في قضايا أمن الدولة أمام محكمة الهيئات الميئية وتقديم مشاريع القوانين.



لوحة للقنصل الروماني على فرسه ويتقدمه حراسه التسعة



لوحة أخرى للقنصلين في هيئتهما الرسمية

بانتهاء السنة الأولى من عمر الجمهورية انتهت ولاية القنصلين وتم انتخاب قنصلين جديدين، أحدهما كان ڤاليريوس، المنتخب للمرة الثانية على التوالي. لكن العهد الجديد ظل مهددا بثورة مضاضة طيلة ما تبقى من حياة الملك المخلوع. فمن بعد فشله في المآمرتين السابقتين خلال السنة الأولى عاود الكرة باستنصار الأجانب من قومه الأصليين في بدايات السنة الثانية. فيقول في ذلك تيت ليڤ : "لجأت أسرة الملك المخلوع طاركان إلى ملك مدينة Clusium من بلاد الأوتريسك، تستنصره بنصائحها وتوسلاتها حتى لا يرضى بترك أمراء من بلاده ودمه يعيشون في البؤس لاجئين، وألا يسمح بتفشي عادة خلع الملوك من دون عقاب. كانت تقول له بأن الحرية لها جاذبية ذاتية، وإلّم يدافع الملوك عن عروشهم بنفس الحماس الذي تسعى به الشعوب لاكتساب حريتها، فستُسوّى قريبا مراتب النبلاء بمراتب العوام، ولن يوجد في الحكم لا تمييز ولا هيمنة، ويُقضى على الملكية، ذلك الوسيط العظيم بين الناس والآلهة. واقتنع الملك المستنصر به بأنه من الأفضل أن يكون لروما ليس مجرد ملك بل ملك من

[1] راجع في ذلك الكتاب الأول.

الإتريسكيين. ثم سار إليها على رأس جيش عرمرم". وسواء صح ما حرضت به أسرة طاركان ذلك الملك أو كان من نسيج خيال القصاصين ففيه دليل على أن الشعوب الإيطالية واليونانية كانت تميز حينها بين الحرية والاستبداد. الأمر الذي لم يكن متاحا لغيرها من الشعوب، لأنها بوضاعتها ما عرفت وكما ينبغي لها، سوى الاستبداد أو الفوضى. فما كان مآل تلك المآمرة الثالثة ضد الجمهورية الناشئة ؟



خريطة مدن بلاد الأوتريسك باللغة الإيطالية
وبها مدينة Clusium المستنصر بملكها
كما يُرى بها موقع روما ومدينة طاركان iaمسقط رأس
طاركان القديم

فالشأن الخارجي كان من اختصاص مجلس الشيوخ وليس من اختصاص القنصلين. ومجلس الشيوخ مشكل بطبيعة الحال من علية القوم. فأعضاؤه كلهم من الحزب الأريستقراطي الحاكم الذي انتقلت السيادة إليه منذ عهد طركان الأول، وتعززت في يديه في عهد الملك سرفيوس وفي عهد نظام الحكم الجمهوري الجديد. بقية الشعب البطريقي لم تعد لها كلمتها لا في التشريع ولا في انتخاب القنصلين ولا في القضاء العالي. كل ذلك صار بيد الطبقة الأولى والعليا من بين طبقات الهيئات الميئية الخمس، حيث تهيمن الثروة على مبدأ المواطنة. اقتصرت فيها المواطنة الكاملة على علية القوم بالطبقة الأولى من الهيئات الميئية. بقية الشعب البطريقي صارت تعيش تحت نيْر استبداد الأقلية الثرية. لكن لم تكن كذلك بفضل روابط الدم والدين العائلي في كل عائلة بطريقية، وبروابط الدين المشترك بين عوائل كل عشيرة، وروابط الدين المشترك بين كل العشائر الدينية. فما كان بإمكان علية القوم الاستبداد ببقية البطريقيين الذين صاروا يعيشون في ظل نظام حكم أريستقراطي أبوي.

فلم تكن الخشية على أمن وسلامة الجمهورية من بقية البطريقيين. لم يكن هناك انقسام clivage سياسي بينهم. بل الانقسام سيصير لاحقا واقعا معيشا بين البطريقيين من جهة والعوام من جهة ثانية. كان العوام يشكلون بروما العمود الفقري للدولة اجتماعيا واقتصاديا وعسكريا. وكانوا موزعين على الطبقات الخمس بحسب التقسيم الميئي. قلة منهم كانت من الأثرياء بالطبقة الأولى. لكنهم أغلبية في باقي الطبقات. لذا غالبية جنود جيش روما كانت من العوام. ومع ذلك كانوا محل احتقار وإذلال من قبل البطريقيين. بحسب معتقدات هؤلاء العوام نجس. ليس لأنهم كفار بل لأنهم خلقوا من دون دين ولا يستحقون أن يكون لهم دين. الأثراياء منهم بالطبقة الأولى كانوا يشاركون في انتخاب القنصلين. لكن يستحيل ترشيحهم لمنصب القنصلية ولا للعضوية بمجلس الشيوخ مخافة التدنيس الذي يثير غضب الآلهة العائلية وآلهة المدينة. وكان العوام مستأنسين بوضعهم المهين ولا يرون فيه من غضاضة وكأنه أمر طبيعي.

لكن البطريقيين في حربهم مع الملك المخلوع رأوا في وضعية العوام المهينة نقطة ضعف قد يستغلها خصمهم لإحداث انقسام بين الفئتين واستغلاله لصالحه. كانوا يخشون من أن يستميل العوام ويوعيهم بوضعهم المهين ويمنيهم العتق منه إن هم تعاونوا معه على استرجاع عرش أبيه بفتح أبواب المدينة في وجهه والالتفاف من حوله. ولم يكن لهؤلاء ما يخسرونه إن هم استسلموا لإغراءات طاركان. أخيارهم كانوا من موالي البرطريقيين كسادة. فهذه الفئة العريضة هي التي صارت تؤرق مجلس الشيوخ.

فقال تيت ليف في ذلك : "لم يسبق حينها أن انتاب مجلس الشيوخ رهبة كالتي تملّكته، بالنظر لما كان في ذلك العصر لمدينة Clusium من قوة وكان لإسم ملكها من صيت. لم يكن الخوف فقط من العدو بل من الشعب الروماني الذي من فرط رُعبه قد يستسلم للملوك ويشتري السلام معهم ولو بحريته. وما دامت تلك الأزمة قائمة سيظل مجلس الشيوخ يستعمل كل ما في وسعه من إغراءات لاكتساب تعاطف جموع الشعب. اهتم مجلس الشيوخ قبل كل شيء، بتوفير الطعام للشعب، وبشراء مزيد من القمح من البلاد المجاورة وحتى من البلاد البعيدة. والملح الذي كان يباع بأثمان باهظة بسبب احتكار بعض الخواص لسوقه، انتُزع منهم، وصار بيعه من احتكار الدولة وبثمن أقل. وأُعفي الشعب من كل الضرائب، فصار كل ثقل الإنفاق العمومي على كاهل الأغنياء من دون غيرهم، لقدرتهم على تحمل ذلك العبء. بتملقه للشعب هذا، حافظ مجلس الشيوخ على الوئام بين المواطنين حتى مدة الحصار البشع مع شدة الجوع، حيث استووا جميعا فقراء وأغنياء في الكراهية لمجرد ذكر الملكية ولقب الملك. لم يحصل من بعد أن صار أحد ذا شعبية كبيرة بوسائل غير مشروعة مثل ما توفق في ذلك مجلس الشيوخ بإدارة حكيمة".

وأتت تلك السياسة أكلها في حصار روما الذي قال فيه تيت ليف : "مع اقتراب العدو من روما لجأ سكان البوادي إلى المدينة التي كانت محاطة بسور منيع ومحمية جيدا بنهر التيبر بينها وبين الجيش القادم. لكن كان بالإمكان اقتحامها عبر قنطرة خشبية لولا تدخل البطل Horatius Coclès، الذي شكل لوحده سدا منيعا دون عبورها. كان في حراستها لما رأى العدو قد احتل هضبة جانيكول وسار مسرعا نحوالنهر، ثم رأى من معه من الجنود يفرون من مواقعهم. أوقف بعضهم وأقنعهم بأنه لا فائدة من فرارهم، فالموت سيلحقهم إلّم يمنعوا العدو من عبور القنطرة. فكلفهم بالعمل على هدمها بالحديد والنار في الوقت الذي سيتصدى هو لجنود العدو ليحول دون عبورها". ونعفيك من سرد تفاصيل باقي القصة لنخلص إلى القول بأن الخطة نجحت. وشيدت روما للبطل تمثالا وكافأته بالأراضي وبغير ذلك من مظاهر التشريف.


لوحة للبطل Horatius ومن ورائه الجنود يهدمون القنطرة

سور روما وموقع كل من هضبة جانيكول والقنطرة الخشبية

ثم يقول تيت ليف : "من بعد فشل هذا الهجوم تخلى العدوعن اقتحام المدينة وفضل محاصرتها، فمنع عليها كل إمداد بالغذاء، وكان يطلق جنوده ليعيثوا فسادا في أراضيها من حول أسوارها، لدرجة جعلت المزارعين يُدخلون حتى مواشيهم داخل أسوار المدينة. لكن تلك الحرية التي تركها الرومان للعدو كانت خُدعة أكثر من كونها خوفا منه. كان القنصل ڤاليريوس ينتظر الفرصة المناسبة لشن هجومه المباغت. لتشتيت قوات العدو قرر استدراج جنوده بعيدا عن معسكرهم بطعم النهب. فأخرج لهم المزارعين الرومان بعدد هائل مع مواشيهم من أبعد باب عن معسكرهم. وصلهم الخبر بواسطة العبيد الذين كانوا يتجسسون على الرومان في مقابل ما يسدون به رمق الجوع. بلع العدو الطعم وعبر النهر بكثافة طمعا في الحصول بيسر على غنائم ثمينة". ولن نترجم مرة أخرى تفاصيل هذه الخطة ونكتفي بالقول أنها نجحت من بعد نصب كمين للعدو لم ينجو منه أحد ممن خرجوا من معسكره. وبها انتهى الهجوم على أراضي روما من حول الأسوار. فكانت تلك مجرد معركة. أما الحرب فما زالت مستمرة.

فقال فيها تيت ليف : "لكن الحصار استمر وازدادت المجاعة مع ارتفاع أثمان الحبوب. كان ملك العدو يتبجح بزعمه احتلال المدينة من دون مغادرة مواقعه. حينها امتعض من ذلك الوضع المهين شاب من فئة النبلاء اسمه Gaius Mucius. لم يتحمل رؤية الشعب الروماني، وهو اليوم حر، محاصرا من طرف من كان يهزمهم بالأمس لما كان مستعبدا من طرف الملوك. بسبب تلك المهانة قرر الانتقام من العدو بعمل غير مسبوق. حتى لا يَنْدس وسط العدو من دون علم الرومان ولا يعتبر خائنا لوطنه، اتجه لمجلس الشيوخ وخاطبه قائلا : "أيها الآباء، أريد الاندساس بين صفوف العدو من أجل هدف نبيل إن ساعدتني الآلهة".

"من بعد إذن المجلس انصرف الشاب وتحت ملابسه خنجر. لما وصل إلى معسكر العدو وجد جموعا غفيرة من حول الملك مع كاتبه يوزعون على الجنود أجورهم. لكنه لم يستطع التمييز بين الملك وكاتبه، لكونهما كانا يلبسان نفس الثياب تقريبا. وامتنع عن الاستفسار عن ذلك خشية اكتشاف أمره. فترك ذلك للقدر وارتمى على أحدهما وقتله. وكان المقتول هو الكاتب بدلا من الملك. قُبض عليه وقُدم للمحاكمة. مع ذلك بقي مُرعبا للعدو بالنظر لما أبان عنه من أنفة، ولا سيما لما صاح يقول : "أنا مواطن روماني. جئت لأقتل عدوا. وجئت مستعدا للموت كما كنت مستعدا للقتل. فذلك من شيّم الرومان. ولست الوحيد الذي له نفس الشعور. الكثير غيري يتمنون نيل نفس الشرف. فاستعد أيها الملك للدفاع عن نفسك في كل لحظة، لأنك ستجد من يحمل خنجرا ليقتلك مثلي، حتى في دهليز قصرك. هذه حرب شباب روما الذي يعلنها عليك. فلا تخشى من روما أية معركة ولا أي قتال. بل كل شيء سيتم بينك وبين كل واحد منا"".

"كان الملك حينها مشتعلا غضبا ومرعوبا من الخطر الذي يحوم حول حياته. فأمر بإحضار النار الملتهبة وهدد الشاب بإحراقه بها إن هو لم يسرع في الكشف عن تفاصيل المآمرة الغريبة المحاكة ضده، والتي جاء ليرعبه بها. فوضع الشاب يده في النار وقال له : "أنظر أيها الملك إلى هذا الجسد الذي لا يساوي شيئا عند من يبحثون عن المجد". مندهش مما رأى، أمر الملك بإبعاد يد الشاب عن النار، وقال له "إذهب، أنت الذي لا يخشى أن يكون عدو نفسه أكثر مما يخشى أن يكون عدوا لي. كنت سأصفق لشجاعتك لو كانت في خدمة وطني. إذهب فلن أستعمل معك ما هو من حقي باسم الحرب. أطلقك حرا ولشخصك عندي حصانة من الآن". حينها، تظاهر الشاب بالرد على الجميل بالجميل فقال : "بما أنك تعرف كيف تكرّم الشجاعة، ستحصل مني بمعروفك على ما لم تكن لتحصل عليه بتهديداتك. فنحن ثلاثمائة من خيرة شباب روما، أقسمنا على قتلك. وبالقرعة كنت أنا أول من تكلف بالمهمة. وسيأتي الباقون من بعدي واحدا تلوالآخر. ستراهم تباعا إلى حين يجد أحدهم الفرصة المناسبة لقتلك"".


لوحة تصور الكاتب المقتول والشاب الروماني الذي يضع يده في النار أمام الملك

"فأطلق الملك سراح الشاب الذي فقد يده اليمنى ولقب من أجل ذلك بـلقب Scaevola. لكن الخطر الذي نجا منه الملك، فقط بفضل عدم تمييز الشاب بينه وبين كاتبه الذي قُتل مكانه، وذاك التهديد الذي عليه مواجهته ما دام ذاك الشاب مجرد واحد من الثلاثمائة شاب حيا، أثر فيه لدرجة جعلته هو الذي يتقدم للرومان باقتراح مفاوضات من أجل عقد صلح وسلام. أمر سفراءه بمرافقته إلى روما. ومن بين شروط السلم حاول عبثا الحصول على رجوع الملك المخلوع طاركان إلى عرشه. وما فعل ذلك سوى لتطييب خاطر حليفه. لكنه تحصّل على استرجاع الفيسيين لأرضهم، وإطلاق سراح الأسرى في مقابل إخلاء هضبة جانيكول. بذلك تم الصلح وانسحب الملك بجيشه إلى بلاده".

وهناك بطولة أخرى لفتاة رومانية قفزنا على ترجمتها لقلة أهميتها السياسية. الأهم من كل ذلك مرة أخرى، هو أن تلك البطولات قد يكون مبالغ في توصيفها وقد تكون حتى من نسيج خيال القصاصين. والمؤلف تيت ليف نفسه قال في مقدمة كتابه هذا أنه بالنظر لقدم تلك الأحداث وغياب الأدلة المادية عليها فهو لا يكذبها كما لا يصدقها. لكن كما قلنا سابقا، ليس ذلك هو المهم. المهم هو أن الراوي تيت ليف والمروي عنهم، من أي عصر كانوا، تجدهم كلهم يبجّلون ويعظمون في رواياتهم حرية الشعب الروماني ضد الاستبداد وضد هيمنة الكبار كأفراد مثل طاركان المتغطرس أو كجماعات مثل مجلس الشيوخ. لذلك

فتلك المرويات مهما كانت درجة مصداقيتها هشة فإنها تحمل فكرا سياسيا جد متطور ورفيع بالنسبة لتك العصور الغابرة قرونا ما قبل الميلاد.

ثم تتمة لتفاصيل تلك الحرب مع الإتريسكيين نجد تيت ليف يحكي عن ملكهم الذي، خشية العودة بجيشه إلى بلده من دون انتصار، هاجم فجأة مدينة من مدن اللاتين التي تضامنت معها باقي مدنهم لرد ذلك العدوان. فمزقوا جيشه شر ممزق. ومن بين جنود العدو الناجين والفارين من لجأوا إلى روما، فأحسن الرومان ضيافتهم وداووا جراحهم. ومنهم من عاد من بعد ذلك لبلده يمجد حسن ضيافة الرومان ومدينتهم. ومنهم من طاب له المقام من بينهم فصار رومانيا. وقد قفزنا على ترجمة كل تلك التفاصيل الطويلة ولخصناها لك كما رأيت، لبعدها عن تاريخ الحياة الاجتماعية والسياسية الرومانية التي تهمنا أكثر. بذلك انتهت السنة الثانية من عمر الجمهورية الرومانية وانتهت معها ولاية القنصلين فليريوس وهوراتيوس.

يقول تيت ليف : "من بعد انتخاب قنصلين جديدين لولاية السنة الثالثة من عمر الجمهورية[1]، جاءت السنة الرابعة وانتُخب لولايتها قنصلان وهما Publius Lucrétius و Publiusفاليريوس[2]. خلالها جاء إلى روما سفراء ملك مدينة Clusium يطالبونها للمرة الأخيرة بإعادة طاركان إلى عرشه. فاستقبلهم مجلس الشيوخ وأخبرهم بأنه سيرسل سفراء عنه لملكهم كي يمدوه بجواب المجلس". سجل معنا هنا أن الشؤون الخارجية، كقضايا السلم والحرب واستقبال السفراء وإرسال سفراء، التي كانت من اختصاص الملك في عهد الملكية، صارت كما رأيت فيما تقدم من اختصاص مجلس الشيوخ وليس من اختصاص القنصلين اللذين عوضا منصب الملك بالجمهورية. ولا تداخل في الاختصاصات بالرغم من غياب دستور مكتوب. بل كان الرومان واليونانيون يُشهدون الآلهة على ما كانوا يسنّونه من قوانين كي تكون لها في نفوسهم حرمة دينية كضمان كافي للالتزام بها.

ثم يقول تيت ليف : "فورا من بعد رجوع سفراء الملك، بعث إليه مجلس الشيوخ سفراء عنه من بين أعضائه الأكثر تميزا. لما التقوا بالملك قالوا له باسم مجلسهم : "أيها الملك، كان بوسع مجلسنا أن يقول لسفرائك، وباختصار شديد، أنه يرفض عودة الملوك لحكم روما. لكن من بعد هذه المدة الطويلة من العلاقات الطيبة بين البلدين فضل المجلس أن يرسل إليك خير رجاله ليقولوا لك بالنيابة عنه أن هذا الموضوع محسوم بروما ولا رجعة فيه. فلا فائدة من الرجوع إليه حتى لا تتوتر بسبب ذلك العلاقات الودية بين الجانبين. كون طلب الملك متناقض مع حرية الشعب[3] الروماني، فإن الرومان يجدون أنفسهم مجبرين على رفض طلب أمير يعز عليهم أن يرفضوا له أي شيء، اللهم القبول بشكل أعمى لهلاكهم. فروما لم تعد ملكية ولكن دولة حرة. قد تكون مستعدة لفتح أبوابها للعدو، لكن لن تفتحها أبدا لعودة الملكية. تلك هي إرادة الجميع. فآخر يوم من حياة روما سيكون يوم حرية. وبما أنك تحب لها الحياة فلن ترضى لها أن تفقد حريتها"[4]".

"في خجل من مبادرته قال الملك : "بما أن ذلك هو قراركم الذي لا رجعة فيه فلن أتعبكم مرة أخرى بإلحاح لا فائدة ترجى منه. لكن لن أغرّ طاركان أيضا بآمال المجد التي يمكنه انتظارها مني. سواء فكر في الحرب أو في السلم فعليه اختيار مكان لجوء غير هذا. لا شيء يمكنه أن يفسد السلام الذي أبرمته معكم". وسيرة هذا الملك كانت أكثر من كلامه خير دليل على مصداقية نواياه الودية. رد لروما من نصّت عليهم اتفاقية السلام كرهائن وأراضي الفيسيين. وفقد طاركان الأمل في نصرة ملك Clusium فرحل لاجئا عند زوج إبنته بمدينة Tusculum ببلاد اللاتين قريبا من روما وبجنوبها. هكذا تم السلام الدائم بين مدينة Clusium وبين الرومان".

وما ورد في تاريخ تيت ليف عن السنوات الأربع ما قبل سنة 501 ق.م. هو باختصار شديد حروب أخرى على روما الحرة من طرف الصابيين واللاتين. كان النصر فيها دائما للرومان. فقفزنا على ترجمتها

---

[1] لم يورد المؤرخ تيت ليف شيئا يُذكر عن أحداث السنة الثالثة (507 ق.م.) من حياة الجمهورية، سوى إسمي القنصلين أصحاب ولايتها، ولا داعي لذكرهما هنا.

[2] وهذه هي ولايته الثانية من بعد ولايته المرة الأولى سنة 608 ق.م.

[3] أي حكم الشعب لنفسه بنفسه في ظل سيادة القانون

[4] مهما يكن الراوي الذي نقل عنه تيت ليف فما يسعك إلا أن تشهد بروعة دبلوماسية ذلك الحديث في ذلك العصر من حيث قد جمع بين الحزم في القرار وبراعة اللباقة واللياقة في صياغته.

حتى لا تمل بسبب قراءة تفاصيل جد طويلة ومطولة عن أحداث لم يكن لها أثر يذكر على المستوى الاجتماعي والسياسي الروماني الذي يهمنا أكثر. سارت المؤسسات الرومانية حتى هذه السنة التاسعة من حياة الجمهورية كما خُطط لها من دون كبير مشاكل.

بالنسبة للبقية يئس طاركان المخلوع من مساعدة قومه الإتريسكسيين، فرحل إلى بلاد اللاتين حيث كان له صهر سبق أن زوجه إبنته لكسب وده لما كان ملكا. بما أن روما في كل حروبها كانت إلم تنتصر فلم تنهزم أبدا، كان ذلك يحز في نفوس كل الشعوب المجاورة، بقدر ما كان يقلقها نظام حكم جديد وفريد وغريب على التقاليد. كل ذلك جعل مصالحها تتضارب مع مصلحة طاركان الذي ما يزال لم ييأس من استرداد عرشه، ولو من بعد تسع سنين على خلعه. فكان صهره Octavius Mamilius يقوم بالتعبئة في بلاد اللاتين للحرب على روما. وسنترجم أحداث هذه الحرب لأنها ستكون سببا في إحداث مؤسسة دستورية رومانية جديدة، بالإضافة لمجلس الشيوخ وللهيئات الميئية وللقنصلية، ألا وهي مؤسسة الديكتاتور. فماذا تعني تلك المؤسسة في النظام الروماني الجديد ؟

مؤسسة الديكتاتور لحماية حرية الجمهورية

بعض الألفاظ لها عدة مفاهيم، منها الطاغي ومنها المغمور المهمل. ومن بينها لفظ الديكتاتور. والمقصود من مفهومه الطاغي هو رئيس دولة مستبد بكل سلطاتها. في حين أصله كلمة dictatura، وهو لفظ لاتيني روماني. ومعناه الحرفي هو المُتكلم. وخير من فسر مهمومه المغمور، هو نقولا ميكيافلي صاحب كتاب الأمير المشهور، لما قال : "تُعد مؤسسة الديكتاتور من بين تلك التي ساهمت في عظمة تلك الإمبراطورية الشاسعة. لأنه من دون مثل ذلك الترتيب للأمور فقد كان من الصعب على أي دولة أن تدافع عن نفسها وقت الأحداث غير العادية. ذلك لأن إيقاع السيْر العادي لتدبير الشأن العام بأي جمهورية، عادة وغالبا ما يكون شديد البطء. فلا مجلس ولا صاحب سلطة فيها يستطيع أن يتحمل لوحده مسؤولية اتخاذ الإجراءات اللازمة. يكون حينها من الضروري أن يتشاوروا فيما بينهم، وهوالأمر الذي يتطلب زمنا للتوفيق بين كل الإرادات. لما لا يتم كل ذلك في الوقت المناسب تكون كل التدابير المتخذة غير مجدية لمعالجة شر غير متوقع ولا يحتمل التأخير والتأجيل. لهذا كان من اللازم أن توجد من بين مؤسسات الجمهورية واحدة مثل مؤسسة الدكتاتور"[1]. ثم يطمئنك على حرية الجمهورية بقوله في حق مؤسسة الديكتاتور : "لا يتم تعيين ديكتاتور إلا لمدة محدودة في الزمن. ولا يدوم سلطانه إلا بمقدار دوام الظروف التي تم تعيينه من أجلها. يتصرف وفق مصلحة الدولة من دون استشارة أحد ويعاقب المخالفين لأوامره من دون تعقيب على حكمه. لكن لا يستطيع فعل أي شيء فيه مساس بصلاحيات مؤسسات الجمهورية أو تبديلها بغيرها. قصر مدة ولايته ومحدودية صلاحياته وخصال الشعب الروماني كان من شأنها أن تجعله عاجزا عن تجاوز حدود سلطاته ومن تم عن إيداء الدولة التي من أجل خدمتها تم تعيينه"

ثم تجد ميكيافلي يعترف لرجال روما بالحكمة التي أنشأوا بها تلك المؤسسة، بقوله : "الأمر الذي يستحق التنويه به في تلك المؤسسة الجديدة هوالحكمة التي أظهرها الرومان في كيفية انتخاب الدكتاتور. بما أن ذلك المنصب كان فيه شيء من الخدش في مكانة ومقام القنصلين اللذين، كرئيسين للسلطة التنفيذية، كان يتوجب عليهما الاعتراف للديكتاتور كباقي المواطنين بسلطة من فوق سلطتهما، وأن ذلك كان من شأنه إثارة حساسيتهما، تقرر إذاً أن يكون اختيار الدكتاتور من طرفهما. قدّروا أنه إذا ما حصل لروما أمر يستوجب تقوية سلطة القنصلين التنفيذية فلن يجدوا في ذلك صعوبة لأنه باختيار القنصلين أنفسهما للدكتاتور كان من شأن ذلك الامتياز أن يلطف من حساسيتهما منه. بالفعل، الجروح التي يصيب الإنسان بها نفسه عفويا وبإرادته تكون أقل إيلاما من تلك التي يصاب بها بفعل غيره. في الآونة الأخيرة ذهب الرومان إلى حد منح القنصل نفسه سلطة مشابهة لسلطة الدكتاتور بدلا من اختيار القنصلين لدكتاتور من بين غيرهما".

---

[1] *Nicolas MACHIAVEL (1531) DISCOURS SUR LA PREMIERE DECADE DE TITE-LIVE, (Extraits des livres I, II et III de son Histoire de Rome), Un document produit en version numérique par Jean-Marie Tremblay, professeur de sociologie au Cégep de Chicoutimi, Site web: http://pages.infinit.net/sociojmt, Dans le cadre de la collection : "Les classiques des sciences sociales" Site web : http://www.uqac.uquebec.ca/zone30/Classiques_des_sciences_sociales/index.html, p 72*

فقول تيت ليف : "في هذه السنة (501 ق.م.)، وفي فترة احتفال روما بالألعاب السنوية، تجرأ بعض شباب من قوم الصابيين على اختطاف بعض الفتيات الحظيّات[1]. تجمع من حولهم الناس وحصلت بعض المناوشات التي كادت تتسبب في معركة كان الرومان يتخوفون من أن تكون ذريعة لتمرد الصابيين، في وقت كان التخوف قائما من حرب مع اللاتينيين حيث ثلاثون شعبا لاتيني تحالفت ضد روما بتحريض من Octavius Mamilius صهر طاركان، وما كان في ذلك من شك. في ترقب لمثل ذلك الأمر الخطير، حصل الحديث لأول مرة بروما في شأن إحداث منصب ديكتاتور. لكن لا ندري في أي سنة حصل ذلك، ولا أي قنصل كان هو الأول الذي تقلد زمام هذا المنصب الجديد لرفع تحديات الأزمة القادمة. تلك أمور مختلف فيها بين المؤرخين. المتيقن منه هو أن انتخابه تم من طرف القنصلين، كما نصت على ذلك القوانين".

"ولما انتُخب الديكتاتور وشوهد في روما وهو يمشي من وراء حرسه بسلاحهم المتميز، انتابت الشعب رهبة منه وأحس أنه مجبر على تقبّله بمزيد من الطاعة. لم يعد في الإمكان مراجعته في قراراته باللجوء لغيره، كما كان الحال مع القنصلين المتساويين في السلطة، واللذان كان بالإمكان استشفاع أحدهما للاعتراض على قرارات الآخر. لم يعد معه من خيار سوى الطاعة في الحال. فأخذ الرعب كذلك قوم الصابيين من انتخاب ديكتاتور بروما، لما كانوا يعتبرونه إجراء موجها ضدهم. أرسلوا سفراء يطلبون السلام من الديكتاتور ومن مجلس الشيوخ ويلتمسون منهما العفو عما حصل من بعض شبابهم من أخطاء يوم حفل الألعاب السنوية. فأجابهم المجلس بأنه يعفو عن الشباب وليس على الكهول الذين لا يتوقفون عن افتعال حرب من وراء حرب. ومع ذلك حصلت مفاوضات السلام وكان بإمكان قوم الصابيين الحصول عليه لولا أنهم رفضوا أداء التعويضات لروما عن نفقات الاستعدادات للحرب، فأعلنتها، لكن هدنة غير معلنة حافظت على الهدوء مدة سنة كاملة".

وحتى نعفيك دائما من التفاصيل المملة للمعارك، نلخص لك هنا الحرب التي دارت بين الرومان واللاتين بقيادة صهر المخلوع طاركان بمعية طاركان نفسه وأبنائه. حصل ذلك في السنة الحادية عشر من عمر الجمهورية، والتي عزم فيها اللاتين على إرجاع الملك إلى عرشه بمساعدة من صهره زعيم حلف اللاتين المكون من ثلاثين شعبا ومن معهم من الرومان المنفيين. بالنظر لخطورة الخطب انتخب الرومان Octavius Mamilius ديكتاتورا للمرة الثانية. من بعد معارك عرفت كرا وفرا وصعودا وهبوطا وهزائم وانتصارات، انتهت بجرح طاركان المخلوع وبقتل صهره. وانتصر فيها أخيرا الرومان واستولوا على معسكر العدو بعقر داره، بالرغم من تكبدهم خسائر كبيرة. فتصوّر الدور الهام جدا الذي كان للديكتاتور الروماني في تلك المعارك.

ثم يقول تيت ليف : "أهم حدث هذه السنة (سنة 495 ق.م.) كان هو موت طاركان المخلوع، الذي من بعد انهزام حلفائه اللاتين أمام الرومان لجأ إلى حماية Aristodème طاغية الحاضرة الإغريقية Cumes[2]. فسُرّ بذلك كل من الشعب ومجلس الشيوخ. لكن البهجة عند باقي النبلاء كانت أكبر ومن دون حدود. والشعب الذي كانوا يحيطونه حتى اليوم بأكبر عناية، وجد نفسه حينها عرضة لاضطهادهم". فهكذا بموت طركان المخلوع انتهى الصراع الأفقي بين الحرية والاستبداد، وبالضبط بين الحزب الأريستقراطي الحاكم بالجمهورية الذي ينافح عن حريتها وبين الملك المخلوع الذي كان يسعى للاستبداد بها. وحتى تلك اللحظة ما كان هناك من انقسام عمودي بين البطريقيين من جهة والعوام من جهة ثانية. كان البطريقيون ولا سيما علية القوم منهم، وعلى غير عادتهم، يحيطون العوام بعناية كبيرة حتى لا ينقلبوا عليهم لصالح الملك المخلوع. ولما مات عادوا معهم لسيرتهم السابقة. لكن ما وجدوا عندهم نفس الاستئناس بالذل والمهانة التي كانت تطالهم من قبل. وجدوهم على استعداد للادفاع عن حريتهم ضد الاستبداد بهم. فبدأ بذلك الصراع العمودي هذه المرة بين الحرية والاستبداد، وبالضبط بيم العوام الذين يسعون لاكتساب حريتهم وبين البطريقيين المصرين على استضعافهم من جديد. فماذا عن بداياته ؟

الصراع العمودي بين العوام المستضعفين والبطريقيين المستبدين

يقول تيت ليف : "لما كانت الحرب مع les Volsques وشيكة، كانت الجمهورية فريسة لخلاف بين النبلاء البطريقيين les patriciens وعوام الشعب la plèbe . تولد حقد العوام على البطريقيين بسبب اعتقال المَدينين المفلسين.

[1] من فتيات اللهو بالقصور *courtisanes*

[2] وهي حاضرة من الحواضر اليونانية التي كانت منتشرة بجنوب شرق إيطالية.

كان أولئك المستضعفون يقولون باستياء كبير "كيف يصح أن نحارب الأجانب من أجل الحرية والجمهورية، ثم لا نجد بداخلها سوى الاسترقاق[1] والاضطهاد؟ فحرية الشعب[2] معرضة للخطر في السلم وبين المواطنين، أكثر مما هي كذلك في الحرب وبين الأعداء". ما كان الاستياء يتزايد إلا بالتغذي من ذاته، لما شوهدت مأساة أحد الضحايا وهو ينتحر حرقا بالنار، ولما شوهدت مأساة شيخ يندفع وسط الساحة العامة وعليه كل علامات البؤس من ثياب متسخة وممزقة والتي كانت أقل بشاعة من لون وجهه الشاحب ومن نحالة جسمه المتعب. كانت لحيته الطويلة وشعره الأشعث يضفيان مظهرا مخيفا على ملامحه. تم التعرف عليه بالرغم من تشوه حالته. لقد كان قائد كتيبة بالجيش centurion. مع التأسف لحاله تذكر الناس مكافآته على بطولاته العسكرية. كان هو بنفسه يُظهر لهم ندوب الجروح على صدره التي أصيب بها في المعارك. فسُئل عن سبب حاله المشوه. ولما كانت الجموع من حوله تناول الكلمة وقال : "لما كنا في حرب مع الصابيين دمروا محصولي الزراعي. بل أكثر من ذلك فقد أحرقوا ضيعتي ونهبوا ممتلكاتي ونهبوا ماشيتي. مع تلك المأساة أجبرت على أداء الضرائب بالاقتراض. لكن تعاظمت ديوني بسبب الفوائد، فسلبت مني حقلي الذي ورثته أبا عن جد، ثم جردتني من كل ما أملك، ثم بتناميها كالمرض الذي يأكل الجسد أخذت مني حتى ذاتي نفسها لما قَبض علي دائني الذي لم أجد فيه سيدا بل وجدت فيه سجانا وجلادا". وعرّى على كتفيه المزركشة بآثار الضرب بالسياط التي تلقاها منه للتو".

"الرؤية وسماع كل ذلك تعالى الصياح، ولم يقتصر الهرج على الساحة العامة، بل انتشر في كل المدينة. المفلسون العبيد ومن تحرروا من قبل، اندفعوا كلهم من كل صوب إلى الساحة العامة، وهم يستنصرون بباقي المواطنين. فحظي احتجاجهم بالتأييد. وامتلأت الشوارع بالجموع المتدافعة نحوالساحة العامة le forum وهي تصرخ. فقدر أعضاء مجلس الشيوخ الذين كانوا موجودين بالمكان أنهم عرضة للخطر وسط تلك المظاهرات. وما نجوا سوى بتدخل القنصلين، حين التفتت إليهما الجموع لتريهما قيودها وكل ما يدل على مآسيها، وهبت تقول : "هل هذا هو ما استحقته من بعد دفاعها مرات عديدة عن الجمهورية ؟". وطالبتهما بلهجة فيها تهديد باستدعاء مجلس الشيوخ، وأحاطت بمبناه للتأثير على المداولات فيه وتوجيهها".

"عدد قليل من أعضاء المجلس كان بالصدفة هناك. فاجتمعوا من حول القنصلين. الخوف منع الباقين من اللحاق بمقر المجلس، بل حتى بالساحة العامة. لكن ما كان بالإمكان التداول في الأمر من دون اكتمال النصاب. علمت بذلك الجموع واعتقدت أنه يُتلاعب بها لتأخير حل مشكلاتها. اعتبرت أن من تغيبوا من النواب تعمدوا بذلك عرقلة اتخاذ أي إجراء وليس بسبب الخوف أو بغيره. واتهمت القنصلين بالتماطل والتواطؤ. فما كانت هيبة القنصلية قادرة على لجم غضب أولئك البؤساء. حينها وجد أعضاء المجلس أن غيابهم عن الاجتماع كان أخطر عليهم من حضوره. فتوجهوا إليه واكتمل النصاب. لكن أعضاء المجلس والقنصلين كانوا مختلفين. من كان منهم ذا مزاج عنيف أرادوا استعمال سلطان القنصلية، فقالوا أنه بالقبض على بعضهم سيهدأ الباقون سريعا. في حين كان آخرون مع العلاج اللطيف، وقالوا بأن الأكثر أمنا ويسرا هو التهدئة بدلا من مواجهة نفوس ثائرة".

"وفي خضم ذلك الجدل جاء نبأ هام وخطير من اللاتين بخصوص قوم الفولسك الذين تحركوا بجيش عظيم صوب روما لحصارها. أثّر ذلك الخبر على العوام والنبلاء معا لكن بشكل مختلف. ابتهج به العوام معتقدين أن الآلهة ستنتقم لهم من وقاحة البطريقيين. وساروا ينهون بعضهم البعض عن الامتثال لنداء النفير العام. كانوا يقولون "فلنهلك جميعا وليس فقط نحن. على البطريقيين وحدهم حمل السلاح وتجنيد أنفسهم للحرب، فتكون بذلك مخاطرها من نصيب فقط من يجني ثمارها[3]". حينها وجد مجلس الشيوخ نفسه بين نارين. وتوسل للقنصل سرڤيليوس صاحب المزاج الشعبي كي يخلص الوطن من الاهوال التي تحيط به من كل الجوانب".

"رفع القنصل الجلسة واستدعى جموع الشعب من العوام وأخبرهم بأن مجلس الشيوخ كثير الاهتمام بقضاياهم. ثم قال : "تداوله لمشاكلكم جزء هام من شؤون الدولة. ولكونه مجرد جزء منها، قد توقّف بسبب الخطر المحدق بكامل الجمهورية. فيستحيل على المجلس الاهتمام بموضوع غير الحرب والعدوعلى الأبواب. حتى في حال ما كان التهديد أقل خطورة فلا يليق بالشعب ألا يحمل السلاح إلا من بعد تلبية طلباته. كما لا يليق بمجلس الشيوخ تلبية تلك الطلبات تحت ضغط ظروف الحرب بدلا من تلبيتها عن طيب خاطر. وهو الأمر الذي لا يمكنه فعله إلا لاحقا". وحتى يعطي المجلس مصداقية لكلام القنصل أصدر مرسوما يمنع تكبيل أي مواطن روماني في الحديد ولا حبسه، ولا منعه هكذا من التسجيل في الجيش. كما يمنع الاستيلاء على ممتلكات أي جندي وبيعها، ولا استرقاق أبنائه وأحفاده ما دام مجندا. ما أن نُشر ذلك

---

[1] من مصادر الاسترقاق كان الأسر في الحرب واقتناء العبيد من سوق النخاسة والإفلاس بسبب العجز عن سداد الدين. فكان المدين المفلس يصبح عبدا للدائن.

[2] لأن العوام كانوا يعدّون أنفسهم من الشعب الروماني. وكان كل من تجب عليه الضرائب منهم ينتمي لإحدى طبقات دافعي الضرائب الخمس التي سنها الملك *Servius*. وكان يشارك في الحرب مع طبقته في جيش روما.

[3] في إشارة غير مباشرة لنمط توزيع غنائم الحرب المتحيز للكبار على حساب الصغار من العوام بجيش روما.

المنشور حتى تجند كل المحبوسين الذين كانوا حاضرين، فتبعهم الآخرون. ما داموا محررين من حقوق الدائنين عليهم غادروا منازلهم التي كانوا محتجزين فيها والتحقوا في جموع غفيرة بالساحة العامة من كل أنحاء المدينة لأداء القسم العسكري. فشكلوا جحافل عظيمة خرج بها القنصل للتو للقاء العدو بمعسكره. وتميزت في حربها على الفولسك بالحماسة والقوة".

لاحظ هنا أنه قد كان من صلاحيات مجلس الشيوخ إصدار مراسيم كمراسيم تعالج مشكلات محددة في الموضوع والأشخاص والمكان والزمان. بعكس القوانين التي كانت من اختصاص لبهيئات المِئية باقتراح من القنصل التي بعموميتها وديمومتها كانت لها قوة النفاذ في كل مكان وكل زمان. ونعفيك من تفاصيل الحرب على الفولسك ثم على الصابيين اللتين انتصر فيهما الرومان. واكتسبوا منها غنائم عظيمة خففت شيئا ما من تلك الأزمة الاجتماعية.

يقول تيت ليف : "من بعد تلك الانتصارات المتتالية صار الشعب الروماني من العوام يترقب آثار وفاء القنصل سرڤيليوس بوُعوده والالتزامات التي قطعها مجلس الشيوخ على نفسه. لكن زميله القنصل أبيوس العصبي الطبع والمزاج والذي كان يتوق للتقليل من شأن زميله المتسامح، أظهر تشددا كبيرا في حكمه على المدينين المفلسين. سمح للدائنين باسترداد رق من تحرروا منهم سابقا وأضاف لهم آخرين جدد. ما كان يُقبض على جندي مدين مفلس ويحكم عليه القنصل أبيوس بحكمه حتى تجده يستشفع بزميله سرڤيليوس. صار عموم ضحايا حكم زميله يذكّرونه بخدماتهم العسكرية، ويعرون له على جروحهم في الحرب وهم يلومونه على عدم وفائه بوعوده. كانوا يطالبونه إما بعرض قضيتهم على مجلس الشيوخ وإما حمايتهم من أحكام زميله أبيوس كمواطنين بصفته قنصلا، أو كجنود بصفته جنرالا".

"تزعزعت مشاعر القنصل سرڤيليوس بذاك الخطاب. لكن الظروف كانت تجبره على المماطلة. القضية لم تنحصر في زميله، بل فئة البطريقيين كلها ارتمت بحماسة في أحضان الحزب المعارض لتسامحه. بحياده لم يتمكن لا من اجتناب كراهية الشعب من العوام ولا من كسب تعاطف مجلس الشيوخ، الذي كان يرى فيه قنصلا انتهازيا ومن دون عزم بقدر ما كان العوام يرى فيه رجلا من دون كلمة، بل سرعان ما اعتبره بشعا مثله مثل زميله أبيوس أبيوس".

"لكن الشعب من العوام الذي تعاظمت شجاعته سلك مسلكا في الاحتجاج غير الذي سلكه سابقا. مع يأسه من مساعدة القنصلين ومجلس الشيوخ، ما كان المواطنون يرون مدينا مفلسا مقبوضا ومقتادا للحكم عليه أمام القنصل أبيوس حتى يتجمعون من كل صوب ويملأون المجلس بالضجيج والصراخ كي يشوشوا عليه فلا يُسمع النطق بالحكم، ولا يطاع ولا ينفذ، مع التهديد باللجوء إلى العنف. انتقل حينها الخوف من فقد الحرية من المدينين المفلسين إلى الدائنين الذين كانوا يرون الجموع تعنفهم واحدا بعد الآخر وأمام القنصل الذي لايحرك ساكنا".

"ثم جاء الخوف من حرب وشيكة مع قوم السابيين ليزيد من تفاقم الأزمة. فأعلن مجلس الشيوخ النفير العام. لكن لم يستجب له أحد من العوام. فانفجر غضب القنصل أبيوس الذي تهجّم على تواطؤ زميله الجبان مع العوام وعلى صمته الخائن للجمهورية. فقال في حقه : "لم يكتف بالامتناع عن مقاضاة المدينين المفلسين، بل امتنع عن الاستجابة للنفير العام الذي أعلنه مجلس الشيوخ. لكن لن يتم التخلي كليا عن الجمهورية بسبب سلطة القنصل التي صارت عرضة للاستخفاف بها. وسأعرف لوحدي كيف أنتقم لعلو مقام المجلس ولعلو شأني"".

"لكن ازدادت جرأة الجموع من العوام بسبب تفشي الإفلات من العقاب. صارت تحوّط يوميا بمجلس قضاء القنصل أبيوس، إلى حين أمر بالقبض على أحد المشاغبين. لما كبّله الحراس استنجد بشفاعة الشعب من حكم القنصل. كان أبيوس يعلم مسبقا مآل تلك الشفاعة. وكان بوسعه تعليق حق المدان فيها لولا أن نصائح ونفوذ أهم أعضاء المجلس انتصرت على مقاومته المستميتة أكثر من تشويش الجموع على مجلس قضائه. إلا أن الأزمة ظلت تتفاقم يوما بعد يوم حتى تجاوزت الاحتجاجات الصاخبة إلى ما هو أكثر ضررا بالمؤسسات. لقد تم اللجوء إلى تنظيم اجتماعات سرية حيث كانت تُلقى خطابات نارية. وأخيرا انتهت الولاية السنوية للقنصلين اللذين كانا بشعين في نظر العوام. خرج القنصل سرڤيليوس مغضوبا عليه من الطرفين. وخرج أبيوس موشحا برضا البطريقيين".

"انتُخب قنصلان جديدان. لكن الشعب من العوام غير الواثق من نواياهما ظل ينظم اجتماعاته السرية. كان يريد بذلك تفادي القرارات العشوائية بالساحة العامة حتى لا تُتخذ بصفة عمياء ومعتمدة فقط على الحظ. تنبه القنصلان الجديدان إلى خطورة تلك الاجتماعات السرية، ورفعوا في شأنها تقريرا لمجلس الشيوخ الذي امتعض في صخب عارم ضد خوْفهما من تحمل مسؤولياتهما باتخاذ القرارات اللازمة، وضد كونهما يريدان تحميل تبعاتها البشعة للمجلس. وقيل لهما : "لو كان

لروما رجال دولة لما تمت فيها إلا الاجتماعات المشروعة. لكن تلك الاجتماعات السرية تقسم وتجزئ اليوم روما إلى ألف مجلس شيوخ وألف هيئة ميئية. ولو وُجد رجل واحد مثل أبيوس لفتّت تلك الاجتماعات السرية في لحظة واحدة". من بعد هذا العتاب اللاذع، التمس القنصلان من المجلس تزويدهما بنصائحه التي ستكون أوامر كي ينفذاها على الفور وبالحماسة والقوة اللازمين. فأمرهما بإعلان النفير العام بحزم وجدية، معتبرا أن العطالة هي سبب تسيب الشعب من العوام".

"رفعت الجلسة والتحق القنصلان بمقرهما. كانا يناديان على الشباب من العوام لتجنيدهم فلا يجيبهما أحد. الجموع الغفيرة التي كانت من حولهما كانت تصرخ في وجههما لتقول : "لم يعد ممكنا خداع الشعب. لن يلحق بكما جندي واحد قبل الوفاء بالوعود المضروبة رسميا. ويجب رد الحرية للشعب قبل تجنيده. نحن نريد أن نقاتل من أجل وطن ومواطنين وليس من أجل الطغاة". لكن لم ينس القنصلان ما فرضه عليهما مجلس الشيوخ. وكل من كانوا يتكلمون فيه بصوت عالي لا يوجد منهم أحد ليقتسم معهما حقد الشعب عليهم جميعا. كان الصراع ينذر بأن يكون عنيدا. قبل اتخاذ إجراءات حازمة فكرا في العودة مرة ثانية للمجلس. فاندفع شباب النبلاء البطريقيون نحو كرسييهما وأمروهما بالتنازل عن منصب القنصلية الذي تبين أنه لا شجاعة لديهما للدفاع عنه".

"التحق حينها القنصلان بالمجلس وقالا لأعضائه : "لن تلومونا أيها الآباء على عدم تحذيركم من تهديدات ومخاطر تمرّد وشيك. فنطلب من أولئك الذين يتهموننا بالجبن أن يكونوا بجانبنا عند قيامنا بالتجنيد. وبما أنكم مصرون على موقفكم فسنقوم بهذه المهمة على الوجه الذي يرضي الأمزجة الأكثر حزما". ثم عادا لمقرهما ومعهما بعض الأعضاء، فتعمدا النداء على شاب وقعت عيناهما عليه. وبما أنه لم يستجب للنداء وبقي في مكانه وحامت حوله الجموع من العوام لحمايته من كل عنف، أمر القنصلان الحارس بالقبض عليه. لكنه تمنّع منه ودفعه. حينها اندفع أعضاء المجلس الحاضرون بجانب القنصلين لمساعدة الحارس، وهم يصرخون بأن في ذلك اعتداء على هيبة الدولة. فأطلقت الجموع الحارس الذي كان يريد فقط القبض على الشاب، وهاجمت أعضاء المجلس. إلا ان الأمور سرعان ما هدأت بفضل تدخل القنصلين، وبقيت محدودة في الصراخ بين الطرفين من دون الوصول إلى عنف مادي".

ونعفيك من باقي التفاصيل المملة، ونلخصها لك بالقول أن المجلس اجتمع من جديد. ومن بعد صخب عارم، وضعت المداولات أعضاءه أمام الخيار بين ثلاثة مواقف. أولهما يقضي بحصر التجنيد فيمن يريد ذلك. والثاني متشبث بالتعبئة العامة حتى لا يحدث شقاق بين جموع الشعب. والثالث كان للقنصل السابق المتشدد أبيوس ، والقاضي بتعيين ديكتاتور لا يُعصى له أمر والذي بحكم القانون لا يشفع أحد لأحد في قراراته وأحكامه. وهو الرأي الذي انتصر له المجلس، وكاد يأمر القنصلان بانتخاب أبيوس نفسه ديكتاتورا. لكن حكمة الكبار ضغطت كي يُعطى منصب الديكتاتور لڤالريوس المعروف بمزاج توفيقي.

ثم يقول تيت ليڤ : "لكن الشعب من العوام رأى أنه كان هو المقصود بتعيين ديكتاتور. إلا أن المرسوم الذي أصدره فورا هذا الأخير، طمأن النفوس. كان شبيها بمرسوم القنصل السابق سرڤيليوس، الذي لم تكن لهم ثقة في وعوده وفي سلطته. استسلم الناس للواقع واستجابوا لنداء التجنيد. لم يسبق أن كان عدد المجندين بتلك الكثرة، حتى تشكلت منهم عشر كتائب. ثلاث منها كانت لكل قنصل والأربعة الباقية كانت للديكتاتور". نعفيك دائما من ترجمة تفاصيل الحروب التي خاضتها روما وانتصرت فيها كلها مع ما حصدت من غنائم ومن مستعمرات جديدة.

ثم يقول تيت ليڤ : "بالرغم من تلك الانتصارات المتعددة، ما يزال النبلاء البطريقيون وباقي الشعب يفكرون في الخروج بحل من خلافاتهم الداخلية. عمل الدائنون كل ما في وسعهم للاعتراض على نوايا العوام وعلى وعود الديكتاتور نفسه. لكن Valerius اهتم بالشعب المنتصر ورفع لمجلس الشيوخ تقريرا بشأن حل إشكال المدينين المفلسين. ولما رأى رفض مقترحه قال لأعضاء المجلس "أنا لا أعجبكم لأنني أدعوكم للتوافق. وأشهد الإله والنية الصادقة على أنكم ستتمنون قريبا رجلا على رأس الشعب مثلي. أما أنا فلا أريد أن أخدع المواطنين طويلا بالحفاظ على منصب لا جدوى ترجى منه. الخلافات الاجتماعية والحروب الخارجية أجبرت الجمهورية على انتخاب ديكتاتور. فتحقق السلم مع الأجانب. لكنه وجد عوائق بالداخل. فأفضّل أن أكون شاهدا على التمرد كمواطن بدلا من أن أواجهه كديكتاتور". ثم خرج وتنازل عن منصبه. رأى العوام في أسفه على حالهم سببا في تنازله عن الديكتاتورية. هكذا لما تبينوا من عجزه بالرغم من عزمه، أعفوه من الوفاء بكلمته، واصطحبوه حتى منزله وهم يثنون عليه ويصفقون له".

"وخاف حينها النبلاء البطريقيون من تسريح الجيش ومن تعوّد الجموع على التآمر في مجالس سرية. وبما أن الجنود ما زالوا تحت قسم النفير ادعى مجلس الشيوخ أن هناك خطرا خارجيا وأمر بإخراجهم من المدينة. إلا أنه كان

الإجراء الذي عجّل بتمرد العوام. كان من المقرر عندهم وفي أول الأمر الفتك بالقنصلين للتخلص من القسم العسكري. ولما تبين لهم أن الجريمة لا تخلّص من قسم مقدس لجأوا مجتمعين باقتراح من أحدهم إلى الاعتصام بحرمة الجبل المقدس على بعد ثلاثة أميال من روما. تحصنوا به من دون قيادة. وكان معهم ما يكفي لحاجياتهم، كما كانوا محميين فيه بمرتفع منيع، لا يهجمون منه على أحد ما دام لا يهجم عليهم أحد". واستطاعوا بذلك الاعتصام ابتزاز البطريقيين وانتزاع الحق في انتخاب نقيبين من بينهم لولاية سنوية، لهما حرمة مقدسة بقدسية الدين، ويحميانهم من شطط البطريقيين بما فيهم القنصلين. وبنشأة تلك المؤسسة نشأ حزب العوام الديمقرطي. فماذا عن قصة نشأته ؟

نشأة حزب العوام الديمقراطي المعارض

يقول تيت ليف : "استبد الرعب بالمدينة. وتخوف متبادل علّق فيها كل شيء على الترقب. البقية من عوام الشعب المتخلى عنها كانت خائفة من بطش النبلاء. والبطريقيون كانوا كذلك خائفين من نفس البقية من عوام الشعب، لا يدرون هل يطردونهم أم يبقون عليهم بالمدينة. الجموع من العوام التي اعتصمت بالجبل المقدس وتحصنت بحرمته، إلى متى ستبقى هنالك مسالمة ؟ ماذا سيحدث لو اندلعت حرب مع الجيران في الأثناء ؟ لم يبق أمل عند البطريقيين إلا في التوافق بين الفئتين. توافق أصبح لا بد منه وبأي ثمن. فبعثوا للمعتصمين بالجبل المقدس Ménénius Agrippa وسيطا بينهما، لكونه محبوبا من كل الشعب بفئتيه وأصل أسرته من العوام".

"لما دخل Agrippa معسكرهم لم يفعل سوى أن حكى لهم قصة خرافية من خرافات ذلك الزمان. قال لهم : "في زمن كان لم يسد فيه بعدُ الوئام بين أجزاء جسد الإنسان كاليوم، كان لكل جزء منه طبيعته ولغته الخاصة به. استاءت كل الأطراف من المعدة التي تستفيد من كل أعمالها ولا تفعل شيئا سوى التمتع بما تقدمه لها. فتآمرت عليها وامتنعت عن مدها بالطعام. بذلك تأذى الجسم كله بما فيه الأطراف التي كانت تريد معاقبة المعدة. حينها تم الوئام بين كل أجزاء الجسد لما علمت الأطراف والمعدة أن كل منها في حاجة للآخر ولا يمكن الاستغناء عن بعضهم البعض، وإلا هلك الجميع". فهم السامعون من ذلك ان المقصود بالمعدة هم كبار البطريقيين والمقصود بالأطراف هم جموع عوام الشعب، فهدأت نفوسهم".

"وانتُخب قنصلان جديدان عن السنة الجديد (493 ق.م.). وحصل التداول بمجلس الشيوخ في الوسائل الكفيلة بتحقيق المصالحة بين جموع العوام والبطريقيين. ثم تم الاتفاق فيه على أن يكون للعوام[1] نقباء كرجال دولة خاصين بهم، يحمونهم من شطط القناصلة. نقيبان deux tribuns منتخبان من طرف العوام لولاية سنوية. لهما حرمة لا تنتهك بأي حال. ولا يكون من بينهما أحد أبدا من النبلاء البطريقيين. فأُحدثوا بذلك مؤسسة النيابة عن العوام Le tribunat de la plèbe". لكن أين كان الإشكال ؟ وكيف تمخض حله عن سن قانون مجلس الشيوخ الذي تم بموجبه إحداث مؤسسة النيابة عن العوام المكونة كذلك من عضوين deux tribuns ؟ وكيف تم انتخابهما لولاية سنوية؟

كان الإشكال يكمن في حرمان العوام من الحماية من شطط عموم البطريقيين ولا سيما شطط رجال الدولة منهم. كانوا يحمون أنفسهم ومصالحهم باتخاذ البطريقيين كفلاء من جهة، وباللجوء لرجل الدولة الثاني في حال ما تعسف على الكفيل من جهة ثانية. كانت حماية واهية لأنها غير مضمونة النتائج بسبب خضوعها في كل الأحوال لمزاج البطريقيين، سواء كانوا من كفلائهم أو كانوا من رجال الدولة. والأحداث التي تسببت في الأزمة الحالية توضح ذلك. رأى العوام خلال تجمعاتهم السرية التي كان يخشاها البطريقيون، أنه كان لا بد لهم من مؤسسة دستورية خاصة بهم لها حصانة كحصانة القنصلين وتحميهم من عسف وبطش البطريقيين. ويكون ورجالها من العوام ينتخبونهم هم لمدة محددة كالقناصلة، حتى يكونوا مسؤولين ومحاسبين من طرف ناخبيهم.

من أجل ذلك اعتصموا بجبل يوجد بشمال شرق روما. وعلى غرار تقاليد البطريقيين الدينية والاجتماعية والسياسية انتظموا في هيئات عشائرية موازية تخصّهم، وأسموها هيئات العوام العشائرية comices curiates plébéiennes. وعلى غرار البطريقيين دائما كرّسوا ذلك الجبل الذي اعتصموا فيه جبلا مقدسا باسم Jupiter, الذي اتخذوه إلها لهم كذلك. ومارسوا فيه طقوسا دينية من ابتكارهم وأقسموا في نهايتها باسم نفس الإله على الالتحام فيما بينهم دينيا وعلى التعاضد والالتزام بكل ما اتفقوا عليه من بعد عرضه على التصويت في هيئات العوام العشائرية. هكذا بدلا من أن يبقوا مشتتين هيكل

[1] غير النبلاء

العوام أنفسهم في مؤسسات مجتمع مدني وأخرجوا أنفسهم بأنفسهم من حال الوضاعة، لما صاروا يشعرون بالاستضعاف الذي لا يطاق.

فالشعوب لا تخرج من وضاعتها سوى لما تشعر هي بالاستضعاف وتهيكل نفسها بنفسها في مؤسسات مجتمع مدني واعية بما تريده وتسعى لتحقيقه. أما تلك التي تأتيها آليات الديمقراطية من الأعلى من دون أن تطلبها وأن تشعر بالحاجة إليها فلا تعيرها اهتمامها بل وتستخف بها ولا تستعملها سوى بتحفيز مّا من طرف الانتهازيين الذين يستغلونها من أجل الوصول إلى السلطة وقضاء مآربهم الشخصية.

ومن بعد التشاور فيما بينهم صوت العوام المعتصمون بالجبل المقدس في هيئاتهم العشائرية التي أنشأوها، صوتوا على ثلاثة مطالب يقدمونها لمجلس الشيوخ عبر الوسيط Agrippa كشروط لفك الاعتصام والعودة للحياة العادية. أولها اعتبار القرارات التي تخص العوام وتصوت عليها هيئاتهم العشائرية قرارات مقدسة وملزمة لكل الشعب الروماني بفئتيه وغير قابلة للإلغاء. ثانيها اتخاذ نقيبين deux tribuns من العوام فقط يحمون فئتهم وينوبان عن كل فرد منهم أمام كل مؤسسات الدولة. نقيبان منتخبان من طرف هيئات العوام العشائرية، ولولاية سنوية. وثالثها وآخرها تحصين النقيبين بحرمة الدين كالحصانة التي للقنصلين. حصانة تجرّم الاعتداء عليهما لفظا أو ماديا. عرض الوسيط Agrippa تلك الشروط على مجلس الشيوخ. ومن بعد نقاش طويل واشتداد الأزمة رضخ المجلس وقبل بها. فوضع العوام حدا لاعتصامهم بالجبل المقدس الذي عادوا منه منتصرين على كبرياء وعجرفة الحزب الأرستقراطي البطريقي.

وتوفي الوسيط الشهير فقال في حقه تيت ليف : "وفي نفس السنة (493 ق.م.) توفي الحكيم Agrippa الذي ظل طيلة حياته محبوبا من طرف كل الشعب بعوامه ونبلائه، والذي ازداد حب الشعب له من بعد وساطته بين الفئتين خلال اعتصام المستضعفين بالجبل المقدس. لما مات لم تجد أسرته ما يكفي من المال لتقيم به مراسيم دفنه، فاكتتبت من أجله جموع العوام بمبلغ محدد لكل رأس".

و مؤسسة النيابة عن العوام قللت من شأن مؤسسة الكفيل البطريقي. صار للعوام نواب منهم يحمونهم وينوبون عنهم عند الحاجة أمام مؤسسات الدولة من دون الحاجة لكفيل من البطريقيين ولا للانتساب لعشائرهم. فلم تعد مؤسسة الكفيل البطريقي ضرورية لهم، اللهم من حيث جني فوائد أخرى من غير حقوق المواطنة، كقضاء مصالح خاصة لا تتحقق سوى بالزبونية والوساطة كما هو الحال في جميع المجتمعات حتى اليوم. والبطريقيون من جهتهم ظلوا فيما بينهم في حاجة للموالي كحاجتهم للثروة في تنافس فيما بينهم على الهيمنة والنفوذ.

اعتصام العوام بالجبل شل الجيش والاقتصاد بروما. فصار ورقة ضغط هائلة بيدهم على مجلس الشيوخ والقنصلين، لم يقدرها المؤرخ تيت ليف حق قدرها لما حصرها في الإضراب عن الخدمة العسكرية، ولا سيما في زمن الحرب. العوام كانوا هم عصب الحياة في كل المجالات الاجتماعية ولا سيما الاقتصادية. البطريقيون مع قلتهم النسبية، قل من كان منهم يشتغلون بأيديهم. لذا مرافق الحياة الاقتصادية من فلاحة وصناعة وتجارة ومختلف الحرف التي كان جلها في ملك البطريقيين، كانت تدور بسواعد العوام. لذا كان ذلك الاعتصام بالجبل المقدس بمثابة إضراب عام شل كل حركة البلاد. وكما سترى، فقد عرفت روما السنة اللاحقة مجاعة بسبب اعتصام المزارعين من العوام مع غيرهم بالجبل. بذلك شكل عوام روما أول نقابة عمال تمتلك أثقل ورقة سياسية بالبلاد في وجه السادة من البطرقيين. الأمر الذي جعل هؤلاء يرضخون كارهين لمطالبهم الثلاثة. بقبول البطرقيين لمطالب العوام أصبحت القوانين التي تخص العوام وتصوت عليها هيئاتهم العشائرية comices curiates plébéiennes قوانين ملزمة لكل الشعب الروماني من البطريقيين والعوام.

ولا تتعجب من ذكاء وفطنة العوام، فقد كانت من بينهم كل الفئات الاجتماعية، ومن بينها فئة الأساتذة والمعلمين. كان التعليم في اليونان وفي إيطاليا العتيقتين خدمة اجتماعية جد هامة وقديمة جدا.

وكانت من الحرف الحرة المنظمة عبر المجتمع المدني. وكان عليها طلب كبير بحيث تكاد لا تجد أميّا من بين النبلاء. كان التعليم خدمة مقسمة إلى التعليم الخاص بالمنازل والتعليم العمومي بحوانيت لتعليم عموم الأطفال والشباب. وذلك لكل من يستطيع دفع ثمنه. كانت لا تُعلم فيها فقط القراءة والكتابة، بل تدرس فيها مختلف أنواع الفنون الضرورية لحياة المجتمع الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، كفنون مختلف الحرف والصناعات مثل فنون البناء والهندسة المعمارية والفلاحة والسقي والمعادن وصناعة السفن والفنون الحربية الخ... المهم في كل ذلك هم رجال التعليم من العوام الذين كانوا يسترزقون من التدريس. وكانت مادة القانون مع مادة فن الخطابة من بين ما كانوا يدرّسونه لأبناء النبلاء. وهنا كان مربط الفرس. في تلك الاجتماعات السرية بين العوام، كان من بينهم رجال قانون وخطباء مهرة، كمعلمين في حياتهم العادية. فلا تعجب إذا من حيثيات الاتفاق الذي حصل بين العوام ومجلس الشيوخ، من بعد مفاوضات، بلا شك طويلة ومضنية، عبر الوسيط الحكيم Agrippa.

وقد اقتصر تيت ليف على ذكر انتخاب نائبين للعوام، لكن من دون ذكر كيف تم ذلك. وهو أمر جد مهم لم يتوقف عنده مؤرخنا، وسيكون له شأن هام فيما بعد، ومحلّ خلاف عنيف بين العوام والبطريقيين. من هفوات الاتفاق من جهة العوام كانت كيفية تحديد الكتلة الناخبة لنقيبيْهم. قاسوا نائب العوام على القنصل بالنسبة لكل الشعب. فحددوا رجال تلك المؤسسة في نقيبين إثنين منتخبين لولاية سنوية. ولا يُنتخبان إلا من طرف العوام من دون البطريقيين. إلا أنهم قاسوا الجسد الناخب من العوام على الجسد الناخب للملوك في عهد الملكية، والذين كانت تنتخبهم الهيئات العشائرية البطريقية les comices curiates **patriciennes**. وكان عددها ثلاثين عشيرة بمدينة روما. وكان لكل منها صوت واحد عند الاقتراع. ولانتخاب نقيبيهم انتظم العوام كذلك في ثلاثين عشيرة. وكان لكل فرد منهم في عشيرته كفيله من البطريقيين. وبذلك صار البطريقيون يتحكمون عن طريق تصويت مواليهم في ترجيح كفة من يعجبهم من المرشحين لنيابة العوام. باقي الأحداث اللاحقة ستريك كيف اندلعت بسبب ذلك أزمة كادت تأول لحرب أهلية بين فئتي العوام والبطريقيين. ثم سترى كيف تم حل ذلك الإشكال من أجل مزيد من استقلال العوام عن البطريقيين في انتخاب نوابهم.

والحرمة التي أعطاها الاتفاق لنواب العوام كانت أعظم من الحصانة التي يمنحها القانون للقنصلين. كانت مستمدة من حرمة الدين والآلهة في اعتقادهم. من كانت له حرمة الدين فقد كان محصنا بقدسية الدين ولا حاجة له بحرس يحمونه. أما من كانت له مجرد حصانة قانونية فهو محصن بهيبة الدولة ويحتاج لحرس كي يحمونه. كذلك كان شأن القنصلين. انتهاك حرمة الدين هو بمثابة تدنيس للدين نفسه. كذلك هو الأمر، كما تعلم، بين المسلمين مثلا بخصوص الأماكن المقدسة والمصحف الشريف، والأضرحة والمقابر، ثم من يصفونهم من بين الناس بالشرفاء بدعوى نسبهم للرسول صلى الله عليه وسلم. إلا أن البطريقيين لما قبلوا بنشأة مؤسسة نقيب العوام على مضض، لم يعترفوا لها في أول الأمر بحرمة الدين، لأنهم كانوا لا يعترفون بدين العوام ولا بآلهتهم. ما كانوا يقيمون لها وزنا في نفوسهم ومعتقداتهم. وكما سترى لاحقا فقد قتلوا نقيبا من دون أن يرف لهم جفن. حرمة نواب العوام عند البطريقيين كانت تكمن فقط في خوفهم من سابق إضرابهم العام، وفي تمردهم على التجنيد في حال الحرب، أو في ثورتهم المسلحة.

بإحداث مؤسسة النيابة عن العوام Le tribunat de la plèbe حصل أخيرا قليل من التوازن في ذلك الصراع العمودي بين حرية المستضعفين من الشعب واستبداد الكبارمن البطريقيين. بهذه المؤسسة خف شطط هؤلاء في حق العوام. لكن لم يتحقق بعد ذلك التوازن المطلوب لتحقيق عظمة روما المنبثقة من عظمة نظام حكمها، والذي سيدوم لاحقا من بعد اكتماله وبفضل متانته أكثر من أربعة قرون من الزمن.

أما حتى هذه المرحلة من تاريخ روما فما يزال أكبر قدر من السلطة بيد الكبار. عندهم مجلس الشيوخ ومنهم القناصلة، ومنهم الطبقة الأولى من بين الطبقات الخمس بالهيئات المِئية، التي يتوقف

عندها الاقتراع لا في التشريع ولا في انتخاب رجال الدولة ولا في الفصل في قضايا أمن الدولة. وكان أكثر أفرادها من البطريقيين كما كان جل عوامها على قلتهم من مواليهم. وبذلك ظلت الجمهورية أريتقراطية.

لكن قبول حزب البطريقيين الأرستقراطي بإحداث هيئات العوام العشائرية وبحقها في انتخاب نقيبين بحصانة كالتي للقنصلين للدفاععن فئتهم، وبحقها في سن قوانين تخص العوام ولزمة لكل الشعب الروماني، فقد صارت الجمهورية ديمقراطية كذلك. اختلطت فيها الأرستقراطية البطريقية بديمقراطية العوام لتعدل الكفة بين الفئتين سياسيا واجتماعيا. فيمكن توصيف هذا النظام الجديد بالجمهورية **الأرستو-ديمقراطية**.

سلاح كبار البطريقيين فيها هو نبل منبتهم وثراؤهم وأسلحتهم العسكرية النوعية علاوة ما بيدهم من مؤسسات دستورية من مجلس الشيوخ والقنصلية والطبقة الأولى من الهيئات المئية بالجيش وكمؤسسة تشريعية مع الانفراد بصلاحية انتخاب القنصلين. في المقابل كان سلاح العوام يكمن ليس فقط في مؤسساتهم الجديدة بل وزنهم العسكري والاقتصادي. كانوا يشكلون أكثر من ثلاث أخماس الجيش الروماني. وبامتناعهم عن التجنيد كان بمقدوهم شل قرار الحرب كورقة ضغط على مجلس الشيوخ ولا سيما في حال ما كانت روما معرضة لهجوم داهم. أما اعتصامهم بالجبل المقدس فكان بمثابة إضراب عام من شأنه أن يشل كل الحياة الاقتصادية بالمدينة ويكبد كبار البطريقيين خسائر لا تطاق. مع العلم أن الحرب الأهلية بين الفئتين مستحيلة، لما فيها، في بيئة عدونية، من دمار محقق لروما كلها بما عليها ومن عليها. الحرب الأهلية خط احمر لما فيها من خطر تدمير شامل لا يبقي ولا يدر. فما يبقى من حل بين الفئتين سوى التوافق في جمهورية أريستدمقراطية. جمهورية يحكمها حزب بطريقي أريستقراطي مهيمن ومن تحته حزب العوام الديمقراطي القوي والمعارض.

وفي كتاب المقالات[1] نوّه نيقولا ميكيافلي بهذه الجمهورالأريستودمقراطية لما تكلم فيه عن أنواع أنظمة الحكم الثلاثة، الملكية والأريستقراطية والديمقراطية. فقال أن الملكية قد تتحول إلى استبداد فردي كما حصل ذلك مع آخر ملوك روما نفسها. وأن نظام الحكم الأريستقراطي قد يتحول إلى اسبداد أقلية. وأن الديمقراطية قد تتحول إلى فوضى. والاستقرار والقوة والعظمة تكمن في نظام حكم يمزج بين الأرستقراطية التي تمنع فوضى الشعب والديمقراطية التي تحول دون استبداد علية القوم. وكذلك ظلت طبيعة نظام الحكم بالجمهورية الرومانية إلى حين طغت الديمقراطية على الأريستقراطية فاستحالت إلى فوضى، ما خرجت منها سوى بعهد الاستبداد الفردي الإمبراطوري.

هكذا ضغط جموع المستضعفين التي اعتصمت بالجبل المقدس، قضمت قليلا من سلطات كبار البطريقيين ومن هيمنتهم، لكن من دون أن يحسم في توازن القوى بين الفئتين. وسترى تطور صلاحيات مؤسسة النيابة عن العوام لاحقا وتباعا مع سرد الأحداث التاريخية. كما سيأتي ذكر إحداث مؤسسات دستورية أخرى مكملة لحاجيات الدولة المتنامية بتنامي ساكنتها وأراضيها. وتلك هي الجمهورية الأريستديمقراطية التي سنتتبع تطورها طيلة بقية الكتاب.

---

[1] المقالات حول الكتب العشر الأوائل لتيت ليف.

الفصل الثالث: عهد الجمهورية الأرستو-ديمقراطية الأول (593- 452 ق.م.)

مقدمة الفصل

يقول تيت ليف : "انتُخب قنصلان جديدان لولاية جديدة. وفي هذه السنة (492 ق.م.) التي عرفت سلاما مع الخارج وسلما اجتماعيا بالداخل، حلت بروما كارثة مخيفة. مع بقاء الأراضي الفلاحية من دون زراعة بسبب اعتصام جموع رجال العوام بالجبل المقدس السنة الفارطة ارتفع ثمن الحبوب وتمخضت عن ذلك مجاعة كالتي تقع للمحاصرين". لذا التهديد لاحقا بالاعتصام بالجبل المقدس سيظل ورقة سياسية جد قوية بيد حزب العوام لانتزاع المزيد من الحقوق من فئة حزب كبارالبطريقيين. وذلك في أفق الوصول إلى اقتسام السلطة والثروة بالعدل بين الفئتين. كل هذا وغيره مما شكل عظمة الرومان تأتي فقط بفضل ظروف العيش بدولة في حجم مدينة، حيث ما كان بوسع الفئة الأرستقراطية من البطريقيين التوفر على جيش نظامي متفرغ للحرب ولقمع المتمردين من عامة الشعب، ولا على يد عاملة وفيرة بالقدر الكافي الذي يجعلها تستغني به عن المضربين، كما كان الحال بالدول الشاسعة الأطراف. لذا لم تكن شعوب هذه الأخيرة أقل ذكاء من شعب ورما ومثله، وإنما كانت أقل حيلة.

ثم يقول تيت ليف : "كان سيموت العبيد والشعب جوعا إلّم يرسل القنصلان في شراء الحبوب حيث ما وجدت، وحتى من صقلية في حال ما أجبرها الأعداء من الشعوب المجاورة على ذلك. كان القمح قد اشتري من مدينة Cumes[1] لما احتجز طاغيتها السفن كتعويض عن ممتلكات سلالة طاركان التي كان يدّعي أنه وارثها[2]. لم يأت قمح من بلاد الفولسك خوفا منهم. ما جاء من بلاد الإتريسكيين لم يكفي. وفي خضم هذه المأساة المريرة كانت أي حرب على وشك أن تقضي على المدينة، لولا أن الفولسك الذين حملوا السلاح أصيبوا بطاعون فظيع. في هذه السنة (492 ق.م.) جاءت كميات كبيرة من قمح صقلية. وحصل التداول بمجلس الشيوخ في شأن ثمن بيعها لعموم الشعب.". فالنفقات المتعلقة بمشتريات الدولة من الخارج كانت من الشؤون الخارجية التي هي من اختصاص المجلس. لذا كان تحديد أثمان بيعها بالداخل من اختصاصاته كذلك.

ووُجد من بين أعضاء المجلس عدد من الصقور الذين كانوا عازمين على استغلال تلك الصلاحيات للانتقام من حزب العوام ومن نوابهم الذين ابتزوهم وانتزعوا منهم حقوقا ما كانوا يحلمون بها لولا قوة الضغط التي مورست عليهم. فترتب عن ذلك أول اختبار لقوانين العوام التي وافق عليها المجلس. وقد تسبب في الحكم بالنفي على أحد أعضائه. فكيف حصل ذلك ؟

اختبار مصداقية قوانين العهد الجديد

قال تيت ليف : "قدّر العديد من أعضاء المجلس أن الفرصة جاءت للضغط على العوام من اجل واسترداد الحقوق التي انتزعوها من النبلاء البطريقيين باعتصامهم بالجبل المقدس وبالعنف. كان السيناتور Marcius Coriolan يتزعم التيار المعادي الشرس لسلطة وقوة مؤسسة النيابة عن العوام[3]. فكان يقول : "إذا أرادوا القمح بالثمن القديم فليردوا للمجلس حقوقه القديمة. لماذا أرى رجال دولة من العوام بتلك السلطة القوية الجبارة ؟ هل من واجبي أن أخضع لنيْرهم ؟ هل سأُجبَر زمنا أطول مما يلزم على تخليص حياتي من يد صعاليك مثلهم، وعلى المعاناة من تلك المهانات ؟ أنا الذي لم أتحمل طاركان كملك، هل سأجبر على تحمل صعلوكا كنائب عن العوام ؟ فلينسحب مرة أخرى هو وشعبه ليعتصموا بالجبل المقدس وبهضاب أخرى مفتوحة لهم. ثم فليعودوا منها لأخذ القمح من بوادينا كما فعلوا ذلك ثلاث سنوات من قبل. وليتمتعوا بخيراتنا بفعل غضبهم. يمكنني أن أجيبكم وأقول أن ترويضهم بالتطرف في الشر سيجعلهم يستسلمون لحرث أراضينا بعيدا عن امتناعهم عن زراعتها بقوة السلاح". شكل كلام السيناتور استخفافا بقوانين العوام وشتما فيهمولا سيما مؤسسة النيابة عنهم. شكل أول جريمة يعاقب عليها القانون الذي سنته هيئات العوام العشائرية والذي بقبوله مع غيره من مجلس الشيوخ فك العوام اعتصامهم بالجبل المقدس. فطن لذلك المجلس ووصل خبره للشعب الذي صار يغلي غضبا منه.

---

[1] حاضرة يونانية على الشاطئ بجنوب روما
[2] سبق أن لجأ طاركان المخلوع إلى مدينته ليموت فيها
[3] والمحدثة حديثا كما رأيت.

تأمل ذلك وما ترتب عنه في قول تيت ليف : "وجد المجلس في ذاك الموقف عنفا شديدا. و عموم العوام غاضبين منه وعلى أهبة حمل السلاح، وهم يقولون أن النبلاء البطريقيين يهددونهم ويساومونهم اليوم بالمجاعة كأعداء، ليحرموهم من المعاش والطعام، وأنهم سينزعون من أفواههم القمح الأجنبي، ذلك المورد الوحيد الذي جاد به القدر غير المتوقع، إلّم يسلموا لهم نوابهم مكبلين في الأصفاد، وإلّم يقبلوا هم أنفسهم بتقديم أظهرهم للجلد. كان السيناتور Marcius Coriolan. بالنسبة لهم ذاك الجلاد الذي لا يترك لهم من خيار سوى بين الموت والعبودية. لذا كانوا على أهبة لمهاجمته فور خروجه من المجلس، لو لم يتدخل نوابهم باتخاذ قرار مقاضاته أمام محكمة الشعب[1]. فهدأت بذلك النفوس. وصار الشعب بذلك حَكما وطرفا في نفس القضية التي تتعلق بحياة أو موت عدوّه".

وقول تيت ليف أن الشعب صار بذلك حكما وطرفا في نفس القضية، فيه كثير من المبالغة حين نعلم أن المقصود بمحكمة الشعب هي فقط الطبقة الأولى من الهيئات الميئية والمشكلة في غالبيتها من البطريقيين مع قلة من العوام مواليهم. فهي لم تكن محكمة العوام كي تكون طرفا في القضية. بل كانت من شأنها أن تكون طرفا طرفا في القضية لصالح السيناتور البطرقي Coriolan وليس لصالح العوام. أما قوله أنها تتعلق بموت أو حياة عدوه فمعنى ذلك أن جريمة مجرد التحرش بحصانة النيابة عن العوام كانت موجبة لعقوبة الإعدام.

من جهة أخرى وكالعادة، نكتشف باقي صلاحيات كل مؤسسة دستورية تباعا مع سرد الأحداث. ونسجل هنا أن استدعاء الهيئات الميئية كمحمة للشعب من أجل مقاضاة متهم بتهديد أمن الدولة، كان ولا يزال من اختصاص القنصل، وهو من النبلاء. لكنه أصبح كذلك من صلاحيات نائب العوام. والثورة تكمن في كون هذا الأخير صار مثل القنصل من حقه أن يوجه الاتهام ليس فقط لأحد النبلاء بل لعضو بمجلس الشيوخ، ويقوم بدور المدعي العام بمحكمة الشعب. كان في ذلك تطور عظيم في نظام الحكم الأرستودمقراطي لصالح الشعب. وكانت المحاكمة تتم في العلم بالساحة العامة.

وبالرغم من كون محكمة الشعب كانت في غالبيتها من البطريقيين، إلا أنها أنصفت العوام، لكن فقط مخافة عواقب تحيّزها لخصمهم. ويحكي ذلك تيت ليف بقوله : "في أول الأمر لم ينظر السيناتور Marcius Coriolan لتهديدات نواب العوام إلا بالازدراء. كان يقول : "سُلطتهم لا تتعدى حماية العوام ولا تمتد للمحاسبة والعقاب. فهم نواب العوام وليسوا نواب مجلس الشيوخ"". وكان ذلك التهور من سوء تقديره للتحول الذي حصل بروما. لم يعي أن العوام لم يعودوا تلك الفئة الوضيعة التي كانت مستكية لعسف وشطط البطريقيين. فقال فيهم تيت ليف : "لكن جموع العوام الهائجة أظهرت استعدادات عدوانية ما كان للنبلاء النجاة من مخاطرها سوى بالتضحية بأحد أعضاء مجلسهم. من أجل ذلك قاوموا واستعملوا كل ما لديهم من نفوذ شخصي مع نفوذ طبقتهم بأكملها. بدأوا بتوزيع مواليهم من العوام في كل مكان من أجل تفتيت وتشتيت الاجتماعات السرية والتأثير في أعضائها حتى يعدلوا عن مشاريعهم وإبعاد العاصفة. ثم توجهوا كلهم مرة واحدة لنواب العوام، كمدعين عامين بالمحكمة، للضغط عليهم بتوسلاتهم وكأن عدد المتهمين كان بعدد أعضاء مجلس الشيوخ. كانوا يقولون لهم أنهم لا يطالبونهم سوى بالعفو عن مواطن، عن سيناتور واحد. وإن أبوا أن يتحفظوا على قضيته كبريء، فليتفضلوا بالعفو عنه على الأقل كمذنب". لكن المتهم Marcius Coriolan لم يحضر لجلسة المحاكمة في اليوم المحدد. فتصلب حينها موقف نواب العوام بصفتهم طرف الاتهام في القضية. وأدانته المحكمة بحكم غيابي. وهاجر إثر ذلك منفيا إلى بلاد الفولسك، متوعدا وطنه، ومخططا منذ ذلك الحين لمشاريع انتقام منه".

لم يفصح تيت ليف عن نوع العقوبة، لكن قوله سابقا أن القضية تتعلق بموت أو حياة المتهم، فالعقوبة كانت هي الإعدام. وهي العقوبة في حق كل من اعتدى على أحدمن رجال الدولة بالشتم أو الضرب أوالقتل. وفي المحصلة أكد تهور السيناتور لباقي البطريقيين أن حصانة نواب العوام إلم يكن لها عندهم حرمة الدين فلها بالغل حرمة القانون. وقد قال في مثل ذلك نقولا ميكيافلي في كتاب المقالات أن كل مشرّع يسن قوانين لبناء نظام حكم الدولة، ينبغي أن يأخذ فيها ابتداء بعين الاعتبار بأن كل الناس أشرار ومستعدون للعيث في الأرض فسادا كلما سنحت لهم الفرصة بذلك. وكون شرورهم تبقى خفية لمدة

[1] بتهمة تهديد أمن الدولة التي كان النظر فيها كما تقدم من اختصاص جموع دافعي الضرائب الميئية من الشعب.

ما، فيعود لأسباب لم تستطع التجربة بعد اكتشافها. لكن ما يلبث أن يكشف عنها الزمن، الذي يسمَّى من أجل ذلك وبحق، هو الأب لكل حقيقة.

ثم يستشهد على ذلك بقوله أنه من بعد طرد سلالة الملوك طاركانles s عن عرش روما العتيقة سنة 509 ق.م. ظهر وكأن الوئام يسود ما بين مجلس الشيوخ والشعب. وظهر النبلاء وكأنهم قد تجردوا عن كبريائهم واتشحوا بروح العاطفة على المستضعفين الذي جعلهم مقبولين حتى من أدنى طبقات المجتمع. ودام ذلك الوئام بين الفئتين، من دون معرفة سببه حينها، ما دام أحفاد سلالة ملوك طاركانles s أحياء. فالنبلاء الذين كانوا يخشون رجوعهم للحكم، كانوا يخشون كذلك أن يتقرب منهم الشعب إن هم تعسفوا عليه، فاضطروا للرفق به.

ويسترسل ميكيافلي قائلا أنه ما أن انقرضت سلالة lesطاركان s حتى ذهبت خشية النبلاء من العوام، فصاروا يصبون عليهم سمومهم التي كانت محصورة في قلوبهم، ويروّعونه بكل ما يستطيعون تصوره من ألوان العسف. وفي ذلك دليل على أن البشر لا يفعلون الخير إلا مضطرين. وحين يكون كل واحد منهم حرا في تصرفاته ولا شيء يمنعه من التسيب، فلا يتأخر ظهور الارتباك والفوضى من كل جانب. وذلك ما جعل الناس يقولون بأن الجوع والفقر يوقدان شهية الرجال للحراك، وأن القوانين تجعلهم خيّرين.

ويختم تعليقه على تلك الأحداث بالتنويه بقوة القوانين وبجدواها، فيقول أنه حيث ما وُجد شيء يُحدث خيرا من دون الحاجة لقانون، يكون حينها القانون زائدا ولا نفع يرجى منه. لكن حين لا يتحقق الخير إلا بفضل وجود القانون، يصبح حينها القانون ضرورة لا غنى عنها. وهكذا لما انقرضت سلالة lesطاركان s الذين كانوا بتخويفهم للنبلاء يمنعونهم من العسف على الشعب، صار لزاما البحث عن مؤسسات دستورية تنتج نفس الأثر الرادع الذي كان يحدثه تواجد تهديد رجوع سلالة lesطاركان s على النبلاء لصالح الشعب. فهكذا، ومن بعد الاضطرابات والهمس المتواصل والمخاطر التي أسفرت عنها النقاشات الطويلة بين المستضعفين والنبلاء، تم إحداث مؤسسة نواب الشعب les tribuns لحمايته من عسف الكبار. والسلطة التي خُولت لهؤلاء القضاة الجدد منحت ما يكفي من التشريف ومن الصلاحيات كي تُحدث باستمرار التوازن المطلوب بين نفوذ الشعب ونفوذ مجلس الشيوخ، وكي تكبح جماح وقاحة وصلف النبلاء.

لكن السيناتور المذنب فر من روما، ولقي في منفاه عند قوم الفولسك ترحابا كبيرا، ولا سيما عند زعيمهم. جمعهما حقد قديم على الرومان عند الفولسك وآخر جديد عند Marcius Coriolan. ففكروا في الإعداد لحرب على روما لولا قلة حماس الفولسك بسبب الهزائم القديمة وخروجهم من كارثة الطاعون التي انهكت شعبهم، وبالخصوص شبابهم. صار على المتآمريْن إعداد الأجواء العدوانية من جديد لتنفيذ مشاريعهما الانتقامية من روما. وهكذا تعرض العهد الجديد نفسه لاختبار ثاني قدم خطره من الخارج هذه المرة. فماذا كان مآله ؟

في نفس السنة نظمت روما الألعاب السنوية التي كان يأتيها الناس من كل الشعوب المجاورة. حينها اتصل زعيم الفولسك سرا بالقنصلين وزعم أن قومه، كما يعرفهم هو، مقبلون على تهور مثل تهور شباب قوم الصابيين في الألعاب السابقة كي يفسدوا الحفل انتقاما من روما. ثم تظاهر هو بالانسحاب حتى لا يتم التشكيك في مزاعمه. وأُخبر القنصلان بذلك مجلس الشيوخ الذي تسرع وأمر بطرد كل الزوار من شعب الفولسك كبارهم وصغارهم رجالا ونساء. فخرجوا ساخطين لا يعرفون سبب إهانتهم تلك أمام أنظار الزوار من باقي الشعوب".

وفي الطريق وجدوا زعيمهم ينتظرهم فأوقفهم. وبخطاب ناري حرضهم على الانتقام. لما رجعوا لديارهم، استعدوا للحرب على روما بحماس. وكان من بين أهم القادة السيناتور الروماني Marcius

Coriolan المنفي عندهم. فعاث جيشهم فسادا في ما حول روما من أرضي حتى وصل إلى أبوابها يهددها إلم تستجب لمطالبه بإذلال شعبها. لم يجد مجلس الشيوخ استعدادا للحرب عند مواطنيه، فدخل في مفاوضات معه باءت كلها بالفشل. باختصار شديد ما تراجع السيناتور Marcius Coriolan سوى من بعد تدخل أمه وزوجته، ولا سيما أمه التي عاتبته عتابا شديدا على انتقامه هكذا من وطنه وإدخال الخزي والعار على أسرته إلى الأبد بسبب أنانيته. تراجع السيناتور حينها بمن معه من الجنود وتبعه في ذلك باقي جيش الفولسك وزعيمهم. ثم قام حلف الفولسك مرة أخرى بمحاولة للحرب على روما لكن مكونات الحلف اختلفت فيما بينها وتقاتلت، فأجهز الرومان عليهم وقضى عليهم جميعا.

الحكم بالإعدام على قنصل بتهمة تهديد أمن النظام الجمهوري

في العهد الأرستو-دمقراطي الجديد كان أول صدام عموديا بين الحزب الأرستقراطي البطريقي الحاكم وحزب العوام الديمقراطي المعارض. وتحت ضغط فئة هذا الأخير أنصفته محكمة الشعب البطريقية لما أدانت السيناتور الذي استخف بمؤسساتها الجديدة وهددها بالإنساف. لكن في السنة الموالية صار الصراع أفيقيا بين أحد القناصلة والحزب الأرستقراطي الحاكم. فقال فيه تيت ليف : "تمت هذه السنة (486 ق.م.) معاهدة بين القنصلين الجديدين وشعب الهيرنيك تنتزع بموجبه روما ثلثا أراضيهم. فارتأى القنصل Cassius توزيع نصفها على الحلفاء من اللاتين وتوزيع نصفها الآخر على الشعب. وعلاوة على تلك الهبة كان يعتزم توزيع بعض القطع الأرضية التي كان كبار البطرقيين متهمين بالترامي عليها وهي من الملك العمومي".

توزيع الأراضي المحتلة في الحرب كانت من صلاحيات الجنرال الذي انتصر فيها. فكان مخيرا بين توزيعها كلها أو جزء منها على كبار الضباط بالجيش أو ضمها إلى ممتلكات الدولة ثم توزيعها بالإيجار. لكن القنصل Cassius خرج عن ذلك العرف من ناحيتين خطيرتين بالنسبة لحزب البطريقيين الحاكم، وهو الذي انتخبه. من جهة تخلى عن ثلث الأرض المحتلة لأصحابها. وعزم على توزيع البقية مناصفة بين قوم اللاتين والجنود من العوام. في حين، ووفق العرف، كان ينبغي عليه أن يوزعها فقط على كبار ضباط الجيش من البطريقيين بالتملك أو بالإيجار. لكنهم لن يحصلوا معه على شيء، و ذلك لصالح الأجانب والجنود من العوام.

علاوة على ذلك كان القنصل Cassius ينوي أن ينتزع منهم بعض الأراضي التي توجد بحوزتهم لتوزيعها على الجنود بدعوى أنها ملك للدولة وأنهم كانوا مترامين عليها. وسُمي حينها ذلك المشروع بما يعرف بقانون الإصلاح الزراعي. ويعني انتزاع بعض مما بأيدي الكبار من أراضي زراعية وتوزيعها على صغار الفلاحين. فقال فيه تيت ليف : "كانت تلك هي المرة الأولى التي حصل فيها تفكير قنصل في قانون الإصلاح الزراعي. منذ تلك الحقبة، وحتى اليوم[1]، ما حصل أن أثير الجدل بخصوص مثل ذلك القانون، إلا وأحدث هزات عنيفة. انتاب العديد من النبلاء الخوف على مصالحهم وعلى ثرواتهم العقارية. بل صار مجلس الشيوخ بأكمله يرتعش رعبا من الخوف على الجمهورية نفسها. رأى في سخاء القنصل Cassius سعيا منه لاكتساب تعاطف عامة الشعب بغرض الاستقواء به والاستبداد بالحكم وتنصيب نفسه ملكا". هكذا كانت تهمة تهديد النظام الجمهوري جاهزة بحق أو ببطل عند الحزب البطريقي الأرستقراطي لوضع حد لمشروع القنصل Cassius.

لكن زميله كان معارضا له وبقوة. وما كان بوسعه تمرير مشروعه من دون موافقته. تلك كانت الحكمة من إحداث منصب القنصلية بقنصلين في ولاية سنوية. إذا ما غوى أحدهما يجد زميله معارضا له ليرده إلى رشده. فلا يُتخذ أي قرار إلا بالإجماع فيما بينهما. وهكذا يقول تيت ليف : "في حين كان القنصل الثاني معارضا لمشروع قانون زميله. وما كان في حاجة للصراع مع عامة الشعب الذي كان جزء منه قد بدأ يستاء من هدية تُنزع من المواطنين الرومان وتوزع على الأجانب اللاتين المتحالفين مع روما. كان عموم الشعب يسمع هذا القنصل في التجمعات وهو يردد تنبؤاته التي تقول بأن هدايا زميله مسمومة، لأن تلك الأراضي المزمع توزيعها ستكون بالنسبة له وسائل لاستعباد المستفيدين من سخائه، بغرض إحياء الملكية وتربعه على عرشها. وإلا لماذا يصطنع موالي من الحلفاء

---

[1] عصر تيت ليف (ت 17 ق.م.)

اللاتين ؟ ولماذا يترك لشعب الهنريك، أعداء روما، ثلث أراضيهم التي استولى عليها جنود روما، سوى من أجل أن يتخذ ذلك الشعب من زميله القنصل Cassius حاكما بدلا من المنفي Coriolan ؟". لو أن Cassius اكتفى في مشروعه بتوزيع الأراضي المحتلة على عامة الجنود لوجدهم إلى جانبه ضد المعارضين من طبار البطريقيين. ولصار النزاع عموديا بين الحزب الحاكم من البطريقيين والحزب المعارض من العوام. لكنه بتخليه عن جزء منها للأصحابها الأجانب وعزمه على توزيع نصفها على غيرهم من الأجانب جعل حزب العوام في صف حزب كبار البطريقيين ضده. وصار عرضة لتهمة الانقلاب على النظام الجمهوري المقدس بحق وبالباطل، والذي عقوبته هي الإعدام.

هكذا كما قال تيت ليف : "بدأت تزداد شعبية القنصل المعارض لزميله ولمشروع قانون الإصلاح الزراعي. بدأ التنافس بين القنصلين بالمزايدات لاكتساب موالاة عامة الشعب. تنازل القنصل المعارض وقبل بالمشروع شريطة توزيع كل الأراضي على المواطنين الرومان من دون غيرهم. أما زميله Cassius، المستاء عموم المواطنين من سخائه مع الحلفاء الأجانب، فقد استمر على موقفه وعرض على الشعب توزيع أموال الغنائم لشراء قمح صقلية. لكن الشعب استخف بذلك العرض ورفضه باعتباره رشوة منه لكي يقبل بعودة الملكية. لما استقرت تلك الشكوك في الأذهان تزايد الاستياء مع الاستخفاف بسخاء القنصل Cassius كالاستخفاف بالسخاء في حال الرخاء".

ولتوضيح مدى خطورة القانون الزراعي بالنسبة لكبار الملاكين فإنه يتعلق بإعادة توزيع الأراضي الزراعية لصالح صغار الفلاحين حتى لا تبقى ملكيتها تتراكم بيد كبارهم. من مثل ذلك، القانون الذي يحصر ملكيتها في عشرين هكتارا. بموجبه يُمنع كل مواطن من امتلاك أكثر من ذلك السقف. فهو موجع بالنسبة لكبار مُلاك الأراضي الفلاحية. ويكون أكثر إيلاما لهم، إن كان، بأثر رجعي، يفرض عليهم بيع ما يملكون من فوق سقف العشرين هكتار، وفي أجل معين. ويُزهق عقولهم إن هو فرض انتزاع ذلك الفائض منهم.

أما بخصوص الشكل فقانون الإصلاح الزراعي كان يقتضي تقديمه أولا كمشروع قانون من طرف أحد القنصلين من بعد اتفاقهماعليه للتصويت عليه من طرف الهيئات الميئية. وهذا مستحيل لأن كلاهما كانا من كبار البطريقيين وكبار ملاك الأراضي الفلاحية، اللهم لغرض سياسي شخصي في نفسهما على حساب الجمهورية والحرية. حتى في هذه الحالة الخاصة والشادة لم يكن في الإمكان تمريره، لأن السلطة التشريعية كانت بيد الطبقة الأولى من جموع الشعب الميئية، وكل أفرادها كانوا من كبار ملاك الأراضي الفلاحية. وعليه مثل ذلك القانون لا يمكن تمريره إلا في نظام حكم استبدادي مثل ما حصل مع ما سمي بالثورة البيضاء بإيران التي كانت من بين ما عجّل بسقوط عرش الشاه، أو في جمهورية ديمقراطية فوضوية آل الحكم فيها لعموم الشعب كما كان عليه الحال بنفس الجمهورية الرومانية في القرن الأول قبل الميلاد، وكان من بين أسباب نهايتها.

لكن ليس هذا هو موضوع هذه المرحلة من تاريخ الجمهورية الرومانية. الأمر يتعلق فقط بتوزيع الأراضي المحتلة كغنائم حرب على عموم جنود الجيش، حتى يتساوى في ذلك كبارهم مع صغارهم. كان ذلك من صلاحيات القنصل قائد الجيش إثر الانتصار في كل حرب، بمجرد الاتفاق مع زميله، ومن دون الحاجة لسن أي قانون. إلا أنه كان في ذلك إزعاج جد طبيعي للكبار. فمن بعد انتزاع حزب العوام لبعض الحقوق السياسية كانوا بالطبع يكرهون أن يسْعوا كذلك لاقتسام الثروة معهم. فكانوا يكرهون بصفة خاصة كل من يتخذ أية مبادرة تشجع على ذلك. وهذا ما حصل مع القنصل Cassius في هذه المرحلة المبكرة من عمر الجمهورية الرومانية.

جلب على نفسه سخط الشعب الروماني بفئتيه. وما كانت له من مصلحة في ذلك سوى ما اتهم به من السعي للقضاء على الجمهورية وتنصيب نفسه ملكا بدعم من العوام ومن الأجانب اللاتين الذين عزم على تمكينهم من الأراضي المحتلة. وتلك كانت جريمة ما حال دون محاكمته بسببها سوى الحصانة التي كانت له كقنصل. لكنها محدودة في الزمن. فقال في حقه تيت ليف : "ما أن خرج من ولايته السنوية حتى أدين

وحكم عليه بالإعدام[1]. أما الحكم عليه بالإعدام فلا شك فيه، سوى أن بعض الكتاب يزعمون أن أباه هو الذي حكم عليه بالإعدام ونفذه[2] فيه، كي يدفع بذلك عن الأسرة عار وخزي تهمة الاعتداء على أمن الدولة. وكتب على قبره "هدية من أسرة كاسيا". لكنني أرجح اتهامه من طرف خازني الدولة Questeurs بالخيانة العظمى، ثم حوكم أمام قضاء الشعب الذي أدانه بعقوبة الإعدام".

وأمره كان محسوما. محكمة الشعب تتشكل من الطبقة الأولى من الهيئات الميئيةحسث الغالبية كانت كانت لكبار البطريقيين. بذلك كانت في الوقت نفسه حَكما وطرفا في تلك القضية. بمشروع توزيع الأراضي المحتلة بالتساوي على كل جنود الجيش قد مس ذلك أقدس شيء في عقلية كل المترفين، وهو اقتسام الثروة التي تميزهم مع المستضعفين. ويقول في ذلك ميكيافلي في كتاب المقالات أن البشر حين يفقد أعز الناس عليه فسرعان ما ينساه، وهو الذي لا يعوّض أبدا بغيره. لكنه حين يفقد مالا فلا ينساه أبدا، وهو الذي يمكن تعويضه بغيره من المال[3].

وبمناسبة ذكر حدث إعدام ذلك القنصل تجدر الإشارة إلى أمرين جديدين. أولهما أن كل رجل من رجال الدولة كانت له حصانة خلال مدة مزاولة ولايته إلى حين خروجه منها، فيحاسب حينها على أخطائه من طرف باقي رجال الدولة بوصفهم طرف الادعاء العام أمام محكمة الشعب. كان في ذلك أمر مهم جدا من حيث يمنع رجال الدولة من الشطط في استعمال السلطة ومن استغلال النفوذ خلال ولايتهم. وهو ما يعرف اليوم بمبدأ المساءلة والمحاسبة. ذهب اليونان بأثينا العتيقة إلى شيء من مثل ذلك، والذي جعل من الترشح لتقلّد مناصب الدولة أمرا مخيفا، فتراجع بسببه ترشح الرجال الأكفاء لها. كانوا يقترعون كل عام لتعيين أحد رجال الدولة السابقين كمذنب بشبهة تهديد أمن الدولة، فيحكم عليه باستصفاء أمواله ونفيه مدة عشر سنين، وذلك ما كان يسمى فيها بالنبذ ostracisme.

والأمر الثاني يتعلق بمؤسسة أخرى ذكرها تيت ليف عرضا، وهي مؤسسة أمين المال العام أو خازن الدولة Questeur. كانت مؤسسة عمومية ثنائية العضوية لولاية سنوية كالقنصلية. تكاثر عدد أعضائها بتنامي الدولة حتى صار من عشرين عضو في مرحلة متأخرة من عمر الجمهورية. كانت في مؤخرة سلم مؤسسات الدولة الخمس. بالرغم من ذلك فقد رفع الخازنان دعوى ضد القنصل الذي هو في ثاني مرتبة من مناصب الدولة من بعد الناضر الذي سيأتي التفصيل في مؤسسته لاحقا. كان من اختصاصات رجال خزانة الدولة جباية الضرائب المستحقة واستخلاص أموال الغنائم والغرامات وحساب ومراقبة إنفاق كل مرافق الدولة. وقد كانت في البدء من ضمن اختصاصات القنصلين.

والذي يهمنا، وبغض النظر عن تفاصيل صلاحيات واختصاصات مختلف مؤسسات تلك الجمهورية الناشئة، هو أن السلطة، حتى هذه المرحلة من تاريخ روما وفي تلك العصور الغابرة، كانت موزعة بين أربع مؤسسات. لم يعد هناك استبداد الفرد كما كان الحال في عهد طاركان المتغطرس، ولا استبداد الكبار من بعد موته ومن قبل إحداث مؤسسة النيابة عن العوام. بل هناك مؤسستان تمثلان الكبار وهما مجلس الشيوخ والقنصلية، علاوة على مؤسستين أخريين، واحدة منهما تمثل مبدئيا عامة الشعب وهي مؤسسة الهيئات الميئية المشكلة من البطريق ومن العوام، والتي كانت تشرّع وتنتخب رجال الدولة، إلاّ أنها عمليا كانت من جهة الكبار، ومؤسسة نيابة العوام التي كانت تحميهم من شطط باقي مؤسسات الدولة ومن عسف عموم البطرقيين. وغالبا ما كانت لا تُتخذ التدابير بالداخل على الأقل، إلا بالتوافق بين المؤسسات الأربع. والحدث الأعظم حتى هذه المرحلة من تاريخ روما كان في تقديم نائب العوام، أحد النبلاء من أشرس أعضاء مجلس الشيوخ، للعدالة أمام محكمة الشعب المختصة بقضايا أمن الدولة. وهو السيناتور Marcius Coriolan الذي أدين غيابيا، فهاجر روما لليعيش في المنفى حتى مات فيه.

---

[1] بتهمة التآمر على أمن الدولة بمقتضى قانون فاليريوس الذي تم سنّه عام نشأة الجمهورية في 509 ق.م. وكان الحكم فيها من اختصاص قضاء الشعب

[2] سلطة الدولة على المواطنين كانت متزامنة مع سلطة الأب المطلقة بداخل أسرته.

[3] انظر كتابه القيم "مقالات حول العشرية الأولى لتيت ليف"

لما تم إعدام القنصل Cassius لم يذكر تيت ليف مصير ثلثي الأراضي المحتلة التي عزم لوحده على توزيعها مناصفة بين صغار الجنود والحلفاء الأجانب من اللاتين. ولم يتم توزيعها كلها على صغار الجنود كما اقترح ذلك زميله لأنه كانمعترضا على ذلك. كل قرار كان يتطلب إجماعهما. فمن المحتمل أن تكون قد ضمت للمتلكات العمومية للدولة ثم تم تأجيرها لكبار البطريقيين. وكان صغار الجنود هم الخاسرين في تلك القضية. لكن تولد عندهم الطمع في نصيبهم من الأراضي المحتلة الموزعة من بعد كل حرب. فعزم هذه المرة نواب العوام على تبني نفس المطلب. ونشبت عنها صراعات سياسية عمودية بين الفئتين، لم تصل إلى حد الحرب الأهلية لكنها كانت تدمر روما في بيئتها العدوانية. فماذا عن معالم ذلك الصراع على اقتسام الأراضي المحتلة بين الجنود من العوام وكبار الضباط من البطريقيين ؟

تجدد الصراع العمودي بين الحزب المعارض والحزب الحاكم

فقال في ذلك تيت ليف : "حقد الشعب على القنصل المدان لم يدم طويلا. مشروع توزيع الأراضي المحتلة في الحرب، من بعد إعدام صاحبه، صار بسحره الكبير يستهوي كل العقول. وازداد جشع عامة الشعب بفعل زيادة شح النبلاء البطريقيين، الذين من بعد الانتصار في الحرب على الفولسك والإيك، حرموا صغار الجنود حتى من نصيبهم من الغنائم[1]. كل ما غنموه من تلك الحرب باعه القنصل الجديد فابيوس وسلم ثمنه لخزينة الدولة[2]. فصار إسم هذا القنصل بغيضا عند الشعب. وسبق أن عمل البطريقيون على انتخابه قنصلا[3]، فتعاظمت الاضطرابات. لكن مجيء الحرب مع الأجنبي علق مرة أخرى الفتن الداخلية. في هبّة موحدة بين البطريقيين والعوام انتصر الرومان انتصارا باهرا على الفولسك والإيك الذين حملوا السلاح مرة أخرى ضد روما. ثم أثير مرة أخرى هذه السنة طُعم توزيع الأراضي المحتلة على كافة الجنود لإغواء عقول جموع العوام. فجاء دور نواب العوام كي يتبنوا شعبية ذلك التوزيع من أجل الإعلاء من مقام منصبهم. البطريقيون الذين كانوا يرون في طبيعة جموع العوام جنوحا للعنف، صاروا يخشون من أن يشجع ذلك السخاء على الزيادة في جرأتهم. لكنهم كانوا يرون في القنصلين قادة يقودان المقاومة بحزم".

إلا أن نواب العوام فشلوا طيلة خمس سنين (486-481ق.م.) في الضغط على القناصلة كجنرالات الحرب لتوزيع الأراضي المحتلة على صغار الجنود. تمكن حزب البطريقيين من ذلك بفضل صلابة عائلة القنصل فابيوس التي اشتهرت بشدة مقاومتها للعوام ولنوابهم. كان الحزب البطرقي يعمل دائما على ترشيح وانتخاب القناصلة أبنائها في تلك المواجهة بين الفئتين. والترشيح للقنصلية كان من صلاحيات القنصلين الخارجين من ولايتهما وهما من النبلاء. فكانا يتذرعان باستقسام ما يحببان[4] لترشيح من يحبان. ثم كان يتم انتخابه من طرف الهيئات الميئية. لكن هذا الاقتراع، كما علمت، كان يُحسم وينتهي مع تصويت الطبقة الأولى، وأغلبها إلم نقل كلها من البطريقيين ومن مواليهم المترفين من العوام بحسب التقسيم الميئي الذي كان قد سنه الملك سيرڤيوس.

لكن الصراع بين الفئتين عرف تصعيدا خطيرا سنة 481 ق.م. بلغ إلى حد تمرد الجنود العوام على القنصل قائد الجيش في عز المعركة مع العدو. قال في ذلك تيت ليف : "لم تهدأ الخلافات الداخلية هذه السنة، في حين الحرب الخارجية صارت من كل جانب مرعبة أكثر. كل تلك المخاوف، التي كان من شأنها التخفيف من غضب الشعب، ما زادته إلا اشتعالا. عاد العوام للامتناع عن التجنيد، لكن ليس من ذاتهم هذه المرة، بل بتحريض من أحد النقيبين. وهو الذي كان يرى أن تلك الفرصة تحت ضغط تلك الظروف الصعبة كانت مواتية جدا لفرض توزيع الأراضي المحتلة

---

[1] الغنائم المنقولة وليس الأراضي المحتلة التي كانت فقط من نصيب كبار ضباط الجيش من البطريقيين عند توزيعها.

[2] هنا يتأكد لك أنه كان للقنصل قائد الحرب الخيار في توزيع الغنائم على أفراد الجيش أوبيعها ودفع ثمنها لخزينة الدولة من دون الحاجة لسن أي قانون سوى التوافق مع زميله.

[3] لأنه كان ضد زميله القنصل السابق *Cassius* الذي تم إعدامه.

[4] كالاستقسام بالطيور. كان الاستِقْسَامُ نوعا من الاقتراع. كان الأقدمون يكتبون على بعض القِدَاح "افْعَل" وعلى أخرى "لا تفْعَل". وإذا ما أرادوا الخروجَ لأمرٍ اقترعوا عليه بها. ثم ما خرجت به القُرعة عَمِلوا به. كان ذلك من عمل الكُهَّان. ورجال الدولة بروما وأثينا وغيرهما كانوا كلهم، كبطريقيين، كهنة بوصفهم أرباب أسر في عشائرهم قبل أن يكونوا رجال دولة.

على كل الجنود. بذلك سقط على كاهله كل الحقد الذي يكنه الكبار لمؤسسة النيابة عن العوام. وكان زملاؤه[1] أشد عليه من القنصلين، حين تعاونوا معهما على تجنيد العوام. فتشكل من ذلك النفير جيشان تفرقا لمواجهة عدوان في آن واحد".

"الحرب على الفيسيين لم تأتي بشيء يذكر. أما الجيش الثاني الذي يقوده القنصل فابيوس[2] وجد صعوبات مع جنوده أكثر مما وجدها مع العدو. هذا الرجل العظيم الذي كان لوحده عماد الجمهورية، صار جيشه يخونه بمقدار ما فيه من الحقد عليه. كانت هجمة واحدة من الخيالة[3] كافية للفتّ في عضد العدو. لكن المشاة[4] رفضوا أن يتبعوا الهاربين. كانوا غير مكترثين، ليس فقط بتوسلات قائدهم البغيض، لكن حتى بما سيلحقهم من عار، وبالعار الذي سيلحق الجمهورية، وبالمخاطر التي كانت تهدد مستقبلهم أنفسهم في حال ما تجلّد الأعداء للكر والهجوم عليهم. امتنعوا عن التقدم ولو بخطوة. بل رفضوا حتى البقاء في ميدان المعركة، وغادروه إلى المعسكر وهم ساخطون على القنصل وعلى ولاء الخيالة له. لم يجد الجنرال علاجا ضد عدوى هذا التمرد. ذلك بأن الرجال العظام كانوا يُجيدون بيسر أكبر أسرار الانتصار على العدو من إيجاد أسرار تسيير المواطنين. عاد القنصل فابيوس إلى روما وقد أضاف إلى حقد جنوده عليه أكثر مما أضاف إلى مجده. لكن النبلاء البطريقيين كان عندهم ما يكفي من النفوذ للحفاظ على القنصلية ببيت آل فابيوس [5]. فآلت لقنصل آخر من نفس البيت مع زميل له[6]".

ثم جائت الحرب التي خففت من الشقاق بين الفئتين. بداية أحداث هذه السنة (480 ق.م) وردت في كتاب تيت ليف مطوّلة ومثقلة بكثير من التفاصيل. نختصرها لك، كالعادة، حتى لا تمل منها. أحد نواب العوام الجدد، من بين الإثنين المنتخبين وثلاثة مساعدين، عاد ليطالب هو كذلك بتوزيع الأراضي المحتلة على عموم الجنود بالرغم من فشل من سبقوه في ذلك. صار يحرض أيضا العوام على الامتناع عن التجنيد لابتزاز القنصلين وباقي النبلاء البطريقيين. إلا أنه، كالمرة السابقة، استطاع الكبار مرة أخرى إفشال مشروعه باستمالة زملائه الذين كانوا يتدخلون في انتخابهم من طرف العوام عبر مواليهم من عشائرهم. فاستطاع البطريقيون بمساعدة من مواليهم من نواب العوام ومساعديهم تجنيد جموع المستضعفين منهم لمواجهة حرب كانت على الأبواب من شمال روما. كيف تمكنوا من ذلك ؟

انتخاب نواب العوام كان يتم باقتراع هيئات العوام العشائرية. وكل عشيرة من عشائرهم كانت تتواجد بنفس المكان الذي كانت فيه عشائر البطريقيين. وقد ظل العديد منهم من موالي البطريقيين لأغراض شخصة. وعن طريقهم ظل البطريقيون يؤثرون في انتخاب نواب العوام بترشيح من يوافق مصالحهم وبشراء أصوات الناخبين لصالحهم. وهذا هو العيب في نمط الاقتراع الذي تفطن له نواب العوام لاحقا، وسيقترحون على هيئاتهم العشائرية مراجعته.

وقد جاء هذه المرة دور الإتريسكيين للتحرش بالجمهورية الرومانية. هم كباقي الشعوب الإيطالية لم يستسيغوا بعد وجود دو لة من بينهم لا تعرف إلا الانتصارات. دولة نشأ فيها نظام حكم جديد وغريب كان يُخشى من انتقال عَدْواه إلى ديارهم فيتجرأ العوام عندهم على طلب نفس الحقوق السياسية التي من شأنها تهديد مصالح كبارهم وزرع الفتنة في مجتمعاتهم. ولمعرفتهم بتلك الخلافات الاجتماعية بداخل روما، وبعصيان الجنود العوام لقائدهم القنصل فابيوس في المعركة السابقة والذي بسببه تحول انهزام العدو إلى شبه انتصار، وبقلة حماس الجنود للحرب، وبخوف قادتهم من تكرار نفس التمرد العسكري، قدروا أن الفرصة المناسبة حانت للقضاء مرة واحدة على روما وتدميرها إلى الأبد.

فأخذ جنودهم يتحرشون بروما وبجنودها بكل أنواع الابتزاز والمهانة من نهب وتخريب للأراضي والسب والشتم والقدح في شرفهم وفي شجاعتهم وفي كل ما كانوا يفتخرون به الرومان. اشتعل جنود

[1] كانا هما نائبين إثنين منتخبين، وصار من حق كل منهما اختيار ثلاثة مساعدين من العوام.
[2] من الأسرة المشهورة بعدائها للعوام وللنواب عنهم.
[3] وهم من الطبقة الأولى أي من النبلاء.
[4] وهم من العوام
[5] المناهضون للعوام ولنوابهم
[6] كما تقدم، ما يزال النظام يسمح بذلك التفوق في نفوذ الكبار على نفوذ العوام.

روما غيضا وغضبا، يريدون الانتقام من وقاحة العدو. وكان قادتهم مبتهجين بذلك التحرش المهين، فتعمدوا منع الرد عليه إلى حين يبلغ حماس جنودهم لخوض المعركة حدا لا يأتي إلا بالنصر. لما صار فعلا حقد الجنود على العدو أكبر من حقدهم على قادتهم، صاروا يتوسلون للقنصلين بالإيذان ببداية الحرب. فاستحلفاهم بالآلهة التي كانوا يخشونها أكثر مما يخشون قادتهم على ألا يعودوا من المعركة إلا بالنصر كشرط للإيذان ببداية الحرب. تعالى حينها الصياح من كل مكان بالقسم على ذلك الشرط. وخاض الجيشان الحرب، وما انتصر فيها الرومان سوى من بعد جهد جهيد وفقدان جنرالين أحدهما كان قنصلا والآخر كان من آل فابيوس الذين عملوا دائما على اكتساب حب عامة الشعب كما كان يحبهم الكبار. توفقوا في ذلك لحد ما بتلك التضحيات في الحرب على عدو بلغ حقد الجنود عليه مداه.

فعزم آل فابيوس على إصلاح ذات البين بين فئتي العوام وكبار البطريقيين. حصل ذلك سنة 479 ق.م. وقال فيه تيت ليف : "انتُخب Caeso فابيوس قنصلا، وقد كان من آل فابيوس المشهورة. انتخب مع زميل له، بمباركة عامة الشعب هذه المرة أكثر من أصوات النبلاء. وقرر ألا يهتم لا بالحرب ولا بالتجنيد ولا بغيرهما، حتى يُصلح ذات البين بين عامة الشعب والكبار[1]. بهذا العزم ومنذ بداية ولايته، اقترح على مجلس الشيوخ ألا ينتظر حتى يقوم أحد نواب العوام للمطالبة مرة أخرى بتوزيع الأراضي التي انتزعها الجيش من العدو، وأن يستبق هو إلى توزيعها بالتساوي على كافة أفراد الشعب[2]. فكان يقول من أجل ذلك، أنه من الإنصاف أن تعود تلك الأراضي لأولئك الذين انتزعوها من العدو بعرقهم وبدمائهم[3]. لكن طلبه هذا رُفض وبازدراء. بل اشتكى بعض أعضاء المجلس من رؤية مزاج ذلك القنصل وهو يلين وينحني تحت ثقل مجده من بعد ما كان قويا وصلبا. وبالرغم من ذلك الرفض خلت تلك السنة من الاضطرابات الاجتماعية".

وقد تتساءل وبحق، لماذا لا يتحدى هذا القنصل مجلس الشيوخ باستعمال صلاحياته ويوزع تلك الأراضي المحتلة كما يحلو له ؟ لكن هذا في حال ما كان زميله متفقا معه. وحتى في تلك الحالة سيكون هو وزميله معرضين لخطر الحكم عليهما بالإعدام مثل ما حصل لأحد القناصلة السابقين، بتهمة تهديد أمن الدولة، ولو ملفقة، أمام محكمة الشعب. تلت ذلك الحدث بين القنصل فابيوس ومجلس الشيوخ بخصوص توزيع الأراضي المحتلة على الجنود، تلته سلسلة من الحروب على الجمهورية ومن كل جهة، حتى أنك تكاد تشك في كيف كانت تنطلق المعارك دائما ضد روما وينتصر فيها الرمان، ولا ترى فيها ولا حربا واحدة بدأها الرومان ضد جيرانهم. من جهة، وكما رأيت، الرومان مع الاختلافات الاجتماعية الداخلية ونفور العوام من التجنيد في حروب لا يستفيد منها إلا الكبار، كانت مصلحة مجلس الشيوخ بالضبط ومعه القناصلة، هي الحفاظ على حالة السلم مع الجيران. هذا ما يفسر قلة العدوانية عند الرومان، كاستثناء بالنسبة لطبيعة الشعوب من حولها، والتي كانت الحرب عندها على العموم ذات فوائد اقتصادية وسياسية.

من الناحية السياسية كانت الحروب تلهي جموع الشعب عن الالتفات لهيمنة الحكام وتلهي الكبار عن الصراع فيما بينهم على السلطة والنفوذ، كما كانت تُبقي الجيش على استعداد دائم لدفع كل عدوان خارجي. ومن ناحية أخرى كانت الحرب تشكل نشاطا اقتصاديا مثل التجارة والفلاحة والصناعة. كانت موردا من موارد الثروة ولو بالنهب وباحتلال أراضي الغير وابتزاز العدو المنهزم علاوة على الغنائم من السلاح والمتاع والعبيد من الأسرى في حال النصر. من تلك الموارد كانت تستطيع تغطية نفقات التسليح والجيش. فضلا عن كل ذلك وفي تلك البيئة العدوانية وللأسباب التي ذكرنا، كان من لا يَهجم يُهاجم. كان العدوان المفتعل بمثابة دفاع عن ما بيد الشعب من ثروات مع الأمل في تنميتها. لهذا سنقفز على ترجمة

---

[1] كي تحافظ تلك العائلة على محبة الجميع التي اكتسبتها في الحرب الأخيرة.

[2] معنى ذلك أنها كانت تقسم فقط بين كبار ضباط الجيش من البطريقيين من دون غيرهم، فكانوا يزدادون بذلك ثراء ونفوذا على حساب المستضعفين من العوام ومن صغار البطريقيين.

[3] هذا ما يؤكد لك مرة أخرى أن موضوع النزاع ليس إصلاحا زراعيا وإنما توزيع الأراضي المحتلة على كافة الجنود.

أحداث عدة حروب خاضتها روما مُكرهة وانتصرت فيها ولو بتضحيات جسام، لنصل بك إلى ما يهمنا أكثر وهو الحياة الاجتماعية والسياسية بالجمهورية الرومانية.

ومنها تمكّن حزب العوام المعارض من ممارسة حقه في مراقبة ومساءلة ومحاسبة حزب البطريقيين الحاكم. سبق أن حصل ذلك مع السيناتور Marcius Coriolan لما هاجم بمجلس الشيوخ هيئات العوام العشائرية ونوابهم. فتمت إدانته. لكن المراقبة والمحاسبة ارتفعت هذه المرة بدرجة. انتصب نواب العوام كمدعين عامين أمام محكمة الشعب في قضيتين لا تخصان فئتهم بل تخصان الشعب الروماني كله. قدموا للقضاء قنصلين بتهمة التخاذل في الحرب بوصفهما جنرالين في الجيش. فلم يعد الجزبالبطريقي الأرستقراطي حرا طليقا في الحكم من دون حسب ولا رقيب. صار من حق الحزب العوام الديمقراطي المعارض مراقبته ومحاسبته على ممارسته للحكم. فماذا عن تفاصيل ذلك التطور السياسي العظيم ؟

علق على ذلك تيت ليف بقوله : "مع حالة السلم رأت روما أثمان المواد الغذائية تنخفض. فجيء بالقمح تحسبا للمجاعة لاحقا. ولما مرت الأمور بسلام، أخرج التجار مخزون قمحهم للسوق. ثم التقاء الرخاء بالعطالة حرك العقول نحو التسيّب. مع غياب المشاكل الخارجية صار يُبحث عنها من داخل روما نفسها. مرة أخرى لجأ نواب العوام إلى سحر العقول بالسم المعهود. لجأوا إلى إثارة موضوع توزيع الأراضي المحتلة على عموم الجنود. حركوه ضد النبلاء الذين يقاومونه، وليس فقط ضد كبار البطريقيين مجتمعين بل ضد كل واحد منهم بعينه. رفع النائبان عن العوام دعوى ضد الجنرال Titus Ménénius[1] أمام محكمة الشعب سنة 476 ق.م.. اتهماه بجريمة التخلي عن قلعة رومانية كانت بالقرب من معسكره. لم يعترض الجنرال على ذلك. لكن تدخل مجلس الشيوخ للدفاع عنه بحرارة. وبالنظر لشهرة أبيه Agrippa الحكيم الذي لم ينمحي بعد ذكره، خفف نائبا العوام من سك الاتهام. فطالبا المحكمة بالحكم عليه بدفع غرامة مالية بدلا من الإعدام. لكن بالنسبة للمتهم المدان، كان ذلك الحكم المخفف بمثابة حكم بالإعدام، لأنه لم يتحمل ثقل تلك المهانة، وظل كذلك حتى مات من المرض".

كما تقدم، محكمة الشعب في كتاب تيت ليف هي في الواقع الطبقة الأولى من الهيئات الميئية. والمدعي العام في نفس المحكمة كان أحد رجال الدولة من البطريقيين قنصلا كان أو غيره. والجديد هنا هو كون المدعي كان أحد نواب العوام. لكن الحكم الصادر عن المحكمة لا يكون كما رأيت إلا بما يخدم مصالح كبار البطريقيين، بزعامة مجلس الشيوخ. ولولا نواب العوام لما رُفعت دعوى ضد ذاك الجنرال. فقد كان ذلك الامتياز الديمقراطي بمثابة ابتزاز للكبار من طرف نائب العوام، حتى يكسب ربما تعاطف فئته التي انتخبته، ويُظهر لها أن تلك المؤسسة تقف في وجه الكبار بقدر ما تستطيع في انتظار انتزاع المزيد من الحقوق منهم.

ولم يتوقف ذلك الابتزازعند رفع دعوى ضد هذا القنصل وإدانته. بل طال قنصلا آخر. فيقول تيت ليف : "شهدت هذه السنة (475 ق.م) كذلك محاكمة متهم آخر. تعلق الأمر بالقنصل المنتهية ولايته، Spurius سرڤيليوس. لكن لم يكن هذا المتهم كسابقه الذي قبل بالدعوى وتوسل هو ومجلس الشيوخ للمحكمة كي تتعاطف معه وتخفف من حكمها عليه. بل واجه اتهام نواب العوام بالثقة في براءته وفي سابق مجده. جريمته، بحسب نواب العوام، كانت في ما حصل منه من تخاذل في إحدى المعارك مع العدو. بشجاعته أمام المحكمة كشجاعته في الحرب فنّد بخطاب قوي كل ما نسب إليه نواب العوام وعامة الشعب نفسه. بل ذهب إلى أكثر من ذلك، وأدان المحكمة والشعب اللذان تسببا في موت الجنرال السنة الفارطة، وهو ابن Agrippa الحكيم. ذلك الرجل الذي كان سببا في اكتساب نفس العوام للحقوق التي يستعملها نوابهم اليوم كادعاء عام في هذه المحكمة. فجنبته تلك الشجاعة كل خطر. ونودي على زميله في الولاية السابقة ضمن الشهود، فدافع عنه وقاسمه مجد تلك المرافعة. لكن الذي نفعه أكثر هو إدانة الجنرال Ménénius، ابن Agrippa الحكيم، مع ما حصل من تقلب في الأمزجة". لكن ما كان لابتزات حزب العوام المعارض من أن تمر من دون ردة فعل قوية من الحزب البطرقي الحاكم. من دون الوصول إلى حرب أهلية مدمرة للجميع دخل البطريقيون في معركة مقاومة لخصومهم للدفاع عن امتيازاتهم وحمايتها.

---

[1] وهوابن *Agrippa* الحكيم الذي سبق أن تدخل في المفاوضات بين البطريقيين والعوام ليُثني المعتصمين بالجبل المقدس عن اعتصامهم، وكان مجبوبا من عموم الشعب ومن الكبار

يقول تيت ليف : "وُكّل بالحرب على الفيسيين أحد القنصلين الجديدين. لكنها لم تتم لأن الفيسيين طلبوا هدنة لمدة أربعين سنة. قبل الرومان منهم ذلك في مقابل دفعهم جزية سنوية من المال والقمح. حينها تلت السلام بالخارج خلافات داخلية. كان مرة أخرى مشروع توزيع الأراضي المحتلة على كل الجنود هو سلاح نواب العوام لإثارة غضب عامة الشعب ضد البطريقيين. عارضهم القنصلان اللذان لم ترهبهما لا إدانة الجنرال Ménénius ولا محاكمة القنصل السابق Spuriusسرڤيليوس. لكن ما أن انتهت ولايتهما حتى رفع نائب العوام دعوى ضدهما أمام محكمة الشعب".

"ومن بعد انتخاب القنصلين الجديدين لولاية السنة الجديدة تم تقديم القنصلين السابقين للمحاكمة. فلبسا لباس الحداد وتوجها بالخطاب ليس لعامة الشعب بل للنبلاء البطريقيين يحثونهم على التخلي على مناصب حكومة الجمهورية، وعلى ألا يروا في معالم التشريف فيها إلا زخارف جنازة، ولا في شاراتها اللامعة سوى الشرائط التي تُلف بها القرابين حين تُقاد إلى المذبح. إذا كان ما يزال للقنصلية عندهم الكثير من السحر، فليقتنعوا بأن ذلك المنصب قد أصبح من الآن مضطهدا بخضوعه لهيمنة مؤسسة النيابة عن العوام، وأن القنصل أصبح خادما عند نواب العوام ينتظر منهم الإشارات والإذن كيتحرك، كمن يتلقى الأوامر من رئيسه. ما أن يتحرك ويلتفت بنظره إلى مجلس الشيوخ، وما أن يفكر أن هناك فئة أخرى في الجمهورية غير فئة العوام، حتى يتراءى لعينيه نفي السيناتور Coriolan وإعدام الجنرال Ménénius وإدانة القنصل سرڤيليوس"

"إثر ذلك الخطاب القوي، اجتمع النبلاء البطريقيون في السر وليس في العلن كعادتهم، وفي مجموعة قليلة العدد، حيث لم يقبلوا سوى بالأصدقاء الموثوق بهم. هناك لم يكن التفكير سوى في إنقاذ المتهمين بكل الطرق المشروعة وحتى غير المشرعة. كانت الآراء المتطرفة هي المسموعة، ولم تكن تنقصهم السواعد المستعدة لتنفيذ المشاريع الأكثر جرأة. يوم المحاكمة اجتمعت جموع الشعب بالساحة العامة لحضورها. اكتملت كل عناصرها إلا المدعي العام وهو نائب العوام الذي رفع القضية على القنصل. فتفاجأ الجميع من تأخره الذي طال حتى أصبح محل تساؤلات. ثم ساد الشك في أنه قد تنازل عن الدعوى بضغط من الكبار، وبدأ التشكي من تخليه عن قضية عمومية ومن خيانته لعموم الشعب. وأخيرا جاء الخبر بأنه وجد مقتولا بمنزله[1]".

"ما أن انتشر الخبر بين الجموع حتى تفرقت في كل الاتجاهات كالجيش الذي فقد جنراله. الذين كانوا أكثر رعبا هم نواب العوام لما تبين لهم من قتل زميلهم، كم كانت واهية لحمايتهم تلك القوانين ذات الحرمة الدينية التي سنوها لأنفسهم وقبل بها مجلس الشيوخ[2]. أما النبلاء البطريقيون فما كانوا من جهتهم يستطيعون إخفاء بهجتهم بالحدث. ما كان منهم أحد مستعد للتبرؤ من تلك الجريمة، حتى أن الأبرياء منهم كانوا يحبون التظاهر بأنهم كانوا مشاركين فيها. كانوا يقولون ليس هناك من رادع لهيمنة النيابة عن العوام سوى العنف". إلا أن العوام ما لبثوا أن حولوا تلك الهزيمة إلى نصر سياسي جديد. كان انتخاب نوابهم ومساعديهم غير مستقل عن إرادة ومصالح البطريقيين. كان الاقتراع يقتصر على عشائرهم من داخل سور روما بين البطريقيين من دون الأغلبية من فئتهم القاطنة بالأرياف خارجه. فجاءت الفرصة لضمها لهيئة العوام العشائرية في انتخاب العوام. ولم يكن للبطريقيين من سبيل للتأثير عليها في ذلك التوزيع الجديد للكتلة الناخبة. كيف حصل حزب العوام على ذلك المكسب السياسي الثمين الذي عزز نفوذه في المعارضة ؟

تعزيز استقلالية ونفوذ حزب العوام المعراض

يقول تيت ليف : "مباشرة من بعد هذا النصر بهذا الحدث الثمين، صدر مرسوم يأمر بالتجنيد. لم يعترض عليه أحد من نواب العوام المرعوبين. وتمكن القنصلان بيسر من جمع قواتهم. حينها غضب العوام من سكوت نوابهم أكثر من غضبهم من حزم القنصلين. صاروا يقولون أن تلك كانت نهاية حريتهم مع العودة لحالهم في العهد القديم، وأن قوة نيابة العوام ماتت بموت نائبهم ودُفنت معه في القبر. فكان لا بد لهم من التفكير في اللجوء إلى وسائل أخرى لمقاومة هيمنة كبار البطريقيين. أما وقد حُرم الشعب من كل سند، فما بقي له من سبيل يلجأ إليه سوى حماية نفسه بنفسه. القنصلان كانا محميين

---

[1] سنة 472 ق.م.

[2] كما تقدم، القانون الذي سن إنشاء مؤسسة نواب الشعب كان يظفي على شخصهم من دون غيرهم حرمة دينية كحرمة الكعبة أو المصحف عندنا نحن المسلمين. الاعتداء على حرمتهم كان بمثابة تدنيس للمقدسات.

بأربع وعشرين حارس مسلح. لكن أولئك الحراس كانوا كلهم من فئة العوام. فليس من حاجز أحقر ولا أهون من تلك الحماية. ما كانت تظهر بتلك القوة المرعبة سوى بالاعتقاد أنها كانت كذلك".

"وهم يتحدثون في ذلك، إذا بحارس من حراس القنصل جاء ليقبض على Voléron، وهو رجل من العوام الذي كان من قبل قائد كتيبة ورفض أن يُجنّد من بعد ذلك كمجرد جندي. طالب الرجل حينها بحماية نواب العوام. لما لم يستجب لطلبه أحد منهم، أمر القنصل بتعرية ظهره وجلده بالسياط. صاح حينها الرجل يقول للقنصل "بما أن نواب العوام صاروا يفضلون رؤية مواطن يجلد بالسياط، بدلا من التعرض إلى الذبح في الفراش على أيديكم[1]، فإنني أطالب بحماية العوام أنفسهم". كانت ضراوة الحارس في تعرية الرجل تزداد بتصاعد عنف صياحه. واستطاع التخلص من الحارس بقوته وبمساعدة المتعاطفين معه من حوله الذين كانت أصواتهم تتعالى بقوة للدفاع عنه. ثم عاوَد يصيح ويقول "أحتمي بالعوام، وأتوسل إليهم كي يكونوا هم سندي. إليّ أيها المواطنون أيها الأصدقاء، فليس لديكم ما تنتظرونه من نوابكم الذين صاروا أنفسهم في حاجة لحمايتكم"".

"ظهرت الجموع حينها وكأنها تستعد بحماس لمعركة. لم يعد في ذلك شك. الأزمة تتفاقم ولا توجد اعتبارات لا خاصة ولا عامة قادرة على إيقافها. القنصلان اللذان أرادا مواجهة تلك العاصفة العنيفة وجدوا أن هيبة السلطة من دون قوة هي سند واهي. كان يُعتدى على حراسهما وتكسر أسلحتهم، حتى طُرد القنصلان من الساحة العامة للاحتماء ببناية مجلس الشيوخ، من دون أن يعرفا إلى أي حدّ سيدفع الرجل Voléron نصره. ولما هدأت أخيرا الاضطرابات استدعى القنصلان مجلس الشيوخ للاجتماع، وتشكيا من المهانات التي أصابتهما ومن عنف العوام ومن جرأة Voléron. من بعد استعراض كل الآراء بخصوص ذلك العنف، غلب رأي الكهول، فتقرر إلا يواجه غضب العوام ببطش النبلاء".

"حاز Voléron الرجل الثائر على شعبية كبيرة بين العوام، فانتخبوه نائبا عنهم مع نائب ثاني. وخلافا لما كان متوقعا منه، من استغلال صلاحياته النيابية للانتقام لنفسه من القنصلين السابقين بتقديمهما للعدالة، لم ينبس لهم ولو بكلمة سوء. واقترح على العوام قانونا انتخابيا يوزع كتلتهم الناخبة على الأحياء بدلا من توزيعها كما هو الحال على العشائر البطريقية التي ينتمون إليها[2]".

وحتى تدرك أهمية ذلك التغيير، ينبغي تذكيرك بأنه منذ الاعتصام بحرمة الجبل المقدس سنة 494 ق.م. حصل العوام من البطريقيين على الاعتراف لهم بعدة امتيازات سياسية، وكان منها حق التشريع في كل ما يخصهم من دون غيرهم ومن دون حق للبطريقين في الاعتراض على التشريعات التي تخصهم. فسنوا حينها قوانين تخص تنظيم أحوالهم. كان منها سن قانون انتخاب نوابهم على أساس الكتل الانتخابية العشائرية الثلاثين التي كان يعتمدها البطريقيون سابقا في انتخاب الملك. كان العوام، كموالي لتلك العشائر البطريقية، منتظمين في ثلاثين كتلة انتخابية عشائرية. وكان لكل كتلة صوت في الاقتراع. وكان في اعتمادهم تلك الكتل العشائرية وسيلة للبطريقيين كي يتدخلوا في انتخاب نواب العوام بتعليمات منهم لمواليهم كي يصوتوا على ولو على واحد ممن يحبون هم من المرشحين للنيابة عن العوام، حتى يكون بإيعاز منهم معارضا لقرارات زميله التي لا تعجبهم.

وللتقليل من تأثير تدخل البطريقيين في انتخابات العوام اقترح عليهم نائبهم Voléron الجديد توزيع ناخبيهم على دوائر روما الواحد والعشرين، بمقدار صوت لكل دائرة. بذلك يكون الناخبون العوام موزعين على أربع دوائر بداخل أسوار المدينة وسبعة عشر دائرة بأريافها. مع العلم أن غالبية البطريقيين كانوا موزعين فقط على الدوائر الأربعة بالمدينة. بذلك لن يبقى للبطريقيين وسيلة للتأثير في انتخاب نواب العوام سوى عبر تلك الدوائر الأربع من بين واحد وعشرين دائرة بكامل تراب روما. كان من حق العوام تغيير ذلك التقطيع الانتخابي فيما بينهم من دون حق للبطريقيين كي يعترضوا عليه. لكنهم كانوا يتوقعون منهم إفشال التصويت عليه حتى بالقوة والعنف، كما حصل مع النائب الذي اغتالوه المرة الفارطة. ولا

---

[1] ويعني النبلاء البطؤقيين في شخص القنصل
[2] وسمي هذا القانون باللاتينية *Lex Publilia Volerونis* أو *Plebiscitum Publilium* *باسم النائب Voléron*

شك أن نائبهم Voléron كان يريد اكتساب رضا البطريقيين على مقترحه ولو كارهين، بدلا من إثارة الفتن مرة أخرى بين الفئتين.

فيقول تيت ليف : "لم يكن ذلك القانون المقترح من دون أهمية، ولو كان في ظاهره غير مثير للشكوك. إلا انه سينزع من البطريقيين إمكانية التصويت بواسطة موالي عشائرهم من العوام على من يحبون من المرشحين للنيابة عنهم. هذا المقترح المفيد للمستضعفين حاربه البطريقيون بكل ما أوتوا من قوة. حرمانهم من التأثير في انتخاب من يرضيهم من نواب العوام أثار جدلا واسعا بينهم، فماطلوا به كي يُنسى، لكن من دون جدوى".

"وفي السنة اللاحقة أعيد انتخاب Voléron نائبا عن العوام. فظهر لمجلس الشيوخ أن هذا الصراع لا بد من أن ينتهي بمعركة تقتضي الحسم. انتخب البطريقيون من آل أبيوس قنصلا، بالنظر لما عُرفت به أسرته من شدة العداء للعوام. من بداية السنة لم يكن هناك حديث سوى عن ذلك القانون، الذي لاقى من Laetorius زميل نائب العوام Voléron، حماسا جعل منه زعيم المدافعين عنه، والذي كانت له جرأة مكتسبة من بطولاته العسكرية، حتى أنه كان يعتبر أشجع رجال قرنه. لما رأى زميله صاحب المقترح متحرجا من كل هجوم على القنصل المتغطرس والبشع السيرة مع العوام بدأ ولايته باتهامه وبتقديمه لعدالة الشعب. ادعى أن البطريقيين لم ينتخبوا في شخصه قنصلا وإنما انتخبوا جلادا لفئة العوام من أجل تعذيبهم. وبما أنه كجندي كان غير متعود على الخطابة، لم يكن له لسان يسعف ما فيه من جرأة وشجاعة. فقال باقتضاب شديد "أيها الرومان بما أنني لا أجيد الكلام بقدر ما أجيد العمل، كونوا هنا على موعد معي، فأموت أمام أعينكم أو يتم التصويت على القانون"".

"في يوم الغد احتل نواب العوام منابر الخطابة بالساحة العامة واجتمع فيها القنصلان والبطريقيون بمقر مجلس الشيوخ للاعتراض ولو بالعنف على تمرير ذلك القانون. صاح نائب العوام Laetorius يأمر الجموع بإخراج كل من لا حق له في التصويت[1] من الساحة العامة. كان هناك بعض شباب البطريقيين الذين رفضوا الامتثال للأمر، فأمر نائب العوام Laetorius بالقبض على بعضهم. اعترض القنصل أبيوس على أمره، بحجة أنه لا سلطان له سوى على العوام، وأنه ليس رجل دولة بالنسبة لكل الشعب، وإنما هو رجل دولة خاص بالعوام. حتى هو بصفته قنصلا لا يستطيع إجبار أي مواطن على الانصراف من الساحة العامة. بل بحسب الأعراف والأصول يقال "انصرفوا أيها المواطنين من فضلكم"".

"كان من السهل إحراج النائب Laetorius بأمور تتعلق بالقانون ولو بشكل غير دقيق. إلا أنه استشاط غضبا وأمر بالقبض على القنصل نفسه. ورد القنصل بأمر حارسه بالقبض على النائب وهو يصيح بأنه مجرد مواطن عادي من دون لا سلطة ولا نفوذ. ما كان النائب ليُوقّر لولا أن تلك الجموع الغفيرة من حوله انتفضت بقوة ضد القنصل ووقفت بجانب النائب، مدعومة بمجموعات أخرى هرعت إلى الساحة العامة من كل أنحاء المدينة".

"مع ذلك تصدى القنصل أبيوس لتلك العاصفة بصلابة مزاجه. كاد الدم يسيل لولا أن تدخلَ القنصل زميله الذي استعمل معه القوة لإخراجه من الساحة العامة وإبعاده عنها. ثم تدخل بتوسلاته لتهدئة تلك الجموع الهائجة، وتوسل لنواب العوام كي يفضوا ذلك الجمع العام. صارت الحاجة ماسة لمهلة من الزمن، ليس لتنقص شيئا من سلطة مجلس الشيوخ والقنصل، بل لتضيف الحذر لقوتهما، وذلك حين يُظهر مجلس الشيوخ توقيرا للعوام ويُظهر القنصل احتراما لمجلس الشيوخ. تعب القنصل زميل أبيوس في تهدئة الجموع. وتعب أكثر البطريقيون في تهدئة القنصل أبيوس نفسه. فُض أخيرا الجمع العام للعوام من دون تصويت على قانونهم".

وذلك هو بالضبط ما كان يخشاه النقيب ڤوليرون صاحب المقترح من اندفاع وحماس زميله. من دون نيل رضا البطريقيين كان، كما ظهر، من الصعب التصويت عليه ولو أنه ليس من حق البطريقيين مبدئيا ونظريا الاعتراض على سن العوام لأي قانون يخصهم من دون غيرهم. اعتراض البطريقيين لم يتم بالقانون وإنما بالتهديد وباستعمال العنف وحتى بالقتل كما حصل مع اغتيال النائب السابق. لكن غلبت أخيرا الحكمة عند البطريقيين على العناد والعنف، وتم السماح للعوام بالتصويت على قانونهم. تفصيل ذلك في المادة التالية.

ثم يقول تيت ليف : "استدعى القنصلان مجلس الشيوخ للاجتماع، وبدأت الجلسة بجدل صاخب. مع مرور الوقت هدأت النفوس، وغلب التفكير الرزين على الغضب الهائج. تخلى أخيرا الجميع عن الاستمرار في المواجهة مع العوام، وأثنوا على المواقف التوفيقية التي اتخذها القنصل زميل أبيوس لتهدئة الأوضاع. وتوسلوا لأبيوس كي يقبل بأن

[1] يعني إخراج كل البطريقيين

هيئة القنصلية ليس لها من القوة سوى تلك التي تنسجم مع التوافق والوفاق، وإلا انهارت الجمهورية نفسها لما يتجاذبها القنصل ونائب العوام كل لجهته، ولمُزقت الدولة حين لا يفكر كل طرف في الحفاظ عليها، وإنما يفكر فقط في قبضة يد من تكون".

"مع ذلك ظل القنصل أبيوس على موقفه وهو يقول بأنه يُشهد الرجال والآلهة على خيانة الجمهورية وعلى التخلي عنها بجبن، وعلى أن الذي نقص القنصل هو دعم مجلس الشيوخ، وليس مجلس الشيوخ هو الذي افتقر لدعم القنصل، وعلى أن البطريقيين يخضعون لقوانين أكثر قسوة من تلك التي سنها العوام بالجبل المقدس. لكنه وجد نفسه وحيدا أمام موقف معارض بإجماع أعضاء مجلس الشيوخ، فسكت. سُمح أخيرا للعوام بتمرير ذلك القانون الانتخابي الجديد من دون معارضة. حينها وللمرة الأولى انتخبت الدوائر الانتخابية الواحد والعشرين النقباء الجدد. بحسب المؤرخ بزون، تضاعف في تلك الظروف عدد النقباء المنتخبين، فانتقل من نقيبين إلى أربعة ، وأعطى حتى أسماءهم".

والترجمة الحرفية لكلمة tributes هي القبلية. لكنها كانت تعني الدوائر الانتخابية الترابية أي الأحياء بمن فيها من بطريقيين وعوام. ولهذا ترجمنا les comices tributes بالدوائر الانتخابية كبديل عن هيئات العوام العشائرية التي كانت تتيح للبطريقيين التدخل في انتخاب نوابهم.

فتآكل بذلك شيء من نفوذ الحزب البطريقي الأرستقراطي الحاكم لصالح خصمه حزب العوام الديمقراطي المعارض. والحزبان سيظلان متواجدين معا في العالم الحديث الذي يُعتقد أنه ديمقراطي صرف. في حين هو أرستو-دمقراطي. فقط في روما كان الحزب الأرستقراطي يحكم بوجه سافر عبر مجلس الشيوخ والطبقة الأولى من الهيئات الميئية. أما اليوم فلا يزال يحكم بكل العالم الحديث عبر الأحزاب السياسية وعبر تحكمه في الإعلام، لكن من وراء الستار. أفراده لا يصوتون في الانتخابات وهم قلة. لكنهم بواسطة الإعلام الذي يتحكمون فيه بشكل أو بآخر وبتمويلهم لحملات الإحزاب الانتخابية، يتحكمون في تصويت باقي الناخبين ويوجهونه لما يخدم مصالحهم. وحسبك في ذلك لوبيات صناعة وتجارة الأسلحة بالولايات المتحدة التي بنفودها لا تزال تمنع التصويت على أي قانون مضاد لحرية حمل السلاح. وذلك بالرغم من المآسي المتكررة التي تتسبب فيها ومن رغبة غالبية الأمريكيين في مثل ذلك القانون. بشكل أو بآخر الحزب الأرستقراطي هو الحاكم من وراء الستار. وفي المقابل المجتمع المدني هو حقيقة الحزب الديمقراطي المعارض. والاستقرار رهين بشيء من التوازن بين نفوذ كل منهما. فلو غلب الحزب الاستقراطي الحاكم لاستحال النظام إلى استبداد. ولو غلب الحزب الديمقراطي المعارض لاستحال الوضع إلى فوضى وتسيب لا ينهيه سوى استبداد مطلق. وهكذا الأمور بروما ما كانت لتهدأ بهزيمة الحزب الحاكم. فدخل الطرفان في الرد على ابتزاز بابتزاز أقوى منه وعلى انتقام بانتقام أشد. حصل ذلك هذه المرة بين الحزبين وفي ساحة الحرب ضد الأعداء. وذلك هو موضوع المادة التالية.

يقول تيت ليف : "لما قامت الحرب إثر تلك الأحداث الداخلية ضد بعض الجيران انتقاما منهم بسبب ما ارتكبوه من نهب وتخريب بأراضي روما، خرج القنصل أبيوس إليهم بجيشه. خرج وقد كان يحز في نفسه أن انتصر عليه العوام في السياسة، وهو الشرس في الحرب، وهو الذي كان أكثر كرها للعوام من أبيه. كان يحز في نفسه أن مر ذلك القانون الذي يبغضه، وبالضبط في الولاية التي جاء به فيها البطريقيون لمنع تمريره. كان يحز في نفسه أكثر أن نفس القانون لم يمر في ولايات من قبله من القناصلة مع بدلهم أقل جهد منه لمنعه، وفي الوقت الذي كان فيه البطريقيون يشككون في قدراتهم على المقاومة. كل هذه المشاعر من الغضب والسخط حملت مزاجه العنيف على التعامل بكل أشكال القسوة مع العوام في جيشه. لكنهم واجهوه بالعناد، بقدر ما تزايدت درجات مقاومتهم السياسية له آنفا. كل شيء في سير الجيش صار مطبوعا بالبطء والخمول والتهاون والازدراء. كانت تُشتم فيه رائحة التمرد والانتقام. ما عادت تأثر فيهم لا هيبة القنصل ولا خشية الجنرال. لما كان أبيوس يأمرهم بتسريع إيقاع السير كان يحلو لهم تبطيئه. ولما كان يحث على إنجاز الأشغال كانوا يتلذذون بإيقافها. حتى صاروا يشفقون أحيانا من حال هذا الذي ما زال يصر على كرهه لهم. لما جاء، من دون جدوى، على كل أنواع القسوة، استسلم للواقع وقطع كل اتصال بالجنود. كان يقول أن قواد الكتائب من العوام كانوا يفسدون عليه جيشه، حتى أنه كان يسميهم أحيانا وهو يسخر بذلك منهم بالنقباء : les tribuns[1]، وبالـفوليريين : les Volérons[2]".

[1] نواب العوام
[2] نسبة لاسم نائب العوام فوليرون الذي اقترح قانون الاقتراع الجديد ومرره.

"ولم يكن يخفى على العدو شيء من عناد الجيش مع جنراله القنصل أبيوس. فكان يتمنى أن يصل ذلك العناد إلى حد التمرد على الجنرال والقنصل السابق فابيوس. بالفعل كان عنف الجيش ضد أبيوس أكثر مما تحمله فابيوس. جيش هذا الأخير اكتفى برفض الانتصار. أما جيش أبيوس فقد ابتغى الهزيمة. ما أن اصطف للمعركة حتى انسحب هاربا إلى معسكره هروبا مخزيا. وما توقف إلا حين أثخن العدو في مؤخرة الهاربين من صفوفه. اتخذ قاعدة الاكتفاء بدفع العدو عن سور المعسكر. كان من الواضح أنه قد اكتفى بمنع احتلاله. أما من دون ذلك، فقد كان مبتهجا بعار هزيمته".

"لكن كل ما حصل لم يفتّ في عضد عناد الجنرال أبيوس. عزم على بدل مزيد من الحزم، وهمّ بأمر تجميع الجيش. فهب إليه الضباط ونواب العوام مشيرين عليه بألا يهدر مزيدا من سلطته التي لم يبقى فيها من قوة سوى من استجابة من بقي يطيع أوامره. أخبروه أن الجنود يرفضون تجميع الجيش. منهم من كان يطالب حتى بالرحيل عن المعسكر الموجود بأراضي العدو الذي صار على وشك الانتصار وهو يتقدم نحو أبواب تحصينات جيشه. لم تكن تلك مجرد شكوك في حصول الأسوأ، بل كانت الأدلة عليه واضحة للعيان. تنازل أخيرا القنصل أبيوس عن كبريائه، وألغى أمره بتجميع الجيش وأعلن الرحيل صباح يوم الغد، متوعدا المذنبين بالعقاب. وما أن طلع الفجر حتى أعطت الأبواق الإشارة. وما كاد الجيش ينتشر من حول المعسكر حتى انهال عليه العدو ومزقه شر ممزق، وأثخن فيه قتلا حتى تعب من الجري من وراء الفارين من فوق جثث الجنود المنتشرة وأسلحتهم المبعثرة. جمع أخيرا القنصل ما تبقى من شتات جحافله التي لم يستطع إيقاف فرارها، وذهب ليعسكر خارج أرض العدو. هناك أخذ في عتابهم واحدا تلو الآخر محرجا الجندي الأعزل بقوله : "ماذا فعلت بسلاحك ؟" ونفس الشيء برافعي الأعلام الفارغة أيديهم منها. بل أكثر من ذلك أنزل العقاب بمن تبقى من قواد الوحدات فجلدهم متحسرا على إفلات القتلى من نفس العذاب".

"الجنود من العوام بالجيش الذي كان يقوده القنصل Quinctius زميل أبيوس، كانوا يقاتلون بشهامة وعزم. ذلك بأن جنرالهم كان بطبيعته طيبا مع جنوده، وقد زادت طيبوبته تلك بمقدار ما كان زميليه أبيوس قاسيا مع جنوده. لعلمه بذلك الوفاق بينه وبين جنوده لم يجرؤ العدو من جهته على مواجهته، فتركه يعيث فسادا في أراضيه. ما حصل في حرب أن بلغ النهب ذلك المبلغ. فوهب القنصل الطيب Quinctius كل الغنائم لجنوده، علاوة على الإغداق عليهم بما يحبون من الثناء والشكر. عاد جيشه إلى روما راضيا على جنراله. وبذلك كان راضيا حتى على كل البطريقيين. كان جنود جيشه يقولون "لقد وهبنا مجلس الشيوخ أبا، بينما وهب للجيش الآخر جلادا"".

"تلك كانت النكسة المتبوعة بالنصر، وتلك كانت الخلافات الرهيبة التي اشتعلت بروما ثم بالمعسكر. بل أكثر من ذلك، اعترف البطريقيون للعوام بقانون الدوائر الانتخابية. كل ذلك جعل من هذه السنة (471 ق.م.) سنةً متميزة من عمر الجمهورية. النصر الذي أحرزه العوام في الصراع الذي خاضوه مع البطريقيين أعطاه أهمية أكبر من الامتيازات التي حصلوا به عليها. فهو نصر عزز من الثقل السياسي للعوام من دون إضعاف سلطة مجلس الشيوخ".

بل الأهم من كل ذلك والاستثنائي، كان هو طبيعة ذاك الصراع العمودي بين عشق العوام المستضعفين للحرية والعدل والمساواة من جهة وتشبث كبار البطريقيين المترفين بالهيمنة والاستبداد من جهة ثانية. الدرس الذي تعلمه البطريقيون من تلك الأحداث هو التمييز بين تصرف الجنود العوام مع كل من القنصلين في ميدان الحرب بما يستحقه بعفوية تامة. تعلّم البطريقيون من العوام كيف ينبغي احترامهم وتقديرهم، وإلا كان ثمن الإصرار على الاستخفاف بهم وعلى كرههم باهظا. لكن هذا لا يعني أبدا أن ذلك الصراع قد انتهى، بل بالعكس من ذلك وكما سنرى لاحقا، فهو ما يزال في بداياته. سوى أن الكبار قد تعلموا أنه، بمعيار الربح والخسارة، كان التوافق من أجل التعايش الضروري مع العوام أفضل لهم من التطرف في العنف والهيمنة، وإلا خسروا الجمهورية نفسها التي انتزعوها بشق الأنفس من آل الملك طاركان المتغطرس. وذلك هو ما سيحصل مرة أخرى بمحاكمة القنصل السابق بتهمة التهجم على مؤسسة النيابة عن العوام

يقول تيت ليف : "كانت هذه السنة (470 ق.م.)، أكثر تجاذبا بين الفئتين بسبب الاحتجاجات على توزيع الأراضي المحتلة على الجنود من العوام، ولا سيما بسبب محاكمة القنصل المشاكس أبيوس. بما أن هذا المعارض الشرس لذلك التوزيع كان يدافع عن ملاك الأراضي المحتلة بعنجهية وكأنه قنصل ثالث، رفع أحد النقيبين دعوى ضده أمام محكمة الشعب. لم تعرف المحكمة متهما أكثر منه بغضا للعوام. استطاع بوقاحته أن يضيف إلى كراهيتهم له كراهيتهم لأبيه. لم يسبق للبطريقيين أن وقفوا إلى جانب غيره مثلما وقفوا معه. ثم ها هو ذلك الرجل المدافع عن مجلس الشيوخ وعن جلال هيبته والمستعد للوقوف دائما في وجه أحزاب العوام، يجد نفسه عرضة لتشفيهم، ليس لشيء سوى بتهمة تعدي الحدود في الخطاب".

"فقط أبيوس، هو الذي، من بين كل البطريقيين، لم يكن يقيم وزنا للنقباء ولا لعموم الشعب. فلا تهديدات جموع العوام ولا توسلات مجلس الشيوخ استطاعت أن تخيفه وتجعله يتذلل للمحكمة. ما استعطفها ولا استبدل ملابسه ولا حتى خفف من لهجته الحادة حين مرافعته أمامها. بل واجهها بنفس الثقة في النفس والأنفة التي كانت لا تفارق محياه، حتى صار جزءٌ من الجموع الحاضرة يرتعش أمام أبيوس المتهم أكثر مما كان يرتعش أمام أبيوس القنصل. أخذ الكلمة مرة واحدة للدفاع عن نفسه، وبلهجة كلها اتهام كعادته في كل الظروف. اندهش العوام ونقباؤهم من قوة ثباته، لدرجة جعلتهم يقررون من ذواتهم تأجيل المحاكمة. ثم عملوا من بعد ذلك على مماطلة القضية. لكن ليس طويلا، لأن أبيوس مات من المرض قُبيل وصول موعد استئناف النظر في قضيته بالمحكمة. حاول أحد نواب العوام منع تلاوة تأبين جنازته، لكن عموم الشعب كره أن يُحرم هذا الرجل الكبير في آخر يومه من هذا التشريف العظيم. فسمع الثناء عليه بنفس الأذن الصاغية التي كان يسمع بها اتهاماته طيلة حياته. بل أكثر من ذلك، فقد رافق جنازته إلى مثواه الأخير في جموع غفيرة".

"وانتُخب هذه السنة (467 ق.م) آخر فرد من آل فابيوس من بعد هلاك كل من تبقى منهم في الحرب الأخيرة. وانتُخب للمرة الثانية Aemilius[1] زميلا له. سبق له في ولايته الأولى أن اقترح توزيع أراضي على الشعب. استبشر المؤيدون لذلك المشروع خيرا. كان في مقدمتهم النقباء الذين اعتقدوا، مع انتخاب Aemilius قنصلا، أنهم سيفلحون في ذلك هذه المرة. تقدموا بنفس الطلب الذي سبق أن رُفض دائما مع سابق القناصلة. خاف حينها البطريقيون من ذاك القنصل الذي لم يغير رأيه، والذي يريد في رأيهم اكتساب عطف العوام بسخائه على حساب حقوق غيرهم في امتلاك الأرض، فلجأوا للاحتماء بزميله من تنفيذ نواياه".

" صراع خطير كان على وشك الوقوع لولا تدخل القنصل فابيوس بحل يناسب الطرفين ويضع حدا للأزمة. في السنة الفارطة احتُل جزء من أراضي الفولسك على شاطئ البحر، وبالإمكان أن تستقبل مستوطنين من الشعب من دون إزعاج ملاك الأراضي ومن دون الإخلال بالسلم بالمدينة. قُبل اقتراحه فعين مفوضية سامية من ثلاثة أعضاء للإشراف على التوزيع. نودي على من يريدون الأراضي لتسجيل أسمائهم. إلا أن بُعد المستعمرة عن روما لم يجذب ما يكفي من المرشحين حتى اضطر أعضاء المفوضية استكمال لائحة توزيع أراضيها بأسماء أهل البلد. الباقون من العوام عزفوا عن ذلك العرض لأنهم كانوا يريدون أراضي بروما".

بذلك يكون طمع حزب العوام الديمقراطي قد تجاوز مجرد طلب نصيب لفئته من الأراضي المحتلة إلى طلب نصيبها من أراضي روما نفسها وأريافها وبالاقتطاع من ممتلكات البطريقيين أو من الممتلكات العمومية المؤجرة لهم. وامتلاك الأراضي كان يشكل الثروة الأساسية التي على أساسها كان يتم التقسم الميئي عند كل إحصاء. وقد كانت جل الثروة الوطنية بيد كبار البطريقيين بالطبقة الأولى من الهيئات الميئية. وبفضلها كان يتشكل حزبهم الأرستقراطي الحاكم. قضمها وتوزيعها المقضوم منها على العوام كان يعني القضم من نفوذ الحزب الأرستقراطي لصالح خصمه الديمقراطي. يعني ذلك اقتسام السلطة السياسية بينهما باقتسام الثروة. ويعني ذلك تقليص الهوة بين الفئتين بقوة قانون الإصلاح الزراعي. كما يعني ذلك القضاء على نظام الحكم الأرستو-ديمقراطي لصالح نظام حكم ديمقراطي صرف يستوي فيه الجميع وبقوة القانون. فيعني ذلك وبكل بساطة نظام حكم شيوعي. وهو النظام الذي لا يستقيم إلا بحد سيف الاستبداد، بحد سيف الحزب الواحد وليس بقوة الحزب الديمقراطي. وهو نظام حكم تأباه الطبيعة البشرية. وهو النظام الذي بالسعي لفرضه بالقوة تسبب في خراب الجمهورية الرومانية التي عمتها الفوضى في أواسط القرن الأول قبل الميلاد. وما عاد لروما استقرارها سوى بفرض الحكم الاستبدادي الفردي، حكم الأباطرة.

لكن حتى تلك الحقبة من تاريخ روما ظل الحزب الارستقراطي يقاوم القضاء على التفاوت الطبيعي بين فئات الشعب الواحد، وهو يتبع في ذلك فقط حماية مصالحه الخاصة. وظلت تكمن عظمة روما في

[1] كان زميلا في نفس الولاية للقنصل الذي حُكم عليه بالإعدام بتهمة تهديد النظام الجمهوري لما عزم على توزيع الأراضي المحتلة مناصفة على قوم اللاتين والجنود الرومان من العوام. فاعترض عليه واقترح توزيعها كلها على العوام من دون الأجانب.

ذلك التعايش المتوتر بين الحزبين، مع الحفاظ على التوازن في النفود بينهما، وتوسيع دائرة الفئة المتوسطة، وليس في القضاء على فئة الأغنياء من أجل تسويتهم في الوسط مع فئة الفقراء.

وكون فكر نقولا ميكيافلي السياسي ميّال لنظام الحكم الجمهوري، تجده يطرح السؤال عن أيهما أفضل، أهي جمهورية النبلاء aristocratie أم جمهورية الشعب démocratie ؟ ثم تجده يؤيد الثانية، حيث لا يطمع فيها الشعب سوى بالحرية من دون استبداد. والحرية في قاموس ميكيافلي تعني تعايش فئات المجتمع من دون اعتداء فئة على حقوق أخرى. وذلك بخلاف جمهورية النبلاء حيث مخاطر استبداد الكبار بالحكم oligarchie جد وارد. لكنه يستدرك بقوله عن تجربة جمهورية النبلاء بكل من صبارطا اليونانية العتيقة وجمهورية البندقية بإيطاليا في عصره، على أنها حققت الإنجازات العظيمة، وكانت تُطمئن النفوس من خطر الفوضى الذي كانت تجلبه الجمهوريات الديمقراطية.

وبروما الأرستو-ديمقراطية كان توزيع الأراضي المحتلة من صلاحيات القناصلة من دون الحاجة لسنّ أي قانون. لكن طمع العوام في نصيب من الأراضي التي توجد بيد البطريقيين بروما هو ما يصح وصفه بطمعهم في الإصلاح الزراعي. لكنه كان بحاجة إلى سن قانون يجيزه. وهذا التطور في مطالب العوام هو بلا شك أشد ما كان يخشاه البطريقيون لما كان يتم الحديث عن مجرد توزيع الأراضي المحتلة. لكن لا سبيل لسن قانون يجيز ذلك الإصلاح سوى بمساومة العوام للبطريقيين بما كانوا يكرهون من مثل الاعتصام مرة أخرى بالجبل المقدس وشل الحياة بالمدينة وبأريافها. سن القوانين كان عمليا بيد الطبقة الأولى من الهيئات المئينة Les comices centuriates حيث السيطرة كانت للبطريقيين من كبار ملاكي الأراضي بروما. وتعجب كيف تم انتخاب نفس الطبقة الأولى للقنصل Aemilius المتحمس لتوزيع الأراضي على العوام. أمر لم ينتبه له المؤرخ تيت ليف فلم يفسره. اللهم ترشيحه من دون غيره من طرف القنصلين السابقين. سوى أن حربا فُرضت على روما، وربحها الرومان مع غنائم عظيمة، فأجّلت الأزمة مرة أخرى إلى وقت لاحق.

وفي سنة 465 ق.م. تم إحصاء المواطنين الرومان le cens، ككل خمس سنوات. فكان تعدادهم مائة وأربعة وعشرين ألف وسبعمائة وأربعة عشر مواطنا [124 714] من الرجال فقط. على أساس ذلك الإحصاء كان يتم توزيع المواطنين على الطبقات الخمس بالهيئات المئينة Les comices centuriates. أما السنة 464 ق.م. فقد كانت كارثية بكل ما في الكلمة من معنى. نعفيك من ترجمة تفاصيلها الطويلة، ونلخصها لك في بعض الكلمات. ضرب روما تلك السنة وباء لم تعرف له مثيل من قبل. هلك فيه الحرث والنسل. مرضه المعدي أكل الرجال قبل المواشي، ولا سيما بأرياف المدينة. مات من جراء الوباء قنصلان وعدد كبير من أعضاء مجلس الشيوخ. تزامنت تلك الكارثة مع مخاطر غزو خارجي وجد المدينة من دون دفاع عنها وكاد يحتلها العدو لولا أن القدر صده عنها من بعد ما رأى ما لحقها من خراب، فتحول عنها طمعا في نهب بلاد أخرى كانت سليمة ووفيرة بالمغانم.

وتقول الرواية أن من تبقى من أعضاء مجلس الشيوخ طلبوا من النساء ملء المعابد للتوسل فيها للآلهة كي تكف غضبها عن المدينة. بدأت فعلا الأزمة تخف طيلة سنة 463 ق.م. ثم استعادت الدولة عافيتها وقواتها. لما حلت سنة 462 ق.م. انتخبت الهيئات المئينة قنصلين جديدين. فجهزا للتو جيشين، وتركا محافظا ينوب عنهما بالمدينة، وخرجا للانتقام لروما ممن تجرأ على الاعتداء عليها خلال محنتها. وأحرزا انتصارات وغنما غنائم وفيرة. وبينما هما في حملتهما العسكرية عادت المشاكل السياسية للواجهة مع أحد نواب العوام. عاد ذلك الصراع السياسي الصحي بين الحرية والاستبداد. عاد مع مطلب حزب العوام الديمقراطي المعارض بالحد من سلطات الحزب الأرستقراطي الحاكم عبر تقنين سلطة القنصلين القضائية. ما الإشكال الداعي لذلك ؟

كانت ممارسة القضاء العادي من اختصاص القنصلين. لكنهما ما كانا مقيدين في ذلك بقانون مدني ولا قانون جنائي معلوم للمواطنين. فكان العوام يشعرون بأنهم عرضة لأحكام اعتباطية وخاضعة فقط

لأمزجتهما. لهذا تقدم نوابهم باقتراح قانون على هيئاتهم الترابية يجعل ممارسة القضاء خاضعة لقوانين مدنية وجنائية معلومة للجميع وملزمة للقنصلين للحد من سلطاتهما. لكن البطريقيين كانوا يستفيدون من أحكامهما الضبابية كورقة ضغط على خصومهم من العوام. فما كانوا مستعدين للتخلي عنها. وانبرى حزبهم الحاكم لمقاومة ذلك القانون المقترح على هيئات العوام الترابية كسلطة تشريعية ملزمة للجميع. واحتدم بسببها الصراع بين الفئتين.

مقترح قانون يحد من سلطات الحزب الحاكم

يقول تيت ليف : "كالعادة، مع الانتصارات العسكرية بالخارج تعود الفتن بالداخل. في سنة سنة 462 ق.م. استغل نائب العوام Térentilius غياب القنصلين وهاجم مؤسستهما بوصفها رمزا لغطرسة ووقاحة البطريقيين. ذلك بالنظر لما كان لها من سلطة مفرطة ومن نفوذ لا يطاق في دولة حرة. كان يقول أن إسمهما لا يقل فظاعة عن سلطتهما التي كانت أكثر إثارة للاشمئزاز من سلطة الملك. وهما سيدان بدلا من واحد. لهما نفوذ مطلق من دون لا رقابة ولا حدود. لكونهما مستقلين وغير مقيدين بقوانين، يعيش الشعب تحت رهبة الخوف مما بيديهما من قوانين وعقوبات. ولوضع حد لهذا التسيب في نظره، اقترح على جموع العوام تعيين خمس مواطنين لكتابة مشروع قانون يحدد صلاحيات مؤسسة القنصلية، ولما يخوّل الشعب برضاه للقنصلين حقوقا على نفسه، فلهما حينها فسحة استعمالها، ولن تبقى على الأقل حينها أهواؤهما هي القوانين".

"خشي البطريقيون من أن يساعد غياب القنصلين على فرض ذلك النير على رقابهم. فبادر محافظ المدينة الذي ينوب عنها باستدعاء مجلس الشيوخ. وهاجم فيه بقوة المقترح وصاحبه. حتى في حال ما كان القنصلان مع ذلك المقترح، ما كانا ليضيفا بذلك رعبا إلى ما فيه من رعب. ثم قال: "انتهز ذاك النائب الفرصة ليقوم بتلك الخطوة المغوية للعوام كي يهجم على الجمهورية. ولو أنه ظهر السنة الفارطة، لمّا كانت روما تحت وطأة الوباء وهجوم الأعداء، ما كان حينها من حاجز عنه ليحول دون تدميرها. فقط من بعد موت قنصلين وغياب الحاليين، وفي خضم الفوضى العارمة بالمدينة، تجرأ هذا النائب على تقديم اقتراح يسلب مؤسسة القنصلية سلطتها ونفوذها. لو كان قائدا للأجانب الأعداء لما تردد في الهجوم على المدينة. كيف يزعم ما زعم ؟ إذا ما كان مواطن عرضة لغطرسة وطغيان القنصلين، أليس هو حرا، بصفته نائبا عن العوام في اتهامهما وفي تقديمهما للمحاكمة أمام المواطنين الذين تنتمي لفئتهم الضحية ؟ ليست سلطة القنصلين هي المفرطة والتي لا تطاق، بل نفوذ مؤسسة النيابة عن العوام. لقد جاء هذا النائب ليعيد لها سطوتها القديمة من بعد ما هدأت وتصالحت مع مجلس الشيوخ". وقال أخيرا أنه لم يأتي متوسلا له كي يتخلى عن مشروعه"".

"ثم توجه لباقي نواب العوام يقول لهم : "أنتم زملاؤه، تذكروا أن مؤسستكم وُجدت لحماية المواطنين وليس لتخريب الدولة. أنتم نواب العوام، ولستم أعداء مجلس الشيوخ. لنا نحن كل الألم، ولكم أنتم فظاعة الجرأة للهجوم على جمهورية من دون دفاع. بالتقليل من كراهيتكم لها لن تخسروا شيئا من حقوقكم. اعملوا إذا على منع زميلكم من الشروع في تنفيذ مخططه قبل قدوم القنصلين. حتى الأعداء لما رأوا الطاعون قد حصد أرواح قنصلين خففوا من هجومهم على روما من دون دفاع".

"أقنع باقي النقباء زميلهم Térentilius بتأجيل مشروعه وسحب مقترحه، واستُدعيّ القنصلان للعودة حالا إلى روما. رجع قنصل محملا بغنائم وفيرة وبمجد أكبر. ورفع من بريقها بعرضها بميدان مارس. ثم لمدة ثلاثة أيام جاء الجنود ليأخذ منها كل منهم نصيبه. ما تبقى تم بيعه ودفع ثمنه لخزينة الدولة. وبالإجماع تقرر الاحتفال بنصر القنصل. لكنه طلب تأجيله إلى حين تصفية قضية النائب الذي قدم حينها مقترحه للمداولة بين جموع العوام وبمجلس الشيوخ. إلا أن النائب تراجع أخيرا عن خطوته أمام جلال مؤسسة القنصلية، وتم الاحتفال بالنصر".

"لكن في بداية سنة 461 ق.م. وفي مواجهة للقنصلين الجديدين، تقدم مجموع نواب العوام بمقترح قانون النائب Térentilius[1]. حينها انتشرت أخبار ظهور خوارق تنذر بهجوم أجنبي شرس على روما. الكهنة المؤولون لمثل تلك النذر كانوا يقولون أنه يجب اجتناب كل شقاق بين المواطنين. زعم نواب العوام أن ذلك كان مجرد مكيدة من تدبير البطريقيين المعارضين لمقترحهم، وصارت بوادر صراع عنيف تلوح في الأفق".

---

[1] وهوالقانون المعروف باللاتينية La Lex Terentilia بإسم نائب العوام Caius Terentilius Harsa لذي اقترحه

"ثم فجأة، وككل سنة كانت تأتي بنفس الأحداث، جاء خبر من الحلفاء أن شعبي الفولسك والإيك يتأهبون للحرب. قرر مجلس الشيوخ النفير العام وأمر بتجهيز جيشين ليخرج كل من القنصلين على رأس أحدهما، واحد صوب الفولسك والآخر صوب الإيك. لكن نواب العوام بقوا في الساحة العامة يندِّدون ويصيحون قائلين : "هذه الحرب ضد الفولسك والإيك مجرد خرافة وخدعة. من جاء بالخبر من الحلفاء لعب فيها دوره. بما أنه لم يعد من الممكن سحق حرية الشعب الروماني بالقوة، صار يُلجأ للتحايل عليها بالمكر. الشعبان المتهمان بالإعداد للهجوم على روما لم تعد لهما قوات كافية لذلك. لكن مجلس الشيوخ الذي يبحث عن أعداء صار يتهم أهالي المستعمرات بالتحالف معهم، ويعلن الحرب عليهم وهم أبرياء.هو في الحقيقة يعلن الحرب على شعب روما نفسه. بتسليحه للمواطنين وبرميهم في جحافل خارج أسوار المدينة، فهو يعاقبهم بالنفي والنبذ على دعمهم لمقترح نواب العوام. ليس لكل تلك المنوارات من هدف سوى الالتفاف والانتصار على مقترحنا. لكن تضامننا فيما بيننا يدعم شجاعتنا. نحن نواب الشعب كلنا متفقون على أنه ليس هناك أعداء يهددون روما، وليس من خطر عليها بالخارج. الآلهة باركت السنة الماضية دفاعنا على الحرية ". هكذا ظل خطاب نواب العوام عاليا في الساحة العامة".

وهذا تذكير بموقع البلدان المجاورة لروما

"في الجهة المقابلة من نفس الساحة شرع القنصلان في عملية التجنيد. فجاءهما نواب العوام مسرعين ومن حولهم الجموع ليعترضوا على ذلك بالقوة، وبدأ الصراع. لما قبض حارس القنصل على مواطن متمرد، بأمر من سيده، أمره أحد نواب العوام بإطلاقه. انتفى حينها العمل بالقانون، وصار العنف هو السيد لحصول كل رجل دولة على ما يريد. ما قام به نواب العوام للاعتراض على التجنيد، صار يقوم به البطريقيون كل يوم للاعتراض على مقترحهم بين الجموع بالساحة العامة. وانطلقت شرارة الصراع لمّا أعطى نواب العوام الإشارة للبداية في التصويت على المقترح من طرف هيئات العوام الترابية les comices tributes. حينها امتنع البطريقيون عن الخروج من الساحة. وبما أنه لم يوجد الكهول الحكماء حاضرين في تلك المواجهات، غاب الحذر وسادت القوة والمغامرة. حتى القنصلان فضّلا الابتعاد عن تلك الفوضى تحاشيا لتعريض هيبتهما لكل مهانة".

"وكان هناك شاب بطريقي إسمه Céson Quinctius. كان فخورا بعلو منبته وبطول قامته وبقوة عضلاته. كل تلك الامتيازات التي وهبتها له الآلهة، زاد من بريقها براعته الخطابية على المنابر. لا أحد كان أكثر بلاغة منه بروما، ولا أكثر منه إقداما. بوقوفه بين البطريقيين كان يعلوهم بطول قامته. جمع في صوت خطابه وفي قوة جسمه هيبة ومقام كل من مؤسستي القنصلية والديكتاتورية. كان قادرا لوحده على مجابهة عواصف العوام ونوابهم. على رأس مواليه من العوام كان غالبا ما يشتتهم ويطردهم من الساحة العامة. من تطاله منهم يده كان يتركه طريحا على الأرض ومنهكا بالكدمات وملابسه قد صارت مجرد قطع من القماش". وعلق تيت ليف على ذلك بقوله : "من الواضح أنه لو استمر السماح بكذا تصرفات، كان سيتم القضاء على دولة القانون".

ثم زاد قائلا : "حينها تقدم أحد نواب العوام برفع دعوى ضد الشاب Céson Quinctius. حصل ذلك في الوقت الذي أُنهِك فيه من الخوف باقي زملائه. لكن ذاك الشاب البطريقي المغامر، صاحب المزاج العنيد الذي لا يقهر، ما زاده رفع تلك الدعوى ضده سوى سخطا وإقداما على الاعتراض على المقترح الذي يكره، وعلى التحرش بالعوام وعلى الدخول في حرب مع نوابهم. فتظاهر له هؤلاء بالاستسلام لتلك الحرب كي يوهموه بأنها كانت مشروعة. تركه بالخصوص النائب الذي رفع دعوى ضده، يهوي في المزيد من توريط نفسه بنفسه بما كان يرتكبه من أفعال جرمية، كانت تغذي نار الكراهية والفتنة بين المواطنين".

"ظل نواب العوام يتقدمون باقتراحهم ليس على أمل تمريره، بل فقط للمزيد من استفزاز الشاب Céson Quinctius وتوريطه. مجموع أفعاله وأقواله مع أفعال وأقوال غيره ممن يوالونه كانت تسجل ضده لوحده. على كل حال ظلت معارضة البطريقيين للاقتراح قائمة. كان أحد النواب يقول للجموع : "كيف بكم أيها الرومانيون ؟ ألا تشعرون أنكم عاجزون عن جعل Céson مجرد مواطن مثلكم، وعن الحصول على القانون الذي تحبون ؟ كيف أتحدث عن القانون ؟ بل هو يعرقل حتى الحرية. لقد تفوق بغطرسته على كل آل الملك الطاركان. هل تنتظرون حتى يصبح قنصلا أو ديكتاتورا ؟

هذا الذي بوصفه اليوم مجرد مواطن عادي ها هو يحكم فقط بما له من قوة وجرأة ؟". وكانت جموع من العوام مع هذا الخطاب وهم يشتكون مما طالهم من عسفه. كانوا يشجعون نائبهم على المضي في رفع دعوى ضده وتقديمه للعدالة".

"وبدأ يوم محاكمة الشاب البطريقي Céson يقترب. كان من اليسير الشعور بأن الرأي العام قد جعل إدانته انتصارا للحرية. وأدرك هو أخيرا أن قضيته خاسرة. فجاء للمحكمة متواضعا ومتوسلا. جاءها محفوفا بوالديه وبكبار رجال المدينة للدفاع عنه. تقدم أحدهم، وقد كان قنصلا لثلاث ولايات، من بعد ما قدم للحاضرين أوسمة المجد التي حصل عليها الشاب Céson وعائلته، وقال : "لم يشاهد أسلافي ولا حتى روما، مثل ما لهذا الشاب من همّة عالية ومميزات مبكرة وقوية. باشر خدمته العسكرية تحت قيادتي، وكثيرا ما رأيته مشتبكا مع العدو". ثم قام آخر واعترف بذلك وقال : "كنت يوما في وضع حرج، وأُرسِل إلي Céson، فكان لي خير معين، ولم يكن له مثيل في المساعدة على إنقاذ الجمهورية". ثم أخذ الكلمة مدافعا عنه أيضا قنصل ولاية السنة السابقة، الذي لمع بريقه بالانتصار في أخر حرب، ونسب قدرا منه للشاب Céson، وذكّر ببطولاته في تلك المعارك. ثم دعى الرومان إلى الاقتناع بأن ذلك الشاب الاستثنائي الذي اجتمعت فيه كل الفضائل سيكون له أكبر الأثر على شؤون الدولة مهما كانت أهميتها. وزاد قائلا : "من الأفضل لروما أن تتخذ منه مواطنا وليس عدوا. ما يلام عليه من حماس زائد وجرأة مفرطة سيعمل الزمن على التخفيف منهما. ما ينقصه من حيطة وحذر سينميه كل يوم. مع التقدم في العمر تنقص العيوب بقدر ما تنضج الفضائل. فعلينا أن نترك هذا الرجل العظيم يعمر ويشيخ في الجمهورية". امتنع أبوه عن تكرار ذلك المديح خوفا من إثارة المزيد من الكراهية لإبنه. لكنه التمس العفو عن أخطائه متعذرا بتهور شبابه، وتوسل للمحكمة بأن تترك له ولده هو الذي لم يسبق أن تهجم على أحد لا بالقول ولا بالفعل. لكن بعض المشتكين منه، سواء بسبب الخجل أو الخوف، أعرضوا عن تلك التوسلات. آخرون اعترضوا عليها بسبب ما طالهم وطال أقاربهم من عسف المتهم. بتلك الأجوبة القاسية عبروا على ما سيكون منطوق حكمهم".

"علاوة على العداء العام كان Céson متهما بجريمة محددة. جاء بذلك الاتهام أحد نواب العوام سابقا وقال : "من بعد تفشي وباء الطاعون بقليل وجدتُ مجموعة من الشباب في عراك بينهم. كان من بينهم أخي وهو ما يزال في نقاهة من المرض. لكنه تلقى وكزة من Céson سقط إثرها فاقدا للوعي. أخذته حينها إلى بيتي وظننت أنه قد فارق الحياة. وما كان بوسعي رفع دعوى ضد الجاني خلال كل الولايات القنصلية التي تلت الحادث الفظيع". تعالت أصوات التنديد حتى كاد يكون فيها Céson فريسة لانتقام الجموع الحاضرة. أمر نائب العوام ڤيرجينيوس الذي رفع الدعوى ضد Céson بالقبض عليه وبتكبيله في الحديد. ردّ البطريقيون على ذلك العنف بالعنف. كان أول المتدخلين للدفاع عن المتهم يصيح : "لا يجوز القبض على المتهم قبل إدانته". رد نائب العوام بقوله : "أنا لا أنوي إنزال العقاب بالمتهم قبل إدانته من طرف المحكمة، وإنما فقط وضعته في الحديد إلى حين يوم النطق بالحكم، لأن الشعب الروماني يجب أن يكون على يقين بإنزال العقاب بالجاني القاتل لغيره"".

"تم حينها التوسل لباقي نواب العوام بالاعتراض على تكبيل المتهم في الحديد وإطلاق سراحه بكفالة مالية تضمن للشعب مُثوله للمحكمة يوم النطق بالحكم. وافقوا على الملتمس لكن لم يتفقوا على مبلغ الكفالة. كان من صلاحيات مجلس الشيوخ الفصل في المسألة، فقرر أن يقدم المتهم من يضمنه في مقابل دفع كل منهم كفالة مالية بمقدار ثلاث آلاف as من النقد الروماني. كان من صلاحيات النواب تحديد عددهم، فقرروا رفعه إلى عشرة بطلب من النائب المدعي العام. كان ذلك أول مثال على إطلاق سراح متهم بكفالة مالية بروما. لكن فور خروجه من الساحة العامة، سافر Céson إلى بلاد الإتريسك. لما جاء يوم النطق بالحكم لم يحضر، فتأكد أنه ما ابتعد سوى لاتخاذ تلك البلاد منفى له. أصر النائب المدعي العام على محاكمته غيابيا. لكن المحكمة حُلت من طرف زملائه، وطُلب من أب المتهم الهارب دفع مال الكفالة بكل صرامة، حتى باع لتسديدها كل ما يملك، وذهب منبوذا ليقطن بكوخ معزول من وراء نهر التيبر".

"ثم لما كانت روما تستريح من الحروب مع الجيران ظلت تلهت بتلك المحاكمة ومقترح قانون تحديد صلاحيات مؤسسة القنصلية. اعتبر نواب العوام خضوع الشاب Céson لإرادة الشعب بنفي نفسه، انتصارا على مجلس الشيوخ ومؤشرا على تمرير مقترحهم. الكهول من كبار البطريقيين تخلوا عن إدارة الجمهورية. لكن الشباب منهم، ولا سيما أصحاب Céson كانوا يشعرون بتنامي غضبهم من العوام من دون ضعف في الشجاعة والإقدام. مع انهزامهم، ظل في جعبتهم ما يمكّنهم من تجديد الهجوم".

"المرة الأولى، من بعد نفي Céson، التي عاود فيه نواب العوام طرح الاقتراح للتصويت عليه من طرف هيئاتهم الترابية les comices tributes هجم عليهم شباب البطريقيين في صفوف منظمة مدعومين بجيش من مواليهم من العوام. شتتوا الجمع خارج ساحة الاقتراع في معركة لم يعد فيها لا الشرف ولا الخزي ولا العار لأحد منهم بالتحديد. صار العوام بذلك يشتكون من ألف Céson بدلا من واحد سابقا. في الأيام التي لا يثير فيها نواب العوام مقترحهم كان نفس شباب البطريقيين يظهرون بألطف وأهدأ مظهر. كانوا يعاملون العوام معاملة طيبة، ويكلمونهم ويضيّفونهم في بيوتهم ويدعمونهم

في الساحة العامة، ومن دون تدخل منهم يتركون نواب العوام يباشرون ما يشاءون من مهامهم في جموعهم العامة. ما كان أحد منهم، لا في الحياة العامة ولا في حياته الخاصة، يظهر بمظهر المتهيج سوى عند إثارة موضوع مقترح ذلك القانون. فيما عدى ذلك فقد كان نفس الشباب البطريقي يحظى بشعبية كبيرة. هكذا لم يتمم فقط نواب الشعب ولايتهم من دون مشاكل، بل أعيد انتخابهم من دون اعتراض من أي كان حريصا على تجنب أي عنف. مع مرور الزمن كان اللطف في التعامل يلطف من طباع العوام. بذلك تمكن البطريقيون من تجنب تمرير مقترح نواب العوام طيلة السنة".

وقد عنْون المؤرخ تيت ليف هذه الفقرة بما يلي : "تجدد عرقلة تمرير مقترح قانون تحديد صلاحيات القنصلية" في حين الهدوء الذي حصل بين الفئتين كان نتيجة لتوازن الرعب بين البطريقيين ونواب العوام. البطريقيون تنازلوا عن كبريائهم وهم كارهين، فحسّنوا من معاملتهم للعوام خوفا من عودة تمرير اقتراح نوابهم بتعيين لجنة مفوضة منهم لإعداد قانون يحد من صلاحيات القنصلية. نواب العوام من جهتهم تحاشوا جمع هيئات العوام الترابية لتمرير مقترحهم خوفا من التعرض لمهانة تشتيت تلك الجموع بالقوة من طرف شباب البطريقيين حتى لا يمر ذلك الاقتراح. قد تقول وبحق أن العوام فرضوا بذلك الرعب احترام البطرقيين لهم. بل كان ذلك بالضبط هو الغاية من مقترح نوابهم. لكن لماذا يعترض البطريقيون على تحقيق نفس الشيء بواسطة القانون ؟ السبب في نظرنا كان هو خوف البطريقيين من طمع العوام في المزيد. كلما حققوا مطلبا من الحقوق السياسية ومن الحق في اقتسام الثرة كانوا يطالبون بالمزيد. لكن مطلب الحرية تعدى العوام إلى العبيد. وقد كان من بينهم أسرى الحروب من جنود باقي المدن الإيطالية. فالحرية معدية. لكن ما هومآل انتفاضتهم ضد العبودية ؟

يقول تيت ليف : "كانت المدينة هادئة من بعد انتخاب القنصلين الجديدين. لا شيء جديد ميز هذه السنة (460 ق.م.) عن سابقاتها. تقديم مقترح العوام والاعتراض عليه، هذا كل ما كان يشغل العقول. بقدر ما كان شباب البطريقيين يتقربون للعوام بقدر ما كان نواب العوام يتهمون تصرفاتهم تلك بالمشبوهة. كانوا يقولون أن هناك مؤامرة تحاك وأن الشاب المنبوذ قد عاد لروما، وأن البطريقيين يخططون لمجزرة في حق العوام من بعد تصفية نوابهم، وأن كهول البطريقيين قد كلفوا شبابهم باستئصال مؤسسة النيابة عن العوام من الجمهورية، حتى يعود للدولة نظامها الذي كان قائما قبل الاعتصام بالجبل المقدس. وكانت روما تخشى قرب هجوم الفولسك والإيك كعادتهم كل سنة. لكن ظهر فجأة ما هو أخطر من كل ذلك. قرابة ألفين وخمسمائة من المنفيين والعبيد احتلوا ليلا معبد الكابطول وقلعة روما بقيادة أحد الصابيين. وكانوا يذبحون فورا كل من رفض حمل السلاح والانضمام إليهم".

كان للرق ثلاثة مصادر. أولها كان من داخل روما باسترقاق الدائن للمدين العاجز عن سداد ما عليه من ديْن. وكانا المصدران الآخران من خارج روما، عن طريق استرقاق أسرى الحرب، وبواسطة جلب الرقيق لأسواق النخاسة. أما النفي فكان من العقوبات الجزائية على بعض الجرائم.

ثم يقول تيت ليف : "هرع الناس إلى الساحة العامة وهم يصرخون : "إلى السلاح، العدو بالمدينة". كان القنصلان متخوفيْن من تسليح العوام. بجهلهما لطبيعة الكارثة التي حلت بالمدينة، هل هي أهلية أم أجنبية، هل هي نتيجة لغضب العوام أم لغدر العبيد. كانا يحاولان إطفاء نار الفتنة، لكن ما كانا يزيدانها بذلك إلا اشتعالا. لم يعد لهيبة الدولة سلطان على تلك الجموع المفجوعة والمرتعشة من الخوف. مع ذلك قررا توزيع السلاح لكن بحذر، وبما يكفي فقط لتشكيل قوة قادرة على صد أي خطر وارد من ذلك العدو المجهول. في غمرة ذلك القلق ومن جهل نوعية وعدد العدو، بات القنصلان يوزعان الأماكن المخصصة للدفاع عن المدينة. مع طلوع الفجر ظهرت أخيرا طبيعة ذلك الهجوم وعُرف من كان يقوده. إنهم العبيد الذين يطالبون بالحرية من أعلى جبل الكابطول بقيادة أبيوس Herdonius من الصابيين، الذي جعل من مآسيهم قضيته. كان يطالب بإعادة المنفيين لوطنهم وبتحرير العبيد من نير الاسترقاق. كان يفضل أن يقرر ذلك الشعب الروماني بنفسه. في حال ما لم يحصل على ما يطالب به، كان يتوعد روما ببذل كل ما في وسعه للحصول على ما يريد بمساعدة الأجانب من الفولسك والإيك".

و قول تيت ليف بخصوص القنصلين : "مع ذلك قرّرا توزيع السلاح لكن بحذر، وبما يكفي فقط لتشكيل قوة قادرة على صد أي خطر وارد من ذلك العدو المجهول" يعني أنه ما كان مسموحا بحمل السلاح داخل أسوار المدينة سوى لحرس رجال الدولة، اللهم للدفاع عن الأسوار في حال حصار العدو. كما ينبغي الدولة وحدها كان من حقها احتكار القوة والجباية. أما في حال الاستعداد للحرب فقد كان يتجمع الحيش بسلاحه

بميدان خارجها. ولا يدخلها عند عودته مسلحا. حمل السلاح داخل المدينة من دون أوامر من القنصلين يعد تهديدا لأمنها.

ثم يقول تيت ليف : "حينها صارت الأمور واضحة بالنسبة لمجلس الشيوخ وللقنصلين. لكنهم كانوا يتوجسون من أن يكون ذلك من تدبير شعبي الفيسيين والصابيين. كانوا يخشون من هجومهما على روما بتواطؤ مع Herdonius قائد تمرد العبيد من الداخل. علاوة على الخوف العادي من الفولسك والإيك الذين لن يقنعوا هذه المرة بنهب أراضي المدينة بل بالهجوم عليها لاعتقادهم بأنها في مأزق، ألف وخمسون متمرد معتصم بالكابطول كان يذكي اليقظة والاحتراز من كل العبيد. أصبح كل عبد عدوا محتملا لكل روماني، وهو موجود معه ببيته. كان خطر الثقة في العبد بمقدار الخطر في الحذر منه خوفا من إثارة حب الانتقام فيه. بقى إيجاد حل توافقي للأزمة هو وحده القادر ربما على إنقاذ الجمهورية".

"في خضم تلك الشرور القادمة من كل جهة، لم يكن أحد يفكر في ظهور وتعاظم بُغض العوام ونوابهم للبطريقيين. ما سبق أن برز ذلك الشر إلا في غياب غيره. الخوف من العدو في مثل تلك الظروف كان من شأنه أن يوقفه. مع ذلك فقد كان عداء العوام ونوابهم هو الشر الحقيقي الوحيد في كل تلك الأزمة المأساوية. كذلك كان هذيان النواب. زعموا أنه لم تكن هناك مخاطر حرب حقيقية بل مجرد حرب وهمية. ما كان احتلال العبيد للكابطول في نظرهم سوى مناورة من تدبير البطريقيين لإلهاء العقول عن مقترحهم الهادف لتحديد صلاحيات القناصلة. كانوا يقولون أنه ما أن يصادَق على مقترحهم من طرف هيئات العوام الترابية حتى يجد أولئك المعتصمون بالكابطول، المتواطؤون مع البطريقيين، أنه لم تعد هناك جدوى من اعتصامهم، فينسحبون من مواقعهم ومن دون ضجيج، تماما كما احتلوها أول مرة. فدعوا العوام لطرح السلاح وللالتحاق بالساحة العامة للتصويت على مقترحهم. استدعى حينها القنصلان مجلس الشيوخ للاجتماع، وقد كان خوفهم من تدابير نواب العوام أكبر من توجسهم مما شهدته روما الليلة الفارطة من مخاطر".

"ما أن بلغ القنصل ڤاليريوس خبر طرح الجنود من العوام للسلاح ومغادرتهم لأماكن الحراسة، حتى ترك زميله يترأس اجتماع مجلس الشيوخ، وانطلق هو إليهم بساحة المنتدى وصاح قائلا : "ما قولكم أيها النواب ؟ هل تريدون إسقاط الجمهورية بتحالفكم مع زعيم المتمردين هيردونيوس ؟ هل توفّقَ ذلك الصعلوك في إفسادكم من بعد ما أفسد عبيدكم ؟ هل يصح وضع الأسلحة وتقديم المقترحات لما يكون العدو من فوق رؤوسنا ؟". ثم توجه للجموع وقال : "أيها الرومان، إذا كنتم لا تكترثون بسلامة روما وبسلامتكم، فليبقى عندكم على الأقل شيء من الإجلال والتقدير للآلهة المحاصرة بالكابطول من طرف العدو. بذلك الحصار تدنس جماعة من العبيد مقدسات الوطن. ألا ترون أن الأمة مصابة بالجنون ؟ يوجد آلاف الأعداء بين جدراننا، بل يحتلون القلعة من فوق الساحة العامة ومقر مجلس الشيوخ. مع ذلك تجتمعون أنتم للتصويت على مقترحكم بنفس الساحة العامة ، ومجلس الشيوخ يجتمع للمداولة بنفس المقر. السيناتور هناك يعطي رأيه وكل واحد منكم يدلي هنا بصوته وكأنكم في حال السلم. أليس من الأفضل للجميع بطريقيين وعوام، قناصلة ونواب، آلهة ورجال، حماية روما بالسلاح والانطلاق إلى الكابطول لتحريره وإعادة السلام لهذه المدينة العظيمة موطن الإله جوبتير الطيب والكبير. يا أبانا روميلوس، يا من استرجع الكابطول من بعد بيعه للصابيين بالذهب، ألهم شجاعتك لأبنائك، وأرنا السبيل حيث ينطلق جيشك على خطاك. ها أنا القنصل الأول مستعد للسير من ورائك بقدر ما يستطيع مخلوق اتباع إله كي يمشي على خطاه"".

"ثم أنهى خطابه مهددا: "أنا أحمل السلاح، وأدعو جميع الرومان لحمل السلاح. من يعترض لا يدري من سيلاحقه قضائيا، هل هي السلطة القنصلية أم النيابة عن العوام أم القوانين المقدسة. حيثما وجد المُعارض، هناك بالكابطول أو هنا بالساحة العامة، فسيُعتبر عدوا. نواب العوام الذين يمنعون حمل السلاح ضد Herdonius زعيم المتمردين، فليجرؤوا على حملها ضد قنصلهم Publius ڤاليريوس، الذي سيجرؤ هو حينها ضدهم على ما تجرأ عليه زعيم قومه من البطريقيين ضد الملوك"".

يقول القنصل : "يا من استرجع الكابطول من بعد بيعه للصابيين بالذهب"، فإنه يومئ إلي قصة بنت قائد قلعة روما في عهد روميلوس التي أغراها الصابيون بالذهب كي تساعدهم على اقتحامها واحتلالها. الاستشهاد بمثل تلك الأحداث واستحضارها في الخطب والمناسبات يعني أن الرومان ظلوا على مر العصور شديدي الاهتمام بتاريخ مدينتهم وبتاريخ من حولهم، وظلوا بلا شك يدونونه ثم يدرّسونه لأبنائهم جيلا من بعد جيل حتى وصل بمثل تلك التفاصيل الدقيقة في عصور المؤرخين مثل تيت ليف وغيره من قبله. وهو ينهل من ذلك الثرات كما وصله بغَثه وسمينه، تراه يعلق على بعض الأخبار لما يرى فيها ما يستحق ذلك. وبقول القنصل ڤاليريوس لنواب العوام : "سيجرؤ ضدهم على ما تجرأ عليه زعيم قومه من البطريقيين ضد الملوك"، كان يقصد بذلك ثورة الأمير بروتوس على الملك طاركان المتغطرس وخلعه من

العرش، والقضاء حتى على الملكية نفسها. بمثل هذا كان القنصل يهدد مؤسسة النيابة عن العوام، إن هي بقيت على موقفها.

ثم يقول تيت ليف : "بالنسبة للعدو لم يكن من سبيل لتفادي المواجهات. كل مقومات الثورة كانت قائمة. مع ذلك ما استطاع نواب العوام تمرير مقترحهم ولا القنصل استطاع السير بجيش للكابطول المحتل. ثم جاء الليل ليهدّئ من أجواء المواجهة التي كانت على وشك الوقوع. انسحب نواب العوام من الساحة العامة بحلول الظلام خوفا من سلاح القنصلية. لما تحررت الساحة من المحرّضين على التمرد، تسلل البطريقيون للعوام ينشرون بينهم خطابا متناسبا مع الظروف القائمة. كانوا يُشعرونهم بالمهالك التي كانوا يعرضون الجمهورية إليها. كانوا يقولون لهم أن الأمر لم يعد ينحصر في نزاع بين البطريقيين والعوام، بل كانوا على وشك من أن يتخلوا للعدو عن مجلس الشيوخ وعن قلعة روما وعن معابدها ومقدساتها ومقدسات كل مواطن والشعب نفسه. لما كان البطريقيون هكذا يهدئون الأوضاع بالساحة العامة انطلق القنصلان بمن معهما إلى الأبواب والأسوار تحسبا لأي هجوم من الخارج".

"في نفس الليلة وصل حلفاء الرومان بمدينة Tusculum، خبر احتلال القلعة والكابطول والفتنة الداخلية وغيرها من الأحداث المؤسفة التي تتخبط فيها روما. كان حينها Lucius Mamilius ديكتاتورا بها. جمع مجلس شيوخها وأدخل عليهم من جاءه بتلك الأخبار. ثم خطب فيهم قائلا : "يجب ألا ننتظر قدوم مبعوثي روما كي يطلبوا منا المساعدة. هلاك روما ووضعها الحرج والآلهة والوفاء بالعهود وبالمواثيق، كل ذلك يطالبنا بالذهاب لنجدتها. التحامنا اليوم بشعب جار وقوي كالرومان، بفضل تلك الخدمة، هي هبة من الآلهة لن تعوض مرة أخرى". تقرر حينها بعث المساعدة، وتم تجنيد الشباب مع توزيع السلاح عليهم. ولما رآهم الرومان مع طلوع الفجر قادمين، حسبوهم الأعداء من الفولسك والإيك. لكن سرعان ما تعرفوا عليهم فتبدد خوفهم وفتحوا لهم أبواب روما، فدخلوها منتظمين حتى الساحة العامة. هنالك شرع القنصل ڤاليريوس في تشكيل صفوف جيشه. مع استقوائه بمن جاء، ووعد الرومان أنه، من بعد تحرير الكابطول وعودة السلم، سيكشف الخداع الذي تهدف مقترحات نواب العوام إلى تحقيقه. ثم وفاء لآبائه وتخليدا لتراثهم وحفاظا على مصالح الشعب، لن يعترض أبدا على اجتماع هيئات العوام الترابية للتصويت على ما يشاؤون. تحت أوامره وبالرغم من احتجاجات نواب العوام، شرعت كتائب الجيش في الصعود إلى الكابطول".

"التحم جيشا المواطنين والحلفاء في المعركة من أجل استرجاع القلعة. كان كل قائد يذكي حماس رجاله، فاعترى الرعب المتمردين الذين ما كانوا يعتمدون إلا على مناعة الموقع للدفاع عن أنفسهم. لكن سرعان ما انهاروا لما وصل جيش الرومان لدهليز المعبد، بقيادة القنصل ڤاليريوس الذي أصيب فقُتل. أمر زميله بتغطية جثمانه ثم أخذ هو مكانه. في غفلة من موت قائدهم انتصر جنوده على العدو وقُتل قائد المتمردين Lucius Mamilius. هكذا تدنس المعبد بدمائه. ثم قبض على الأحياء من العبيد ونالوا جزاءهم. تحرر الكابطول وتم تطهيره من الدماء التي دنسته، وذبحت فيه القرابين. وكوفئ الحلفاء بما يستحقون من تشريف. حمل كل من العوام ربع as من نقد روما إلى منزل القنصل الراحل ڤاليريوس لإضفاء المزيد من الهيبة على جنازته".

"لما عاد السلم لروما بادر نواب العوام بالضغط على مجلس الشيوخ للوفاء بوعد القنصل الراحل ڤاليريوس، وبتحذير زميله من الحنث بيمينه، وبترك جموع العوام تصوت على مقترحهم. لكنه اعترض على طلبهم بحجة أنه لم يعدهم هو بشيء من ذلك ولا يلزمه قسم زميله. امتدت تلك التجاذبات إلى حين انتخاب قنصل جديد مكان القنصل الراحل. بمجهودات من البطرقيين انتخبت الهئات الميئية، مكانه قنصلا Lucius Quinctius Cincinnatus، وهو والد Céson الشاب البطرقي الثائر سابقا ضد العوام والمنفي بسبب ذلك ببلاد الإتريسك".

والقنصل الجديد Lucius Quinctius Cincinnatus وهو الذي طُلب منه السنة الفارطة دفع مال الكفالة بكل صرامة، حتى باع لتسديدها كل ما يملك وذهب منبوذا ليقطن بكوخ معزول من وراء نهر التيبر. كما سنرى لاحقا فإنه لم يكن في حاجة للاندماج من جديد في روما ويرقى حاله كي يحصل على منصب قنصل. انتخب قنصلا وهو ما يزال على حاله فلاحا بسيطا بنفس المكان. كما أنه سيعيّن من جديد ديكتاتورا من بعد ما عاد لزراعة حقله من وراء التيبر. بما أن رجل الدولة كان ينفق من ماله الخاص على متطلبات منصبه فبلا شك أنه استفاد من مساعدة البطريقيين الذين انتخبوه كي يتحمل نفقاتها.

ثم يقول تيت ليف : "اندهش العوام من انتخابه، لما وجدوا أنفسهم بيد قنصل منزعج منهم بتأثير أبنائه الثلاثة الذين لا يقلون عن أخيهم كبرياء ومستقو بغضب مجلس الشيوخ منهم. إلا أنهم كانوا يفوقونه حذرا واعتدالا كلما كانت تدعو الحاجة لذلك. ما أن تقلد القنصل الجديد مهامه حتى واظب على الالتحاق بمجلسه بالساحة العامة. من هناك دأب على

بدل نفس الجهد لاحتواء العوام، ولتوبيخ النبلاء. كان يقول أن نواب العوام بتعاقبهم على الولايات لم يحكموا الشعب الروماني وإنما تحكموا في أسرة مشتتة بسبب التلاسن والإهانات المتبادلة. وأن الإقدام والصرامة وكل الخصال العسكرية والمدنية ذهبت من روما إلى المنفى مع إبنه Céson وصارت منبوذة. أما الثرثارون المتمردون والمحترفون للشقاق، والذين تعاقبوا مرتين وثلاث مرات على نيابة العوام بفعل مناوراتهم الإجرامية، فها هم يعيشون بروما في تسيب ملكي".

ثم أضاف قائلا : "أما ذاك النائب Aulus ڤيرجينيوس، ألا يستحق أن ينزل به نفس العقاب الذي أنزل بالمتمرد Herdonius، فقط لأنه لم يكن على رأس المحتلين للكابطول ؟ بل يستحقه ألف مرة لو كنا نريد الإنصاف. المتمرد Herdonius حذركم على الأقل من خطره بإعلان عدائه لكم لما حمل ضدكم السلاح. بخلاف هذا النائب فقد كان ينزع من أيديكم السلاح لما كان يُنكر وجود دواعي للحرب. كان يريد بذلك تسليمكم عُزّلا للعبيد وللمنفيين. أما أنتم – ومن دون لوم للقنصلين – فقد حملتم أسلحتكم ضد المتمردين بالكابطول قبل تصفية أعدائكم بالساحة العامة. وأخجل من ذلك أمام الآلهة والرجال. كان العدو سيد القلعة والكابطول، واحتل مقر الإله جوبتير الطيب والكبير، ذاك المتمرد القدر والمدنس بكل الخطايا، زعيم العبيد والمنفيين. ثم كان حلفاء روما من اللاتين هم أول من حمل السلاح للدفاع عنا. ما كنا نعرف من سيحرر القلعة والكابطول، أكانوا هُم قادة جيش حلفائنا أم قادة جيشنا ؟ نحن الذين كنا لا نقبل إلى عهد قريب من نفس الحلفاء أن يحملوا السلاح في وجه عدوهم من دون إذن منا، صرنا اليوم أسرى بيد عدونا لو لم يبادروا هم لحمل السلاح للدفاع عنا".

ثم خاطب نواب العوام وقال لهم : "أهكذا تستنقذون الشعب بتسليمه من دون سلاح للمجزرة ؟ كيف تستسيغون ذلك ؟ ماذا لو جاء أحد منكم يقول بأن عبيده قد طوقوا بيته والسلاح بأيديهم ؟ هل كنتم تعتقدون أنه يجب إنقاذه ؟ وجوبيتير الطيب والكبير الذي احتُل معبده من طرف عبيد ومنفيين، ما كان يستحق منكم إنقاذه ؟ ثم تطالبون بأن تكونوا مقدسين ولكم حرمة، في حين ليست للآلهة عندكم لا قدسية ولا حرمة. لا تتوقفون عن القول بأنكم ستطرحون مقترحكم للتصويت هذه السنة، بالرغم مما اقترفتموه من جرائم في حق الآلهة والناس. لو فزتم بذلك، فاعلموا أنني أشهد الآلهة على أن ذلك اليوم الذي انتخبت فيه قنصلا سيكون كارثيا على الجمهورية ألف مرة من كارثية فقدان روما لقنصلها Publius ڤاليريوس".
وتوجه أخيرا للشعب من العوام قائلا : "لكن قبل كل شيء، أيها الرومان، لقد قررنا أنا وزميلي الخروج لحرب الفولسك والإيك. ولا ادري بأي قدر سنجد الآلهة بجانبنا في الحرب أكثر مما نجدها معنا في السلم. فلو علم الفولسك والإيك بالتمرد الذي كان قائما بروما، فمن الأفضل الحديث بصيغة الماضي عن الهلاك الذي كانوا سيصيبوننا به بدلا من تجربته يوما في المستقبل".

"تأثر العوام بخطاب القنصل الجديد. ورأى فيه البطريقيون فرصة لانبعاث الجمهورية. لكن نواب العوام استخفوا بكلامه الذي وصفوه بالمخادع. كانوا يقولون بإلحاح : "كيف سيقود القنصلان جيشا لن نسمح له بالتجنيد ؟". لكن القنصل كوينكتيوس كان يرد عليهم بأنه ليس في حاجة للتجنيد، لأن القنصل الراحل لما عزم على تحرير الكابطول أجبر الجنود على البقاء تحت القسم العسكري إلى حين يحلّهم هو منه. وعليه فهم ما يزالون تحت القسم ويأمرهم بالتجمع بأسلحتهم ببركة ريجيل خارج روما. بسفسطتهم أخذ النواب في تحطيم ما أصاب العوام من تأنيب الضمير، وهم يقولون : "القنصل كوينكتيوس ما كان سوى مواطنا عاديا لما أقسم الجنود على الالتزام بحمل السلاح من أجل الحرب"". وعلق تيت ليڤ ليڤ على ذلك بقوله : "ولم يُعرف الاستخفاف بالآلهة في ذلك العصر كما هو الحال اليوم. فلم يكن من الممكن تأويل القسم والقانون لجعله موائما للرغبات. لذا فضل العوام الالتزام به عمليا".

"بيأسهم من وضع عراقيل أمام مشاريع القنصل كوينكتيوس، عمل نواب العوام على تأخير رحيل الجيش. لكن انتشر خبر نُذر العرافين التي تأمر بالالتحاق ببِرْكة ريجيل خارج المدينة، وتدشين مكان بها لتداول الشؤون العامة، بدلا من تداولها بالساحة العامة بروما. كل ما حصل عليه العوام بالعنف بتلك الساحة كان بالإمكان إلغاؤه هناك خارج روما. يمكن للقنصلين تمرير كل ما يريدونه، لأن نواب العوام لم يكن لهم نفوذ على بعد أكثر من ميل من أسوار روما. لو التحقوا بالجموع هناك لصاروا كباقي الناس مجرد مواطنين عاديين من بين جموع العشائر وخاضعين لسلطة القنصلين".

تدرك هنا أن مفعول القوانين التي كانت تحمي العوام عن طريق نوابهم كان لا يتجاوز حدود أسوار روما. أما خراجها فالجميع كان في قبضة القنصلين ومن دون أية حماية غير اللجوء لأحدهما ضد قرارات الآخر. لكن العوام اكتسبوا بسابق اعتصامهم بالجبل المقدس سلاحا يهددون بالانتقام به من كل البطريقيين الذين يجرؤون على التعسف عليهم داخل وحتى خارج أسوار المدينة. الأمر الآخر هو الأماكن المقدسة بروما التي فقط فيها كانت القرارات السياسية تكتسب قدسية ونفوذا في الدولة. كان منها مقر مجلس الشيوخ والساحة العامة وميدان مارس. لكن الجديد هنا والخطير بالنسبة لنواب العوام هو نذر العرافين التي تأمر باتخاذ مكان بعيد عن أسوار روما مكانا مقدسا كذلك لاتخاذ نفس القرارات الهامة

والخاصة بالشأن العام. يكمن الخطر في كون نواب العوام لا نفوذ ولا سلطة لهم خارج أسوار روما. فكان بالإمكان اتخاذ قرارات فيها تنسف حقوق العوام ونوابهم من دون فرصة للاعتراض عليها. لكن يبقى للعوام دائما سلاح التمرد العسكري وسلاح الاعتصام مرة أخرى بمكان مقدس وشل كل الحياة بروما لاسترجاع ما ضاع منهم وأكثر إن تجرأ البطريقيون على أمر يضر بمصالحهم خارج أسوار روما.

ثم يقول تيت ليف : "كان نواب العوام في رعب من تلك الأخبار لما جاءهم ما هو أعظم. سمعوا أن القنصل كوينكتيوس كان يقول بأنه لن يستدعي هذه السنة الهيئات الميئية لانتخاب قنصلين جديدين، لأن أمراض الجمهورية كانت في نظره من تلك التي لا تعالج بالأدوية العادية، وتستوجب تعيين ديكتاتور. حتى إذا ما ظهر مشاغب ليضر بهدوء الدولة سيعرف أن قرارات الديكتاتور نافذة ولا تقبل المراجعة".

"كان مجلس الشيوخ بالكابطول لما التحق بهم العوام ونوابهم في حالة من الهلع. كانت الجموع تتوسل للمجلس وللقنصلين تستجدي عطفهم وشفقتهم للحيلولة دون تعيين ديكتاتور. لكن القنصل كان عازما على البقاء متشبثا بموقفه ما دام نواب العوام متمردين على سلطة مجلس الشيوخ. من بعد أن قدم القنصل تقريرا للمجلس حول مطالب العوام ونوابهم، أصدر الشيوخ فتوى يأمرون فيها نواب العوام بعدم تقديم مقترحهم للتصويت هذه السنة، ويُلزمون فيها القنصلين بعدم الخروج بالجيش خارج الأسوار. واعتبروا أن في إعادة انتخاب نفس النواب مس بسلامة الجمهورية. التزم القنصلان بما أمِروا به. لكن العوام أعادوا انتخاب نفس النواب بالرغم من احتجاجات القنصلين. في المقابل ونكاية فيهم قرر البطريقيون انتخاب نفس كوينكتيوس قنصلا لولاية ثانية".

"من شدة امتعاضه من ذلك، ما سبق طيلة السنة أن صدر عن القنصل كوينكتيوس احتجاج بشراسة مثل التي جاءت في خطابه لمجلس الشيوخ لما قال : "أيجب أن تتعجبوا أيها الآباء من استخفاف العوام بسلطتكم ؟ أنتم الذين تدمرونها بأنفسكم. أما وقد خرق العوام فتواكم بإعادة انتخاب أولئك النواب، فستخرقونها أنتم أيضا بأيديكم بإعادة انتخابي، فتستوون مع الجموع في ذلك الإخلال بالأصول، وكأن الاعتدال في هذه الدولة متعلق بخفة الأمزجة وبالتسيب. قلدوا إذا أيها الآباء تلك الجموع الطائشة. بدلا من أن تكونوا قدوة للآخرين وتعيدونهم للحق بعودتكم أنتم إليه، اتبعوهم في طريقهم المدمرة. أما بالنسبة لي فبعيدا عن تقليد نواب العوام لن أعرّض فتواكم لنفس المهانة بقبول إعادة انتخابي قنصلا مرة أخرى. أما أنت يا زميلي فأناشدك أن تعمل على إبعاد الشعب عن مثل تلك التجاوزات. واعلم أنك لن تحول بتلك الإجراءات دون الرفع من مقامي، بل سترفع بها من قيمة صواب رفضي لتجديد الترشح لولاية ثانية، وستُبعد بها عني أنا بُغض القبول بولاية ثانية". فقرر القنصلان معا إصدار أمر يمنع أي مواطن من التصويت السنة القادمة على كوينكتيوس قنصلا لولاية ثانية. ومن يخالف ذلك الأمر سيكون صوته لاغيا.

"انتخب هذه السنة (459 ق.م.) قنصلان جديدان. كان أحدهما من آل فابيوس، وقد انتخب هنا للمرة الثالثة. وكانت هذه السنة سنة الإحصاء العام. وجاء حلفاء روما بخبر الفولسك والإيك الذين كانوا يعدّون مرة أخرى للحرب على الرومان. كان نواب العوام ما يزالون يثيرون سخط الجموع على الدولة. استطاع القنصلان بشق الأنفس انتزاع هدنة منهم لتركيز التفكير في الحرب. لما انتهت الحرب بالنصر احتفظ القنصلان بالجيش خارج روما. فقامت معارك نواب العوام مرة أخرى لتثير من جديد مجلس الشيوخ. كانوا يقولون "إنها لخيانة أن يُحتفظ بالجيش خارج روما. الهدف من ذلك هو عرقلة التصويت على اقتراحنا. ومع ذلك سنحقق ما عزمنا على إنجازه"".

"لكن ظهر سبب آخر لإثارة الفتنة. أمينا مال الدولة رفعا دعوى ضد النائب Marcus Volscius بسبب شهادة زور مؤكدة في حق الشاب البطريقي Céson[1] وقت محاكمته سابقا. تبين بواسطة جملة من الأدلة أن أخ النائب منذ أن أصيب بالوباء لم يخرج من بيته حتى مات فيه من بعد شهور من المرض. أكثر من ذلك، في الوقت الذي ادعى فيه الشاهد اعتداء Céson على أخيه، لم يكن الشاب المدعى عليه بروما. من كانوا معه في الجيش شهدوا أنه بقي على الدوام في المعسكر ومن دون أية رخصة. ومن باب العناد، اعترض النواب على جمع الهيئات الميئية لمحاكمة زميلهم قبل جمع الهيئات العوام الترابية من أجل التصويت على مقترحهم. فبقيت القضيتان تراوحان مكانهما إلى حين رجوع القنصلين من بعد نهاية الحرب. مع دخولهما موشحين بالانتصار على العدو، لم يعد هناك كلام عن مقترح نواب العوام، حتى ظن أغلب الناس أن نوابهم قد انهزموا واستسلموا. لكن مع قرب انقضاء السنة وتمنيهم الفوز بولاية رابعة، عادوا للدفاع بحماس على تمرير التصويت على مقترحهم. وبنفس الحماس كان القنصلان بالمرصاد لذلك المقترح الذي من شأنه المساس بهيبة ونفوذ مؤسسة القنصلية. ومع ذلك بقي التفوق بجانب النواب".

[1] ابن القنصل *Lucius Quinctius*

"وفي نفس السنة (458 ق.م.) تمت الهدنة مع الإيك بطلب منهم. وتم الإحصاء العام الدوري الذي بدأ منذ السنة الفارطة. بلغ عدد مواطني روما مائة وسبعة عشر ألف وثلاثمائة وتسعة عشر مواطنا [319 127][1]. حصّل القنصلان في نفس السنة على نصر بالخارج وعلى هدوء بالداخل. إلم يكن هدوء تاما فقد مر من دون كبير مشاكل كالتي هزت المدينة سابقا. فقط بقي نواب العوام معترضين على جمع الهيئات المِئية لمحاكمة زميلهم المتهم بشهادة الزور ضد الشاب البطريقي سيزون قبل جمع الهيئات الترابية من أجل التصويت على مقترحهم".

"وجاء دور قوم الصابيين هذه السنة للهجوم على روما ونهب أراضيها حتى وصلوا أسوارها. فساد الخراب الأرياف وخيم الرعب على المدينة. كان العوام هذه المرة أكثر انصياعا للقنصلين فحملوا السلاح. احتج نوابهم لكن من دون فائدة. فجند القنصلان جيشين كبيرين، وانتصر أحدهما على العدو. لكن الآخر كان محاصرا مع جيشه، فتسلل منه خمسة خيالة وذهبوا إلى روما لطلب النجدة. ازداد الخوف والرعب وكأن المدينة هي المحاصرة. استُدعي القنصل المنتصر لنجدة زميله المحاصر، لكن كان يُظن أن مساعدته غير كافية، فتقرر تعيين ديكتاتور لشد عضد الدولة المهلهل. تم الاتفاق بإجماع على LuciusكوينكتيوسCincinnatus لتولي ذلك المنصب". وعلق تيت ليف على ذلك التعيين بقوله : "ليعتبر بهذا الدرس أولئك الذين لا يقيمون وزنا للرجال إلا بمقدار ما لهم من ثروة، ويتصورون أن كبارهم وعظماءهم لا يوجدون إلا منغمسين في الترف، فيزدرون كل رجل فقير وكل عامل وضيع".

في هذا التعليق الأخير للمؤرخ تيت ليف شيء من المبالغة. الرجل المعني به هو أولا بطريقي. ثم إنه كان سابقا ثريا ومن كبار رجال البلاد. ما تحول لتلك الحالة المتواضعة إلا بسبب دفع ما كان عليه من الكفالة المالية عن إبنه Céson بسبب فراره من العدالة. لم ينتخبه البطريقيون سوى بالنظر لما كان له من ضغينة ضد العوام بسبب إدانتهم لإبنه والغرامة التي أفقرته. ثم أبانت لهم تجربته في القنصلية على أنه كان رجل دولة شهما وصاحب همة عالية، ولا سيما لما تعفف عن الترشح لولاية ثانية تقديرا منه لهيبة مجلس الشيوخ وهيبة الجمهورية، من بعد خطاب شديد اللهجة بنفس المجلس ضد نواب العوام. ما كانوا ليختاروه ديكتاتورا في هذه الأزمة الخطيرة على حرية الشعب وعلى وجود الجمهورية لو لم يكونوا على يقين من أنه كان هو رجل المرحلة وبامتياز. وذلك ما سيؤكده تيت ليف لاحقا حين قال : " كان Lucius كوينكتيوس هو الأمل الوحيد للرومان.". وليس كما قال في تعليقه السابق ليعطي الرومان بذلك درسا في تقدير الفقراء والمستضعفين.

لكن مع ذلك، كان هناك تقليد روماني يستحق التقدير والتنويه به. وهو التقيد القاضي بعودة القناصلة السابقين مثل باقي رجال الدولة إلى الحياة العادية كمواطنين عاديين من بعد انتهاء ولايتهم. مع الحق في الترشح لولاية أخرى أو لمنصب أعلى من المنصب السابق، والحق في فرصة الانتقاء يوما كي يصبحوا أعضاء بمجلس الشيوخ. لكن ما كان أحد منهم يجني من ولايته مكاسب مالية ومادية سوى من النشاط الاقتصادي بالحياة المدنية أو من غنائم الحرب، وتحت مراقبة أمناء مال الدولة. وكانوا يعملون في الجيش عند كل نفير عام تحت إمرة القناصلة الجدد من دون أن يستنكفوا من ذلك، لكن كضباط كبار من بعد القنصل، وليس كجنود عاديين. بذلك كان الجيش الروماني والقناصلة الجدد يستفيدون من خبرتهم السابقة في الحرب. وقد قال في ذلك نكولا ميكيافلي : "بالرغم من شغف الرومان بالمجد، لم يكونوا يستنكفون من العمل تحت إمرة من كانوا أقل رتبة منهم بالأمس، ولا الخدمة تحت إمرة غيرهم في الجيش الذي كانوا فيه من قبلُ جنرالات"[2].

ثم يقول تيت ليف : "كان Luciusكوينكتيوس هو الأمل الوحيد للرومان. كان يزرع حقله الصغير من وراء نهر التيبر ويشق الأرض بمحراثه لما جاءه مبعوثوا مجلس الشيوخ وسلموا عليه وطلبوا منه ارتداء جبته لسماع أوامر المجلس. سألهم ما الأمر مرات عديدة، ثم أمر زوجته بإحضار جبته من الكوخ. لما لبسها تقدم وهو ينفض الغبار ويمسح العرق عن جبينه. سلم عليه حينها المبعوثون بالسلام الذي يليق به كديكتاتور، وهنأوه ثم سرّعوا من خطاه نحو روما وهم يصفون له ما أصاب الجيش من رعب. لما وصل استُقبل استقبالا عظيما من طرف أبنائه الثلاثة وأهله وأصدقائه وأغلب أعضاء مجلس الشيوخ. فالتحق بمقر عمله في ذلك الموكب يتقدمه الحرس. كانت الجموع الغفيرة تحف طريقة لأنها لم تكن

[1] من الرجال فقط مع إحصاء ثروات كل منهم وتجديد توزيعهم على الطبقات المِئية العسكرية والجبائية الخمس.
[2] تحت عنوان *LE SERVICE DE L'ÉTAT* في كتابه أعلاه، مقالات حول العشرية الأولى لتيت ليف.

مطمئنة لرؤيته ديكتاتورا، بالنظر لِما عرفت عنه كرجل دولة شديد القسوة. اكتفى تلك الليلة بتشديد الحراسة على منافذ المدينة".

باختصار شديد جهز الديكتاتور جيشا والتحق بالمعسكر الروماني المحاصر. حينها هاجم جيش القنصل العدو الذي حاصره منذ ثلاثة أيام، وأصبح بذلك جيش الإيك بين فكي كماشة : بين جيش القنصل من أمامه وجيش الديكتاتور من ورائه. فاستسلم لهما وقُبض على جنرالاته، وتُرك جنوده ينصرفون عراة من بعد المرور واحدا تلو الآخر من تحت نيْر رمح روماني لإذلالهم. تركوا من ورائهم أسلحتهم وباقي أمتعتهم غنائم للرومان. فوزعها الديكتاتور على جيشه من دون جيش القنصل الذي أمره بالتنازل عن منصبه والبقاء في الجيش كضابط عادي من بين باقي الضباط. ثم عاد الديكتاتور منتصرا إلى روما حيث أقيمت احتفالات كبيرة بمناسبة نصره.

ثم يقول تيت ليف : "من بعدها تم اجتماع الهيئات الميئية لمحاكمة النقيب السابق المتهم بشهادة الزور في قضية سيزون ابن الديكتاتور. ولم يكن بوسع زملائه الاعتراض عليها خوفا من سلطة أبيه المطلقة. فحُكم على المتهم بالنفي. وفي اليوم السادس عشر من ولايته تنازل الديكتاتور كوينكتيوس عن منصبه الذي كانت مدته مبدئيا ستة أشهر".

نستفيد من هذه الفقرة التعرف مرة أخرى على مدى أهمية مؤسسة الديكتاتور في حسم المسائل الطارئة والخطيرة على حرية الشعب وعلى حياة الجمهورية. ابتكر الرومان تلك المؤسسة التي يعوض فيها فرد واحد القنصلين معا. كل رجال الدولة يصبحون تحت حكمه مجرد مواطنين عاديين بما فيهم القناصلة ونواب العوام، فلا تُعصى له أوامر. ليس الديكتاتور مجبرا على التشاور لاتخاذ أي قرار ولا تُراجع قراراته. من يعصى تنفيذها كان يُعد في تلك الحقبة الحرجة من حياة الدولة عدوا، وينفذ فيه الديكتاتور فورا حكم الإعدام بتهمة الخيانة العظمى، ومن دون مرافعة. كان يهابه الجميع. لكن حتى لا يتحول إلى طاغية فقد كانت مدة ولايته محدودة في ستة أشهر أو حتى نهاية الأزمة التي من أجلها تولى منصبه من دون الحق في المساس بمؤسسات الدولة القائمة التي فقط يتم تعليق العمل بها. من بعدها يصبح تلقائيا مجرد مواطن عادي، وتعود الحياة لطبيعتها ويصير هو نفسه خاضعا لسلطة القنصلين المنتخبين.

ثم يقول تيت ليف : "عادت السلطة لطبيعتها العادية بيد مؤسسة القنصلية. في نهاية السنة عاد نواب العوام مرة أخرى لطرح مقترح التصويت على مشروع إعداد قانون للحد من سلطة القنصل على الطاولة. وبغرض المماطلة تذرع البطريقيون بغياب الجيشين عن روما حتى لا يُعرض على جنوده شيء من ذلك للتصويت. لكن العوام فازوا بانتخابهم لنفس النواب للمرة الخامسة على التوالي".

يقول تيت ليف : "انتخب لهذه السنة[1] قنصلان جديدان. في البداية كل شيء كان هادئا بالخارج. لكن بالداخل وكالعادة نشأت اضطرابات بسبب نفس نواب العوام ومن أجل نفس المقترح. كادت تصل الأمور إلى العنف لو لم تحل في الوقت المناسب أخبار عن حصول هجوم من طرف الإيك على حامية رومانية واحتلالها. استدعى القنصلان مجلس الشيوخ للاجتماع وتقرر بعث جيش لتحرير الحامية. توقف حينها النقاش حول اقتراح النواب ليحل محله اعتراضهم على التجنيد مرة أخرى".

"كاد القنصلان يذعنان لنواب العوام، لما جاءت أنباء مرعبة. جيش قوم الصابيين كان ينهب ويخرب أراضي روما ويسير نحو المدينة نفسها. الخوف من الهلاك جعل نواب العوام يسمحون بالتجنيد لكن بشرط. بما أن البطريقيين تمكنوا طيلة خمس سنوات من الالتفاف على جهودهم ومنعوهم من التصويت على مقترحهم، طالب النواب بإحداث عشر مناصب للنيابة بدلا من إثنان. تحت ضغط حاجة الحرب لتجنيد العوام استجاب البطريقيون لطلبهم، لكن بشرط عدم إعادة انتخاب نفس النواب. وحتى لا يبقى هذا الاتفاق كالعادة من دون تنفيذ من بعد الحرب، اجتمعت في الحال الهيئات الترابية وانتخبت النواب العشرة. وهكذا ومن بعد ست وثلاثين سنة من إحداث مؤسسة النيابة عن العوام ارتفع عدد أعضائها إلى عشرة. ثم اتُّخذت الإجراءات اللازمة لضمان دوام ذلك الاتفاق. من بعدها فقط تم التجنيد، وتم الانتصار على الأعداء المهاجمين".

---

[1] سنة 457 ق.م.

يقول تيت ليف : "في سنة 456 ق.م. انتخب قنصلان جديدان. وأصابت روما مجاعة بسبب نقص في محصول القمح جراء فيضانات أمطار غزيرة. فصدر قانون بتوزيع أراضي هضبة أڤانتين من أملاك الدولة على العوام من أجل بناء مساكنهم بها. وهو الجبل الذي أصبح معقلهم من بعد تعميرهم له". وعُرف ذلك بقانون إيسيليا La Lex Icilia وهو نائب العوام Luciusإيسيليوس، الذي تقدم بمشروع القانون. ومرر معه نفس النائب قانونا ثانيا يمنح نواب العوام الحق في استدعاء مجلس الشيوخ للاجتماع، مع الحق في مخاطبة أعضائه، مثلهم في ذلك مثل حق القنصلين.

ثم يقول تيت ليف : "السنة التي بعدها تم انتخاب نفس نواب العوام الذين ظلوا يناكفون عن مقترح تحديد صلاحيات مؤسسة القنصل. كانوا يشعرون بالخجل من الزيادة في عددهم من دون جدوى، ومقترحهم ما يزال يراوح مكانه مدة ولايتين، من بعد ما ظل كذلك منذ زمان. حينها جاءهم خبر الهجوم على حلفائهم الذين سبق أن أنقذوهم من ثورة العبيد. خرج القنصلان بجيش لنجدتهم وهزموا العدو واستولوا على غنائم عظيمة. بما أن خزينة الدولة كانت قد استُنزفت قرر القنصلان إنعاشها بثمن بيع تلك الغنائم. الأمر الذي أغضب الجيش وأعطى فرصة لنواب العوام كي يسوّدوا سمعة القنصلين عند الشعب. وما أن انتهت ولايتهما سنة 454 ق.م. حتى رفعت دعوى ضد كل منهما. فامتعض البطريقيون من إدانتهما بدفع غرامات على تصرفهما ذاك في الغنائم".

"لكن تلك الإدانات لم تثني القنصلين الجديدين عن الاستمرار في الاعتراض على مقترح النواب. كانا يقولان : "يمكن إدانة القنصلين لكن لن يمرر العوام ونوابهم مقترحهم". قرر حينها نواب العوام التخلي عن مقترح عمّر طويلا منذ تقديمه لأول مرة ومن دون التمكن من تمريره. صاروا يعاملون البطرقيين بلطف ويطلبون منهم بوضع حد للشقاق بينهم. وصاروا يقولون لهم : "إذا ما كانت قوانين العوام مزعجة لكم فما عليكم سوى السماح بتشكيل لجنة مختلطة منا ومنكم. نختار أعضاءها سويا، ونفوّض لها صلاحية تدوين قوانين تخدم مصالحنا جميعا، وتضمن نفس الحرية للجميع"".

وقد نتساءل وبحق عن سبب هذا المطلب من العوام. ذلك أن الإشكالية في القانون الروماني كانت تكمن في السمة الرئيسية والقاسية في إجراءات الدعاوى أمام القضاء. كان أي خطأ شكلي بسيط، حتى في الألفاظ، يؤدي بالشخص لضياع حقوقه في القضية المقدمة للعدالة. وما كانت تلك الشكليات وتلك الطلاسم معروفة للجميع باستثناء الكهنة من رجال الدين.و كان من بين البطريقيين ولا سيما العوام المتقاضين من يخسرون حقوقهم ظلما بسبب أخطاء في تلك الشكليات التي كانوا يجهلون قواعدها لأنها كانت غير مكتوبة وغير معلنة. فكان من الإنصاف بالنسبة للجميع أن تُحدد كل تلك القواعد، شكلية كانت أوغير شكلية، وتدون وتنشر أمام المحاكم حتى يكون بإمكان جميع المتقاضين الاطلاع عليها، فلا يظلم أحد بجهلها. ذاك كان مطلب نواب العوام في مقابل تنازلهم عن اقتراح تشكيل لجنة لتحديد صلاحيات القنصل والذي كان يزعج البطريقيين.

ثم يقول تيت ليف : "لم يكن البطريقيون بعيدين من القبول بذلك العرض سوى أنهم كانوا يقولون : "لا يمكن استدعاء أحد للتشريع إلّم يكن من البطريقيين". هكذا كان الفريقان متفقين على الحاجة لتشريع جديد، لكن كانا مختلفين بخصوص اختيار من يكون المشرع. مع ذلك أرسل البطريقيون إلى أثينا لجنة منهم مكونة من ثلاثة أعضاء من أجل الاطلاع على قوانينها الشهيرة وعلى مؤسسات باقي دول اليونان وعلى تقاليدها وتشريعاتها[1]".

"كانت الحروب الخارجية قد كفّت عن إزعاج روما سنة 454 ق.م. فصارت المدينة السنة التي تلتها أكثر هدوء في الداخل بفضل سكون نواب العوام، وبسبب كارثة المجاعة التي تزامنت مع وباء أتى على الزرع والضرع وحصد العديد من الأرواح. كان من بين الموتى بعض كبار رجال الدولة كالقنصل وأعضاء من مجلس الشيوخ وأربعة من نواب العوام. وتوفي من بين رجال الدين الحبر الأعظم بروما. انتخب قنصلان جديدان لسنة 452 ق.م. ولم تشهد هذه السنة حروبا بالخارج، لكنها لم تسلم من قيام الاضطرابات بالداخل".

"وعاد المبعوثون من أثينا ومعهم ما نقلوه عن تشريعها ومؤسساتها. حينها شدد نواب العوام من ضغطهم على البطريقيين كي يتم الشروع في تدوين تشريع جديد يضمن الحرية للجميع. تم الاتفاق على إحداث لجنة من عشرة مفوضين للتشريع وفي الوقت نفسه للحكم بسلطة لا تقبل بمراجعة قراراتها، فلا يتم هذه السنة انتخاب رجال دولة جدد. وهل يجب أن يكون من بين أعضاء تلك المفوضية بعض العوام ؟ ذلك كان هو السؤال الذي ظل يُطرح طويلا. في النهاية تنازل نواب العوام عن ذلك المطلب، في مقابل ألا تُمس كل قوانينهم المقدسة لا بالإلغاء ولا بالتغيير".

[1] من بعد فقط نصف قرن على نشأة الجمهورية

وينبغي تذكيرك هنا بحصاد المكتسبات التي انتزعها العوام من البطرقيين حتى هذه السنة، والتي كانوا يعدونها قوانينهم المقدسة والملزمة للفئتين، والتي واشترطوا على المفوضية العشرية المحدثة للتشريع عدم المساس بها في مشاريع القوانين الجديدة. كان أولها حق العوام في انتخاب عشرة نواب عنهم يمثلونهم في كل مرافق الدولة ويدافعون عنهم وعن مصالحهم. وثانيها يكمن في حقهم في انتخاب نوابهم بحسب التقسيم الترابي من طرف الهيئات الترابية. وثالث تلك المكاسب يكمن في تمتّع نواب العوام بحصانة وحرمة تحفظ لهم حياتهم وهيبتهم، بحيث مجرد مقاطعة حديثهم وخطبهم كانت تعد جريمة يعاقب عليه القانون الروماني بغرامة مالية أو حتى بالإعدام وباستصفاء أموال الجاني في حال عدم سداده للغرامة. ورابعها هو حق العوام في التشريع لأنفسهم عبر تقديم نوابهم لمشاريع قوانين للهيئات الترابية. وخامسها يكمن في حق نواب العوام في مقاضاة كل رجال الدولة المخالفين للقانون، مثلهم في ذلك مثل حق باقي رجال الدولة في مقاضاة بعضهم البعض. وخامسها هو حق نواب العوام في استدعاء مجلس الشيوخ للاجتماع ومخاطبته مثلهم مثل القناصلة. وسادسها وآخرها هو امتلاك العوام لأراضي هضبة أڤنتان جنوب غرب روما.

وبتنازل نواب العوام للمفوضية عن الحياة السياسية العادية وبتعطيل كل مؤسسات الدولة وبتعطيل العمل بقوانينها في مقابل تدوينها للتشريع الجديد إلى حين الانتهاء منه قبلوا بنظام حكم ارستقراطي صرف من دون المعارضة الديمقراطية التي كانت تحمي فئتهم من شطط وعسف رجال الدولة من البطريقيين. فتتوقف بذلك مؤقات عهد نظام الحكم الأرستو-ديمقراطي ليحل محله عهد الحكم الآرستقراطي. وزال توازن الرعب بين الفئتين، وصارت روما عرضة لمخاطر استبداد الأقلية الأرستقراطية كما سجل ذلك تيت ليڤ لما قال عن النظام المؤقت الجديد: "مرت حتى هذه السنة (452 ق.م.) ثلاثة قرون وسنتين على تأسيس روما. وها هو شكل الدستور يتغير من جديد بانتقال السلطة من القناصلة إلى المفوضين décemvirs، كما انتقلت سابقا من الملوك إلى القناصلة. لكن هذا التغيير لم يحظى بنفس الأهمية لأنه لم يدم طويلا. البدايات السعيدة أعقبتها تجاوزات كثيرة فعجّلت بنهاية تلك المؤسسة الجديدة. ثم رجعت الأمور إلى طبيعتها بإعادة السلطة للقنصلين من جديد". فماذا عن ذلك النظام الجديد والمؤقت وعن مآله ؟

الفصل الرابع: حكم المفوضية الأريستوقراطي (452 ق.م.- 449 م.ق.)

مقدمة الفصل

يقول تيت ليف : "بدأت الأمور بانتخاب عشرة مفوضين décemvirs. وكان من بينهم المبعوثون الثلاثة لأثينا بالنظر لما كان لهم من علم بقوانينها ومؤسساتها. وتم اختيار السبعة الباقين من بين من من شأن تقدُمهم في العمر أن يقلل من اعتراضهم على التجديد في التشريع. والأكثر تأثيرا من بينهم كان من أسرة أبيوس التي اشتهرت وعرفت بقناصلة معادين للعوام. لكنه بخلاف أسلافه ظهر بمظهر المداهن لهم والباحث عن كل ما يرضيهم. كان المفوضون العشرة يتناوبون على الحكم بروما مدة عشرة أيام لكل واحد منهم. اتصفوا كلهم بالإنصاف الصارم مع الجميع. وهو الأمر الذي لم يكن دائما في مصلحة البعض. للدلالة على عدلهم هناك مثال واحد يكفي. كانت قراراتهم نافذة وغير قابلة للمراجعة. وحدث أن تم إخراج جثة من تحت أرض في ملكية أحد البطريقيين. بالرغم من فظاعة الجريمة اكتفى المفوّض بتقديمه لعدالة الشعب، في حين كان من حقه هو الحسم والحكم فورا على الجاني بما يستحق من عقاب لا يقبل المراجعة من أحد. لكنه فضل التنازل عن حقه ذاك لصالح حرية الشعب".

"ولما كانت تلك العدالة مطبقة بصرامة على الجميع، كبارا وصغارا، كعدالة الآلهة، لم يهمل المفوضون تدوين التشريع الجديد الذي كانت كل الأمة في شوق لرؤيته. فما أن أعدّوه حتى قدموه لجموع الشعب في عشر ألواح. وكانوا يقولون للرومان: "من أجل سعادة ومجد ورخاء الجمهورية ومن أجل غبطتكم أيها المواطنون أنتم وأبناؤكم، ندعوكم لقراءة تلك القوانين". هم من جهتهم، أقاموا الوزن بالقسط بين حقوق الجميع، كبارا وصغارا، بقدر ما تستطيع ذلك عشرة عقول بشرية. لكنهم كانوا ينتظرون المزيد من الإنصاف بفضل مشاركة وملاحظات كل العقول مجتمعة. كان عليهم بالخصوص، وبحكمتهم، وزن كل شيء ومناقشته ثم التصريح في كل نقطة بما يجب إضافته وما يجب حذفه. هكذا يكون الشعب الروماني جديرا بالافتخار بقوانينه، ليس فقط لأنه صادق عليها بل لأنه هو الذي اقترحها كذلك".

"ومن بعد ما أدخِلت على كل فصل التصحيحات التي اقترحها الرأي العام وظهر صوابها، صادقت الهيئات المِئية على قوانين الألواح العشرة التي ما زالت تشكل حتى اليوم[1] مبادئ القانون العام والخاص التي حكمت كل ذلك الكم الهائل من القوانين المتراكمة منذ قرون. وانتشرت الشائعات بأن هناك لوحتان أخرى تشكل مع الألواح العشر الأولى مدونة القانون الروماني".

وبالتحري تجدها عبارة عن مدونات للقانون الخاص، لا علاقة لها بالقانون العام الذي يهمنا، اللهم تعليقها على باب كل محكمة حتى يطلع عليها المواطنون و لاسيما المتقاضون منهم، فيكونوا على بينة مما لهم من حقوق فلا يفرطون فيها وما عليهم من واجبات فلا يقعون في المحظور ولا يستغفلهم القضاة ولا يصدرون في حقهم أحكاما اعتباطية.

مهمة المفوضية استغرقت أقل من عامين. وبالموافقة على تلك القوانين انتهت ولايتها لكن قبل موعد انتخاب قنصلين جديدين. وحتى ذلك الحين وبالنظر لما شهدته روما من وفاق بين العوام والبطريقيين في فترة حكم المفوضية توفرت الرغبة عند الجميع في تمديد حكمها بانتخاب مفوضين جدد إلى حين موعد انتخاب القنصلين الجديدين. لكن تلك الرغبة كانت مصحوبة بتوجس من عقلاء العوام ومن حكماء البطريقيين. فقال في ذلك تيت ليف : "فترة انتظار موعد انتخاب القنصلين خلقت الرغبة في انتخاب مفوضية جديدة. العوام لم يندموا على خلق مؤسسة نيابة العوام، لأن مؤسسة القنصلية لم تكن بالنسبة لهم أقل بشاعة من الملكية. لكنهم صاروا في حاجة لها أشد مع مفوضين جدد لا تقبل شفاعة أحدهم ضد قرارات زملائه".

وجاء تيت ليف ببعض التفاصيل بخصوص الحملة الانتخابية لأعضاء المفوضية الجديدة. ملخصها خوف حكماء البطريقيين أن يترشح لهذا المنصب الخطير بتلك السلطة الكبيرة من لا يستحقون. فأعرضوا عن تعففهم وتدخلوا للتأثير في الحملة الانتخابية، ولاسيما ضد أبيوس الذي كانوا يخافون من صغر سنه ومن طيشه. لكنه أفلح في الحصول على منصب مفوض بالرغم من مناوراتهم. وذلك من بعد نجاحه في إبعاد المتحيزين لحكماء البطريقيين عن العضوية في المفوضية. فتسبب ذلك في المحظور. تسبب في انقلاب حكم المفوضية الأرستوقراطي على الحرية وتحوله إلى استبداد أقلية بالحكم. كيف حصل ذلك ؟

انقلاب المفوضية على الحرية

تولى المفوضون الجدد مقاليد الحكم بانتخاب من الهيئات المِئية لولاية محددة في الزمن. فاكتسبوا بذلك شرعية. لكنهم صاروا يخططون للاستبداد بالحكم. فيقول تيت ليف في حقهم قفي حق زعيمهم : "حينها نزع المفوض أبيوس القناع عن طبيعته الحقيقية وشرع في صناعة زملائه على عينه. إلى حين تقلد مناصبهم كانوا يجتمعون كل يوم في الخفاء من

[1] حتى زمان المؤلف تيت ليف.

دون شهود ويخططون في السر لمشاريعهم الطموحة. أصبح من الصعب الاتصال بهم، وقليلا ما كانوا يجيبون سائليهم، فلم يعودوا يخفون كبرياءهم. منذ اليوم الأول لعملها ظهرت هذه المفوضية للمواطنين وكأنها آلة للرعب. المفوضون السابقون كانوا يتناوبون فيما بينهم واحدا تلوالآخر على كرسي السلطة العليا. كان صاحب تلك السلطة لوحده محفوفا بالحراس الإثني عشر، ويحمل كل منهم سلاحا من حزمة سياط تميزه بلْطة. أما المفوضون الجدد، فقد ظهر كل واحد منهم مصحوبا بنفس عدد الحراس الإثنى عشر. صار مجموع عدد أولئك الحراس بالساحة العامة مائة وعشرون حارسا. تعذر المفوضون بسلطتهم التي لا تقبل المراجعة كي توجد البلْطة في سلاح حراسهم. بتلك الآلة صاروا عشرة ملوك. انتشر الرعب بين البسطاء وبين حتى البطريقيين المرموقين، لأنهم رأوا في ذلك المظهر ابتزازا وذريعة للبدء في المجزرة".



رسم لنسختين من سلاح حراس كبار رجال الدولة كالقنصل وترى بكل منهما **بلْطة**



حارسان من حراس كبار رجال الدولة بسلاحما المتميز

"فسادت بين المواطنين فكرة أن أي صوت سيعلو للدفاع عن الحرية بمجلس الشيوخ أو أمام جموع الشعب كان سيجد للتّو السوط والبلطة ليسكته وليخرس بقية الأصوات من شدة الرعب. ولم يكن من الممكن لأي مواطن اللجوء للشعب للاحتماء به من عسف وشطط المفوضين، لأن سلطة المفوض لم تكن قابلة للمراجعة. وباتفاق فيما بينهم كان المفوضون يمنعون أن يشفع أي منهم لأحد عند باقي الزملاء. وذلك بخلاف المفوضين السابقين الذين كان أي منهم بإمكانه أن يراجع أحكام زملائه، بل منهم من كان يحيل بعض القضايا على محكمة الشعب حين يرى أنها من اختصاصه".

"في البدء ولمدة معينة طال الرعب كل الطبقات. لكنه صار شيئا فشيئا ينزل بكل ثقله فقط على العوام. بل تزايدت عناية المفوضية بالبطريقيين. عانى بسطاء العوام من قسوة أمزجة وأهواء هؤلاء المفوضين الجدد، الذين لم يكن من اعتبار في القضايا المعروضة على محكمتهم سوى لنوعية فئات الأشخاص. عوّضت المحسوبية والزبونية كل فرصة للحكم بالعدل. كان أولئك المفوضون الجدد يحددون ويقررون أحكامهم في بيوتهم ثم ينطقون بها من بعد ذلك في محكمتهم بالساحة العامة. ما كان أحد يجرؤ على استئناف حكم مفوض عند زميل له، حتى يندم على عدم التوقف عند حكم الأول. انتشرت إشاعة مجهولة المصدر، تزعم أن مآمرة المفوضين لا تنحصر في السيطرة على الجمهورية وفي إذلالها، وإنما قد أقسم أعضاء تلك المفوضية سرّا على عدم استدعاء الهيئات المِئية لانتخاب رجال الدولة الجدد، وذلك من أجل استدامة استبدادهم بالسلطة التي بين أيديهم".

"صار العوام يحومون بنظرهم من حولهم. ووضعوه على البطرقيين، ليستنشقوا نفحة من الحرية في تلك الجهة التي ما كانوا ينتظرون منها سابقا سوى القهر والإذلال الذي أوصل الجمهورية إلى تلك الحالة البئيسة. إلا أن كبار مجلس الشيوخ كانوا يكرهون المفوضين والعوام معا. كانوا غير موافقين على ما يحدث من المفوضين، لكنهم كانوا يعتبرون أن العوام قد استحقوا عنفهم. كانوا يرفضون مساعدة قوم ما غمسهم في أتون العبودية سوى شغفهم المفرط بالحرية. كانوا يفضلون ترك الاعتراضات على المفوضية تتراكم حتى تجعل امتعاض العوام منها يرغّبهم في عودة القناصلة مع القبول بحالة الأمور السابقة. ثم مر أكبر قدر من مدة ولاية المفوضية السنوية، لما أتمت قانون اللوحات الإثنى عشر بإضافتها

للوحتين الأخيرتين. لما صوتت عليهما جموع الشعب، لم يعد هناك للجمهورية من حاجة لخدمات تلك المفوضية. كان الشعب في انتظار دعوة الهيئات المِئية لانتخاب قنصلين جديدين. ما كان يخيف العوام هو معرفة كيف سيتم إعادة العمل بمؤسسة النيابة عنهم، ذلك الصرح العظيم للحرية، من بعد توقف العمل بها مع إحداث المفوضيةثم مر أكبر قدر من مدة ولاية المفوضية السنوية، لما أتمت قانون اللوحات الإثنى عشر بإضافتها للوحتين الأخيرتين. لما صوتت عليهما جموع الشعب، لم يعد هناك للجمهورية من حاجة لخدمات تلك المفوضية. كان الشعب في انتظار دعوة الهيئات المِئية لانتخاب قنصلين جديدين. ما كان يخيف العوام هو معرفة كيف سيتم إعادة العمل بمؤسسة النيابة عنهم، ذلك الصرح العظيم للحرية، من بعد توقف العمل بها مع إحداث المفوضية".

"لكن لم يكن هناك شيء يُذْكر عن دعوة الهيئات المِئية لانتخاب القنصلين الجديدين مكان المفوضية. بل المفوضون الذين بدأوا ولايتهم بالعمل على اكتساب الشعبية بظهورهم مع قدماء نواب العوام، قد شكلوا من حولهم موكبا من شباب البطريقيين الذين صاروا يطوّقون مقرات حكمهم ليبطشوا بالعوام ويدفعوا بهم لمحاكم المفوضين، كي يستصدروا منهم أحكاما تقضي بامتلاكهم وامتلاك ما بأيديهم من ممتلكات. من ضحاياهم من كان يجلد بحزمة سياط الحراس ومنهم من كان يقضي تحت ضربات بلطة سلاحهم. وحتى لا تبقى وحشيتهم من دون جني فوائدة مادية كانوا يستصفون لصالحهم ممتلكات ضحاياهم. الطمع في المزيد من هذا الكسب المجاني والآثم أفسد شباب البطريقيين حتى صاروا يفضلون ما يجنونه من فوائد بهذا التسيب ضد حرية للجميع على الاعتراض على اغتصاب المفوضية للسلطة".

"انتهت مدة ولاية المفوضية من دون انتخاب قنصلين مكانها. لكن بالرغم من تحول المفوضين إلى مجرد مواطنين عاديين ظلوا يخرجون على الناس من دون أن ينقص ذلك شيئا من تبجحهم بمزاولة الحكم ولا من مظاهر آلة ومقام الحاكم. لم يعد هناك شك في حلول عهد الاستبداد. بدأ البكاء على الحرية المفقودة. لم يتقدم من بين الرومان ولا ظهر منهم من ينتقم لها في المستقبل. بل لم يعد الرومان لوحدهم يشكّون في شجاعتهم. بل صاروا محل احتقار من طرف الشعوب المجاورة التي كانت تخجل من الاعتراف بدولة لم تعد توجد بها حرية. خرج قوم الصابيين في جحافل غفيرة وهجموا على أراضي روما، وتوسعوا فيها بالنهب والتخريب، وغنموا منها ومن دون عوائق كمّا هائلا من الرجال والمواشي، وأقاموا فيها معسكرا معلقين كل آمالهم على الشقاق بروما حتى يكون عائقا فيها للتجنيد".

"التأكُّد من صحة تلك الأخبار بسبب نزوح أهالي الأرياف زرع الرعب بالمدينة. اجتمع المفوضون للمداولة. علاوة على عزلتهم بسبب سخط كل من البطريقيين والعوام عليهم أصابهم القدَر بمزيد من الرعب لما تحرك من جهة أخرى قوم الإيك يعيثون فسادا في أراضي حلفاء روما، الذين بعثوا رسلا يطلبون منها النجدة. مع انهزام كبريائهم من شدة الخوف، قرر المفوضون أخيرا استشارة مجلس الشيوخ بخصوص ما يعانونه من ضغط الحربين. فأصدروا أوامرهم للمجلس كي يجتمع، مع علمهم بما سينزل بهم من عواصف السخط عليهم. ما أصاب الأرياف من خراب مع المخاطر التي تهدد المدينة، كل ذلك كان سيُنسب إليهم. سيحاول المجلس يجعلهم يخنقون سلطتهم بأيديهم، اللهم إذا ما قاوموا ذلك بتكتلهم وضغَط الأقوياء منهم بنفوذهم لقمع استسلام الباقين منهم". فحان وقت الصراع الأفقي بين مجلس الشيوخ والمفوضية المستبدة بالحكم بالرغم من انتهاء ولايتها.

الصراع الأفقي بين مجلس الشيوخ والمفوضية

فقال تيت ليف : "لما سُمع المنادي بالساحة العامة يستدعي مجلس الشيوخ للاجتماع بأمر من المفوضين، استغرب الناس من تلك المفوضية التي أهملت منذ زمن طويل عادة استشارة ذاك المجلس. ما الذي حصل حتى عادوا للعادات والأعراف القديمة ؟ أم الفضل في عودة بعض معالم الحرية يعود إذا للأعداء وللحرب. لكن المنادي لم يجد وبالكاد إلا سيناتورا واحدا بكل أرجاء الساحة العامة. من يطل برأسه على مقر المجلس كان سيرى العزلة التي كانت تحيط بالمفوضين. شعروا حينها بمقدار السخط العام على استبدادهم بالسلطة. ورأى الشعب في غياب أعضاء مجلس الشيوخ رفضهم للاعتراف للمفوضين المنتهية ولايتهم بالحق في استدعاء المجلس، وقد أصبحوا مجرد مواطنين عاديين. سيشكل ذلك بداية الرجوع للحرية إذا ما صار الشعب متفقا مع مجلس الشيوخ، ورفض من جانبه التجنيد كما رفض المجلس الاجتماع بالرغم من أوامر المفوضية. ذلك هو ما كانت تتداوله الجموع فيما بينها".

"بالكاد كان يُرى سيناتور واحد بالساحة العامة، لأن قليل منهم كان بالمدينة. بل باستيائهم من أحوال المدينة بسبب المفوضين وفي غياب الفرصة للعناية بالصالح العام لجأوا إلى العناية بمصالحهم الخاصة في أراضيهم بالأرياف، واقتنعوا بأنهم كانوا بذلك في حماية من العسف بقدر ما كانوا بعيدين عن المجتمع وعن شراسة اضطهاد المفوضين. لما لم يستجيبوا للأوامر الأولى بعث المفوضون أعوان المحكمة إلى بيوتهم لأخذ رهائن عن الغرامات المحتملة في حقهم وللتأكد من أن غيابهم لم يكن متعمّدا. فجاءهم الأعوان يخبرون بأن المتغيبين هم في أراضيهم بالأرياف. الأمر الذي كان أهون على المفوضية من وجودهم بالمدينة مع الامتناع عن الاستجابة لأوامرها. فتقرر استدعاؤهم جميعا لاجتماع يوم الغد. كانت الاستجابة لذلك الأمر تفوق توقعات المفوضية. استنتج العوام من ذلك أن البطرقيين قد خانوا قضية الحرية لمّا اعترف

مجلس الشيوخ بالحق في استدعائه من طرف رجال عاديين انتهت مدة ولايتهم، وأن العنف أصبح هو السيد والفيصل في حسم الأمور".

"أما وقد أظهر مجلس الشيوخ طاعة في الاستجابة لأوامر المفوضية بالاجتماع، فإنه قد امتنع عن الخضوع لآرائها. لما عرض أبيوس زعيم المفوضين المنتهية ولايتهم مقترحه على المجلس وطلب التصويت عليه من دون مناقشة، طلب السيناتور ڤاليريوس الإذن بأخذ الكلمة. فواجهه المفوضون بالرفض وبالتهديد. حينها رد عليهم برفع الشكوى ضدهم أمام الشعب. واشتعل المجلس بذلك صخبا. بنفس الجرأة تقدم السيناتور Horatius للمواجهة، واصفا المفوضين العشرة بالطاركان العشرة، في إشارة للملك المخلوع طاركان المتغطرس. ثم قال : "إن الرجال من أسرتي ومن أسر باقي أعضاء مجلس الشيوخ كانوا على رأس الرومان الذين طردوا الملوك. لم يحصل طردهم بسبب التسمية بالملك الذي سُمي به الإله جوبتير والذي حمله روميلوس مؤسس روما مع من جاؤوا من بعده، والذي يقدسه الدين في طقوسه، لكن بسبب غطرسة وعنف الملوك وما أثاروه من سخط الشعب عليهم. ما لم يتحمله الشعب من ملك وابن ملك، فكيف يتحمله من مواطنين عاديين ؟ فاحذروا منع حرية الكلمة داخل مجلس الشيوخ حتى لا تدفعوننا لإسماعها خارجه. كيف أُمنع أنا كسيناتور من حقي في جمع الجموع والخطاب فيها، وقد منحتم أنتم لأنفسهم كمجرد مواطنين عاديين الحق في استدعاء مجلس الشيوخ للاجتماع ؟ عليكم وحدكم أن تقدروا كم هو مقدار الألم في صراعنا من أجل الحرية أكبر من مقدار الجشع في صراعكم من أجل الهيمنة. تطالبون مجلس الشيوخ بالمداولة في شأن الحرب ضد قوم الصابيين، وكأن للشعب الروماني أعداء أشرس من الذين عيّنهم للتشريع ولم يتركوا في الدولة ولا مجرد ظل للقانون. بسبب من انقلب كل شيء ؟ بسبب تعطيل الانتخابات والولايات السنوية والتداول على السلطة، تلك الضمانة الوحيدة للحفاظ على الحرية. من غيركم كمجرد مواطنين عاديين يحتفظون بسلاح القوة الشرعية مع سلطة ملكية ؟ ما أن تم طُرِد الملوك حتى تم إحدِاث مؤسسات لرجال الدولة من البطريقيين. من بعدها لما اعتصم العوام بالجبل المقدس تم إحدِاث مؤسسة لرجال الدولة من العوام. لكن لأي فئة تنتسبون أنتم ؟ لفئة العوام ؟ ماذا فعلتم إذا من أجلهم ؟ لفئة البطريقيين ؟ ألستم أنتم الذين لم تستدعوا مجلس الشيوخ طيلة مدة ولايتكم السنوية، ثم لم تجمعوه اليوم إلا لمنعه من الحديث عن الجمهورية. عوّلتم كثيرا على قسوتكم في الحكم. لكن ما يعاني الشعب منه اليوم هو أشد قسوة مما تخيفونه به".

"من بعد هذا الخطاب العنيف للسيناتور هوراتيوس، لم يجد منه المفوضون المنتهية ولايتهم ملجأ لا في الغضب ولا في الصبر، فلم يعرفوا كيف يخرجون من تلك الورطة. جاء حينها السيناتور كلوديوس،لإخراجهم منها بكلمته، وهو عم أبيوس زعيم المفوضية الشرس. كان حظ المجاملة في خطابه أكبر من حظ اللوم. صار يتوسل لابن أخيه أبيوس بأرواح آبائهما كي يلتزم باحترام علاقات المجتمع الذي ولد فيه، بدلا من الالتزام بتلك العلاقات المحرّمة التي عقدها مع زملائه. نبهه إلى أنه كان يوجه له الكلام لصالحه أكثر من صالح الجمهورية. إن لم تحصل الجمهورية على رضا زملائه المفوضين المنتهية ولايتهم، فستحصل يوما على حقوقها بالرغم عنهم. لكن حذره من أن الصدامات الكبرى تتولد عنها أحقاد أكبر. بالرغم من منع المفوضين كل حديث خارج عن مداولة موضوع الحرب، فقد أظهروا ما يكفي من الحياء كي لا يقاطعوا السيناتور كلوديوس الذي أنهى كلامه باقتراح ألا يتخذ مجلس الشيوخ أي قرار. فهم الجميع أنه كان لا يرى في المفوضين المنتهية ولايتهم سوى مواطنين عاديين. صفق له العديد من الحاضرين. ثم جاء رأي آخر، أكثر تهديدا في الظاهر لكنه أقل عدوانية. جاء يقترح تعيين وصي على السلطة بالجمهورية. لكن مجلس الشيوخ امتنع عن مداولة أي رأي كان فيه اعتراف ضمني بالمفوضين المنتهية ولايتهم كرجال دولة بسبب تجرئهم على استدعائهم المجلس للاجتماع. بل كان من شأن امتناعه عن الحسم في رأيهم أن يعيدهم لصفتهم الطبيعية كمواطنين عاديين".

"وفي الوقت الذي كانت قضية المفوضية معرّضة للفشل، أخذ الكلمة السيناتور Lucius Cornélius، وهو أخ Marcus Cornélius أحد المفوضين المنتهية ولايتهم. تعمد الحديث من بعد كل المتكلمين ليظهر اهتماما كبيرا بالحرب وللدفاع عن أخيه وزملائه. كان يقول : "أنا لا أفهم بأي قدر يلاقى المفوضون الحاليون المعارضة الوحيدة أو الأكثر عنفا من بين المفوضين السابقين. لا أفهم كيف من بعد شهور طويلة من دون خطر خارجي، لم يحتج أحد على عدم مشروعية المفوضية التي كانت تحكم الدولة، ثم تُزرع الفتنة بخصوصها فقط في الوقت الذي يوجد فيه الأعداء على الأبواب. اللهم إذا ما كان هناك مشروع مخطط لتنفيذه عند اندلاع الفتنة. الأمر المثير هو الوقت الذي صحت فيه العناية بقضايا جدية لم يذكر أحد منكم هذه المسألة الخطيرة. من رأيي ألا يعود المجلس لمناقشة مزاعم السيناتوريْن ڤاليريوس وHoratius، اللذين يدّعيان أنه كان على المفوضين التخلي عن سلطاتهم منذ متم ولايتهم السنوية، إلا من بعد الخلاص من الحروب التي على الأبواب وعودة الجمهورية لهدوئها. حينها سيكون على المفوضين الاستعداد للإجابة على تساؤلات جموع الشعب التي دعاها هو للتصويت على المفوضية الجديدة هل دعاها للتصويت عليها لمدة سنة أم إلى حين انتهائها من التصويت على القوانين التي أعدتها المفوضية. أما الآن فلا نقاش في أي أمر من غير الحرب. إذا كان هناك شك في وقوعها فعلى المجلس إرسال بعثة لتقصي الحقيقة. أما إذا كنتم تعتقدون أن تلك الأخبار صحيحة فعليكم إعلان النفير العام حالا كي يقود المفوضون الجيوش إلى حيث يجب. ولا شيء يُقدّم على هذا الإجراء"".

"كان شباب أعضاء المجلس يلحون على اتباع ذاك الرأي. لكن السيناتور ڤاليريوس والسيناتور Horatius، قاما معترضين، وهما يفضلان البداية بالحديث عن الجمهورية. هددا بالتوجه مباشرة للشعب إن وُجدت في المجلس فئة تمنعهما من إسماع صوتهما. كانا يرفضان أن يجبرهما مواطنون عاديون على الصمت أمام مجلس الشيوخ وأمام الشعب. لن تجبرهما أسلحة حراسهم الواهية على التراجع. قدر حينها أبيوس أن المفوضية قد انتهى أمرها إلم يواجه ذلك العنف بإقدام يساويه في القوة. فصاح يقول : "ويل لكل صوت يعلو للحديث في موضوع غير الحرب". بما أن السيناتور ڤاليريوس أكد عدم الالتزام بالصمت بأمر من مواطن عادي مثله، تقدم أبيوس في اتجاهه أحد حراسه. إلا أن ڤاليريوس كان حينها قد وصل لعتبة المجلس وهو يستنجد بالشعب. فأمسك السيناتور Lucius Cornélius بـ أبيوس لتهدئته ووضع حدا لذلك الجدل بالسماح للسيناتور ڤاليريوس بحرية الكلام في المجلس. سوى أن تلك الحرية ما أثمرت إلا اعتراضات مكّنت المفوضين من الحصول على ما يريدون. كان كبار البطرقيين ما يزالون يحقدون على مؤسسة نيابة العوام التي أتعبتهم في الماضي. العوام في نظرهم، يريدون عودتها من جديد أكثر من عودة سلطة القنصلية. فكانوا يفضلون انتظار استقالة المفوضين بإرادتهم على ثورة العوام من جديد بسبب الحقد عليهم. لذا كانوا يقولون أنه من دون التدخل العنيف لجموع العوام، ستتحول السلطة من المفوضية إلى القنصلية. ويمكن حينها أن ينسى العوام الحاجة لنوابهم بفضل حسن معاملة القنصلين الجديدين لهم في الحرب كما في السلم". لكن ما أن استسلم مجلس الشيوخ للمفوضية المتهية ولايتها حتى دخلت في اشباك مع العوام. ذلك الصراع الذي أنهى عهدها الاستبدادي ومكن من عودة نظام الحكم الرستو-ديمقراطي. فماذا عن هذا الصراع العمودي بين الشعب والاستبداد ؟

الصراع العمودي بين الشعب والمفوضية

يقول تيت ليف : "لم يعترض أحد من مجلس الشيوخ على التجنيد للنفير العام. وخوفا من حكم المفوضين الذي لا مراجعة فيه سجل الشباب أسماءهم في لوائح الجنود. عيّن المفوضون من بينهم من سيقود الجيوش ومن سيحارب. لكن الحرب بالداخل كانت تنذر بأن تكون أشرس من الحرب بالخارج. بقي أبيوس زعيم المفوضين مع أحد زملائه في المدينة للدفاع عنها. فتجمعت في يديهما ما تفرق من سلطة بين كل المفوضين. كان مزاج أبيوس مهيأ بالأحرى لخنق أي تمرد شعبي. كُلف فابيوس زميله في زعامة المفوضية بالحرب على قوم الصابيين. وهو الذي كان حماسه في فعل الشر أكبر من جلده في فعل الخير. تميز من قبل كمواطن وكجندي. لكن المفوضية أثرت فيه حتى صار يقلد زميله أبيوس أكثر مما كان يحبه الناس أن يكون".

"كانت الجمهورية تعيسة بالداخل وبالخارج. ذنب القادة الوحيد كان هو جلبهم لسخط الشعب عليهم. لمنع أي انتصار في ظل قيادة المفوضين تعمد الجنود جلب الهزيمة لجيشهم وإن كان ثمن ذلك هو الخزي والعار لهم ولقادتهم. بلغ الرعب في روما مداه حتى أن مجلس الشيوخ نسي حقده على المفوضية وأمر بإقامة أماكن للحراسة بالمدينة وبإجراءات أخرى من شأنها أن تُبعد عن العدو فكرة الحصار".

"وعلاوة على تلك الكارثة العسكرية ارتكب المفوضون جريمتين شنيعتين، واحدة بالمعسكر والثانية بروما. كان سيكسيوس بطلا عسكريا ومنافحا عن حرية إخوانه من العوام. خرج مع الجيش للحرب على قوم السابيين. لكنه كان يستغل حقد العوام على المفوضين لتحريض الجنود سرا على الثورة من أجل إعادة الحياة لمؤسسة القباء بروما. بعثه المفوضون في ميدان الحرب للتعرف على موقع من أجل إقامة المعسكر وأمروا من رافقه من الجنود الموالين لهم بالتخلص منه في أول مكان مناسب. لكنه بتجربته لم يترك تلك الخيانة من دون انتقام لنفسه. قاتل من غدروه بالشجاعة التي تليق بقوته الخارقة، وترك العديد منهم صرعى من قبل أن يتمكن من تبقي منهم من قتله. والذين عادوا للمعسكر زعموا أنه قتل هو وباقي الجنود في كمين نصبه لهم العدو".

"في أول الأمر صدق الجنود من العوام تلك المزاعم. فخرج منهم فريق بأمر من المفوضين للقيام بواجب دفن القتلى في ذلك الكمين المزعوم. لكن لما وجدوهم ما يزالون بكامل أسلحتهم ووجوههم كلها متجهة نحو Siccius في وسطهم، ومن دون جثمان أي عدو من حولهم ولا أي أثر لانسحابهم، تيقنوا من أن Siccius قد قتل غدرا من طرف جنوده. عادوا بجثته للمعسكر من بعد دفن الباقين. بلغ الغضب في المعسكر مداه. أراد الجنود نقله حالا لروما. لكن المفوضين أسرعوا بمنحه مراسيم دفن عسكرية على حساب الدولة. فواروا جثمانه التراب مغمورا بعميق أسف الجنود، مع البغض الذي كان يثيره إسم المفوضية بين العوام".

"ثم شهدت المدينة جريمة منكرة أخرى نتيجة مجون حاكمها المفوض أبيوس. تلك الجريمة التي لا تقل خطرا في مضاعفاتها عن جريمة هتك عرض الأميرة لوكراس وانتحارها لمحو عار ما أصابها، ثم كانت سببا في التعجيل بطرد الملك طركان المتغطرس من المدينة وفي إنهاء عهد الملكية بروما. كما لو أن تلك المفوضية كان قدرها أن تفقد سلطتها بنفس الأسباب وتنتهي تماما كما انتهت الملكية".

"اشتعلت نار شغف المفوض أبيوس حبا آثما بفتاة من العوام. كان أبوها ڤيرجينيوس مواطنا مثاليا ومن خيرة قواد الكتائب بالجيش. كانت ابنته ڤيرجيني مخطوبة للشاب Luciusإيسيليوس، وهوأحد نواب العوام السابقين، ومن الرجال المرموقين بين قومه. لكن أبيوس تعلق بحب تلك الفتاة وهي في عز عمر الشباب وبريق الجمال. صار يتقرب إليها لإغرائها بالهدايا والوعود. ولما تيقن من أن عفتها تمنعه من الوصول لمبتغاه الآثم، قرر اللجوء إلى سلوك سُبل المكر والقسوة البشعة. فأوعز إلى أحد مواليه من العوام Marcus كلوديوسكي يطالب بها على أساس أنها أمَته لكونها بنت أمَة في ملكه".

"وفي غياب أبيها خارج روما مع الجيش، لجأت الفتاة ڤيرجين إلى الساحة العامة حيث توجد مدارس الآداب. فجاءها زبون أبيوس ووزيره في المجون، ليضع يده عليها وهو يصيح : "أنت ابنة أمَتي، وبذلك فأنت أمتي، وعليك أن تتبعينني، وإن أبيْت فسآخذك بالقوة". فأخرسها الرعب وهي ترتعش. لكن خادمتها صارت تصيح وتصرخ لتستنجد بمن في الساحة العامة، إلى أن تجمعت الجموع من حول الفتاة. تعرفوا عليها وصار إسم أبيها واسم خطيبها المشهوران والمحبوبان على كل الألسن. التف حول الضحية الأصدقاء علاوة على الجموع المستاءة من هول الجريمة. صارت ڤيرجيني بذلك في مأمن من كل عنف. حينها صاح الجاني كلوديوس يقول بأنه لا فائدة من تجييش الناس، لأنه يريد اللجوء للعدالة وليس للعنف. ورفع بها دعوى إلى محكمة سيّده أبيوس. فتبعها الحاضرون للوقوف معها وللدفاع عنها".

"لما فُتحت الجلسة أمام أبيوس شرع المدعي في سرد خرافته المعروفة جيدا للقاضي، لأنه كان هو نفسه مؤلفها. كان يقول : "الفتاة ولدت من أمَة لي في بيتي. ثم هُرّبت خلسة لبيت ڤيرجينيوس الذي أوهمه من خطفها بأنها ابنته. وسأقدّم الأدلة على مزاعمي، وسأضعها تحت أعين ڤيرجينيوس نفسه حتى يقتنع بأنه هو المتضرر أكثر من غيره بتلك الخدعة". قام المدافعون عن الفتاة يقولون أن ڤيرجينيوس غائب في خدمة الجمهورية، وأنه سيحضر في ظرف يومين إن تم إخباره بما يقع، وأنه من الظلم تقرير مصير أبنائه في غيابه. طالبوا القاضي أبيوس بتأجيل النظر في كل القضية إلى حين وصول الأب، وأن يُمنح السراح المؤقت للفتاة، باسم القانون الذي شارك هو في سنّه، وألا يتحمل مسؤولية تعريضها لفقد شرفها بفقد حريتها".

"حينها أخذ المفوض والقاضي أبيوس الكلمة، وقال أن السراح المؤقت مدوّن حقا بالقانون، كما قال أصدقاء أب الفتاة المدعَى عليها. لكن ذلك السراح مطلوب فقط في حال طلب العبد العتق من العبودية. أما هذه الفتاة، فهي خاضعة لسلطة الأب. ولا يمكن أن يسلمها سيدها لأحد سوى للأب نفسه. يجب اذا إحضاره. وحتى ذلك الحين لن أجبر المدعي على التضحية بحقوقه. من حقه أن يسحب معه الفتاة، مع تعهده بإحضارها من جديد للمحكمة يوم وصول أبيها".

"لما بدأ هذا القرار الظالم يثير صخبا وجلبة أكثر من دفع الناس للاحتجاج، تقدم كل من عم الفتاة Numitorius وخطيبها إيسيليوس، وفتحت لهما الجموع الطريق، وهي تعتقد أن الخطيب كان الأقدر على الاعتراض على قرار القاضي أبيوس. لما صرح حارس القاضي بأن القرار قد اتُّخذ وهمّ بدفع خطيبها إيسيليوس ليقبض على الفتاة بالرغم من صراخه، انفجر غضبه وصاح في وجه القاضي ليقول له : "إن كنت تنوي التغطية بالصمت على مخططاتك الغامضة فلن تبعدني يا أبيوس من هنا إلا مصفدا في الحديد. هذه الفتاة البكر ستكون زوجتي. وأريدها عفيفة وطاهرة. فاجمع حراس كل زملائك وأمرهم بتهييئ سياطهم وبلْطاتهم. لن تؤخذ خطيبتي إلى غير بيت أبيها. لا، بالرغم من فقداننا لمؤسسة نيابة العوام وللحق في الاستنجاد بالشعب، ذلك الصرح العظيم للحرية الرومانية، ما سلمنا بعدُ نساءنا وأبناءنا لاستبداد أهوائك ومجونك. استعمل عسفك وشططك على أبداننا وعلى رؤوسنا، لكن فليبقى شرفنا مصونا. إذا ما طال عنفك هذه الفتاة سنستنجد أنا خطيبها ومن معي بالرومان الذين يسمعونني. سيستنجد أبوها ڤيرجينيوس بجنود الجيش وبنا جميعا، وبالآلهة وبكل الرجال. لن تنفّذ أمرك إلا من بعد ذبحنا جميعا. أدعوك يا أبيوس للنظر مرتين فيما ستقدم عليه. ڤيرجينيوس أب الفتاة، سيرى ماذا سيفعل لإنقاذ ابنته. وليعلم فقط أن عليه البحث لها عن زوج غيري إن هو أذعن ولو لبرهة من الزمن لمطلب المفتري كلوديوس. أما أنا فسأظل أطالب بالحرية لخطيبتي، وقد أفقد الحياة لكن لن أفقد المثابرة"".

"تأثرت الجموع، وصار قيام صراع عنيف وشيك الوقوع لما أحاط الحراس بخطيب الفتاة. لكن لم تتعدى خطواتهم درجة التهديد. قام حينها القاضي أبيوس وقال : "إن إيسيليوس لا يدافع عن خطيبته. بل هذا الرجل المشاغب، الذي ما يزال يتنفس النيابة عن العوام، يريد إشعال الفتنة. لن أمنحه اليوم الفرصة لتحقيق مبتغاه. وليعلم، على أي حال، أنني قررت تعليق مهمتي كقاضي، وبذلك علقت تنفيذ قراري، ليس بسبب صراخه وصخبه، وإنما بسبب غياب والد الفتاة واحتراما مني للحرية. أما أنت يا كلوديوس فأدعوك للتنازل عن قليل من حقك، وأن تسمح للفتاة بالتمتع بحريتها إلى حين يوم الغد. إن لم يحضر حينها الأب فإنني أخبر إيسيليوس وأمثاله أن قراري سيصدر عني كمشرّع لا يخرق القوانين التي سنها بنفسه، وليس كمفوض متعني بقوته. لن أكون في حاجة لجمع حراس كل زملائي كي أعيد الضالين إلى جادة الصواب. بل حراسي فقط سيكفونني لذلك"".

"فور تأجيل ذلك القرار الآثم، أرسل المدافعون عن الفتاة ڤيرجيني إثنان من أقوى شبابهم إلى المعسكر لإحضار أبيها، كي ينقذها من ظلم القاضي أبيوس . بما أن المدعي كان يطالب بكفالة تضمن له حضور الفتاة لجلسة المحكمة اللاحقة، قال خطيبها بأنه يتكفل بذلك لربح الوقت، ورفعت الجموع أيديها من كل جانب معلنة بذلك عن استعدادها لضمانه، فأطلق سراح الفتاة بكفالة من أقاربها. بقي القاضي أبيوس في مجلسه لبعض الوقت حتى لا يظهر مشغولا فقط بتلك القضية. لما كانت العناية بقضية الفتاة قد سلبت الاهتمام من باقي القضايا، لم يتقدم من بعدها أحد للقاضي، الذي عاد فورا لمنزله وكتب لزملائه بالمعسكر يأمرهم بمنع كل رخصة عن الأب ڤيرجينيوس، وبوضعه تحت مراقبتهم. لكن هذا الأمر الخبيث وصل متأخرا عن المقصود منه من بعد ما حصل الأب على الرخصة الليلة السابقة وانطلق مسرعا إلى روما".

"في اليوم الموعود أصبحت روما كلها في حالة ترقب. جاء ڤيرجينيوس أب الفتاة إلى الساحة العامة في لباس الحزن من قماش متقطع ومحفوفا بعدد من المدافعين عنه. وجاءت معه ابنته مرفوقة بالعديد من النساء المسنات. طاف على جموع المواطنين الحاضرين يطالبهم بمآزرته، ليس من باب التوسل إليهم، بل اعترافا منهم له بالخدمات التي قدمها للوطن. كان يقول لهم : "كنت كل يوم في ساحة المعركة من أجل الدفاع عن نسائكم وعن أبنائكم. لم يُعرف جندي مثلي في الشجاعة والإقدام. لكن ما الفائدة إن كانت المدينة تنعم بالأمن وأبناؤكم مجبرون فيها على تحمل الرعب وكأنها قد انقض عليها العدو؟". هكذا كان يحمس المواطنين وهو يجول من بينهم. وكانت تنطلق من فم lcilius خطيب الفتاة شكاوى مماثلة. لكن موكب النساء الباكيات في صمت كان أكثر تأثيرا".

"إلا أن مزاج أبيوس المفوض العنيد تصلب ضد ذلك الوضع، وسيطر على عقله الهذيان أكثر من سيطرة العشق على قلبه. لما جلس على كرسي القضاء، تكلم المفتري كلوديوس وقال أنه من أجل إرضاء الجموع حُرم بالأمس من أخذ حقه. فقاطعه القاضي، ومن دون أن يعطي لأب الفتاة فرصة الدفاع عنها، تكلم لينطق بالحكم لصالح صاحبه، وأمر باسترداد الفتاة ڤيرجيني أمة له. فكان الاندهاش هو سيد الموقف من ذاك الحكم القاسي والمجحف. تبعته هنيهة من الصمت. لكن ما أن تقدم كلوديوس إلى وسط النساء لسحب الفتاة ڤيرجيني حتى واجهته بالبكاء الصاخب والصراخ والنحيب من شدة الحزن والألم. حينها رفع الأب ڤيرجينيوس دراعه مهددا القاضي أبيوس بقوله : "لقد رضيت بابنتي خطيبة لـ إيسيليوس، وليس أبدا جارية لك يا أبيوس. لقد ربيتها من أجل عرض شريف وليس من أجل أن تكون ضحية لخزي مجونك. أنت تريد كالوحوش الضارية أن تطأ من دون تمييز كل امرأة تطالها شهوتك. هل ترضون ذلك منه لنسائكم أيها المواطنون ؟ لا أدري. لكن أنا على يقين أن جنودنا بأسلحتهم في المعسكر لا ولن يرضوه أبدا". حينها دفع مجموع النساء المفتري كلوديوس بعيدا عن الفتاة".

"إلا أن المفوض أبيوس، مع تزايد جنون أهوائه الآثمة، صاح يقول : "لقد جئتُ إلى الساحة العامة برجالي وبأسلحتهم متهيئا لمواجهة عنف أتوقعه، وليس لإرهاب المواطنين الآمنين. وليس ذلك بسبب شتائم lcilius خطيب الفتاة البارحة، ولا بسبب عنف أبيها اليوم. لكن بسبب ما وصلني من خبر اليقين عن مؤامرة حيكت في السر الليلة الماضية من أجل إثارة الفتنة في المدينة. بالطريقة التي تليق بمقام سلطتي سأقمع أي شغب يهدد هدوء روما. التزموا إذا بالهدوء، لأن ذلك هوالموقف الحكيم. واذهب أنت أيها الحارس وأبعد الجموع وافتح طريقا للسيد كلوديوس كي يتمكن من أخذ أمته". ومن شدة قوة اللهجة التي تكلم بها المفوض أبيوس، فسحت الجموع الطريق عن طواعية للحارس وتركت الفتاة فريسة لمختطفيها".

"حينها لم يعد للأب من أمل في إنقاذ ابنته من الخزي والعار. فنادى القاضي يستعطفه قائلا : "أبيوس أرجوك، اعف قبل كل شيء من أجل ألم أب عن مرارة شكاويه. اسمح لي هنا أمام الفتاة أن أسأل مربيتها عن كل الحقيقة". فسمح له أبيوس بذلك. ولما أخذ الفتاة ومربيتها قريبا من معبد بالجوار، أخذ سكين جزار بقرب منه، وقال : "يا بُنيّتي، هذا هو الحل الوحيد الذي بقي لي كي أحافظ عليك حرة". ثم غرس السكين في قلبها، ورفع نظره للقاضي ليقول له : "يا أبيوس بهذا الدم أوكل رأسك للآلهة". مع الصراخ الذي صاحب ذلك المشهد الرهيب أمر المفوض بالقبض على ڤيرجينيوس. لكن الأب فتح بيد من حديد سبيلا للفرار، وبحماية الجموع التي تبعته استطاع أخيرا الوصول لباب المدينة والخروج من روما".



لوحة تجسد مقتل الفتاة فرجينيا من طرف أبيها بسكين جزار

"ثم رفع خطيب الفتاة وعمها جثمانها الدامي ليُريانه للناس وهما يشتكيان من هول الجريمة ومن ذاك الجمال المُهلك ومن تلك الضرورة المفجعة التي حُشر فيها الأب لإنقاذ عرض ابنته وشرف أسرته. كان من ورائهما النساء يصحن : "ألهذا المصير المأساوي تُنجب الأبناء ؟ أهذا هو ثمن العفة ؟". ثم استسلمن لكل ما يوحي به لهن مثل هذا الظرف الأليم من الأمور الأكثر وجعا والأكثر تأثيرا، ولا سيما والحساسية عندهن عالية بمقدار ضعف عقولهن. لكن الرجال وبخاصة إيسيليوس خطيب الفتاة، ما كان لهم من حديث سوى عن عودة سلطة مؤسسة نيابة العوام وعودة الحق في الاحتكام للشعب، وكل سخطهم كان من أجل الوطن".

قد جد من الباحثين من يشكك في صحة هذه الواقعة الأليمة التي عجّلت لاحقا بسقوط سلطة المفوضية. ذلك فقط لتشابهها بانتحار الأميرة لوكراس الذي عجل بسقوط الملكية سابقا. لكن لا أحد يشكك أنها جزء من كتاب المؤرخ تيت ليف، ولا في أنه استقاها هو مما توفر لديه من مصادر. لذا سواء كان حدثا واقعيا أم مجرد حكاية من نسيج خيال القصاصين، فإنها تحمل مع ذلك في طياتها ما كان سائدا من قيم اجتماعية وسياسية قرونا قبل الميلاد، وحتى عصر المؤرخ تيت ليف المتوفى سنة 17م. الأمر يتعلق بقيمة العفة وشرف العرض من جهة وبقيمة الحرية التي كانت تعني حكم الشعب نفسه بنفسة وبتفويض منه عبر مؤسسات منتخبة في ظل دولة الحق والقانون. تلك القيم التي تجلت هنا وهناك في الصراع بين المدافعين عن العفة وشرف العرض في وجه أهل الفسق والمجون من جهة، وفي الصراع المتواصل بين المدافعين عن حرية الشعب في وجه هيمنة فئة الكبار واستبداد الحكام من بينهم من جهة ثانية.

ثم يقول تيت ليف : "صارت الجموع تتحرك بفعل بشاعة الجريمة وعلى أمل أن يكون في ذلك فرصة مناسبة لاستعادة الحرية. دعى حينها القاضي خطيب الفتاة Icilius للمثول أمام محكمته. مع رفضه للأمر بالقبض عليه، وبما أن الجموع كانت تمنع الاقتراب منه، عمد أبيوس إلى شقها وتقدم متبوعا بثلة من شباب البطريقيين، ثم أمر الحارس باقتياده في الحديد. لكن كانت تُرى من حول Icilius الجموع يتقدمها السيناتور Luciusڤاليريوس والسيناتور Marcus Horatius اللذان دفعا حارس المفوض، وهما يقولان بأنهما يضمنان إيسيليوس ويحميانه من حكم مواطن عادي. وإن عزم على استعمال العنف فسيعرفان كيف يردان عليه. فاحتدم الصراع بقوة. وهمّ حارس المفوض برفع يده على كل من السيناتور ڤاليريوس والسيناتور Horatius. لكن الجمهور كسر أسلحة حراس المفوض أبيوس الذي اعتلى حينها المنبر وتبعه إليه السيناتوران. فصار الشعب ينصت إليهما ويغطي على صوت المفوض بالضجيج. حينها باسم السلطة العليا أمر السناتور ڤاليريوس الحراس بالابتعاد عن حماية مواطن عادي. لما أحبطت شجاعته وخاف على حياته عمد أبيوس إلى تغطية رأسه بجبته كي لا يُعرف، وهرب متخفيا للاختباء بمنزله بجوار الساحة العامة. ثم جاء زميله لإنقاذ الموقف. فرأى سلطة المفوضية قد انهارت بالقوة. صار يتلقى ألف رأي من كل جانب. قرر أخيرا استدعاء مجلس الشيوخ. فعم العوام الهدوء لما رأوا أكثر البطريقيين معارضين لسلطة المفوضين، وغمرهم الأمل في إنهاء مجلس الشيوخ لحكمهم. وكان من رأي المجلس الكف عن استفزاز العوام والتفكير في منع ثورة الجيش بوصول ڤيرجينيوس أب الفتاة للمعسكر".

"فبعث المجلس أصغر سيناتور إلى المعسكر يأمر المفوضين بالعمل على الحيلولة دون قيام أية ثورة بين الجنود. لكنڤيرجينيوس أب الفتاة، الذي وصل قبله، كان قد أثار بينهم هيجانا أكبر من الذي شهدته روما. ولا سيما لما وصل إلى المعسكر مصحوبا بموكب من قرابة أربعمائة مواطن دفعتهم المآسي التي شاهدوها بالمدينة إلى الالتفاف من حوله لدعمه.

السكين التي ما زالت بيده ودم ابنته الذي ما يزال على بدنه وعلى ملابسه جلبا له الأنظار وزادا من حجم جموع الجنود من حوله. فكانوا يسألونه ما الخطب ؟ لكن ما كان له من جواب سوى الدموع. ثم ما أن تكاثر عدد الحاضرين من حوله حتى طُلب منهم الصمت واسترسل في سرد الأحداث بكل تفاصيلها. ورفع يديه متوسلا لرفاقه في السلاح بقوله : "لا تحمّلوني هول جريمة ارتكبها أبيوس. بل هو قاتل ابنتي. حياتها عندي كانت أغلى من حياتي لو أن أبيوس تركها حرة وطاهرة. لكن رؤيتها جارية مقتادة للخزي والعار في فراشه، فلا. موت أبنائي أفضل لي من رؤيتهم مدنسين بالفاحشة. هكذا تحول عطفي الأبوي إلى قسوة. ما كنت لأعيش من بعدها لولا الأمل في القصاص وفي الانتقام لموتها بمساعدتكم أنتم رفاقي في السلاح. أنتم أيضا لكم بنات وأخوات وزوجات. واعلموا أن موت ابنتي لم يطفئ بعد نار شغف أبيوس الفاحش. إفلاته من العقاب لن يزيده سوى إقداما على المجون والإجرام. لكم في مأساتي عبرة كي تحتاطوا لأنفسكم من التعرض لمثل تلك المهانات. أما أنا فقد سلبني القدر ابنتي التي ما سمح لها بأن تعيش عفيفة فماتت موتة مأساوية. لكن لم تمت بموتها الفضيلة. بموتها لم يستطع أبيوس إشباع رغباته الآثمة في أسرتي. كل عنف منه ضدي سأدفعه بنفس الشجاعة التي دفعت بها الخزي والعار عن ابنتي. بقي عليكم أنتم حماية أنفسكم من عنفه وحماية عرض دويكم من فحشه"".

"كان جواب الجموع أن لا بد من وضع حد لتلك الآلام، ولا بد من استعادة الحرية. مواطنون مختلطون مع الجنود بالمعسكر، الجميع كان يردد نفس الجواب. كان في ذلك المشهد رهبة أكبر من تلك التي شعروا بها مع سرد الأحداث. كانوا يرددون أن تلك كانت نهاية المفوضية بروما، لما جاء منها آخرون وهم يقولون بأن المفوض أبيوس هرب شبه ميت للمنفى. كل شيء كان يدعو الجنود لحمل السلاح والعودة للمدينة. كان المفوضون في اضطراب مما يرون بالمعسكر ومما يسمعون عن روما. صاروا يتنقلون إلى كل جانب لتهدئة ذلك الهيجان، لكن من دون جدوى. ما كان أحد يسمع لهم وهم يستعملون الليونة وما كان بوسعهم استعمال السلطة والقوة كانت بيد رجال مسلحين". هنالك لجأ العوام مرة ثانية لسلاح الاعتصام بالجبل المقدس الذي صار معقلهم. ومنه صاروا يساومون مجلس الشيوخ على مستقبل نظام الحكم. فماذا عن نتاجذلكالاعتصام ؟

يقول تيت ليف : "خرج الجنود يسيرون في نظام نحو المدينة، إلى أن احتلوا معقلهم كعوام، بجبل l'Aventin. ومنه صاروا يحثون الشعب على استعادة حريته وعلى إحياء مؤسسة النيابة عن العوام من جديد، لكن من دون تهديد. استدعى المفوض زميل أبيوس الهارب مجلس الشيوخ للاجتماع. امتنع المجلس عن كل إجراء عنيف لأن المفوضين هم من كانوا سببا في ذلك التمرد، وفضل التفاوض مع الجنود المعتصمين بالجبل. أرسل إليهم ثلاثة من أعضائه يسألونهم باسم المجلس، بأي أمر غادر الجنود المعسكر ؟ وما الذي ينوون فعله باحتلالهم المسلح لجبل l'Aventin ؟ هل تخَلّوا عن حرب العدو لاحتلال وطنهم ؟ لم يعدموا أجوبة على كل تلك الأسئلة. لكن كان ينقصهم من يتكلف بعرضها. كانوا من دون زعيم معلن ومصرح به. ما كان من بينهم أحد يجرؤ على ذلك، خوفا مما قد يلاقيه من حقد ومتاعب. لكن انطلق من تلك الجموع صياح مُجمع على أن يبعث لهم المجلس السيناتور ڤاليريوس والسيناتور Horatius، فهما من سيتلقى أجوبتهم".

"ما أن غادر رُسل المجلس الجبل حتى قال ڤيرجينيوس للجنود المعتصمين به : "في هذا الأمر الهين وجدتم أنفسكم في حرج بسبب غياب قائد لكم. وقراركم ذاك كان بالأحرى مجرد اتفاق عفوي بدلا من أن يكون نتيجة لتداول رزين فيما بينكم. فأحثكم إذا على اختيار عشرة من بينكم وعلى توشيحهم بلقب عسكري وتسميتهم نقباء الجنود tribuns des soldats". ولما كان يعرف أنهم سيشرفونه بأن يكون هو أول نواب الجنود العشرة، سارع إلى القول : "من الأفضل لي ولكم أن تأجّلوا تشريفي ذاك إلى أوقات مناسبة. موت ابنتي من دون انتقام لها يمنعني من تذوق أي مجد. ثم في جمهورية مثخنة بالاضطرابات لا يصلح أن يكون من بين قادتكم رجال مثقلون بأكبر الأحقاد. ومتى صار بوسعي خدمتكم فسأفعل. أما الآن فسأخدمكم كمجرد مواطن عادي". هكذا تشكلت مؤسسة نواب الجنود العشرة".

"الجيش الذي كان في حرب مع قوم الصابيين لم يسلم من نفس الهيجان. لحق به هو كذلك كل من إيسيليوس خطيب الفتاة ڤيرجيني المقتولة وعمّها، وأثاراه بسرد أحداث روما. تمرد الجنود وانفصلوا عن قوادهم من المفوضين. لما وصلهم خبر ڤيرجيني ضحية مجون أبيوس زعيم المفوضن بروما، كان اغتيال زملائهم للجندي سيكسيوس غدرا ما يزال طريا في ذاكرتهم. ولما سمع إيسيليوس خطيب الفتاة، بخبر تشكيل نواب الجنود العشرة بجبل لاڤانتين خشي من أن يُنتخبوا كذلك نوابا للعوام بروما. لعلمه المسبق بعادات هيئات العوام الترابية وبطمعه في شرف نفس اللقب، شكل بدوره في ذاك الجيش، وقبل السير به لروما، عشر نقباء للجنود آخرين وبنفس السلطة. من بعدها التحقوا ببقية الجيش المعتصم بجبل لاڤانتين خشي. فصار لجنود العوام عشرون نقيبا عسكريا. وتقرر انتخاب إثنان منهم لإدارة الشؤون العامة العليا".

"وصار مجلس الشيوخ في اجتماع دائم من شدة الخوف على مستقبل الجمهورية. لكنه كان يستهلك وقته في الجدل بدلا من المداولة، مع التركيز على قضية اغتيال المفوضين للجندي سيكسيوس غدرا وعلى شعف المفوض أبيوس الآثم بفتاة من العوام وعلى كوارث الجيشين. فاتفق أعضاؤه على تلبية طلب المعتصمين بجبل لاڤانتين بإرسال السيناتورين ڤاليريوس وهورتيوس للتفاوض معهم باسم مجلس الشيوخ. لكنهما رفضا المهمة، واشترطا لقبول القيام بها إجبار

المفوضين على التنازل عن السلطة بحجة انتهاء ولايتهم القانونية منذ السنة التي خلت. رد المفوضون على ذلك الشرط بامتناعهم عن تسليم السلطة قبل المصادقة على القوانين التي من أجلها أحدثت مؤسستهم".

"حينها أقنع أحد نواب العوام السابقين الجنود المعتصمين بجبل لاڤانتين بأنهم لن يحصلوا على شيء بمجرد التفاوض. ونصحهم بالتحول للاعتصام مرة أخرى بالجبل المقدس. كان يقول لهم : "ما دمتم لم تغادروا المدينة فلن تشكلوا مصدر قلق لمجلس الشيوخ. الجبل المقدس سيذكره بثباتكم على مبادئ سلمية الاحتجاج، وسيقنعه بأن عودة سلطة مؤسسة نيابة العوام للحياة هو السبيل الوحيد لعودة الوفاق والسلام لروما". انتقلوا إلى الجبل المقدس مقتدين في ذلك باعتدال وسلمية احتجاج آبائهم سابقا، بعيدا عن كل عنف. تبع العوامُّ الجيشَ، ولم يبقى من ورائهم في المدينة أي منهم يسمح له عمره بذلك. كان من ورائهم نساؤهم وأبناؤهم يسائلونهم بحزن وألم لماذا يتركونهم في مدينة لم تعد فيها قدسية للعفة ولا للحرية". وأسفرت أخيرا المفاوضات عن سقوط عهد المفوضية وعودة العمل بنظام الحكم الأرستو-ديمقراطي. كيف حصل ذلك .

عودة الحرية بنهاية عهد المفوضية

يقول تيت ليف : "لم تعد روما سوى خلاء واسعا وغريبا. لما استُدعي مجلس الشيوخ للاجتماع ولم يظهر لأعضائه بالساحة العامة سوى بعض الكهول، تراءت لهم المدينة وكأنها صحراء مخيفة. التحقت حينها بالسناتور ڤاليريوس والسيناتور Horatius أصوات عديدة من المجلس، تصيح وتقول : "ماذا تنظرون أيها السيناتورات ؟ إلّم يضع المفوضون حدا لعنادهم، هل تطيقون أن ينهار كل شيء في انفجار عام ؟ ماذا عساها أن تكون سلطة تلك المفوضية حتى تتحرجوا منها ؟ هل تسنّون قوانين للسقوف والحيطان ؟ ألا تخجلون من رؤية عدد حراس رجال الدولة بالساحة العامة أكبر من عدد المواطنين ؟ ما أنتم فاعلون لو انقض العدو الآن على المدينة ؟ ما أنتم فاعلون حين يتقدم الشعب لروما مسلحا، لما لا يرى جدوى من بقائه معتصما بالجبل المقدس ؟ هل من الضروري أن تسقط روما كي تستعيدوا سلطتكم ؟ أنتم في خيار بين الاستغناء عن العوام أو إرجاع سلطة نوابهم للحياة. قد نستغني عن رجال الدولة منا نحن البطريقيين، ولن يستغني العوام أبدا عن نوابهم. من قبل أن يعرفوا تلك المؤسسة ومن قبل أن يجربوا قوة سلطتها استطاعوا انتزاعها وإحداثها من آبائنا. أما وقد ذاقوا حتى الآن امتيازاتها، هل تظنون أنهم سيتخلون عنها ويفرطون فيها، ولا سيما في وقت لا تتوقف السلطة الحالية عن استفزازهم ؟ بل زاد ذلك عندهم من قوة الشعور بالحاجة الضرورية لمؤسسة تساندهم وتحميهم". جاء ذلك اللوم من كل صوب بالمجلس. فقط حينها أذعن المفوضون لذلك الإجماع وسلموا مصيرهم للمجلس. وتوسلوا لأعضائه بحمايتهم من انتقام الجموع، حتى لا يتعود العوام بتعذيبهم على رؤية دم البطريقيين يسيل في الشوارع".

"وحينها فقط قبل السناتور ڤاليريوس والسيناتور هوراتيوس مهمة الوساطة بين المجلس وبين العوام المعتصمين بالجبل المقدس، مع تعليمات من المجلس بتحديد الشروط المناسبة لعودتهم للحياة العادية، ومن أهمها اشتراط حماية المفوضين المستقيلين من أي انتقام. انطلق السيناتوران، ولما وصلا استقبلهما المعتصمون بفرح كبير. كانت جهودهما هي البداية لحركة تحريرهم. وها هي اليوم تتمة تلك الجهود، بصدد تتويج تلك الحركة بالنصر للحرية. لذا استقبلهما العوام المعتصمون بما يليق بهما من اعتراف بالجميل. وكان إيسيليوس نقيب الجنود المنتخب هو المتحدث الرسمي باسم كل العوام في تلك المفاوضات. طلب منه مبعوثا مجلس الشيوخ أن يبسط لهم مطالب موكليه. كمترجم وفيّ لما سبق أن اتفق عليه موكلوه، بسط إيسيليوس اقتراحات تبرهن بطبيعتها على أن العوام يعتمدون في طلباتهم على العدل أكثر من اعتمادهم فيها على العنف والسلاح. اشترط بالفعل عودة سلطة نواب العوام للحياة من جديد، وعودة حق الاستنجاد بالشعب اللذان كانا بمثابة طوق الأمان لكرامة المواطن. اشترط العفو العام بالنسبة لكل من قادوا حركة تمرد الجنود والعوام من أجل الاعتصام والمطالبة بالحرية. فقط المفوضون كانوا محل طلب منه جد قاسي. كان يرى أنه من الإنصاف تسليمهم له، مع التهديد بحرقهم أحياء".

"فرد عليه المبعوثان بالقول : "المطالب التي خرجتم بها من مداولاتكم عادلة ومنصفة، حتى كنا سنقترحها عليكم عن طواعية. تطلبون ضمانات لحريتكم وليس للاعتداء على حرية غيركم. أما حنقكم على المفوضين فهو مفهوم ومعذور. لكن الانتقام منهم لن يُسمح به. بحنقكم على قسوتهم أصبحتم أنفسكم قاسين. ها أنتم من قبل أن تصبحوا أحرار تريدون البدء باضطهاد خصومكم. هل قُدّر على حاضرتنا ألا تضع حدا وإلى الأبد لانتقام البطريقيين من العوام ولانتقام العوام من البطريقيين ؟ الدرع الواقي لحريتكم، خير لكم من السيف المنتقم من خصومكم. يكفيكم، ويكفيكم كثيرا إذلالا لخصومكم من البطريقيين أن تجبروهم على القبول بكامل المساواة معكم في الحقوق، وأن تنزعوا منهم الوسائل التي كانوا يسيئون بها لغيرهم، لكن بمنع الإساءة أيضا إليهم. أم تريدون أن تصبحوا أنتم يوما محل إرهاب لغيركم ؟ استعيدوا أولا سلطة نوابكم وحقوقكم. ثم كقضاة على أشخاصنا وعلى أعمالنا احكموا علينا بما ترونه منا. أما الآن فتكفيكم المطالبة بحريتكم"".

"ثم بإجماع ترك العوام القرار لمبعوثيْ مجلس الشيوخ اللذين وعدا بالعودة من بعد حسم الأمور. توجه السيناتوران للمجلس ليعرضا عليه الشروط التي حمّلهما العوام مهمة تبليغها. لما رأى المفوضون، بعكس ما كانوا يتوقعون، أنهم قد افلتوا من كل عقاب، لم يبدوا أي اعتراض على تلك الشروط. أما أبيوس الذي كان يحظى بأكبر قدر من كراهية العوام، فقد صاح يقول : "أنا اعرف جيدا المصير الذي ينتظرني. وإنني لأراه سيعطى السلاح لخصومنا. حتى الآن العدوان علينا هو فقط مؤجل. فلا بد للحقد من الدم. ولست أنا من سيؤخر استسلام المفوضية". حينها صدرت مراسيم من مجلس الشيوخ تقضي بتنازل المفوضين حالا عن السلطة، وبتعيين الحبر الأعظم مشرفا على انتخاب العوام لنوابهم، وبالعفو العام عن كل من قادوا حركة تمرد الجيش والشعب".

"وما أن تمت تلاوة تلك المراسيم حتى رفع المفوضون الجلسة وتوجهوا للساحة العامة، ثم صرحوا بتنازلهم عن السلطة وسط هتاف عارم بالفرح. انطلق السيناتوران ليبلغا ذلك الخبر السعيد للمعتصمين بالجبل، وتبعهم كل من بقي من مواطنين بالمدينة. ما كانت تلتقي تلك الجموع بأخرى حتى تزداد فرحا وتهنئ نفسها باسترجاع الحرية وباستعادة الوفاق بين الرومان. فخاطبها المبعوثان قائليْن : "فلتكن عودتكم لوطنكم ولدياركم ولنسائكم ولأبنائكم مطبوعة بسعادتكم وبالرخاء لكم وبهنائكم وبهناء الجمهورية. وليصاحبكم حتى الوصول إلى روما ذلك الاعتدال الذي حثّكم على احترام حقول غيركم المزروعة، بالرغم من شدة حاجاتكم للقوت ولضخامة جموعكم. اذهبوا إلى جبل l'Aventin من حيث خرجتم من قبل. وهناك حيث وافق القدر مساعيكم لوضع الأسس الأولى لحريتكم، ستنتخبون نوابكم. سيتولى الحبر الأعظم استدعاء جموعكم لإجراء ذلك الاقتراع"".

"التصفيقات الحارة ومظاهر الفرحة كانت إشارة من العوام على الموافقة العامة. فرفعوا شعاراتهم العسكرية، ومروا من روما بانتظام، والتحقوا بجبل l'Aventin، حيث تشكلوا في هيئات العوام الترابية، وانتخبوا نوابهم العشرة تحت إشراف الحبر الأعظم. كانت في مقدمتهم كل الوجوه المعروفة التي ساهمت في تلك الحركة التحررية. كان من بينهم أب الفتاة ڤيرجيني وخطيبها وعمها والنائب السابق الموكل بالمفاوضات. وانتُخب الباقون بالنظر لما يُتوقع منهم من خير أكثر مما سبق منهم من خدمات. وما أن تحملوا المسؤولية، وتطبيقا لشروط الوفاق، حتى طلب النائب إيسيليوس من جموع العوام إصدار قانون بالعفو عن كل المفوضين. ثم فورا، وباقتراح من النائب Marcus Duillius وهو المفاوض سابقا، قررت نفس جموع العوام إصدار نداء لانتخاب قنصلين جديدين. تسلّم الحكم بصفة مؤقتة وصي على السلطة بالجمهورية. وهو الذي عين بدوره السناتور ڤاليريوس والسيناتور Horatius، قنصلين جديدين وسلمهما السلطة. ما كانت هذه القنصلية الشعبية لتنتقص من حقوق البطرقيين شيئا، سوى أنها كانت محل استيائهم". وبذلك انتهى عهد المفوضية الذي لم يدم طويلا وبدأ عهد الجمهورية من جديد. فماذا عن بقية قصة الصراع بين الحرية والاستبداد مع عودة الحكم الأرستو-ديمقرطي ؟

الفصل الخامس: **عهد الجمهورية الأريستو-ديمقراطية الثاني** (449- 390 ق.م.)

مقدمة الفصل

نذكر بأننا وصفنا الجمهورية بالأرستو-ديمقراطية لتواجد حزب البطريقيين الأرستقرطاي الحاكم في مقابل حدزب العوام الديمقراطي المعارض. فيقول تيت ليف : "كل ما كان يُنجز لصالح العوام كان البطريقيون يعتبرونه انتقاصا من نفوذهم. كان ذلك من الوجهة القانونية عندهم محل اعتراض دائم. والسؤال الذي أصبح مطروحا هو هل قرارات وقوانين جموع العوام plébiscites ستكون ملزمة للبطريقيين. قدم فعلا القنصلان الجديدان مشروع قانون يلزم كل المواطنين عوام وبطريقيين بقرارات هيئات العوام الترابية Comices tributes. بذلك يكونان قد مكّنا العوام من السلاح الأشد رهبة. قدما كذلك مشروع قانون آخر يعيد حق الاستنجاد بالشعب ضد أحكام القضاة، كضمانة لحرية المواطنين. ثم وكأن ذلك لم يكن كافيا، فقد كان نفس القانون ينص على أن ذلك الحق غير قابل للإلغاء ولا للتعطيل. وكانت فيه مادة تمنع إحداث أية سلطة قضائية من دون الحق في الاستئناق. وتعلن أمام الآلهة والرجال استباحة دم كل مخل بذلك القانون، ويبقى قاتله محصنا من كل متابعة". ومن حقك أن تستغرب من مادة في قانون يسمح في ذلك العصر بهدر دم مجرد مشتبه فيه بارتكاب تلك الجريمة من طرف أي مواطن ومن دون محاكمة. فلا تستغرب، لأن القوانين القديمة والغريبة بالنسبة لعصرنا كانت كثيرة[1].

ثم يقول تيت ليف : "هكذا صار مصير العوام محميا من جديد بما يكفي من الضمانات وأكثر، بفضل الحق في الاستنجاد بالشعب وبسند سلطة مؤسسة النيابة عنهم. لكن القنصلان أعادا الحياة أيضا لحرمة وحصانة نواب العوام التي لم يعترف بها البطريقيون من قبل. لتعزيزها ألحقا بقدسيتها الدينية قانونا يعاقب بالإعدام وباستصفاء ممتلكات كل من يعتدي على حرمة أي من رجال الدولة من نواب العوام ومن محافظي المدينة les édiles ومن القضاة ومن المفوضين". وعلق تيت ليف عليه بقوله : "بحسب الفقهاء فذاك القانون كان يعاقب فقط من يعتدي على رجال الدولة، ولا يحصن أحدا من المحاسبة عدا نواب العوام. هكذا كل رجل دولة يمكن أن يتعرض للمحاسبة من طرف من هو أعلى منه درجة ويسجنه. أما نواب العوام فكانت لهم حرمة كاملة بفضل قسم العوام القديم بمناسبة إحداثهم لسلطة نواب العوام. ومن بين نفس الفقهاء من يقول أن تلك الحرمة في قانون Horatia[2] يشمل حتى القناصلة مع القضاة الشرعيين les préteurs الممارسين للقضاء بتفويض من القناصلة، لأن القنصل كان هو القاضي. لكن من السهل دحض هذا التأويل. فلم يكن القنصل بالفعل يوصف في ذلك العصر بالقاضي، بل القضاة الشرعيين les préteurs هم من كانوا يحملون ذلك الوصف".

فحتى الآن لم نسمع بخبر جاء فيه الحديث عن القضاة الشرعيين les préteurs. هم الذين كانوا يقضون بين المواطنين بروما في القضايا المدنية والجنائية العادية. بل ظلت المهمة من مهام القنصلين حتى سنة 366 ق.م. وفقط حينها قايض البطريقيون قبولهم بأن يصير أحد القنصلين من العوام وبفصل مهمة القضاء عن مهام القنصلية وإحداث مؤسسة القضاء من قاضيين بطريقيين حتى لا يجدوا أنفسهم يحاكمون من طرف أحد العوام بوصفه قنصلا. كان القاضيان البطريقيان منتخبين من طرف الهيئات المئية لولاية سنوية مثلهما مثل باقي رجال الدولة. وكانا في الرتبة الثالثة تصاعديا من بعد خازني الدولة les questeurs ومديري شؤون المدينة les idiles. ويليهما في الرتبة الرابعة القنصلان ثم في الرتبة الخامسة والعليا مؤسسة الناضران les censeurs التي أنشئت سنة 443 ق.م. والتي تكلفت بمهمة الإحصاء من بعد ما كانت من مهام القنصلين. وكان لا يترشح لرتبة من رتب رجال الدولة من لم يمر من باقي الرتب الأدنى منها درجة. القنصل مثلا كان سابقا مدير شؤون المدينة ثم خازنا ثم قاضيا شرعيا. سوى أنه حتى الآن، ومرة أخرى، لم يأتي تيت ليف بخبر فيه الحديث عن القضاة الشرعيين، وهم من يتولون القضاء. فما ذكرهما في الفقرة الأخيرة إلا عرضا.

ثم يقول تيت ليف : "تلك كانت حصيلة القوانين التي جاء بها القنصلان الجديدان كأساس لعهد الجمهورية الثاني. من بعد ذلك استصدر النائب Marcus Duillius من هيئات العوام الترابية قانونا يجرّم ترك فئة العوام من دون نواب وإحداث سلطة قضائية من دون الحق في استئناف قراراتها. ويعاقب على ذلك بالجلد بالسياط وبضربات البلْطة. كان

---

[1] وحتى لا يُشك في سوء الترجمة، فهذا هو النص كما جاء في الترجمة الفرنسية :

"... et une disposition nouvelle fit défense de créer aucune magistrature sans appel, et déclarant ***juste et légitime*** *devant les dieux et devant les hommes* ***le meurtre de l'infracteur****, et à* ***l'abri de toute recherche celui qui le commettrai****t ."*

[2] باللاتينية *Les Leges Valeriae Horatiae* باسم القنصلين *Lucius Valerius Potitus* و *Marcus Horatius Barbatus*.

البطريقيون ينظرون لكل تلك القوانين بألم وأسى، لكن من دون اعتراض عليها، لأنها لم تُستعمل بعدُ بشطط ضد أحد".
فحان وقت تصفية الحسابات مع طغاة المفوضية.

تصفية الحسابات مع طغاة المفوضية

يقول تيت ليف : "هكذا لما تعززت حرية العوام وتقوت سلطة مؤسسة النيابة عنهم، تيقن النواب من أن الوقت قد حان للهجوم من دون عقاب رادع على كل واحد من خصومهم السابقين. واختاروا النائب ڤيرجينيوس[1] كمدعي عام. كان المفوض السابق أبيوس أول متهم تم تقديمه للعدالة بتلك المبادرة. لكنه جاء إلى المحكمة بالساحة العامة محفوفا بشباب من البطريقيين. وبذلك المظهر المستفز ذكّر الحاضرين بزمن حكمه الرهيب. فتقدم النائب ڤيرجينيوس كمدعي عام وقال : "ما وُجدت الخطابات السفسطائية إلا للدفاع عن القضايا المشبوهة. لن أضيع وقتي في شكليات سكّ الاتهام ضد رجل ما أنصفتنا من وحشيته سوى أسلحتنا. لا أريد أن يضيف هو لباقي جرائمه وقاحة الدفاع عن نفسه. هكذا سأتجاوز يا أبيوس عن كل الجرائم المنكرة التي راكمتها طيلة سنتين الواحدة تلو الأخرى، وفي تحدّ سافر للآلهة وللقانون. سأقتصر منها على جريمة واحدة. وهي تلك التي رفضت بها السراح المؤقت لمواطن حر. وسأكبلك في الحديد إن أنت تنازلت عن حقك في استئناف الحكم[2]"".

"وما كان للمتهم أبيوس أدنى أمل لا في مساندة نواب العوام ولا في الاستنجاد بالشعب. مع ذلك توجه للنواب. فلم يتقدم منهم أحد. لكن حاجب المَحْكَمَةِ le viateur وضع يده عليه وصاح قائلا : "أنا استأنف عنه". في وسط ذلك الصمت المخيم على الجميع، كانت مثل تلك العبارة كافية لمنح المتهم السراح المؤقت. لكن الذي نطق بها حين تخرج من فمه كانت تعني بالعكس من ذلك، كانت تعني الاسترقاق المؤقت". فقد قصّر هنا المؤلف تيت ليف حين مر على ذكر le viateur من دون توضيح من يكون وبمثل تلك السلطة التي لا تبقي معها للمتهم فرصة للاستنجاد لا بالشعب ولا بنواب العوام. وبالبحث لم نجد شيئا يوضحه سوى كونه في العصور المتأخرة شخصية دينية بالكنيسة المسيحية. هل كانت في روما العتيقة شخصيةً دينية كذلك ؟ سيبقى ذلك من الأمور الغامضة في كتابه القيم، اللهم في حال ما كان هو حاجِب المَحْكَمَةِ huissier de justice كما هي ترجمة الكلمة باللغة العربية. من جهة أخرى هدد المدعي العام المتهم بتكبيله في الحديد وما هو سوى أحد نواب العوام وليس له حرس مسلح كالقنصل. فبأي قوة وأي سلطة كان يستطيع تكبيل المتهم ؟ أمر غامض آخر في هذا الكتاب.

ثم يقول تيت ليف : "صار كل واحد من الحاضرين يتحدث بصوت خافت ويقول : "هناك آلهة لا تهمل أعمال الناس. وهناك عقوبات للكبرياء والقسوة، وإن جاءت متأخرة فهي لا تقل رهبة. وها هو ذاك الذي سبق أن ألغى بالأمس الحق في الاستئناف، نراه اليوم يطلبه لنفسه. ها هو يلتمس الاستنجاد بالشعب الذي سبق أن ضرب بعرض الحائط كل حقوقه. ومن سبق أن حكم على مواطن حر بالاسترقاق يستحق اليوم أن يكبل في الحديد ثم يُذل بطلبه للسراح المؤقت".

"وفي خضم ذلك الهمس الذي عم الجميع، سُمع صوت المتهم أبيوس يستجدي حماية الشعب الروماني. وصار يذكّرهم بآبائه وما أسْدوه من خدمات للدولة في السلم والحرب. ذكرهم بتضحياته من أجل الشعب الروماني لما تنازل عن القنصلية بالرغم من رفض البطريقيين، من أجل منح نفس الشعب المساواة في القوانين. تلك القوانين التي ما تزال قائمة ومؤلفها مكبل في الحديد. سيرى ما ينتظره من خير أوشر حين تتاح له فرصة الدفاع عن نفسه. أما اليوم فهو يطالب كمواطن روماني بنفس الحق المخول بالقانون لكل متهم. وهوالحق في الدفاع عن نفسه والحق في الاحتكام للشعب الروماني. ما كان يخاف من حقد الشعب عليه، بل لم تكن له ثقة في عدل وعطف مواطنيه. لما كانوا يريدون اقتياده للسجن من دون سماعه، توجه من جديد لنواب العوام وهو يقول : "احذروا من الاقتداء بمن تتابعونهم اليوم بسبب حقدكم عليهم. بصُمتكم هذا، أنتم تعترفون اليوم بإقدامكم على تعطيل الحق في الاحتكام للشعب. ذلك الحق الذي بقسمكم جعلتم من تعطيله جريمة. أنا أطالب من جديد الاحتكام للشعب ولقوانينه وقوانين القناصلة وقوانين نواب العوام، التي نُشرت هذه السنة. فمن سيستعمل ذلك الحق في الاحتكام للشعب، إن أنتم حرمتم منه رجلا متهما وهو لم يُسمع منه ولم يدان بعد ؟ من ذا من بين المواطنين البسطاء من سيجد سندا في قوانين لم يستفد منها بشيء حتى أبيوس ؟ بقضيتي هذه سيعرف الرومان هل القوانين الجديدة قد عززت الاستبداد أم قوّت الحرية. بها فقط سيعرفون هل الحق في الاستئناف وفي الاحتكام للشعب، كحواجز قائمة ضد ظلم رجال الدولة، أهما حقيقة واقعية أم هما مجرد حبر على ورق"".

"فرد عليه النائب ڤيرجينيوس قائلا : "فقط أبيوس هو الخارج عن كل قانون والخارج عن كل مجتمع مدني وإنساني. للتّيقن من ذلك يكفي إلقاء نظرة على هذه المحكمة التى كانت في عهده وكرا لكل الجرائم. هنا كان هذا المفوض

---

[1] وهووالد الفتاة *Virginie* ضحية مجون ومكر المفوض السابق *Appius*

[2] واستئناف الحكم بحسب ما تقدم من قوانين كان يتم إما بالاستنجاد بالشعب أو بطلب سند من نواب العوام.

يتلاعب بأموال وبأبدان وبدماء المواطنين. هنا كان يسلط دائما على ظهورهم سياطه وبلْطاته. في تحدي للآلهة وللرجال ومحفوفا بجلادين وليس بحراس ومتنقلا من النهب والقتل إلى المجون، تجرأ تحت أنظار الشعب الروماني على التعامل مع فتاة حرة كأسيرة حرب، وانتزعها من بين أيدي أبيها لتسليمها لزبونه وزير مجونه وفسقه. هنا، وبقرار همجي وبحكم رهيب سلح يد أب ضد حياة فلذة كبده. هنا حكم على خطيبها وعلى عمها بالسجن بتهمة حملهما لجثمانها المرتعش. أصدر حكمه ذاك وقد كان مستخفا بموت ضحيته ومتأثرا فقط بالعراقيل التي وُضعت دون شهواته الآثمة. من أجل ظلمه بُني هذا السجن الذي كان يحلو له وصفه ببيت الشعب الروماني. فليُعد أبيوس استئنافه. فليعده مائة مرة. سيجد نفسه كل مرة يحث الشعب على اختيار قاضي لن يحكم عليه سوى بالسجن المؤقت. وإن رفض سيعتبره مدانا ويكبله في الحديد". لم يوجد من يعترض على ذلك الخطاب. لكن العقول كانت جد مذهولة. هذه المعاملة بحق رجل من عيار أبيوس جعلت الشعب يتخوف من تجاوزات نفسه. فاقتيد المتهم إلى السجن وأجّل المدعي العام النظر في القضية إلى أجل غير مسمى".

"كان حينها Gaius كلوديوس أحد كهول البطريقيين. وكان يكره جرائم المفوضين ولا سيما استبداد ابن أخيه أبيوس الذي بسبب مفاسده غادر هو روما ليستقر بعيدا بأراضيه بالريف حيث مهد أسرته العريقة. وبالرغم من تقدمه في السن عاد لواجه الهلاك الذي كان يهدد ذلك الرجل الآثم. جاء إلى الساحة العامة متذللا في ثوب المتسوّل، مرفوقا بأفراد أسرته وبمواليه من العوام. كان يستجدي كل من لقيه، كي يجنب اسم عائلته التلطيخ بوصمة العار التي من شأنها أن تجعلها من العائلات المستحقة للسجن وللتكبيل في أصفاد الحديد. كان يقول : "كيف ؟ هذا الرجل الذي سيُخلّدُ ذكره كمشرع لروما وكمؤسس للقانون الروماني يقبع اليوم في السجن بين لصوص الليل وقطاع الطرق؟ أنا ما يهمني شيء سوى سمعة عائلتي وشرف إسمها. لا صُلح لي مع من جئت لتخليصه مما هو فيه من بؤس. بالشجاعة نلتُم الحرية، وبالرحمة ستقيمون الاتحاد بين فئتي الشعب من العوام والبطريقيين على أسس متينة".تأثر البعض بتوسلات ذلك الشيخ من أجل شرف عائلته أكثر من اهتمامهم بمصير من جاء لتخليصه. لكن النائب ڤيرجينيوس كان يطالبهم بالتعاطف معه هو ومع ابنته، فكان يقول : " لا يصح الاستماع لعائلة Claudia التي اشتهرت بإرهاب الشعب. بل اسمعوا لأصدقاء ابنتي ڤيرجيني ولتوسلات نوابكم الثلاثة الذين انتخبتموهم لمساندة الشعب، والذين يطالبون اليوم من نفس الشعب مساندتهم". فكانت دموع السامعين له أصوب. حينها فقد السجين أبيوس كل أمل، ولم ينتظر يوم الحكم، فوضع حدا لحياته".

"ثم انبرى النائب عم الفتاة ڤيرجيني ليرفع دعوى ضد أوبيوس ثاني أسوأ المفوضين السابقين الذي كان مقيما بروما وقت محاكمة زميله أبيوس. مظالمه التي تدينه كانت أسوأ من تلك التي لم يكلف نفسه منع ارتكابها. فجيء بشاهد ضده، والذي كان في رصيده العسكري المشاركة في سبعة وعشرين حملة مع نيل ثماني مكافآت ممتازة. عرض الجوائز التي استحقها على أنظار الشعب، ثم مزق قميصه وعرض على أنظار نفس الجمهور جلد ظهره المزركش بآثار الجلد بالسياط، وقال : "إذا استطاع هذا المتهم أن ينسب لي أدنى ذنب ارتكبته فإنني أمنحه الحق في تعذيبي من جديد، بالرغم من عودته للحياة العادية". كُبل أوبيوس بدوره في الحديد وسجن. وقبل وصول يوم محاكمته وضع هو كذلك حدا لحياته. فأمر نواب العوام باستصفاء أموال المفوضيْن المتهميْن أبيوس و أوبيوس. وحُكم على باقي المفوضين بالنفي، واستصفيّت أموالهم كذلك. وحوكم وأدين كذلك كلوديوس زبون أبيوس الذي ادعى زورا ملكية الفتاة ڤيرجيني. وما أفلت من الإعدام سوى بفضل أبيها ڤيرجينيوس، فخرج من روما إلى المنفى".

"فأصيب البطريقيون برعب شديد. وأصبح نواب العوام يثيرون فيهم نفس الرهبة التي كان يثيرها المفوضون في كل الشعب الروماني. لكن أحد النقباء قام يخطب في العوام لكبح تلك السلطة المفرطة، وقال : "كفى ثأرا وانتقاما. لن أسمح هذه السنة باتهام أي كان ولا وضعه في السجن. لا أوافق على إثارة جرائم المفوضين القديمة وقد أدّوا ثمن آخر جرائمهم. لن يحصل شيء مستقبلا من دون تدخل نواب العوام. أجد الضمانة على ذلك في حرص القنصلين ڤاليريوس وهوراتيوس الثابت على صيانة حريتكم". أسفر هذا الموقف المعتدل عن أمرين. بدد مخاوف البطريقيين وفجر في الوقت نفسه حقدهم على القنصلين. كانوا يلومونهما على الإفراط في ولائهما للعوام الذي جعل البطريقيين مدينين بخلاصهم وبحريتهم لنقيب من العوام بدلا من رجال دولة من البطريقيين. أشبع خصومُهم نهمهم من الانتقام من دون أن يتحركا للحيلولة ضد تلك التجاوزات. والكثير منهم كان يتهم مجلس الشيوخ بالجبن لما وافق على قوانين العوام".

كالعادة سنعفيك من تفاصيل معارك الحرب المملة والاقتصار عن نتائجها والقيم التي كان القنصلان يحمّسان بها جنودهما. كما تعلم مما سبق، الجنود من العوام تعمدوا في آخر حرب جلب الهزيمة لجيشهم نكاية في المفوضين. وتلا ذلك كل ما انتهينا للتو من ذكره. لكن تلك الهزيمة جعلت شعوب الإيك والفولسك والسابيين تتجرأ على التحرش بروما وعلى نهب أراضيها. فأمر مجلس الشيوخ القنصلين بالخروج إليهم في جيشين لردعهم. انتهت تلك المعارك بانتصار الرومان على الجبهتين. اللافت للنظر الذي يهمنا هنا هو القيم التي حملها كل من الخطابين للقنصلين في جنودهما من العوام. فمن كل ما حصل في تلك الحرب سنترجم لك الخطابين.

الانتصار لحرية العوام

يقول تيت ليڤ : "على الجبهة ضد شعبي الإيك والفولسك قام القنصل ڤاليريوس خطيبا في جنوده من العوام ليقول: "تذكروا أنكم تخرجون لأول مرة للقتال من أجل حرية روما من بعد حصولكم على حريتكم. النصر فيه سيكون لكم أنتم، وليس ليكون الجنود المنتصرون فرائس للمفوضين. أنتم لا تسيرون هنا للحرب بقيادة أبيوس ، بل بقيادتي أنا القنصل ڤاليريوس من عائلة المحررين، والشعب الروماني هو المحرر لنفسه بنفسه. عليكم أن تبرهنوا أن الانتصارات في المعارك السابقة قد تحققت بفضل القادة وليس بفضل الجنود. فمن العار أن تُظهروا هنا في وجه أعدائكم شجاعة أقل من تلك التي أظهرتم في وجه من ظلمكم من بين مواطنيكم. لا يجوز أن تدفعوا عنكم خزي الوقوع تحت نيْر الغرباء بقوة أقل من تلك التي دفعتم بها استبداد حكامكم برقابكم. في زمن السلم فقط عفة الفتاة ڤيرجيني كانت عرضة للانتهاك. والخوف كان فقط من فسق ومجون المفوض أبيوس . لكن إذا خسرتم هذه الحرب، فسيكون أبناؤكم كلكم عرضة لعنف وعسف هؤلاء الآلاف من الأعداء".

"ثم ذكّرهم باعتصامهم بجبل l'Aventin ثم بالجبل المقدس، وقال : "استعيدوا القوة التي أظهرتم في تلك الأماكن التي شهدت شهورا من قبلُ استرداد حريتكم. عليكم أن تُظهروا على أن معنويات الجنود الرومان من بعد هلاك المفوضين هي نفس المعنويات التي كانت تحركهم من قبل إحداث سلطتهم". ثم توجه للخيالة، وجلهم كانوا من البطريقيين، فقال : "هيا أيها الشباب. فلتكن شجاعتكم بمقدار مقام فئتكم النبيلة الذي يضعكم من فوق مقام فئة المشاة. العدو تراجع للوراء في أول صدام معكم. فاحملوا عليه مسرعين بخيولكم، واطردوه من ساحة المعركة، لأنه لن يتحمل إقدامكم. الآن ها هو كما ترون يتردد أكثر من أن يقاوم".

"أما في الجبهة الثانية فقد كانت الحرب قائمة مع قوم السابيين. وكان الجيش الروماني تحت قيادة القنصل هوراتيوس. وقد وصلتهم أخبار انتصار زملائهم ضد الإيك والفولسك، لما كان السابيون ينتقصون منهم ويذكرونهم بهزيمتهم في الحرب السابقة. حينها قام القنصل خطيبا فيهم وهو يقول "أيها الجنود. لقد علمتم بانتصار زملائكم. لقد أبانوا على أنهم جديرين بالانتماء لشعب حرّ. لقد استحق ذلك الجيش الانتصار بتدابير زميلي الحكيمة وبمهارات جنوده. أما أنا فلن أعمل إلا بالنصائح والقرارات التي ستشيرون بها عليّ أنتم. نستطيع تمديد الحرب مع ما في ذلك من مزايا، كما يمكننا إنهاؤها سريعا وللتو. أما إذا كنتم تشعرون أن لكم ما يكفي من العزم لحسم المعركة فورا فصراخكم، مثل الذي تصدحون به في ميدان القتال، سيأكد لي حسن نواياكم وقوة عزمكم على نيل النصر". ثم انطلقت من الجنود صرخة كلها حماس. وكان النصر حليفهم في قتال الصابيين". لكن لم يسلم الانتصاران من التجاذبات الداخلية بين كبار البطريقيين والعوام. فتسببا في تجدد الصراع بين مؤسسات الفئتين.

تجدد الصراع العمودي بين العوام والبطريقيين

يقول تيت ليڤ : "في وجه هذين الانتصارين بموقعين مختلفين أظهر مجلس الشيوخ سوء نية نكاية في القنصلين ڤاليريوس وهوراتيوس. فلم يأمر سوى بيوم واحد من الابتهالات للآلهة على شرفهما. مع ذلك تحدى الشعب قرار المجلس وأحيى بمبادرة منه وفي جموع غفيرة، اليوم الثاني من تلك الابتهالات على شرفهما. كان بريق احتفالات ذلك اليوم ألمع من بريق اليوم الأول. ثم استدعى القنصلان مجلس الشيوخ للاجتماع في ميدان مارس لعرض تفاصيل إنجازاتهما العسكرية. لكن كبار السيناتورات اتهموهما بتعمّد جمعهم بالميدان في وسط الجنود لإرهابهم. ولتبديد تلك الشكوك وتلك الاتهامات نقل القنصلان الاجتماع لمكان آخر بعيدا عن الجنود. فصوتت أغلبية المجلس ضد الاحتفال بيوم النصر. حينها بادر النقيب إيسيليوس خطيب الفتاة الراحلة ڤيرجيني لرفع القضية أمام الشعب. فتعالت أصوات السيناتورات المعارضين تتهم القنصلين بالرغبة في الانتصار على مجلس الشيوخ وليس على الأعداء، وأنهما كانا يطالبان باحتفالات يوم النصر من أجل إسداء خدمات لأحد النقباء وليس مكافأة لشجاعتهما. وقام أحدهم يقول : "لم يسبق أن استُشير الشعب في شان الاحتفالات بيوم النصر. ذلك من الاختصاصات الحصرية لمجلس الشيوخ. بل حتى الملوك ما سبق لهم أن اعتدوا على اختصاصات المجلس. على نواب العوام الحذر من التمديد في سلطتهم لحد نسف سلطة مجلس الشيوخ بروما. لن تسود الحرية بالمدينة سوى بفضل إقامة التوازن بين مختلف السلط، حتى لا تعتدي أي سلطة على صلاحيات غيرها من السلط". لاقى هذا الرأي تأييدا مشفوعا بالمزيد من التوضيح من طرف باقي أعضاء المجلس. لكن مع ذلك عُرضت القضية على جموع العوام الترابية، التي صوتت بالإجماع على إقامة الاحتفال بيوم النصر. كانت تلك هي المرة الأولى التي يقام فيها ذلك الاحتفال بأمر من الشعب، ومن دون رخصة من مجلس الشيوخ".

هكذا، بفضل ثورتهم السابقة ضد سلطة المفوضية وبما حصلوا عليه من حقوق وبفضل القنصلين الشعبيين الموالين لهم، صار العوام ونقباؤهم ينتزعون يوما بعد آخر مزيدا من الامتيازات على حساب البطرقيين ومجلس الشيوخ الموالي لهم. فيقول تيت ليڤ : "الانتصار الذي أحرزه نواب العوام ضد مجلس الشيوخ أكسبهم مع الأسف زيادة مفرطة من الثقة في النفس. الأمر الذي جعلهم يعملون باتفاق فيما بينهم على الترشح لولاية أخرى. من أجل تحقيق مشروعهم كانوا يزعمون أن مجلس الشيوخ بهجومه على القنصلين ڤاليريوس وهوراتيوس كان يخطط لنسف حقوق العوام من جديد. كانوا

يقولون : "لن نرى دائما قنصلين مثل ڤاليريوس وهوراتيوس يفضلان حرية العوام على مصالحهم الخاصة. ماذا سيحصل في وقت ما زالت فيه تلك القوانين الجديدة طرية، إذا ما انتُخب قنصلان جديدان من بين خصومنا وهاجموا نواب العوام الجدد وحديثي العهد بالسلطة ؟". لكن من حسن الصدف وفي تلك الظروف، شاء القدر أن تكون رئاسة هيئات العوام الترابية بيد النائب Marcus Duillius، ذاك الرجل الحذر والمُقتدر لمخاطر الصدام والتمزق بين فئتي الشعب الذي لا مفر منه إن تم انتخاب نفس نواب العوام. فأعلن أنه لن يأخذ بعين الاعتبار انتخاب أي من النواب المنتهية ولايتهم. لكن زملاءه طالبوه بأن يترك الحرية للجموع كي تختار من تريد أو أن يتخلى هو عن رئاستها لصالح غيره من النواب الذين يرفعون من شأن القوانين الجديدة وليس للرفع من شأن ما يشتهيه مجلس الشيوخ. استشار النائب Marcus Duillius القنصلين ڤاليريوس وهوراتيوس بخصوص نواياهم في انتخاب القناصلين الجددين. فقالا له بأنهما سيرشحان لها غيرهما. الأمر الذي أكد مخاوفه من الصدام والتمزق المحتمل. فجاء بالقنصلين إلى جموع العوام وسألهما هناك نفس السؤال، فردا بنفس الجواب".

"ثم ترأس عملية انتخاب النواب الجدد. وانتهى يوم الاقتراع وما انتخبت الجموع سوى خمس نواب جدد من بين عشرة. حصل ذلك بسبب دسائس ومناورات النواب المنتهية ولايتهم. أنهى النائب الرئيس عملية الاقتراع ولم يستدعي الجموع لليوم التالي من أجل إتمام انتخاب النواب الخمسة الباقين. كان يقول بأن القانون لا يحدد عدد النواب المنتخبين يوم الاقتراع، وينص على أنه في حال ما كان عدد النواب الجدد في ذلك اليوم أقل من عشرة، فالنواب المنتخبون هم الذين يتكلفون بالتوافق فيما بينهم على استكمال عددهم العشرة المطلوب. ثم قرأ نص القانون على الجموع لتأكيد مزاعمه، وهو يقول : "إذا ما اقترحت عليكم انتخاب عشرة نواب، ولم تكملوا ذلك العدد يوم الاقتراع، فالنواب الباقون الذين يختارهم النواب المنتخبون يكونون كذلك نوابا شرعيين كالنواب المنتخبين يوم الاقتراع". ظل ثابتا على موقفه حتى أذعن زملاؤه المنتهية ولايتهم، وأنهى بذلك ولايته مع حيازة تقدير كل من مجلس الشيوخ والشعب بفئتيه. اختار النواب الخمسة الجدد زملاءهم الخمسة المتبقين بحسب ما يشتهيه مجلس الشيوخ، حتى أنهم اختاروا نائبين من البطريقيين". ويأتي تيت ليڤ بهذا الخبر من دون تعليق عليه، بالرغم من أن القانون ينص على أن نواب العوام لا يمكن أن يكونوا من البطريقيين. فذاك غموض آخر ويبقى من دون جواب. ثم يقول : "انتُخب قنصلان جديدان، ولزما الحياد لا يفضلان فئة على أخرى. فنعمت ولايتهما بالهدوء بالداخل وبالخارج، ما عدا أحد نواب العوام الجدد، المعروف بعدائه للبطريقيين، والذي خرج ليقول بأنه خُدع من طرف مجلس الشيوخ ومن طرف زملائه المتواطئين مع المجلس. خلافا لما حصل في الاقتراع السابق اقترح هو على جموع العوام قانونا[1] يقضي باستمرار اقتراعهم في الدورات القادمة إلى نهاية انتخاب النواب العشرة. وتمكن من تمريره. ثم ظل طيلة ولايته من وراء البطريقيين، الأمر لذي استحق به لقب النائب العنيد".

"في السنة الموالية (447 ق.م.)[2] انتخب قنصلان جديدان وانتخبت مجموعة نواب العوام الجديدة. فتصاعدت من جديد خلافات بين النواب وشباب البطريقين. لكنهم عملوا على تبديدها من دون المس لا بمقام النواب ولا بمقام مجلس الشيوخ. ثم صدر مرسوم يقضي بالتجنيد لحرب الإيك والفولسك. لكن تنفيذه ظل معلقا لمنع كل تمرد شعبي. كان القنصلان يقولان أن السلم بالخارج رهين باستمرار السلم بالداخل، لأن الخلافات الداخلية قد تُذكي شجاعة العدو بالخارج. هكذا فقط الاهتمام بالسلم مع الأجانب هو الذي جلب مرة أخرى الهدوء الأهلي". هذا بخلاف الدول الشاسعة الأطراف التي كان للمستبدين بها جيوشا نظامية تحول دون تفكير شعوبها في الحرية.

ثم يقول تيت ليڤ : "لكن ظلت كلٌّ من الفئتين تسعى دائما للاستفادة من اعتدال الأخرى. لما استكان العوام أخذ شباب البطريقيين ينالون منهم بالسب والشتم. كان النواب يقفون إلى جانب المستضعفين منهم. لكن حصل ذلك بقليل من التوفيق في أول الأمر. ثم صارت تلك المهانات تطال حتى النواب أنفسهم، ولا سيما في الأشهر الأخيرة من الولاية، حيث كانت سلطات كل رجال الدولة تضعف مع اقتراب نهاية السنة. كان كبار البطريقيين متواطئين مع شبابهم. كان كهول مجلس الشيوخ يرون تجاوزات في تصرفات شبابهم. لكن ما دامت تلك التجاوزات حاصلة لا محالة من أحد الطرفين، فقد كانوا يفضلون أن تأتي من جهتهم بدلا من أن تأتي من جانب خصومهم. بدأ العوام ييأسون من قدرة سلطة النواب على حمايتهم، اللهم باختيار نواب جدد من طينة إيسيليوس[3]. فكانوا يرون أنه منذ عامين ما كان لنوابهم من سلطة ومن هيبة النيابة سوى الإسم. وكأنه كان من الصعب جدا وضع بعض القيود لحماية الحرية في ظل الهدوء. كان كل من الطرفين يتظاهر بتأييد المساواة، وفي الوقت نفسه كان يسعى للاستعلاء على حساب الآخر. للحيلولة دون استعلاء الخصم كان كل من الطرفين يسعى ليكون هوالخصم المخيف. كانوا يشتكون كلهم من الظلم، ثم وكأنه لا بد من وجود ظالم ومظلوم كانوا يتحولون كلهم إلى ظالمين".

---

[1] باللاتينية *La Lex Trebonia* باسم نائب العوام *Lucius Trebonius Asper*.

[2] وهي السنة 63 من عمر الجمهورية الرومانية

[3] خطيب الفتاة فرجينيا

لكن كلما جاء العدو الخارجي حتى أبواب روما ينهب ويخرب أراضيها ويهدد أمنها وأمن وشعبها كلما رجحت كفة العوام في ميزان القوة في صراعهم السياسي مع البطريقيين. فيقول تيت ليف : "مع انتخاب قنصلين جديدين كانت الأمور هادئة بالداخل والخارج. لكن الحرب كانت وشيكة وعلى الأبواب. لم يعد بالإمكان احتواء العداوة بين فئتي المواطنين. كان النواب يجيشون العوام ضد البطرقيين. وكان تقديم بعضهم للعدالة يؤجج الجدل فيما بينهم أمام الجموع بالساحة العامة. مع سماع تلك الشقاقات بين فئتي الرومان، تشجع شعبا الإيك والفولسك على حمل السلاح والخروج لحرب روما. كان قادتهما يقولون لجنودهم : "كما ترون، لم تبعث روما بجيش ضدكم. فطول فترة السلم مع التسيب أفقدت الرومان حماسهم للمعارك. لم تعد روما وطنا مشتركا لهم. كل ما عرفنا فيهم من حقد على الأجانب حولوه ضد بعضهم البعض. فليست هناك فرصة أفضل من هذه لسحق هؤلاء الذئاب الذين تعميهم الآن حُمّى الخلافات فيما بينهم". ثم انطلقوا ينهبون ويخربون ويحرقون أرياف روما وأراضي حلفائها. وتقدموا حتى وصلوا إلى تحت أسوار المدينة، يهددونها بالاجتياح".

وهنلك كان يظهر ضعف حزب البطريقيين الحاكم في مقابل حزب العوام المعارض. وذلك بفضل ثلاثة أمور. أولها شعور العوام مجتمعين بأنهم يشكلون كيانا أو حزبا سياسيا في مقابل حزب البطريقيين. ثانيها إدراكهم لثقلهم السياسي في الحرب كأكبر مكون للجيش الروماني في مواجهة التحديات الخارجية. فكانوا يهددون البطرقيين بالامتناع عن التجنيد أو بالفرار من ميدان المعركة كلما اعتبروا أن حقوقهم كمواطنين رومان غير مكتملة أو مهددة بالاغتصاب. وثالثها إدراكهم لثقلهم السياسي كقوة عاملة في الاقتصاد الروماني. كان اعتصامهم بالجبل المقدس بمثابة إضراب عام يشل الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بروما. كانت إذا تلك هي الأوراق الثلاث التي فطن لها العوام في صراعهم من أجل الحرية مع البطرقيين الذين بطبيعتهم كانوا متعطشين للهيمنة على العوام. معنى ذلك أن حقوق العوام في روما ظلت تنتزع دائما من البطريقيين بالتدرج وبميزان القوة وليس بمعيار القيم النبيلة. ونستشف ذلك في خطاب أحد القنصلين الجدد لما بتحريض من نوابهم امتنع الجنود من العوام عن الاستجابة لنداء التجنيد والعدو من حول أسوار روما ينهب ويخرب أراضيها. فماذا قال لهم فيه ؟

"هنالك توجه القنصل الجديد بخطاب قوي لجموع العوام، وقال : "بالرغم من أنني لا أشعر بأي تأنيب من الضمير، إلا أنني أتوجه إليكم أيها الرومان بخجل عظيم. كما تعلمون، سيذكر التاريخ أن الإيك والفولسك وصلوا في ولايتي من دون رادع حتى أسوار المدينة. لوعلمت أن هذه المهانة كانت مخبّأة لهذه السنة (446 ق.م.)[1]، لتمنيت أن أكون اليوم منفيا أو ميّتا لتفادي هذا العار. كيف ؟ ماذا لو هؤلاء الرجال على أبواب المدينة استعملوا أسلحتهم واحتلوا روما تحت ولايتي ؟ كان لي ما يكفي من الشرف وما يكفي من أيام المجد، حتى كان يجب علي أن أموت قبل هذه الولاية الثالثة وأحافظ على علو مقامي. فلمن هي موجهة مهانة هؤلاء الأعداء الجبناء ؟ لنا نحن القناصلة أم لكم أيها الرومان ؟ إذا كانت موجهة لنا فاسحبوا السلطة من هذه الأيادي التي لا تستحقها. وإلّم يكفيكم ذلك فعاقبونا. أما إذا كانت موجهة لكم نتوسل للآلهة وللرجال أن يغفروا لكم فلا يعاقبونكم. تكفيكم من أجل ذلك التوبة. لكن لا، لم يوجه العدو مهانته للجبناء، ولم تكن له ثقة في شجاعته. غالبا ما هزمناهم وفروا من أمامنا. فهم يعرفوننا ويعرفون أنفسهم. بل الخلافات التي تسود العوام والبطريقيين وتعنّت بعضهم ضد البعض، ذاك هو السم الذي يقتلنا. بل تعطشنا المجحف للهيمنة نحن البطريقيون، وتعطشكم المفرط للحرية أنتم العوام، وبغضكم لرجال الدولة منا نحن البطريقيين، وبغضنا للنواب منكم أنتم العوام، هو ما ينفخ في شجاعة العدو"".

"باسم الآلهة، ماذا تريدون ؟ رغبتم في إحداث سلطة نواب العوام فقبلنا منْحكم إياها رغبة منا في الوفاق. طالبتم بالمفوضية فتحملنا متاعب إحداثها. ثم سئمتم سلطتها فأجبرناها على التنازل عنها. تابعتم أعضاءها من بعد عودتهم للحياة العادية، فتحملنا منكم موت ونفي خيرة وعظام الرجال منهم. ثم رغبتم بالزيادة في عدد نوابكم، وتمكنتم من تحقيق ذلك المطلب. كانوا بمثابة قناصلة من فئتكم. بالرغم مما كان في كل ذلك من مهانة للبطريقيين أصبح للعوام رجال الدولة منهم كرجال الدولة من البطرقيين. علاوة على الحق في مساندة نوابكم وفي الاحتكام للشعب، أصبح لكم الحق في تشريع قوانين ملزمة لكل الرومان بما فيهم البطرقيون. بذريعة المساواة صرتم تدوسون على حقوقنا. عانينا من ذلك وسنظل نعاني منه. فما الذي سينهي خلافاتنا ؟ متى ستكون المدينة لنا جميعا ؟ متى ستكون وطننا المشترك ؟ نحن المنهزمون في ذلك الشقاق بيننا كنا نقوى دائما على تحمل الهدوء أكثر منكم أنتم المنتصرون فيه".

"بحقدكم علينا اعتصمتم بجبل لاڤاتين ثم بالجبل المقدس. اليوم أراضينا ينهبها العدو ولم يدفعه عنها أحد. فقط ضدنا أنتم رجال، وفقط ضدنا تحملون السلاح. ألا يكفيكم أن تكونوا مخيفين لنا ؟ فتشجعوا إذا. وحين تخاصرون مجلس الشيوخ وحين تزرعون الحقد بالساحة العامة وحين تملؤون السجون بالأخيار من المواطنين، استفيدوا حينها من تلك الحماسة الصاخبة ثم اخرجوا من أي باب شئتم. إن لم تستطيعوا فانظروا من فوق الأسوار إلى الحقول المنهوبة وإلى الغنائم التي يستحوذ عليها أعداؤكم، واستنشقوا دخان أسقف بيوتكم المحروقة. لكن الدولة وحدها هي التي تتأذى من ذلك. تحرق أريافنا وتحاصر مدينتنا وشرف الحرب يعود للأعداء".

---

[1] السنة 64 من عمر الجمهورية الرومانية

"وأنتم ؟ في أي حالة هي مصالحكم الخاصة ؟ قريبا سيعرف كل منكم مقدار الخسائر التي تكبدها بالريف. فماذا عساكم أن تحصلوا عليه هنا كتعويض ؟ ماذا بوسع نوابكم أن يردوا عليكم مما خسرتموه سوى الصراخ والكلام بقدر ما يحلو لكم أن تسمعوا منهم، مع الاتهامات الموجهة ضد خيار رجال الحاضرة، وقوانين متراكمة، وكثرة التجمعات بالساحة العامة. لكن ما خرج أحد منكم يوما من تلك التجمعات بأدنى فائدة لشؤونه ولأعماله. فمن منكم رجع منها بشيء لزوجته وأبنائه سوى بالأحقاد والضغائن والخلافات التي لا نجاة لكم من مخاطرها بشجاعتكم وبيراءتكم والتي تتطلب النجدة بالأجانب".

"في الحرب كنا نحن القناصلة قادتكم وليس نوابكم. كنا قادتكم في المعسكر وليس في الساحة العامة. كانت صيحاتكم ترهب العدو في الميدان، وليست تلك التي ترهبون بها مجلس الشيوخ بروما. كنتم محملين بالغنائم ووالأسرىمن السادة بمعسكر العدو. كنتم تعودون متوجين بالمجد لكم ولروما، وبالنصر لبيوتكم ولدويكم. والآن تتركون العدو يخرج منها محملا بأموالكم. فابقوا متعلقين بنوابكم وامضوا حياتكم في التجمعات بالساحة العامة. لكن ضرورة القتال ستظل تلاحقكم بقدر ما تهربون منها. كنتم تستخفّون بهجوم الإيك والفولسك على بلادكم حتى أصبحوا واقفين على أبوابكم. إلم تطردوهم منها فسيصبحون بداخل بيوتكم وستجدونهم بالقلعة وبالكابطول. مرت سنتين على أمر مجلس الشيوخ بالتجنيد وبالخروج للجبهة. لكن بقينا في ديارنا نتعارك كالنساء مستمتعين بالسلم من دون أن نتوقع ما يعقبه من حروب".

"أعرف أنه من الممكن عرض الأمور بشكل ألطف. لكن لا بد من التضحية بالمجاملة في سبيل الحقيقة. إن كان مزاجي لا يجعل من ذلك واجبا إلا أنه أصبح مفروضا عليّ من باب الضرورة. أيها الرومان أريد أن أروق لكم، لكنني أحب أكثر أن أنقذكم، مهما كانت مشاعركم نحوي. الطبيعة تريد أن يكون من يتكلم للجموع عن مصالحها الخاصة والضيقة أكثر قبولا عندها من الذي لا يتصور بعقله سوى الصالح العام. اللهم إذا ما كنتم تظنون بأن هؤلاء المتزلفين والمتملقين لكم والذين لا يريدون رؤيتكم لا في الحرب ولا في السلم، هم بالأحرى الذين لا يفكرون سوى في الصالح العام. هم يكسبون المجد ويستفيدون من شغبكم ومن صخبكم. وبما أن الوئام التام بين البطريقيين والعوام من شأنه أن يحوّل هؤلاء الرجال إلى لا شيء، فهم يفضلون القيام بتلك الأدوار الخبيثة على أن يصبحوا لا شيء. لذا حتى يكونوا شيئا يُذكر فهم يتزعمون الشغب والتمرد. إذا كنتم أخيرا مستعدين لمقت تلك التجاوزات ولاستعادة تقاليد آبائكم القديمة مع نبذ تلك العادات الجديدة، فإنني لن أرفض التعرض لأي عقاب إلم أهزم وأطرد هؤلاء المخربين لأريافنا وإلم أدحرهم من معسكرهم وأحوّل الرعب الذي أصابكم من أسوارنا وأبوابنا إلى مدنهم وديارهم". من بعد هذا الخطاب القوي والطويل اشتعل الجميع حماسا للحرب على الإيك والفولسك. وباختصار شديد فقد انتصر الرومان على أعدائهم المعتدين وغنموا منهم أكثر مما خسروه بنهب وتخريب أراضيهم. لكن هذا النصر العظيم كدره حكم ظالم صادر عن الشعب ضد حليفين لروما في خلاف بينهما على ملكية أرض. ترى ماذا حصل ؟

ثم يقول تيت ليف : "هذا النصر المجيد على العدو كدّره حكم ظالم صادر عن الشعب الروماني في قضية خلاف على أرض بين حليفين لروما. كانا في مفاوضات في شأن نزاع على أرض كانت سببا في عدة حروب بينهما. فقررا اتخاذ الشعب الروماني حكما في قضيتهما. لما سمعت جموع الرومان من الشهود أحال القنصلان القضية للتصويت. لكن شيخا من العوام قام ليقول : "أيها القنصلان. إذا سُمح لي بالكلام لصالح الدولة، فهناك خطأ لن اسمح للشعب الروماني بارتكابه في هذه القضية". لكن لما رفض القنصلان سماعه، لقلة شأنه، صاح يقول أن هناك خيانة للصالح العام. ولما همّ الحراس بإبعاده توجه إلى نواب العوام يستنجد بهم. وبما أن هؤلاء كانوا مجرد أدوات بيد العوام بدلا من أن يكونوا متحكمين فيهم، رضخوا لرغبات الجموع التي كانت تريد سماع الرجل، ومكنوه من قول ما يريد. فقال : "أنا شيخ عمري ثلاث ثمانون سنة. حاربت على الأرض موضوع النزاع. واحتفظت بذكرى محاها الزمن لكنها بقيت منقوشة في ذاكرتي. تلك الأرض كانت في ملك مدينة Corioles. ولما سقطت تلك المدينة في حرب معنا أصبحت نفس الأرض المتنازع عليها اليوم من ضمن الملك العمومي لروما. أستغرب من الحليفين اللذين لم تكن لهما مطالب في تلك الأرض يوم كانت Corioles قائمة. ثم ها هما اليوم يريدان سلبها من الشعب الروماني مالكها الشرعي، وباتخاذه حكما في نزاع بينهما عليها. أنا لم يبقى لي من العمر سوى قليل من الوقت. لكن مع ذلك لا استطيع الامتناع عن رفع صوتي، وهو ما تبقى لي من قوتي، لأطالب بعودة تلك الأرض لملكية الجمهورية، وقد ساهمت بدراعي في حيازة دولتنا لها. أنصح الشعب الروماني بألا يصدر قرارا ضد نفسه من أجل مجاملة ليست في محلها".

"لما رأى القنصلان أن الشيخ كان مسموعا بحماس من جموع العوام اتخذا الآلهة والرجال شهداء على دناءة تصرفه واستقوَيا في ذلك بالبطريقيين. راحا يتوسلان لكل جماعة بكل دائرة ترابية[1] كي لا توافق على جعل روما مثلا شنيعا بارتكابها لأبشع الجرائم، والكامن في استفادة الحَكم بين الطرفين من موضوع النزاع بينهما". وعلق تيت ليف على

---

[1] عوضنا بها لفظة "قبيلة" التي توحي في اللغة العربية للاشتراك في النسب، في حين جموع العوام الترابية *Comices tributes* هي الواحد وعشرين جماعة سكنية بروما، وكان الانتماء لكل منها بالسكن في الدائرة الترابية وليس بالنسب.

ذلك بقوله: "لو سُمح لحَكَم في مثل هذه القضية، أن يأخذ ثمن أتعابه بيده، فالأضرار التي ستلحق بروما هي أكبر وبكثير من الامتيازات التي ستحصل عليها باسترداد تلك الأرض. سيحصل ذلك لمّا تنسف بها تعاطف حلفائها. ففقدان روما لتقديرهم وثقتهم هو أكبر مما يُتصور. هل يظن الرومان أن حلفاءهم سينسبون مثل ذلك الحكم الظالم لذلك الشيخ ؟ بلا. سيجني هو منه بلا شك بعض الشهرة. لكن الشعب الروماني لن يجني منه سوى وصفه بالشعب المراوغ والحكم الأفاك المحتال. من هو ذاك القاضي الذي سبق أن حكم لصالحه في موضوع القضية التي يقضي فيها ؟ حتى هذا الشيخ الذي انعدمت فيه كل معالم المروءة لا يستطيع فعله. ذلك ما ظل يردده القنصلان والبطريقيون. لكن الجشع والشيخ الذي حركه كان لهما الوزن الأثقل. واستدعيت هيئات العوام الترابية Comices tributes للحسم في القضية، وصوتت لضم تلك الأرض لممتلكات روما العمومية. ما كان ذلك الحُكم ليكون مغايرا لو احتكم المتنازعان لقضاة آخرين غير الرومان. لكن عدالة تلك القضية من حيث الموضوع ما كانت لتمحو ما كان في ذلك الحكم من ظلم من حيث الشكل. ولهذا لن ينظر له الحلفاء بمرارة أقل من تلك التي نظر بها إليه البطريقيون بروما. ثم مرت بقية السنة من دون مشاكل لا بالداخل ولا بالخارج"

فقد أتى الشيخ بحجة قوية لما قال أنه لم يكن هناك نزاع بين الطرفين لما كانت تلك الأرض في ملك المدينة التي احتلها الرومان. لكن ما الذي جعل الرومان يفرطون في أرض أصبحت من ممتلكاتها العمومية بزعمه ؟ نحن لن نتدخل في تلك الحيثيات، ولنتوقف عند ثلاثة أمور. أولها صواب موقف البطريقيين المعارض لذلك الحكم في القضية. فلا يصح من حيث الشكل أن يكون القاضي حكما وطرفا في نفس القضية. ثانيها غرابة الاحتكام لشعب بأكمله في قضية خارجية ما كانت روما طرفا فيها. المعروف أن كل الأمور الخارجية كانت من اختصاص مجلس الشيوخ. وليس فيما تقدم من القوانين الجديدة المذكورة أعلاه ما حوّل منها ذلك الاختصاص لجموع الشعب. هناك أمر ثالث والكامن في الاحتكام للهيئات الترابية تقريبا في كل الأمور مع غياب شبه تام لذكر الهيئات حيث السيطرة كانت للبطريقيين. ويبقى كشف الضباب عن مثل تلك الأمور الغامضة من اختصاص الباحثين.

لكن الذي يهمنا في كل ذلك هو وجود تلك المؤسسات الرومانية التي كانت تمارس السلطة بتفويض من الشعب عن طريق الانتخابات الدورية، ووجود السلطة التشريعية بيد الشعب، وممارسة الشعب للسلطة القضائية إما بصفة مباشرة أو عن طريق القضاة بتفويض منه مع الالتزام بسيادة القانون، والاحتكام للتوافق بين البطريقيين المترفين من جهة والعوام المستضعفين من جهة ثانية في تحديد شكل الدولة ومؤسساتها وطرق تسييرها. بقيت فقط الإشارة إلى الاحتكام اليوم لتصويت هيئة المحلّفين المنتقين من بين المواطنين العاديين للفصل في القضايا الجنائية، على الأقل بفرنسا والولايات المتحدة، كموروث من الثقافة القضائية الرومانية التي كانت تحيل الفصل في مثل تلك القضايا لاقتراع الهيئات الترابية، كما كان الحال في ما رأيت بمناسة القضية الأخيرة.

ثم يقول تيت ليف : "انتخب لهذه السنة (445 ق.م.)[1] قنصلان جديدان. وعرفت ولايتهما اضطرابات بالداخل والخارج. منذ الأيام الأولى اقترح أحد نواب العوام قانونا يسمح بالزواج المختلط بين البطريقيين والعوام[2] ، والذي اعتبر البطريقيون أن من شأنه أن يدنس نقاء دمهم وأن يخلط بين حقوق كل الأجناس. ثم من مطلب النواب الجد المرتفع بالحصول على حق العوام في ولوج منصب القنصلية مناصفة، تقدم تسعة منهم بمشروع قانون يقضي بحرية الشعب في انتخاب كلا القنصلين من العوام أو من البطريقيين". حتى تدرك جيدا المطلب الثاني لنواب العوام نوضح لك ذلك في الجدول التالي :

	المرشحون للانتخابات		الناخبون	
	المنصب	**الفئة**	**جموع الناخبين**	**الفئة**
نمط الاقتراع **الحالي**	القنصل	من البطريقيين فقط	جموع الشعب الميئية *Les comices centuriates*	مختلطة مع الغلبة للبطريقيين
نمط الاقتراع **المقترح**	القنصل	مختلطون عوام وبطريقيون	جموع الشعب الترابية *Les comices tributes*	مختلطة لكن مع غلبة كاسحة للعوام

[1] وهي السنة 65 من عمر الجمهورية الرومانية

[2] باللاتينية *Lex Canuleia* باسم نائب العوام *Caius Canuleius*

فماذا عن تداعيات كل من مطلب الزواج المختلط وحق العوام في ولوج منصب القصلية ؟

قانون الزواج المختلط بين العوام والبطريقيين

يقول تيت ليف : "كان البطرقيون يرون في ذلك المشروع ليس فقط اقتساما للسلطة العليا مناصفة مع الغوغاء بل ترحيلا لها من الكبار إلى العوام. لهذا استقبلوا بفرح الأنباء التي جاءت تتحدث عن تصرفات عدوانية من بعض الجيران على أراضي روما وعلى أراضي حلفائها. كانوا يفضلون مرارة الحرب بالخارج على المهانة التي يتعرضون لها في السلم بالداخل. مع تلك الأخبار المضخمة من أجل غمس مقترحات النواب في ضجيج الحرب، صدرت الأوامر من مجلس الشيوخ للقنصلين بإعلان النفير العام وبالرفع من وثيرة الاستعداد للقتال. وشدد على الإسراع في تنفيذها من قبل أن يتخذها نواب العوام وسيلة لابتزاز البطريقيين فيساومونهم بها على القبول بمقترحاتهم كشرط للاستجابة لنداء النفير العام".

"صار القنصلان يحرضان مجلس الشيوخ على نواب العوام، وصار النواب يحرضون العوام على القنصلين. كان القنصلان يقولان : "قد أصبح من المستحيل تحمّل المزيد من تجاوزات النواب. لقد وصلنا لوقت وجب فيه حل تلك العقدة. الأعداء الأكثر رعبا لروما هم بداخلها وليسوا بخارجها. مع ذلك لا يصح كيْل الاتهام في ذلك لا للعوام ولا للبطريقيين ولا للقنصلين ولا للنواب أنفسهم. بل المتهم في أي دولة هي تلك الأمور الخبيثة التي تنال المكافأة فتظل تتعاظم فيها. وبها يكسب الرجال دائما شهرة في السلم كما في الحرب. ظل التمرد بروما هو الذي يفوز دوما بأكبر المكافآت. كان هو مصدر التشريف للرجال كما للجموع. تذكروا أيها الآباء في أي حال تسلمتم مجلسكم هذا الذي ستسلمونه بدوركم لأبنائكم. لا يمكنكم أن تفتخروا أنتم، مثل العوام، بأنكم رفعتم من شأن ميراثكم هذا. لا ينبغي أن تتمنوا وضع حد لهذه الفوضى ما دام زعماء التمرد يحْظون دائما بنفس التشريف الذي يحظى به التمرد نفسه. هل سبق أن رأيتم مشروعا أكثر وقاحة من مشروع هؤلاء النواب ؟ يريدون بالزواج المختلط الخلط بين الأجناس، وبين الطقوس والمراسيم الدينية المقدسة العامة والخاصة، حتى لا يبقى شيء نقيا ولا صافيا. من بعد محو كل ما يميز بعضنا عن البعض، لن تبقى وسيلة ليُعرف أي منا من يكون هو ولا من يكون أهله. وإلا فما هو مآل مشروع ذلك الزواج المختلط حيث البطريقيون والعوام يختلطون في أسرة واحدة كالبهائم ؟ ألا ترون أن الأبناء الذين سيُنجبون من مثل تلك الأسر لن يعرفوا من أي دم هو دمهم الذي يجري في عروقهم، ولا لأي جنس ينتمون. سيكونون هُجُنا من جنسين متميزين فلن يعرفوا في أنفسهم لا وحدة ولا نقاء في الهوية".

"ثم وكأن ذلك القلب للأمور الإلهية والإنسانية كان هيّنا، تجرأ هؤلاء المشاغبون من العوام للهجوم حتى على القنصلية. تحدثوا في أول الأمر فقط عن انتخاب واحد من القنصلين من بين العوام. أما اليوم فهم يطالبون بحق العوام في انتخاب كلا القنصلين من بينهم أو من بين البطريقيين. كونوا أيها الآباء على يقين أنهم سيختارون من بينهم للقنصلية أشدهم عنادا وتمردا. ندعوا الإله جوبتير الكبير والطيب كي يحول دون ذاك الانهيار لشأن ومقام القنصلية. أما نحن فنتمنى أن نموت ألف مرة بدلا من أن نتحمل تدنيس ذلك المنصب برجال من العوام. لو أن آباءنا توقعوا أن الاستجابة لمطالب العوام ما كانت لتزيدهم سوى عنادا وجرأة على طلب المزيد وعلى الطمع حتى في المزيد مما لا حق لهم فيه، لكانوا فضلوا المغامرة بالمواجهة معهم بدلا من القبول بذل العيش تحت نيْر قوانينهم".

"لما سلمنا لهم بالحق في النيابة عن قومهم من العوام، لزمنا القبول بمزيد من التنازلات التي لا حد لها. حتى لم يعد بمقدور نفس المدينة أن تؤمّن التعايش السلمي بين نواب العوام والبطريقيين. لا بد من إلغاء إما فئة العوام أو مؤسسة النيابة. إن كنا قد تأخرنا في أخذ مثل ذلك القرار فذلك خير لنا من الاستمرار في التغاضي عن واجب الوقاية من المزيد من جرأة وتهور نواب العوام. هل يصح أن ننتظر حتى يتجرأ هؤلاء المخربون على تحريض جيراننا على حربنا، ثم على منعنا من حمل السلاح لدفع عدوان من حرّضوهم علينا ؟ ألم تروا أنهم يستدعون الأعداء بشغبهم، ثم لا يسمحون لنا بالتجنيد لقتالهم ؟ ها هو ذلك النائب الذي يتجرأ اليوم على فرض شروطه على مجلس الشيوخ، كشروط المنتصر في الحرب، ويقول : "إلم يقبل البطريقيون بمشاريع قوانيننا فسيمنع هو كل تجنيد". فماذا يعني ذلك سوى تسليم الوطن للأعداء؟ ألا ترون في ذلك التهديد ليس فقط تشجيعا للعوام على التمرد بل تحريضا للأعداء على الهجوم علينا ؟ ألا يتمنى الأعداء أن ينتزع أولئك النواب المخربون من البطريقيين حقوقهم وهيبتهم وشجاعتهم ؟ لكن القنصلان سيقودان نفس البطريقيين لقتال أولئك المجرمين قبل أن يقودوهم لقتال العدو".

"ولما كان ذلك القنصل يلقي خطابه بمجلس الشيوخ، كان النائب Canuléius يدافع أمام جموع العوام بالساحة العامة عن مشاريع قوانينه ويحرضهم ضد القنصلين. كان يقول : "لقد تعددت أيها الرمان الفرص التي رأيتم فيها البطريقيين يحتقرونكم. رأيتموهم يقولون أنكم غير جديرين بالعيش معهم في حضن نفس المدينة وبين نفس الجدران. لم يسبق أن تأكدتم من ذلك مثل اليوم. وذلك لما رأيتموهم بأي غضب يعارضون مقترحاتي. بينما لا ترمي تلك القوانين سوى لتذكيرهم بأننا مواطنيهم. إن لم تكن لنا نفس الثروات فإننا من أهالي نفس الوطن"".

"باقتراحنا للقانون الأول نطالبهم بحرية الزواج التي تتمتع بها باقي الشعوب من حولنا ويتمتع بها عندهم حتى الأجانب الغرباء. نحن الرومان انتزعنا حق المواطنة، التي هي أكبر من الزواج المختلط، والتي تُمنح حتى للغرباء من الأعداء المهزومين في الحرب. أليس منع الزواج المختلط بيننا وبين البطريقيين، من ابتكار أولئك المفوّضين السيئين في الآونة الأخيرة، بقصد توجيه إهانة للعوام ؟ هل هناك من مهانة أكبر وأكثر قسوة من اعتبار جزء من المواطنين غير جديرين بالزواج بغيرهم، وكأنهم ملطخين ومدنسين برجس ما ؟ ألا يعد ذلك المنع شكلا من النبذ والنفي والترحيل لفئة من الشعب بداخل نفس المدينة ؟ يمتنعون عن الاتحاد معنا وعن الارتباط بنا، ويخشون من اختلاط دمائهم بدمائنا. إذا ما كان ذلك الاختلاط يدنس نبل طبقتهم، فإن من بينهم فئة كبيرة أصلها من مدينتي آلبا ومن قوم الصابين ولم يحصلوا على النبل لا بالدم ولا بالولادة، وإنما فقط باختيار الملوك أولا، ثم بفضل الشعب الذي رفعهم لطبقة البطرقيين. للحفاظ على نقاء دمهم كان عليهم اتخاذ ما يلزم من الإجراءات ببيوتهم كي لا يختاروا نساءهم من نساء غيرهم، وكي لا يسمحوا بتزويج بناتهم وأخواتهم برجال من خارج طبقة البطريقيين".

"لم يحدث أن اعتدى رجل من العوام على فتاة بطريقية. ما كانت مثل تلك النزوات إلا من نصيب البطريقيين. لم يسبق أبدا أن أجبرهم أحد على ارتباطات زوجية لا يرضونها. إلا أن منع الزواج بين البطرقيين والعوام وفي منعه بالقانون مهانة للشعب، وإلا جاز منع الزواج حتى بين الأغنياء والفقراء. حتى يومنا هذا تُركت دائما الحرية للناس في اختيار البيت من حيث يتخذون زوجات لرجالهم، وحريتهم في اختيار البيت من حيث يتخدون أزواجا لنسائهم. هم يريدون تقييد تلك الحرية بقيود قانون التعالي الرامي للتفريق بين المواطنين ولتجزيء الدولة الواحدة إلى جزأين. لماذا لا يسنون كذلك قانونا يمنع الرجل من العوام من أن يكون جارا للبطريقي ومن المشي معه في نفس الطريق ومن الجلوس معه على نفس المائدة وحتى من الظهور إلى جانبه بنفس الساحة العامة ؟ أليس ذلك مثل منع زواج البطريقيين من نساء العوام ومنع رجال العوام من الزواج بنساء بطريقيات؟ ما الذي سيتغير من حيث الحقوق ؟ أليس الأبناء يتبعون الوضعية القانونية للأب ؟ كل ما نطلبه بذلك القانون هو قبولنا كمواطنين وبشر. ليس لهم الحق في الاعتراض على ذلك، اللهم إن كان يحلو لهم أن نكون مستضعفين وبؤساء".

"أما القانون الآخر فلا يحمل شيئا جديدا. نحن لا نطالب بواسطته سوى تحقيق مكسب من مكتسبات الشعب، وهو حقه في منح شرف تولي مناصب الدولة لمن يحب. هل في ذلك ما يبرر إثارة كل تلك العواصف، والهجوم عليّ كما فعلوا ذلك منذ قليل بمجلس الشيوخ، والتهديد باستعمال القوة للاعتداء على مؤسستنا التي اكتسبت بموجب القانون حرمة مقدسة ؟ أين هو المشكل في حصول الشعب الروماني على حقه في حرية الاقتراع حتى يمنح شرف تقلد منصب القنصلية لمن يحب ؟ ما هو الإشكال في عدم حرمان العوام الأكفاء من الأمل في الوصول لذلك المقام العالي، والذين من دونهم قد لا تستطيع هذه المدينة أن تقاوم مخاطر الزوال ؟ كفانا استبدادا، وكفانا تهويلا باقتراح قانون قنصل من العوام وكأن الأمر يتعلق بقنصل من العبيد. ألا تشعرون أيها الرومان بهذه المهانة التي تعيشون فيها ؟ لو استطاعوا، لمنعوكم من أن تقاسموهم حتى النور. تجد منهم من يستاءون حتى من أن تتنفسوا وأن تتكلموا وأن يكون لكم حتى وجه بشري. وصلوا إلى حد، أستغفر عن ذلك الآلهة، اعتبار تسمية قنصل من العوام تدنيسا للمقدسات. وأنا أشهد على ذلك".

"إلّم تُفتح لنا تشريفات الجمهورية ولا سجلات كهنتها، هل معنى ذلك أننا نجهل عنها ما لا يجهله عنها حتى الأجنبي ؟ ألم يعوَّض الملوك بالقناصلة ؟ ألم يتمتع القناصلة بنفس الحقوق ونفس المقام العالي ؟ هل يحسبون أننا نجهل أن Numa Pompilius الذي لم يكن من البطرقيين ولا حتى مواطنا رومانيا، ومع ذلك استُدعي من أعماق بلاد قوم الصابيين، باقتراح من مجلس الشيوخ ثم بأمر من الشعب، ليكون ملكا على عرش روما ؟ ثم جاء من بعده Lucius طاركانius الذي لم يكن ينتمي لا لهذه المدينة ولا حتى لإيطاليا، وكان أبوه يونانيا، ومع ذلك صار ملكا خلفا للملك Ancus وفي حياة أبنائه ؟ من بعده جاء Servius Tullius، وقد كان ابن أسيرة. بالرغم من كونه من أب مجهول وأمه مجرد أمة، وصل إلى نفس العرش من دون أي مقام تشريف غير ذكائه وخصاله الحميدة. هل أنا في حاجة للحديث عن Titus Tatius من قوم الصابيين، الذي قبل به Romulus مؤسس المدينة كي يتقاسم معه الجلوس على نفس العرش ؟ هكذا، ما تعاظم قدر ومقام روما بين الشعوب سوى باجتناب إقصاء أية فئة من مواطنيها، حيث تظهر وتلمع الجدارة والاستحقاق".

"ثم أنتم أيها البطريقيون تستنكفون من أن يكون قنصلا من العوام، في حين ما تحرّج آباؤكم من اتخاذ الأجانب ملوكا. حتى من بعد طرد الملوك ما أُقفل باب مدينتنا في وجه الجدارة والكفاءة الأجنبية. ألم تُدمج في روما أسرة Claudia من بلاد قوم الصابيين، ليس فقط كمواطنين بل الحقوا فيها بطبقة البطريقيين ؟ هكذا يستطيع أجنبي أن يصبح من البطريقيين ثم قنصلا، في حين على المواطن الروماني من العوام أن يتخلي عن الحق في أن يكون قنصلا. هل يجب أن نيأس من أن يخرج من بين العوام رجل مقدام ودو مروؤة ومهارة في الحرب والسلم، مثل الملوك Numa وطاركان القديم وServius ؟ متى ما وُجد من بينهم مثل ذلك الرجل، فما المانع من أن يُمسك بمقود الدولة ؟ أم نريد أن يكون قناصلتنا مثل المفوضين، من أبشع الخلق، وقد كانوا كلهم من البطريقيين، بدلا من أن يكونوا مثل أفضل الملوك الذين لم يكونوا بطريقيين ؟".

"سيقال لكم أنه منذ طرد الملوك ما كان أحد من العوام قنصلا. ثم ماذا بعد ؟ أهذه حجة ؟ هل الابتكار ممنوع ؟ هناك الكثير من الأمور التي تستحق الابتكار عند كل شعب جديد. هل ما لم يحصل من قبل يجب ألا يحصل أبدا بالرغم مما فيه من فوائد ؟ لم يكن لنا في عهد Romulus لا كهنة ولا عرّافون. أوجدهم وأحدثهم الملك Numa Pompilius. لم يكن هناك بروما لا إحصاء ولا توزيع الشعب بحسب طبقات ميئية حتى أنشأها الملك Servius Tullius. ما كانت هناك أبدا قنصلية، وما أن طُرد الملوك حتى أحدثت مؤسستها. لم يسمع الرومان لا بإسم الديكتاتور ولا بسلطته. آباؤنا هم من أحدثوا له مؤسسة. ما كان هناك نواب للعوام ولا محافظ يدير شؤون المدينة édiles ولا خازن للدولة questeurs، ثم أحدثت تلك الوظائف. في ظرف عشر سنين أحدثنا مفوضية للتشريع ثم ألغيناها. من ذا الذي يشك في أن مدينة خالدة أنشأت لكي تظل تتوسع من دون انقطاع، ستبقى في حاجة دائمة لسلط جديدة ولمراسيم دينية متجددة ولقوانين حديثة تُنظم البلاد وتَحكم الرجال؟"

"ثم هل السلطة العليا ملك للبطريقيين أم هي ملك للشعب ؟ هل تم طرد الملوك كي يؤسسوا هم جمهورية ليفرضوا علينا هيمنتهم أم لإقامة المساواة بين الجميع ؟ لا بد من السماح للشعب بسن أي قانون ومتى شاء. ما أن نقترح عليه قانونا حتى يأتون دائما بإعلان النفير العام لعرقلة تمريره. في الوقت الذي أستدعي فيه أنا جموع العوام للاقتراع، يُجبر القنصل الشباب على أداء القسم العسكري كي يأخذهم لميدان القتال، ثم يهدد العوام ونوابهم. ألم يجربوا مرتين ما تستطيع فعله تلك التهديدات ضد اتحاد والتحام الشعب أم فقط بتسامح وصفح منهم أحجموا عن المواجهة مع العوام ؟ كلاّ، إلّم يحصل عنف، فلأن الطرف المعتدل كان هو الأقوى. اليوم لن يحدث مرة أخرى عنف. سيحاولون استفزاز شجاعتكم، ولن يستطيعوا مع ذلك اختبار قوتكم".

"هكذا أيها القنصلين، فسواء كانت الحرب وشيكة الوقوع بالفعل أو مجرد ادعاء فارغ، ستجدان العوام مستعدين للاستجابة لندائكما، لكن فقط إن أنتم سمحتم بالزواج المختلط وأعدتم بذلك لروما وحدتها، وإن صار مسموحا لهم بالاتحاد معكم وبالالتحام بكم بواسطة روابط أسرية، وإن توقفتما عن الاعتراض على أصحاب الكفاءات والشجاعة منهم من أن يلجوا المناصب العليا. سنستجيب لكما لمّا يُسمح لنا بالارتقاء إلى المقام المشرف بالجمهورية، وإذا ما صرنا نحن العوام، بقدر ما يجب أن نطيع بقدر ما يجب أن يكون لنا الحق في التناوب معكم، أنتم البطرقيين، على المناصب العليا للحكم، كما تفرض ذلك دواعي المساواة والحرية. إذا كنتم تشمئزون من هذه الشروط، فتحدثوا، ثم تحدثوا عن الحرب بقدر ما طاب لكم. لن يسجل أحد منا اسمه في لوائح التجنيد، ولن يحمل أحد السلاح ولن يقبل أحد منا بالقتال من أجل سادة متغطرسين يرفضون أن يتقاسموا معنا شرف ولوج مناصب الحكم ويمتعضون من الالتحام بنا بالمصاهرة".

وقد تستغرب وتتعجب من تلك الفصاحة وذلك البيان وذلك المنطق في الخطبتين السابقتين وفي غيرهما من الخطب السابقة واللاحقة. لكن يطير عجبك حين تعلم أن روما، مثلها مثل كبريات المدن بإيطاليا وباليونان، كانت تعج بالمدارس الخاصة للصغار وللشباب، حيث كانت تدرس مختلف المعارف والفنون، ولا سيما فن الخطابة والتاريخ والقانون. وكان من الصعب على أي رجل صاحب كفاءات ومهارات عالية أن يرقى إلى المناصب الرفيعة بالدولة إلم يكن يحسن فن الخطابة والبيان والمنطق ومعرفة التاريخ والقانون في بلاد يسودها الحق والقانون، وحيث التناوب على الحكم والاحتكام للقضاء ما كانا يُحسمان فيها بقوة السيف وإنما بقوة المنطق والإقناع. وبما أن التعليم لم يكن خدمة عمومية كاليوم، كان مستوى المعرفة يرتقي مع رقي مستوى الفئات الاجتماعية من البطريقيين والعوام. لهذا إلى جانب المدارس الخاصة بالساحة العامة، كان أبناء الأثرياء يتلقون الدروس ببيوتهم على يد معلمين وأساتذة مأجورين على خدماتهم أو على يد العبيد من أسرى الحروب.

ثم يقول تيت ليف : "جاء دور القنصلان للخطابة في العوام بالساحة العامة. إثرها حصل نوع من الاشتباكات بين الخصمين. وفي أوج ذلك العراك سأل النائب القنصلين عن السبب في منع العوام من ولوج منصب القنصل. فجاء الجواب ليقول بصراحة : "لأنه ما كان يوما الاستقسام بالطيور من نصيب أي رجل من العوام. وما منع المفوضون الزواج المختلط بين العوام والبطريقيين سوى لتلافي إرباك الاستقسام بسبب رجال مشكوك في نقاء منبتهم"". وذلك لأن الشعوب في تلك العصور كانت تولي مسألة الاستقسام بالطيور أو بغيرها أهمية كبرى وخطيرة. كانت في اعتقادهم استشارة الآلهة ضرورية قبل الإقدام على كل الأمور الخطيرة كالحرب مثلا. كان الرومان البطريقيون يعتقدون أن أرواحهم هي وحدها التي تصبح من بعد الموت آلهة تسمع وترى وتنفع وتضر، وتتواصل مع الأحياء بإشارات وعلامات لا يفقهها إلا البطرقيون من دون غيرهم. فكانت لا تستجيب

للاستقسام سوى منهم، وبالخصوص من الذين كانوا يحفظون الطقوس والترانيم الخاصة بها. وكان ذلك شأن كل كبار البطرقيين، لأنهم كانوا في بيوتهم أرباب أسر بطريقية، ومن تم وبالضرورة كانوا هم كهنتها ويُتقنون فنون الاستقسام. وهو الفن المطلوب من كل رجل دولة إتقانه في السلم وفي الحرب. ولم يكن العوام يفقهون فيه شيئا. هكذا نفهم معنى ذلك الاعتراض الذي جاء به القنصل في آخر الفقرة الأخيرة.

ثم يقول تيت ليف : "أشعل ذلك الكلام نار غضب العوام الذي بلغ مداه. لأنهم كانوا يُنكرون على البطريقيين منعهم من تولي مهمة الاستقسام، وكأن الآلهة الخالدة غاضبة عليهم. بفضل صمود نائبهم Canuléius انتهت تلك المواجهة أخيرا بقبول البطريقيين لقانون الزواج المختلط[1]، مقتنعين بأن باقي النواب سيتخلون في المقابل عن مطلب ولوج رجل من العوام لمنصب القنصلية، أو على الأقل سيأجلون ذلك المطلب لما بعد الحرب. وبذلك صار العوام الراضون بالحصول على حق الزواج المختلط مستعدين للتجنيد. هكذا مع قبول البطريقيين بقانون الزواج المختلط يكون النائب Canuléius قد حقق نصرا ولو جزئيا بفضل تأييد عموم العوام، مع بقاء مطلب اقتسام القنصلية مناصفة معلقا ويعيق التجنيد للحرب المهددة لروما". لكن بضغط قوي من العوام تنازل البطريقيون لهم الحق في ولوج السلطة العليا للبلاد بإحداث مؤسسة النيابة العسكرية بسلطات قنصلية من دون المساس بمؤسسة القنصلية التي ظلت من نصيبهم فقط ؟ فماذا عن تفاصيل تلك المؤسسة الجديدة ؟

مؤسسة النواب العسكريين المختلطة بسلطات قنصلية

يقول تيت ليف : "لكن الأهمية التي نالها النائب Canuléius بهذا النصر على البطريقيين وبفضل تأييد عموم العوام، أذكت تنافس باقي زملائه. صاروا يقاتلون بقوة من أجل نصرة مطالبهم. بالرغم من دق طبول الحرب الذي كان يتصاعد يوميا، ظلوا يحولون دون أي تجنيد. كان اعتراضهم يحول حتى دون اجتماع القنصلين بمجلس الشيوخ. صار القنصلان يستقبلان كبار أعضاء المجلس بمنزليهما. كانا أمام خيارين أحلاهما مر. كانا أمام القبول إما بانتصار العدو أو بانتصار المواطنين من العوام. فقط السيناتوران الشهيران Horatius وڤاليريوس لم يكونا من المشاركين في تلك الاجتماعات. كان من رأي السيناتور Gaius كلوديوس[2]، خروج القنصلين في مواجهة مسلحة ضد نواب العوام. إلا أن سيناتوران من عائلة كوينكتيوس[3]، عارضا بقوة سفك الدماء والاعتداء على نواب العوام المكفولة حُرمتهم بنص اتفاقية بين الدولة والشعب. وتمخضت أخيرا تلك المداولات بين البطريقيين عن إحداث منصب نائب عسكري بسلطات قنصلية[4] منتخب على السواء من بين البطريقيين أو العوام. ولم يتغير شيء بخصوص انتخاب القنصلين حصريا من البطريقيين. رضي بهذا الاتفاق كل من العوام ونوابهم. فدُعيت هيئات العوام الترابية Les comices tributes لانتخاب ثلاث نواب عسكريين بسلطات قنصلية".

بالبحث، وكما سترى لاحقا مع سرد الأحداث في هذا الكتاب، ستجد أن عدد النواب العسكريين كان غير مُحدّد مبدئيا وكان مفتوحا لأكثر من ثلاثة بحسب حاجيات الظروف. وكانوا منتخبين من طرف هيئات العوام الترابية les comices tributes من بعد الترشح المفتوح للفئتين البطريقيون والعوام وبعد الحملة الانتخابية بالساحة العامة. أما صلاحياتهم فكانت مثل صلاحيات القنصل، ولا سيما حين سُمح لهم بالحق في الاستقسام بالطيور بموجب قانون صادقت عليه الهيئات العشائر البطريقية Les comices curiates صاحبة الاختصاص بالأمور الدينية، بوصف كل مكوناتها كانت من البطريقيين. فكان باستطاعة النواب العسكريين بسلطات قنصلية من البطرقيين أو من العوام تعيين ديكتاتور وترأس انتخابات الزملاء الجدد منهم أو الدعوة لانتخاب القناصلة الجدد. وكان بإمكان أحدهم أن يصبح وصيا على كرسي القنصلية إلي حين انتخاب القنصلين الجديدين في حال ما تعذر انتخابهما في الوقت المحدد لسبب ما. وكان بإمكانهم استدعاء مجلس الشيوخ للاجتماع وترأس مداولاته.

وما كان يجتمع في ولاية واحدة على رأس الدولة القنصلان والنواب العسكريون، تماما كما كان لا يجتمع على رأسها القنصلان والديكتاتور. رئاسة الدولة لا تقبل الاختلاط بين المؤسسات الثلاث. تعيين

---

[1] سنة سنة 444 ق.م وهي السنة 66 من عمر الجمهورية الرومانية

[2] وهو عم المفوض *Appius* السيء الذكر

[3] وهو أب الشاب البطريقي المحكوم عليه بالمنفى، والذي كان سابقا قنصلا ثم ديكتاتورا.

[4] *tribun militaire à pouvoir consulaire*

الديكتاتور في الظروف الحرجة ولمدة معينة كان، كما تقدم، من اختصاص القنصلين إما بطلب من مجلس الشيوخ أو بمبادرة منهما. أما الخيار بين انتخاب القنصلين أو النواب العسكريين لولاية جديدة فكان يؤول للمؤسسة المنتهية ولايتها من بين المؤسستين القنصلية أوالنيابة العسكرية، وبحسب متطلبات ظروف الجمهورية. لم تكن هناك قاعدة ثابتة تحسم في الخيار بينهما. بل كان يتم الحسم فيه فقط بالتدافع. إحداث مؤسسة النواب العسكريين بسلطات قنصلية شكل مكسبا سياسيا هائلا بالنسبة لفئة العوام. سبق أن انتزعوا من البطريقيين مؤسسة النيابة عن العوام. لكنها كانت، كما رأيت، مجرد مؤسسة للدفاع عنهم فتحميهم من بطش رجال الدولة البطريقيين وتقود كزعيمة لحزب العوام المعارض نضالهم من أجل انتزاع المزيد من الحقوق. لكن هذه النيابة العسكرية لها سلطات قنصلية، بمعنى كان رجالها يحكمون كالقنصل بوصفهم رؤساء للدولة. صار للعوام الحق في ولوج هذا المنصب الذي يعادل القنصلية في تنافس عليه مع البطريقيين أمام هيئات العوام الترابية كجسد ناخب. الجدول التالي يعطيك الفرق من حيث الاقتراع بين القنصلية والنيابة العسكرية بسلطات قنصلية.

المرشحون للانتخابات		الناخبون	
المناصب	**الفئة**	**الكتلة الناخبة**	**الفئة**
القنصل *Le consul*	من البطريقيين فقط	الهيئات المئينة *Les* comices centuriates	مختلطة مع الغلبة للبطريقيين
النائب العسكري بسلطات قنصلية *Le tribun militaire à pouvoirs consulaires*	مختلطون عوام وبطريقيون	هيئات العوام الترابية *Les* comices tributes	من للعوام

وهيئات العوم الترابية Les comices tributes هي التي ظلت تنتخب نواب العوام وتصوت على القوانين التي تخص فئتهم كما صارت تصوت على القوانين التي تشمل في تطبيقها كل المواطنين من دون تمييز بينهم. كل الأحداث من حول ذكرها تشير إلى أنها كانت مشكلة من العوام فقط. مع ذلك فمؤرخنا تيت ليف يذكرها بوصف "جموع الشعب" وليس "جوع العوام" وكأنها مختلطة. تكون مختلطة في حال محاكمات رجال الدولة، وقد تكون كذلك في حال انتخاب النواب العسكريين مع الغلبة للعوام. لأن البطريقيين قد يكونون أغلبية في الدوائر الأربعة بروما، حيث لكل منها صوت واحد. أما بالأرياف فعدد الدوائر الانتخابية كان سبعة عشر وذلك منذ عهد الملك سيرفيوس. سكان كل منها كانوا كلهم تقريبا من العوام، مما يعطيها في الاقتراع سبعة عشر صوتا في مقابل أربعة أصوات للدوائر الانتخابية بداخل أسوار روما حيث الغلبة كانت للبطريقيين. هكذا قد تعطي نتيجة الانتخاب نوابا عسكريين كلهم من العوام أو كلهم من البطريقيين أو مختلطين. والسؤال المطروح، هو هل العوام الذين، كما ترى في الجدول، يحتكرون تقريبا الحق في انتخاب النواب العسكريين، سيغتنمون هذا الحق لانتخابهم من فئتهم أم من فقط من البطريقيين ؟ الجواب ستعرفه مع سرد بقية الأحداث.

ثم يقول تيت ليف : "زعم بعض المؤرخين أن روما اضطرت لخلق ثلاثة نواب عسكريين بمناسبة اندلاع ثلاثة حروب مرة واحدة لما ما كان بإمكان القنصلين قيادتها كلها في الوقت نفسه. مع وصول هذا الخبر دخل المتنافسون على تلك المناصب الثلاثة في حملة انتخابية بالساحة العامة وباللباس الأبيض[1] الذي كان يميز دائما المرشحين في الحملة الانتخابية عن غيرهم. ترشح لها كل من تميز سابقا بمهارة التفوه في الخطابة وبزعامة التمرد، ولا سيما من بين نواب العوام السابقين. ظل البطريقيون في بداية الأمر بعيدين عن الترشح لتلك المناصب، بسبب يأسهم من الحصول عليها من هيئات العوام الترابية الغاضبة منهم[2] وبسبب استنكافهم من تقاسمها مع العوام. لكنهم قرروا خوض تلك المعركة الانتخابية لما رأوا كبار المتنفذين من بينهم قد خاضوا غمارها، حتى لا يظهر البطريقيون بمظهر من استسلموا وتنازلوا للعوام عن تدبير شؤون الجمهورية. ثم دلّت نتائج تلك الانتخابات على أن العقول، في حرارة النقاش من أجل الدفاع عن حريتها

---

[1] اسم اللون الأبيض باللاتينية هو *candidus*. وبما أن المرشح كان يتميز عن غيره في الحملة الانتخابية بلباس أبيض فقد صارت كلمة *candidat* تعني بالفرنسية المرشح.

[2] بخلاف ما تقرأ في بعض البحوث، فهذا يعني أن هيئات العوام الترابية هي التي كانت تنتخب هؤلاء النواب العسكريين وليست الهيئات المئينة.

وكرامتها، هي غير العقول حين تصدر حكما بدم بارد من بعد نهاية الصراع. من بعد رضاهم عن كونهم قد أصبحوا شيئا مذكورا وله وزنه واعتباره السياسي، اختار العوام النواب العسكريين الثلاثة كلهم من بين البطريقيين".

وهنا ستستغرب من تلك النتيجة التي ما كانت متوقعة حتى من طرف البطريقيين أنفسهم. غلبة أصوات هيئات العوام الترابية كانت لصالح المرشحين البطريقيين فقط. يحصل هذا بشكل طبيعي لما تكون غالبية الكتلة الناخبة وضيعة. لكن لم تكن تلك هي حالة فئة العوام في تلك الفترة من تاريخ روما. سبق لهم أن اعتصموا كلهم مرتين بالجبل المقدس لانتزاع حقهم في الحرية. لكن حتى المرشحون من بينهم لم يجدوا تفسيرا لذلك التصرف الغريب. واتضح في النهاية أنه كان تصرفا معقولا وإيجابيا وصحيا من ناحيتين. من ناحية كانت فيه رسالة للمرشحين من فئتهم، مفادها أن العوام ليسوا قطيعا مضمونة أصواته لصالحهم. هكذا يوم يصوتون لصالحهم سيعلمون أن ورقة التصويت لخصومهم من البطريقيين جاهزة إن هم زاغوا وصاروا يتاجرون بمصالحهم. وهذا هو ما يحصل حتى يومنا هذا مع الناخبين المتحزبين إيديولوجيا. ولا يزال من مصلحة الأحزاب إذكاء ذلك الانقسام الإيديولوجي الحاد بين الناخبين حتى يصوتون لها بطريقة عمياء وكأنهم أنصار أندية كرة قدم مهما كانت نتائج ممارستهم للحكم. بذلك سيظل الناخبون المتحزبون يشكلون قطيعا مساهما في الفساد السياسي من حيث لا يريدون ولا يعلمون.

من ناحية ثانية كان في تصويت العوام لصالح البطريقيين فقط رسالة مفادها أنه صار لهم فضل عليهم في اعتلاء سدة الحكم، وأن ورقة تفضيل خصومهم عليهم جاهزة إن هم أساؤوا التصرف في ممارسة الحكم ضدهم. فقد كان في المحصلة تصويتا مسؤولا. ولا غرابة في ذلك لأن عوام روما لم يكونوا منهم رعاعها كما وصفهم بذلك الأستاذ يوسف الصديق لما سُئل عن معنى plèbe في كلمة plébiscite بمناسبة التصويت بقوة للأستاذ قيس سعيد في الانتخابات الرئاسية السابقة لأوانها سنة 2019. الرعاع والدهماء والغوغاء أوصاف لا تليق سوى بالشعوب الوضيعة المستأنسة بالاستبداد. أما عوام روما فقد صفوا كذلك فقط لكونهم من غير فئة البطريقيين النبلاء بالنسب. وإلا فقد كان جلهم متعلمين بل كان من بينهم معلمين وأساتذة ومثقفين، وإن كانوا في غالبيتهم من متوسطي الحال ومن الفقراء.

وعلق تيت ليف على ذلك التصويت من العوام لصالح البطريقيين فقط بقوله : "هل تجدون اليوم[1] حتى عند رجل واحد مثل ذلك الاعتدال وذلك الإنصاف وتلك الهمة العالية التي أبان عنها الشعب من العوام بأكمله في ذلك الزمان. هكذا من بعد ما مرت ثلاثمائة وعشر سنة على تأسيس روما، عوّض لأول مرة في سدة الحكم ثلاثة نواب عسكريين مكان قنصلين. هذا التوافق بين فئتي البطرقيين والعوام بالداخل جلب لهم السلم بالخارج. لكن سلطة هؤلاء الرجال لم يشتد عودها بعدُ، حتى أجبروا على التنازل عنها فقط من بعد ثلاثة أشهر من انتخابهم، بحجة أن عيبا شكليا حصل في عملية انتخابهم. القنصل الذي ترأس تلك الجموع المقترعة لم يلتزم بالشكليات المطلوبة دينيا حين إقامته لخيمة الاستقسام. صار حينها كرسي حكم الجمهورية فارغا. فاجتمع البطريقيون وعينوا وصيّا على كرسي رئاسة الجمهورية. ثم ترددوا بين انتخاب قنصلين أو نواب عسكريين. مجلس الشيوخ مع الوصي على كرسي الرئاسة كانا كلاهما مع انتخاب قنصلين. بخلاف العوام ونوابهم كانوا مع انتخاب نواب عسكريين. فاز في النهاية البطريقيون لما لم يرى نواب العوام جدوى من معارضتهم، ما دام النواب العسكريون أو القناصلان كانوا سيُنتخبون فقط من بين البطريقيين. فكانوا يفضلون اقتراع الهيئات المئيثة Les comices centuriates لانتخاب قنصلين، حيث لا مجال لترشحهم للقنصلية، على اقتراع هيئات الترابية les comices tributes ذات الغالبية من العوام لانتخاب نواب عسكريين، مع كبيراحتمال تصويت فئتهم من العوام كالمرة السابقة فقط على البطريقيين، وكأن المرشحين من فئتهم ما كانوا في تقدير تقديرها جديرين بتقلد تلك المناصب العليا[2]. كانوا سيتخلوا عن شرف الدخول في منافسة مع كبار البطريقيين، لأنهم كانوا على يقين من الخسارة فيها. فانتخب قنصلان جديدان، وساد السلم بالداخل والخارج طيلة ولايتهما". لكن جاءت الظروف بالحاجة لإحداث منصب جديد أعلى من منصب القنصل والذي كان ولوجه حكرا على البطريقيين. ويتعلق الأمر بمؤسسة النظارة. فنترك مؤرخنا يحدثنا عن ظروف إحداثها وعن صلاحياتها.

---

[1] بذلك يتأسف تيت ليف على ما آلت إليه الأمور في عصره مع سقوط الجمهورية وبداية عهد الإمبراطورية سنة 27 ق.م.

[2] تذكر أن العوام صوتوا فقط على البطريقيين من بين مرشحين مختلطين لمناصب ثلاثة نواب عسكريين.

مؤسسة الرقابة la censure

يقول تيت ليف : "انتخب لولاية هذه السنة (443 ق.م.)[1] قنصلان جديدان أحدهما للمرة الثانية والآخر للمرة الخامسة. كان قد تأخر إجراء الإحصاء الدوري بعدة سنوات عن موعده. الإحصاء الذي بفضله كانت تعرف وتسجّل ثروات المواطنين الرومان، فيحدد على أساسه مقدار ما كان على كل منهم من ضرائب يؤديها طيلة خمس سنوات. بحسب نتائج نفس الإحصاء كانت تتشكل الطبقات الخمس المكونة للهيئات المئية Les comices centuriate كهيئات ناخبة، ولمراتب الرجال بالجيش. مع مرور الزمن تتغير ثروات المواطنين. فكان لزاما تحيين السجلات وما يتبع ذلك لا في أداء الضرائب ولا في التوزيع على الطبقات الاجتماعية الخمس. فكان العدل يقتضي تقليص مقدار ضرائب من تقلصت ثروته والرفع من قيمة ضرائب من ازدادت ثروته. كما كان يجب إعادة توزيع المواطنين على الطباقات الخمس بحسب مقادير ثرواتهم الجديدة. لكن ما عاد بالإمكان تأجيل الإحصاء مرة أخرى. وبسبب الحروب التي كانت تهدد روما ما كان بإمكان القنصلين القيام به. فتقدما لمجلس الشيوخ وقالا له بأن تلك العملية الشاقة والتي لا علاقة لها بأهم مهام القنصلية تتطلب إحداث منصب جديد من رجلين يعمل تحت إمرتهما كُتاب وأعوان ويكونان مسؤولين عن العناية بالسجلات وعن الحفاظ عليها ويديران عملية الإحصاء بالشكل الذي يريانه مناسبا".

"فشهدت تلك السنة إحداث مؤسسة الرقابة التي لم يكن لها في أول الأمر شأن كبير. لكنها تطورت مع مرور الزمن بشكل صار معه بيدها إدارة انضباط والتزام الشعب الروماني بالأخلاق والعادات والتقاليد. وكان من أهم صلاحياتها تفتيش الأماكن العامة والسهر على الإحصاء الدوري كل خمس سنوات. كما كان من مهام النرقيبين تعيين من يشغل مقاعد الأعضاء المتوفين بمجلس الشيوخ من بين كبار رجال الدولة السابقين. تلك المهام كانت كلها داخلة في اختصاصات القنصلين. وبالرغم من قلة أهمية ذلك المنصب فقد ابتهج به البطريقيون لما كان فيه من زيادة في عدد المؤسسات الخالصة لفئتهم، مقتنعين بقوة نفوذ الرقيبين les deux censeurs الذي أكدته التجربة فيما بعد وزاد من بريق سلطتهما. أما نواب العوام فلم يروا فائدة في الاعتراض على إنشاء ذلك المنصب الجديد لأنهم ما رأوا فيه سوى ما كان من نصيب القنصل آنذاك من مهام لا دور لها في بريق تلك السلطة. ولما ظهر أنه كان منصبا غير مرغوب فيه من كبار رجال الدولة فقد صوتت الهيئات المئية على تكليف القنصلين بالاستمرار في القيام بمهامه إلى حين توفر مرشحين له. وحمَل منذ ذلك الحين صاحب ذلك المنصب اسم الرقيب le censeur".

"ولما كانت تجري تلك الأحداث بروما أرسل إليها أهالي مدينة Ardée مبعوثين يلتمسون منها النجدة من هلاك محقق باسم الحلف العتيق والميثاق الموقع منذ مدة. كانت مدينتهم تئن تحت وطأة حرب أهلية حرمتهم من أن ينعموا بمثل السلام الذي بتعقّلهم حافظوا عليه مع روما. السبب في تلك الحرب الداخلية كان بحسب ما ورد من أخبار، هو الصدام بين فصائل مجتمع المدينة، ذلك السم الأكثر فتكا بالدول من الحروب الخارجية ومن المجاعة ومن كل الكوارث التي تُنسب عادة لغضب الآلهة. كان شابان يريدان الزواج من نفس الفتاة من العوام التي اشتهرت بجمالها. أحدهما أصله من فئتها، وكان مدعوما من قومه. والآخر كانت أسرته من فئة النبلاء ولم يتعلق بها سوى لسحر جمالها. كان هو كذلك مدعوما بقوة من طرف فئته. وتسرب النزاع حتى إلى داخل بيت الفتاة. أمها كانت تريد تزويج بنتها من الطرف الأكثر بريقا فأعلنت وقوفها مع الشاب النبيل. أما باقي أهلها من العوام فقد كانوا مع تزويجها من فتاهم".

"ولما لم تُحسم القضية أسَريّا رُفعت إلى القضاء. من بعد سماع أم الفتاة ومن باقي أهلها من العوام، حكمت المحكمة لصالح حرية الأم في تزويج ابنتها بمن تريد. لكن الاحتكام للعنف هو الذي انتصر في نهاية المطاف. لجأ أهل الفتى من العوام للتشكي بالساحة العامة من جور ذلك الحكم. وجمعوا من العوام جموعا ثم انتزعوا البنت من بيت أمها. فتوجه إليهم النبلاء بقيادة الشاب العاشق للفتاة وهم غاضبون من تلك المهانة. اندلع اقتتال رهيب بين الخصمين. العوام الذين لا يشبهون عوام روما في شيء انهزموا، فخرجوا من المدينة حاملين السلاح وأقاموا بهضبة من حيث صاروا يهجمون على أراضي النبلاء لنهبها ولتخريبا. ثم صاروا مدعومين بجموع العمال المياومين الذين وجدوا في ذلك فرصة للنهب، وأخذوا يتهيأون لحصار مدينتهم التي كانت حتى ذلك اليوم آمنة. جاءتها الحرب بكل مصائبها دفعة واحدة. كان يبدو أن المدينة بأكملها صارت تحت وطأة غضب خصمين يتحرقان على دفع سقوط وخراب وطنهم ثمنا لشراء غشاء بكارة فتاة. ثم قدّر عقلاء الطرفين أن الحرب بينهما لم تكن شيئا خطيرا ما دامت لا تتعدى حدود مدينتهم Ardée. لكن نبلاؤها استنجدوا بروما حليفة مدينتهم لفك الحصار عنها. حينها استنجد العوام بالفولسك[2] للسيطرة عليها. استجاب الفولسك للنداء وحاصروا المدينة. وما أن وصل الخبر لروما حتى خرج لهم القنصل في جيشه ليعسكر من حول العدو المحاصر للمدينة الحليفة". ونعفيك من تفاصيل ما حصل، سوى أنه لم يحصل اقتتال بين الجيشين، وإنما قدّر الفولسك أنهم كانوا محاصرين من كل جانب فاستسلموا وخرجوا من معسكرهم عُزلا. لكن في الطريق كانوا عرضة لسفك دمائهم من طرف

[1] السنة 67 من عمر الجمهورية الرومانية
[2] أعداء روما التقليديين

أعدائهم. وحكم القنصل بقطع رقاب كل رؤوس الفتنة بمدينة Ardée من العوام والنبلاء. ثم عاد لروما محملا بالغنائم ومنتشيا بنصر من دون قتال مع إعادة السلم والهدوء للمدينة الحليفة وبكامل رضا أهلها بحكمه على الجناة بها.

ثم يقول تيت ليف : "من دون قتال حصل القنصل على نفس المجد الذي حصل عليه غيره بالسلاح. استطاع الحفاظ على السلم والوفاق بالمدينة بفضل إنصافه للنبلاء الذين تحدثوا عن قسوته وللعوام الذين تحدثوا عن رفقه. اعتبرت مدينة Ardée ما حصل من القنصل تعويضا كافيا من روما عما أصابها منها من حكم جائر بخصوص الأرض المتنازع عليها سابقا. اكتسب القنصل احترام نواب العوام بفضل علو همته أكثر من رفعة مقام منصبه. بريق خمس ولايات جلب له المجد والتقدير أكثر من شرف اعتلاء كرسي السلطة العليا. ولم يكن هناك حديث هذه السنة عن نواب عسكريين".

"وانتُخب لهذه السنة (442 ق.م.)[1] قنصلان جديدان كانا متأثرين بمنجزات أسلافهم في السلم والحرب، ولا سيما قنصل السنة الفارطة الذي أسرع إلى إنقاذ حلفاء روما بمدينة Ardée لما كانت على حافة الانهيار. الأمر الذي جلب للرومان كبير إعجاب وتقدير من كل الجيران، الأصدقاء مثل الأعداء. للحصول على نفس التميز قرر القنصلان الجديدان وبنفس الحماس محو عار ذكرى الحكم الجائر في حق نفس الحليف". وحتى تفهم كنه الموضوع أذكرك بما حصل فقط منذ أربع سنوات، أي سنة 446 ق.م. لما احتكم للشعب الروماني حليفان بخصوص نزاع على أرض بينهما. كانت Ardée إحدى الطرفين في القضية. وبإيعاز من أحد الكهول الرومان ووفق مزاعمه حكم الشعب الروماني بكون الأرض المتنازع عليها ملك عام لدولته ورد الخصمين خائبين ونادمين على تحكيم روما فيما بينهما. لكن النبلاء البطرقيين كانوا جد مستائين من ذلك الحكم الجائر، وظلوا يعتبرونه عارا على جبين روما في حق الحليفين. فكانوا يتحيّنون الفرصة لإصلاح ذلك الحيف الذي ارتكبه الشعب الروماني باتباع مزاعم أحد كهوله من دون عدل ولا بصيرة. وها هي الفرصة قد حانت مع هذين القنصلين الجديدين.

فقال في ذلك تيت ليف : "استصدرا القنصلان من مجلس الشيوخ مرسوما يقضي بإحداث مستعمرة رومانية على نفس الأرض التي كانت موضوع ذلك النزاع وذلك الحكم الجائر، بحجة أن الحرب الأهلية التي اشتعلت بأرض الحليفة مدينة Ardée قد استنزفت تعداد ساكنتها، فصارت في حاجة لمستعمرة تستقوي بها على مواجهة أعدائها وأعداء روما من الفولسك. وتعمدا إدراج تلك الحجة في المرسوم لسحب أي مبرر لاعتراض العوام ونوابهم على قرارهما. تم الاتفاق بين القنصلين على أن يكون أكبر عدد المستوطنين المستفيدين من توزيع أراضي المستعمرة من القوم الذين لحقهم حيف الحكم الصادر سابقا في حق تلك الأرض حتى يسترجعوا بذلك المرسوم حقهم المشروع في امتلاكها واستغلالها. ولا يستفيد من توزيعها أي روماني إلا من بعد استنفاذ عدد المستفيدين من الحلفاء من مدينة Ardée. فعيّنا ثلاثة مفوضين للإشراف على توزيع أرض المستعمرة المحدثة بالرغم من استنكاف العوام من توزيع أرض صدر حكم منهم على أنها ملك لروما. فباء القنصلان بغضبهم من دون أن يحظيا برضا البطريقيين الذين لم يروا في ذلك السخاء للحلفاء جني أدنى فائدة. رفع نواب العوام دعوى ضد القنصلين. لكنهما تفادياها بالخروج من روما[2]، وزهدا في السكن بها. وانتصارا للحق واستقرا في تلك المستعمرة".

"وساد السلم بروما من الداخل والخارج طيلة هذه السنة والتي تلتها. وحاول أحد نواب العوام إثارة الفتنة لكن من دون جدوى. كان قد تقلد منصبه للمرة الثانية ولم يحصل من القنصلين على عرض مشروع توزيع الأراضي على مجلس الشيوخ الذي وعد به منتخبيه. وكانت تهديداته بالحيلولة دون التجنيد مثارا للسخرية، لأن الشعوب المجاورة لروما كانت تفضل حينها حالة السلم على الحرب، فما كانت الدولة في حاجة للاستعداد لها. مع بداية سنة 440 ق.م. تم انتخاب قنصلين جديدين. ثم تلا هدوء الجمهورية العديد من الشرور والمخاطر. عرفت التمرد والمجاعة ولا سيما خطر الاستبداد بحكم روما عن طريق إغواء شعبها الجائع بسخاء وإغراءات الأشرار المغرضين. لم يبقى لها سوى الحرب الخارجية، التي لو حلت لزادت من تعقيد تلك الأمور. و قد كان وبالكاد بمقدور الآلهة وحدها أن تنقذ الرومان مما كانوا فيه". يتحدث هنا تيت ليف عن محاولة أحد كبار تجار روما استغلال المجاعة التي حلت بشعبها ها للاستبداد بالحكم. فماذا عن هذه المآمرة الجديدة ضدة حرية الرومان وعن مآلها .

مؤامرة ضد الجمهورية وضد حرية شعبها

[1] السنة 68 من عمر الجمهورية الرومانية

[2] فالدعوى القضائية بروما كانت لا تطال من كان خارج حدود المدينة.

يقول تيت ليف : "مصائب روما بدأت هذه السنة بالمجاعة، إما بسبب السنة الفارطة التي لم تكن مناسبة لمتطلبات الزراعة أو بسبب جاذبية التجمعات بالمدينة التي نتج عن ولع العمال بها إهمال الأشغال الفلاحية. بل حصلت بسببهما مجتمعين. كان البطريقيون يتهمون العوام بالخمول. وكان نواب العوام يلومون القنصلين على إهمالهم وعلى سوء نواياهم. اقترح أخيرا العوام تعيين أحد القنصلين محافظا مكلفا بالتموين préfet de l'annone ومن دون اعتراض من مجلس الشيوخ. وهو المنصب الجديد الذي كان سيضطر ذاك القنصل أن ينفع الشعب بفضله أكثر من مجرد اهتمامه بالمشاغل المتعلقة بمنصبه كقنصل. استطاع بالفعل الحصول بذلك المنصب على شرف ومجد التخفيف من شدة تلك المجاعة، بجدارة وباعتراف من الجميع".

"أرسل مبعوثيه إلى مختلف أصقاع الأرض من حول روما. لكن ما جاؤوه سوى بقليل من القمح غير كاف لسد الخصاص. حينها صار من الضروري اتخاذ إجراءات داخلية لتنظيم وتدبير الحرمان. للحيلولة دون استمرار الندرة والخصاص في الأسواق، بسبب الإفراط في التخزين من باب الاحتياط، أصدر المحافظ قرارا يجبر كل مواطن على التصريح بكل ما لديه من حبوب، وببيع الفائض عن حاجيات شهر. فقرر التخفيض من حصص العبيد. وصار يتهم تُجار الحبوب بجشع الاحتكار حتى صاروا فريسة لغضب الشعب. لكنه لم يحصل من كل تلك الإجراءات سوى على استشعار حجم الأزمة من دون علاجها. من شدتها على الفقراء، الكثير منهم يئسوا من النجدة فغطوا رؤوسهم ورموا أنفسهم في نهر التيبر بدلا من اجترار الحياة في مآسي تلك الكُرَب". وهنا نلاحظ معي التناقض بين الفقرة الأخيرة وآخر الفقرة السابقة. يقول في تلك أن المحافظ نجح في التخفيف من حدة المجاعة. وفي الفقرة الأخيرة يقول العكس تماما. ولا عيب أبدا في الترجمة هذه، اللهم من عيب في الترجمة الفرنسية التي اعتمدناها. وقد صار لتلك الأزمة تداعيات سياسية تهدد الحرية بالجمهورية لصالح الاستبداد. فماذا عن تلك التداعيات ؟...

يقول تيت ليف : "في ذلك الوقت العصيب كان Spurius Maelius رجلا من العوام، وينتمي لطبقة الخيالة. ظل صاحب ثروة هائلة في أوج الأزمة. وأعطى بسخائه المثل الجيّد والنبيل في وقت المجاعة. إلا أنه شوّه طبيعته بنواياه المغرضة. اشترى كمية ضخمة من القمح. وهو الأمر الذي بطلت معه، في نظري[1]، الحاجة لإجراءات القنصل من أجل التخفيف من شدة الفاقة. وصار يوزع تلك الحبوب على عموم الشعب. هكذا وحيثما تواجد صار يظهر محفوفا بالجموع المنتفعة من سخائه والتي شكلت من حوله موكبا لم يحظى بمثله مواطن عادي من قبل. صار يطمع بذلك في الوصول لمنصب القنصل. لكن بالنظر لقلب الإنسان الذي لا يقنع بما يعده به حسن الطالع، صارت أطماع Maelius تتطلع إلى ما هو أعلى من منصب القنصل. كون الوصول للقنصلية يتطلب الحظوة برضا البطريقيين صار يتشوف إلى المحظور. صار يتطلع لإعادة إحياء الملكية واعتلاء عرشها من بعد نسف الجمهورية. تلك كانت في نظره المكافأة الوحيدة التي تليق بذلك الكم من المناورات وبذلك الصراع الرهيب الذي سيدخل فيه".

"لكن اقترب موعد انتخاب القنصلين الجديدين لسنة 439 ق.م. وهو الأمر الذي باغت مخططات Maelius ومشاريعه قبل بلوغها مرحلة النضج. انتخاب أحد القنصلين للمرة السادسة في مساره السياسي لم يكن اختيارا موفقا بالنسبة لنوايا Maelius المتآمر. وانتُخب كزميل له قنصل كان يلقب بالخشن Lanatus[2]. بقي القنصل السابق Minucius في منصبه الجديد كمحافظ مكلف بالتموين، إما بتعيين جديد أو بتمديد لمهمته حتى نهايتها".

"علم المحافظ Minucius بسخاء الثري Maelius. ذلك السخاء الذي كان يتقاطع مع مهمته للتخفيف من أزمة المجاعة. إلا أنه اكتشف نواياه المغرضة وأخبر بذلك مجلس الشيوخ، وقال : "تيقنت من أن Maelius يجمع الأسلحة ببيته الذي ما يزال ينظم فيه هو بنفسه اجتماعاته. من المؤكد أنه ينوي تتويج نفسه ملكا على روما. فقط لم يُحدد بعدُ موعد التنفيذ. لكن كل ما تبقى لتنفيذ المآمرة فهو جاهز. بعض نواب العوام الذين اشتراهم بالمال قد باعوا له بذلك حرية الوطن. وزعماء تلك الجموع قد اقتسموا فيما بينهم المهام. أما أنا كمحافظ مكلف بالتموين، ها أنا أخبر مجلسكم الموقر، وإن بشيء من التأخير بحسب ما يقتضيه أمن الجمهورية. وما حصل ذلك التأخير سوى من باب الاحتراز حتى لا أوافيكم بأخبار غامضة ومشكوك في صحتها"".

"وباطلاع مجلس الشيوخ على ذلك الخبر الرهيب، اشتاط كبار رجاله غضبا ولوما لقنصلي السنة السابقة اللذين غفلا عما كان في سخاء الثري Maelius من شبهة وأهملا تجمعات العوام بمنزله كمواطن عادي. كما انهالوا باللوم على القنصلين الحاليين اللذين لم يحركا ساكنا، منتظرين مجيء المحافظ كي يخبر مجلسهم بقضية من ذاك الحجم وتلك

[1] والتعليق للمؤلف تيت ليف.

[2] ومعنى كلمة *Lanatus* باللاتينية هو الصوف.

الخطورة، والتي كان اكتشافها وقمعها من اختصاصهما. حينها أجاب أحد القنصلين بقوله : "لا يجوز اتهامنا نحن القنصلين بالتقصير. نحن مكبلان بقوانين الاستنجاد بالنواب وبالشعب التي سُنت لتقويض سلطة القنصلية. ما كان ينقصنا الإقدام. بل كان ينقصنا ما يكفي من النفوذ لقمع مثل تلك المؤامرة الضخمة. الجمهورية أصبحت في حاجة ليس فقط لرجل دولة صاحب قلب كبير، لكن لرجل دولة مستقل لا يكبله أي قانون. وعليه فإنني اقترح عليكم تنصيب الشيخ كوينكتيوس[1] ديكتاتورا مرة أخرى، حتى تتساوى سلطته مع شجاعته"".

"قوبل المقترح بالتأييد. لكن الشيخ كوينكتيوس رفض العرض في أول الأمر. كان يقول : "ماذا تريدون مني بالضبط حتى تُعرضونني في هذا العمر المتقدم لمثل هذا الصراع الرهيب ؟". لكنه قبل أخيرا بالعرض لما سمعهم يقولون بأنه بالرغم من تقدمه في العمر يبقى هو الأكثر حكمة وقوة من غيره لحل تلك الأزمة. في يوم الغد شكل تشكيلات من الحرس ونزل بها للساحة العامة فأدهش الشعب بظهوره في قوة غير متوقعة. حينها شعر Maelius ومواليه بأن تلك القوة الرهيبة كانت موجهة ضدهم. لكن المواطنين الذين كانوا يجهلون مشاريع تآمره كانوا يتساءلون قائلين : "ما ذاك التمرد أو تلك الحرب المفاجئة التي تطلبت تعيين ديكتاتور ووضعت مصير الجمهورية بيد الشيخ كوينكتيوس وهو في الثمانين من عمره ؟"".

"لما وصل قائد الخيالة لبيت Maelius قال له : "الديكتاتور يستدعيك". فرد بوقله : "ماذا يريد مني ؟". فقيل له : "ليسمع دفاعك ودواعي الجريمة التي اتهمك بها المحافظ Minucius أمام مجلس الشيوخ". حينها احتمى Maelius بمجموعة من المتواطئين معه، وصار يحوم بنظره من حوله باحثا عن كسب بعض الوقت. تقدم أخيرا حارس بأمر من قائد الخيالة ليقبض عليه. ولما تخلى عنه كل من كان من حوله، هرب يستجدي الجموع. وكان يقول بأن تلك مؤامرة من البطريقيين الذين يضطهدونه بسبب سخائه مع العوام. صار يتوسل إليهم كي ينقذوه من خطر محدق، وألا يتركوه على الأقل يُذبح تحت أنظارهم. في خضم ذلك الصخب والصراخ وصل إليه قائد الخيالة وقطع رأسه. وراح مخضبا بالدم إلى الديكتاتور، محفوفا بجمع من شباب البطريقيين، ليقول له : "إن Maelius لم يستجب للاستدعاء ودفع الحارس وهرب وهو يحرض ويجيّش الجموع، فتلقى مني ما يستحق من عقاب على جرمه". فرد عليه الديكتاتور قائلا : "هنيئا لك بشجاعتك، لقد أنقذت الجمهورية".

"وبما أن الجموع لم تكن تعرف تفاصيل القضية، أخذت في التحرك وفي الهيجان. فاستدعاها الديكتاتور كوينكتيوس للاجتماع بالساحة العامة، وقام خطيبا فيها ليقول : "قتل Maelius كان مشروعا، ولو حتى من قبل أن يُدان بتهمة سعْيه للمُلك. استُدعي للامتثال أمامي كديكتاتور، ورفض الاستجابة لأمري. أما قائد الخيالة فما بعثته سوى للتحري في القضية. ولو أنه استطاع التحري فيها لتوصل لنفس النتيجة التي آل إليها مصير Maelius. كان يستعد للتنصّل بالقوة من المثول أمام العدالة. فرد قائد الخيالة على مسعاه بنفس القوة. ما كان من حقنا أن نعامله كمواطن، وهو الرجل الذي وُلد في شعب حر وفي بيئة يسودها الحق والقانون، ثم راح يخطط لاستعادة عرش المُلك ولاعتلائه، في مدينة حيث يعرف هو أنها طردت الملوك، وحيث يعرف أن أحفاد ملك، صار أبوهم قنصلا[2] من بعد ما حرر الوطن من نير الملكية، ثم ضُربت رقابهم بأمر من أبيهم من بعد ما تأكد من تخطيطهم لإعادة الملكية، وحيث اضطُر بعدها القنصل طاركان ius كولاتان على التنازل على منصبه وذهب للمنفي لمجرد ما كان في اسمه مما يذكّر بالملوك والملكية[3]. وحيث بالأمس القريب، أدى المفوضون ثمن استعلائهم وطغيانهم بفقدان ممتلكاتهم ثم بالموت أو النفي"".

""فمن يكون Maelius ذاك ؟ ما كان له، من دون شك، لا تميز ولا مجد ولا خدمات قدمها للوطن، تستطيع أن تحمل أحيانا صاحبها على السعي للطغيان. من سعوا سابقا إلى مثل ذلك الهدف الآثم، اعتمدوا على الأقل في ذلك على سابق تقلدهم لمناصب القنصلية والمفوضية، وعلى ما كان لهم ولآبائهم وأسرهم من مجد وشرف. أما Maelius فما كان يستطيع حتى الطمع في الوصول لمنصب نيابة العوام. كيف سمح لنفسه أن يفتخر بشراء حرية مواطنيه بحفنات من القمح، وأن يكسب بكسرة خبز تعاطف شعب هزم كل جيرانه. أما أن تتحمل روما أن يكون لها ملك من مثل Maelius الذي ما كانت لتقبل به حتى كنائب عن العوام، وأن تترك بين يديه الصولجان وسلطة مؤسسها روميلوس، الإله ابن الآلهة، فقد كان أمرا شنيعا أكثر من كونه جريمة. ما كان سفك دمه كافيا للتكفير عن ذنبه الفظيع. كان يجب هدم تلك الجدران والسقوف التي كانت تُطبخ في حضنها تلك المشاريع الحمقاء وجعل عاليها سافلها. تجب مصادرة كل تلك الممتلكات التي كان ذلك الخبيث ينوي امتلاك العرش بثمنها. وها أنا آمر خازني الدولة ببيعها وبجعل ثمنها في خزينة الدولة". ثم أمر بهدم منزل

---

[1] وهوالشيخ والد الشاب البطريقي المشاغب *Céson*. والذي سبق أن كان انتخب قنصلا سنة 460 ق.م. وتنازل عن الترشح لولاية ثانية سنة 459 ق.م. وعين ديكتاتورا سنة 458 ق.م.

[2] وهوالأمير بروتوس

[3] نسبة لطاركان المتغطرس الذي خُلع من العرش وسقطت الملكية بخلعه.

المذنب حالا، وبأن يبقى مكانه شاهدا على قمع رغبة آثمة. وكوفئ المحافظ الذي أخبر بجرمه من دون اعتراض من العوام الذين تلقوا منه عرض قمح المذنب Maelius المقتول للبيع بسعر زهيد".

ويسترسل تيت ليف قائلا : "وجدتُ عند بعض المؤلفين أن ذاك المحافظ قد بدّل فئته البطريقية كي يصبح من العوام، وانتُخب نائبا حادي عشر، من طرف النواب العشرة كي ينضم إليهم في النيابة. بتلك الصفة استطاع الحيلولة دون ثورة بسبب مقتل Maelius" ثم علق على ذلك بقوله : "لكنني أشك في قبول مجلس الشيوخ تحمل الزيادة في عدد نواب العوام، ولا سيما حين تكون تلك البدعة صادرة عن بطريقي. ثم كيف يُتصور أن يتخلى العوام عن امتياز لما يُصبح مكسبا ؟ وأكثر من ذلك، الذي يثبت زيف ذلك الزعم، هو صدور قانون منذ بضع سنين يمنع نواب العوام من انتخاب زميل لهم".

"ثلاث نواب لم يشاركوا في القانون الذي به تم تعيين القنصل السابق Minucius محافظا مكلفا بالتموين بسبب المجاعة. كانوا يتهمونه لدى العوام ويتهمون مرة أخرى قائد الخيالة سرفيليوس بتدبير مكيدة ذهب ضحيتها الثري Maelius بتهمة التآمر ضد الجمهورية. تمكنوا بتحريضهم لجموع العوام من الحصول انتخاب نواب عسكريين مكان انتخاب قنصلين. وكمنتقمين للثري Maelius المقتول وللعوام كانوا يظنون أنهم سيحصلون على بعض المقاعد من بين ثلاثة مقاعد حُددت للنيابة العسكرية في تلك الولاية. لكن بالرغم من ذلك التهييج في كل اتجاه، لم تنتخب هيئات العوام الترابية سوى ثلاثة نواب كلهم مرة أخرى من البطريقيين. وكان من بينهم حتى ابن الديكتاتور كوينكتيوس الذي وافق على قتل Maelius فتعمّدوا تشويهه لإثارة الناخبين ضد التصويت على ابنه".

لا نستطيع الاستمرار في قراءة ما يكتبه تيت ليف من دون التوقف عند تساؤلات تفرض نفسا علينا. كيف كان الرومان يختارون بين انتخاب قنصلين فقط من البطريقيين أو نواب عسكريين من كلا الفئتين ؟ يقول تيت ليف في هذا الصدد بأن النواب حصلوا على الموافقة بجمع هيئات العوام الترابية لانتخاب نواب عسكريين مكان قنصلين. لكن ممن حصلوا على تلك الموافقة، وبأي حجة استبدلوا انتخاب قنصلين بانتخاب نواب عسكريين ؟ هل حصل ذلك بمجرد الضغط بالاحتجاجات ؟ لا ندري. ثم هذه هي المرة الثانية التي يُنتخب فيها نواب عسكريون من بين مرشحين من الفئتين. والجسد الناخب كان هو هيئات العوام الترابية حيث الأغلبية الساحقة كانت للعوام. مع ذلك كل الفائزين كانوا من البطريقيين. فما هو السر في ذلك ؟ أهي عدم ثقة العوام في أنفسهم حتى يمنحوا سدة الحكم بروما بكل حرية لرجال من فئتهم، أم هي براعة ومهارة البطريقيين في استمالة الناخبين من العوام في حملاتهم الانتخابية التي كانت لا تخلوا من إغراءات مادية سخية ؟ تلك كانت بالضبط لاحقا أجوبة نواب العوام على نفس التساؤلات.

على كل حال، في هذه الدولة في تلك العصور الغابرة كان الشعب بفئتيه كيانا سياسيا فاعلا وليس مفعولا به. ثم كانت الجمهورية دولة المؤسسات ودولة الحق والقانون. السلطات الثلاث، التشريعية والقضائية والتنفيذية، كانت كلها بشكل أو بآخر بيد الشعب بفئتيه، وكان يمارس بعضها مباشرة والأخرى كانت تمارس من طرف مؤسسات بتفويض منه عبر انتخاب رجالها في اقتراعات سنوية وحرة. لا يهم أن تعجبنا أو لا تعجبنا تلك القوانين أو أن يتعذر علينا أحيانا فهم بعضها، أو أن نجد بعض الأحكام الصادرة عن محاكمها قاسية وحتى وحشية. المهم هو أنه توفرت هناك ظروف مواتية في تلك العصور الغابرة مكنت من التوافق الحر بين عموم المواطنين على اقتسام السلطة فيما بينهم مع دوام التدافع الذي يسر تطوير النظام وعبّد الطريق للرقي بقوانينه. لكن لا ننسى دائما أن كل تلك الأمور المبهرة كانت بفعل ظروف دولة في حجم مدينة وفي بيئة عدوانية حيث لا مفر لأهاليها من العيش المشترك بالتوافق فيما بينهم، وإلا احتلت مدينتهم وتحولوا كلهم إلى عبيد. لم تكن الحرية في روما ترفا وإنما كانت ضرورة تمليها على شعبها طبيعتها في بيئة عدوانية. فكان المواطنون من العوام ومن البطريقيين ينتهزن كل الفرص لتقوية مؤسساتهم الدستورية ضد كل استبداد. وهكذا تم التقليص من مدة ولاية الرقيبيْن من خمس سنين إلى سنتسن. كيف حصل ذلك ؟

تقليص مدة ولاية الرقيبيْن

يقول تيت ليف : "وفي هذه السنة (434 ق.م.)[1] تحالفت شعوب الإتريسك الإثنى عشر لحرب روما انتقاما لهزيمة ثلاثة منها منذ سنتين من قبل. عين لذلك مجلس الشيوخ Mamercus Aemilius ديكتاتورا للمرة الثانية. إلا أن تلك الأزمة انتهت بسلام أكبر مما كان متوقعا. جاء إلى المدينة تجار بخبر مفاده أن باقي شعوب الإتريسك تخلت عن مساعدة الشعوب المنهزمة في حربها مع روما، كي تتركها لتكمل حربا لوحدها لم تستشرها حين أعلنتها ولم تشركها في الفوائد التي كانت تنوي جنيها منها. حينها شعر الديكتاتور Mamercus أن فرصة اغتنام المجد بالسلاح قد أفلتت من يده. وحتى لا تمر ولايته من دون فائدة تُذكر، وكي يخلّد ذكره فيها بعلامة متميزة، قرر التخفيض من سلطات مؤسسة المراقبين Les censeurs[2]، من بعد مرور أقل من عشر سنين على إحداثها سنة 443 ق.م[3]".

"قرر ذلك إما لأن سلطات رجالها بدت له مفرطة، أو لأنه كان مصدوما من طول مدة ولايتهم أكثر من سعة نفوذهم. استدعى جموع الشعب، وقام فيها خطيبا ليقول : "ما دامت الآلهة الخالدة قد تكلفت بالشؤون الخارجية وبأمن الجمهورية، فما بقي لي أنا سوى مهمة السهر على الحرية بداخل روما. وبما أن السند الأكثر صلابة لتلك الحرية يكمن في قصر ولاية رجال الدولة، فيجب تقليص مدة ولاية كل من لا نستطيع تقليص سلطته. مدة ولاية المراقبيْن هي خمس سنوات، في حين مدة ولاية باقي رجال الدولة سنوية. فمن الصعب قضاء كل تلك السنين وجزء كبير من حياتنا تحت حكم ووصاية نفس الرجال. لذا أقترح عليكم قانونا يقلص مدة ولاية النضار إلى سنة ونصف"".

"وتمت يوم الغد مصادقة الشعب على ذلك القانون وبإجماع. حينها قام الديكتاتور Mamercus مخاطبا تلك الجموع مرة أخرى وقال : "أيها الرومان، حتى تكونوا مقتنعين بحسن نواياي وحسن سيرتي وبكراهيتي لطول مدة الولاية في السلطة، فها أنا أتنازل عن منصبي كديكتاتور". لما تنازل عن منصب لم يغادره إلا من بعد الحد من طول مدة ولاية آخر، سار يمشي إلى بيته محفوفا بثناء وهتافات الشعب. أما المراقبان فقد استفزهما قانونه الذي قلص، في نظرهما، من مدة ولاية مؤسسة من مؤسسات الشعب الروماني. فعمدا إلى تغيير انتمائه الترابي[4]، كما غيّرا مقدار الضرائب المترتبة عليه، وضاعفاها ثماني مرات أكثر مما كان يجب عليه دفعه". ومن حقك أن تستغرب من كلا التغييرين المجحفين في حق Mamercus. الأول كان محددا بالسكن وليس بالنسب. ولا ندري كيف يُسجّل مواطن بدائرة ترابية لا يسكن فيها بالرغم عنه، ولا ما هو الضرر الذي أصاب الرجل باعتبار ذلك التغيير كان من أجل الانتقام منه. أما التغيير الثاني فهو الأكثر استغرابا وفظاعة في دولة الحق والقانون. كيف يصح إثقال كاهل مواطن بضريبة مضاعفة ثماني مرات ومن دون سند إحصائي جديد ومن دون اعتراض من أية جهة ؟ لا ندري. ولا ندري لماذا أورد المؤلف تيت ليف ذلك الخبر من دون التعليق على ما كان فيه من ظلم بيّن.

ثم يقول تيت ليف : "يظهر أن الديكتاتور Mamercus تحمل ظلم ذلك الانتقام بشهامة. كان يفكر في سببه أكثر من التفكير فيما كان فيه من مهانة. السيناتورات الذين لم يكونوا راضين عن إضعاف نفوذ مؤسسة الرقابة، كانوا غاضبين من الاستياء الذي أظهره المراقبان بالمناسبة. ولا سيما وقد كانوا يعرفون أنه غالبا ما سيكون كل منهم تحت رحمة تلك السلطة أكثر من فرصة ممارستها. أما غضب الشعب من المراقبين فقد بلغ من الشدة درجة ما حال دون تحولها إلى عنف ضدهم سوى قوة هيبة Mamercus". ثم عمد نواب العوام بدورهم إلى اقتراح قانون يمنع إغراء الناخبين أثناء الحملات الانتخابية وتداعياته. وهي الإغراءات التي كانت في اعتقادهم تجعل الناخبين من فئتهم يفضلون عليهم البطريقيين.

قانون ضد الفساد الانتخابي

فيقول تيت ليف : "نواب العوام الذين ظلوا في خطبهم يعترضون على انتخاب قنصلين حصلوا أخيرا وللمرة الثانية[5] سنة 433 ق.م. على فرصة انتخاب نواب عسكريين بسلطات قنصلية مكان القنصلين. لكن مرة أخرى خاب ظنهم لما انتخبتهم هيئات العوام الترابية Les comices tributes كلهم من البطريقيين.... فانتهزوا فرصة الهدوء بالخارج لعقد تجمعات فيما بينهم بالداخل يناقشون فيها مشكلة عدم تمكن أي منهم من ولوج منصب نائب عسكري بسلطات قنصلية. هناك

---

[1] السنة 76 من عمر الجمهورية الرومانية

[2] وهم رجال المؤسسة الدستورية التي أنشئت منذ فقط تسع سنوات، سنة 443 ق.م.

[3] قانون *Lex Aemilia* باسم الديكتاتور من الطريقيين *Mamercus Aemilius Mamercinus*

[4] الدائرة الترابية التي يسكن فيها

[5] المرة الأولى كانت سنة 444 ق.م.

أعربوا عن قلقهم من ذلك، وكانوا يشتكون من استخفاف فئتهم بهم، من حيث لم ينتخبوا واحدا منهم ولا مرة من المرات لذلك المنصب الرفيع. تفطنوا حينها لحكمة آبائهم الذين سنّوا قانونا يمنع البطريقيين من الترشح لمنصب نائب العوام، والذي لولاه لكان نواب العوام كلهم من البطريقيين. كانوا يتأسفون على سوء التقدير الذي تكنه لهم فئتهم، مثلهم في ذلك مثل الاحتقار الذي يكنه لهم مجلس الشيوخ. كان آخرون منهم يعذرون العوام ويلقون باللوم على البطريقيين وهم يقولون : "إن سبيل ولوج العوام للمناصب مُقفل في وجوههم فقط بسبب حيّل البطرقيين وإغراءاتهم. لا يتركون العوام على راحتهم خلال الانتخابات، فيستميلونهم سواء بالترهيب أوبالترغيب. أما العوام فيتبعون من يدافعون عنهم لتمرير قوانين تخدمهم، لكن ما أن يحصلوا على مبتغاهم حتى يصبحوا أحرار في استعمال الحق الذي حصلوا عليه وفق مصالحهم"".

"وللحد من آثار إغراءات وحيل البطريقيين من أجل كسب أصوات العوام عند انتخاب رجال الدولة من النواب العسكريين قرر نوابهم تقديم قانون يمنع المرشحين لأي منصب من إضافة أي شيء آخر للباس المرشح الأبيض خلال الحملة الانتخابية بالساحة العامة[1]. وذلك الإجراء الواهي الذي لا يستحق اليوم التوقف عنده، أثار مع ذلك نقاشا عنيفا بين نواب العوام ومجلس الشيوخ. انتصر النواب أخيرا بتمريره سنة 432 ق.م.[2]. فصار يتوقع البطريقيون أن يؤدي لانتخاب النواب العسكريين من العوام. وخوفا من ذلك صدر عن مجلس الشيوخ مرسوم يأمر بانتخاب قنصلين بدلا من نواب عسكريين". ثم حصل خلاف بين مجلس الشيوخ والقنصلين الجديدين. واشتد الخلاف بين الطرفين اضطر معه المجلس للاستجداء بنواب العوام من أجل التغلب على خصميْه. وهكذا تعاظم نفوذ مؤسستهم بانتصابها كحكم بين مؤسستين بطريقيتين. كيف حصل ذلك ؟

يقول تيت ليف : "هجم قوم الفولسك وقوم الإيك على أراضي حلفاء روما. فجهز القنصلان لتك الحرب جيشين عظيمين. لكن كان من رأي مجلس الشيوخ تعيين ديكتاتور لقيادتها، لأن الشعبين المعتديين والمنهزمين عدة مرات أعدّا لتلك الحرب آلة عسكرية رهيبة، ولأن قسطا غير يسير من شباب روما أخذه الطاعون". **ثم علق تيت ليف على ذلك بقوله** : "ومن المؤسف جدا أن وجدت خلافات بين القنصلين الجديدين في كل شيء تقريبا. بعض المؤرخين يردون تعيين دكتاتور تلك السنة لهزيمتهما في الحرب، لكن الأكيد هو أنه بالرغم من خلافاتهما كانا متفقين على رفض تعيينهم ديكتاتور ضدا في رغبة مجلس الشيوخ. وأخيرا مع تعاقب أخبار أكثر سوء كانت ترد في كل حين، ومع رفض القنصلين الانصياع لرغبة مجلس الشيوخ بتعيين ديكتاتور، انبرى أحد أكبر السيناتورات، بما له من هيبة ومن مجد سابق، ليتوجه إلى نواب العوام كي يقول لهم : "بما أننا أصبحنا مضطرين لاتخاذ آخر الإجراءات، في مثل هذا الوضع الحرج، فقد صرتم أنتم من يلجأ إليهم اليوم مجلس الشيوخ كي تستعملوا ما لديكم من سلطات لتجبروا القنصلين على تعيين ديكتاتور". وجد نواب العوام في هذا الكلام فرصة جديدة لتقوية نفوذهم، وانسحبوا ليتشاوروا فيما بينهم، ثم عادوا ليقولوا باسمهم جميعا : "من رأينا أن يطيع القنصلان مجلس الشيوخ. وإن هما استمرا في عنادهما ضد قرار المجلس الموقر، سنلقي بهما في السجن". وكان القنصلان يفضلان الانصياع لتهديدات النواب بدلا من النزول عند رغبات مجلس الشيوخ، مع مرارة رؤية البطريقيين ينسفون هيبة السلطة العليا باعترافهم بحق مجرد نائب عن العوام في إجبار القنصلين على الانصياع لأوامره وحتى بالحق في رميهما في السجن. فماذا عسى أن يفعل أي نائب بمواطن عادي من بعد ذلك ؟ وبما أنهما لم يتفقا مرة أخرى على ديكتاتور، تنازلا لمجلس الشيوخ عن حقهما كي يختار هو من يريد لذلك المنصب".

فكانت هذه هي المرة الثانية التي يتم فيها الحديث عن استعمال نواب العوام القوة لتنفيذ أوامرهم. مع العلم أنهم رجال الدولة الوحيدون الذين ليست لهم قوات عمومية لتحميهم ولتلزم المواطنين بتنفيذ أوامرهم. فكيف يصح أن يهددوا قنصلين محميين بحرسهما بإيداعهما بالسجن إن هما امتنعا عن تنفيذ رغبة مجلس الشيوخ في تعيين دكتاتور ؟ لا ندري. وبخصوص بقية الأحداث فقد تم بالفعل تعيين دكتاتور من طرف مجلس الشيوخ[3]، كي يقود الحرب على الأعداء الفولسك والإيك بجنوب روما. ومن بعد عرض المؤلف لتفاصيل مطولة عن تلك الحرب والتي لا تعنينا، نخبرك أنها انتهت مرة أخرى بانتصار الرومان.

[1] إسم القانون باللاتينية هو *Lex Pinaria Furia Postumia*

[2] السنة 78 من عمر الجمهورية الرومانية

[3] في السنة 79 من عمر الجمهورية الرومانية (431 ق.م.)



مواقع الشعوب من حول روما

بل الذي يعنينا من تلك الحروب الخارجية هما أمران. من جهة، وجود ثلاث جبهات عدوة لروما. واحدة بالشمال وهي كتلة شعوب الإتريسك، ولا سيما تلك القريبة من حدود المدينة. والثانية هي كتلة شعبي الفولسك والإيك بالجنوب والجنوب الشرقي. والثالثة هي شعب قوم الصابيين شرقا. أما شعوب اللاتين والهنريك فقد كانوا حلفاء لروما. ومن جهة ثانية، كان لتلك الحروب الخارجية في عدة محطات دور حاسم في التدافع السياسي والاجتماعي بين فئتي البطرقيين والعوام بروما، وفي تطوير قوانين الوطن وفي الرقي بنظام حكمه نحو دولة الحق والقانون. وبما أن جل الجنود المشاة كانوا من العوام فقد ظلت تلك الحروب تشكل عامل قوة وضغط بالنسبة لتلك الفئة المستضعفة، والتي أحسنت استعمالها كورقة سياسية وازنة، فانتزعت بفضلها وعلى مر السنين العديد من الحقوق السياسية والاجتماعية من فئة البطريقيين القوية والمتْرفة.لكن نواب العوام ظلوا مستائين من فئتهم التي ظلت تنتخب النواب العسكريين من البطريقيين من دون المرشحين من العوام. فغضبوا منها غضبا شديدا.

استياء النقباء من فئتهم من العوام

فيقول تيت ليف : "بالرغم من القانون المانع للإغراءات في الحملات الانتخابية تم مرة أخرى انتخاب نواب عسكريين فقط من بين البطريقيين. وتميزت هذه السنة (426 ق.م.)[1] بتنظيم الألعاب الكبرى وبما أظهره فيها النواب العسكريون من أبهة وبهاء وفخامة، وبجموع الأجانب الغفيرة التي جاءت مسرعة لحضوره من البلاد المجاورة. فنال بذلك النواب العسكريون كبير إعجاب بالخارج، وزاد من إعجاب الشعب بهم بالداخل". والسنة الموالية تم مرة أخرى انتخاب نواب عسكريين بسلطات قنصلية بدلا من انتخاب قنصلين. وكانت تلك هي المرة السادسة التي حصل انتخابهم منذ إحداث تلك المؤسسة سنة 444 ق.م. ووفق القانون كان المرشحون لذلك المنصب دائما من البطرقيين ومن العوام. وكان الناخبون مختلطين كذلك لكن بأغلبية كاسحة للعوام. ومع ذلك لم ينتخبوا ولا مرة واحدة مرشحا واحدا من فئتهم لذلك المنصب الرفيع. فلا شك أن أولئك النواب العسكريين من البطريقيين كانوا يحسنون معاملة ناخبيهم من العوام بالنظر لما كان لهم من فضل في اعتلاء ذلك المنصب، وطمعا في اعتلائه برضاهم مرة أخرى، ولا سيما بعد ولاية سنوية قصيرة.

وهو الأمر الذي استفز مشاعر نواب العوام فاشتد غضبهم وسخطهم على الناخبين من فئتهم الذين كانوا يشكلون الأغلبية بالكتلة الانتخابية في الاقتراع على النواب العسكريين. وذلك ما عبروا عنه هذه السنة (425 ق.م.)[2] كما أورد ذلك تيت ليف حين قال : "جاء نواب العوام من بعد تلك الألعاب يشتكون من تحيز جموع فئتهم للبطرقيين في الانتخابات. فكانوا يلومونهم وهم يقولون لهم : "بإعجابكم وبانبهاركم اليوم بالبطريقيين الذين كنتم تكرهونهم بالأمس، فإنكم تحكمون على أنفسكم بالبقاء في ذل الخضوع والإذعان. ليس فقط لا أمل في اعتلاء رجل منكم يوما كرسي القنصلية[3]، بل أنتم تنسون حتى أنفسكم والمرشحين من فئتكم لمّا تمارسون حقكم في انتخاب النواب العسكريين. فلا تتعجبوا لمّا لن تجدوا مستقبلا أحدا من بينكم للدفاع عن مصالحكم. من يدافع عن أي شيء لا بد له من الحصول على مكافآت وفوائد حتى لا يندم على ما بذله من جهد وما تعرض له من مخاطر. من يعرف مسبقا أن جهوده ستكون متبوعة بما تستحقه من مكافآت لن توجد عراقيل ولا مخاطر لا يجرأ على اقتحامها. فلا تنتظروا ولا تبحثوا عن أي رجل كفء من بينكم كي يصبح يوما نائبا عنكم ويرمي بنفسه مغمض العينين في وسط معارك يعرف مسبقا أنه لن يجني منها سوى الأشواك من دون أي ثمار، ولن يحصل فيها إلا على حقد وبغض البطريقيين الذين يصارعهم من دون أن يحظى حتى بتقدير من يدافع عنهم".

"المناصب العليا تصنع الهمم العليا. ويوم تكفّون عن احتقار أنفسكم سيكون من بينكم رجال لهم همم عليا ولا يخجلون من التنافس على ولوج تلك المناصب الرفيعة في الدولة. جربوا ولو مرة انتخاب مرشح أو مرشحين منكم للنيابة العسكرية، كي تروه قادرا على تحمل أعباء ذلك المنصب الرفيع، وتروا ذلك الرجل المعجزة يخرج من بينكم. فقط بفضل نوابكم، ومن بعد صراع مرير، انتزعتم الحق في انتخاب نواب عسكريين بسلطات قنصلية من بين مرشحين منكم ومن

---

[1] وهي السنة 84 من عمر الجمهورية الرومانية

[2] وهي السنة 85 من عمر الجمهورية الرومانية

[3] لأنهم منتخبون من طرف الطبقة الأولى من الهيئات المِئية المختلطة مع الغلبة للبطريقيين.

البطريقيين. ثم ترشح لذلك المنصب رجال منكم تميزوا بحسن الإدارة وبالبطولة في السلاح. لكنهم وجدوا أنفسهم منذ الانتخابات الأولى عرضة للمهانة منبوذين منكم، حتى صاروا في تلك الانتخابات كالدمى بيد البطرقيين. لم يعودوا يجرؤون على تعريض أنفسهم لمثل ذلك العار. صاروا يفكرون حتى في العمل على إلغاء ذلك القانون الذي جاءكم بالحق في الترشح للمناصب الرفيعة، ولا تستغلونه. قبولكم بقسمة غير عادلة للسلطة مع البطريقيين هو أقل خزيا وعارا من حرمانكم لمرشحين منكم من اقتسامها معهم بالعدل، بزعم منكم على أنهم غير جديرين بها".

"ثم سنتين من بعد ذلك (424 ق.م.)[1] صار أخيرا لوم نواب العوام للناخبين من فئتهم يؤتي أكله. مما شجع بعض الرجال منهم على الترشح لانتخابات النواب العسكريين. كان كل منهم يعد بالقوانين المفيدة لفئتهم والتي ينوي تمريرها خلال ولايته إن هو انتُخب. ولاكتساب أصوات الناخبين من فئتهم كانوا يعدونهم باقتسام الأراضي مع البطريقيين وبخلق مستعمرات جديدة وبفرض ضرائب على ملاك الأراضي الزراعية كي تدفع كأجورا للجنود[2]".

"ولتفادي مخاطر تلك الوعود انتهز النواب العسكريون، وكانوا كلهم بطريقيين، انتهزوا فرصة خلاء المدينة من معظم كبار رجالها، ودعوا بصفة غير معلنة مجلس الشيوخ للاجتماع في يوم محدد. وفي غياب نواب العوام استصدروا منه مرسوما يقضي بإرسال النواب العسكريين لاستقصاء صحة أخبار نهب جيش الفولسك لأراضي الحلفاء، ويقضي أيضا بدعوة الهيئات الميئية لانتخاب قنصلين جديدين للولاية التالية[3]. فخرجوا كلهم من روما بمقتضى ذلك المرسوم وتركوا واليا على المدينة ابن أبيوس كلوديوس المفوض السابق السيئ الذكر، وهو الشاب القوي الذي رضع مع حليب أمه حقده على العوام وعلى نوابهم. هكذا ما كان يستطيع أحد من نواب العام لوم النواب العسكريين على ما حصل، لأنه ما كان من حقهم الاعتراض على مراسيم صدرت ظاهريا في غيابهم، وما كان بوسعهم لوم الوالي على المدينة لأنه وجد الأمور محسومة من طرف مجلس الشيوخ لما تولى منصبه". ومن أجل تجنيبك دائما تفاصيل مملة عن هذه الحرب الأخرى سنة 423 ق.م[4]، بين الرومان وعدوهم التقليدي من الفولسك، تفادينا ترجمتها. سوى أن كلا من الطرفين، من بعد معارك طويلة دامت لأيام وحتى آخر ليلة، ظن أنه قد انهزم فغادر معسكره تحت جنح الظلام عائدا إلى مدينته. فعاد القنصل الروماني بمن تبقى من جيشه ومن دون فيلق الخيالة. وهذه تتمة تلك الأحداث التي نوردها فقط بالنظر لما ترتب عنها من تجاذبات سياسية داخلية بين البطريقيين والعوام، والتي تهمنا تفاصيلها. ويتعلق الأمر هنا بمصير القنصل الذي كان بيد أحد نواب العوام والذي اشتشفعه فيه زملاؤه فعفى عنه. مما يدل على تنامي نفوذ الفئة المستضعفة في أقل من قرن من عمر الجمهورية. فكيف حصل ذلك العفو المهين لقنصل سابق من البطريقيين ؟

يقول تيت ليف : "شاع في المدينة نبأ انسحاب الجيش من المعسكر من بعد معارك تعيسة. ولما وصل إلى روما كان الأسف على مقتل الخيالة أشد، ولم يكن بكاء الوطن عليهم أقل من بكاء أقاربهم. خوفا على المدينة من تبعات ذلك الانسحاب اتخذ القنصل فابيوس مواقعه أمام الأبواب. فجأة شوهد منها نفس الخيالة قادمين. في بداية الأمر أحدث ذلك المشهد المشكوك في طبيعته بعض الرعب. لكن سرعان ما تبين أنهم بالفعل الخيالة. فاحتلت مكان الخوف فرحة عمت كل المدينة وهي تقول : "ها هم الخيالة عادوا أحياء". من المنازل الحزينة التي كانت تُرثي موتاها خرج الجميع مسرعين إلى الشوارع. ومن شدة الفرح نسيت الأمهات وباقي النساء المرتعشات قواعد الأصول والحشمة، واندفعن أمام تلك الجموع لترتمي كل منهن في أحضان الولد والزوج، وبالكاد استطعن في غمار سكرتهن التحكم في شعورهن وقلوبهن".

"وانتهز نواب العوام فرصة الحقد على ذلك القنصل الجديد، لتصفية حساباتهم القديمة مع نائبين عسكريين سابقين. فرفعوا دعوى ضدهما أمام جموع الشعب بسبب تصرفاتهم المخجلة في حربهم السابقة مع شعب ڤايس. وبرهنوا أمام تلك الجموع على خذلان الجمهورية من طرفهما في تلك الحرب. ثم قالوا بأن عدم معاقبتهما هو الذي كان سببا في خيانة القنصل الأخيرة لجيشه بانسحابه الجبان من معسكره مع ترك فيلق الخيالة من ورائه عرضة للمذبحة. من بعد أخذ ورد، كان المواطنون مستائين من القضية الأخيرة وغاضبين من النائبين العسكريين الماثلين أمامهم للمحاكمة. فحكموا على أحدهما بدفع غرامة مالية. أما زميله، بالنظر لما كان له من بطولات في الحروب السابقة وبنجاحه في توجيه كل اللوم على زميله المحكوم عليه بالغرامة في نفس القضية، فقد برّأت كل دوائر العوام الترابية ساحته من التهم المنسوبة إليه".

---

[1] السنة 86 من عمر الجمهورية الرومانية

[2] كان كل جندي مقاتل يتحمل نفقات تكاليف اشتراكه في الحرب من ماله الخاص. وهوالأمر الذي سيجعل مجلس الشيوخ لاحقا يسن عن طواعية وبمبادرة منه قانونا يقضي بدفع رواتب الجنود من خزينة الدولة.

[3] وليس انتخاب نواب عسكريين التي كان رجال من العوام ينوون الترشح لها بتلك الوعود المخيفة للبطريقيين.

[4] السنة 87 من عمر الجمهورية الرومانية

"وفي هذه السنة انتخب العوام نوابهم العشرة. لما رأى مجلس الشيوخ ما أصاب القنصلية من هوان بسبب الحرب الأخيرة مع حقد الشعب على قائدها القنصل المنتهية ولايته، أمر بانتخاب نواب عسكريين بسلطات قنصلية مكان انتخاب قنصلين جديدين. وما أن بدأت الولاية الجديدة حتى رفع Lucius Hortensius أحد نواب العوام دعوى أمام الشعب ضد القنصل المنتهية ولايته بتهمة خذلان جيشه في الحرب الأخيرة. جاء بشاهد من الخيالة وقال له : "أريد أن أعرف منك ما تعرفه عن قائدك المتهم هنا، هل قام في تلك المعركة بكل واجباته كقنصل ؟". على هذا السؤال رد الشاهد بخطاب بسيط لكن كانت تطبعه صراحة الجندي الذي يتعفف عن الافتخار بمجده العسكري ولا ينتشي بأخطاء غيره، فقال : "بالنسبة لمهارات القنصل القتالية فليس من صلاحيات الجندي الحكم عليها، وإنما ذلك من اختصاص الشعب الذي انتخبه لذلك المنصب. فلا يجب طلب رأيي لا في فنون الحرب ولا فيما يخص واجبات القنصل، لأنها صعبة حتى على العقول الأكثر تميزا. ولن أشهد إلا بما رأيت". وخلاصة شهادته أن القنصل عمل في الحرب بحسب كل ما كان يعلم، سعيا منه لإنقاذ جيشه. إلا أن سوء الطالع خان كل جهوده. وما رأى الشاهد من قائده أي خذلان لأي من جنوده".

"لم ترُق تلك الشهادة لنائب العوام Hortensius. فأخذ زملاؤه يتوسلون إليه أمام جموع الشعب كي يتخلى عن الدعوى ويكف عن اضطهاد جنرالهم Sempronius البريء، والذي لا يلام سوى على سوء حظه. ما استطاع النائب تحمل تلك التوسلات من دون حسرة. ظن أن الهدف منها كان اختبار عناده، وأن المتهم لا يعتمد على توسلاتهم أكثر من تعويله على دعمهم الحقيقي. فكان يلتفت تارة للمتهم ليقول له : "أين هي تلك الأنفة البطريقية ؟ وأين هي تلك الروح الصلبة والواثقة من براءتها ؟ هل من شيّم القنصل الاختباء تحت جناح نواب العوام ؟". والتفت إلى زملائه ليقول لهم : "وأنتم، ما أنتم فاعلون إن أنا أصررت على موقفي ؟ هل ستنزعون من الشعب حقوقه ؟ هل ستنقلبون على مؤسسة النيابة عن العوام ؟ ". فرد عليه زملاؤه بقولهم : "كلا، للشعب سلطة مطلقة علينا وعلى كل المواطنين. وليست لنا لا الرغبة ولا القدرة على نسف سلطة الشعب. لكن في حال ما لم يُسمع لتوسلاتنا من أجل جنرال نرى فيه أبا لنا سنبدّل معه ملابسنا[1]". حينها رد عليهم النائب Hortensius قائلا : "أبدا، لا أقبل بأن يرى يوما العوام نوابهم في لباس مهين. وعليه فسأتخلى عن متابعة المتهم بفضل ما استطاع أن يحظى به عند جنوده من تقدير وتعاطف". فلم تكن تلك الحركة الكريمة من زملاء النائب أقل إمتاعا للشعب ولمجلس الشيوخ من النبل الذي تلقى به Hortensius توسلاتهم المنصفة". وكأن الجمهورية تأبى العيش من دون مشاكل بين فئتيها، حل مرة أخرى الصراع بينهما على اقتسام مناصب السيادة. فتعلق هذه المرة باقتسام السلطة بخزينة الدولة.

تجدد الصراع العمودي على اقتسام السلطة السيادية

يقول تيت ليف : "في هذه السنة (421 ق.م.)[2] اندلعت فجأة من حضن هدوء عميق خلافات عديدة بين العوام ومجلس الشيوخ بخصوص أمناء الخزينة العامة الذين أراد البطريقيون الزيادة في عددهم. علاوة على خازنيْن بالمدينة ظهرت الحاجة لخازنيْن آخرين لمساعدة القناصلة على تدبير شؤون الحرب خارج المدينة. قدم القنصلان المقترح وأيده بقوة مجلس الشيوخ. حينها دخل نواب العوام في صراع مع القنصلين من أجل أن يكون للعوام نصيب في مؤسسة أمناء الخزينة بدلا من أن يظل كما هو الحال حكرا على البطريقيين. في أول الأمر واجه القنصلان ومجلس الشيوخ مطلبهم بالرفض. ثم اقترحوا انتخاب أمناء الخزينة بنفس نمط انتخاب النواب العسكريين، حتى تبقى للشعب الحرية في اختيار من يريد لتلك الوظيفة من البطريقيين أومن العوام. لكن لما رأوا ضعف القبول بهذا التنازل تخلوا كليا عن فكرة الرفع من عدد أمناء الخزينة. إلا أن نواب العوام أعادوها للنقاش مع مواضيع أخرى جد مستفزة للبطريقيين، كمشروع قانون الإصلاح الزراعي".

"في خضم تلك التجاذبات كان بود مجلس الشيوخ أن يُنتخب للولاية اللاحقة قنصلان بدلا من انتخاب نواب عسكريين. لكن اعتراض نواب العوام حال دون إصدار المجلس لأي مرسوم في نهاية تلك الولاية. فصارت الحاجة لتعيين وصي على كرسي القنصلية. لكن نواب العوام حالوا كذلك دون تجمّع البطريقيين لتعيينه. هكذا استُهلك اكبر جزء من الولاية الجديدة في تلك التجاذبات السياسية بين الفئتين. ولما تم تعيين Lucius Papirius Mugillanus وصيا على كرسي القنصلية منعه نواب العوام من إصدار مرسوم يقضي بانتخاب قنصلين جديدين لتلك الولاية".

"حينها قام Papirius خطيبا ليهاجم بقوة نواب العوام والسيناتورات، بقوله : "في الوقت الذي تخلى الرجال على الجمهورية وأهملوها احتضنتها وواستها عناية الآلهة. الفضل في بقائها قائمة يعود للهدنة مع الأعداء ولترددهم في الهجوم عليها. هل تفضلون أن تروها تُسحق في أول هجوم عليها بدلا من انتخاب رجال الدولة من البطريقيين ؟ كيف تقبلون بها من دون لا قائد ولا جيش ؟ هل ستدفعون عنها الحرب الخارجية بصراعاتكم الداخلية. لو جاء الأعداء دفعة واحدة بالكاد

---

[1] معناه أن المدان كان يلزم بلباس مهين يميزه عن غيره.
[2] السنة 89 من عمر الجمهورية الرومانية

تستطيع عناية الآلهة الحيلولة دون انهيارها. فعلى الطرفين القبول بتنازلات متبادلة للوصول إلى وفاق بينهما. على البطريقيين السماح بانتخاب نواب عسكريين بدلا من قنصلين. وفي المقابل، على نواب العوام القبول بانتخاب رجال الخزينة من الفئتين بإرادة حرة من هيئات العوام الترابية"".

"فبدأت الانتخابات باختيار النواب العسكريين. وكانوا أربعة، ومرة أخرى كلهم من البطريقيين. ثم بدأ انتخاب أمناء الخزينة الأربعة. وكان من بين المرشحين أفراد من عائلات كبار رجال العوام. مع ذلك، ما استطاعوا لا بنفوذهم ولا بمناوراتهم أن يمنعوا الناخبين العوام من أن يفضلوا عليهم مرة أخرى البطريقيين ممن سبق أن رأوا آباءهم وأجدادهم قناصلة ولا يزالون يفضلونهم على غيرهم بالنظر لنُبل مَنْبتهم".

"كل نواب العوام اشتاطوا غضبا من تلك النتائج ضد الناخبين من فئتهم. وكان الغضب أشد من بين من كان لهم مرشحين من دويهم. كانوا يقولون للعوام : "كيف ؟ ماذا يعني ذلك ؟ فلا سابق معروفنا ولا مهانات البطريقيين ولا تلك الرغبة في الحصول أخيرا على حقٍّ ناضلنا من أجله طويلا، كل ذلك ما مكننا ولا من انتخاب نائب عسكري واحد من بين مرشحينا. ثم ها هو حتى منصب الخازن حرَمت فئتُنا رجالها من ولوجه. لم تنفع مع ذلك لا توسلات الأب من أجل إبنه ولا الأخ لأخيه، ولا توسلات نواب العوام اعتبارا لمنصبهم المقدس والمحدَث للدفاع عن الحرية. وكان لا بد لرئيس تلك الانتخابات من النواب العسكريين البطرقيين من استعمال الغش، لما طغت الحيلة على حسن النية، فأقصي بذلك أصدقاءنا من ولوج مناصب أمناء الخزينة"".

"لكن لما كان النائب العسكري الذي نظم الانتخابات محميا بحصانة منصبه وببراءته من كل ذنب، التفت نواب العوام لينتقموا من ابن عمه Gaius Sempronius القنصل السابق. فرفعوا ضده دعوى مرة أخرى بخصوص نفس قضية حربه ضد الفولسك. في الوقت نفسه قدموا لمجلس الشيوخ مقترحا يقضي بتوزيع الأراضي. وكان Sempronius من أشد المعارضين لمثل ذلك المقترح. كانوا هم مقتنعين وبحق بأنه إن هو تنازل عن اعتراضه فسيقل قدره عند البطريقيين. وإن هو تمادى في عناده، ليلة محاكمته ، فسيثير بذلك غضب الشعب عليه. لكنه فضّل التعرض لضربات الحقد والإضرار بقضيته بالمحكمة على الإضرار بالجمهورية[1]. بقي ثابتا على موقفه وقال : "لا بد من رفض كل سخاء لن يستفيد منه سوى هؤلاء النواب المغرضين. هم لا يطالبون بتوزيع الأراضي على الشعب بل يريدون إذكاء الحقد بين فئتيه. وأنا لديّ ما يكفي من الشجاعة لمجابهة هذه العاصفة. ليس على مجلس الشيوخ أن يكترث لرجل مثلي أو لغيري من المواطنين، حتى يجعل من نجاة واحد منا مأساة عمومية". ولم تفارقه صرامته يوم محاكمته. فدافع عن قضيته بنفسه. وبالرغم من كل ما بدله البطريقيون من جهود للتخفيف من حكم الشعب عليه، أدين بدفع غرامة مالية". وفشل كبار نواب العوام في تمرير قانون الإصلاح الزراعي. كيف حصل ذلك ؟

فشل في تمرير قانون الإصلاح الزراعي

يقول تيت ليف : "في هذه السنة **(416 ق.م.)**[2] انبرى كبار نواب العوام يقترحون توزيع كل الأراضي المحتلة بالتساوي بين كل المواطنين الرومان. وكان من شأن صدور مثل ذلك القانون الملزم أن يجعل كل الأراضي الجديدة المملوكة للبطريقيين بتلك المدينة من ممتلكات الدولة. وبما أن الأرض التي بنيت عليها مدينة Labicum لم تُحتل بالسلاح فما كان يستطيع أي مواطن أن يملك منها شيئا سوى بالبيع أو بالتخصيص من طرف الجمهورية. لذلك صار صراع سياسي مرير وشيك الوقوع بين البطريقيين والعوام. ولم يعرف النواب العسكريون كيف يخرجون من تلك الأزمة".

وحتى تفهم المقصود بالأراضي المحتلة هنا ننبهك إلى أننا قفزنا على ترجمة تفاصيل أحداث حرب انتصر فيها الرومان واحتلوا فيها مدينة تدعى Labicum على بعد عشر كيلومترات فقط بجنوب شرق روما. كالعادة كانت تُقسم الأراضي المحتلة فقط بين كبار البطرقيين المشاركين في الحرب كمغنم بمقدار ما كانوا يتحملون فيها من نفقات كمغرم. وما كان للعوام فيها سوى الغنائم المنقولة أو ثمن بيعها في حال ما قرر ذلك الجنرال القائد والمنتصر في الحرب. الأمر الذي كان يوسع دائما الهوة الاجتماعية بين الفئتين. وتحسبا لتحرك نواب العوام بقصد توزيع تلك الأراضي على الجنود، استبقهم مجلس الشيوخ بإصدار مرسوم يقضي بإحداث مستعمرة بها من أجل من يريد استيطانها من العوام. لكن لم يمنع ذلك ما كان يخشاه مجلس الشيوخ.

---

[1] والتعليق للمؤلف تيت ليف. الذي تشعر أنه كان متحيزا للبطريقيين لأنه كان يرى الحق معهم وضد نواب العوام.

[2] السنة 94 من عمر الجمهورية الرومانية

فيقول تيت ليف : "جاء الحل من أبيوس كلوديوس، وهو حفيد المفوض السابق لتدوين القوانين. وكان أصغر عضو بمجلس الشيوخ. فقال لزملائه "المعالجة الموقف جئتكم من بيت أسرتي بوسيلة قديمة وفعالة. علّم جدّي أبيوس كلوديوس السيناتورات طريقة ناجعة ووحيدة لنسف سلطة نواب العوام. وتكمن بكل بساطة في زرع الفتنة والفرقة فيما بينهم. فغالبا ما يستسلم النواب الجدد لهيبة الزملاء الكبار من بينهم. المصلحة وحدها هي التي تحركهم. ما أن يروا أن زملاءهم المقترحون للقانون قد اختطفوا كل الأضواء، من دون أن يبقى لهم منها شيء، حتى يميلون بولائهم لحزب مجلس الشيوخ كي ينالوا رضاه بأكمله عن طريق كبار أعضائه". بارك الجميع ذلك الرأي من بعد ما أثنوا فيه على ميراث الأجداد الذي لم يندثر عند الأحفاد مثله. وخرجوا بقرار يقضي بحث كل عضو منهم على بدل كل جهد كي يستقطب بعض نواب العوام الجدد ويجعل منهم معارضين لزملائهم خصوم المجلس".

"من بعد رفع تلك الجلسة، عمل كبار أعضاء المجلس بما تقرر فيه، واستطاعوا استمالة ستة نواب من مجموع عشرة. في اليوم التالي، ووفق ما خُطط له مسبقا، رُفع تقرير لمجلس الشيوخ بخصوص النائبين اللذين كانا يحرضان على الفتنة بذلك السخاء المهلك[1]. فصار كبار السيناتورات يرددون بصوت واحد وعالي بأنهم لا يرون الخلاص من مخاطر تلك الفتنة سوى باللجوء إلى نجدة باقي نواب العوام. في حين كانوا يقولون لأولئك النواب المستقطبين والموالين لهم : "الجمهورية المضطهدة تثق في قوة سلطانكم. فهي اليوم تلجأ لحمايتكم مثلها مثل المواطن الذي يُنهب فيحتمي بكم. ومما يُجلكم ويُجل مؤسستكم، أن لكم قوة إزعاج مجلس الشيوخ وإثارة الصراع بين مختلف الفئات، لا تقل عن القوة التي تستطيعون بها مقاومة زملائكم المفسدين"".

"فارتفع في مجلس الشيوخ صخب عام وعارم يحرض أولئك النواب على زملائهم كما تعالت أصوات من كل جانب تهتف بحياتهم. حينها صدر أمر بالهدوء والسكوت، وتقدم النواب المستقطبون وقالوا : "بما أن مجلس الشيوخ لا يرى في مطالب زملائنا سوى دمارا للجمهورية، فإننا نعلن اعتراضنا عليه". ونالوا بذلك من المجلس ما يليق بموقفهم الشجاع من ثناء وتشكرات. إلا أن زملاؤهم ردوا على ذلك الاعتراض باستدعاء جموع الشعب واتهموا أمامها النواب المستقطبين بخيانة مصالح الأمة وبالإذعان وبالخنوع للقنصلين وللبطريقيين. ومن بعد ما أثقلوا كاهلهم بتهم أخرى أعلنوا سحب مقترحاتهم".

"وفي السنة الموالية تجرأ أهالي مدينة Bola على الهجوم على أراضي جيرانهم بالمستعمرة الرومانية الجديدة Labicans. ولما جاءهم من روما نائب عسكري بجيشه ليعاقبهم على فعلهم، لم يستجب قومهم من الإيك لنداء نجدتهم. فانهزموا وخسروا مدينتهم مع أراضيها. انبرى حينها مرة أخرى أحد نواب العوام ليطالب بإقامة مستعمرة بأراضي Bola المحتلة لصالح المستضعفين من أهالي روما. لكن مطلبه باء هو كذلك بالفشل بسبب اعتراض نفس الزملاء المتواطئين مع البطريقيين، وهم يقولون بأنهم لن يسمحوا بتمرير أي قانون لا يحظى برضا وبإذن مجلس الشيوخ".

لكن أحد النواب العسكريين من البطريقيين الذين ظلوا يعتلون سدة الحكم بفضل تصويت العوام الذين بقوا يفضلوهم كل مرة على المرشحين من فئتهم، تجرأ وتنكر للجميل فأساء التصرف معهم وفي ساحة الحرب مع العدو. لكنهم ردوا الصاع صاعين وبلغ منهم الانتقام منه حد قتله رجما بالحجارة. وتمت محاكمتهم. وبدلا من الانتصار للعاطفة انتصر الشعب في حكمه عليهم للحق والقانون ولهيبة الدولة. فماذا عن تلك القصة ؟

محاكمة جنود قتلوا جنرالهم رجما بالحجارة

يقول تيت ليف : "في هذه السنة (414 ق.م.) استرجع قوم الإيك مدينة Bola وأقاموا فيها مستعمرة وقوّوا فيها معسكرهم. كان حينها Marcus Postumius من بين النواب العسكريين بروما. فكُلف بالحرب على الإيك. وكان رجلا سيئ المزاج، الأمر الذي سيؤكده النصر أكثر من الحرب. استرجع بيُسر مدينة Bola من الإيك. ولما لم يبقى له أعداء بالميدان دخل في صراع مع جنوده. كان قد وعدهم بالغنائم قبل الهجوم. ولما احتل المدينة أخلف وعده. فكان هذا هو السبب الحقيقي في إثارة غضب الجيش، وليس خيبة أمل الجنود من وجود المدينة فارغة من أية غنائم لما استباحها لهم قائدهم، وقد نهبت من قبلُ من طرف الإيك[2]".

"وتنامى الغضب ضده لما استدعاه زملاؤه من أجل التصدي لشغب نواب العوام بروما. فحضر وأسمع الشعب كلاما أخرق ومهينا. حصل ذلك لما كان أحد نواب العوام يقترح مرة أخرى قانون الإصلاح الزراعي علاوة على مطلب إحداث مستعمرة بمدينة Bola المسترجعة، فقال : "من العدل والإنصاف أن تكون مدينة Bola وأراضيها من نصيب الجنود الذين استرجعوها بسلاحهم". حينها صاح النائب العسكري Postumius مهددا بقوله : "الويل لجنودي إلّم يلتزموا

[1] التعليق للمؤلف تيت ليف.
[2] والتعليق للمؤلف تيت ليف.

بالهدوء". فجرح بذلك الكلام المهين كرامة السامعين من العوام بل حتى مشاعر البطريقيين لما وصلهم الخبر. وجد حينها نائب العوام النشيط والفصيح في هذا الخصم العنيد مزاجا متغطرسا غير قادر على التحكم في أقواله. فأخذ يستمتع باستفزازه وبالزيادة في إثارة غضبه كي يستدرجه للتفوه بكلام أكثر وقاحة وقسوة، ويجلب بذلك الحقد العام عليه وعلى قضيته وعلى كامل فئته. لهذا كان يفضل استفزازه هو بالضبط من بين باقي زملائه من النواب العسكريين حتى يجره للحوار".

"وانتهز فرصة آخر كلامه القاسي جدا وغير إنساني ليقول في الجموع : "ها أنتم سمعتم أيها الرومان ذاك الجنرال المتغطرس يهدد جنوده بالويل وكأنه يخاطب عبيده. مع ذلك ستفضلون يوم الاقتراع مثل هذا الوحش الضاري على رجال منكم يناضلون باستمرار من أجل مصالحكم ضد مثل هؤلاء الخصوم المتعجرفين، ويعدونكم بمدن وبأراضي وبإرسالكم كمستوطنين إلى المستعمرات وبضمان تقاعد كريم لكم أيام شيخوختكم. فلا تستغربوا من بعد ذلك لما لن تجدوا من يأخذ بيده قضاياكم. ما عسى مثلنا أن ينتظروا منكم ؟ المناصب الرفيعة ؟ ألا تهدونها لأعدائكم بدلا من انتخاب المدافعين عنكم ؟ تألّمتم كثيرا منذ قليل لما سمعتم كلام ذاك الجنرال. أتعرفون ماذا يعني ذلك ؟ لما يأتي يوم الاقتراع ستفضلون هذا الذي يعدكم بالويل على من يعدكم بالأراضي وبالسكن وبمختلف الخيرات"".

"وصل كلام الجنرال المهين لجنوده حتى المعسكر. فأثار بينهم موجة عارمة من الغضب. كانوا يقولون : "كيف ؟ ذاك السارق المستحوذ على كل غنائم مدينة Bola يعدنا بالويل ؟". وقيل ذلك الكلام القوي أمام خازن الجنرال الذي كان يتصور أن استعمال العنف ضد الجنود قادر على قمع تمردهم الذي أثاره عنف الجنرال. فأمر أحد حراسه بالقبض على جندي كان يصرخ في وجهه. وتعالت حينها صيحات الاستنكار ورُجم الخازن بحجرة أصابته في رأسه، فانسحب من المواجهة. وقال الجندي الذي رماه بها وجرحه : "ها هو الويل الذي توعّد به الجنرال جنوده قد أصاب خازنه"".

"وبإسراعه من روما إلى المعسكر لتهدئة التمرد زاد الجنرال Postumius من غضب الجنود بسبب ما توعدهم به من صرامة المتابعات ووحشية التعذيب. لردعهم أمر بقتل أحد الجنود غرقا من بعد لفه في الحصير ورميه في النهر. صار ذلك الجندي يستنجد بزملائه ويخوّفهم من لقاء نفس المصير إلم ينقذوه منه. فاستجابوا لصراخه وأسرعوا إليه وتحلقوا من حوله وهم يحتجون على تلك العقوبة الوحشية. قام الجنرال حينها من كرسيه غاضبا ومندفعا نحوهم. فانفجر استنكار تلك الجموع لما تحرك حراسه وضباطه لتشتيتها بعنف. إثرها أخذ الجنود في رجم جنرالهم بالحجارة حتى الموت". وبذلك تحقق وعيد الجندي الذي رمى الخازن بحجرة وجرحه في رأسه.

ثم يقول تيت ليف : "لما وصل الخبر الخطير لروما، طالب باقي النواب العسكريون من مجلس الشيوخ التحقيق في شأن مقتل زميلهم. لكن نواب العوام اعترضوا على ذلك المطلب. إلا أن نتيجة تلك الخصومة كانت رهينة بالمخرج من صراع آخر. مع اقتراب حلول نهاية السنة، كان البطريقيون قلقين خوفا من انتخاب الشعب لنواب عسكريين جدد من العوام كي يمنعوا المتابعات بخصوص مقتل الجنرال. فصاروا يبدلون قصارى الجهد لانتخاب قنصلين منهم للولاية التالية بدلا من نواب عسكريين. لكن نواب العوام حالوا دون إصدار مجلس الشيوخ لمرسوم يقضي بذلك. فقرر المجلس تعيين وصي على كرسي القنصلية في انتظار انتخاب من يعتليه بقرار منه. وبذلك كان الانتصار أخيرا بجانب البطريقيين".

"وفي سنة 413 ق.م.[1] انتُخب قنصلان جديدان بأمر من الوصي على كرسي رئاسة الدولة. فاستصدرا من مجلس الشيوخ مرسوما يأمر نواب العوام بعرض جريمة مقتل الجنرال على محكمة الشعب ومن دون تأخير، مع إعطاء الصلاحية للشعب في اختيار من يريد للتحقيق في القضية. وباتفاق مشترك بين العوام والبطريقيين أسندت تلك المهمة للقنصلين اللذين وضعا حدا لتبعات تلك الجريمة وبالتي هي أحسن. فقضت المحكمة بتعذيب بعض الجنود الذين، بحسب الرأي الشائع، قد انتحروا[2]. ومع ذلك لم يستطع القنصلان منع الشعب من تحمل ذلك العقاب بألم شديد". وعلق تيت ليف على ذلك الحكم بقوله : "بمنطق العاطفة، مثل ذلك القرار المتخذ لصالح الجمهورية، كان باطلا وغير مقبول. لكن بالاحتكام لمنطق العقل، كلما تطلب القانون من الشعب الاستسلام للتعذيب وللدم، فعليه القبول بحكمه الباهظ الثمن وتنفيذه للتو[3] من أجل سلامة الجمهورية".

تلك كانت دولة الحق والقانون. صحيح أن الجنرال اشتط في تصرفه مع جنوده. لكن القانون الحامي للدولة ولشعبها يسمح فقط بالدفاع عن النفس، ويمنع المعتَدى عليه من أخذ حقه بيده ومن الانتقام لنفسه بالاعتداء على من اعتدى عليه. كان بالإمكان منع الجنرال من التمادي في غيه من دون الاعتداء عليه وقتله، ثم عرض القضية على العدالة لتقول كلمتها في حقه وفي حق من منعوه من الاستمرار في غيّه. والإفلات من العقاب على جريمة قتل مجرد مواطن عادي فيه حتما إن

[1] السنة 97 من عمر الجمهورية الرومانية
[2] التعليق للمؤلف تيت ليف.
[3] والتعليق بتصرف، هو داما للمؤلف تيت ليف.

عاجلا أوآجلا خراب للدولة. أما الإفلات من العقاب على جريمة قتل رجل من رجال الدولة وقائد عسكري ومن طرف جنوده، ففيه إنهاء تام وفوري لحياة دولة الحق والقانون، بل للدولة نفسها. لك أن تتخيل ما مصير شعب وقت ما غضب من حكامه قتلهم وحرض على سفك دماء جنرالاته وقتما سخط علىهم.

ثم يقول تيت ليف : "من بعد قمع ذلك التمرد، ولتهدئة الخواطر، كان الوقت مناسبا لاقتراح توزيع أراضي مدينة بولا المسترجعة. كان بالإمكان التقليل بذلك التوزيع من الرغبة في قانون الإصلاح الزراعي الذي من شأنه طرد البطريقيين مما ورثوه من دون وجه حق من الملك العمومي. وكان الشعب شديد القلق من ذلك الإجحاف الذي ظل البطريقيون يستولون به قهرا على الأراضي العمومية، ولا سيما من رفضهم لاقتسام حتى الأحراش المحتلة منذ مدة قليلة، والتي ستكون قريبا كالباقي فريسة لبعض كبار البطريقيين". كل هذه الأخبار تؤكد أن انتصارات الرومان في الحروب كانت تزيد من ثروات البطريقيين من الممتلكات العقارية الجديدة ومن دون أي نصيب فيها للعوام لا من الجنود ومن المدنيين. وإنصافا لفئته تقدم أحد نواب العوام مرة أخرى بمقترح قانون الإصلاح الزراعي لكنه كالعادة فشل في تمريره. وذلك على رأس السنة المائة من عمر الجمهورية. لماذا وكيف ؟

فشل جديد في تمرير قانون الإصلاح الزراعي

يقول تيت ليف : "في هذه السنة (410 ق.م.)[1] بدأ قوم الإيك، بمعية بعض المتطوعين المرتزقة من الفولسك، بالهجوم على أراضي حلفاء روما. مع سماع دق طبول تلك الحرب عزم القنصل على التجنيد لمواجهة المعتدين. لكنه لقي مرة أخرى اعتراضا من Ménénius نائب العوام صاحب قانون الإصلاح الزراعي. ولاذ بحمايته كل من كان يرفض أداء قسم التجنيد. حينها جاء خبر احتلال الأعداء لقلعة من القلاع. الأمر الذي زاد من حقد البطريقيين على النائب Ménénius . ومنحوا زملاءه الذين حُرّضوا على معارضة مقترحه الزراعي، منحوهم مزيد من المبررات لمقاومته. لما طال النزاع بينهم، أخذ القنصلان في اتخاذ الرجال والآلهة شهداء على أن Ménénius الذي يمنع التجنيد هو الذي سيتحمل مسؤولية كل ما أصاب وما سيصيب به العدو البلاد من دمار. رد حينها النائب بقوة وهو يقول : "لما يتنازل من اغتصبوا الملك العام عمّا بأيديهم لن أؤخر التجنيد". فصدر عن باقي زملائه مرسوم يُنهي ذلك النقاش، من حيث أعلنوا فيه دعمهم الكامل للقنصل في كل ما يتخذه من إجراءات صارمة لمقاومة ومعارضة زميلهم ولمعاقبة كل من رفض التجنيد. لما تسلح القنصل بذلك المرسوم أخذ برقاب بعض المتمردين الذي كانوا يحتمون بنفس النائب، فخاف الباقون وأسرعوا لأداء القسم العسكري".

"ولما وصل الجيش للقلعة المحتلة قاتل الجنود ببسالة بالرغم مما في أنفسهم من حقد على القنصل قائدهم، وانتزعوها بيسر من العدو. ووجدوا الغنائم قد جمّعها العدو فيها وتركها من ورائه. لكن القنصل أمر رجال الخزينة ببيعها في المزاد العلني ودفع ثمنها لخزينة الدولة، وهو يقول جهارا بأن الجنود سيكون لهم نصيب من الغنائم يوم يأتون للخدمة العسكرية عن طواعية. بذلك زاد حقد الشعب والجنود على القنصل. ولما أقيمت الاحتفالات بنصره بموجب مرسوم من مجلس الشيوخ، ودخل القنصل في موكبه إلى الساحة، استُقبل بأناشيد مهينة له وللخدمة العسكرية، مع أخرى كانت تشيد بخصمه النائب Ménénius وتثني عليه. كان كلما ذُكر اسم ذلك النائب تعالت هتافات الجنود بحياته. وكان مجلس الشيوخ قلقا من تلك التطورات أكثر من سخرية الجنود من القنصل التي لم تكن جديدة. لم يعد هناك من شك في انتخاب Ménénius نائبا عسكريا يوم الاقتراع القادم. ولمنع تحقيق ذلك الاحتمال القوي تقرر مرة أخرى انتخاب قنصلين للولاية اللاحقة". لكن من بعد قرن من الزمن على نشأة الجمهورية تم أخيرا ولأول مرة انتخاب رجال من العوام لولوج مناصب السيادة. ما تمكنوا من ولوج النيابة العسكرية التي ظلت الكتلة الناخبة من فئتهم تفضل عليهم فيها البطريقيين منذ 444 ق.م. لكنهم تمكنوا من ولوج مناصب أمناء الخزينة التي تقل عنها بدرجتين. كيف حصل ذلك ؟

أول ولوج العوام لمناصب سيادية

يقول تيت ليف : "انتُخب القنصلان الجديدان (عن سنة 409 ق.م.)[2] كالعادة من طرف الهيئات الميئية les comices centuriates حيث الغلبة كانت للناخبين البطريقيين. ولم يكن يوما عموم الشعب متدمرا مثل هذه المرة من حرمانه من انتخاب نواب عسكريين من طرف الهيئات الترابية les comices tributes حيث الغلبة كانت للناخبين من العوام. فأظهر غضبه وانتقم لنفسه في انتخاب أمناء خزينة الدولة les questeurs، لما اختار ولأول مرة ثلاثة من بين المرشحين العوام، وفضلهم على خيرة شباب العائلات البطريقية المرموقة. والرابع فقط كان بطريقيا. ويقال كذلك بأن تلك الاختيارات الثلاث حصلت بضغط على العوام من طرف عائلة إيسيليوس العدوّة الصريحة للبطريقين، والتي انتخب منها

[1] هي السنة 100 من عمر الجمهورية الرومانية
[2] سنة 409 ق.م. وهي السنة 101 من عمر الجمهورية الرومانية

تلك السنة ثلاثة نواب عن العوام. كانوا يعدون الناخبين بتحقيق العديد من مطالبهم الجميلة والمغرية. وأقسموا بألا يتحركوا إلا من بعد ما يُظهر العوام ما يكفي من الحزم في انتخابات أمناء الخزينة، حيث المرشحين كانوا مختلطين من الفئتين، كي يحققوا ما يطلبونه منهم من المكاسب منذ مدة طويلة ولا تحرّمها عليهم القوانين".

"كان في ذالك الانتخاب نصر جد مهم للعوام، ليس لمجرد توليهم مناصب أمناء الخزينة، بل لأن ذلك الانتخاب فتح لرجالهم ولأول مرة الطريق نحو تولي منصب القنصلية وباقي المقامات الرفيعة بالدولة. كان البطريقيون يتحدثون بخصوص ذلك الحدث ليس عن اقتسام السلطة مع العوام وإنما عن الاعتداء على حقهم في احتكارها. كانوا يقولون : "إذا صار الحال على ما نرى، ففيم إنجاب وتربية أبناء مسلوبين من حق دم أجدادهم في احتكار السلطة والمقامات الرفيعة، ورؤية الأجانب سادة عليهم، وحصر دورهم في القيام بمهام الكهنوت كي يذبحوا القرابين للآلهة باسم الشعب ؟". فاشتعلت العقول شططا من الطرفين. وبما أن العوام اتصفوا بالإقدام وكانت قضيتهم بيد ثلاث نواب جد متميزين، توقع البطريقيون أن كل الانتخابات حيث يكون المرشحون مختلطين، ستسفر عن نفس النتيجة التي حصلت مع انتخاب أمناء الخزينة. فصاروا يطالبون بانتخاب القنصلين حيث الترشح كان مغلقا في وجه العوام. لكن النواب الثلاثة من عائلة إيسيليوس كانوا مصرين على انتخاب نواب عسكريين، حتى ينال العوام أخيرا نصيبهم من الحق في تولي المقامات الرفيعة بالدولة".

"ولما لم يحن بعد موعد انتخاب قنصلين جديدين، لم تكن بيد نواب العوام ما يساومون به البطريقيين لتحقيق مطلبهم بانتخاب نواب عسكريين مكان القنصلين. ظل الحال كذلك إلى حين جاءت فرصة ذهبية لتخدم غرضهم. قوم الفولسك وقوم الإيك خرجوا لينهبوا أراضي حلفاء روما من قومي اللاتين الهنريك. فصدر عن مجلس الشيوخ مرسوم يسمح للقنصلين بالتجنيد من أجل ردّ العدوان. اعترض عليه النواب فورا وبقوة، وهم مع باقي العوام في أوج الفرح بذلك الحظ السعيد. كانوا ثلاثة نواب، وكان لديهم حماس لا ينفذ، وهم علاوة على ذلك أصحاب مقام رفيع بين الرجال من فئتهم. إثنان منهم لازما القنصلين جنبا لجنب يراقبانهما عن كثب. والثالث تكلف بتأطير العوام وبتحريضهم. هكذا ما استطاع القنصلان القيام بالتجنيد ولا النواب استطاعوا الحصول على مرسوم من مجلس الشيوخ يقضي بانتخاب نواب عسكريين. وأخيرا جاء خبر احتلال العدو لقلعة من قلاع الحلفاء ليخدم قضية العوام ويقوي من موقف نوابهم. فقاوموا التجنيد مخاطرين بمصير روما وبمصيرهم، حتى حصلوا أخيرا على مرسوم من مجلس الشيوخ يقضي بانتخاب نواب عسكريين. لكن جاءت فيه مادة تمنع ترشح النواب العوام لتلك السنة للنيابة العسكرية، وتمنعهم من الترشح للنيابة عن العوام السنة التالية. كان المقصود من ذلك، ومن دون شك، هو قطع الطريق عن النواب من آل إيسيليوس المشكوك في نيتهم للوصول للقنصلية عن طريق التمرد بحصولهم على ولاية أخرى. حينها فقط بدأت عملية التجنيد وتوجه القنصلان للجبهة، وما استطاعا تحرير القلعة. لكنهما استرجعا مدينة Verrugo من قوم الفولسك وخرب جيشهما أراضي العدو ونهبها.

وتأكدت أنت هنا مرة أخرى كيف كانت مصالح أعداء روما الخارجيين تتقاطع غالبا مع مصالح العوام الرومان من أجل إقامة دولة الحق والقانون واقتسام السلطة بالعدل مع البطريقيين. فصدقت في ذلك لصالحهم قولة "رب ضارة نافعة"بالنسبة للحروب التي كانت تُشن على روما، بالنظر لما كان لها من فضل في ضغط العوام على البطريقيين من أجل دوام تطوير النظام السياسي بروما نحو ما هو أرقى. فيقول تيت ليف في ذلك : "فاز العوام بفرض إرادتهم بخصوص انتخاب نواب عسكريين. لكن بقيت مع ذلك نتيجة الاقتراع لصالح البطريقيين. بالفعل، وخلافا لكل التوقعات، انتُخب ثلاثة نواب عسكريين بسلطات قنصلية، لكن كانوا كلهم مرة أخرى من البطريقيين. ويقال أن البطرقيين استعملوا في ذلك حيلة استنكرها في حينها النواب من آل إيسيليوس. تعمدوا تقديم مرشحين من أرذل سفهاء العوام في تنافس مع المرشحين المرموقين من فئتهم. الأمر الذي جعل الناخبين يبتعدون عن كل المرشحين العوام". حصل ذلك سنة 408 ق.م. وهي السنة 102 من عمر الجمهورية الرومانية. ونذكرك بأن مرسوم مجلس الشيوخ الذي سمح بانتخاب النواب العسكرين نص في مادة من مواده على منع نواب العوام لتلك السنة من الترشح لذلك المنصب.

ثم يقول تيت ليف : "جاء خبر قيام قوم الفولسك والإيك بالحرب على روما بكل ما لديهما من قوة، متحمسين بقدرتهم على الحفاظ على قلعة Carventum ومستائين من احتلال الرومان لمدينة Verrugo. وصار كبار رجالهم يلومونهم على الجبن الذي واجهوا به السنة الفارطة الرومان وتركوهم يعيثون فسادا في أراضيهم واحتلو Verrugo. فتجمع لهم بذلك جيش كبير من الشباب وعسكروا في انتظار العدو. ومع سماع تلك الأخبار سارع مجلس الشيوخ إلى اتخاذ الإجراء الأخير في مثل تلك الحالات الرهيبة، ليأمر بتعيين ديكتاتور. فاستاء نائبان عسكريان من ذلك القرار وهما يقولان : "نحن قادرون على قيادة هذه الحرب، ولا يجوز حرماننا من الفوز بشرف ما حصلنا عليه من الشعب". وتسببا بذلك في اندلاع جدل عنيف بين البطرقيين، لما اشتكى كبارهم، من دون جدوى، من شدة مقاومة النائبين العسكريين لذلك القرار. فارتأوا اللجوء لنواب العوام الذين سبق أن تدخل من قبلهم في أزمة مماثلة واستطاعوا ثني إرادة قنصلين لصالح قرار مجلس الشيوخ. لكن نواب العوام المنتشين بذلك الخلاف بين البطريقيين، ردّوا على مسعاهم بالقول : "لا أمل لكم في المساعدة من أناس لا يُعدّون عندكم لا مواطنين ولا حتى بشرا. فإن رضيتم باقتسام السلطة معنا وقبلتم بتولينا المناصب

الرفيعة بالدولة، حينها فقط سننظر في الوسائل الكفيلة بتأييد مرسوم مجلس الشيوخ ضد النواب العسكريين المعاندين. وفي انتظار ذلك، فالبطريقيون الذين لا يعبأون باحترام القانون في فترات انتخاب رجال الدولة، لا حاجة لهم كذلك بمساعدة نواب العوام"".

"كانت تلك النقاشات تشغل كل العقول وغير لائقة في تلك الفترة الحرجة مع وجود حرب على الأبواب. حينها قال ثالث النواب العسكريين الثلاثة : "من هو ذاك المواطن الذي يستطيع التفريق بين مصالحه الخاصة والصالح العام ؟ فإن كنتُ التزمت طويلا بالصمت فليس لغياب رأي لي حاسم في الموضوع. لكن كنت سأفتخر بإذعان زملائي عن طواعية لقررا مجلس الشيوخ بدلا من الوصول إلى حد الحاجة لمساعدة النواب العوام من أجل حل الأزمة. إلم يسارعوا إلى حلها فسيعطونهم بمحض إرادتهم الوقت للرجوع إلى سابق معارضتهم بعزم وعناد. لكن بما أن ضروريات الحرب لا تسمح بانتظار حسم الرجال، فإنني أفضل خدمة الجمهورية على نيل رضا زملائي. وعليه، إن كان مجلس الشيوخ ما يزال على نفس الموقف، فأنا سأعيّن ديكتاتورا الليلة القادمة. وإذا ما اعترض أحد على ذلك فأنا سأكون تحت أمر المجلس". من بعد ما حصل بصرامته على ثناء الجميع، عين ديكتاتورا من دون أن يلاقي اعتراضا من زملائه. وخاض الديكتاتور الحرب التي كانت من حسن حظه مجرد نزهة، سحق فيها العدو ودفعه للاحتماء بجدران مدينته من بعد ما أسر ثلاث آلاف من جنوده. ثم عاد إلى روما منتشيا بسعادة أكبر من أي مجد، وتنازل عن منصبه. حينها أعلن النواب العسكريون المنتهية ولايتهم استدعاء الهيئات الترابية لانتخاب نواب الولاية التالية. في حين كان البطريقيون كالعادة يفضلون انتخاب قنصلين. فشعروا بقلق شديد بسبب خيانة جاءت من داخل فئتهم. ثم استسلموا، لكن باللجوء لنفس الحيلة في الولاية السابقة[1] فازوا بمناصب النيابة العسكرية الأربعة من دون أي منتخب من العوام".

كل هذا الخوف من حزب العوام المعارض ظل يحول دون استبداد حزب البطريقيين الحاكم. وبفضله ظل توازن الرعب قائما بين الحزبين لصالح عظمة الجمهورية بالداخل وبالخارج. ثم جاء من مجلس الشيوخ سخاء في حق جنود العوام من دون مطلب منهم. وبالنظر لما كان بين الفئتين من صراعات سياسية لم يفت نواب العوام أن يروا في ذلك السخاء غير المتوقع مجرد طعم لقضاء مآرب مريبة. وما كان ليمر ذلك السخاء المشبوه من دون أن يتجدد ويحتدم بسببه الصراع بين الحزبين. فما هي الشبهة التي كانت في طي سخاء مجلس الشيوخ نحو الجنود من العوام ؟

صراع عمودي بين نواب العوام ومجلس الشيوخ

يقول تيت ليف : "حصل هذه السنة (406 ق.م.) هجوم آخر من قوم الفولسك وخرجت لمواجهته من روما ثلاثة جيوش بقيادة ثلاثة نواب عسكريين، وبقي رابعهم بالمدينة لتدبير شؤونها اليومية. انتصر الرومان واحتلوا مدينة Anxur الغنية والتي سُمح للجنود باستباحتها. بدأ هذا السخاء من الجنرالات ييسر المصالحة بين فئتي العوام والبطريقيين. ثم أضاف مجلس الشيوخ مكرمة أخرى لما تكرم به كبار رجال الدولة على الجنود. فمن دون طلب من العوام ولا ضغط من نوابهم تفضل المجلس وقرر دفع رواتب للجنود المشاة من خزينة الدولة. حتى ذلك الحين كان كل جندي يتحمل نفقاته على الحرب من ماله الخاص".

"ويقال بأنه لم يسبق للشعب أن استقبل مكرمة بمثل ذلك الفرح. أسرع الناس في جموع غفيرة إلى مجلس الشيوخ لتحية أعضائه وليصافحوهم بحرارة. كانوا يقولون لهم بأنهم استحقوا المناداة عليهم بالآباء، وأنه من بعد تلك المكرمة لن يبخل أحد منهم على هذا الوطن السخي بروحه وبدمه. كانوا مسرورين من أن أموال الجندي ستبقى من ورائه في أمان لما يخاطر هو بحياته في سبيل الجمهورية. ومما زاد في غبطتهم وابتهاجهم بتلك المكرمة هو كونها جاءت بتلقائية وعن طواعية من مجلس الشيوخ، ومن دون ضغط من نواب العوام، أو كلمة واحدة من العوام أنفسهم"".

وينبغي التوقف عند هذا الحدث بالنظر لما كان له من تداعيات سياسية جد مهمة في الصراع بروما على اقتسام السلطة والثروة بالعدل بين البطريقيين والعوام. في الأنظمة الاستبدادية بالدول الشاسعة الأطراف كانت الجيوش نظامية واحترافية كما هو حالها اليوم بجل دول العالم ديمقراطية كانت أو استبدادية. فكان جنودها يتقاضون رواتب من خزينة الدولة. وكانوا إما من الشعب أو أجانب مرتزقة أو

[1] تعمدوا تقديم مرشحين من أرذل سفهاء العوام في تنافس مع المرشحين المرموقين من فئتهم. وذلك بسبب بقاء سريان مفعول مرسوم مجلس الشيوخ الذي سبق أن سمح بانتخاب النواب العسكرين ونص في مادة من مواده على منع نواب العوام من الترشح لذلك المنصب.الأمر الذي جعل الناخبين يبتعدون مرة أخرى عن كل المرشحين العوام.

مختلطين. والصراع السياسي في تلك الأنظمة كان دائما أفقيا بين الكبار فقط، على من ينفرد بالسلطة ويستبد بالأرض بما عليها وبمن عليها. ما كان فيها للشعوب أدنى وزن سياسي. وذلك بخلاف ما كان عليه الحال بروما وبباقي حواضر إيطاليا اليونان، حيث كل منها كانت يشكل دولة في حجم مدينة.

هكذا بروما كما بأتينا وبمدن أخرى مثلهما لم يكن هناك لا استبداد ولا انفراد بالسلطة. بل كانت السلطة فيها مقتسمة ولو بدرجات متفاوتة بين كل المواطنين من الفئتين البطرقيين والعوام. فكان الصراع فيهما عموديا، كما تقدم، على اقتسام السلطة والثروة بالعدل بينهما. والجيش كان في كل منهما جيشا شعبيا، كما هوالحال اليوم بسويسرا مثلا. كان يتشكل عند النفير من المواطنين وبواسطة التجنيد إلى حين نهاية الحرب ثم يعود الجنود لحياتهم المدنية المعتادة. وكان كل جندي يتحمل نفقات تجنيده من ماله الخاص.

هذا الوضع العسكري فرضته، كما تقدم، الدولة في حجم مدينة. وشكل فيها عنصر قوة في الحياة السياسية بالنسبة للعوام في صراعهم على اقتسام السلطة والثروة مع حزب البطريقيين الحاكم. لذا قرار مجلس الشيوخ البطريقي بدفع رواتب للمشاة لم يكن كما يظهر سخاء بريئا. بل بحسب نواب العوام، كما سترى ذلك لاحقا، قد كان له هدف سياسي يرمي إلى التقليل من ضغط وابتزاز العوام للبطريقيين في حال الحرب من أجل انتزاع المزيد من الحقوق. الإغراء بدفع رواتب للمشاة كان من شأنه أن يُضعف من مساندتهم لنوابهم في صراعهم السياسي. وستأتي لاحقا المناسبات التي سيفصل فيها ذلك نواب العوام.

وقد تتبادر إلى ذهنك فكرة إنشاء البطريقيين لجيش نظامي من المرتزقة ليتخلصوا من ابتزاز العوام وقت الحرب. تطرق لهذا الموضوع بإسهاب نيكولا ميكيافلي، مؤلف كتاب الأمير الشهير، في كتابه "مقالات حول العشرية الأولى لتيت ليف"، وعدد فيه مخاطر اتخاذ جيش من المرتزقة. وهي المخاطر التي تفطن لها الرومان غيرهم فتجنبوها، لأن الكلفة المتوقعة كانت أكبر من كلفة الاعتماد على جيش شعبي من العوام. أولا المرتزق أجنبي وغريب، فليس لديه ما يخسره إن انهزمت روما في الحرب. بخلاف الجندي الروماني من العوام فسيخسر بذلك حريته الذاتية والسياسية وحرية أهله ومواطنيه، كما سيخسر ما لديه من ممتلكات. لهذا تجده مستعدا للتضحية بحياته في سبيل وطنه، بخلاف المرتزق الذي لن يغامر بحياته لأنه لا فائدة من أجر موعود به من بعد موته. علاوة على ذلك الجندي المرتزق هو يعمل لمن يدفع أكثر. فقد ينقلب بولائه لصالح العدو في أية لحظة. وثالثا فكثيرا ما يستبد الجيش المرتزق بالحكم في الدولة التي استأجرته ولا تملك جيشا نظاميا وطنيا يدافع عنها. وهذا هو بالضبط ما حصل لآخر خلفاء العباسيين لما اتخذوا جيوشا من الأتراك بالعراق ثم بمصر الذين حكموها مع غيرها كمماليك من بعدالدولة الأيوبية.

ثم يقول تيت ليف: "لكن نواب العوام بقوا بعيدين عن ذلك الفرح العام الذي قرّب بين الفئتين. كانوا يقولون أن الأيام القادمة ستبرهن كم هم مخطئون مجلس الشيوخ والجموع التي ترى في ذلك مصدر سعادة ورخاء. هذا الإجراء الرائع في ظاهره لن يصمد أمام التجربة. بالفعل، من أين ستمول تلك الرواتب سوى من جيوب المواطنين بفرض ضرائب جديدة عليهم ؟ فأموال البعض ستمول سخاء مجلس الشيوخ على البعض الآخر. ثم بالرغم من هذا الرضا العام، فالذين سبق أن أنهوا خدماتهم العسكرية لن يقبلوا بأن يخوض غيرهم الحروب القادمة بامتيازات لم ينعموا بها هم من قبل. والذين سبق أن أنفقوا على حروبهم من جيوبهم لن يقبلوا بأن ينفقوا مرة أخرى بمزيد من الضرائب على حروب غيرهم من بعدهم"".

وفي هذا درس لبعض النقابيين اليوم ولعموم المواطنين الذين لا يزالون يتحدثون عن مجانية التعليم العمومي مثلا. وكأن ميزانية الوزارة تُمون من صناديق جمعيات خيرية. في حين هي ممونة من الضرائب المدفوعة قهرا من جيوب المواطنين، وما كانت ولن تكون يوما بالمجان. والتوهم بأن التعليم العمومي والصحة وغيرهما خدمات مجانية يجعل المواطنين يشعرون وكأنهم متسولين فلا يجرؤون على محاسبة تلك القطاعات لما تكون نتائج أدائها ضعيفة وحتى سيئة. لكن مثل هذا الأمر هنا فير روما لم يفت نواب العوام أربعة قرون قبل الميلاد. وذلك لما كانوا يقولون من أين ستمول تلك الرواتب سوى من

جيوب المواطنين بفرض ضرائب جديدة عليهم. فأموال البعض ستمول سخاء مجلس الشيوخ على البعض الآخر.

ثم يقول تيت ليف: "استمالت تلك الأقوال جزءا من الشعب. وأخيرا تعهد البطريقيون علنا بسد كل نقص في الخزينة الناجم عن أي رفض للمساهمة في صندوق رواتب المشاة. كانوا ينافحون عن ذلك المشروع بحزم وحماس، مع بداية جد طيبة. بادروا إلى المساهمة في الصندوق قبل غيرهم. ولما لم يكن هناك ما يكفي من السيولة النقدية المتداولة، جاء العديد منهم إلى الخزينة بعربات مثقلة بمعدن النحاس، الأمر الذي أعطى نفسا قويا لمشروعهم. حينها تبعهم في ذلك الاكتتاب حتى أصدقاؤهم من كبار أغنياء العوام. ولما رأت جموع الشعب البطريقيين يصفقون لهم والشباب من الجنود يؤيدونهم كمواطنين صالحين، فجأة ومن دون الاكتراث بتشكيك نواب العوام، عمّت الجميع الرغبة في المساهمة في تمويل ذلك الديْن العمومي. وحين صدر القرار بشن الحرب على مدينة Véies خرج لها جيش عرمرم أغلبه من المتطوعين بقيادة نواب عسكريين جدد".

كالعادة، لن نتعبك بذكر تفاصيل الحرب على قوم الفولسك والحرب على مدينة الڤايس التي انتصر فيهما الرومان. بقيت ملاحظة جد هامة استرعت انتباهنا ونحن نتتبع أخبار الجمهورية حتى هذه الفترة من تاريخها من بعد مائة عام على تأسيسها، والتي تتعلق بتشييد المعالم العمرانية الكبرى. ما من ملك في عهد الملكية إلا وتجده قد خلد ذكره ببناء معلمة عمرانية دينية أو ذات نفع عام. لكن خلت أخبار الجمهورية حتى الآن من تشييد أية معلمة سوى بعض المعابد. فتساءلنا لماذا ؟ هل مدة الولاية السنوية لرجال دولة الجمهورية بالمقارنة مع مدة ولايات الملوك، هي التي جعلت رغبة القناصلة والنواب العسكريين تقتصر على نيل المجد في الحروب ؟ لا ندري. وفي علاقة مع نفس السؤال، ما دامت المشاريع العمرانية غائبة فأين كانت تذهب أموال الخزينة ؟ ولا سيما لما علمنا أن دفع رواتب للمشاة تطلب الاكتتاب الطوعي من البطريقيين ثم من كبار العوام وتبعهم في ذلك بقية الشعب. أم كان الملوك يفرضون جبايات خاصة لبناء معالمهم العمرانية الضخمة ؟ لا ندري. على كل حال ما لبث أن تكشف سبب سخاء مجلس الشيوخ مع الجنود المشاة بحصار مدينة Véies الغنية بجوار روما. فماذا كان سره ؟

يقول تيت ليف : "بحلول هذه السنة (401 ق.م)[1] تحقق السلم لروما في كل مكان من حولها، وما بقيت في حرب سوى مع شعب مدينة Véies. وذلك بإصرار وحقد متبادلين لا يُتوقع منهما سوى محق وتدمير الغالب للمغلوب. أسفرت الانتخابات في الجانبين عن نتائج مختلفة[2]. لأول مرة ارتفع عدد النواب العسكريين بسلطات قنصلية بروما إلى ثمانية. كانوا كالعادة كلهم من البطريقيين، وكان من بينهم واحد من آل أبيوس كلوديوس المعروفين بعدائهم لنواب العوام. لكن شعب مدينة Véies، الذي تعب من الانتخابات السنوية وما كان يترتب عنها من شقاقات متكررة، انتخب هذه السنة ملكا. أما باقي شعوب الأمة الإتريسكية الإثنى عشر فقد استاءت من ذاك التغيير السياسي الحاصل بمدينة Véies. كانت تحقد على الملك المنتخب أكثر من كراهيتها للملكية نفسها. وذلك بسبب ما سبق أن صدر عن ذاك الرجل من عنف وعنجهية في حقها لما فضّلت عليه غيره لرئاسة الطقوس الدينية للألعاب الإتريسكية، فعمد فجأة لعرقلتها بسحب عبيده من مشاهدها، ضدا في الأصول والأعراف. ثم جاء من يخبر شعب Véies بأن باقي الشعوب الإتريسكية قد قررت حرمانه من مساعدتها في حربه مع روما ما دام تحت حكم ذلك الملك. لكن بإرهابه لشعبه تم التعتيم على ذلك الخبر بالمدينة، واتهم ناقله بتزعم التمرد من دون أن يكذبه".

وتلاحظ معنا هنا أن العديد من حواضر إيطاليا كانت مثل روما تعتمد الانتخابات الدورية في اختيار حكامها، ولم تكن ملكيات وراثية. فقد عرفت هي كذلك قصصا للحرية. فقط غمرتها روما لما تفوقت عليها وصارت إمبراطورية، فلم تصلنا أخبارها. لهذا ما كان الرومان أذكى من غيرهم وإنما نفس الظروف التي يسرت لهم نشأة الحرية يسرتها لغيرهم في العديد من الحواضر من حولهم وبباقي إيطاليا وباليونان. ويسترسل تيت ليف قائلا : "لما تأكد الرومان من تخلي شعوب الإتريسك عن مساعدة عدوهم وعلموا في الوقت نفسه أن هناك مجامع إتريسكية أخرى مهتمة بمحمايته، عززوا استعداداتهم للحرب بدفاعات على جبهتين. جبهة جُندت لحصار مدينة Véies، والأخرى جندت تحسبا للمساعدات المحتملة من جهة باقي شعوب الإتريسك. وبما أن جنرالات الرومان قرروا حصار المدينة بدلا من الهجوم عليها، شيدوا للجنود مساكن لفصل الشتاء لم يعرفوا لها مثيل من قبل. ولما وصل الخبر لروما تلقفه نواب العوام الذين بقوا مدة طويلة من دون فرصة للاحتجاج، ودعوا فورا الشعب

---

[1] وهي السنة 109 من عمر الجمهورية الرومانية
[2] ونستشف من هذا الخبر أن انتخاب الشعب رجال الدولة بدول إيطاليا لم يكن حكرا على روما.

للاجتماع بالساحة العامة لتحريضه على النواب العسكريين. قالوا له : "ها أنتم أيها الرومان، تدركون اليوم لماذا قرر مجلس الشيوخ دفع رواتب للجنود. أما نحن فلم تنطلي علينا الخدعة. كنا نعرف أن خصمنا دس سما في تلك الهدية التي باع بها الشعب حريته. وها هو يبعد شبابه على الدوام عن المدينة وعن الجمهورية، كي يظل محجوزا هناك من دون فرصة للراحة حتى في فصل الشتاء، ومن دون فصل لزيارة العائلة ولا الاهتمام بشؤونه طيلة السنة"".

ثم استرسل نواب العوام يقولون : "فما هو المبرر لتلك الخدمة العسكرية المستدامة والمتواصلة ؟ هناك مبرر فريد لذلك، وهو الخوف من ذلك الشباب الذي يشكل بروما قوتك الحقيقية أيها الشعب والتي تخدم مصالحك. ها هو يقاسي هناك ويلات عذاب وحرمان أكبر مما تعانيه المدينة المحاصرة التي يقضي أهلها الشتاء البارد في بيوتهم، وفي حماية أسوارها السميكة من وراء وضعها الطبيعي الحصين. في حين جنودنا يقاسون من تعب الأشغال فوق الثلوج المتراكمة وتحت الصقيع. وليس لهم سوى مخابئ من الجلد يحتمون بها من شدة برودته. وعليهم تحمّل عناء البقاء في الخدمة العسكرية طيلة الشتاء الذي تتوقف فيه كل الحروب في البر والبحر. قهر الجيش بهذه الخدمة العسكرية المسترسلة والشاقة التي قررها طغيان هؤلاء النواب العسكريون هو قهر غير مسبوق. لم يسبقهم إليه لا القناصلة الذين عُرفوا بالعنجهية من قبل إحداث مؤسسة النيابة عن العوام، ولا تلك السلطة المتسلطة التي تمتلكها مؤسسة الديكتاتور، ولا الزمن الذي سادت فيه أهواء المفوضين الآثمة. فماذا كانوا سيقومون به لو كانوا قناصلة أو ديكتاتورات هؤلاء الذين يتصرفون اليوم بتلك القسوة والوحشية ؟ في حين ما هم سوى مندوبين سامين proconsuls"".

"لكنك أيها الشعب، ألا ترى أنك تستحق تلك المعاملة ؟ من بين ثمانية نواب عسكريين لم تنتخب ولا واحدا من المرشحين العوام. وسابقا ما كان البطريقيون يحصلون منك سوى على ثلاثة مناصب بشق الأنفس. ها أنت اليوم تمنحهم بسخاء ثمانية مناصب للسيطرة على الحكم. لم تمنح منها ولا منصبا واحدا لرجل من العوام، الذي لو ما كان بوسعه فعل الكثير كان بإمكانه على الأقل تذكير زملائه بأن أولئك الجنود هم رجال أحرار من مواطنيهم وليسوا عبيدا، ويستحقون العودة لبيوتهم في فصل الشتاء، ومنحهم بعض الأيام في السنة لزيارة آبائهم وأبنائهم وزوجاتهم ولممارسة حقهم في انتخاب رجال دولتهم"".

وفي ترجمتنا لتلك المرافعات السياسية المطولة لا تعجبنا فقط حلاوة بلاغتها وبيانها ومنطقها، بل ما كان فيها من إشارات قوية على الثقل السياسي الوازن الذي كان يتمتع به الشعب الروماني في ذهن الحكام والساسة. وزن سياسي اكتسبه بفضل نضال دءوب، انتزع به حقوقا فرضت على رجال الدولة احترامه وتقديره لحد جعل من كسبهم لرضاه في تدبير الشأن العام ضرورة لا يستطيعون تجاوزها من دون التعرض للمساءلة والمحاسبة ولتحمل عواقبها أمام محكمة نفس الشعب.وهكذا انبرى النائب العسطري الذي بقي بروما ليدافع عن مبادرة مجلس الشيوخ بقوة في خطبة بالساحة العامة فاقت في البيان والمنطق والحكمة خطبة خصمه من نواب العوام. وفيما يلي ترجمة نصها.

يقول تيت ليف : "لما كان نواب العوام يحرضون الشعب على النواب العسكريين وجدوا في وجههم مرة أخرى الخصم العنيد في شخص أبيوس كلوديوس الذي تعود منذ صغره على مجابهة العوام والذي تركه زملاؤه بروما بالضبط لقمع مثل ذلك التحريض. هو الذي سبق أن أفتى البطريقيين بتقويض نفوذ نواب العوام بزرع الشقاق فيما بينهم. وبفصاحته وتعوده على الخطابة في الجموع قام أبيوس كلوديوس خطيبا في نفس الشعب لنسف مزاعم خصومه من نواب العوام، وقال "كان عندكم أيها الرومان شك في أن نواب العوام يعملون دائما لصالحهم الخاص. لكن شكُّك ذاك قد زال هذه السنة. وأنا على قناعة من ذلك. أنا مسرور بخروجكم اليوم وأخيرا من ذلك الوهم الذي طال أمده، ولا سيما في زمن تعرف فيه حياتكم ومصالحكم الرخاء. وأهنئكم وأهنئ الجمهورية من أجلكم. وبالفعل ليس من بينكم من لا يعرف الحيف الذي طالكم وجرح مشاعركم لما غضب نواب العوام واعترضوا على دفع رواتب للجنود. فما الذي تتصورون أنه يخيفهم أكثر ويسعون اليوم لتخريبه سوى ذلك التوافق بين مختلف فئات الشعب الذي من شأنه إضعاف ونسف نفوذهم. بحق هرقل[1]، لقد انكشف اليوم أمرهم. هم كالعمال العاطلين الذين يبحثون عن عمل. وكعادتهم ما توقفوا يوما عن تمني مرض مّا يصيب الجمهورية كي يجدوكم تتوسلون إليهم ليشفونها منه"".

"أما أنتم معشر نواب العوام، ما أنتم ؟ المدافعون عن الشعب أم أعداؤه ؟ هل تهاجمون الجيش أم تتبنون قضاياه ؟ يظهر لي أنكم ستجيبون بأن كل ما يقوم به البطريقيون لا يعجبكم سواء كان في صالح الشعب أم ضده. مَثلكم في ذلك كمثل من يُحرّم على عبيده كل اتصال بالأجانب وهو يعتقد أنه من حقه منعهم من ذلك الاتصال سواء كان لهم فيه الخير أو الشر.

[1] وهو البطل الأسطوري الذي بقوته ونبل قيمه قتل ملكا كان يقتل كل غريب مر من مملكته تقربا للآلهة. قتله للقضاء على تلك العادة الخرافية والوحشية.

كذلك تريدون منع كل علاقة بين الشعب ومجلس الشيوخ، خوفا من أن نُعجب المواطنين بطيبتنا وبسخائنا فيسمعون لنصائحنا ويتبعوننا. من الأفضل لكم، إن كانت لكم، لا أقول روح المواطنة، وإنما فقط شيء من الإنسانية، أن تعملوا بكل ما في وسعكم لتأييد طيبة مجلس الشيوخ وتشجيع الشعب على إجلاله. لأنه إذا ما أمكن دوام اتحادهما فمن سيتردد في أن يعد هذه الأمة بالتفوق على كل من حولها وفي أجل قريب"".

"زملائي رفضوا فك الحصار على مدينة Véies. وهو الإجراء ليس فقط الصائب بل الضروري. سأقدم لكم البرهان على ذلك لاحقا. أما الآن فلا بد لي من الحديث عن حال الجنود. خطابي الذي سيلقى تأييدكم، كما أتمنى ذلك، لن يكون أقل إنصافا للجيش نفسه في حال ما كنت سألقيه في المعسكر، فيسمعني فيه ويحكُم عليّ. إلم يرد في كلامي مبرر معقول لذلك الحصار، فقد كان في كلام خصومي ما يكفي لتبريره. هم رفضوا منذ مدة تخصيص رواتب سنوية للجنود، بحجة أنه لم يسبق أبدا أن دُفعت لهم. واليوم كيف يجرؤون على التشكي من فرض عمل جديد على من قبلوا بذلك الامتياز الجديد ؟ فلا يوجد عمل من دون مكافأة. وعادة ما كل مكافأة تستوجب أداء عمل كثمن للحصول عليها. هكذا، المتاعب والمتعة بطبيعتهما المختلفتين تجتمعان لترتبط ببعضها برابط طبيعي. من قبل كان الجندي يرى حملا ثقيلا في خدمة الجمهورية على نفقته. كان يسعد بزراعة حقله مدة من السنة للحصول على موارد تنفعه هو وأهله في السلم والحرب. وهو اليوم يهنئ نفسه بالحصول على شيء من الجمهورية لما يتقاضى منها بسعادة راتبه. فعليه إذا أن يكون منصفا. ما دام بيته وممتلكاته معفية من كل تكاليف، فعليه في المقابل الصبر على تحمل غياب أطول".

"لو دعته الجمهورية لفتح حساباته معها، أليس من حقها أن تقول له : "ما دمت تتقاضى مني أجر سنة فعليك أن تخصص لي سنة من عملك ؟ هل من الإنصاف في رأيك أن تأخذ مني أجر سنة كاملة ثم تخدمني فقط مدة ستة أشهر ؟" أيها الرومان، إن وجدتموني أتوقف عند تلك التفاصيل فبالرغم عني. لأن الحديث بذاك المنطق لا يليق إلا بجنود جيش مرتزق. أما نحن فنتعامل مع جنود مواطنين. عليهم إذا أن يتعاملوا معنا كما يتعاملون مع الوطن. كنا أمام خيارين، إما تجنب خوض الحرب أو خوضها بما يليق بمجد الشعب الروماني وإنهاؤها في أقرب وقت ممكن. وخير وسيلة لإنهائها هو تشديد الحصار على العدو حتى تتوج آمالنا باحتلال مدينة Véies. بحق هرقل، حتى في حال ما لم يكن لنا مبرر لذلك الحصار، فمجرد تجنب خزي وعار الانسحاب منه يفرض علينا تشديده. قديما فقط من أجل امرأة، بلاد اليونان بأكملها فرضت حصارا متواصلا على مدينة طروادة مدة عشر سنين[1]. وكم كانت بيوتهم بعيدة، وكم من بحار وبراري كانت تفصلهم عنها. ونحن، ألا نستطيع فرض حصار لمدة سنة على بُعد عشرين ميلا من روما وعلى مرأى منها ؟".

"قد يقول قائل أن مبررات هذه الحرب واهية، وأنه ليست لنا أسباب معقولة للتشكي، ولا داعي لاستمرار الرغبة في الانتقام من أهالي مدينة Véies. وأقول له لقد بادرونا بالحرب سبع مرات. وما كان السلام معهم يوما صادقا. لقد نهبوا ألف مرة بوادينا، وأجبروا مدينة Fidènes على الانفصال عنا، وأبادوا مستعمراتنا. وضدا في حقوق البشر أشاروا بالذبح الآثم لسفرائنا. وأرادوا تحريض كل بلاد الإتريسك ضدنا. وحتى يومنا هذا ما يزالون يشتغلون على ذلك وبحماس. ولما يطالبونهم مبعوثونا بإصلاح ما أفسدوه، بالكاد يمتنعون عن إهانتهم".

"هذا هو الشعب الذي نواجهه بحرب متراخية ومتقطعة. إذا كانت مثل هذه المبررات المشروعة للحقد غير كافية لجعلنا حازمين مع هذا العدو، فقولوا لي من فضلكم ما إذا كنتم تعرفون مبررات أقوى منها. مدينته محاطة بأسوار ضخمة تحاصره بداخلها. لا يستطيع زراعة حقوله حيث المحاصيل قد دمرت بالحرب. فإذا ما انسحب جيشنا من حصاره، من يشك، ليس فقط في رغبته بالانتقام منا بهجومه على بوادينا من بعد ما فقد كل أمواله ؟. فاتخاذ مثل ذلك الإجراء لن يؤجل الحرب علينا بل سيجرها إلى أسوارنا".

"والآن، ما هي في الواقع مصالح الجنود التي زعم فجأة هؤلاء النواب الدفاع عنها من بعد ما أرادوا حرمانهم من رواتبهم ؟ هم قد شيدوا في أراضي واسعة تحصينات وحفروا خنادق من بعد جهد جهيد ومشقة. وقاموا بكل ما يجب لمحاصرة المدينة ولمنع باقي شعوب الإتريسك من مساعدتها. ولما تمت كل تلك الأشغال الهائلة وكل تلك الاستعدادات الطويلة والمضنية، يقال لنا يجب التخلي عنها والعودة إليها في موسم الصيف لإعادة بنائها مرة أخرى وهدر قوات جنودنا في متاعب جديدة. أليس من الأفضل الاحتفاظ بما تم إنجازه والبقاء والمثابرة حتى إنهاء هذه الحرب ؟ المهمة تنجز وتختصر جيدا إن هي تمت دفعة واحدة. أما بتقطيعها وبتباطئنا فيها فسنؤخر تحقيق آمالنا بأيدينا. ولم أتكلم حتى الآن سوى عن العمل وعن الوقت الضائع".

[1] يعني الحصار الأسطوري لمدينة طروادة.

"وما عساي أن أقول عن الهلاك الذي قد نوقع فيه أنفسنا بتأجيل هذه الحرب ؟ ذلك الهلاك الذي لا يحق لنا الاستخفاف به من بعد كل المشاورات التي تتم ببلاد الإتريسك من أجل الهبوب لمساعدة العدو. في الظروف الحالية ما تزال تلك الشعوب غاضبة ومستاءة من عدونا وترفض مساعدته. وإلى حين حسم أمرها معه، فلكم فسحة لاحتلال مدينته. لكن من يضمن لنا أن تبقى تلك الشعوب على موقفها الحالي إن نحن أجّلنا الحرب ؟ إن أنتم أوقفتم الحصار فستفتحون الطريق لمرور العديد من البعثات الهامة بينها وبين عدونا. ومع مرور الوقت يمكن للملك الذي يُغضب اليوم شعوب الإتريسك أن يُخلع بإرادة شعبه حتى يحصل على رضا باقي الشعوب، أو يتنازل هو طوعا عن العرش حتى لا يظل عائقا دون نجاة مملكته".

"وها أنتم ترون الآن كل المصاعب والمخاوف التي ستترتب عن أي وقف لحصار العدو، والذي تُنصحون به. إن أنتم قبلتم به فسترون خسارة كل تلك الأشغال المنجزة بكثير من العناء، علاوة على نهب العدو لبوادينا الذي لا مفر منه، والتعرض للحرب مع كل شعوب الإتريسك بدلا من الحرب فقط مع العدو المحاصر اليوم. ستكون تلك هي ثمرات نصائحكم يا معشر نواب العوام. بحق هرقل، إنني لأرى فيكم مثل رجل مريض لا علاج له سوى بدواء قاسي ومر، لكنه يتركه ويلقي بنفسه للتهلكة بسبب أخذه مكان ذلك العلاج أعشابا أو شربة فقط لأن طعمها حلو".

"ثم بغض النظر عن فوائد ومنافع ذلك الحصار، فالانضباط العسكري يحتم علينا ألا نعوّد جنودنا على القناعة بالانتصارات السهلة. وذلك حتى يتحملوا الملل في حال ما طالت الحرب ويتعودوا على القبول بتأخر آجال تحقيق آمالهم. وحتى لا يستنكفوا من ضرورة استمرار الحرب في الشتاء إلم تحسم في الصيف، فيكونون كتلك الطيور التي ما يحل فصل الخريف حتى تجدها تبحث هنا وهناك عن ملاجئ لتبني فيها أعشاشها. ثم كيف، من فضلكم ؟ متعة الصيد تجر الرجال للغابات والجبال بالرغم من الثلج والصقيع. فكيف لا تجد فينا ضروريات ومتطلبات الحرب مثل ذلك العزم والصبر الذي يتحملهما الصياد من أجل مجرد المتعة والتسلية ؟".

"سيخجل الجنود من قبولك أيها الشعب بنصائح نواب العوام. سيعلنون بصوت عالي أنهم رجال أقوياء أرواحا وأجسادا، وقادرون على التحمل والصبر على الحرب صيفا وشتاء، ولم يكلفوا نواب العوام كي يدافعوا باسمهم عن الجبن والكسل. كما سيتذكرون أن آباءهم لم يؤسسوا النيابة عن العوام وهم قابعين وخاملين في ظل أسقف بيوتهم. فالذي يليق بقيمة جنودك أيها اشعب وبشرف وصفهم بالرومان هو عدم الاكتفاء بالنظر للحرب الحالية، بل البحث عن سمعة مرهبة لكل الشعوب وللقادم من الحروب. هل تعتقد أنه من الهين على أمن وطنك أن يستقر في ذهن جيرانك أنه يكفي كل مدينة أن تتحمل الصدمة الأولى من الجيش الرماني كي لا تخشاه من بعدها أبدا ؟ أليس الصواب في إثارة الرهبة في أنفس الأعداء لمجرد ذكر الرومان الذين لا يُنهي جيشهم حربا بدأها إلا بالنصر، من بعد تحمله لكل متاعب الحصار الطويل حتى في صقيع الشتاء ومن دون أن تفتر لا مثابرته ولا جسارته ؟".

"المثابرة ضرورية في كل الحروب، ولا سيما في حصار المدن التي لها تحصينات ومواقع طبيعية ذات مناعة وصلابة لا تقهر بالقوة. فقط طول الحصار وما يجلبه من جوع وعطش هو وحده القادر على التغلب عليها وإجبار أهلها على الاستسلام. الوقت وحده هو الذي سيقهر العدو، اللهم إذا ما تفضل نواب العوام وقدم له يد المساعدة التي ما يزال يبحث عنها من دون جدوى عند كل شعوب الإتريسك. بالفعل، ماذا بوسع العدو أن ينتظر أفضل من بداية تمرد بروما كي تتنقل عدواه للمعسكر ؟ بحق هرقل، العدو عنده اليوم قدر من الاعتدال لم يدخل عليه معه أي شيء جديد بالرغم من الملل من طول الحصار وحتى من الملكية. والعقول هناك بمدينة العدو لا تستطيع التعبير عن غضبها، لأن أول من يتزعم الاحتجاج يُعاقب على الفور بالموت. وليس لأحد أبدا الحق هناك أن يقول ما يُقال هنا بينكم من دون خوف".

"في جبهة القتال نعاقب بالجلد بالسياط الجندي الذي يتخلى عن العَلم ويغادر موقعه أو ينصح بذلك. أما هنا بروما فالذين ينصحون بالتخلي عن العلم ومغادرة المواقع، لا ينصحون جنديا أوجنديان، بل الجيش بأكمله. كما ترون وتسمعون فبوسعهم رفع أصواتهم علنا بذلك وسط جموعكم الغفيرة. هكذا عوّدكم نواب العوام على السماع لهم وبرضا منكم، سواء كانوا يحرضون على الخيانة أو يرغبون في الانقلاب على الجمهورية. ثم مبهورين ومعجبين بقوة نفوذهم تسمحون لهم بالتغطية على اقتراف الجرائم وحماية المجرمين. ما بقي لهم سوى الاحتجاج في وسط المعسكر، كما يفعلون هنا، لإفساد الجنود وتحريضهم على العصيان والتمرد. ذلك لأن الحرية بروما تعني عدم احترام لا مجلس الشيوخ ولا رجال الدولة ولا القوانين ولا تقاليد الآباء ولا مؤسسات الأسلاف ولا حتى الانضباط العسكري".

وتأمل معنا جيدا في هذا الخطاب وفي تلك العصور الغابرة هذين المقطعين حيث يقول ذاك الخطيب : "والعقول هناك في بلاد العدو لا تستطيع التعبير عن غضبها، لأن أول من يتزعم الاحتجاج يعاقب على الفور بالموت". ثم يقول "وليس لأحد أبدا الحق هناك أن يقول ما يُقال هنا بينكم بروما من دون خوف". فهذا الخطيب، وهو

من كبار البطريقيين، يتحسّر بقوله ذاك على ما انتزعه العوام بروما من حرية ومن حق في المعارضة للمطالبة بالمزيد العدل والمساواة. وتشعر في المقطع الأول وكأنه يغبط الكبار في بلاد العدو حيث الاستبداد لا يسمح بالمعارضة وحيث الشعب يُقاد كالقطيع. لكن بتوازن الرعب بين الفئتين الذي يسرته ظروف دولة في حجم مدينة وفي بيئة عدوانية كانت تحل الخلافات بالمرافعات الخطابية وليس بالاقتتال المدمر. والنصر فيها كان إلى جانب من كان أكقوى حجة مع أقوى حيلة.

ولن نتعبك بسرد كل تفاصيل قصة حصار مدينة ڤايس. سنقتصر فيها على المهم الذي له علاقة بالجانب السياسي. هكذا يقول تيت ليف : "لما كان أبيوس يخطب في جموع الشعب بالساحة العامة ليدافع عن الحصار ويهاجم نواب العوام، جاء فجأة خبر من جبهة القتال ينبئ في ظاهره بكارثة عسكرية ولكنه في الواقع وبشكل لا يصدق جاء ليحقق انتصار وجهة نظر أبيوس، من حيث عزز من التحام فئتي الشعب الروماني وضاعف من حماس وصمود الجنود المحاصرين لمدينة العدو. في لحظة غفلة من حراس الليل من بعد يوم أشغال متعبة فتح العدو أحد أبواب مدينته المحاصرة وانهال على الجيش الروماني ليفتك به. وخلال ساعة من الزمن تكبد الرومان خسائر فادحة. وما أن وصل الخبر لروما حتى زرع الرعب فيها وفي مجلس الشيوخ الذي كان يخشى العجز عن احتواء التمرد بالمدينة وبالمعسكر، بقدر ما كان يخشى من أن يستغل نواب العوام ذلك الحدث المؤلم ليتبجحوا به كانتصار وقع لهم على الجمهورية. لكن بمبادرة منهم تقدم فجأة الرجال من طبقة الخيالة لمجلس الشيوخ، يلتمسون منه السماح لهم بتجهيز أنفسهم والالتحاق بالجبهة لإنقاذ الموقف هناك".

"فـشكرهم المجلس بحرارة، ولم يتأخر خبرهم في الوصول إلى الساحة العامة وفي الانتشار في كل أرجاء المدينة. وهرع الشعب إلى مقر المجلس فسمع من أعضائه يقولون : "ها هي طبقة الخيالة تبادر بخدمة الجمهورية حيثما وجهها المجلس من دون انتظار دورها. ولو وجهها للمدينة المحاصرة فإنها تعدُ بأن لا تعود منها إلا من بعد احتلالها". حينها بالكاد تمكن السامعون من احتواء فرحهم الذي تجاوز الحدود. والتحم العوام والبطريقيون، وخرجوا متطوعين لنجدة جيشهم وإعادة بناء ما هًدم من منشآت على الجبهة، ولمد المعسكر وبصفة متواصلة بكل ما يحتاجه من تمويل".

"وبحلول السنة الموالية (402 ق.م.)، كان الحصار مستمرا وتم انتخاب نواب عسكريين جدد. إلا أنهم مع طول مدة الحصار وإيلافه بالغوا في منح الرخص لجنودهم وحتى في السماح لممارسة التجارة بالمعسكر ومن حول المدينة المحاصرة التي تعوّد أهلها على الوضع القائم فتراخت حراستهم لأبواب مدينتهم وصار جنودهم يخرجون منها للعناية بحقولهم وبفلاحتهم وللتبادل التجاري مع باقي المدن من حولهم. في تلك الغفلة من أهلها ومن جنودها دخلها فجأة الجيش الروماني واحتلها بيسر وبأقل خسارة في الأرواح. لكن الفرح بذلك النصر لم يدم طويلا. فقد تفاقمت الحرب بمجيء المساعدة لمدينة Véies من جيوش شعبين إتريسكيين. ثم تفاقمت أكثر بسبب الخلافات بين جنرالين رومانيين".

"هاجم الإتريسكيون فجأة المعسكر المحيط بالمدينة من الخلف. وبذلك انتفض أهالي المدينة بالداخل ضد الجنود المحتلين. فصار جنود المعسكر الأمامي يحاربون على جبهتين. وصار من الضروري أن تتوزع كل فيالق المعسكر الرئيسي على مختلف جبهات القتال لإنقاذ جنود المعسكر الذي احتل المدينة من ضربات المهاجمين من خارجها ومن ضربات المنتفضين من داخلها. إلا أن المعسكر الرئيسي كان تحت قيادة الجنرال ڤيرجينيوس الذي كان يكره زميله الجنرال Sergius المحارب للعدو على جبهتين. وكان هذا الأخير يبادله نفس الكره. فتعمّد الأول عدم التدخل بحجة أن غريمه لم يطلب منه المساعدة. والثاني تعمد الامتناع عن طلب تلك المساعدة حتى لا يعود له مجد الانتصار على العدو. هكذا بقي جنوده يتعرضون للتنكيل من كل جانب إلى أن تخلى الكثير منهم عن مواقعهم وفروا من المعركة حتى وصلوا إلى أسوار روما".

"فتقدم الغريمان يدافع كل منهما عن موقفه أمام مجلس الشيوخ. وكان الجنرال Sergius يُلقي باللائمة على زميله ڤيرجينيوس. وتفرقت آراء أعضاء المجلس بخصوص كل منهما، وغلبت على نقاشاتهم وخلافاتهم التحيزات الشخصية على حساب الحق والصالح العام. لكن الحكماء من بينهم فضلوا التوقف عن الفصل فيما بين الجنرالين واقترحوا إنهاء ولايتهما وتعويضهما بانتخاب نواب عسكريين جدد. ولم يجد ذلك الاقتراح اعتراضا سوى من نفس الجنرالين المتسببين في الأزمة. وجدا في تعويضهما قبل نهاية ولايتهما مهانة لهما، وفي القبول به تضحية بشرفهما، فكانا غير مستعديْن لتحملها".

"حينها استعاد نواب العوام كل جرأتهم ليهددوا النائبين العسكريين بالسجن إن هما أصرا على رفض الإذعان لرغبة مجلس الشيوخ. فأخذ أحد كبارا النواب العسكريين من البطريقيين الكلمة وقال : "يا نواب العوام، أنا أؤيد دعمكم لمجلس الشيوخ، لأن مقاومته جريمة. لكن هذا لا يعني أن لكم الحق في تهديداتكم. فكفوا عن استغلال فرصة الشقاق بيننا

نحن البطريقيين لتقوية نفوذكم. أما بخصوص زميلينا فعليهما الإذعان لطلب مجلس الشيوخ وإلا عيّنا ديكتاتورا ليرغمهما على ذلك". فنال رأيه القبول العام ولا سيما بالنظر لما كان فيه من إعفاء مجلس الشيوخ من الاستعانة بنواب العوام. وأذعن أخيرا النائبان العسكريان واستدعيا جموع الشعب الترابية لانتخاب النواب العسكريين الجدد قبل نهاية ولايتهما. ولما تم الانتخاب تنازلا عن منصبيهما. وفور توليهم مناصبهم أخذ النواب العسكريون الجدد في محو آثار الكارثة العسكرية التي تسبب فيها الجنرالان ڤيرجينيوس وڤيرجينيوس. فاستعادوا المعسكر الذي فقدوه بمدينة Véies وأقاموا من حوله قلاعا وثكنات عسكرية لحمايته. وصار الجيش الروماني ينهب ويحرق محاصيل أراضي حلفاء العدو الذين هاجموه من قبلُ لكن من دون لا الهجوم على مدنهم ولا حصارها".

"لكن في ظل نفس النيابة العسكرية الجديدة تعقدت الأمور. بالخارج، تعددت جبهات القتال بالشمال والجنوب. وبالداخل كثرت الاضطرابات بسبب تزايد التجنيد وما ترتب عنه من زيادات في الضرائب لأداء رواتب المجندين، وبسبب انتخابات غير قانونية لبعض نواب العوام، علاوة على المتابعة القضائية للجنرالين ڤيرجينيوس وڤيرجينيوس في قضية ما حصل في حصار مدينة Véies. متطلبات الحرب أوجبت المزيد من التجنيد الذي طال حتى من تجاوزت أعمارهم سن الخدمة العسكرية. وبما أن كل الجنود أصبحوا يتقاضون رواتب، وجبت الزيادة في الضرائب على من بقي في المدينة الذين كانوا علاوة على ذلك مكلفين بحمايتها. فكانوا من دون غيرهم يؤدّون ثمن الحرب مضاعفا بأجسادهم وأرواحهم وبأموالهم.".

"فوجد نواب العوام في الأمر فرصة للاحتجاج على البطريقيين. صاروا يتهمونهم علنا وهم يقولون : "ما ابتكر البطريقيون دفع رواتب للجنود سوى لإرهاق جزء من الشعب بالحروب والجزء الآخر بالضرائب. دامت الحرب ثلاث سنوات ويجري تمديدها باستمرار بتعمد ارتكاب هفوات متتالية. هكذا ظلت تتراكم حتى صارت أربع حروب مرة واحدة كلفت تجنيد من هم دون السادسة عشر من العمر ومن تجاوزت أعمارهم الخمسين سنة. ومنذ مدة لم يعد هناك فرق بين الصيف والشتاء في البقاء في حالة الحرب، خشية من أن يجد هذا الشعب فرصة للتنفس. وها هم البطريقيون يثقلونه بالضرائب. هكذا لما يعود الجنود إلى بيوتهم منهكين بالإعياء والجراح وثقل سنين الحرب لن يجدوا سوى الخراب الذي طال ما تركوه من ورائهم من ممتلكات بسبب طول غياب عنايتهم بها، علاوة على ما ترتب عليهم من ديون جبائية. فرواتب الجنود التي قُدمت كسخاء من البطريقيين ما هي في المحصلة سوى قروض وجب تسديدها للجمهورية مع فوائد فاحشة. وفي أعقاب ذلك الاحتجاج اللاذع عمد النواب العسكريون الجدد والمنتصرون في تلك الحروب إلى التكفير عن تداعياته الاجتماعية باقتراح قانون إصلاح زراعي، كما أوقفوا قبض الضرائب. حصل ذلك في وقت كانت الحاجة ماسة لأداء رواتب عدة جيوش، وكانت روما ما تزال لم تحقق مرادها من كل تلك الحروب بالرغم مما حققته فيها من انتصارات".

والإصلاح الزراعي يعني توزيع الأراضي على العوام. وهو الأمر الذي كان يمقته البطريقيون لأنهم كانوا يملكونها أو كانت من نصيبهم لوحدهم كغنيمة حرب. فكيف به يُقترح من نائب عسكري بطريقي ومن دون ضغط من نواب العوام ؟ ثم ما هي الأرض المستهدفة بذلك الإصلاح، ولا سيما في غياب أراضي محتلة جديدة ؟ لم يذكر لنا تيت ليف مآل ذلك المقترح الذي ما كان ينقصه سوى عرضه لتصويت الشعب كي يمر. أما عن إيقاف أو تعليق قبض الضرائب وفي وقت كانت الحاجة ماسة لأداء رواتب عدة جيوش، كما جاء في النص، فلم يقل لنا تيت ليف كيف تم حل ذلك الإشكال. لكن مثل هذه الأمور الغامضة تُترك للباحثين. أما نحن فيكفينا كشف الغطاء عن معالم نظام الحكم العريق بروما وهو الشبيه بأنظمة الحكم الحديثة.

فيقول تيت ليف : "في خضم ذلك الاحتجاج على الزيادة في الضرائب، حدث أن تم انتخاب نواب العوام فأسفر عن اختيار عدد أقل من العدد عشرة القانوني. وضدا في قانون Trébonia[1] عمد البطريقيون إلى تشجيع النواب المنتخبين على استكمال العدد المطلوب بأعضاء من اختيارهم. وعملوا حتى على أن يكونوا هم البطريقيون، وضدا في القانون مرة أخرى، من بين من يُستكمل بهم ذلك العدد. وبما أنهم لم يفلحوا في ذلك تمكنوا على الأقل من أن يجعلوا الاختيار يقع على أفضل صنائعهم من العوام. وشاء القدر أن يكون Gnaeus Trébonius من نواب العوام المنتخبين هذه السنة. وهو الذي باسم شرف أسرته أخذ على عاتقه الدفاع عن قانون Trébonia الذي كان من صنع أجداده والمحرّم لما حصل

[1] الذي يمنع نواب العوام من انتخاب نوابا غيرهم لاستكمال عددهم العشرة. بل يقضي القانون باستئناف الاقتراع اليوم التالي حتى تنتخب هيئات العوام الترابية كل النواب.

من استكمال عدد النواب من خارج الاقتراع العام. فقام في الناس خطيبا ليقول : "إذا كنا قد استطعنا دفع هجوم بعض البطريقيين على حقوقنا فقد استكمل النواب العسكريون ذلك الهجوم. حصل ذلك بالانقلاب على القانون لما انتُخب ما تبقى من نواب العوام ليس من طرف جموع الشعب بل من طرف النواب الذين اختارهم الشعب وبأوامر وتعليمات من البطريقيين. إذا ما تحملنا ذلك الانقلاب على القانون وقبلنا به، فلن يوجد منذ الآن سوى بطريقيين أو صنائع البطريقيين في مقام الدفاع عن حرية شعب العوام. وهكذا بنسف مؤسسة النيابة عن العوام سيتم نسف ما تبقى من حقوق انتزعها أجدادنا لما اعتصموا بالجبل المقدس". ثم وهو يدين مناورات البطريقيين، لم يستثني من هجومه زملاءه المتواطئين معهم، واصفا تصرفاتهم بالخيانة المقيتة".

"بذلك الخطاب والموقف من النائب Trébonius، اشتد الحقد ليس فقط على البطريقيين بل على كل نواب العوام، سواء كانوا ممن شاركوا في الانقلاب على قانون Trébonia أم من الذين استفادوا منه. وللتعمية على خيانتهم والتكفير عن خطيئتهم انبرى ثلاثة منهم لرفع دعوى قضائية بتهمة تهديد أمن الدولة ضد الجنرالين ڤيرجينيوس وڤيرجينيوس اللذيْن تسببا سابقا في فشل الحصار على مدينة Véies. بذلك تمكنوا من صد الغضب الذي كان يحوم من فوق رؤوسهم. وبه استطاعوا التخفيف من أسى الشعب على متاعب التجنيد وعلى تواصل الخدمة العسكرية وطولها وعلى ما ترتب عن تعدد الحروب من زيادة في الضرائب، وعلى مأساة ما حصل بسبب فشل الحصار على مدينة Véies، من مقتل أب أو ابن أو أخ أو قريب أو جار".

"برفعهم لتلك الدعوى القضائية ضد الجنرالين ڤيرجينيوس وڤيرجينيوس كانوا يتبجحون بكونهم الوحيدين الذين أعطوا الشعب الوسيلة كي ينتقم لما أصابه من كل أنواع الظلم والضيم العام والخاص. وبالرغم من كونهم مقتنعين بأن المتهمين لم يكونا السبب في كل تلك المآسي، أصروا على إثقالهم بتهم أكبر من تلك التي اعترفا بها. ومما زاد في إدانتهما أنهم ظلا يتقاذفان التهم فيما بينهما، من حيث كان ڤيرجينيوس يتهم Sergius بالجبن والتخاذل، وكان هذا الأخير يتهم زميله بالخيانة".

"وقد كان في تصرفاتهما جنون وخبل لا يصدق ولا يفسر سوى بافتراض وجود اتفاق سري بين كل البطريقيين على التآمر ضد العوام. أليس من الوارد جدا أن هؤلاء الذين، من أجل تمديد أمد الحرب، تعمدوا السماح للعدو بتخريب منشآت الجيش من حول المدينة المحاصرة، هم نفس الجنرالات الذين تعمدوا من قبل السماح لعدو آخر باحتلال معسكر جيشهم ؟ وكل هذا كي تُبدد قوة الشباب الشجعان بالبقاء أبدا تحت أسوار المدينة المحاصرة، وكي يُحرم نواب العوام من دعمهم بروما ومن مساندتهم في ترجيح كفة الدفاع عن قانون توزيع الأراضي على المستضعفين من الشعب وعن غيره من الحقوق المستحقة ؟".

"بسبب كل تلك الاعتبارات وغيرها، كانت قضية الجنرالين ڤيرجينيوس وSergius المتهمين بالتخاذل في الحرب السابقة محسومة ضدهما سلفا من طرف مجلس الشيوخ والشعب وحتى من طرف زملائهم. وبالرغم من تلك السمعة السيئة بقيت لهما الجرأة على المثول أمام محكمة الشعب. كانا يعتقدان أنهما بمنأى عن كل خطر وأن إجبارهما منذ شهرين على التخلي على منصبيهما كان عقوبة كافية للتكفير عن خطاياهما. لم يخطر ببالهما أن تنحيتهما تلك كانت مجرد إجراء فرضته ضروريات أمن الدولة وليس بعدُ عقابا لهما على أفعالهما. أما الشعب الروماني فلم ينسى الرعب الذي أصابه جراء تلك الكارثة البشعة لما رأى الجيش كله على أبواب روما وهو يلهث هاربا من المعركة ومثخنا بالجراح ومخضبا بالدماء. وما كان يلوم في كل ذلك حظه ولا الآلهة وإنما فقط هذين الجنرالين الماثلين في ذلك اليوم أمام محكمته. فحكم عليهما بغرامة مالية ثقيلة، ونُسيت في خضم ذلك قضية الانقلاب على قانون Trébonia الذي اختير بسببه بعض نواب العوام من خارج الاقتراع العام". واستغل نواب العوام مناسبة إدانة الجنرالين المدانين للتنديد بتحيز فئتهم للبطريقيين كل مرة حين انتخاب نواب عسكريين. وصاروا يطالبونها بتجريب الرجال من بينهم لتقلد ذلك المقام الرفيع في الجمهورية. ونجحوا بالفعل في استمالتها فانتخبت لأول مرة مرشحا من العوام لمنصب النيابة العسكرية. وذلك من بعد خمس وخمسين سنة على إحداث تلك المؤسسة. فكيف حصل ذلك ؟

انتخاب أوئل النواب العسكريين من بين العوام

يقول تيت ليڤ : "بما أن النواب العسكريين كانوا يعترضون على قبض الضرائب لم يتوصل الجنرالات برواتب الجنود الذين كانوا يطالبون بها بصوت عالي. فكادت عدوى التمرد تنتقل إلى المعسكر. في خضم تلك الاضطرابات ضد البطريقيين انبرى نواب العوام ليطالبوهم مرة أخرى بالسماح لهم باقتسام السلطة معهم. كانوا يقولون : "لقد حان الوقت لتثبيت الحرية وتسليم منصبي الجنرالين المقالين ڤيرجينيوس وSergius للرجال المستحقين لذلك الشرف من العوام". لكن

بالرغم من جهودهم لم يستطع الشعب، من أجل تحقيق وتجسيد حقه في السلطة، أن ينتخب بمحض إرادته أكثر من رجل واحد من العوام نائبا عسكريا بسلطات قنصلية، والبقية كانوا كلهم بطريقيين[1]. بل الشعب نفسه كان مندهشا من إنجازه ذاك. ولم يكن أقل اندهشا منه الرجل من العوام المنتخب نائبا عسكريا. وهو الذي لم يسبق له أن تقلد من قبلُ منصبا في الدولة. كان سيناتورا سابقا ومتقدما في العمر. لم يعرف لماذا نودي عليه من دون غيره ليكون أول من يتذوق من بين كل العوام حلاوة بدايات ولوج ذلك المقام الرفيع. قيل أن ذلك التشريف راجع لكونه أخا للنائب العسكري الذي ضاعف السنة الفارطة ثلاث مرات رواتب الخيالة. وقيل أيضا أن اختياره يعود لما كان له من سابق فضل في التوفيق بين البطريقيين والعوام. وبفرحهم بذلك الانتصار كف نواب العوام عن عرقلة الأمور وعن الاعتراض على الاستمرار في قبض الضرائب". وأنت محق حين تتساءل أولا كيف يمكن أن يكون رجل من العوام سيناتورا سابقا، ومجلس الشيوخ لا يلجه سوى البطريقيون، ثم أن يكون أخا لنائب عسكري سابق، وحتى ذلك اليوم لم يسبق أن كان نائبا عسكريا أحد من العوام. ونستغرب معك إن صحت الترجمة الفرنسية لكتاب تيت ليف[2].

ثم يقول تيت ليف : "انتهت ولاية أول نائب عسكري من العوام من دون مشاكل تذكر. فابتهج به الناس من فئته بقدر ما كان البطريقيون راضين عنه. وأُخذ كل روماني بسحر انتخاب النواب العسكريين هذه السنة من بين العوام. ولما حل موعد الاقتراع (سنة 399 ق.م.)[3]، فقط مرشح بطريقي واحد حظي بأصوات الناخبين، وبقية الفائزين بمناصب النواب العسكريين كانوا كلهم من العوام".

"وعُرفت تلك السنة بفصل شتاء بارد جدا، قُطعت معه الطرق وسبل المواصلات البرية والمائية. لكن من حسن الحظ كان مخزون التمويل بروما هائلا توقعا لمثل ذلك الطارئ، فلم ترتفع أثمان المواد الغذائية. لكن في أعقاب ذلك جاء فصل الصيف بأوبئة هلكت الحرث والنسل. ومع قلة الحيلة أمام تلك الكارثة أصدر مجلس الشيوخ مرسوما يقضي بإقامة موائد غذائية للآلهة علّها تكف غضبها عن روما، واستُدعي لها بداخل البيوت وخارجها كل من حضر من مواطنين ومن أجانب ليأكلوا منها ما لذ وطاب. وسُرّح المعتقلون مع الوعد بضمان حريتهم من بعد أن أعتقتهم الآلهة. وتم إُعلان الوئام بين كل الناس والسلام مع كل الشعوب المجاورة". لكن علاوة على تلك الكارثة الطبيعية، تشجعت مدينة Véies وحليفتيها من الإتريسك على شن هجوم آخر على معسكر الرومان الذين ردوا الهجوم ومزقوا العدو شر ممزق حتى أن أهالي المدينة أقفلوا أبوابها في وجه الهاربين منهم إليها خوفا من دخول الرومان معهم وتركوهم فريسة للقتل والتنكيل.

ثم يقول تيت ليف : "مع انتخاب النواب العسكريين السنة الفارطة كلهم من العوام، عدى واحد كان من البطريقيين، خاف هؤلاء، ليس فقط من اقتسام السلطة مع خصومهم، بل خشوا من فقدانهم للسيادة كلية على روما إن انتُخب مرة أخرى كل النواب العسكريين بسلطات قنصلية فقط من العوام. فرشحوا للاقتراع أفضل رجالهم الذين ما كان يُتوقع أن يُرفض منهم أحد. وشاركوا كلهم في الحملة الانتخابية وكأن كل واحد منهم كان مرشحا. وكانوا في تلك الحملة يستعملون سلطان الدين ليخوّفوا به جموع الناخبين من عودة ما حصل السنتين الفارطتين من كوارث، وهم يزعمون أن السبب فيها كان هو غضب الآلهة من انتخاب العوام للنيابة العسكرية. ولتجنب انتقامها مرة أخرى كانوا يقولون في خطبهم : "السنة الأولى عرفنا شتاء قاسيا وغير مسبوق، وكان ينبئ بكارثة قادمة. والسنة التي تلتها جاءت بالفعل العواقب من بعد التهديد. فضربت الحاضرة والبوادي جائحة الطاعون كعلامة على غضب الآلهة من تلك الاقتراعات التي تم فيها تسليم المقامات العالية للعوام وتم بذلك الخلط بين الفئتين. ولإنقاذ روما توجّب حينها على الكهنة تهدئة غضب الآلهة باستعمالهم لكل ما جاء في وحي كتب القدر". ثم بفضل علو شأن ومقام المرشحين وخوفا من غضب الآلهة، الذي لوح به البطريقيون للعقول في الحملة الانتخابية، عاد الشعب مرة أخرى (سنة 398 ق.م.)[4] للتصويت على مرشحيهم للنيابة العسكرية من دون ولا مرشح واحد من العوام".

---

[1] سنة 400 ق.م.وهي السنة 110 من عمر الجمهورية الرومانية

[2] وحتى لا تشك في صحة ترجمتنا للغة العربية فهذا هو نص الترجمة باللغة الفرنسية :

....et le plébéien nommé, étranger jusque-là aux fonctions publiques, ***ancien sénateur****, et déjà vieux, n'était pas moins surpris... Selon les uns, ce qui lui valut cet honneur, ce fut le crédit de Gnaeus Cornélius,* ***son frère, qui, tribun militaire l'année précédente****, avait donné triple solde à la cavalerie.*

[3] وهي السنة 111 من عمر الجمهورية الرومانية

[4] وهي السنة 112 من عمر الجمهورية الرومانية

ولا بد من التوقف عند هذا الاستعمال للدين في السياسية من أجل السلطة والجاه والثروة. البطريقيون كانوا تعتقدون بأن أرواح موتاهم هم الآلهة، وأنها كانت لها نفس المواقف السياسية من طبقة العوام، وكانت لا ترضى إلا بما يرضي البطريقيين ولا تغضب ولا تنتقم من كل المدينة إلا لما يُغضب البطريقيين. وهذا الاعتقاد، كان ينطلي حتى على عامة العوام، لكن ليس على خاصتهم كما رأيت بمناسبة اقتراح الزواج المختلط. وظل ذلك هو الحال بالنسبة لاستعمال كل الأديان الوثنية والسماوية في السياسة من أجل الاستفراد بالسلطة والجاه والثروة.

ثم يقول تيت ليف : "في ولاية هؤلاء النواب العسكريين الجدد حصلت عدة خوارق طبيعية لم تلقى كلها كبير اهتمام، ما عدا ارتفاع مستوى مياه بركة بغابة ألبا جنوب روما وبشكل غير مسبوق. وما كان هناك شيء من عوامل الطبيعة يفسره. فحيرت تلك الظاهرة عقول كل الرومان وتطيروا بها فأل شؤم رهيب ومخيف. وللتيقن من تأويله أرسلوا مبعوثين لعراف ديلف باليونان". وقد أورد المؤلف تفاصيل قصة هذه الظاهرة الخارقة في صفحات عديدة لا فائدة من ترجمتها نظرا لطولها. وملخصها هو أن شيخا من الإتريسكيين المشهورين بتأويل الخوارق، أوّل تلك الظاهرة بقوله للرومان أن الآلهة تقول لهم أن سقوط مدينة Véies المحاصرة منذ سنوات لن يتم إلا من بعد تفريغ تلك البركة من مياهها بتصريفها عبر قنوات في البوادي المجاورة. ولما عاد المبعوثون لعرّاف ديلف باليونان، جاؤوا منه بتأويل متطابق مع تأويل الشيخ الإتريسكي. لكن ما كان يكفي مجرد تفريغ البركة من مياهها كي تسقط مدينة Véies المحاصرة. بل وجب، بحسب التقاليد الدينية، أن يتزامن تفريغها مع ما يلزم من طقوس تبارك بها الآلهة تلك العملية. وما كان ليقوم بتلك الطقوس سوى من ترضاه الآلهة. فرأوا أن أفضل رجل للقيام بتلك المهمة هو نفس الشيخ الإتريسكي وقد أصاب بتأويله الصائب رضا الآلهة عنه.

ثم يقول تيت ليف : "اكتشف أخيرا الرومان أنهم كانوا يُذنبون في حق الآلهة بإهمالهم لما كان يلزم من طقوس قُبيل انتخاب النواب العسكريين. وما كان من سبيل للتكفير عن ذنبهم سوى إلغاء ولاية النواب الجدد وتعيين وصي على كرسي القنصلية في انتظار انتخاب نواب آخرين من بعد ظهور نتائج الاستقسام بالطيور.وفي خضم تلك الإجراءات التي استجوبت صدور مرسوم من مجلس الشيوخ انبرى نواب العوام يمنعون انعقاد جموع الشعب لانتخاب النواب العسكريين الجدد مشترطين للسماح بذلك أن يكون أغلب الفائزين من العوام. ثم حدث أن استعد الإتريسكيون من جديد للهجوم على أراضي روما، فخفت صوت نواب العوام وانتخب الشعب نفس النواب العسكريين خلال الولاية السابقة والتي كان فيها من بينهم شيخ من العوام. لكن النواب الجدد فشلوا في صد هجوم الأعداء، ولاذ معظم جنودهم بالفرار حتى وصلوا إلى أسوار روما التي خافت من انتقال عدوى ذلك الرعب للمدينة وللمعسكر المحاصر لمدينة Véies. لكن في المحصلة كان الخوف أكبر من الضرر لما استعاد قادة الجيوش قبضتهم على زمام الأمور". ثم سقطت أخيرا مدينة Véies المحاصرة مدة عشر سنين متتالية. وقد كانت من بين أعظم المدن الإتريسكية واقربها لروما واغنى منها وأفضل منها معمارا وتنظيما ومنافسة لها في القوة التي كانت تهدد وجودها. لكنها صارت مجرد مستعمرة رومانية. كيف سقطت وما كانت تداعيات سقوطها السياسية بروما ؟

سقوط واحتلال مدينة Véies المحاصرة

يقول تيت ليف : "تم تصريف مياه بركة غابة آلبا للبوادي المجاورة تنفيذا لمتطلبات ما جاءت به تأويلات العرافين اليونانيين والإتريسكيين. وكبر بذلك اعتقاد الرومان في اقتراب موعد سقوط مدينة Véies المحاصرة منذ سنين. فعينوا لتلك المهمة ديكتاتورا. بتغيير الجنرال تغير كل شيء. عاد الأمل والحماس للجنود، وباتت روما تترقب النصر الموعود. حتى لا يبقى الخوف أول ما يسيطر على عقل الجندي بدأ الديكتاتور بمعاقبة الجنود الذين، مع انتشار الذعر، فروا من المعسكر المرابط أمام المدينة المحاصرة. ثم شرع في التجنيد الذي استجاب له عن طواعية ليس فقط الرومان بل حتى الحلفاء من اللاتين والهنريك. وقام بما يلزم من الطقوس الدينية قبل شن الهجوم الأخير على مدينة Véies لإسقاطها".

"بدأ حملته بالهجوم على حلفاء العدو التقليديين واستولى على معسكراتهم وغنم منهم غنائم هائلة. سلم أكبر قدر منها لخازن الدولة ووزع الباقي على الجنود. ثم توجه بجيشه إلى Véies حيث عزز المواقع القائمة وبدأ في حفر نفق في الأرض يمر من تحت أسوار قلعة العدو المحصنة والذي ألزم فيه الجنود بالعمل ليل نهار وبالتناوب بين ست فرق. كل فرقة كانت تعمل لست ساعات متواصلة".

"صار الديكتاتور يتصور أن النصر قد أصبح بيده وأن المدينة قد أصبحت تحت حكمه وأن الغنائم التي سيحصل عليها جيشه ستكون أكبر من كل ما غنمه الرومان في كل حروبهم السابقة. وخوفا من التقتير في توزيع تلك الغنائم الذي يُغضب الجنود ومن السخاء الذي يُغضب البطريقيين، كتب لمجلس الشيوخ يقول : "بحق رحمة الآلهة، وبحق مثابرة جنودنا وما بذلوه من جهد، ستسقط Véies قريبا بيد الشعب الروماني، فماذا يريد مجلسكم أن نفعل بالغنائم ؟"". بالنسبة لنا، يُعد هذا الحدث من بين أروع ما تقرأ في تاريخ الرومان. ديكتاتور بصلاحيات واسعة وسلطة شبه مطلقة، ولو لفترة ولاية محدودة، يخشى ما يتوقعه من غضب الشعب بفئتيه من بعد انتصاره في الحرب، بسبب سوء توزيع غنائمها المحتمل. هذا الحدث يلخص لك حصيلة كل ذلك الصراع السياسي الطويل والمرير بين حزب العوام المستضعفين وحزب البطريقيين المترفين من أجل اقتسام السلطة والثروة بالعدل بين الفئتين.

ثم يقول تيت ليڤ : "توزع مجلس الشيوخ بين رأيين. أحدهما كان يقترح إصدار مرسوم باسم الجمهورية يدعو كل من يريد نصيبا من الغنائم المتوقعة بسقوط مدينة Véies ما عليه سوى التوجه للمعسكر المقام بجوارها. وثانيهما كان يعارض ذلك السخاء باعتباره غير مسبوق وغير عادل بالنظر لما سيكون فيه من إسراف وتهور. كان يقول أنه إذا ما كان في دفع تلك الأموال المأخوذة من العدو للخزينة جريمة ضد الشعب المتعب بالعديد من الحروب، فيجب رصدها لأداء رواتب الجنود، وبذلك يخف الضغط الضريبي على المواطنين ويعم خيرها كل الأسر، فلا تسلب الأيادي العاطلة والمفترسة مستحقات وأجور المقاتلين الذين يكونون عادة أقل سرعة للنهب، والمستجيبون دائما للنداء لمّا يتعلق الأمر بمواجهة المتاعب والمخاطر".

"فجاء المعترض على الرأي الثاني ليقول : "سيظل توزيع تلك الأموال دائما مشبوها ومقيتا، ومدعاة لتوجيه التهم أمام الشعب ولإثارة الاضطرابات والتمرد. فمن الأفضل استجلاب رضا الشعب بذلك السخاء الذي من شأنه أن يخفف من فقره ومن تبعات ضغط الضرائب عليه مدة طويلة. فلعل المواطنين يجدون في نهب تلك الغنائم مكافأة على تحملهم لمتاعب طالت حتى شاخوا فيها. وبنهبهم بأيديهم للقليل من العدو سيكونون أكثر بهجة وفرحا من قبضهم للكثير ككرم من يد غيرهم. جاء الديكتاتور يستشيرنا كي لا يتعرض هو للحقد واللوم. فعلى مجلس الشيوخ بدوره وضع الأمر بيد الشعب وترك كل مواطن يأخذ من تلك الغنائم ما تمنحه له حظوظ الحرب". كان هذا الرأي هو الأفضل كي يكسب مجلس الشيوخ شعبية يقينا. فأصدر مرسوما يسمح لكل من يريد المشاركة في نهب مدينة Véies بالالتحاق بالمعسكر كي يكون تحت أمر الديكتاتور[1]. فانهالت على المعسكر جموع غفيرة من الرومان حتى ملئ بهم المكان. ومن بعد الاستقسام والأمر بأخذ السلاح قام الكهنة ليستنجدوا حتى بإله المدينة المحاصرة واعدين إياه بترحيله لروما من بعد النصر لِيُبني له فيها معبد يليق بمقامه وبجلاله". وملخص أحداث سقوط مدينة Véies سنة 396 ق.م. أجمله تيت ليڤ بقوله : "بالعودة لذلك اليوم، فقد مُلئ كله بتقتيل وتمزيق العدو وبنهب مدينته المنغمسة في الترف". بذلك نعفيك من ترجمة تفاصيل سقوطها التي لا تعنيك بقدر ما تعنيك قصة الحرية والتجاذبات السياسية التي كانت تتسبب فيها.

فيقول تيت ليڤ : "في اليوم التالي باع الديكتاتور أسرى العدو في المزاد العلني. وكان ثمنهم هو المال الوحيد الذي دفعه لخزينة الدولة. غضب الشعب من ذلك. وكما وعد كهنة الجنرال الروماني حُمل إله مدينة Véies إلى روما بكل ما يليق به من إجلال ووقار من طرف شبان لبسوا الأبيض خصيصا لتلك المناسبة. وأقيم له معبد بجبل l'Aventin حي ومعقل العوام. هكذا سقطت بيد الرومان المدينة التي ظلت محاصرة طيلة عشرة فصول صيف وعشرة فصول شتاء متتالية. وهي المدينة الأكثر انغماسا في الترف من بين باقي مدن بلاد الإتريسك. سقطت بفضل الأشغال الفنية من بعد فشل الأسلحة في إخضاعها. ووفق القانون المؤسس لمنصب الديكتاتور تنازل الجنرال المنتصر عن منصبه من بعد ما أتم بالتوفيق المهمة التي عين من أجلها وعاد إلى روما مظفرا واستقبل فيها بما يليق باستقبال الأبطال المرموقين الذين عرفهم تاريخ الرومان. حينها بعث الفولسك والإيك برسل يطالبون بالسلام الذي استجابت له روما ليس لأنهما استحقاه بل من أجل الراحة التي كان الرومان في حاجة إليها من بعد حالة الاستنفار في حرب دامت طويلا".

"وانتخب لولاية هذه السنة (395 ق.م.)[2] نواب عسكريون جدد، والذين كانوا كلهم مرة أخرى من البطريقيين. فقاموا بحرب على كل من مدينة Capène ومدينة Falisques الحليفتين التقليديتين لمدينة Véies. وبالنظر للخراب الذي

[1] وهي السنة 114 من عمر الجمهورية الرومانية

[2] وهي السنة 115 من عمر الجمهورية الرومانية

أصاب أراضيهما استسلمت Capène وطلبت السلام مع روما، فقُبل منها شريطة تحملها لدفع رواتب جنود الجيش الروماني طيلة سنة. وبقيت الحرب على مدينة Falisques متواصلة".



موقع كل من Capène وFalisques بالنسبة لروما

"ومع ذلك تضاعفت الاضطرابات السياسية بروما. لتهدئتها صدر من البطريقيين اقتراح بإنشاء مستعمرة ببلاد الفولسك من ثلاث آلاف مستوطن روماني مع مفوضين ملكفين بتوزيع ثلاثة فدادين[1] ونصف فدان لكل فرد. لكن ذاك السخاء سرعان ما فقد بريقه. اعتُبر مجرد إغراء لصد الشعب عن مطالب أكبر. فكان يقال : "لماذا إبعاد جزء من الشعب إلى بلاد الفولسك بدلا من مدينة Véies المحتلة منذ مدة، والقريبة والجميلة والتي أراضي أريافها أكثر خصوبة وأكثر فساحة من أراضي روما كلها". فقد كان الشعب يفضل الاستيطان بمدينة Véies حتى على روما نفسها، بفضل موقعها ورونق وفخامة ساحاتها العامة ومعمارها العمومي والخاص".

"بل ذهب الجدل إلى أبعد من ذلك، وهو هجرة كل الرومان للإقامة بمدينة Véies بدلا من روما نفسها. وهو الجدل الذي سيحتدم لاحقا وبقوة، من بعد احتلال وحرق روما من طرف قوم الڤول[2] les Gaulois. فتم اقتراح هجرة وتوطين نصف الشعب بمدينة Véies على أن يبقى النصف الآخر بروما، فيتشكل تراب الجمهورية الرومانية من المدينتين. عارض البطريقيون ذاك المشروع بقوة، وكانوا يقولون . "نفضل الموت على أن يقبل الشعب الروماني بشيء من ذاك القبيل. هناك ما يكفي من الاضطرابات بمدينة واحدة، فكيف ستكون الأمور لما تصبح الجمهورية مكونة من مدينتين ؟ من منا سيفضل المدينة المهزومة على المدينة المنتصرة، ويسمح بأن يصبح شأن Véies أعلى مما كان عليه لما كانت مستقلة ؟ لمواطنينا كامل الحرية في تركنا لوحدنا بوطننا، لكن لن يستطيع أحد إجبارنا على مغادرته لنتبع من يريد إعلاء شأن Véies، ونترك هنا روميلوس الإله وابن الإله والأب المؤسس لمدينة روما"".

"كان هذا الجدل يغلي في نقاش عنيف بسبب وجود العديد من نواب العوام الموالين للبطريقيين في مقابل خصومهم. فقط شيء واحد كان يحول دون تخضيب تلك الخصومات بالدماء. وذلك لما كان كبار السيناتورات يتدخلون للتو كلما ارتفع صوت ينذر بالعراك. لمنع الاقتتال بين الرومان كانوا يلقون بأنفسهم وسط الجموع ويعرضونها بذلك لمخاطر الضرب والجرح وحتى للموت. لكن أعمارهم المتقدمة وعلو مقامهم وشرفهم كانت تمنع المتخاصمين من رفع اليد عليهم. كان الحياء منهم في مثل تلك المواقف هو الذي يقف دون تحول الغضب إلى عنف".

"أما الديكتاتور السابق الذي سقطت بفضله وعلى يده مدينة Véies فقد كان يدور في كل مكان وهو يشتكي ويقول : "يجب الكف عن التعجب من الهديان الذي يصيب مدينة مرتبطة بديْن مقدس في ذمتها للآلهة، إلا أنها تفضل كل شيء على الوفاء به. فلا أتحدث عن صدقة، وإنما عن عُشر الغنائم الذي وعدتها به. الشعب قد أدّى ما في ذمته منه. لكن الذي يرفض ضميري السكوت عليه هو أخذ العُشر فقط عما حازه المواطنون من الغنائم المنقولة، ولا كلام عن عُشر عقارات المدينة المحتلة وأراضيها الذي وعدتُ به الآلهة كذلك". كانت تلك القضية محرجة لمجلس الشيوخ. فأرسل يستشير فيها الحبر الأعظم الذي استمع لشكوى الديكتاتور السابق وأيده. تقرر حينها تقييم قيمة المدينة وعقاراتها المعمارية والفلاحية ثم أمر المجلس النواب العسكريين بدفع عُشر القيمة ذهبا لمعبد الآلهة من خزينة الدولة. لما لم تكفي مدخرات الخزينة لتسديد ذلك المبلغ بادرت نساء الرومان للتبرع بحليهن من الذهب لإتمام ما تبقى من الواجب دفعه للمعبد. فما سبق أن سُرّ مجلس الشيوخ بمثل ذاك التطوع. وتم بذلك أداء ما يجب للآلهة".

---

[1] ومساحة الفدان هي 4200 متر مربع (م²) = 0,42 هكتار

[2] بلاد الڤول حينها هي فرنسا الحالية

"ومن بعد تهدئة الخواطر من تلك المخاوف الدينية، لم يسلم ما حصل من أجلها من انتقادات نواب العوام الذين عادوا بمقترح قانون الهجرة من روما إلى مدينة Véies المحتلة. امتد الجدل بخصوصه حتى نهاية السنة. وعزمت جموع العوام على انتخاب نفس النواب المتبنين لاقتراح ذاك القانون. عمد البطريقيون في مقابل ذلك إلى ترشيح نفس المعارضين له فتم انتخاب نفس التشكيلة تقريبا للنواب العسكريين العشرة في الولاية السابقة. لم يكتفي البطريقيون بذلك بل ضغطوا بنفوذهم حتى انتخب من بينهم الديكتاتور السابق Furius Camillus الملقب بـ Camille. كانت حجتهم في ذلك هي الحاجة لجنرال قوي من أجل القادم من الحروب. والحقيقة أنهم كانوا في حاجة لمعارض قوي لمطالب نواب العوام، الذين فطنوا لذلك فظلوا مستكينين في انتظار خروجه من روما لحرب Falisques . لكن تلك الحرب ما زادت خصمهم من بعدُ سوى مجدا وشهرة ونفوذا. بدأ العدو فعلا بالاحتماء في مدينته بأسواره ظنا منه أن ذلك كان هو الإجراء الأسلم. إلا أن الجنرال Camille أجبره على الخروج بتخريب أراضيه وحرق محاصيله الزراعية. ولم يبتعد كثيرا عن مدينته حيث أقام معسكرا في موقع وعر كان يظن أنه جد محصن[1]".

ونعفيك كالعادة من ترجمة باقي تفاصيل هذه المعركة الأولى من الحرب التي انتهت بانتصار الرومان وبحصار مدينة العدو المسماة Faléries. غضب الجنود من دفع الجنرال الغنائم لخزينة الدولة إلا أنهم ظلوا مع ذلك يكنّون له كامل التقدير. أما البقية فهي جد مثيرة وتستحق الترجمة بكل تفاصيلها. يتعلق الأمر بمنظومة القيم النبيلة التي كانت تسود العلاقات الاجتماعية بالداخل والعلاقات السياسية بالخارج. سبق لنا أن رأينا كيف تحرّج كبار البطريقيين من تحيز شعبهم لمصالح مدينتهم في قضية الفصل في نزاع بين حليفين لها. وظلوا محرجين إلى حين كفروا عن ذنب شعبهم بتعويض الطرف المظلوم في تلك القضية. أما هنا فنجد الجنرال يرفض نصرا على العدو بواسطة خيانة معلم لأبنائه ويرده خائبا إلى قومه كي ينتقموا منه. فماذا عن تفاصيل تلك الأخلاق النبيلة في الحرب ؟

من نبل الأخلاق في الحرب

فيقول تيت ليف : "كان من عادة العدو تكليف نفس المعلم بتعليم وبتربية أبنائهم مجتمعين في نفس الفصل. وهو تقليد ما يزال قائما باليونان حتى يومنا هذا[2]. كان المترفون يختارون لأطفالهم أفضل المعلمين دراية وشهرة. وكان من عادة ذاك المعلم في زمن السلم أن يخرج بتلاميذه من المدينة للتسلية وللتمارين. لكنه لم يعدل عن تلك العادة في زمن الحرب. ظل يخرج بهم غير بعيد عن أبواب المدينة. وفي يوم تقدم أبعد من ذلك واغتنم الفرصة المناسبة ليصل بهم حتى معسكر الرومان. ثم قادهم لخيمة الجنرال Camille. هناك أضاف لتصرفه الخسيس كلاما أكثر خسة لما قال : "إني أسلم للرومان مدينة Faléries بتسليمكم أبناء كبار رجالاتها". وما أن سمع الجنرال كلامه حتى رد عليه قائلا : "لن تجد هنا لا شعبا ولا جنرالا لئيما يشبهك ويأتي بهدية ذميمة كهديتك. ليس بيننا وبين قومك معاهدات. لكن ستبقى بيننا وبينهم معاهدات تفرضها الطبيعة ونلتزم بها. للحرب كما للسلم قوانينها وقواعدها، ونلتزم بها وفاء للعدل وبشهامة. لنا أسلحة، لكن لا نصوبها للأطفال ولا للضعفاء حتى حين نحتل المدن. بل نرفعها في وجه الرجال المسلحين مثلنا والذين يهاجموننا كما كان يفعل أهل Véies من دون أن نهينهم أو نستفزهم. أما أنت فتريد الهزيمة لقومك بجريمة غير مسبوقة. أنا سأنتصر عليهم كما انتصرت على شعب مدينة Véies بالإقدام والجهد والسلاح وفق ما يليق بالرومان". بعدها جرّد المعلم الخائن وقيّد يديه وراء ظهره وسلمه لتلاميذه، وأعطاهم سياطا ليجلدوه بها وهم يقودونه أمامهم ذليلا إلى مدينتهم Faléries".

"وما أن وصلوا حتى خرج قومهم مسرعين لرؤية ذلك المشهد الغريب. دعى مجلس شيوخ مدينتهم رجال الدولة لتداول خيانة رجل منهم ونبل موقف عدوهم منه. فحصل تحول في العقول جعل من هذه المدينة التي كانت تكن الحقد والبغض لروما تخجل من خسة مربي أبنائهم وشهامة الجنرال. فأجمعت على الصلح مع الرومان. وبالساحة العامة وبمقر المجلس ما كان من حديث سوى عن الإيمان الروماني وعن عدل الجنرال الذي باتفاق تام بينهم بعثوا إليه بسفرائهم إلى معسكره حيث حصلوا منه على الإذن بالتوجه إلى مجلس الشيوخ بروما لعرض استسلام مدينتهم Faléries لحكم الرومان".

"لما وصلوا إلى روما استقبلهم مجلس الشيوخ، وقالوا : "أيها الآباء، لقد انتصرتم علينا أنتم وجنرالكم بنصر يغبطكم عليه كل إله وكل بشر. نستسلم لكم بيقين منا أننا سنكون أكثر سعادة في ظل حكمكم من العيش في ظل قوانيننا. بحصول تلك الحرب وهب القدر للبشرية مثالين نبيلين. أنتم فضلتم الوفاء والأمان في الحرب على نصر محقق. ونحن المبهورون بوفائكم، وافقنا عن طواعية منا على نصركم. نحن تحت أمركم. ارسلوا لتأخذوا منا الأسلحة والرهائن وحتى

---

[1] السنة 116 من عمر الجمهورية الرومانية (394 ق.م.)
[2] حتى زمن المؤلف تيت ليف (ت 17م).

المدينة التي فتحت لكم أبوابها. لن تشتكوا أبدا لا من وفائنا ولا من ولائنا لكم بقدر ما لن نشتكي يوما من حكمكم لنا". فأقيمت للجنرال Camille احتفالات تليق بإنجازاته الباهرة التي اشترك فيها العدو المستسلم والمواطنون الرومان. ولتخفيف الضغط الضريبي على الشعب الروماني فُرض على قوم Falisques دفع رواتب الجنود طيلة تلك السنة. فعقد معهم السلام وعاد الجيش لروما. ومن بعد مدة خرج في حرب على الإيك، وعاد النصر فيها للرومان، وقضي فيها تماما على جيش العدو". لكن ما كان من شأن ذلك أن يهدئ الصراع بين الحزب البطريقي الحاكم وحزب العوام المعارض. فتجدد الصراع بينهما بخصوص الانتقال من روما للعيش بمديمة ڤايس المحتلة.

تجدد الصراع العمودي بين الحزب المعارض الحزب الحاكم

يقول تيت ليف : "وكان نواب العوام العشرة منقسمين بين أصحاب مشروع قانون الهجرة لمدينة Véies من جهة والمعارضين لهم بتواطؤ مع البطريقيين من جهة ثانية. لما لم يستطع بعدُ الفريق الأول إتمام مساعيه خلال هذه الولاية المنتهية عزم العوام على إعادة انتخابهم للولاية الموالية. للرد على ذلك المسعى عمل البطريقيون كل ما في وسعهم لإعادة انتخاب نواب العوام الموالين لهم. إلا أن نتيجة الاقتراع كانت لصالح مسعى العوام. للانتقام من تلك النتيجة الصادمة استصدر البطريقيون من مجلس الشيوخ مرسوما يقضي بانتخاب قنصلين[1] بدلا من نواب عسكريين[2]. وكانا الأكثر مقتا عند العوام. تم انتخابهما سنة 393 ق.م. [3] كقنصلين جديدين لأول مرة من بعد خمسة عشر سنة متتالية كان الحكم فيها يؤول دائما للنواب العسكريين".

"ولما أصبحت جماعة نواب العوام العشرة خالية من المعارضة الموالية للبطريقيين، صارت تطالب بصوت جد عالي بالمصادقة على قانون الهجرة لمدينة Véies. الأمر الذي تصدى له القنصلان بكل قوة. فزاد ذلك من غضب العوام عليهما. واستغله نوابهم ورفعوا دعوى قضائية أمام الشعب ضد نائبين سابقين منهم بتهمة موالاة البطريقيين على حساب مصالح فئتهم. وقف مجلس الشيوخ ليدافع عنهما وفاء لما قدماه من خدمة للبطريقيين بمعارضتهم لمشروع زملائهم. لكن غضب الشعب كان أقوى من دعم المجلس لهما". وعلق تيت ليف على ذلك بقوله : "لذا وبالرغم من براءتهما، كان النائبان المتهمان ضحية حكم يُرثى لمثله، لما تمت إدانتهما بدفع غرامة مالية ثقيلة".

"فأثار ذلك الحكم حزنا عميقا في نفوس البطرقيين. وخرج Camille الديكتاتور السابق ليفجر غضبه ضد حكم الشعب الجائر وقال : "الذين يهاجمون اليوم رجالا من طبقتهم، لم يدركوا بأنهم بذلك الحكم المقيت قد سلبوا من نوابهم حق المعارضة، وقضوا بالتالي على سلطة ونفوذ مؤسسة النيابة عن العوام نفسها. بذلك كان يحدوهم الأمل في ظهور قوة نيابية تستطيع مضايقة البطريقيين والضغط عليهم. لكن إلم توجد منذ اليوم بداخل مؤسسة النيابة عن العوام قوة تلجم وتكبح عنف أعضائها، فسيجد البطرقيون أسلحة أخرى لردعهم". ولام القنصلين على تحملهما في صمت ما أصاب النواب الموالين لمجلس الشيوخ من فقدان لثقة المواطنين ولدعمهم. لومه ذاك الذي فاق حد واجب التحفظ، ما زاد الشعب إلا غضبا عليه وعلى طبقته".

"وظل Camille، الديكتاتور السابق، لا يكف من جهة أخرى عن تحريض مجلس الشيوخ ضد مشروع الهجرة من روما إلى مدينة Véies، والذي كان يتبناه نواب العوام. كان يقول : "يوم تنزل جموع الشعب إلى الساحة العامة للتصويت على ذلك القانون، ستتذكر بلا شك أنها نزلت لتناضل من أجل بيوتها ومعابد آلهتها والتراب الذي رآها تولد فيه. أما أنا بالخصوص، إذا سُمح لي بذكر مجدي في تلك المعارك الكبيرة من أجل وطني، فسيزيد من كبريائي أن أرى ازدهار مدينة Véies التي احتُلت على يدي وصارت هي فخري ومعلمة نصري. لكنها جريمة في نظري أن نُرحّل الشعب الروماني إلى حاضرة محتلة تركتها الآلهة الخالدة وتخلت عنها. يستبدل الرومان حينها أرض وطنهم المنتصر بأرض وطن غيرهم المنهزم"".

"متحمسين بنداء ذاك الرجل الكبير نزل البطريقيون يوم الاقتراع إلى الساحة العامة في صفوف متراصة شيبا وشبابا. وتوزعوا على الناخبين من الأحياء الواحدة العشرين يصافحونهم ويشدوا على أياديهم ويتوسلون لهم والدموع تدرف من عيونهم وهم يقولون لهم : "لا تتخلوا عن هذا الوطن الذي قاتلتم من أجله بشهامة أنتم وآباؤكم". ثم كانوا يشيرون لهم لمعابد الآلهة من حولهم وهم يدعونها : "بحقك لا تحكمي على الشعب الروماني بالنفي إلى أرض العدو بعيدا عن أرضك وأرض أجداده. لا تجعليه يندم على احتلال مدينة Véies بتخليه عن روما". ولما كانوا لا يلجأون للعنف مع

[1] تنتخبهم الهيئات المئينية *Les comices centuriates* حيث الغلبة للبطريقيين
[2] تنتخبهم هيئات الشعب الترابية *Les comices tributes* حيث الغلبة للعوام
[3] وهي السنة 117 من عمر الجمهورية الرومانية

الناخبين، وكانوا يخطبون ودهم بالاستجداء وبالتوسل إليهم بحق سلطان المعتقدات الدينية، استطاعوا إثارة مخاوف أغلبهم من غضب الآلهة عليهم، فتحصلوا أخيرا على أصوات أغلبية الأحياء الواحدة والعشرين ضد القانون، وتم رفضه[1]. سُرّ البطرقيون بتلك النتيجة غاية السرور. وفي اليوم التالي استصدروا من مجلس الشيوخ مرسوما يقضي بمنح سبعة فدادين[2] من أراضي Véies لكل مواطن روماني. لم ينحصر ذلك التوزيع على أرباب الأسر بل امتد ليشمل كل فرد حر بكل بيت. والأمل في الاغتناء بهذا السخاء شجع على تنامي حجم الأسر".

وأنت إن تأملت ذلك السخاء البطريقي تجد وكأن نواب العوام باقتراحهم لقانون الهجرة من روما إلى المدينة المحتلة الذي رُفض، تجدهم قد تحصلوا في مقابل رفضه ومن دون ضغط منهم على ما كانوا منذ عقود يطالبون به وهو توزيع الأراضي المحتلة على العوام الذي يرمي لتحقيق مطلب العدل في توزيع الثروة بينهم وبين البطريقيين، علاوة على توزيع السلطة بالعدل كذلك بين الفئتين. في المحصلة يكون توزيع أراضي المدينة المحتلة على كل مواطن أكبر وأفضل من مطلب الهجرة من روما إلى تلك المدينة الذي أزعج البطريقيين. لكن القدر شاء إلا أن يبتلي الرومان بمتاعب جديدة وخطيرة آتية هذه المرة من وراء جبال شمال إيطاليا، من القبائل البدائية ببلاد الكُول أي فرنسا الحالية. محنة تعطلت فيها الجمهورية مدة ستتة أشهر كادت تنمحي معها روما من الوجود وما كنا لنسمع بها ولا بقومها لولا أن نفس القدر شاء أن يحييها من جديد من بعد ما احترقت ودمرت كلية. فماذا عن بدايات وأسباب تلك المحنة؟

يقول تيت ليف : "بفضل ذلك السخاء البطريقي، انتُخب قنصلان للولاية الجديدة[3] من دون أن يستنكف الشعب منهما، من بعد ما كان يفضل عليهما انتخاب نواب عسكريين. وقيل بأن روما وصلها تحذير من رجل عادي كان يقول بأنه سمع صوتا ينْبئ بهجوم قوم الكُول[4] عليها وباحتلاله لها. لكن كالعادة، بساطة رجل غير معروف جعلت تحذيره عرضة للإهمال، ولا سيما أنه ما سبق للرومان أن سمعوا بقوم بذلك الإسم الغريب عنهم. ثم وكأنه ما كانت تكفيهم تحذيرات الآلهة، فقد شاء القدر بأن يرموا خارج أسوار مدينتهم Camille الديكتاتور السابق الذي احتل بالقوة مدينة Véies من بعد حصار دام عشر سنين والذي استسلمت له من بعد ذلك مدينة Falérie‌s عن طواعية من دون استعمال القوة وإنما فقط بفضل نبل أخلاقه. وهو الرجل الوحيد الذي كان بإمكانه أن يكون خير منقذ لروما من ذلك الخطر المتنبأ به".

"إلا أن أحد نواب العوام رفع ضده دعوى أمام محكمة الشعب لمحاسبته على سابق تصرفه في غنائم مدينة Véies. فاستدعى حينها Camille مواليّه، وكانوا كلهم تقريبا من العوام، واستفسرهم عما هم فاعلون حيال الاتهام الموجه إليه. فقالوا له : "مهما كان مبلغ الغرامة التي ستُدان بها، فنحن مستعدون بأن ندفعها مكانك، لكن لا نستطيع الشهادة ببراءتك". غادر حينها المدينة نافيا نفسه بعيدا عنها وهو يتوسل للآلهة بقوله : "إذا كنت بريئا ولم أستحق هذه المهانة فاجعلي عاجلا وطني الناكر للجميل يندم على ظلمه الذي طالني". ثم حُكم عليه غيابيا بأداء غرامة ثقيلة".



موقع مدينة Clusium الإتريسكية بشمال إسطاليا

ونوفر عليك ترجمة تفاصيل ما أورده تيت ليف بخصوص تاريخ قوم الكُول les Gaulois، وتاريخ قدومهم لإيطاليا. ملخص ذلك أنهم قوم سبق أن قدموا من الشمال الأوروبي إلى أراضي فرنسا الحالية واستقروا بها. ولما كثر عددهم صاروا في حاجة للتوسع في أراضي الغير. هكذا تعاقبوا أفواجا متلاحقة على إيطاليا من بعد قطع جبال الألب الوعرة. حتى جاء الفوج الذي سيحْتك بالرومان وسيحتل حاضرتهم ويحرقها من بعد ما قهر الإتريسكيين واحتل من بلادهم مدينة Clusium. فماذا عن نكبة روما التي أنهى عهد الجمهورية الثاني، وإن لم يدم سوى سبعة أشهر ؟

---

[1] حصل ذلك سنة 392 ق.م. وهي السنة 118 من عمر الجمهورية الرومانية
[2] مساحة الفدان هي 4200.83 متر مربع
[3] سنة 391 ق.م وهي السنة 119 من عمر الجمهورية الرومانية
[4] وهم القوم الذين سبق أن جاؤوا من شمال أوروبا ثم استوطنوا شمال غرب فرنسا الحالية.

الفصل السادس : نكبة روما مع قوم الگول

مقدمة الفصل

يقول تيت ليف : "فزع شعب مدينة Clusium من تعداد جموع الأقوام الغازية ومن هيئاتهم العظيمة ومن أشكال أسلحتهم الغريبة ومما سمعوا عن سابق انتصاراتهم الكثيرة على باقي الشعوب الإتريسكية بشمال إيطاليا. وبما أنه لم يكن بينه وبين روما معاهدات تحالف أو صداقة سوى سابق رفضه مساعدة إخوانه من أهل مدينة Véies، بعث إليها ملكه برسله يستنجدون بمجلس الشيوخ من تهديدات قوم الكُول. لم يستجب المجلس لندائهم. لكنه قرر مع ذلك أن يبعث بسفراء ليقولوا لقوم الكُول : "ننصحكم بعدم الهجوم على شعب لم يصبكم بأية مهانة، وهو الحليف والصديق الذي سيحميه الرومان عند الحاجة بالسلاح. لكن الحكمة تقتضي عدم اللجوء لهذه الوسيلة إلا في آخر مرحلة وعند الاضطرار. وللتعارف معكم كشعب جديد بإيطاليا فالسلم خير من الحرب"".

"كانت تلك السفارة ذات طبيعة سلمية. لكن تم إسنادُها لرجال أصحاب أمزجة خشنة، حتى كانوا بفجاجة طبعهم كُوليين أكثر مما هم رومان. لما قدّموا عرضهم على المجلس الكُولي، قيل لهم : "نحن لم نسمع من قبل بالرومان. لكن نعتبركم رجالا أصحاب مقام عالي لمّا استنجد بكم حليفكم في هذه الظروف الحرجة. وبما أنكم فضلتم هذه السفارة على اللجوء للسلاح لحماية أصدقائكم فلن نرفض عرضكم السلمي. لكن بشرط أن يتخلى حلفاؤكم عن جزء من أراضيهم الواسعة لقومنا كي يزرعوها وهم لا يملكون منها شيء. وإلا فما بوسعنا القبول بعرضكم السلمي. ونريد منهم أن يستجيبوا لمطلبنا بحضوركم أيها الرومان. وإن واجهونا بالرفض فبحضوركم أيضا نعلن عليهم الحرب حتى يعلم كل من وراءهم كم قومنا يتفوّقون قوة وإقداما على غيرهم من الرجال". فقال لهم حينها سفراء الرومان : "بأي حق تأتون وتطالبون بأراضي غيركم مهددين إياهم بالحرب ؟ ثم ما شأنكم ببلاد الإتريسكيين وأنتم كُوليون ؟". فأجابوا بفخر وأنفة قائلين : "نحن نحمل حقنا في سلاحنا. وكل شيء هو ملك للرجال الشجعان"".

كان في هذا الجواب تعبير عن سيادة قانون الغاب ومنطق القوة العدواني الذي ساد تاريخ البشرية. وكما رأيت حتى الآن من أحداث تاريخ روما فقد شكل الرومان ذلك الاستثناء الذي يؤكد القاعدة. في البداية ما كانت لها أطماع توسعية على حساب الجيران. وما صارت لها عدوانية إلا في عهد الملك الثالث طولوس من بعد روملوس ونوما الطيب. وكان الهدف كما جاء في الكتاب الأول ليس للتوسع وإنما لإخراج الرومان من حالة الخمول والكسل الذي يضمنه السلم والرخاء حتى يكونوا مستعدين لمخاطر أية حرب محتملة. وفي عهد الجمهورية كان مجلس الشيوخ أشد ما يخشاه هو الحروب الخارجية، ولا سيما بالنظر لما كان فيها من سلاح سياسي قوي بيد العوام، بوصفهم جنود في الجيش، في صراعهم مع البطريقيين على اقتسام السلطة والثروة بالعدل. تقاطعت مصالح روما السياسية الداخلية مع احترامها للوحدة الترابية للجيران. هكذا جل الحروب التي خاضتها ما حصلت سوى من أجل الدفاع عن كيانها والانتقام ممن كانوا المبادرين بالهجوم عليها. عقدت مع قوم اللاتين بالجنوب معاهدات تحالف ومع قوم الصابيين بالشرق معاهدات سلام. صحيح أنها توسعت باحتلالها لبعض المدن والأراضي وأقامت فيها مستوطنات، لكن مبدئيا ليس بقصد التوسع بل فقط لضمان أمنها من بعد حروب عدوانية ضدها كما حصل بشمال روما مع ثلاث مدن إتريسكية.

ثم يقول تيت ليف : "بذلك الرد الكُولي المستفز اشتعلت نار غضب الإتريسكيين، فأسرعوا إلى حمل السلاح ليبدءوا القتال. هنا جرت الأمور بغير ما تشتهي روما. تحدى السفراء الرومان الثلاثة واجب التحفظ الذي تمليه عليهم مهمتهم وارتموا بتهور في الحرب على رأس جيش الشعب الإتريسكي ضد الغزاة الكُول. لكن لم يبقى أمرهم سرا بسبب بريق شجاعتهم في القتال. ولما قُتل أحدهم اكتشف العدو أمرهم. حينها جمّد قوم الكُول خلافاتهم مع شعب المدينة الإتريسكية وانسحبوا من ميدان القتال ليتوجهوا بالتهديد للرومان. بل اقترح الكثير منهم السير رأسا إلى روما. لكن شيوخهم استطاعوا إقناع القادة بإرسال مبعوثين يشتكون لمجلس الشيوخ من اعتداء سفرائهم على قومهم ومطالبين بتسليمهم الرجال من آل فابيوس السفير الذي قُتل في المعركة كتعويض على ما أصابهم منه من ضرر".

"لما سمع مجلس الشيوخ رسالة قوم الكُول من مبعوثيهم، وبالرغم من إدانته لتصرفات السفراء المذنبين، لم يستطع الحسم في شأنهم بالنظر لما كان لهم من شرف عظيم بين الرومان. وحتى لا يتحمل عواقب حرب مع قوم الكُول فضّل المجلس إحالة شكواهم ومطالبهم إلى الشعب كي يقرر ما يراه فيها. لكن الشعب تحدى بدوره قوم الكُول ورد على مطلبهم بانتخاب نفس السفراء المذنبين نوابا عسكريين لولاية السنة اللاحقة. فاستقبل سفراء الكُول الخبر باستياء كبير واعتبروه مهانة في حقهم وعادوا للمعسكر معلنين تهديداتهم بالحرب على روما". وقد تتساءل لماذا هذا الموقف الروماني المستفز لقوم الكُول ؟ كان فيه أولا، وبالنسبة للبطريقيين مخرجا لتفادي تسليم خيرة رجالهم للعدو. ثانيا، وبلا شك، يكون البطريقيون قد عملوا على تبليغ الشعب الروماني جواب قوم الكُول الذي لا يقل

استفزازا، لمّا قالوا للسفراء أنهم يحملون حق اغتصاب أراضي غيرهم في أسلحتهم، وأن كل شيء هو ملك للرجال الشجعان. وهذا هو منطق الغاب. فلو قبل به الرومان من قوم الكُول بإيطاليا فستصبح كل الحروب العدوانية التي تُقام ضدهم مشروعة. لكنهم ما استطاعوا رفع تحدي التصدي لهؤلاء الغزاة القادمين من شمال أوروبا، وسقطت روما بأيديهم. كيف حصل ذلك ؟

سقوط روما بيد قوم الكُول

يقول تيت ليف : "أمام مثل ذاك الخطر الداهم كانت روما عادة ما تعيّن ديكتاتورا، كما فعلت ذلك عدة مرات لمواجهة خطر عدوانية الشعوب المجاورة. أما اليوم، وفي وجه تهديد قوم غريب عن إيطاليا، فلم تستعد له لا بتعيين مثل تلك القيادة الاستثنائية ولا باتخاذ الإجراءات اللازمة للدفاع عن نفسها. أما النواب العسكريون المنتخبون، والذين جلبوا بتهورهم تلك الحرب، فقد كانوا يستخفون بالعدو وكانوا يتهيأون لحربه بتراخي وكأنها حرب عادية. وتيقن قوم الكُول من استخفاف الرومان بمبعوثيهم لمّا انتخب الشعب أولئك السفراء الذين أهانوهم نوابا عسكريين (سنة 390 ق.م.)[1]. فاشتعلت بذلك نار غضبهم وساروا بجيشهم العرمرم والمرعب نحو العدو الذي استفزهم وتحداهم. وفي طريقهم كانوا يقولون بصوت عالي لكل المدن المرعوبة التي يمرون عليها وللهاربين منها : "نحن متوجهون صوب روما"".

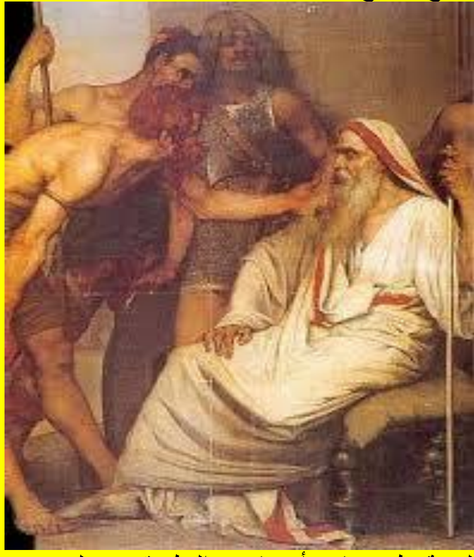
وكالعادة نعفيك من ترجمة تفاصيل المعركة لطولها المُمل. وباختصار شديد فقد خرج الرومان لمواجهة العدو بعيدا عن روما وقريبا من مدينة Véies. لكن ما أن رأوا ضخامة جيش العدو وهزالة جيشهم حتى تملكهم الرعب وعلموا أن المعركة محسومة ضدهم وأن القتال فيها انتحار، فعمدوا تقريبا دفعة واحدة للتخلص من ثقل أسلحتهم ولاذوا بالفرار. كان منهم من لجأ لمدينة Véies القريبة وآخرون توجهوا إلى روما ليتحصنوا بأسوارها، ومن لم يسعفهم الحظ إما مُزقوا شر ممزق أو ماتوا غرقا في نهر التيبر.

ثم يقول تيت ليف : "قبل وصول العدو لروما التي بقيت مفتوحة الأبواب ومن دون دفاع، قرر البطريقيون جمع شبابهم ونسائهم والكهنة وكل شيء مقدس وما يلزم من الغداء والماء كي يصعدوا للتحصن جميعا بمرتفع الكابطول المنيع وبداخل القلعة المحصنة. واتُخذ ذلك الإجراء كاحتراز من البطريقيين على أمل عودة الحرية والحياة يوما لروما من بعد احتلالها، فتحيى وتستمر دولتهم من جديد بمن تركوا من أهلهم محصنين بالكابطول وبالقلعة. ما بقي بالمدينة سوى كهولهم، الذين كان من بينهم بعض أعضاء مجلس الشيوخ، مع بعض نسائهم. بذلك كانوا يفضلون الاستسلام للعدو وحتى للموت على البقاء أحياء من بعد تلك الكارثة القادمة. كما رأوا فيه تجنبا منهم للتضييق على من تحصنوا بالمرتفعين من شبابهم ومن نسائهم بأفواه وجب تغذيتها من المخزون الغذائي الاحتياطي وهم لا يدرون كم سيدوم حصارهم بها. أما العوام فقد رأوا خلاصهم في الهجرة من روما جماعات وفرادى حيثما اتفق". وعلق تيت ليف على ذلك بقوله : "ما كان لهم ولا لنسائهم وشبابهم الخيار في التحصن بالكابطول وبالقلعة مع من تحصن بهما من البطريقيين، وكأن هؤلاء هم المواطنون الحقيقيون وغيرهم مجرد غرباء"

ولما دخل جيش الكُول إلى روما وجدوها خالية ما عدى ممن تحصنوا بالكابطول والقلعة، علاوة على شيوخ البطريقيين الذين وجدوهم بالمدينة جالسين على كراسيهم الفاخرة من العاج، وأمام منازلهم الفخمة، وقد ارتادوا أبهى ملابسهم وهم يتحدّون بذلك وفي وقار جنود العدو. انبهر بهم قوم الكُول وهابوهم، إلى حين تجرأ أحدهم ومر بيده على لحية أحد أولئك الشيوخ الذين كانوا يطلقون لحاهم، فضربه على رأسه بعصا كانت بيده. غضب منه حينها ذلك الجندي وقتله. وتلك كانت شرارة انطلاق الذبح والتقتيل والنهب والتخريب والحرق . حاول جنود الكُول الاستيلاء على الكابطول



موقع مرتفع الكابطول والقلعة المحصنة بروما



لوحة تظهر مشهد أحد شيوخ البطريقيين تحلق من حوله أفراد من قوم الكُول مع أحدهم يعبث بلحيته

[1] وهي السنة 120 من عمر الجمهورية الرومانية

. والقلعة إلا أنهم جوبهوا منها بمقاومة من فيها من فوقهم، وقُتل منهم الكثير فقرروا القناعة بمحاصرتهما. لكنهم ارتكبوا بذلك خطأ فادحا، إذ بحرقهم للمدينة أحرقوا كل ما كان فيها من حبوب وقمح. ثم لم يبقى منه شيء بالبوادي. بذلك صاروا في وضع أسوأ وبكثير من البطريقيين المحاصرين في المرتفعين الحصينين. فخرج قسم من جيشهم لينهب ويجلب الطعام من المدن والبوادي المجاورة".

"ومن حسن حظ روما أن ساق القدر جنود قوم الكَول الجائعين صوب مدينة Ardée من بلاد الحلفاء اللاتين حيث كان Camille الجنرال الروماني السابق منفيا، وهو البطل الذي اشتهر بإسقاط مدينة Véies من بعد حصارها مدة عشر سنين، والذي استسلمت له مدينة Falériеs بفضل نبل أخلاقه، وتعرض من بعد كل ذلك لحكم قاسي من شعبه. فاجتمع مجلس مدينة Ardée لتداول خطر اقتراب جنود قوم الكَول من أراضيهم. لما سمع Camille بذلك، أسرع إليهم على غير عادته متأثرا بما سمع من أخبار سقوط وطنه بيد أولئك الغزاة. وقام خطيبا فيهم ليقول : "أصدقائي القدامى ومواطني الجدد، لا تعتقدوا أنني نسيت وضعي بينكم. الوضع الخطير الذي يتهددنا جميعا يفرض على كل منا بذل ما في وسعه للمساهمة في النجاة. كيف أعترف لكم بعظيم جميلكم الذي غمرتموني به إن أنا ترددت اليوم في الدّلو بدلوي؟ كيف ومتى وأين أخدمكم سوى في الحرب ؟ فقط بمهاراتي فيها عُرفت بوطني. لم يحصل أن أنهزمت فيها، لكن في السلم طردني مواطنيّ الناكرون للجميل. أما أنتم فقد جاءتكم الفرصة لرد عظيم جميل الشعب الروماني الذي ما نسيتموه أبدا، ولستُم في حاجة لمن يذكّركم به لكي تُكسبوا مدينتكم بين حلفائكم مجدا عسكريا كبيرا على حساب العدو المشترك. هؤلاء الرجال في تلك الجحافل المبعثرة لهم إقدام وقامات تفوق المعتاد. لكن ينقصهم الثبات. هم في المعركة مخيفون أكثر مما هم أشداء. وكارثة روما خير دليل على ذلك. كانت مفتوحة لما دخلوها. وثلة من الرجال بالكابطول والقلعة أوقفوهم. ثم ها هم يعانون من ملل الحصار. تجدهم يتشتتون ويبتعدون هائمين في البوادي، محمّلين باللحوم وبالخمر التي يشربونها حتى الثمالة، ثم يستلقون على الأرض ليناموا كالوحوش من دون أي حراسة ولا أدنى احتراز. وجاءتهم تلك الانتصارات من دون قتال لتزيد في إهمالهم وفي تهاونهم المعتاد. إذا كان يهمكم الدفاع عن وطنكم وإذا كنتم تكرهون أن تصبح أراضيكم أراضي قوم الكَول، ففي الليلة القادمة احملوا كلكم أسلحتكم واتبعوني، لا أقول لكم للمعركة بل للمجزرة. إلّم أسلمهم لكم مكبلين للنحر كالخراف فإنني أتعهد بأن أتقبل منكم نفس المكافأة التي تلقيتها من روما"".

"والأصدقاء كالأعداء كانوا يعرفون أن Camille كان أعظم رجل حرب في عصره. فوافق القوم على مقترحه. ولما حان الليل جاؤوا للموعد الذي ضربه لهم الجنرال مستعدين للسير تحت قيادته. فخرجوا، وغير بعيد عن المدينة وجدوا جنود العدو كما توقعه قائدهم من دون لا دفاع ولا حراسة. فانهالوا عليهم ينحرونهم وهم عراة ومثقلين بالنوم. لم تكن هناك معارك بل مجازر. ولما كان البعيدون منهم يستيقظون مرعوبين وهم لا يعرفون من أين يأت الهجوم، كانوا يلوذون بالفرار. العديد منهم ساروا تائهين باتجاه عدوهم الذي أجهز عليهم. والباقون الذين انتشروا هائمين على وجوههم في البلاد المجاورة وجدوا الأهالي في استقبالهم للفتك بهم". فتم تعيين Camille ديكتاتورا لتحرير روما من احتلال قوم الكَول. كيف حصل ذلك ؟

تحرير المدينة من احتلال قوم الكَول

يقول تيت ليف : "اختار الإتريسكيون تلك اللحظة الحرجة للهجوم على أراضي روما ونهبها شماتة فيها ومن دون لا شفقة ولا رحمة. وهي المدينة التي ظلت جارة لهم منذ ما يقرب من أربعة قرون، وقد اكتسحها عدو غريب جاءها من خارج إيطاليا. ثم لما كانوا عائدين محمّلين بالغنائم عزموا على مهاجمة مدينة Véies أيضا حيث كانت ترابط ثكنة عسكرية رومانية، وكان فيها الأمل الأخير لتحرير روما. اشمأز جنود الثكنة مما رأوه من فوق أسوار مدينة Véies وشعروا بالمهانة فاشتعلت نار غضبهم وكانوا يقولون : "ها هم الإتريسكيون يستغلون محنتنا للانتقام منا ونحن الذين حوّلنا عنهم بتهوّر سفرائنا هجوم قوم الكَول فجلبناهم لمدينتنا"".

"كانوا على وشك الخروج إليهم فورا لينتقموا منهم، لولا قائدهم الذي أقنعهم بتأجيل الخروج إلى حين يظلم الليل. فما كان ينقصهم سوى قائد من طينة Camille. إلا أن هجومهم أسفر عن نفس النتائج التي جناها Camille بقيادته لأهالي Ardée. والليلة الثانية فاجأوا من تبقى منهم وقضوا عليهم، وعادوا لقواعدهم بمدينة Véies غانمين وفي جعبتهم انتصاران متتاليان. فصارت القوة والشجاعة بتلك المدينة يتضاعفان بفضل كل من ظلوا يلتحقون بها من الرومان التائهين ومن غيرهم من الحلفاء اللاتين. ثم حان الوقت لتحرير روما. لكن تلك القوة الهائلة كان ينقصها الجنرال الذي يقودها. فذكّرتهم نفس المدينة بالقائد Camille. هناك اجتمع جل الجنود الذين قادهم من قبل وأحرز بهم انتصارين مبهرين. فاتفقوا بالإجماع على استدعائه من منفاه بمدينة Ardée، لكن فقط من بعد استشارة وإذن مجلس الشيوخ المحاصَر بالكابطول بروما". علق تيت ليف على ذلك بقوله : "وهو الأمر الذي يدل على مدى وقوة تمسّك الرومان بسيادة القانون وبسلطات المؤسسات حتى في أحرج الظروف". ثم استرسل قائلا : "فذهب أحد الأبطال متسللا إلى روما ثم إلى الكابطول سالكا ممرا مائيا غير محروس من طرف جنود قوم الكَول المحاصرين للمدينة. ولما وصل وأخبر بمأموريته

اجتمع مجلس الشيوخ واستدعى هيئات البطريقيين العشائرية الثلاثين للموافقة على العفو عن Camille وعلى تعيينه ومباركته ديكتاتورا".

فقد تم اللجوء للهيئات البطريقية العشائرية لتعيين Camille ديكتاتورا، وهي الهيئة الانتخابية القديمة في عهد الملوك والتي أحيا الرومان دورها من جديد بالنظر لما كان لها في تلك الروف من مكانة دينية في اعتقادهم لا يمكن تجاوزها في مثل تلك الظروف الاستثنائية، ولا سيما في غياب باقي المؤسسات الدستورية المختلطة من العوام ومن البطريقيين.

ثم يقول تيت ليف : "تم تعيين Camille ديكتاتورا في غيابه. وذهب مبعوثون لمدينة Ardée، وعادوا به إلى مدينة Véies متوّجا من مجلس الشيوخ ومن الجموع العشائرية كقائد لكل من تجمع بها من الجنود الرومان. حينها كان الغزاة الكُول بروما قد أنهكوا من شدة الجوع ومن تفشي الأمراض بين جنودهم، حتى أنهم كانوا يحرقون حثث موتاهم من بعد ما تعبوا من دفنها. ملوا من حصار من كان بالكابطول والقلعة، وصاروا قانعين منهم بأداء فدية من الذهب لفك الحصار عنهم. ولم يكن حينها الرومان المحاصرون أحسن حال. نفذ منهم مخزون الطعام فأنهكوا بدورهم من شدة الجوع. وبالرغم من ذلك كانوا يتظاهرون بعكس ما كانوا فيه حتى لا يطمع العدو في استسلامهم. لكنهم قبلوا بعرض الفدية مدّعين أنهم طامعين في تحرير مدينتهم وليس لأنهم منهكون من شدة الجوع. فنزل أحد النواب العسكريين بإذن من مجلس الشيوخ للتفاوض. ثم عاد للكابطول، ورجع منه محملا بالذهب للعدو. لكنه لما رأى غشا في الميزان اعترض. فوضع قائد العدو سيفه في الكفة ليثقلها وقال مهددا : "ويل للمنهزمين"".



لوحة لمشهد قائد جيش قوم الكُول وهو يضع سيفه في كفة الميزان ليثقلها

"حينها وصل الديكتاتور Camille بجيشه فأمر النائب العسكري بسحب الذهب وأمر قوم الكُول بالانسحاب لمواقعهم من أجل الحرب. لما اعترضوا عليه محتجين بحق الاتفاق المبرم، أجابهم بأن كل اتفاق مبرم من بعد تعيينه دكتاتورا مع من هو أدنى منه مرتبة فهو لاغي بمقتضى قوانين روما. وأشار عليهم بالاستعداد لخوض الحرب". وباختصار شديد تم انتصار Camille على العدو من بعد احتلاله للمدينة مدة سبعة أشهر. بل أباد كل من تبقى من جنوده، وحرر روما. فاستقبل فيها بشكل غير مسبوق، نال فيه شرف لقب المؤسس الثاني للمدينة من بعد مؤسسها الأول روميلوس. وخلافا للقواعد والأصول وبصفة استثنائية طلب منه مجلس الشيوخ عدم التنازل عن منصبه في ذلك الوقت الحرج من تاريخ روما، كي يعترض بما أصبح له من شأن عظيم على مشروع الهجرة لمدينة Véies الذي أثاره نواب العوام من جديد من بعد خراب ودمار وحرق روما. وبذلك بدأ عهد الجمهورية الثالث. فماذا عن قصة الحرية في عهد ما بعد نكبة روما ؟

الفصل السابع : عهد الجمهورية الأرستو-ديمقراطية الثالث (390 ق.م.- 343 ق.م)

مقدمة الفصل

يلخص تيت ليف ما تقدم من تاريخ روما العتيقة بقوله : "عرضت في الكُتب السابقة تاريخ الرومان منذ تأسيس روما حتى احتلالها من طرف قوم الكُول، وتحريرها من طرف الديكتاتور Camille. بدأ تاريخهم السياسي بعهد الملوك، الذي عُوّض فيما بعد بعهد الجمهورية، وعلى رأسها في الولاية الكبرى السنوية القناصلة كقاعدة، والدكتاتوريون في حالات استثنائية لمدة من الأيام محدودة. ثم تلاهم في تلك الولاية الكبرى المفوّضون الذين عُوّضوا بدورهم بالعودة لحكم المؤسستين السابقتين القنصلية والديكتاتورية، مع إضافة النيابة العسكرية بسلطات قنصلية كمؤسسة ثالثة. لا تشترك تلك المؤسسات في الحكم في الولاية الواحدة. وتخللت تاريخهم حروب خارجية وشقاقات وصراعات سياسية سلمية داخلية بين فئتي العوام والبطريقيين".

ثم سترسل قائلا : "إلا أن تاريخهم يظل ضبابيا لكونه أولا تاريخ عصور غابرة. فنراه كالأمور البعيدة جدا التي بالكاد نستطيع تصور معالمها. ثم هو تاريخ غامض بسبب قلة وحتى غياب تدوين الأحداث في تلك العصور. ومن المعلوم أن الكتابة هي وحدها القادرة على التأريخ الوفي لأحداث الماضي. وهو أخيرا تاريخ مبتور بسبب الحريق التام، زمن احتلال قوم الكُول للمدينة، والذي طالت ناره سجلات الكهنة وسجلات رجال الدولة ومؤسساتها، وحتى المدونات الشخصية للمواطنين. لكن انطلاقا من هذا الكتاب سأقدم بمزيد من اليقين ومن الوضوح الأحداث المدنية والعسكرية التي تلت تلك الولادة الثانية لروما، لما نبتت المدينة من جديد انطلاقا من جذورها، وبمزيد من النُّسغ[1] والحياة". وهذا المقطع من هذه المقدمة يفسر ما أشرنا إليه في سابق تعليقاتنا من غموض في بعض الأحداث التي كانت تطرح أسئلة جوهرية ولم يشر إليها المؤلف، بل مر عليها وكأنها أمور عادية، وهو الذي عرفناه يدقق في التفاصيل. لكن ما سيأتي لن يخلو من غموض كذلك، ربما أقل مما سبق، فلا تنتظر منه ذلك الوضوح التام. وكالعادة سننبهك إلى ما استرعى انتباهنا منه. وكما توقع ذلك مجلس الشيوخ، بدأت الحياة السياسية فور تحرير روما من احتلال قوم الكُول بتجدد الصراع حول مقترح العوام لقانون الهجرة إلى مدينة Véies. قانون يقترح التخلي عن المدينة المدمر واستبدالها بالمدينة المحتلة.الأمر الذي كان يعارضه البطريقيون بشدة ومن أجله مدد مجلس الشيوخ للجنرال مدة ولايته كدكتاتور لا يستشير في قراراته ولا تراجع. ومع ذلك تنازل عن تلك الصلاحيات لما شعر بأنه مضطر مع نفوذ فئة العوام إلى استعمال منطق المرافعة والإقناع بدلا من استعمال منطق العنجهية والقوة. فكيف توفق في ذلك ؟

إعادة بناء المدينة مهد الحرية

يقول تيت ليف : "من شدة تقواه الدينية وخوفا من غضب وسخط الآلهة مرة أخرى على روما وعلى أهلها، استصدر الديكتاتور Camille من مجلس الشيوخ مرسوما يقضي بإعادة بناء كل المعابد التي دنسها قوم الكُول بدخولهم إليها، وببناء معبد للرجل الذي أنبأهم بقدوم العدو ولم يُؤخذ بنبوءته لبساطة حاله، وبإعلان الذهب الذي كان مرصودا لدفعه كفدية للعدو ذهبا مقدسا يخص الآلهة. وأحدث لكل ذلك مجلسا للكهنة كي تشرف على تنفيذ ما جاء بذلك المرسوم". ونحن بالطبع لا نؤمن بمعتقدات الرومان الوثنية والخرافية. وإذ ننقلها لك هنا فلتعلم مكانة التدين بها عندهم وآثاره في الحياة الاجتماعية والسياسية. ونترجم لك أسفله خطبة الديكتاتور Camille فقط بالنظر لما فيها من قوة الحجاج والبيان والإقناع التي تميز بها الرومان واليونانيون، بالرغم مما فيها من تقديس لدينهم الوثني الخرافي. وكما يقال وبحق "ناقل الكفر ليس بكافر". فما جاء في خطابه من تقديس وخشية وتقوى في حق آلهتهم، لا يصح بالنسبة لكل مؤمن موحد سوى في حق الله.

ثم يقول تيت ليف : "من بعد انتهائه من تلك الواجبات الدينية، عقد العزم على وضع حد لمشروع الهجرة إلى مدينة Véies الذي إثاره نواب العوام من جديد من بعد خراب ودمار وحرق روما. جمع جموع الشعب الروماني بالساحة العامة وقام فيها خطيبا ليقول : "لا تدرون أيها الرومان كم هو صعب عليّ الدخول في جدال وسجال مع نواب العوام، وما كان لي من مواساة في منفاي الحزين بمدينة Ardée سوى ابتعادي عن كل ذلك الجدل. بسببه فقط ما كنت لأعود لروما لولا حاجة الوطن لخدمتي بطلب من مجلس الشيوخ وبأمر منك أيها الشعب. وإذ ترونني اليوم بينكم فليس بسبب تغيير في رأيي وإنما بفضل حسن حظكم الذي جلبني إليكم. جئتكم كي يبقى الوطن في مكانه العتيق وليس لأعود أنا إلى منصبي القديم".

---

[1] *sève* نُسغ وهوسَائِلٌ يَجْرِي فِي أَنْسَاجِ النَّبَاتِ لِتَغْذِيَتِهِ

"كم يحلو لي الآن أن أصمت وأرتاح، لولا ما بقي في ذمتي من واجب الدفاع عن الوطن. التخاذل عن ذلك الواجب، حتى بالتضحية بالحياة من أجل غيره، فيه خزي وعار، بل هو جريمة بالنسبة لي أنا Camille. لماذا استرددنا إذا الوطن من الغزاة ؟ لماذا انتزعناه من يد العدو من بعد حصاره له، إذا كنا سنتخلى عنه من بعد امتلاكه من جديد ؟ لمّا كان قوم الگول منتصرين وكانت بيدهم مقاليد الوطن كان هناك بالكابطول وبالقلعة حُماته من الآلهة والرجال من أبنائه. ولما انتصر الرومان وصارت مدينتهم حرة أيجوز أن نتخلى عن ذلك الكابطول وعن تلك القلعة ؟ حينها يكون انتصارنا قد أضر بمدينتنا أكثر مما ضرتها من قبل إخفاقاتنا".

"حتى في حال ما لم تكن لنا تقاليد دينية نشأت مع نشأة هذه المدينة وورثناها أبا عن جد، فقد كان، في نظري، تدخّل الآلهة في الأزمة الأخيرة جليّا بما يكفي كي يداوينا من كل استخفاف بها وبعبادتها. تأملوا معي الأحداث السعيدة والتعيسة التي عرفتها روما طيلة السنين الأخيرة، وستجدون أن النجاحات والانتصارات اقترنت دائما بتبجيلنا للآلهة، وأن الإخفاقات والهزائم قد اقترنت باستخفافنا واستهتارنا بالدين. فتلك الحرب على Véies التي كلفتنا أشغال ومتاعب حصار سنين عديدة، ما انتهت بالانتصار إلا من بعد تجفيف مياه بركة آلبا استجابة لمطلب الآلهة. وبخصوص المصائب الأخيرة التي طالت مدينتنا، ألم تحصل من بعد إهمال تحذير الآلهة من هجوم العدو، والذي جاء على لسان ذلك الرجل البسيط ؟ ألم تحصل من بعد انتهاك سفرائنا لحرمة الناس ومن بعد النسيان الآثم لاستحضار الآلهة من أجل معاقبتهم على تلك الجريمة الواضحة المعالم ؟"

"هكذا ما عاقبتنا الآلهة إلا لنكون بما أصابنا من عذاب عبرة للعالمين. في المُحصلة، ابتلاؤنا بالمحن هو الذي جعلنا نفكر في الدين. في المحنة الأخيرة لجأنا للكابطول بجوار الآلهة في ضيافة جوبتير الطيب والكبير. وفي خضم خراب ممتلكاتنا عمدنا إلى العناية بأشيائنا المقدسة فخبأناها تحت الأرض أو حملناها معنا في ترحالنا حتى لا يدنسها العدو لا بالنظر ولا باللمس. لم نتوقف عن عبادة الآلهة، بالرغم من تخليها عنا. في المقابل أعادت لنا وطننا والنصر والمجد العتيق لأسلحتنا الذي افتقدناه. وأصابت العدو بالرعب واليهرب والذبح، لما أعماه الجشع، ففقد بحفنة من الذهب إيمانه وخان عهوده. فكيف أيها الرومان ؟ ألا ترون الآثار العظيمة للتدين وآثار قلة التقوى عند البشر ؟".

"ثم ما إن خرجنا من تلك المحنة الأخيرة ومن خطايانا ومآسينا حتى أجدكم لا تشعرون إلى أية هاوية سحيقة تسرعون. مدينتنا أسست على الإيمان بالاستقسام وبالنذر. لا يوجد فيها مكان تخلو جدرانه من الآلهة ومن عبادتهم. ذبح القرابين فيها لها أيامها ولها لأماكن المحددة والتي لا يجوز القيام بها في غيرها. هل بوسعكم التخلي عن كل آلهة الوطن وعن الأسر ؟ عليكم اتباع مثل ذلك الشاب الروماني الذي في عز حصار الكابطول نزل منه ليؤدّي لآلهة أسرته واجب ذبح القرابين في الوقت المحدد والمكان المحدد الذي اضطر معه للمرور من بين رجال العدو كي يصل إليه. فانتزع بذلك إعجابه وإعجابكم ولم يمسوه بسوء. كيف تقبلون بالتخلي عن دين وطنكم وعن آلهة روما وأنتم في حال السلم، بينما لم تتخلى أسرة عن دينها وعن آلهتها في عز الحرب ؟ كيف يجوز لكهنة المعابد إهمال طقوس دين الجمهورية، بينما تشبث مجرد مواطن بسيط بطقوس دين بيته ؟".

"وقد يقول قائل إما نقوم نحن بكل تلك الواجبات الدينية بمدينة Véies، أو نرسل كهنتنا ليقوموا بها هنا. أصحاب كلا الرأيين ينتهكون بنفس القدر التقاليد المقدسة. هناك طقوس لا يجوز القيام بها سوى بالكابطول. وماذا عن باقي الطقوس المرتبطة بالزمان وبالمكان والتي بها فقط تضمن الدولة بقاءها واستمرارها ؟ هل نترك عرضة للتدنيس كل تلك الأمور المقدسة والقديمة قدم المدينة، ومن بينها ما هو أكثر قدسية من المدينة نفسها. تأملوا الفرق بيننا وبين أسلافنا. ورثنا منهم طقوسا تقام وجوبا بجبل Albain وفي مدينة Lavinium. هل هذه المؤسسات الدينية التي تخشى من حلول شعوب أجنبية بيننا بروما، نستطيع من دون تدنيسها نقلها إلى مدينة شعب عدونا ؟"

"سيقولون أن الضرورة هي التي تجبرنا اليوم على التخلي عن مدينة خرّبها الحريق وعلى الهجرة لمدينة Véies حيث كل شيء جاهز لاستقبالنا، وحتى لا يكون أمر إعادة بناء روما موضوع إغاظة للشعب المسكين. ذلك مبرر واهي وليس له أساس. لست في حاجة للقول بأنكم تعرفون ذلك، لأنكم لم تنسوا أن اقتراح الهجرة كان مطروحا من قبل مجيء الغزاة الگول لما كانت كل معالم المدينة العمرانية سليمة، وكانت روما قائمة وتعج بالحياة. انظروا إلى الفرق بين مشاعري ومشاعركم يا نواب العوم. أنتم تقولون بضرورة فعل ما لم يسبق أن فعله الرومان. أما أنا فأقول بالعكس من ذلك. ولا تعارضونني من قبل سماع قولي. حتى إذا ما كان من الأفضل الهجرة لمّا كانت روما بالأمس سليمة، فلا يجوز في نظري التخلي عنها اليوم وهي خراب. بالأمس كان النصر يسمح لنا بالهجرة لمدينة محتلة. وكان في ذلك المبرر شيء من المجد لنا ولخلفنا من بعدنا. أما اليوم ففي تلك الهجرة خزي وعار لنا، وفيها مجد للغزاة الگول. لن يقال عندها أننا هاجرنا وطننا ونحن منتصرين، بل سيقال أننا افتقدناه ونحن منهزمين. سيقال أننا أجبرنا على التخلي عنه بسبب عجزنا عن حمايته وعن حماية ممتلكاتنا ومقدساتنا، وعلى الهرب لمكان نستطيع الدفاع عنه. سيقال أن روما التي خربها قوم الگول عجز الرومان عن بنائها من جديد".

"حينها لا يبقى للغزاة الكُول سوى العودة مرة أخرى بجحافل جديدة، ويقال أن لهم جموع من الشر لا تحصى، ثم يجدون كامل الحرية للاستقرار في المدينة التي احتلوها من قبل وتخلّيتم أنتم عنها لهم من دون أي اعتراض. حتى من دون الحديث عن قوم الكُول، فسيأتي أعداؤكم التقليديون من الإيك والفولسك للاستقرار بها. هل تطيقون أن يصبحوا بذلك هم الرومان وتصيرون أنتم القِيين[1]. أليس من الأفضل لكم الاحتفاظ اليوم بهذا الحقل من الخراب بدلا من أن تروا غدا عدوكم يبني به مدينة له على أنقاض روما ؟"

"فلا يوجد لنا مقام أفضل وأوسع من هذا الكوخ الذي كان هو كوخ مؤسس دولتنا. ألا يليق بكم كرعاة وزراع البقاء بأكواخكم محاطين بآلهتكم ومقدساتكم بدلا من الحكم على أمتكم بالمنفي ؟ أسلافنا الذين كانوا مجرد رعاة غرباء، وفي وقت لم يكن هذا المكان سوى غابات ومستنقعات، بنوا فيه وفي بضعة أيام مدينة جديدة. أما نحن فنستكف بإعادة بناء بعض البيوت المحترقة في وقت لا يزال الكابطول سليما وكذلك القلعة، وما زالت المعابد قائمة. ما كان بوسع كل منا أن يفعله لوحده لو أكلت النار بيته، نرفض القيام به كلنا معا من بعد ما أحرقت مدينتنا"

"وأخيرا، لو شاءت الأقدار والصدف أن يشب حريق بمدينة Véies، ثم ساهمت الرياح في نشر لهيب ناره ليأكل جزءا كبيرا منها، هل كنا سنهاجر من جديد إلى مدينة أخرى ؟ حينها لا نكون مرتبطين بالتراب وبالوطن وبهذه الأرض التي نسميها أمّنا، بل سيكون وطننا في الجدران وفي البنايات وليس في الأرض التي بنيت عليها. أما أنا، فأعترف وأقول، إن كنتُ تناسيتُ سابق ظلمكم لي فما نسيتُ ما أصابني منه من مأساة. لما كنت في المنفى، كنت، كلما خطر وطني ببالي، أتأسف على حرماني من رؤية هضابه وسهوله ونهره وباقي مناظره التي تعوّد بصري على التمتع برؤيتها. كنت أشتاق فيه لتلك السماء التي أضاءت مهدي وأظلت أيام سعادة طفولتي"

"لم تختار الآلهة والرجال هذا المكان لبناء مدينة روما من باب الصدفة ومن دون مبررات معقولة. بل من بينها السلامة الصحية القصوى لهذه التلال، وامتيازات هذا النهر الذي تأتينا منه محاصيل كل القارة، وكل التموين القادم من البحر، وقرب هذا البحر نفسه الذي يسهّل تجارتنا، وبُعد شاطئه عنا بما يكفي لحمايتنا من هجمات ومهانات الأساطيل الأجنبية، وموقع بوسط إيطاليا الذي يسمح بتنامي قوتنا وعظمتنا".

"انظروا لمدى توسع مدينة جديدة. عمر مدينتكم حتى الآن ثلاثمائة وخمسة وخمسون سنة. وفي هذه المدة لم تنل منا كل الحروب المتواصلة ضدنا من قبل كل تلك الشعوب العتيقة المحيطة بنا، القريبة منها وحتى البعيدة، كالفولسك والإيك وشعوب الإتريسك الرهيبة في البر والبحر، والتي تمتد أراضيها من شرق إيطاليا إلى غربها. فمن بعد كل تلك المحن المُرة التي انتصرنا فيها، ما الذي يحملكم على تجربتها من جديد ؟ يمكن أن تنقلوا معكم إقدامكم حيثما توجهتم، لكن لن تحملوا معكم بركة هذا المكان. فهنا مبنى الكابطول حيث وجدت جمجمة رجل وفُسرت على أن هذا المكان سيكون هو رأس العالم وسيد كل الدول. هنا يوجد كل ما سيصنع مجدكم، والذي سيتخلى عنكم إن أنتم تخليتم عنه".

للتخفيف عنك كان بودنا الاكتفاء بترجمة قدر بسيط من تلك الخطبة الطويلة. لكننا لم نستطع بالنظر لما وجدنا فيها من تأريخ لبعض معالم منظومة قيم الرومان التي ما من خطيب في الشعب إلا وكان يلجأ إليها كي يقنعه بوجهة نظره ويوافقه عليها عند الاقتراع، في مقابل وجهة نظر خصومه. والأهم من كل ذلك هو أن تلك الخطبة صادرة عن رجل من رجال الدولة وإلى الشعب. بل هي صادرة عن الديكتاتور الذي كانت له سلطات شبه مطلقة ولو لزمن محدود. كان الحديث فيها للشعب عن مشروع قانون الهجرة من مدينة روما التي خُربت إلى مدينة Véies الإتريسكية المحتلة، والتي كانت أكبر من روما وأبهى منها جمالا ومعمارا. والمقترح كان صادرا عن نواب العوام وكان يعارضه البطريقيون. ولا نواب العوام ولا الديكتاتور زعيم البطريقيين كان يستطيع فرض إرادته على الشعب. بل كان كل من الطرفين يدافع عن موقفه أمامه. ثم الشعب هو الذي يقرر ما يريد عبر صناديق الاقتراع وبكل حرية. هذا مرة أخرى أمر عجيب وغريب، بالنسبة لتلك العصور الغابرة.

ثم يقول تيت ليف : "تأثرت الجموع بخطابات أخرى للديكتاتور Camille، ولا سيما بتلك الاعتبارات المستوحاة من الدين. ثم جاءت كلمة من السماء لترفع كل الشكوك. ما أن خرج مجلس الشيوخ من تلك الجموع حتى التحق بإحدى العشائر الثلاثين للتداول. حينها مرت من الساحة صفوف من الجنود تمشي بنظام، ثم صاح أحد ضباطها ليقول : "يا حامل العلم، اغرسه هنا، فلن نكون أفضل في أي مكان غيره". سمعه مجلس الشيوخ واعتبرها بشرى من السماء، فخرج على الفور ليصيح : "نقبل بهذه البشرى". ورددت الجموع نفس القول وبصوت واحد لتؤيده. بذلك عبّر الشعب

---

[1] *Véiens* أي أهل أوشعب *Véies*

بإجماع على رفض مشروع التخلي عن روما والهجرة لمدينة Véies، وبدأت عملية البناء في كل مكان. ساهمت الدولة بتوزيع القرميد، كما سمحت باقتلاع الحجارة وقطع الخشب شريطة الانتهاء من الأشغال في ظرف سنة. شرع كل واحد يبني بيته في أول مكان وجده خاليا سواء كانت الأرض سابقا له أو لغيره. في تلك العجلة تم إهمال تصفيف البيوت في أزقة وشوارع مستقيمة. هكذا قنوات صرف المياه العادمة التي حُفرت سابقا تحت الأزقة والساحات العمومية وفق تصميم عمراني منظم، صارت توجد تحت منازل المواطنين. بتلك العشوائية في إعادة بنائها تشوه مظهر المدينة".

وتأمل معنا الحس الفني المعماري عند قدامى المؤرخين الذين أخذ عنهم تيت ليڤ، وهم يؤرخون بذلك لمدى تقدم فن المعمار الحضري في تلك العصور الغابرة. سبق لنا أن رأينا في الفصل الأول من الكتاب نموذجا من ذلك مع الملك طاركان المتغطرس الذي حفر قنوات الصرف الصحي الطويلة من تحت المدينة لتطهير روما من الروائح الكريهة التي كانت تزكم أنوف ساكنتها. والأطلال الهائلة والقائمة بروما حتى اليوم، ومنذ العهد الملكي تدل على مدى تقدم فنون البناء والمعمار، بحيث كانت لتعليم الهندسة المعمارية المدنية والعسكرية مدارس خاصة بكل كبريات المدن الإيطالية واليونانية والفارسية والهندية والصينية. كان المهندسون من كل تلك الجنسيات يتبادلون الخبرات فيما بينهم ويعملون تحت الطلب لأية دولة. زد على ذلك الآثار المبهرة لحضارة الأنكا بأمريكا اللاتينية.

إلا أن كل ذلك لا يعلو قيمة على الحضارة السياسية. لو كانت روما مجرد مدينة من الأكواخ، ومع ما رأيت من صراع سياسي سلمي بين المستضعفين والمترفين من أجل اقتسام السلطة والثروة بالعدل، لكانت أفضل وبكثير من كل الحضارات الثقافية والمادية الصرفة ذات المعمار الباهر وحيث كانت الشعوب بيد حكامها المترفين مجرد قطيع كبهائم الأنعام لا تصلح سوى للإذلال الاستغلال. لما تسمع عن حضارة مزدهرة، بادر واسأل للتو بأي معيار كان شعبها متحضرا ؟ هل بمعيار العدل والمساواة بين البشر في الحقوق والواجبات، أم بمعيار مجرد ترف المترفين والمتسلطين على رقاب وأرزاق المستضعفين ؟

ثم يقول تيت ليڤ : "بقيت الجمهورية تتكئ على كتف Camille كي تبقى قائمة من بعد ما ساعدها هذا المواطن الروماني العظيم على الوقوف من جديد. لم يُقبل منه، كما كان ينبغي ذلك بحسب القانون، التنازل عن منصب الدكتاتورية قبل نهاية السنة. ولم يقبل الرومان تكليف النواب العسكريين بالإشراف على انتخاب رجال الدولة للولاية اللاحقة. فلجأوا لتعيين وَصيّيْن على كرسي القنصلية للقيام بتلك المهمة. وبالفعل تم تحت إشرافهما انتخاب خمس نواب عسكريين جدد".

"لكن لما كان الرومان منهمكين في إعادة بناء مدينتهم بحماس لا ينضب، وما أن خرج النائب العسكري .Q فابيوس، من ولايته، حتى رفع ضده أحد نواب العوام دعوى أمام محكمة الشعب بتهمة سابق استفزازه لقوم الكُول وجلبهم لغزو روما. حصل ذلك لما تعمّد خيانة ثقة أولئك الأعداء فغدرهم بالاشتراك مع الإتريسك في الحرب ضدهم. حينها كان هو وأخوه القتيل في تلك الحرب مع غيرهما، سفراء مجلس الشيوخ في مهمة سلمية تصالحية معهم. إلا أن المنيّة عاجلت المتهم .Qفابيوس قبل موعد مثوله أمام المحكمة، بل شك الكثير في أنه قد انتحر". وقد حصل ذلك سنة 389 ق.م. وهي السنة 121 من عمر الجمهورية الرومانية.

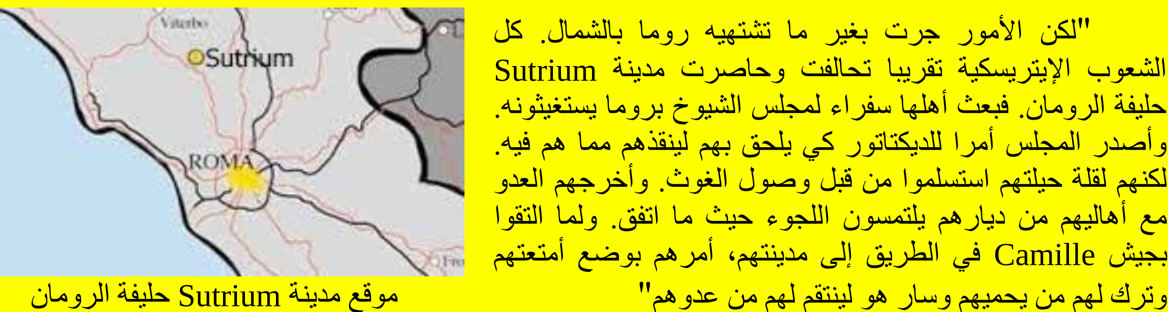
ثم يقول تيت ليڤ : "ما أن انتهت مهمة الوصاية على كرسي القنصلية حتى تولى النواب العسكريون الجدد مهامهم[1]. وفبدأوا بالبحث عما تبقى من سجلات القوانين الرومانية وعن مدونات الطقوس الدينية من بعد حريق روما. بعضها، كقوانين الألواح الإثنى عشر، تم نشرها بين عموم الشعب. لكن كل ما يتعلق منها بالطقوس الدينية تم التعتيم عليها حتى تبقى حكرا على الكهنة من البطريقيين فلا تطلع عليها الجموع، وتبقى بذلك فئة العوام غير مستقلة عن البطريقيين برابط الدين. هكذا وفي غياب فئة العوام، تم تحديد مختلف أيام المناسبات المقدسة التي يحرُم فيها عليهم العمل الخاص والعام، ومن بينها مواعيد الجلسات القضائية".

"ولم يمضي ما يكفي من الوقت للعناية بإعادة بناء روما حتى شرعت طبول الحرب تدق من جديد ضدها من قومي الفولسك والإيك الأعداء التقليديين، ومن شعوب الإتريسك الذين لا يقلون عداء للرومان، بل حتى من الحلفاء اللاتين من بعد ما ظلوا أوفياء لروما منذ ما يقرب من قرن من الزمن. مع ضغط هذه الأخطار المتعددة التي كانت تهدد روما من كل جهة

---

[1] لم يعد تيت ليڤ في حاجة للإشارة إلى أن النواب العسكريين الجدد كانوا كلهم من البطريقيين، لأن ذلك الأمر أصبح شبه طبيعي بالرغم من ترشح العوام لذلك المنصب.

صار من الضروري وضع أمر الدفاع عن المدينة بيد الجنرال Camille الذي سبق أن حررها من احتلال قوم الكَول. فعُين مرة أخرى ديكتاتورا، وبدأ بإصدار قرار يقضي بتعليق العمل بالمؤسسات القضائية "le "iustitium. ثم شرع في تجنيد الشباب. وقبل بالتطوع للقتال حتى الشيوخ القادرين على حمل السلاح. ثم وزع جيشه على تلك الجبهات الثلاث التي يأتي منها الخطر. سار بالقسم الذي يقوده هو لقتال شعبي الفولسك والإيك الذين، خوفا من تعيينه ديكتاتورا، عمدوا لحماية معسكرهم بجذوع الأشجار التي اقتطعوها. فبادر هو بحرقها حتى طوقتهم نارها وفتحت لجيشه مدخلا لمعسكرهم حيث أبادهم جميعا وحصل على غنائم هائلة، ووزعها على غير عادته على جنوده. ثم سار يعيث فسادا في أرضيهم حتى وصل مدينتهم فاحتلها أخيرا من بعد حرب دامت معهم من قبلُ سبعين سنة. وكذلك فعل بقوم الإيك الذين احتل مدينتهم أيضا من بعد ما سحق جيشهم واستسلموا له".



"لكن الأمور جرت بغير ما تشتهيه روما بالشمال. كل الشعوب الإيتريسكية تقريبا تحالفت وحاصرت مدينة Sutrium حليفة الرومان. فبعث أهلها سفراء لمجلس الشيوخ بروما يستغيثونه. وأصدر المجلس أمرا للديكتاتور كي يلحق بهم لينقذهم مما هم فيه. لكنهم لقلة حيلتهم استسلموا من قبل وصول الغوث. وأخرجهم العدو مع أهاليهم من ديارهم يلتمسون اللجوء حيث ما اتفق. ولما التقوا بجيش Camille في الطريق إلى مدينتهم، أمرهم بوضع أمتعتهم وترك لهم من يحميهم وسار هو لينتقم لهم من عدوهم"



موقع مدينة Sutrium حليفة الرومان

.

"ثم كالعادة، ومن بعد الانتصار واحتلال مدينة Sutrium، وجد الديكتاتور الغزاة الإتريسكيين مشتتين ومنهمكين في جمع الغنائم، وكل الأبواب مفتوحة وخالية من كل حراسة. ومن دون أن يترك لهم الوقت للتجمع ولتنظيم صفوفهم، أخذ الجيش الروماني في نحرهم واحدا تلوالآخر. الذين اتجهو هاربين صوب الأبواب وجدوها موصدة بأمر من الديكتاتور، فلاقوا عندها حتفهم. ومن تبقى منهم ألقى السلاح واستسلم لعدوه. وبالنظر لكثرة عدد الأسرى وزعهم الديكتاتور إلى مجموعات تسهل حراستها. هكذا احتُلت Sutrium مرتين في يوم واحد. وما أن حل الليل حتى سُلّمت لأهلها سليمة من كل تخريب، لأنها استسلمت من قبلُ للعدو من دون حرب".

"ولما عاد Camille لروما منتصرا باع الأسرى في المزاد العلني وحوّل ثمنهم ذهبا ثم وهبه لمعابد الآلهة شكرا منه لها على ما أحرزه من نصر. ومنح حق المواطنة الرومانية لكل الذين تطوعوا في الجيش الروماني في تلك الحروب الثلاثة من شباب ورجال المدن الإيتريسكية التي أصبحت تحت حكم روما. كما مُنحت لكل منهم علاوة على ذلك قطع أرضية. فارتفع عدد ساكنة روما بهؤلاء المواطنين الجدد، وأحدثت من أجلهم بأماكن استقرارهم أربعة أحياء جديدة[1] حتى أصبح مجموعها خمسة وعشرين حيّا[2]"

وهنا غموض كبير بالنظر لما للحدث من تداعيات سياسية ولم يدقق فيها تيت ليف. أولا المواطنون الجدد هل ضُموا لفئة البطريقيين أم لفئة العوام ؟ في عهد الملكية عرفنا أن غرباء صاروا بطريقيين ثم ملوكا. لكن ما كانت حينها قضية العوام مطروحة، من حيث لم يكن لهم وجود سياسي بالمملكة كالذي صار لهم في عهد الجمهورية. الحقوق السياسية وما يتبعها من حقوق اقتصادية واجتماعية ما زالت حتى هذه المرحلة من تاريخ الجمهورية جد متفاوتة بين الفئتين. فلن يقبل العوام بأن يصبح غرباء مواطنين جدد، ويكونوا مباشرة من البطريقيين. فمن المرجّح كثيرا أن يكونوا فقط من العوام.

ثم الزيادة في عدد الأحياء يكتنفه أيضا غموض، بالنظر لما له من تداعيات سياسية. من بين واحد وعشرين حيا المشكّلة لهيئات العوام الترابية les comices tributes كانت الأغلبية للبطريقيين فقط في أربعة منها. بذلك، وفي انتخابات بعض رجال الدولة، وفي التصويت على القوانين، وفي المحاكمات الخاصة بقضايا أمن الدولة، كان ثقل البطريقيين يعادل فقط الخمس في مقابل أربعة أخماس للعوام. بإضافة أربعة أحياء أخرى من أجل المواطنين الجدد، إن صاروا كما قلنا من العوام، فسيتقلص ثقل البطريقيين السياسي في تلك الاقتراعات إلى الثُّمن، أي أربعة أحياء من أصل خمسة وعشرين حيا. وحينها يحق لك أن تستغرب من صدور قرار مثل هذا عن البطريقيين.

[1] أو قبائل جديدة كما في النص
[2] أو قبيلة

وأخيرا لم يقل لنا تيت ليف كيف تم توزيع الأراضي، بلا شك بأرياف روما، على المواطنين الجدد، في حين كان العوام يطالبون بها منذ مدة ومن دون جدوى. ثم لا توجد في أرياف روما أراضي خلاء من دون ملاك، وإلا كانت قد وُزعت من قبلُ على العوام. فلا بد إذا من انتزاعها من البطريقيين لتوزيعها على المواطنين الجدد. فكيف يقبل البطريقيون بسخاء للمواطنين الجدد وقد رفضوه للعوام من قبل ؟ لا ندري.

ثم يقول تيت ليف : "صدر عن مجلس الشيوخ مرسوم يقضي برجوع المواطنين الرومان الذين استقروا بمدينة Véies تجنبا منهم لتحمل مشقة إعادة بناء مساكنهم المخربة بروما. لكنهم اجتمعوا واعترضوا على ذلك الأمر. فأعطاهم مجلس الشيوخ مهلة للرحيل تحت طائل التهديد بالعقاب لمن تمرد. واستسلموا في نهاية المطاف وعادوا إلى روما. ثم تسارعت أشغال البناء الخاصة والعمومية حتى انتهى بناء روما من جديد قبل متم السنة، وبمعالم عمرانية في حلة أبهى مما كانت عليه قبل الاحتلال والتخريب. وكان من بينها الكابطول الذي أعيد بناؤه من الأساسات". وعلق تيت ليف على ذلك بقوله : "وما يزال حتى يومنا هذا قائما ليشهد على ذلك الإنجاز العظيم". وما كانت تهدأ الأمور بالخارج حتى تتجد الصراعات السياسية بالداخل بين العوام والبطريقيين. عاد مرة أخرى نواب العوام في إلى إغراء الشعب باقتراح جديد لقوانين الإصلاح الزراعي. لكنه فشل في تمريره.

فيقول تيت ليف : "في خضم أشغال إعادة بناء روما صار نواب العوام يحاولون جلب الجموع للساحة العامة من أجل تحريضها على المطالبة من جديد بتوزيع عادل للثروة بين فئتي الشعب عبر تمرير قوانين الإصلاح الزراعي. كانوا يشيرون إلى الأراضي التي أصبحت ملكا للدولة من بعد ما انتزعها الديكتاتور Camille من شعب الڤولسك. كانوا يستنكرون التواجد الكثيف للبطريقيين للترامي على تلك الأراضي، والذي صار أكبر من تواجد قوم الڤولسك فيها من قبل. وما سبق للعدو أن تمدد واستقر فيها سوى بقوة السلاح. أما البطريقيون فقد تمددوا فيها باغتصاب ممتلكات الدولة. وإلّم يبادر نواب العوام بالمطالبة بالقسمة، فسوف يستولي عليها البطريقيون كلها ولن يبقى منها للعوام شيء. لكن نواب العوام لم يستطيعوا بذلك الخطاب إغراء الجموع بما يكفي كي يجلبوهم للساحة العامة، وقد أبعدتهم عنها كثرة أشغال البناء. ثم إنهم كانوا منهكين بثقل حجم النفقات على تلك الأشغال، فما كانوا يطمعون في أراضي ما لهم الإمكانيات المالية لزراعتها". و سنعفيك من ترجمة عدة حروب بالجنوب ضد الفولسك وأخرى بالشمال ضد الإتريسكيين سوى إخبارك بأنها تمت كلها بالنصر للرومان بقيادة الجنرال Camille لكنه هذه المرة كنائب عسكري منتخب وليس كديكتاتور معين. وبالرغم من تجذر النظام الأرستو-ديمقراطي

أراضي قوم الڤولسك التي احتلتها روما

بروما منذ أكثر من قرن وعقدين من الزمن وُجد من بين البطريقيين من يسعى إلى القضاء على النظام الجمهوري كي ينتصب فيها ملكا بسلطة مطلقة. تلك كانت قصة المدعو Capitolinus نسبة لشجاعته وبطولته الشهيرة ليلة أنقد الكابطول من السقوط بيد قوم الگول أيام احتلالهم لروما. وهي المؤامر الثالثة ضد الجمهورية منذ نشأتها سنة 509 ق.م. فكيف فشلت ؟

مؤامرة جديدة ضد الجمهورية وضد حرية شعبها

يقول تيت ليف : "انتُخب هذه السنة (385 ق.م.)[1] ست نواب عسكريون. وكانوا كالعادة كلهم بطريقيين. ثم علاوة على المشاكل الخارجية مع الحلفاء من اللاتين والهنريك، جاء التمرد من الداخل، ومن حيث ما كان أحد يخشاه أو يتوقعه. جاء من رجل بطريقي صاحب شهرة ومجد قديم. وهو الملقب Capitolinus نسبة لشجاعته وبطولته الشهيرة ليلة أنقد الكابطول من السقوط بيد قوم الگول أيام احتلالهم لروما. كان متعجرفا، فكان يحتقر كل الكبار. ثم تركز كل حقده على واحد من بينهم، وهو البطل Camille الشهير بأمجاده ومناقبه. كان يغار من تعاقبه مرارا على رأس الولاية الكبرى

[1] وهي السنة 125 من عمر الجمهورية الرومانية

بالدولة وعلى قيادة الجيوش. كان يلوم الرومان على الإفراط في الرفع من قدره عاليا. ثم صار يقلل من قدر الذين يُنتخبون معه فلا يعتبرهم زملاء له. بل كان يتخذهم خدما عنده. في تقديره، ما كان بوسع غريمه Camille تحرير روما من حصار قوم الگول، لولا أن أنقذ هو من قبلُ الكابطول من سقوطه بيد العدو. وللمزيد من التقليل من قدر مناقب Camille كان يقول بأنه ما تجرأ على مواجهة قوم الگول، سوى من بعد ما رأى العدو الفدية من الذهب أمامه في مقابل الهدنة والسلام. ومع أمله في الفوز بتلك الفدية فترت شجاعة جيشه على القتال. أما هو فقد واجه العدو وأسقطه جنوده صرعى من أعلى أسوار الكابطول لما كانوا مسلحين وفي عز قوتهم وإقدامهم. كما كان يقول بأن مجد Camille يعود الفضل فيه لكل جندي من جيشه الذين قاتلوا معه. أما هو فلم يشاركه أحد في مجد انتصاره على العدو يوم دحره لوحده من أعلى الكابطول. منتفخ بمثل تلك الأفكار، وصاحب مزاج ميال للغضب والعنف، كان ذلك الرجل يرى أن البطرقيين ما قدّروه حق قدره، فما رفعوه للمقام الذي يليق به".

"وكمثال على البطريقي الأول الذي ينقلب على فئته، استسلم للعوام وصار يتفاهم مع نوابهم ويؤيدهم. كان ينتقد مجلس الشيوخ ويسعى بذلك لاكتساب تعاطف جموع المستضعفين. غلبت فيه الشعبوية على التعقل فصارت شهرته كبيرة، لكن من دون أن تكون مستحقة. لم يكتفي بتبني قوانين الإصلاح الزراعي التي كانت عند نواب العوام سلاح التحريض على البطريقيين، بل سعى لتخريب ثقة الجموع في مؤسسات الجمهورية. كان يذكّرها بمخاطر ثقل الديون التي صارت تهدد الرومان ليس فقط بالبؤس والخزي، بل بالقيود من حديد وبالاسترقاق". وعلق تيت ليف على ذلك بقوله : "وهي الأمور المفزعة لكل كيان حر. كانت الديون فعلا هائلة ومتعددة بسب أشغال البناء، وكانت تثقل حتى كاهل الأغنياء".

ثم يسترسل المؤلف قائلا : "في ظل تلك الأجواء الداخلية المخيفة جاءت حرب الڤولسك مع تخاذل الحلفاء من اللاتين والهنريك لتشكل ذريعة قوية من أجل اللجوء إلى تعيين سلطة قوية بالولاية الكبرى على رأس الدولة. لكن تمرد Capitolinus كان هو الأكثر تأثيرا في مجلس الشيوخ في تعيين Cornelius Cossus ديكتاتورا يقود تلك المرحلة الحرجة من تاريخ الجمهورية. كان Cossus يتوقع أن تكون المشاكل الداخلية أقوى من المتاعب الخارجية. لكنه فضل البداية بمواجهة جيش الڤولسك، سواء بسبب ما تتطلبه الحرب من عجلة، أو أملاً في أن يكون الانتصار فيها مساعدا على تقوية نفوذه لمواجهة المشاكل الداخلية". ولن نثقل عليك كالعادة بترجمة حرب الديكتاتور الجديد على الڤولسك وعلى من تحالف معهم من حلفاء روما التقليديين، سوى انه انتصر في الأخير عليهم جميعا. لكن اندلعت من جديد معارضة العوام بزعامة البطريقي المشاغب Capitolinus.

فيقول تيت ليف : "ما أن انتهى الديكتاتور من حملته على الڤولسك وعلى حلفائهم حتى استدعاه مجلس الشيوخ لمواجهة تمرد داخلي متصاعد ومخيف والذي كان يتزعمه نفس البطريقي Capitolinus، من بعد ما أضاف الأفعال للأقوال. أحد قواد الكتائب العسكرية سابقا، والذي عُرف ببطولاته وبمناقبه الحربية، حُكم عليه بالاسترقاق لعجزه عن سداد ما عليه من ديون، فاسترقه الدائن عبدا. حينها أسرع إليه Capitolinus مع جمع من مواليه بوسط الساحة العامة، وأطلقه من قبضة سيده. ثم أطلق لسانه ليعرّض بكبرياء البطريقيين وبوحشية وجشع المرابين، وليرثي بؤس حال الشعب وسوء حظ ذلك الرجل صاحب المجد العسكري الذي أفلس فأطلقه من قبضة الدائن الذي استرقّه. وقال : "هل أنقذتُ أنا الكابطول بذراعيّ كي أتحمل أن يُقبض تحت بصري على مواطن رفيق لي في السلاح، ثم يقاد للعبودية وللسجن مثل القبض على الأسير من الأعداء ؟" ودفع للدائن ما كان على الرجل المدين من ديْن وأعتقه من الرق".

"انسحب الرجل المعتوق وهو يُشهد الآلهة والرجال على عظيم إحسان مُحرره Capitolinus ويدعوهم لكي يكافئوه بما يليق به كأب للشعب الروماني. وازداد شغب وسخط الجموع لما أخذ الرجل يعري لها عن مختلف الجروح التي أصيب بها في العديد من الحروب وهو يقول : "لما كنت أقاتل من أجل الجمهورية أدّيت ألف مرة فوائد ما كان عليّ من ديون. ومع ذلك وفي الأخير سحقني الربا. إن عدت لأرى النور وأرى الساحة العامة والمواطنين فبفضل الرجل الكريم Capitolinus. تلقيت منه كل الخير الذي يتلقاه الولد من أبيه. وأهب له ما تبقى لي من قوة وحياة ودم. كل ما كان يربطني بالوطن وبالمقدسات الخاصة والعامة أصبح يربطني من الآن بهذا الرجل من دون غيره"".

"متأثرا بتلك الكلمات صار ولاء كل المستضعفين من الشعب لذلك الرجل المحسن Capitolinus وحده. ولاكتساب المزيد من ولائهم له فكر في وسائل جديدة. كانت له أرض بمدينة Véies وهي الأفضل من بين ما كان يملك. فوضعها للبيع في المزاد العلني وهو يقول : "هذا وغيره مما أملك أبيعه من أجلكم يا رومان، حتى لا أرى أحدا منكم مُدانا ومكبلا في الحديد"". وعلق تيت ليف على ذلك بقوله : "فالتهبت العقول وصارت مستعدة للسير وراء أي مدافع عن الحرية وفي كل اتجاه، سواء كان اتجاهه جيدا أوسيئا. كانت خطاباته، كتحريضات نواب العوام، مليئة باتهامات ضد مجلس الشيوخ. هكذا ومن دون يقينه من صحة ما كان يقول، ادعى أن الغزاة الگول تركوا كنوزا من الذهب وأخفاها أعضاء المجلس عن الشعب. فصار يقول لمن حوله من المستضعفين : "لم يقنع أعضاء مجلس الشيوخ بالترامي على أراضي الدولة، فعمدوا لنهب المال العام. وإذا ما استرجعنا تلك الثروات فستكون كافية لسداد ديونكم". حينها راود الجموع بريق ذلك الأمل، واعتبرت من الخيانة للشعب أن يتحوّل الذهب الذي استُرجع من العدو إلى فريسة لثلة من الرجال

النافذين، من بعد ما اكتتب فيه المواطنون من أجل دفعه كفدية للغزاة مقابل تحرير الوطن. وصارت الجموع تضغط على Capitolinus كي يكشف لها عن مخبأ ذلك الكنز المختلس بزعمه. فصار يقول لهم بأنه سينبئهم به في الوقت المناسب. لكن العقول نسيت كل شيء وصارت لا تفكر سوى في ذلك المخبأ المزعوم. وصار من الواضح أن كل رصيد مصداقية Capitolinus أصبح مرهونا بكشف حقيقة أوزيف مزاعمه".

"ولما عاد الديكتاتور من الحملة إلى روما باستدعاء من مجلس الشيوخ كانت القلوب معلقة بأمل كشف ذلك الكنز المزعوم. فجمع الجنرال أعضاء المجلس من حوله وأمرهم بالسير من ورائه إلى مقر الولاية بالساحة العامة حيث كانت تنتظرهم الجموع. هنالك أمر أحد أعوان المحكمة بإحضار Capitolinus. استجاب للأمر، إلا أنه حضر محفوفا بالجموع التي تدعمه ومستعدة للمواجهة. فكان مشهد مجلس الشيوخ من جهة والشعب من جهة ثانية، وكل منهما من وراء قائده متقابلين، كان كمشهد جيشين في ساحة حرب".

"أمر حينها الديكتاتور بالصمت، وقال لزعيم التمرد Capitolinus : "أشهِد الآلهة على أن البطريقيين الرومان قادرون على التّفاهم مع جموع الشعب بخصوصك وبخصوص السؤال الذي سأطرحه عليك. رأيتُ أنك أعطيت الأمل لجموع الناس بأن كنوز الغزاة التي خبأها كبار البطريقيين بزعمك كافية لسداد ديونهم. وأنا لن أكذبك ولن أطعن في مصداقيتك. بل على العكس من ذلك أحثك على تخليص الشعب الروماني من ثقل تلك الديون، وعلى فضح واقتلاع أولئك المختلسين الذي يجلسون فوق ذلك المال العام المختلس. وإلم تفعل، فإما لأن لك نصيب في الغنيمة، أو لأن مزاعمك كاذبة. وحينها سآمر بتكبيلك في الحديد، ولن أتحمل طويلا تهييجك للجموع بآمال زائفة"".

"ردا على ذلك قال Capitolinus للجموع : "أنا لم أخطئ حين قلت لكم أن مجلس الشيوخ لم يعين دكتاتورا من أجل مواجهة الأعداء، بل عينه لمواجهتي ومواجهة الشعب. ها هو قد تخلى عن تلك الحرب المزعومة ليهجم عليّ أنا. ثم ها هو يعترف بأنه هو زعيم الدائنين المُرابين ضد الشعب. ويريد أن يجعل من تعاطف الشعب معي جريمة لكي يتخلص مني". ثم توجه للدكاتور قائلا "أما أنت، فالذي يزعجك ويؤلمك ويؤلم من معك من مجلس الشيوخ، هو رؤية الجموع ملتفة من حولي. فهيّا، فرّقوا بيني بينهم بفضل حسن معاملتكم لهم. تشفّعوا فيهم وانتزعوهم من السياط، وحُولوا بسخائكم دون إدانتهم ودون استرقاقهم. ثم خففوا من بؤس الآخرين بتلبية حاجياتهم من ثرواتكم. لكن أين أحثكم بالضبط على بدل الجهد ؟ اقنعوا باسترداد مبلغ محدد من مستحقات ديونكم عليهم، واخصموا من رؤوس الأموال التي أقرضتموها لهم كل ما تقاضيتموه منهم من فوائد. قد تقول أنت وغيرك لماذا أنا لوحدي أتبنى الدفاع عن قضايا المستضعفين من المواطنين ؟ ليس لي جواب سوى ما أردّ به عليك لو أنك سألتني لماذا سبق لي أن أنقذت أنا الكابطول لوحدي من هجوم العدو. حينها قدمت ما أستطيع للدفاع عن الجميع. واليوم أقدم ما أستطيع للدفاع عن كل واحد منهم. أما بخصوص كنز الغزاة الكّول فالأمر بسيط بطبيعته. لكن السؤال عن مكانه يجعل من القضية أمرا صعبا. فلماذا تسألني أنت عن شيء تعرفه ؟ لماذا تأمرني بخلخلة ما تخفيه أنت تحت جُبّتك، بدلا من أن تضعه بنفسك هنا، إلم يكن هناك من غش ؟ فليس عليّ أنا الكشف عما اختلستموه، بل علينا أن نُرغمكم أنتم على إخراجه إلى النور"".

وسجل معنا كم كان مثل هذا الحدث استثنائيا في عالم عريق كانت فيه الأنظمة الاستبدادية هي القاعدة. مجرد مواطن عادي متهم بنشر البلبلة والفتنة في الوطن، ولا يُقبض عليه ولا يُسجن حتى تُحقّق معه أعلى سلطة في البلاد وفي العلن أمام جموع الشعب وبالساحة العامة، وحتى يقول هو كلمته بكل حرية ومن دون أن يقاطعه أحد. بل نجده هنا يتهم حتى من يحقق معه بالفساد، ولا يعتدي عليه بأي حال من الأحوال. في الأنظمة الاستبدادية كان يكفي المستبد أن يغضب من أي كان وحتى من أفراد عائلته ولأتفه الأسباب، كي ينتقم منه للتو وبحسب ما يروق لمزاجه، وقد يقتله كقتله لحشرة وهو لا يبالي.

ثم يقول تيت ليڤ : "أمر الديكتاتور المواطن المشاغب Capitolinus بالتخلي عن اللف والدوران، وطالبه بالدليل والحجة على صحة مزاعمه، أو بالاعتراف بجريمته وبزيف اتهامه لمجلس الشيوخ بالاختلاس المزعوم. لكن Capitolinus ظل يرفض الكلام وفق ما يطلبه منه الديكتاتور زعيم خصومه، والذي أمر حينها بالقبض عليه وبسجنه. وما أن قبض عليه العوْن حتى صار Capitolinus يصيح قائلا : "يا إلهي جوبتير الطيب والكبير، ويا أيتها الآلهة التي تسكن في الكابطول، أيُرضيكم التخلي هكذا عن جندي سبق له أن دفع عنكم لوحده كيد الأعداء ؟ هل يرضيكم أن تُقيد في الحديد والأغلال يديّ هاته التي أبعدتا الغزاة الكّول عن معابدكم ؟". ولم يكن هناك من المستضعفين من يستطيع رؤية Capitolinus وسماعه من دون أن يتحسر على تلك المهانة".

وعلق تيت ليڤ على ذلك بقوله: "وبعيدا كل البعد عن الاعتراض على حكم الديكتاتور، لم يجرؤ أحد لا من نواب العوام ولا من الشعب أن يرفع النظر إليه ولا أن يفتح فمه. جعلت الجموع بكل المدينة من طاعة السلطة الشرعية واجبا لا يقهر، ولا سيّما مع تملص Capitolinus من الكشف عن مكان إخفاء الكنز المزعوم. لكن ذلك لم يبدّد شكوكها في

اختلاس كبار البطريقيين للذهب. ولم يفقد Capitolinus الأمل في استمرار تعاطف المستضعفين معه ولا سيّما بالنظر لما قاله في حق البطريقيين بخصوص ثقل الديون المستحقة عليهم. ويقال أن جزءً كبيرا من الشعب بدّل ملابسه وأهمل تنظيفها حزنا على رميه في السجن. بل من المواطنين من أطلقوا لحاهم وأهملوا حلق رؤوسهم حسرة عليه، وظلوا يمرون من أمام دهليز السجن الذي أودع فيه".

"وبدلا من أن يجني الديكتاتور ما استحقه من مجد بانتصاره في الحرب صار يجنى الحقد عليه بسبب سجنه للمتهم Capitolinus. في المدينة لم ينتصر على عدو بسلاح الجيش بل تغلب على مواطن بموجب القانون. فكان يقال في حقه : "ما كان ينقص كبرياء الديكتاتور سوى فرحة واحدة، وهي فرحة اقتياد Capitolinus كالأسير في الحرب أمام عربته الحربية". وكانت الثورة على وشك الاشتعال لولا تدخل مجلس الشيوخ الذي أصدر مرسوما يقضي بإحداث مستعمرة ببلاد اللاتين كي تُوزّع أراضيها على ألفيْن من المواطنين، بمقدار فدانين ونصف لكل واحد منهم. جاء ذلك السخاء من المجلس من دون طلب من أحد. لكن تلك الهبة المتواضعة والجد محدودة، ساء تأويلها، لما اعتبرتها الجموع رشوة مقدمة للشعب في مقابل خذلانه لبطله Capitolinus المسجون. بذلك تحول ما اعتبره المجلس علاجا للأزمة إلى مبرر للتمرد. ولما تنازل الديكتاتور عن منصبه، كما كان القانون يقتضي بذلك، زال خوف الجموع من سلطته الواسعة وصارت لها بذلك حرية أكبر في التعبير عن مشاعرها".

"فبدأت تُسمع أصوات تندّد بتعوّد الشعب على تشجيع المدافعين عنه ورفعهم إلى الأعلى ثم تخليه عنهم في ساعة الشدة، وكأنه كان يسمّنهم كي يقدمهم للذبح بالمجزرة. صارت حينها الجموع لا تفارق السجن، حيث اعتقل Capitolinus، وحتى خلال الليل. وصارت تهدد باقتحامه إلى حين يتحقق لها ما تريد، لما أصدر مجلس الشيوخ مرسوما يقضي بالإفراج عن سجينها. لكن ما توقفت الاضطرابات بذلك القرار، بل منحها على العكس من ذلك زعيما". وما كان هذا الإفراج عن Capitolinus عفوا عن متهم مدان. حتى تلك المرحلة لم يصدر بعدُ في حقه أي حكم من طرف الشعب. كان فقط في حال ما نسميه اليوم الاعتقال الاحتياطي. وكانت المحاكمة لا تتم إلا بشرط وجود مدعي. أما وقد تنازل الديكتاتور عن منصبه ولم يتبنى الدعوى أحد من رجال الدولة من بعده، فلم يعد Capitolinus متهما أصلا.

ثم يقول تيت ليف : "حينها جاء مبعوثو المستعمرات والحلفاء ببلاد اللاتين الذين سبق أن تطوع شبابهم مع الڤولسك في الحرب على روما. جاؤوا ليعتذروا عما صدر من دويهم، وتجرأول ليطالبوا مجلس الشيوخ بتسليمهم الأسرى منهم كي يحاكموهم بحسب قوانينهم هم. لكنهم تلقوا من المجلس جوابا قاسيا، من حيث طلب منهم الخروج الفوري من المدينة والابتعاد عن نظر الرومان، وإلا فما لهم حصانة السفراء الخاصة بالأجانب، لكونهم مواطنين من مواطني مستعمرات روما".

"وانتُخب لهذه السنة (384 ق.م.)[1] نواب عسكريون، وكانوا كلهم كالعادة بطريقيين. وكان السلام الحاصل بالخارج مفيدا للعوام من أجل النضال بالداخل ضد ربا الديون بزعامة Capitolinus القوية، والذي ازداد إقدامه بفضل سابق موقف الشعب الغاضب من سجنه حتى أفرج عنه، بمقدار ما ازداد حقده وحنقه على كبار طبقته من البطريقيين. فخاض من جديد في تحريض الجموع ضدهم. وعمد إلى جمع المستضعفين وكل المثقلين بالديون في بيته الموجود بالقلعة، وأخذ يقول لهم : "إلى متى ستبقون تجهلون قوتكم ؟ في حين حتى الوحوش ما تركتها الطبيعة تجهل قوتها. أحصوا على الأقل كم هو عددكم، وكم هو عدد حصومكم. ولو كنتم في هذا الصراع واحدا مقابل واحد لقاتلتم بقوة من أجل الحرية أكثر مما يقاتل هؤلاء من أجل الاستبداد بكم. أظهروا لهم فقط استعدادكم للحرب وستنالون منهم السلم. ومتى ما رأوا فيكم استعدادا لاستعمال القوة فسيعترفون لكم بحقوقكم من تلقاء أنفسهم"".

ثم قال : "إلى متى ستظلون لا تنظرون إلا إليّ أنا ؟ صحيح أنني لن أخذل أحدا منكم. تمنوا فقط ألا يخذلني القدر. أنا المنتقم لكم. لكن ما أن يجد الأعداء فرصة لإيقافي فسيمنعونني من ذلك. رأيتم مكبلا في الحديد ذلك الذي دفع الحديد بعيدا عن أيادي كل واحد منكم. فماذا بوسعي أن أعمل لكم في حال ما أقدم أعدائي على أكثر من ذلك ؟ هل تنتظرون حتى يصيبني ما أصاب من هو مثلي من قبل[2] ؟ حسنا تفعلون برفضكم وباستبعادكم لذلك الفأل السيئ. ولا شك في أن الآلهة ستحول دون ذلك. لكنها لن تنزل أبدا من السماء من أجلي. فقط ندعوها كي تهبكم ما يكفي من الشجاعة فتدافعون عني كما وهبتني نفس الشجاعة كعسكري ثم كمدني كي أدافع عنكم ضد مواطنين وحشيين ومتكبرين"".

---

[1] وهي السنة 126 من عمر الجمهورية الرومانية

[2] انظر في الكتاب الثالث " مقتل الثري *Maelius* المتآمر على الجمهورية "

واسترسل يقول : "هل هذا الشعب العظيم له قلب صغير حتى تكتفوا دائما بمن يساندكم ضد أعدائكم ؟ ألا تعرفون كيف تقاومون البطريقيين وأنتم كم قاتلتم من أجل أن تمكنوهم من التحكم فيكم ؟ ليست الطبيعة هي التي توحي لكم بذلك. بل مجرد العادة التي تهيمن عليكم. لماذا في وجه الأجنبي ترفعون جرأتكم عاليا وتعتبرون أنه من حقكم الهيمنة عليه ؟ فقط لأنكم تعودتم على قتاله من أجل ذلك. وهنا مع أعدائكم بالداخل فقط عليكم محاولة نفس الشيء من أجل الحرية بدلا من استجدائها منهم"".

ثم يقول : "حتى الآن، كل ما انتزعتموه من حقوق، سواء كانت كبيرة أو صغيرة، فبفضل إما القوة أو حسن حظكم. وها قد حان الوقت لكي تتطلعوا إلى انتزاع مكاسب أعظم وأجلّ. فقط جربوا حظكم السعيد وجربوني أنا الذي آمل في أنكم قد سعدتم لما جربتموني من قبل. اليوم تستطيعون أن تفرضوا على البطريقيين سيّدا من اختياركم بأقل صعوبة من التي فرضتم بها من قبل رجالا مقاومين لهم لما كانوا هم السادة. فلا بد من القضاء على مؤسستي الديكتاتورية والقنصلية حتى يستطيع الشعب رفع الرأس. وأخيرا أظهروا أنفسكم وحُولوا دون متابعة وإدانة المدينين المفلسين منكم. أنا أعلن نفسي سيد الشعب[1]. ومن ذلك اللقب سأستمد قوتي وإيماني بقضيتي وقضيتكم. إن أنتم لقّبتم زعيمكم بلقب يُظهر بقوة سلطانه وعلو مقامه فستجدون فيه أقوى عون لكم على اكتساب ما يحلو لكم"". ثم علق تيت ليف على خطابه ذاك بقوله : "منذ تلك الساعة صار Capitolinus يسعى إحياء الملكية من جديد وللتربع على عرشها. أما بمساعدة من، وإلى أي حد وصلت مساعيه ؟ فذلك ما لم نجد له أية رواية لتفسيره بوضوح".

"فانتاب مجلس الشيوخ قلق كبير من اجتماع فئة من الشعب بأحد البيوت الخاصة والموجودة بالضبط في القلعة. وصار يخاف من تحريض Capitolinus لتلك الجموع ومن تهديدها للحرية بروما. فصار العديد من أعضائه يقولون : "نحن في حاجة لمثل الديكتاتور سرڤيليوسAhala الذي قضى على الرجل المتمرد[2] وأنهى الفتنة من دون الحاجة لوضعه في السجن. الأمر الذي ما يزال يثير القلاقل". لكن القرار المُتخذ كان أقل حدة، وكان لا يقل عزما في الوقت نفسه. تقرر حث رجال الدولة على اتخاذ الحيطة والحذر لمنع مساعي Capitolinus من أن تصيب الجمهورية بأي ضرر. حينها شعر النواب العسكريون وحتى نواب العوام بأن كل تهديد للجمهورية كان فيه تهديد حتمي للحرية، ومن تم كان فيه تهديد لسلطاتهم ولنفوذهم، فانحازوا كلهم لصف مجلس الشيوخ، وصاروا يتشاورون فيما بينهم بخصوص الإجراءات الواجب اتخاذها لمواجهة مخاطر مساعي Capitolinus. ما فكروا في أول الأمر سوى في العنف والاغتيال. وصار بذلك من المتوقع حصول صراع رهيب. لذا قال نائبان عن العوام : "لماذا نحوّل الصراع بين المدينة وهذا المواطن المنحرف إلى حرب بين فئتي البطريقيين والعوام ؟ لماذا الهجوم على الشعب بالهجوم على ذلك الرجل الذي من الأفضل جعل الشعب نفسه يهاجمه حتى يُسحق بنفس ثقل القوة التي عبأها ويعتمد عليها ؟ يجب علينا تقديمه للمحاكمة أمام الشعب الذي ليس هناك شيء أكثر كرها وبغضا له من الملكية. لما تعلم تلك الجموع أننا لسنا بصدد مصارعتها، وبأنها ستتحول من محامي إلى قاضي، وأن العوام هم المدّعون وأن المتهم بطريقي وأن التهمة هو سعيه لإحياء الملكية من جديد، فلن ترى حينها من مصلحة لها أكبر من حريتها المرتبطة ببقاء الجمهورية"".

وقد تتساءل أنت، لماذا لم يفعل ذلك الديكتاتور السابق ضد Capitolinus فتكون روما قد تخلصت منه مبكرا. تذكر بأنه في تلك المرحلة لم يصدر عن ذلك الرجل ما يثبت تهديده للجمهورية وسعيه لإحياء الملكية، كما صار ذلك تحصيل حاصل هذه المرة. كان فقط يتهم كبار البطريقيين باختلاس وإخفاء كنز من الذهب ويطالبهم بالكشف عنه وبتخليص المدينين من ثقل الديون المستحقة عليهم بأدائها عنه، لكن من دون أي تهديد للجمهورية.

ثم يقول تيت ليف : "فنال اقتراح النائبين عن العوام كامل التأييد. ورُفعت دعوى ضد Capitolinus أمام محكمة الشعب بتهمة تهديد الحرية والجمهورية عبر سعيه لإحياء الملكية من جديد. في أول الأمر تأثرت الجموع برؤيته لما رأته ماثلا في المحكمة في خرق رثة، ويقف وحيدا من دون أحد بجانبه من البطريقيين، سناتورا كان أو أبويه وحتى أخويه، وذلك على غير عادتهم جميعا حتى ذلك اليوم. كان من عادة البطريقيين التضامن مع أي بطريقي متهم أو مدان، سواء كان ظالما أو مظلوما وحتى إن كانوا يكرهونه. كانوا يلبسون لباس الحزن على محنته. لكن ولا عائلة واحدة منهم غيرت هذه المرة لباسها حزنا على مأساة Capitolinus العظيمة. بل كانوا يتشفون فيه كأول رجل بطريقي نال شعبية كبيرة بانحيازه إلى صف العوام وعلى حسابهم ولا سيما على حساب الجمهورية".

"ويوم المحاكمة اجتمعت الجموع بميدان مارس لتقول العدالة كلمتها فيه. كان على النواب المُدّعين الإدلاء بالأدلة التي تدين المتهم بسعيه لإحياء الملكية. لكنني لم أجدها عند أي مؤلف، ووجدتهم يعرضون لائحة اتهام تتضمن اجتماعات غير مشروعة وخطب تحريضية على التمرد وعطاءات سخية مغرضة واتهامات واهية ضد مجلس الشيوخ باختلاس المال

---

[1] *Moi, je me proclame le patron du peuple*

[2] انظر مرة أخر في الكتاب الثالث " مقتل الثري *Maelius* المتآمر على الجمهورية "

العام. اتهامات لم تكن أبدا بالهيّنة. لكن الشعب تردد في حسم الحكم عليه ليس بسبب مضمون القضية بل بسبب مكان المحاكمة وهو ميدان مارس المقابل للكابطول. هكذا يتعلم الرجال كم من إنجازات عظيمة صارت من دون نفع وحتى بشعة بسبب حُمّى السعي لاعتلاء العروش". ويقصد المؤلف تيت ليف بذلك بطولات المتهم التي أنقذ بها سابقا الكابطول من هجوم الغزاة علاوة على أفعال الخير التي أنقذ بها المدينين المفلسين من الرق والتي استغلها فيما بعد وأغرى بها الشعب للقضاء على حريته بالقضاء على الجمهورية، كما سيتضح ذلك في دفاعه عن نفسه بالفقرة التالية.

فيقول تيت ليف : "قيل بأن Capitolinus جاء للمحكمة أمام الشعب بأربعمائة مواطن سبق أن أدى عنهم ديونهم وأعتقهم من الرق ومن دون مقابل. وللدفاع عن نفسه لم يكتفي بعرض بطولاته العسكرية، بل استدل عليها بشهادات وأدلة مادية مبهرة. ثم عرّى صدره كي ترى الجموع ما كان به من جروح أصيب بها في معارك الحرب ضد الأعداء. وكان بين الفينة والأخرى يرفع بصره نحو الكابطول ليستغيث بالإله جوبتير وبغيره من الآلهة مما هو فيه من مأساة. كان يستجديها كي تجعل الشعب الروماني تغمره مشاعر العطف عليه مثل تلك التي أثارها فيه يوم حَمى هو الكابطول مع من فيه من المواطنين من غزو الغزاة. وكان يناشد قُضاة المحكمة من الشعب، جماعة وفرادى، بالتوجه بوجوههم للكابطول وللآلهة الخالدة حين يصل وقت نطقهم بالحكم عليه. وبما أن مكان محكمة جموع الشعب كان هو ميدان مارس، حيث كان المتهم يمد يديه نحو الكابطول ويستجدي بما كان فيه من آلهة وليس فقط بالرجال، قدّر النواب المدّعين عليه، إلّم يحوّلوا أنظار الجموع التي تنظر في قضيته عن مكان ذكريات بطولاته، فلن يترك أبدا الاعتراف بالجميل في عقولها المنشغلة بمعروفه مكانا للقناعة بخطورة جريمته. لذلك أجّلوا النطق بالحكم وحوّلوا مكانه إلى حيث لا يُرى الكابطول".

"ولما جاء الموعد المضروب لذلك، انتصر الشعب في تصويته للائحة الاتهام ضد Capitolinus. فصدرت في حقه وعن قلوب صلبة عقوبة جد قاسية، أزعجت بقسوتها حتى الشعب الذي قضى بإدانته. فيقول بعض المؤلفين أنه تم تعيين مفوّضين للبث في تلك العقوبة على جريمة المس بأمن الدولة. ولما حُدّدت رمى بموجبها النوابُ المتهمَ من أعلى نفس الجبل الذي شهد من قبلُ على بطولته. فشهد نفس المكان في ذلك اليوم على هلاكه. ثم أضيف إلى الحكم عليه بالإعدام مهْلكان. الأول كان عموميا، من حيث بُني معبد بالقلعة في مكان منزل الهالك، ومُنع منذ ذلك الحين على كل بطريقي أن يسكن بالقلعة ولا بالكابطول. أما المهْلك الثاني فكان خاصا، من حيث حرّم النواب على أسرة المتهم وإلى الأبد تسمية أي مولود لها باسمه".

وأنهى تيت ليف رواية قصته بقوله : "هكذا انتهت حياة ذلك الرجل الذي لو لم يولد في دولة حرة لخُلّد ذكره من بين العظماء. ثم الشعب الذي لم يعد يخاف من خطره على نفسه وعلى الجمهورية لن يذكر إلا خصاله وسيبقى يتحسّر على إعدامه. مباشرة من بعد ذلك حل بالمدينة مرض الطاعون وحلت من بعده المجاعة. فرأى في ذلك العديد من المواطنين عقوبة من الآلهة على إعدام Capitolinus. وكان يقال : "لقد دُنّس الكابطول بدم الرجل الذي حرّره، ولم تتحمل الآلهة تلك العقوبة التي نُفذت تحت نظرها في حق من أنقذها من قبل وأنقذ معابدها من دنس أيادي الغزاة"". وما فترت قضية Capitolinus سوى بانغماس روما في حروب مسترسلة طيلة ثلاث سنوات مع قومي الڤولسك والإيك الأعداء التقليديين علاوة على خذلان الحلفاء من اللاتين والهنريك الذين انقلبوا عليها ونصبوها العداء. وعرفت روما في تلك المعارك انتصارات وانتكاسات لكن من دون هزائم، إلى حين انتُخب في الأخير ومرة أخرى Camille الشهير نائبا عسكريا بالرغم من شيخوخته، وحقق لوطنه الانتصار النهائي. بهذا نكون قد أعفيناك من ترجمة صفحات عديدة وطويلة تروي تفاصيل تلك الحروب التي لا تهمنا بقدر ما تهمنا الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بروما. وكان من ذلك فشل نواب العوام في الحيلولة دون المزيد من استرقاق المدينين المفلسين.

أزمة استرقاق المزيد من المدينين المفلسين.

يقول تيت ليف : "من بعد انتخاب النواب العسكريين للولاية الجديدة سنة 380 ق.م.[1]، ظهرت الحاجة لانتخاب ناظرين جديدين لنفس الولاية كي يشرفان على إحصاء جديد قبل الأوان بسبب ما يجري من حديث حول حجم الديون التي كانت تثقل كاهل المستضعفين. كان نواب العوام يهوّلون من ويلاتها، في حين كان يهوّن منها من كانت لهم مصلحة في إرجاع حرج المدينين من سداد ديونهم إلى سوء نيتهم وليس إلى عجزهم عن أدائها". ومن حقك أن تتساءل عن العلاقة بين الحاجة لانتخاب ناظرين جديدين وتعاظم حجم الديون. تدرك تلك العلاقة لما تتذكر أن من بين

[1] وهي السنة 130 من عمر الجمهورية الرومانية

أهم مهام الناظرين هو إجراء إحصاء عام لساكنة روما على رأس كل خمس سنوات، وأن ذلك الإحصاء كان يقوم على أساس ما يملكه المواطنون من ثروات سواء قلت أو كثرت. وكان يتم تدوينها في سجلات رسمية من أجل عدة أمور. أولها تنظيمي، من حيث كان يتم تقسيم المواطنين الرجال إلى خمس طبقات بحسب ثرواتهم. وثانيها عسكري، من حيث كان يتم تقسيم الجيش وترتيب الرجال فيه بحسب تلك الطبقات الخمس. وثالثها سياسي، من حيث كان الترشح لانتخاب القنصلين والنّاظرين من حق أعلى طبقة من تلك الطبقات الخمس. ورابعها جبائي، من حيث قيمة الضرائب التي يدفعها المواطن كانت بمقدار نسبة معينة من ثروته المسجلة في سجلات الإحصاء.

فكل تأخير في الإحصاء كان يصب في مصلحة من زادت وتضاعفت ثرواته، وأغلبهم من البطريقيين، لأنهم بذلك كانوا ما يزالون يدفعون الضرائب بحسب حجم ثرواتهم المسجلة سابقا. وفي المقابل وبالعكس من ذلك، كان في تأخير الإحصاء ظلم مجحف في حق من نقصت وحتى انعدمت ثرواتهم، وغالبا ما كانوا من العوام، وهم كانوا ما يزالون يؤدون الضرائب بحسب ما كانوا يملكون سابقا. ومما يزيد في محنتهم هو الحاجة للمزيد من الاقتراض مرة أخرى من أجل سداد تلك الضرائب الظالمة، اللهم ما إذا ما أفلسوا وفقدوا كل شيء، حتى حريتهم وصاروا عبيدا. هكذا كان المترفون يزدادون ترفا بالاستحواذ على ممتلكات المستضعفين بل بالاستحواذ حتى على أشخاصهم كعبيد. وذلك ما عبّر عنه نواب العوام، كما سترى أسفله، بقولهم "جزء من الشعب يفترس الجزء الآخر".

ومرة أخرى يستفيد البطريقيون سياسيا من تلك الأزمة لكون أغلب المدينين المفلسين والذين صاروا عبيدا كانوا من العوام الذين فقدوا بذلك حقوقهم السياسية في انتخاب نواب العوام وانتخاب النواب العسكريين وفي التصويت على القوانين الجديدة وفي محاكمات قضايا أمن الدولة. وقد تعْجب أنت من استكانة العوام لذلك الظلم الفاحش وقد انتفضوا سابقا واعتصموا مرتين بالجبل المقدس ضد ظلم كان ربما أقل إجحافا مما هم فيه. انتفضوا مرة بزعامة أحدهم، وفي المرة الثانية انتفضوا بمبادرة جماعية منهم ومن دون زعيم. لكن هذه المرة لا بهذا ولا بذاك. لماذا ؟ لا ندري.

ثم يقول تيت ليف : "انتُخب للنظارة ناظران. وما كادا يشرعان في عملهما حتى توفي أحدهما. فتشاءم الشعب من تعويضه بغيره، وتنازل زميله عن منصبه. فتم انتخاب ناظرين آخرين، لكنهما مُنعا من مزاولة مهامهما بسبب عيب في شكليات انتخابهما الدينية والتي ما كان من حق أحد الاطلاع عليها سوى الكهنة، فكانوا يخفونها عن غيرهم لاحتكار أسرارها وللتلاعب بها عند الحاجة لأغراض سياسية. فساد التوجس من المخاطرة بانتخاب ناضظرين آخرين مكانهما، وكأن الآلهة كانت غير راضية عن انتخابهما أصلا لهذه الولاية. حينها انبرى نواب العوام للاحتجاج على تأجيل انتخاب الناظرين حتى الولاية اللاحقة. كانوا يقولون : "تلك مهزلة لا تحتمل. مجلس الشيوخ يتهرب من إعداد السجلات الرسمية الجديدة التي من شأنها تحديد حجم أموال كل مواطن وما يحق عليه من ضرائب. مجلس الشيوخ يريد التعتيم على حجم الديون الهائلة التي تسحق المدينين من المستضعفين، ويريد بذلك التغطية على حقيقة كون جزء من الشعب يفترس الجزء الآخر. ويبحث عن الحرب بكل الطرق كي يبعث جحافل الجنود إلى كل مكان للتخلص من احتجاجاتهم، حتى صار كل الجيران مهددين بسلاح الرومان. مجلس الشيوخ يفتعل الحروب من دون عدوان خارجي، بل فقط حقدا على المواطن ومن أجل إفناء الشعب في المعارك حتى لا يوجد في المدينة من يرفع الرأس ويفكر في الحرية ويشارك في الجموع السياسية ويسمع صوت نواب العوام الذين يطالبون بالتخفيف من ضغط الديون وبوضع حد لباقي المهانات. ولو أن الشعب بقي متشبعا بقيم أجداده لما تحمّل استرقاق أي مواطن بسبب عجزه عن سداد ديونه، ولما سمح بأي تجنيد من قبل بحث قضية الديون وفرض وسائل وإجراءات لتقليصها، ولا سمح بقتال العدو من قبل أن يعرف كل فرد ما يملك وما لا يملك، وهل هو حرّ حقا أم ما يزال مهددا بالاسترقاق""

"ثم جاء البطرقيون بجواب على ذلك التحريض ليشتعل التمرد من جديد ويزيد فيه وفي الحين. من جهة قرر النواب العسكريون إدانة مجموعة من المدينين المفلسين بالاسترقاق. ومن جهة أخرى قرر مجلس الشيوخ التجنيد لمواجهة تهديدات خارجية. فلقي الإجراءان معارضة شديدة من نواب العوام ومن كافة الشعب. وتم الاعتراض على إلقاء القبض على المواطنين المُدانين وتمت الحيلولة دون التجنيد. وكان مجلس الشيوخ مهتم بالتجنيد أكثر من اهتمامه بالمواطنين المُدانين لأن العدو أصبح قريبا من أبواب روما. وبالفعل، لما عرف العدو امتناع شباب الرومان عن التجنيد وعدم تعيين جنرال للحرب والصراع القائم بين العوام والبطريقيين، تجرأ وهاجم أرياف روما لنهبها ودفع بجنوده حتى وصل بها إلى إحدى أبوابها. فدق ناقوس الخطر، وفرضت الحرب نفسها، وكانت لصالح موقف مجلس الشيوخ وعلى حساب الشعب الذي أنهى التمرد الداخلي. نسي حينها العوام والبطريقيون خلافاتهم وارتفعت أصواتهم جميعا تنادي بحمل السلاح وبالإسراع إلى الأبواب وإلى أعالي الأسوار. فعين مجلس الشيوخ ديكتاتورا لمواجهة الموقف. وبانتشار ذلك الخبر في المدينة سارع

كل الشباب لتسجيل أسمائهم في لوائح التجنيد، وفزع منه العدو وابتعد عن أسوار روما ليقيم معسكره بعيدا عنها. فخاض الديكتاتور المعارك وكسبها من بعد إسقاط معسكرين للعدو واحتلال تسع مدن. ثم عاد لروما منتصرا وتنازل عن منصبه من بعد ما دام فيه فقط عشرين يوما".

ثم جاءت الحروب التي حالت دون الإحصاء ودون إصلاح الأحوال الاجتماعية. فيقول تيت ليف : "في بداية هذه السنة (378 ق.م.)[1] انفجرت اضطرابات جديدة. وكانت مادتها مرة أخرى أزمة ديون المستضعفين. وحتى تتضح أمورها انتُخب ناظران جديدان. لكن جاءت الحرب لتوقف أشغالهما". وكما تقدم، كان لا بد من إحصاء جديد للمواطنين من أجل تحديد حجم ثروة كل منهم، كي يُحدّد ما له وما عليه سياسيا وعسكريا وجبائيا. لذلك تم انتخاب ناظرين جديدين. وكان ذلك الإحصاء يقتضي حتما تجمع كل المواطنين بميدان مارس. وكل من تغيب منهم عن الإحصاء كان لا يجد اسمه وثروته بسجلات روما، وبذلك يفقد كل حقوقه السياسية لمدة خمس سنوات إلى حين الإحصاء اللاحق. وهذا الحضور الكلي للمواطنين بميدان مارس كان غير ممكن مع وتواجد جلهم كجنود في ساحة الحرب. لذلك تقرأ في آخر الفقرة الأخيرة "وجاءت الحرب لتوقف أشغال الناظريْن". ثم يقول تيت ليف : "اعترض كالعادة نواب العوام على التجنيد ما لم تحل إشكالية الديون. فاضطر مجلس الشيوخ لإصدار مرسوم يُعلق طيلة مدة الحرب، جباية الضرائب المستحقة على الجنود والمتابعات ضد المدينين المفلسين. ومع تلك المهلة تنفس الشعب وأسرع لتلبية نداء التجنيد". وكانت تلك الحرب بداية لسلسلة من الحروب دامت عدة سنوات، وكانت كلها لصالح روما، وأعفيك من ترجمة تفاصيلها.

ثم يقول تيت ليف : "ثقل الديون صار فرصة لنواب العوام من أجل تقديم اقتراحات جديدة. صار الشعب يفكر في أن التخفيف من شر ضغط الديون رهين بانتخاب رجال من بينهم لولوج أعلى مناصب الدولة. بل صار ذلك هو الهدف الواجب الوصول إليه. بالكدّ وبالمحاولة تقدم العوام من قبلُ خطوة كبيرة إلى الأمام. وما تبقى لهم سوى بعض الخطوات ليصلوا للمساواة مع البطرقيين في ولوج مناصب النفوذ بقدر ما هم بالفعل متساوون معهم في الجدارة. انتزعوا الحق في تولي منصب نواب العوام والترشح لمنصب النواب العسكريين، وبذلك صار الباب مفتوحا لانتزاع الحق في الترشح لمناصب أعلى".

"فاقترح نواب العوام الجدد (سنة 375 ق.م.)[2] عدة قوانين تصب في صالح الشعب المستضعف. لكنها كانت بالطبع متعارضة مع مصالح البطريقيين المترفين. ويتعلق المقترح الأول بإعادة جدولة الديون. وهو المقترح الذي كان يقضي بسن قانون تُخصم بموجبه كل الفوائد التي دفعها كل مدين من رأس المال، وتسديده لما تبقى منه مدة السنوات الثلاث اللاحقة على شكل دفعات متساوية. والمقترح الثاني كان يقضي بوضع سقف للملكية العقارية، فلا يتجاوز حق كل مواطن في امتلاك أكثر من خمس مائة فدان[3]. والمقترح الثالث كان يقضي بحذف منصب النائب العسكري مع الإبقاء على القنصلية بقنصلين لكن بقنصل من البطرقيين وبزميل له من العوام". وعلق تيت ليف على ذلك بقوله : "فكانت مشاريع قوانين جد طموحة ولا يمكن تحقيقها من دون صراعات عنيفة. كانت تعني الهجوم على كل ما لا يشبع منه جشع الإنسان من الأموال والجاه".

"ومن بعد اجتماعات عديدة خاصة وعامة، لم يجد البطريقيون المرعوبون والمرتعشون، لم يجدوا من دواء لتلك المخاطر، سوى اللجوء كالعادة للاعتراض عليها من داخل مؤسسة النيابة عن العوام. وهي الوسيلة المجربة بنجاح عدة مرات في الصراعات السابقة. فدفعوا نواب العوام الموالين لهم لمقاومة مشاريع زملائهم. ويوم الاقتراع على مقترحات النائبين جاء زملاؤهم عملاء البطريقيين ليعرقلوا تلاوتها وليمنعوا كل الشكليات القانونية التي من دونها لا يصح الاقتراع. تكرر ذلك عدة مرات وبنفس النتيجة. وبذلك العنف استُبعدت تلك المقترحات. فقال أحد النائبين المقترحين لتلك المشاريع: "حسنا، ما دامت معارضتنا تأتينا من زملائنا، فسنستعمل نفس السلاح للدفاع عن الشعب. فهيّا أيها البطريقيون، نظموا انتخاب النواب العسكريين. حينها سأعمل أنا على ألا تجدوا نفس الحلاوة في سماعكم لقولي عبارة "أنا أعترض" التي كانت تسرّكم لما كانت تقع في أسماعكم وهي تخرج من أفواه زملائنا ضد مشاريعنا". لم تكن تلك التهديدات واهية. فلم تتم أية انتخابات، عدى انتخاب نواب العوام ووُلاة المدينة. بذلك ظلت روما مدة خمس سنوات من دون رجال دولة منتخبين للولاية الكبرى، وسيّرها عوضا عنهم أوصياء على كرسي الرئاسة معينين من طرف مجلس الشيوخ". وظل الصراع بين الفئتين على أشده طوال تلك المدة إلى أن حصل العوام اخيرا على الحق في الترشح لمنصب القنصلية. فكيف تم ذلك ؟

---

[1] وهي السنة 132 من عمر الجمهورية الرومانية

[2] وهي السنة 135 من عمر الجمهورية الرومانية

[3] أي 210 الهكتارات. لأن مساحة الفدان اليوم هي 4200.83 متر مربع، أي أقل بقليل من نصف هكتار

قانون ترشح العوام لمؤسسة القنصلية

يقول تيت ليف : "لحُسن حظ روما ظلت الحرب غائبة طيلة الخمس السنوات التي ظل فيها كرسي الولاية الكبرى من دون رجال دولة منتخبين، ويعوضهم أوصياء على كرسيها. اعتقد بعض جيران روما أنه لم يعد للجمهورية جيش، فقاموا بهجوم على بعض مستعمراتها. الأمر الذي امتعض منه العوام والبطريقيون معا. حينها خفّت معارضة نواب العوام فانتهز الوصي على كرسي الولاية الكبرى الفرصة ونظم سنة 370 ق.م.[1]، ولأول مرة من بعد خمس سنوات، انتخابات لنواب عسكريين جدد بسلطات قنصلية. فقاد النواب الجدد الحملة ضد المعتدين وحرروا المستعمرات المعتدى عليها إلا واحدة بقي الجيش محاصرا لها".

"إلا أن صراعات سياسية عنيفة تجددت بروما. تسبب فيها نائبا العوام صاحبا القوانين الإصلاحية. وهما اللذان انتُخبا لثمان ولايات متتالية. انضم إليهما نائب عسكري بطريقي كمدافع عن تلك القوانين. لم يبقى من بين نواب العوام العشرة سوى خمس معارضين، من بعد ما كانوا في السابق ثمانية متواطئين مع البطريقيين. صاروا مُحرجين، كعادة من يخون قضايا فئته. لم يُظهروا معارضة حاسمة كما كان حالهم من قبل، سوى أنهم طالبوا بتأجيل التصويت على تلك القوانين إلى حين عودة الجيش من حصار المستعمرة، فيصوت الشعب بأكمله على مصالحه".

"إلى ذلك الحين، أخذ النائبان، اللذان اكتسبا تجربة في ترويض عقول الجموع، أخذا يرهقان البطريقيين بأسئلتهم حول كل القوانين المزمع عرضها لاحقا على الشعب كي يصوت عليها. كانوا يقولون لهم وعلى رؤوس الأشهاد : "هل تجرؤون على طلب التمتع بامتلاك أكثر من خمسمائة فدان، في حين لا يوزع على العوام سوى فدانين لكل فرد منهم ؟ هل يصح أن يملك كل واحد منكم ما يملكه ثلاثمائة مواطن ؟ هل يعقل ألا يملك المستضعف من العوام سوى مقدار من الأرض بالكاد يكفيه لبناء بيته أو لحفر قبره ؟ هل يروقكم رؤية الشعب وهو يُسحق تحت ثقل فوائد الديون، ثم يسلم ذاته للاسترقاق ويسلم جسده للجلد بالسياط، في حين كان يكفيه سداد رأس المال كي يبقى حرا ؟ هل يحلو لكم رؤية المدينين المفلسين يساقون من الساحة العامة عبيدا في القيود من بعد ما كانوا أحرار ؟ هل تعجبكم رؤية بيوتكم مليئة بالعبيد من مواطنيكم وتحوّلها إلى سجون للشعب الروماني ؟". من بعد هذا التشهير بكل تلك التجاوزات أمام الجموع الخائفة على نفسها والتي كان امتعاضها أكبر من امتعاض نواب العوام، تابع النائبان المشاكسان خُطبهما اللاذعة زاعميْن بأنه إلّم يكن أحد القنصليين من العوام لحماية حريتهم سيواصل البطريقيون نهب ممتلكات المواطنين وسحقهم بفوائد الديون".

واقتراح قانون يمنح العوام الحق في ولوج منصب من منصبي القنصلية ليس بجديد. سبق أن تقدم به منذ أقل من قرن خمسة من بين نواب العوام العشرة سنة 445 ق.م. وكانت الخُطب من الجانبين بشأن ذلك الاقتراح جد قوية ومستفزة لكلا الطرفين. لكن العوام فشلوا في تحقيق مطلبهم. ولا يزال الاقتراح، كما كان، هو الأخطر على كبرياء البطريقيين منذ نشأة الجمهورية بل منذ نشأة روما نفسها. فقنصل من العوام يعني في الحياة المدنية اضطرار البطريقيين للجلوس أمامه كقاضي كي يقضي فيما بينهم في القضايا العادية ولمعاقبة الجناة والمجرمين من بينهم. ويعني في الحياة العسكرية، وقت الحرب، تواجد جنود وضباط وكبار رجال دولة سابقين من البطريقيين تحت قيادة قنصل من العوام، وقنصل مُطاع بحكم القانون ولا يُعصى له أمر. العوام كانوا متساوين مع الطرقيين في الحرية، فلم يكونوا عبيدا. لكن ذلك الاقتراح كان بالنسبة للبطريقيين كالتسوية بين العبيد وأسيادهم. لذا لا تعجَب من شدة معارضتهم له مرة أخرى كما قاوموه سنة 445 ق.م.

فيقول تيت ليف : "كان النائبان يقولان : "يُستخف اليوم بنا نحن نواب العوام. وصار يتم نسف قوة مؤسستنا بالمعارضة من داخلها. فيستحيل تحقيق المساواة بين كل المواطنين ما دام للبطريقيين الحق في احتكار الولوج لمؤسسة القنصلية من دون غيرهم، فلا يبقى للعوام سوى نوابهم المحصورة صلاحياتهم في الدفاع عنهم. لن ينال الشعب نصيبه الكامل في دواليب الدولة ما لم يقتسم العوام مع البطريقيين ولوج مؤسسة القنصلية مناصفة، واحد منهم وزميله منا نحن العوام. لن نقنع بمجرد حق المشاركة في انتخاب القناصلة من البطرقيين فقط. ما لم يُصبح لزاما من اليوم للعوام أحد القنصليين منهم، فلن يكون لهم أبدا قنصل منهم. هل نسي الشعب أنه ما سبق أن انتخب ولا واحدا من العوام نائبا عسكريا طيلة أربعة وأربعين عاما، منذ أن تقرر تعويض القنصليين أحيانا بنواب عسكريين، مع حق العوام في الترشح لذلك المنصب الجديد ؟"".

وعلق تيت ليف بقوله : "لكن كيف يُعتقد اليوم أن البطريقيين سيقبلون بحق العوام في منصب قنصل من بين منصبين إثنين، كنصيب مشروع للشعب، وهم الذين ظلوا يستحوذون لوحدهم على ثمان مناصب في انتخابات النواب

---

[1] وهي السنة 140 من عمر الجمهورية الرومانية

العسكريين ؟ وكيف سيقبلون بقنصل من العوام من بعد ما عملوا على تكبيل نواب العوام بمعارضة من الزملاء الموالين لهم ؟ فلا بد من قانون يحقق ما لم تحققه الثقة في اختيارات جموع الناخبين الحرة، كي ينتزع العوام من البطريقيين الحق في الترشح لأحد منصبي القنصلية، فيُفتح الباب أمامهم للولوج الفعلي لذلك المنصب. أما ترك ولوجه لمجرد الترشح للانتخابات فسيظل دائما من نصيب البطرقيين من دون غيرهم".

ثم قال : "ولا يستطيع اليوم البطريقيون الاستمرار في ترديد الادعاء بأنه ليس من بين العوام من يستحق ولوج الولايات الكبرى. هل كانت الجمهورية تسير برخاوة وبتهور أقل مما كانت عليه منذ سنين وليس على رأسها سوى نواب عسكريين بطريقيين ؟ بل بالعكس من ذلك، رأينا بطريقيين مدانين من بعد ولايتهم، ولم نرى أبدا رجل دولة من العوام مدانا. ما يزال من بين خازني الدولة عوام، ولم يندم الشعب ولا مرة على انتخاب أي منهم. لم يبقى للعوام سوى الحق في نصيبهم من مؤسسة القنصلية. فهو السور الأخير بين الشعب وبين تتويجه بالحرية. يوم يصل العوام إليها يمكن للشعب الروماني حينها أن يؤمن بأنه طرد الملوك إلى الأبد وأن حريته قد تعززت. انطلاقا من ذلك اليوم سيحصل العوام على كل تلك الامتيازات التي أعلت من شأن البطريقيين. ومن بينها السلطة والمناصب العليا ومجد السلاح وشرف المنبت ونبل الأسَر. وهي الامتيازات العظيمة بالنسبة لهم والتي يُورّثونها تلقائيا وبعظمتها لأبنائهم".

"ولما رأى النائبان الإقبال الذي ناله خطابهما، تشجعا ونشرا مشروع قانون إضافي يقضي باقتسام حتى مفوضيات المهام الدينية بالمناصفة بين العوام والبطريقيين. ولمناقشة كل تلك المقترحات تم تأجيل الاقتراع عليها إلى حين عودة الجيش من حملته العسكرية بالخارج. مرت السنة قبل عودة الجيش من جبهة القتال. وبذلك انتقلت قضية القوانين المقترحة لولاية النواب العسكريين الجدد في السنة اللاحقة، مع إصرار الشعب على إعادة انتخاب نفس نواب العوام، ولاسيما صاحبيْ القوانين المقترحة". فتم تعيين **Camille** للمرة الرابعة ديكتاتورا لمواجهة مشاريع قوانين نواب العوام

فيقول تيت ليف : "منذ الأيام الأولى من الولاية الجديدة ومن بعد انتخاب النواب العسكريين الجدد سنة 368 ق.م.[1]، انطلق الصراع السياسي الأخير بخصوص مشاريع قوانين نواب العوام. لما همّ هؤلاء باستدعاء جموع الشعب لاستفتائها، بادر البطريقيون المرعَوبون إلى آخر الدواء، والكامن في تعيين ديكتاتور. فاختاروا لذلك المنصب الخطير وللمرة الرابعة البطريقي والبطل الشهير Camille. وتسلح حينها النواب أصحاب القوانين المقترحة بشجاعة كبيرة في مقابل استعدادات خصومهم لمنع التصويت عليها. جمعوا جموع الشعب ودعوا الهيئات الترابية الخمس وعشرين les comices tributes للاستفتاء على قوانينهم. وبالرغم من وجود المعارضة من داخل مؤسسة النيابة عن العوام، إلا أنها انهزمت أمام إغراء الجموع بمصداقية القوانين وبقوة إقناع أصحابها. وما أن صوتت أول الأحياء لصالحها حتى وصل الديكتاتور للساحة العامة محفوفا بمجموعة من البطريقيين، وقد كان في غضب شديد".

وللتذكير والتوضيح، فقانون حق الاعتراض المنتزع سابقا من طرف العوام لصالح نوابهم، كان يقضي، من بين ما يقضي به، منع تمرير أي قرار أو قانون للتصويت إلا من بعد الإجماع عليه من داخل المؤسسة التي تقترحه. وهو الأمر الذي لم يحصل هذه المرة بداخل مؤسسة النيابة عن العوام في هذه القضية، من حيث كان يعترض عليه نواب العوام الموالون للبطريقيين، إلا أنهم انهزموا أمام إصرار زملائهم وتأييد الجموع لهم. ومع ذلك بدأ التصويت على القوانين في مخالفة لذلك القانون. وعلى ذلك الأساس سيحتج الديكتاتور Camille ويعترض على استئناف عملية الاقتراع".

فيقول تيت ليف : "قام الديكتاتور Camille ليوقف عملية التصويت، وخطب في تلك الجموع قائلا : "اليوم أيها الرومان صارت نزوات نواب العوام هي القانون، على حساب سيادة القانون بمؤسستهم. ها أنتم اليوم تنسفون بتصويتكم مكسب حق الاعتراض العتيق الذي سبق أن انتزعه آباؤكم باعتصامهم بالجبل المقدس. من أجل الجمهورية ومن أجلكم، فأنا كديكتاتور، سأقف مع المعارضة من داخل مؤسسة نواب العوام، كي أحمي بسلطتي حقها في الاعتراض، الذي هو حقكم لكنكم تنسفونه. إذا ما استسلم النائبان صاحبا مشاريع القوانين لزملائهم المعارضين لهم، فلن أتدخل في هذا الاقتراع. لكن إذا رفضا وتعنّتا كي يفرضا علينا قوانينهما وكأنهما في مدينة محتلة، فسأتدخل كي لا أسمح لمؤسسة النيابة عن العوام بأن تنسف نفسها بنفسها". وبالرغم من ذلك التهديد استأنف النائبان وبحماس الإشراف على سير عملية الاقتراع. فاشتط الديكتاتور بسبب ذلك غضبا وأرسل حراسه لتفريق الجموع التي كان ما تزال منهمكة في الاقتراع، وهددها باستعمال حقه في التجنيد الإجباري لكل الشباب، مع أخذ الجيش في الحال إلى خارج المدينة. فأصابت تهديداته الشعب برعب كبير. لكنها ألهبت شجاعة زعمائه بدلا من إحباطها. إلا أنه من قبل الحسم في الانتصار لهذا الجانب أو ذاك، تنازل الديكتاتور Camille عن منصبه".

[1] وهي السنة 142 من عمر الجمهورية الرومانية

وعلق تيت ليف على تلك الاستقالة بقوله أنها حصلت : "إما بسبب عيب في شكليات طقوس تعيينه، بحسب بعض المؤلفين، أو بسبب العوام الذين، بإيعاز من نوابهم، هددوه بمحاكمته ومعاقبته بغرامة مالية ثقيلة من بعد نهاية ولايته، إن هو نفذ تهديداته. لكن المرجح، في نظري، هو أنه كان لخشيته من سوء فأل التطيّر الأثر الأقوى في ذلك التنازل. ما يجعلني مقتنعا بذلك هو معرفتي بمزاج الرجل من جهة وتعيين ديكتاتور آخر محله من جهة أخرى. وتوقف مع ذلك كل شيء". ثم حصل سجال سياسي قوي بين نواب العوام وأحد كبار البطريقيين بخصوص القوانين المقترحة. فقال فيه تيت ليف : "في الفترة ما بين تنازل الديكتاتور وتولي الديكتاتور الجديد مكانه، انتهز نواب العوام الفرصة وجمعوا الجموع مرة أخرى. لكنهم جمعوها هذه المرة حتى يتعرّفوا هم على القوانين التي يفضلها الشعب من بين مجمل القوانين المقترحة. فظهر لهم أنه كان يفضل قانون إعادة جدولة الديون والقانون الذي يحدد سقف ملكية الأرض، ولا يقبل بقانون تقاسم العوام للقنصلية مناصفة مع البطريقيين. وقد كان الشعب عازما على الاقتراع على الأمرين بصفة متفرقة لولا تدخل نواب العوام بطلب الاقتراع عليهما دفعة واحدة كقوانين لا تقبل التجزيء. لكن في خطوة لتأييد الشعب على اختياره ومن أجل خطْب وُدّه اتخذ الديكتاتور الجديد، على غير العادة، رئيس الخيالة من بين العوام. فامتعض من ذلك مجلس الشيوخ. إلا أن الدكتاتور عرف كيف يُطمئنه بدعوى أن منصب رئيس الخيالة لا يرقى إلى الولايات الكبرى الخاصة بالبطريقيين".

"ولما تحدد موعد انتخاب نواب العوام الجدد، تظاهر النائبان صاحبا القوانين المثيرة للجدل، تظاهرا للناخبين بالتعفف عن انتخابهم لولاية عاشرة، وقد كانوا في الحقيقة راغبين فيها. كانا يقولان للجموع : "منذ تسع سنين ونحن هنا في صراع مع البطريقيين، مع ما حفّ ذلك من مخاطر، لكن من دون ولا فائدة للجمهورية. وها نحن قد شخنا وشاخت معنا كل القوانين التي ما زلنا نقترحها، وشاخت كذلك قوة مؤسستنا. قاوم البطريقيون قوانيننا أولا بتحريض زملائنا الموالين لهم، ثم بإرسال الشباب للحرب من أجل إبعاده عن الاقتراع، وأخيرا بتسليط سلطان الديكتاتورية علينا. واليوم حيث لم يعد زملاؤنا المعارضين لنا ولا الحرب تشكل عراقيل لمشاريعنا، وحيث حتى الديكتاتور قد تفاءل لنا بولوج العوام منصب القنصلية بتعيينه قائد الخيالة من بين فئتنا، فلم يبقى إلا أنت أيها الشعب كي تسيء لنفسك ولمصالحك. بإمكانك في الحين وإن أردت، تخليص المدينة والساحة العامة من أولئك الدائنين المرابين المجحفين، وتحرير الأراضي المغتصبة من مالكيها الظلمة. لكن من أين لك أيها الشعب أن تقدّر تلك الامتيازات حق قدرها وأن تحصل عليها، وقد اخترت من بين مجمل القوانين المقترحة ما يخدم مصالحك الضيقة، وتنوي حرماننا نحن الذين اقترحناها من كل أمل في ولوج منصب القنصلية ؟".

ثم قالوا : "لم تجد أيها الشعب من حرج في تبنيك للقوانين التي من شأنها التخفيف من ديونك وتمكينك من امتلاك نصيبك من الأراضي المغتصبة من طرف الكبار، وفي استبعاد القانون الذي من شأنه تمكين شيوخ نوابك الذين خدموك من الحق في ولوج الولايات الكبرى؟ لك الآن أن تعبّر عما تريد ثم تترك لناخبيك الحرية في تحقيق إرادتك. إن قررت التصويت على كل القوانين مجتمعة من دون تمييز، فبإمكانك انتخاب نفس النواب الذين اقترحوها ليستمروا في الدفاع عنها. وإن كنت، بالعكس من ذلك، تفضل التصويت فقط على ما يخدم مصالحك الضيقة، فلا حاجة لنا بانتخابك لنا مرة أخرى لمنصب نواب العوام ،الذي أصبح لا يريده ولا يطمع فيه أحد. فنستغني عنه وعنك وعن قوانينك"".

"مع تبجح نواب العوام بذلك الخطاب المستمد للجرأة فيه من ذهول وسكوت أعضاء مجلس الشيوخ، تقدم للرد عليه أبيوس كلوديوس أحد كبار البطريقيين، وهو حفيد المفوض الشهير السابق. كان يمتلئ حقدا وغضبا، فقال : "ليس من شيء جديد ولا غير متوقع في سماعي مرة أخرى حتى هذا اليوم، من نواب العوام ذلك الاتهام الدائم لأسرتي من كونها لا يعزّ عليها شيء في الجمهورية أكثر من احتكار البطريقيين لشرف ولوج الولايات الكبرى، ومن أنها كانت دائما معارضة ومقاومة لمصالح الشعب. لا أنفي الشكوى الأولى، بل وحتى لا أعترض عليها. بالفعل، منذ أن رُفعنا جميعا في أسرتي لمرتبة المواطنين الرومان من طبقة البطريقيين، عملنا دائما على استحقاقها حتى أمكن حقا أن يقال أنه بفضلنا ارتفع قدر وشأن كل تلك الأسر النبيلة التي قبلتم أن تكون أسرتي واحدة منها. أما الشكوى الثانية، فبإسمي وبإسم أسلافي أيها الرومان، أجرأ على القول بأننا كمواطنين وكرجال دولة لم يسبق لنا أبدا أن تعمدنا الاعتداء على مصالح الشعب. اللهم ما إذا كان الشعب يعتبر مُضرة بمصالحه الإجراءات التي تخدم الجمهورية، وكأنه يسكن في مدينة معزولة عنها. وليس بإمكان أحد حقا ذكر ولو فعل أو كلمة متعارضة مع مصالحكم، اللهم ما كان منها مخالفا لنزواتكم"".

ثم قال : "من بعد كل ذلك، لو لم أكن من تلك الأسرة النبيلة، ولم يكن دمي بطريقي، وكنت مجرد مواطن روماني عادي من أب وأم حرين، وأعيش في مدينة حرة، هل كنت سأسكت على هذين اللذان أصبحا بسببكم، ومنذ تسع سنوات متتالية، نائبين عن العوام خالديْن حتى صار لهما من النفوذ ما به يعترضان اليوم على حرية الشعب في انتخاب من يريد لمختلف الولايات وفي التصويت على ما يريد من القوانين ؟ ها هما يقولان لكم انتخبونا مرة أخرى نائبين عنكم لكن بشروطهما. ما معنى ذلك سوى أن كل ما يقترحه غيرهما فهما يستخفان به ولا يقبلان به ما لم يكن فيه ما يفيدهما. لكن بأي ثمن نستطيع أن نقبل بهما نائبين خالدين ؟ للقبول بهما نائبين يشترطان علينا التصويت على مقترحاتهما جملة واحدة ومن دون تجزيء، سواء أعجبتنا أو لم تعجبنا، وسواء خدمت مصالحنا أو لم تتوافق معها"".

والتفت للنائبين لقول لهما : "أتوسل إليكما أيها النائبان المتغطرسان، كي تعتبرانني مجرد مواطن من وسط هذه الجموع وهو يصيح ليقول لكما : "عن إذنكما اسمحا لنا باختيار ما يخدمنا من بين قوانينكما وبرفض الباقي". ستقولان لي : "لا هذا غير ممكن. ستصوت على قانون الديون وقانون الأرض اللذان يوافقان مصالحنا، وليس أبدا على ما سيكون شيئا رائعا في المدينة والكامن في رؤيتنا قنصلين وأنت تكرهنا وتمقتنا. فصوت على الكل أولا شيء". وسيكون ذلك منكما بالنسبة لي مثل الذي يقهره الجوع ثم يُعرض عليه الخيار بين التخلي عن الخبز الذي يحييه أو أخذه ممزوجا بالسم الذي سيقتله. لو كانت هذه المدينة حرة لصاحت في وجهكما لتقول لكما ارحلا أنتما وقوانينكما. كيف ؟ ماذا نخشى ؟ هل حين ترفضان تقديم قوانين مفيدة للشعب، سيعدم الشعب من يقدمها له ؟ وأنت أيها الشعب فلو تقدم بطريقي مثلي، ومن أسرتي ليقول لك خذ كل شيء أو لا أعطيك شيئا، من منكم أيها الرومان سيتحملني ؟ أليس من مصلحتكم أن تجعلوا ما يخدمكم فوق مقام الرجال ؟ هل ستفتحون مسامعكم لما يتكلم أحد الرجال ثم تصموها لما يتكلم غيره من بينكم ؟".

"قولوا بحق هرقل، أن هذا الخطاب صادر عن مواطن غير صادق. كيف إذا ؟ ماذا عن ذلك القانون الذي يمتعض هذان النائبان من رفضكم له، ويقولان لا يجوز لكم اختيار من تريدون قنصلا ؟ أليس ذلك هو ما يريدان فرضه عليكم لما يأمرانكم بانتخاب أحد القنصلين من العوام، ومن دون الحرية في اختيار كليهما من البطريقيين ؟ ثم تصوروا لو جاءت اليوم الحرب أو جاء الغزاة وترشح هذان النائبان من العوام لولوج القنصلية، هل ستقبلون بانتخاب أحدهما قنصلا مكان رفض Camille مثلا لولوج ذلك المنصب . هل من الاشتراك في الولايات الكبرى أن يكون رجلان من العوام قنصلان وليس أبدا رجلان من البطريقيين، أو أن يلج بالضرورة أحد منصبي القنصلية رجل من العوام ويُقصى من كليهما البطريقيون ؟ ما هذا النوع من اقتسام الولاية الكبرى بين الفئتين، وما هو نوع مثل هذا المجتمع ؟ ستجد أيها الشعب أنه قليل في حقك أن تأخذ نصيبك من حق لم يكن لك فيه أبدا نصيب من قبلُ. وستطلب حينها نصيبك ذاك لكن كي تستحوذ على الكل. ولو كان من حق البطريقيين الترشح للنيابة عن العوام، لما اخترت أحدا لذلك المنصب من العوام. أليس معنى ذلك القانون المقترح هو قول النائب الذي اقترحه : "ما دمتم لا تنتخبون السفهاء بمحض إرادتكم، فسأفرض عليكم ضرورة انتخابهم بالرغم عن أنوفكم" ؟. ماذا سينتج يا تُرى عن تمرير ذلك القانون إذا ما ترشح لمنصبي القنصلية رجل من العوام ورجلان من البطريقيين ؟ ستختارون حتما واحدا من بين البطريقييْن، ثم يُفرض عليكم الرجل من العوام كزميل له بموجب القانون وليس بموجب اختياركم الحر الذي قد يكون في الغالب لصالح البطريقي الثاني. حينها سيكون من حق ذلك القنصل من العوام أن يقول لكم : "أنا لست مدينا لكم بشيء، لأنني توليت الأمر بموجب القانون وليس بأصواتكم"".

"هذان النائبان يبحثان عن سبل لاغتصاب السلطة من دون استحقاق ومن دون أن يكونا مدينين لكم بأدنى شيء. يحلو لهما انتزاعها بالقانون وليس توليها عن جدارة واستحقاق باختيار حر منكم. لا يحبان أن يقيّم الشعب كفاءتهما ثم يحكم عليها عبر الانتخابات. هل من الإنصاف أن يكون مرشح من العوام مُتيقنا من ولوج الولايات الكبرى في الوقت الذي يتبارى عليها غيره ؟ من يريد التحرر من حكمكم عليه بتصويتكم الحر ؟ من يريد اغتصاب السلطة بالقفز على اقتراعكم الحر ؟ من دون الحديث عن هذين النائبين اللذين خلدا في منصب النيابة لسنين طوال كالملوك في السابق، من سيكون اليوم بروما ذلك الرجل المتواضع الذي ستسعفه حظوظ ذاك القانون لتمنحه الولوج للقنصلية بيسر أكبر من ولوجها من طرفنا نحن وأبنائنا لمّا تحبون ذلك بمحض إرادتكم ولا تستطيعون، ويُفرض عليكم غيرنا من بين من لا تحبون ؟".

"يكفيني هذا بخصوص الولايات الكبرى. وهو الأمر الإنساني المحض. لكن ما بالكم بالدين الذي يُعد الإخلال بقواعد أداء طقوسه اعتداء مباشرا على حرمة الآلهة ؟ هذه المدينة قامت على أساس استشارة الآلهة بالاستقسام. وكانت وما زالت استشارة الآلهة بالاستقسام تنظم كل شيء بروما في حال السلم والحرب. فمن يستطيع أن يجهل أو أن يتجاهل هذا ؟ لكن وفق القانون وبحسب عرف الأجداد فبيد من هو حق استشارة الآلهة بالاستقسام ؟ هو بيد البطريقيين كما تعلمون. وما اعتمدنا يوما لتنصيب أي من العوام رجل دولة. فاستشارة الآلهة بالاستقسام هي لنا وحدنا نحن البطريقيين، وليس بوسع الشعب تنصيب أي رجل دولة منا نحن البطريقيين من دونها. بل حتى نحن البطريقيون لا نعيّن وصيا على كرسي القنصلية سوى بها ومن دون اقتراع الشعب. كما نعتمدها في حياتنا الخاصة. ولا حاجة للعوام بها حتى في انتخاب نوابهم. ألن يكون في تمرير ذلك القانون نسف لاستشارة الآلهة بالاستقسام بروما، حين يُعين أحد العوام قنصلا من دون الحاجة لها، وعلى حساب البطريقيين أصحابها الشرعيين . فدعهما يتلاعبان ويستخفان إن شاءا بقدسية ممارسات طقوسنا الدينية. ثم لا حرج في الاستقسام وفي التطير بامتناع الدجاج عن الأكل ولا في خروجها ببطء من أقفاصها ولا في كيفية تغاريد الطيور. تلك مجرد خرافات بئيسة بالنسبة لهما. لكن تذكر أيها الشعب أنه فقط بفضل عدم احتقارها أنشأ وشيّد أجدادنا هذه الجمهورية العظيمة"

"اليوم ها نحن مقدمون على تدنيس كل تلك الطقوس، وكأننا لم نعد في حاجة لهدنة مع الآلهة. فلنأخذ إذا حتى الكهنة والعرافين والقيّمين على ذبح القرابين من العوام. فهيا لندنس إذا مقدساتنا بأيادي نجسة، ولنكف عن الاستقسام من أجل التصويت على القوانين وانتخاب رجال الدولة. وليصبح هكذا هذان النائبان ملكان مثل ريموس وروميلوس ما داما يعطيان الناس أموال وأراضي غيرهما من دون مقابل. كم يحلو لهما نهب ممتلكات الآخرين ! ولا يخطر على بالكم بأن أحد تلك القوانين المقترحة سيُلحق بأراضي مزارعكم الخراب لمّا يُطرد منها أصحابها الأقدمون. أما القوانين الأخرى فستنسف

الدّين نفسه الذي بهدمه يُدمر كل مجتمع إنساني. لذلك كله فإنني أحثكم على رفضها. ومهما قررتم من أمر فلتكن عنه الآلهة راضية"".

وحتى تفهم المقصود هنا بتطيّر الرومان بكيفية خروج الدجاج من القفص وبأكله وشربه وبنوعية تغاريد الطيور، بالبحث ستجد أنهم، كغيرهم من الأمم في تلك العصور العتيقة، كان لهم كهنة بطريقيون مختصون في الاستقسام بالطيور. وكان من بين أولئك الكهنة ضباط في الجيش. كانوا لا يُقدمون على فعل أمر هام من أمور الدولة في السلم والحرب حتى يستشيروا الآلهة بذلك الاستقسام كما فعل ريموس وروميلوس قديما لما استقسما بالطيور على اختيار مكان تأسيس وبناء روما. وقبل الدخول في الحرب مثلا، كان أولئك الضباط الكهنة يتعمدون حبس الدجاج في أقفاص لمدة معينة من دون لا طعام ولا شراب إلى حين الإقبال على البدء بالحرب فيعطونه الطعام والماء. إن خرج الدجاج مسرعا من القفص وأكل وشرب فتلك إشارة من الآلهة على الفأل الحسن بالانتصار في تلك الحرب، ويجب خوضها من دون خوف. وإلم يفعل الدجاج ذلك، فيظل الجيش في مكانه والكهنة يعيدون العملية إلى حين يستجيب الدجاج لمتطلبات الفأل الحسن، وإلا تأجلت الحرب ليوم آخر. حصل مرة أن جنرالا رومانيا، لم يستجب الدجاج لدخوله في الحرب فغضب منه واستخف به ورماه في مياه النهر الجارية كي يغرق فيها، وقال له : "ستشرب الآن بالرغم عن أنفك"، ثم خاض الحرب. لكن جنوده لم يستخفوا مثله بشؤم ذلك الاستقسام وخافوا على أنفسهم فتخاذلوا وخسروا الحرب. ولما عاد الجنرال منهزما إلى روما حوكم من طرف الشعب على أساس أنه كان هو السبب في تلك الهزيمة، بسبب تصرفاته المتهورة مع الدجاج واستخفافا منه باستشارة الآلهة عبر ذلك الاستقسام. لكن بالرغم من كل ذلك ومن تلك المرافعة السفسطائية تم انتخاب أول قنصل من بين العوام.

فيقول تيت ليڤ : "لم يفلح خطاب البطرقي أبيوس سوى في تأجيل تمرير تلك القوانين لبعض الوقت. ولما انتُخب النائبان صاحبا تلك القوانين، للمرة العاشرة على التوالي، استطاعا كسب تصويت الشعب عليها[1]. وكانت من بينها حتى القوانين التي تعطي الحق للعوام في ولوج مفوضية القيّمين على الطقوس الدينية. فانتخب منهم خمسة لتلك المفوضية مع خمسة آخرين من البطريقيين. وتمت بذلك خطوة ما كان بإمكان العوام تجاوزها في طريقهم للحصول على الحق في ولوج الولاية الكبرى وهي القنصلية. ومن شدة الفرحه بذلك النصر تنازل الشعب للبطريقيين، ووافقهم في تلك السنة على انتخاب نواب عسكريين بدلا من انتخاب قنصلين أحدهما من العوام".

"إلا أن روما فوجئت بعودة قوم الگول مرة أخرى لغزوها. جاؤوها في جيش من آلاف الجنود. فعين مجلس الشيوخ Camille ديكتاتورا للمرة الخامسة، وقضى على العدو الذي قُتل جله، وهرب ما تبقى منه ليختبئ في الجبال. ثم عاد الديكتاتور الشيخ لروما مظفرا وحظي باحتفال يليق بمجده وبنصره. وما أن انتهى من تلك الحرب حتى اعترضته اضطرابات قوية بروما. من بعد جدل عنيف أذعن هو ومجلس الشيوخ لرغبات نواب العوام، وفتحت الانتخابات القنصلية. هنالك انتخب لأول مرة (سنة 366 ق.م.)[2] أحد العوام قنصلا مع زميل له من البطريقيين. وحصل ذلك بموجب القوانين التي سبق أن صادق عليها الشعب منذ مدة قليلة. انتخب لأول مرة من العوام لذلك المنصب الرفيع Sextius، وهو أحد نائبي العوام صاحبي القوانين التي تم تمريرها".

وكان القضاء من صلاحيات القنصلين. وحتى لا يجد البطريقيون أنفسهم يتقاضون أمام القنصل من العوام، أحدثوا مؤسسة القضاء من قاضيين بطريقيين. فيقول تيت ليڤ : "لم يقف التجاذب بين الفئتين عند هذا الحد. رفض البطريقيون الموافقة على نتائج ذلك الانتخاب. فهددهم الشعب حينها بالاعتصام من جديد بالجبل المقدس من بعد ما هددهم بحرب أهلية طاحنة. فتدخل الديكتاتور لاقتراح حل توافقي يخفف من حدة الشقاق بين الفئتين، يعترف بموجبه البطريقيون بذلك القنصل المنتخب من بين العوام، ويعترف العوام للبطريقيين بإحداث ولاية للقضاء بروما من قاضييْن deux préteurs منتخبيْن سنويا، لكن من بين البطريقيين فقط".

هكذا مع مرور الزمن ومع تعاظم حاضرة روما وبسبب تجاذباتها السياسية، كانت تتناسل من مجموع مهام القنصلية ولايات أخرى يتنازل عنها القنصلان. كان من اختصاصات القنصلين شؤون المدينة والنظارة والقضاء العادي في مقابل القضاء في قضايا أمن الدولة الذي كان من اختصاص كتل

[1] وهي القوانين التي تحمل باللاتينية إسم *Leges Liciniae Sextiae* باسم صحابيها نائبي العوام *Caius Licinius Stolon* و *Lucius Sextius Lateranus*.
[2] وهي السنة 144 من عمر الجمهورية الرومانية

الشعب الناخبة كهيئة المحلفين اليوم. وأحدثت ولاية لكل من شؤون المدينة والنظارة والقضاء العادي مؤسسات جديدة. إلا أن شؤون المدينة والنظارة أحدثت لها مؤسسات خاصة للتخفيف عن أعباء القنصلين. أما انتزاع اختصاص القضاء العادي من صلاحياتهما ليستقل به قاضيان بطريقيان بمؤسسة القضاء المحدثة هنا في مقابل قبول البطريقيين وهم كارهين لأحد القنصلين من العوام، فبلا شك وكما تقدم، حتى لا يجد البطريقيون أنفسهم في القضايا العادية ماثلين أمام قاضي من العوام بصفته قنصلا ليفصل بينهم فيها أو ليحكم عليهم بعقوبات في القضايا الجنائية. هذا ما لم يقله تيت ليف، لكنه يبقى التفسير المعقول والمنطقي لتلك المقايضة السياسية.

ثم يقول تيت ليف : "انتهت بذلك الشقاقات وعاد الهدوء بين الفئتين بالمدينة. وكانت العقول قلقة من خبر تجمع قوم الكُول من بعد شتاتهم منذ مدة ومن نبأ عزم الحلفاء الهنريك على الانقلاب على روما وعلى التحرش بها. ومع ذلك تعمد مجلس الشيوخ تأخير اتخاذ أي قرار نكاية في أول قنصل من العوام حتى لا يُمنح فرصة قيادة الجيش. فبدأ تعامله مع ذلك القنصل بتحريض الكهنة على إعلان يوم راحة وعطلة كلما أتت مناسبة من شأنها أن تُظهره وهو يمارس مهام الولاية الكبرى. هذا بالرغم من جهر نواب العوام عن استيائهم من منح البطريقيين لأنفسهم منصبين سياديين جديدين بإحداثهم لولاية القضاء بمنصبين كتعويض عن تنازلهم عن منصب قنصل واحد لصالح العوام".

"لكن ما فتئ أن حل الطاعون بروما فخفف من حدة ذلك الشقاق السياسي ويسر الاستئناس بذلك الجديد الدستوري الذي تسبب فيه. سوى أن المرض حصد الكثير من أرواح الرومان، وكان من بينهم بعض رجال الدولة، كأحد الناظرين وأحد محافظي المدينة وثلاثة من نواب العوام. لكن الذي خلد ذكرى هول تلك المصيبة هو حصادها لروح البطل Camille الذي سبق أن أنقذ روما من احتلال قوم الكُول من بعد ما استُدعي لتلك المهمة من منفاه، وتقلد منصب الديكتاتور خمس مرات، واستنجدت به روما مرة أخرى كنائب عسكري حتى في عز شيخوخته. من أجل ذلك كله ظل Camille يعد المؤسس الثاني لروما من بعد مؤسسها الأول الملك روميلوس".

وتشفى البطريقيون من انهزام أول قنصل من العوام ومقتله كقائد للجيش في الحرب. وكأن الحدث فيه انتقام من الآلهة البطريقية للقبول بقانون ولوجهم لذلك المنصب. فيقول تيت ليف : "من بعد مرور أربع سنوات (362 ق.م.)[1] على انتخاب أول قنصل من العوام قرر مجلس الشيوخ الاهتمام بتمرد الحلفاء الهنريك. فأرسل لهم سفراء لنهيهم عن تمردهم لكن من دون جدوى. فقرر المجلس استفتاء الشعب على إعلان الحرب. وفي جمع عام أمر الشعب بخوضها. فكان لا بد من اختيار أحد القنصلين الجديدين لقيادة الجيش. وبالقرعة آلت قيادته للقنصل من العوام. وهو أول جنرال من العوام يتولى قيادة الجيش الروماني. صار الحدث بالنسبة للبطريقيين مناسبة لتأييد أو عقاب الرومان على السماح للعوام بالحق في ولوج الولاية الكبرى. وشاء القدر أن يتسرع ذلك الجنرال وبحماس للقاء العدو، وسقط في كمين فاجأ الجحافل من حوله ففزعت منه وتفرقت. وانهال عليها العدو وقَتل القنصل من دون أن يدري من هو".

"ولما انتشر خبره بروما كان البطريقيون منتشين وفرحين بفشله لقلة خبرته أكثر من حزنهم على مصاب الجمهورية في تلك الحرب. صاروا يرددون في كل جانب من المدينة ويتشفون قائلين : "هيا، نصّبوا العوام قناصلة. وحوّلوا طقوس الاستقسام إلى أيادي غير الأشراف. باستفتاء انتزعتم من البطريقيين احتكارهم للولاية الكبرى واحتكارهم مهمة الاستقسام. ثم، كما ترون، هل وافقتكم الآلهة الخالدة على ذلك ؟ بل انتقمت منكم. فما أن صارت تلك المهام إلى أيادي غير أهل لها وليس من حقها المساس بها حتى اندحر وهلك الجيش مع قائده". وكانت العشائر البطريقية والساحة العامة كلها تصدح بنفس الخطاب. فتذكرت تحذيرات أبيوس كلوديوس الذي توقع تلك النتيجة لما كان يعارض قانون تنصيب العوام قناصلة. وبإجماع من البطريقيين قرر القنصل الثاني تعيين أبيوس ديكتاتورا لإنقاذ الموقف. فقرر النفير العام وتعليق العمل بالقضاء "le "iustitium . ثم قاد الحرب على الهنريك وانتصر عليهم في معارك دامية خسر فيها الجيش الروماني ربع عدد جنوده وكثير من كبار الخيالة".

وحتى لا يبقى نواب العوام من دون نضال سياسي استطاعوا تمرير قانون يحدد سعر الفائدة على الديون وآخر يمنع الاقتراع خارج أسوار روما. فيقول تيت ليف : "في هذه السنة (357 ق.م.)[2] لم ينظر البطريقيون بعين الرضا للقانون الذي اقترحه نواب العوام والقاضي بتحديد نسبة الفائدة على القروض في واحد في المائة[3]. لكن الشعب على العكس من ذلك ابتهج به وصوت عليه بحماس. ثم طيلة خمس سنوات عرفت روما عدة حروب مع الجيران جنوبا وشمالا ومع قوم الكُول. انتصرت فيها كلها ولو بخسارة بعض المعارك ومقتل كثير من الجنود. وفي هذه

[1] وهي السنة 148 من عمر الجمهورية الرومانية

[2] وهي السنة 153 من عمر الجمهورية الرومانية

[3] وهو القانون المسمى باللاتينية *Lex Duilia Menenia*.

السنة تفرق الجيش إلى شطرين للحرب على جبهتين. فانتصر أحد القنصلين على العدو من جانبه. أما زميله فلم يجد من جانبه معركة تخلد ذكره، إلا أنه عوض ذلك في معسكره بإجراء سياسي غير مسبوق. جمع جنوده وقسّمهم بحسب انتمائهم لأحيائهم بروما وأريافها للتصويت على قانون يخص الخزينة بعشرين في المائة من مبالغ الفدية المدفوعة من طرف العدو لتحرير أسراه في الحرب. وتم تمرير ذلك القانون بحصوله على أصوات غالبية الأحياء بالمعسكر. الأمر الذي أنعش الخزينة التي كانت تفتقر للمال. ووافق مجلس الشيوخ على الاقتراع".

"لكن نواب العوام لم ينزعجوا من القانون نفسه بقدر ما أقلقتهم ظروف التصويت عليه. ومخافة أن يصبح ذلك النمط الغريب من الاقتراع سابقة غير محسوبة العواقب، مرروا بدورهم قانونا يعاقب بالإعدام كل من يجمع جموع الشعب للاقتراع خارج روما. لأنهم لو تركوا الأمر لأهواء البطريقيين ما كانوا يعرفون ماذا سيحصلون عليه من امتيازات جديدة على حساب العوام يصوت عليها الجنود بعيدا عن روما وهم تحت قَسم الولاء للقنصل بالمعسكر ولا يعصون له أمرا ومن دون تواجد معارضة خصومه السياسيين من العوام. في نفس السنة رفع أحد نواب العوام دعوى ضد نفس القنصل بسبب مخالفته لنفس القانون الداعم لمالية الخزينة الذي مرره وهو بالمعسكر. وأدين بدفع غرامة مالية ثقيلة".

ثم جاءت الظروف التي تم فيها تعيين أول ديكتاتور من العوام. فيقول تيت ليڤ : "حصلت هذه السنة (356 ق.م.)[1] لروما حرب مع أحد شعوب الإتريسكيين. وقد جاء العدو للمعركة بكل كهنته والقيمين على معابده وهم يحملون معهم رموزهم الدينية. بذلك كانت معركته ضد الرومان معركة مقدسة في عين باقي الشعوب الإتريسكسية. لكنه خسرها فاستنفر كل الإتريسكيين للأخذ بالثأر لآلهتهم المُهانة. ولما صار الخطب بتلك الخطورة عُين بروما ديكتاتور، وكان لأول مرة من العوام. وعين هو قائدا للخيالة وكان لأول مرة من العوام كذلك. فاستنكف واشمأز البطريقيون من ولوج العوام لولاية الديكتاتورية من بعد ولوجهم منذ مدة لولاية القنصلية. واعترضوا بكل قواهم على كل الإجراءات التي كان يتخذها الديكتاتور الجديد استعدادا لحرب شعوب الإيتريسك. لكن باقي الشعب كان على العكس من ذلك ينفذ كل أوامره ورغباته وبكثير من الحماس. فخرج للحرب وانتصر فيها انتصارا باهرا، وعاد لروما مظفرا. وبالرغم من معارضة مجلس الشيوخ، فقد أقام له الشعب احتفالا يليق بمنجزاته العسكرية".

إلا أن الصراع على الولاية الكبرى تجدد بين الفئتين وتمت معه العودة لانتخاب القنصلين من البطريقيين في مخالفة للقانون. فيقول تيت ليڤ : "بما أن البطريقيين كانوا ضد إشراف ديكتاتور أو قنصل من العوام على الانتخابات للولاية الكبرى، حالوا دونها وعمدوا لسد الفراغ في الولاية بتعيين أوصياء على كرسي القنصلية منهم. وأثناء ولاية أحدهم فُتح نقاش بخصوص انتخاب قنصلين من البطريقيين خلافا للقانون الذي ينص على انتخاب قنصل من العوام وآخر من البطريقيين. عارضه بالطبع نواب العوام. وزعم الوصي على كرسي القنصلية أن أحد قوانين الألواح الإثنى عشر ينص على أن القرار الذي يتخذه الشعب في نهاية المطاف هو شرعي وصحيح. الانتخاب هو أيضا قرار من الشعب وله قوة القانون. فما استطاعت معارضة نواب العوام سوى تأجيل ذلك الانتخاب. وأخيرا انتُخب قنصلان بطريقيان وباشرا مهامهما للتو".

وعلق تيت ليڤ على ذلك بقوله : "هكذا من بعد أربعة قرون على تأسيس روما، وخمس وثلاثين سنة من بعد تحريرها من احتلال قوم الكُول، وإحدى عشر سنة من بعد ولوج العوام ولاية القنصلية، ها قد عاد الرومان لانتخاب كلا القنصلين من البطريقيين وتم الاقتراع تحت إشراف وصي على كرسي القنصلية وبمبادرة منه. فخاض القنصلان حربا أشد على الشعب وعلى نواب العوام. كانا يتصوران أن إيمانهم كان يملي عليهم، أكثر من شرفهم، تسليم القنصلية لبطريقيْن من بعد نهاية ولايتهما. كانا لا يؤمنان باقتسامها مع العوام، فإما يتنازلون لهم عليها كليا أو يحتكرونها كليا كما ورثوها بَطْريقية من آبائهم".

"وكان عوام الشعب يهمسون قائلين : "ما الفائدة من عيشنا واعتبار أنفسنا مواطنين إذا كنا غير قادرين مجتمعين على الحفاظ على حقنا في ولوج ولاية القنصلية انتزعه لنا فقط نائبان منا ؟ وإلا فمن الأفضل لنا أن نظل نرزح تحت نيْر ملوك ومفوّضين أو نيْر أية هيمنة بشعة، بدلا من قبولنا بقنصلين بطريقيين، فيتصور ذلك الحزب الخالد في سُدة الحكم أن الشعب ما خلق إلا للاسترقاق". وفي خضم تلك الانتفاضة بالكاد تميز الزعماء عن غيرهم. نزلت الجموع مرات للاحتجاج بميدان مارس للاعتراض فيه على انتخاب القنصلين من البطريقيين فقط. لكن من دون جدوى. استُهلكت أيام طويلة في اقتراعات كانت تعرقلها تلك الاحتجاجات. لكن القنصلين تغلبا عليها بإصرارهما. ومع شدة اليأس الأليم الذي كان يكتنف مشاعر العوام كان نوابهم يصيحون قائلين : "انتهى عهد الحرية وصار من اللازم مغادرة ميدان مارس وترك المدينة أسيرة للبطريقيين ترزح تحت نيرهم". فتبعتهم الجموع المتذمرة. وبقي القنصلان في الميدان من دون جزء كبير من الشعب، ومع ذلك أتما عملية انتخاب قنصلين من البطريقيين".

---

[1] وهي السنة 154 من عمر الجمهورية الرومانية

"قاد القنصلان الجديدان حربا انتقامية على الأعداء حققا فيها انتصارا باهرا. وللأخذ بثأر جنود الجيش الذين أسروا ثم نُحروا، احتلوا مدينة العدو وسفكوا دم مئات من أشرافها وجلدوا باقي القوم بالسياط. فخشيهما غيرهم من الأعداء الذين جاؤوهما طالبين لمعاهدات السلام. وقبلت منهم ووافق عليها مجلس الشيوخ. لكن الشعب ظل حزينا حيثما وجد لا بالمدينة ولا بالمعسكرات. لأنه بالرغم من تخفيض سعر الفائدة إلى واحد بالمائة بقي ثقل رأس مال الديْن يسحق الفقراء ويحوّلهم إلى عبيد للدائنين. كان ذلك أكثر ما يشغل عقول العوام عن كل الخلافات مع خصومهم السياسيين وعن الخوض في نقاش المصالح العامة. استمرت بذلك القنصلية لولاية أخرى خالصة للبطريقيين من دون مشاكل تذكر. ومرة أخرى جاءت الحرب مع الجيران لتشغل الفئتين عن خلافاتهم السياسية. لكن وكالعادة ما أن انتهت بالانتصار حتى عادت نفس الخلافات لتطفو على السطح مع مشاكل الديون وفوائدها التي كانت لا تزال تثقل كاهل المستضعفين". ومعها تمت العودة للعمل بقانون اقتسام سلطة الولاية الكبرى بين العوام والبطريقيين

فيقول تيت ليڤ : "لما حان وقت انتخاب القنصلين الجديدين، تجدد النقاش والصراع السياسي بخصوص تلك الولاية الكبرى التي يريد البطريقيون أن تبقى حكرا لهم. فصار نواب العوام يعترضون على الانتخابات ويعملون على عرقلتها حتى لا تتم من دون العودة للقانون الذي يفرض انتخاب قنصل من البطريقيين وقنصل من العوام. لكن الديكتاتور الذي انتصر في الحروب الأخيرة وكُلف بالإشراف على انتخاب القنصلين قبل تنازله عن منصبه كان يُقسم بأنه يفضل نسف تلك الولاية الكبرى على تقاسمها مع العوام. ولما تنازل عن منصبه من دون انتخاب القنصلين، عُين مكانه وكالعادة وصي على كرسي القنصلية. ثم من تأجيل لتلك الانتخابات إلى آخر ظل كل مرة يتناوب على منصب الولاية الكبرى وصي على كرسيها. كل منهم كان يجد الشعب جد مستاء من البطريقيين. فظل الصراع بينهما قائما حتى الوصي الحادي عشر. وظل نواب العوام مصرين على مطلب الالتزام بقانون اقتسام ولاية القنصلية بين الفئتين مناصفة. أما الشعب فكان متضررا من ثقل الديون المتراكمة عليه. فانفجرت كل تلك المآسي في النقاشات العمومية. ولما تعب من تلك الخصومات ومن أجل تحقيق السلم الاجتماعي أمر مجلس الشيوخ الوصي على كرسي القنصلية (سنة 352 ق.م.)[1] بالرجوع لقانون اقتسام الولاية الكبرى مناصفة بين العوام والبطريقيين وانتخاب القنصلين، واحد من كل فئة". وتم تكليف خزينة الدولة بتدبير وتصفية ديون المستضعفين.

تصفية ديون المدينين المعسرين

يقول تيت ليڤ : "من بعد هذه العودة الأولى للوفاق، حاول القنصلان الجديدان التخفيف من عبء فوائد الديون على المستضعفين، الذي كان يعيق الوفاق التام بين العوام والبطريقيين. فجعلا من تصفية تلك الديون مهمة الدولة. لذلك عيّنوا مفوضية مكونة من خمسة مفوضين لقبوا بالمصرفيّين banquiers. واستحقوا الذكر في كل كتب التاريخ بفضل ما اشتهروا به من إنصاف ومن تفاني في خدمة المجتمع".

وقد تعجب من ذكر كلمة بنكيين أومصرفيين في ذلك العصر وحتى في عصر المؤرخ تيت ليڤ (ت 17م). لكن بالبحث في تاريخ الصيرفة ستجد أنها مهنة جد قديمة، وقد ظهرت ببلاد ما بين النهرين أي العراق الحالي منذ ألفين سنة قبل الميلاد. وقد أطّرها الملك حمورابي بقانون ينظمها. وكان المصرفيون من قبل ظهور النقود يتعاملون مع زبنائهم بالمعادن النفيسة، بالتبديل والإيداع والقرض. مع ظهور مختلف النقود منذ القرن السابع قبل الميلاد ومع تنامي التجارة البينية، صار المصرفيون يؤمنون للتجار صرف مختلف العملات أي تبديل نقد بنقد. كما كانوا يقدمون لزبنائهم خدمة الإيداع وقرض الأموال مقابل الرهن. لكن ما ظهرت البنك بمفهومها العصري كمؤسسة مصرفية مقننة ومضمونة من الدولة ولها فروع في مختلف الأقاليم والدول إلا في القرن الخامس عشر، وانطلاقا من البندقية بإيطاليا. ولهذا فالمصرفي أو البنكي في عصر الرومان كان هو كل من يحترف التجارة في العملات النقدية من صرف وإيداع وقرض، لكن من دون وجود مؤسسة مصرفية بفروعها الإقليمية والدولية. والمفوضون الرومان الخمسة أعلاه مارسوا تلك الصيرفة باسم خزينة الدولة التي اشترت من الدائنين الديون المستحقة على مدينيهم المتلكئين في سدادها أوالمفلسين، كي تتعامل هي معهم بعدل ورفق. فأعفت المفلسين من سداد ما عليهم، وراجعت بالقسط ما تبقى من الدين المستحق على المتلكئين.

ثم يقول تيت ليڤ : "وكانت مهمة المفوضين الخمسة جد صعبة، لأنها غالبا ما كانت تُغضب الدائنين والمدينين، أو على الأقل أحد الطرفين. لكنهم نجحوا في مهمتهم بفضل اعتدالهم. العديد من المتأخرات في سداد الدين كان بسبب إهمال المدينين وليس بسبب عجزهم. فأحضر المفوضون أموال خزينة الدولة إلى الساحة العامة، وصاروا يؤدون الديون للدائنين

[1] وهي السنة 158 من عمر الجمهورية الرومانية

من بعد أخذ كل الضمانات للدولة من المدينين. وكان من بين هؤلاء المفلسون الذين كانت تؤدي عنهم الخزينة كل الدين وتعفيهم تماما من سداده. أما المتلكئون فكانت تؤدي الديْن عنهم من بعد مراجعة قيمته بالعدل، كي يبقوا مدينين لها بسداد ما بقي منه في ذمتهم. هكذا وبإنصاف ومن دون شكوى من أي طرف صفّت الدولة عددا هائلا من الديون المستحقة على المستضعفين".

"ظهر تكتل للأعداء يستعد للهجوم على روما. فعين مجلس الشيوخ ديكتاتورا لمواجهة الخطر. ولما خرج بجيشه لم يجد جيوشا يحاربها فعاث فسادا في أراضي أقرب عدو. حينها تملك باقي الأعداء الرعب فجاؤوه يطلبون منه الصلح. فمنحهم مجلس الشيوخ هدنة مدتها أرعين سنة. لكن الديكتاتور من قبل تنازله عن منصبه حاول العمل من جديد على انتخاب كلا القنصلين الجديدين من البطرقيين خلافا لما ينص عليه القانون من مناصفة. اعترض على ذلك نواب العوام وحالوا دون إجراء الاقتراع. وصار لزاما على مجلس الشيوخ تعيين وصي على كرسي القنصلية من جديد في انتظار أن يتم انتخاب القنصلين الجديدين. وبفضل ما تم من تخفيف لثقل الديون على المدينين أفلح الوصي فيما لم يفلح فيه الديكتاتور، وتم انتخاب قنصلين بطريقيين".

وإثر ذلك تم انتخاب أول ناظر من العوام سنة 350 ق.م. فيقول تيت ليف : "لكن منذ تسديد الدولة لديون المدينين انتقلت ثروات كثيرة من أيادي إلى أخرى. فصار لزاما القيام بإحصاء جديد، لتحيين لوائح وسجلات الطبقات الميئية الخمس. وحدد مجلس الشيوخ موعد انتخاب الناظرين الجديدين المكلفين بذلك الإحصاء. إلا أن أول ديكتاتور من العوام سابقا صار يتطلع ليكون أيضا هو أول ناظر من العوام. فأعلن عن نواياه وأربك بذلك التوافق الذي ساد أخيرا بين العوام والبطريقيين. ويظهر أنه أخطأ التوقيت لأن القنصلين البطريقيين كانا معارضين لرغبته. ومع ذلك وصل إلى مبتغاه (سنة 350 ق.م.)[1] بفضل إصراره وتأييد نواب العوام في إطار كل الجهود التي كانوا يبدلونها لاسترجاع ما فقدوه في الانتخابات السابقة من حقهم في الترشح للقنصلية، وهي الولاية الكبرى. والرجل بفضل مقوماته الذاتية كان كفأ وجليلا بما يكفي كي يستحق ولوج المقامات الرفيعة بالدولة. وعلى كل حال فقد كان هو أول من فتح طريق ولوج العوام مقام ولاية الديكتاتور. فأراد نواب العوام الوصول لاقتسام سلطة النظارة عبره. ولم يكن هناك انقسام بين الناخبين لمنعه من الفوز بذلك المنصب مع زميل له من البطريقيين".

ومن حقك أن تعجب من انتخاب ناظر من العوام حين تتذكر أن الهيئة الناخبة هي الطبقة الأولى من الهيئات الميئية حيث كانت الغالبية للبطريقيين. وذلك بخلاف انتخاب قنصل من العوام الذي فرضه القانون على نفس الكتلة الناخبة. فيبقى التساؤل قائما عما جعل تلك الكتلة ذات الغالبية البطريقية تنتخب ناظرا من العوام بمحض إرادتها. لا ندري.

ثم يقول تيت ليف : "وعُين هذه السنة ديكتاتور، فخاف البطريقيون ليس من الحرب بل من تطبيق قانون انتخاب قنصل من العوام في الاقتراع اللاحق. وبالفعل حصل ما خافوا منه. فثبت بذلك ضعفهم أمام رغبات العوام في الانتخابات القنصلية مثلما تأكد ضعفهم في انتخاب أول ناظر من العوام أيضا. وشاء الحظ أن يكون بجانب ذلك القنصل من العوام، في الوقت الذي ظهر فيه تجمع كبير لجيش قوم الكُول عازما على حرب روما. كان القنصل البطريقي مصابا بمرض خطير. فآلت قيادة الجيش الروماني وبصفة استثنائية لزميله من العوام، والذي انتصر فيها على العدو وعاد لروما مظفرا. لكنه كان جريحا فصار هو كذلك طريح الفراش. حينها عين مجلس الشيوخ ديكتاتورا من البطريقيين بسبب مرض القنصلين. إلا أن ذلك الديكتاتور انتهز الفرصة وأقام انتخابات أعاد فيها القنصلية من جديد خالصة للبطريقيين، بل وكان مرشحا لها فكوفئ بانتخابه قنصلا. وصار المواطنون إثر ذلك الاقتراع يتهامسون ليقولوا : "من منا كان مستاء من قنصل من العوام انتصر في الحرب على قوم الكُول ؟". ثم كانوا يتهجمون على ذلك الديكتاتور الذي حصل على القنصلية كثمن من البطريقيين لإخلاله بقانون تقاسم القنصلية بين الفئتين. وهوا لاعتداء على حرمة قوانين الدولة الذي لم يكن في نظرهم أقل خزيا من مكافأته بانتخابه هو نفسه قنصلا".

"وتميزت هذه السنة (348 ق.م.)[2] بالهدوء في الداخل وبالخارج. فتقرر فيها تخفيض سعر الفائدة على الديون من 1 % إلى 0,5 % وتقسيم تسديد مجمل الديْن على أربع دفعات متساوية، على أساس تسديد الدفعة الأولى في الحال ثم تسديد دفعة في آخر كل سنة من السنوات الثلاث الباقية. ومع ذلك ظل هذا الإجراء محرجا لفئة عريضة من المدينين. لكن بالنسبة لمجلس الشيوخ الثقة في الدولة كانت أهم من انزعاج الأفراد. والذي أراح المواطنين أكثر هو تأجيل استخلاص الضرائب وحملات التجنيد".

---

[1] وهي السنة 160 من عمر الجمهورية الرومانية

[2] وهي السنة 162 من عمر الجمهورية الرومانية

"ثم بتشجيع من جيرانهم تأهب قوم الڤولسك مرة أخرى للتحرش بروما. لكن حماسهم في إثارة الشغب كان أكبر من مهارتهم في خوض الحرب. فانهزموا واستسلم منهم للرومان أربعة آلاف جندي علاوة على جموع من المدنيين. وأحرقت مدينتهم وسلم الجنرال الروماني الغنائم للجنود. وقبض على الذين لم يستسلموا فقادهم مكبلين في الأصفاد إلى روما حيث باعهم كعبيد في المزاد العلني وسلم ثمنهم لخزينة الدولة". وعلق المؤلف على ذلك بقوله : "قيل أن من بيعوا كانوا أصلا كلهم عبيدا لأن كل الجنود قد استسلموا".

ثم قال : "سنتكلم من الآن فصاعدا عن حروب أكثر أهمية، بالنظر لطول مدتها ولحجم قوات العدو ولبعد المسافة بين بلده وبين روما. في هذه السنة بدأت (343 ق.م.)[1] أول الحروب مع شعب Samnites، القوي بثرواته وبقواته العسكرية. من بعد Samnites، في حرب دامت طويلا من دون حسم، تعاقب على حرب روما ملك اليونان Pyrrhus[2] ثم شعب قرطاجة[3]. وتلك هي المهام العملاقة والأخطار الهائلة التي كان على روما تحملها وتخطيها كي تبلغ ما بلغت من عظمة. تلك العظمة التي رفعت الجمهورية أخيرا إلى مقام الإمبراطورية، والتي تئن اليوم تحت وطأة ثقلها[4]". ويعني بذلك دخول الجمهورية في التاريخ كقوة إقليمية بالبحر المتوسط. وقد دخلتها كجمهورية صارت فيها السيادة للشعب بفئتيه من البطرقيين والعوام من دون كبير تمييز بينهما. دخلتها كجمهورية ديمقراطية. فماذا عن تلك الفترة من تاريخها وعن العوامل السياسية بالداخل التي تهمنا والتي جعلت منها إمبراطورية شاسعة الأطراف محكومة من بمؤسساتها الدستورية من داخل أسوار روما ؟

[1] وهي السنة 167 من عمر الجمهورية الرومانية
[2] ما بين 280 ق.م. و275 ق.م.
[3] وهي ثلاثة حروب ما بين 264 ق.م. و146 ق.م.
[4] والتعليق للمؤلف تيت ليف الذي يتكلم هنا عن الجمهورية التي تحولت في عصره إلى إمبراطورية وهي تئن تحت وطأة عظمتها.

ا

الفصل الثامن : عهد الجمهورية الديمقراطية (343 ق.م _ ....)

مقدمة الفصل

نذكرك بما كان لحروب روما مع جيرانها الأقربين من فضل في انتعاش الحرية لصالح عوامها في صراعهم ضد استبداد البطريقيين. والذي يهمنا هنا من حروبها مع الشعوب البعيدة والقوية هو دائما الفضل العظيم الذي كان هذه المرة لنفس الحرية بروما في انتصاراتها فيها كلها وفي رفع الجمهورية إلى مقام الإمبراطورية الشاسعة الأطراف من حول كل البحر المتوسط، والتي امتدت من طنجة حتى إسبانيا، مرورا بمصر والشام واليونان، علاوة على فرنسا وجنوب ألمانيا وجنوب أنڤلترا. وقد خصص المؤلف لهذه المرحلة من تاريخها فصلا كاملا شكل عهد الجمهورية الديمقراطية كقوة إقليمية بالبحر المتوسط. جاءت تلك الحروب في فترة استكملت فيها الجمهورية مؤسساتها الدستورية في إطار نظام حكم ديمقراطي متوازن بين فئة الملأ من البطريقيين وعموم الشعب من العوام.

فأهمية هذا الفصل تكمن في الفضل الذي كان لنظام الجمهورية الديمقراطية في كقوة إقليمية مع أقوام بعيدة وأقوى من الأعداء الجيران من حولها. نظام حكم قوي ومتين شكل فيه الملأ من البطريقيين من جهة والعوام ونخبهم من جهة ثانية شركاء لا يستغني بعضهم عن البعض بمقدار ما كانوا خصوما سياسيين. فما كانوا يوما أعداء وما حاربوا يوما بعضهم بعضا. ظلوا مضطرين لحل خلافاتهم بالتدافع السلمي من أجل تحقيق قدر من التوازن بين الفئة الحاكمة والفئة المحكومة، حتى صار البطريقيون يحسبون للعوام ألف حساب قبل اتخاذ أي قرار يهم الشأن العام. وبتلك الخاصية التي تميز بها الرومان عن غيرهم استطاعوا ليس فقط مواجهة أعتى الأعداء بإيطاليا ومن حول البحر المتوسط وبباقي أوروبا من وراء جبال الآلب، بل احتلوا بلدانهم واستعمروها. وكانت أول تلك الحروب ضد شعب Samnites شرق إطاليا.

استفتاء الشعب في خوض حرب

عن أسبابها وعن بداياتها يقول تيت ليف: "أما الحرب بين الرومان وشعب Samnites، الذين كانت تجمع بينهما معاهدات سلام وصداقة، كانت لها أسباب أجنبية عنهما. في أول الأمر، لشعورهم بأنهم كانوا هم الأقوى من غيرهم، هاجم قوم Samnites جيرانهم قوم Sidicins. فوجد هؤلاء أنفسهم مضطرين للاستنجاد بأمة أقوى من عدوهم. حينها تحالفوا مع قوم Campaniens. إلا أن هؤلاء ما جاؤوهم لإنقاذهم سوى بالإسم بدلا من القوة. فانهزموا أمام Samnites بأراضي حليفهم المستنجد به، من بعد ما تحملوا لوحدهم كل ثقل الحرب. هنالك تخلى قوم Samnites عن قتال Sidicins وتحوّلوا للهجوم على حلفائهم Campaniens وبعقر دارهم، حيث وجدوا المجد والغنائم أعظم. حينها فقط استنجد شعب Campaniens بدوْرهم بالرومان".



موقع أراضي شعب السامنيت من روما

ومن أروع وأجمل ما تقرأ من بيان ومنطق وبلاغة في خطاب سفراء قوم Campaniens الديبلوماسي في تلك العصور الغابرة، نقله تيت ليف في كتابه وقال : "لما جاء رسلهم إلى روما استقبلهم مجلس الشيوخ وقالوا لأعضائه : "لقد أرسلنا قومُنا إليكم أيها الآباء الأجلاء، نلتمس منكم القبول بصداقتنا الدائمة وبنجدتنا حالا. فلو

طلبنا منكم تلك الصداقة في حال رخائنا لكانت صداقة معقودة على عجل وبروابط غير متينة. لأننا سنكون حينها مطالبين بتحالف معكم طلب الند للند، ونظل كما كنا أصدقاء أوفياء لكم، لكن مستقلين وغير خاضعين ولا تابعين لكم. أما اليوم، ونحن نلتمس عطفكم علينا ونستجدي دعمكم أمام ما نحن فيه من خطر، فسيكون اعترافنا لكم بالجميل واجبا، وإلا كنا ناكرين للخير وغير جديرين بحماية الآلهة".

"بحق هرقل، وبما أن قوم Samnites كانوا قبلنا أصدقاء وحلفاء لكم، فليس ذلك بحجة لبتبرير رفض صداقتنا. لهم عندكم علينا فقط حق السبق مع درجة زائدة من الشرف. ومعاهدة الصداقة بينكم وبينهم لا تمنعكم من عقد معاهدات مع غيرهم. مجرد الرغبة في صداقتكم كانت دائما كافية عندكم لينالها من يطالب بها وللحصول على الحظوة بشرفها. قومنا، بالرغم من هذا الوضع الصعب الذي لا يسمح لهم بالتحدث بصوت عالي، ما كانوا ليخنعوا بعظمة مدينتهم وخصوبة أراضيهم لأي شعب سواكم. ما كانوا ليقبلوا بأن يزيدوا ولو قليلا من رخائهم إلى رخائكم، بفضل عقد معاهدة الصداقة معكم. وليجرأ كل من les Èques وles Volsques أعداؤكم التقليدين على التحرش بكم، فسيجدوننا حينها في أعقابهم كي نفعل بهم على الدوام كل ما من شأنه أن يرفع من عظمة دولتكم ومن مجد مدينتكم، كما ستفعلون اليوم أنتم أولا من أجل خلاصنا".



موقع بلاد شعب Campaniens من بين باقي البلدان

"هذه الأمم الموجودة بيننا وبينكم ما أن تُروّض، وهو الأمر الذي لن يتأخر كثيرا بفضل شجاعتكم وقوتكم، حتى يتوسع نفوذكم ومن دون انقطاع إلى أن يشمل وطننا. نعرف أن هذا الاعتراف منا قاسي ومؤسف، ونبوح به لكم أيها الآباء الأجلاء فقط بسبب ما نحن فيه من وضع سيئ أجبرنا على الخيار بين الاستسلام إما لأصدقائنا أولأعدائنا. واخترنا الاستسلام لكم إن أنتم قبلتم بنجدتنا ولم تتخلوا عنا، فلا تسلموننا إلى أعدائنا. فكروا في ماذا تفضلون وتختارون، بين أن تكون بلادنا بأكملها بيدكم وزيادة في قوتكم أوبيد أعدائنا Samnites وزيادة في قوتهم".

"صحيح أيها الرومان أن شفقتكم ودعمكم مفتوحان للجميع. لكن هما مفتوحان بالأخص لمن لمّا استجابوا لاستنجاد غيرهم استُنفدت قوتهم وصاروا هم من يستنجدون بغيرهم. لما كنا نقاتل من أجل قوم Sidicins كنا في الحقيقة نقاتل من أجل أنفسنا. لما رأينا جيراننا فريسة لنهب شعب Samnites قدّرنا أن الحريق كان في طريقه إلينا. واليوم لما يهاجمنا قوم Samnites، فليس حقدا علينا وكأننا أهنّاهم، بل ابتهاجا بالذريعة التي أعطيناهم. فيا ليته كان الانتقام لمهانة أصابتهم منا هو سبب هجومهم علينا، لكان حينها أقل من حقهم علينا إبادة جنودنا وجنود جيراننا. بل هاجمونا فقط لإشباع جشعهم. فما هو سبب ذلك الغضب العارم الذي لم يستطع أن يطفئه سفك دماء جيشين، علاوة على تخريب البوادي وعلى جمع الغنائم من الرجال والمواشي، وعلى إحراق الحقول وتدمير الضيعات، وعلى البلد الذي صار كله فريسة للنار والدم ؟ ألم يكن كل ذلك كافيا لإطفاء غضبهم ؟ لكن جشعهم هو الذي كان يجب إشباعه. فهو الذي حركهم لغزو بلدنا. كانوا في خيار بين تدمير تلك المدينة الجميلة أو احتلالها وامتلاكها".

"أما أنتم معشر الرومان، فستقبل مدينتنا سيادتكم عليها بفضل جميلكم عليها. فلا تسمحوا لأعدائها بارتكاب جريمة احتلالها. نحن لا نخاطب شعبا يمتنع عن الحروب العادلة. في حين، مجرد ظهور مساعدتكم لنا سيكون كافيا لتراجع الأعداء، فلن تكونوا في حاجة لقتالهم. ها هو استخفاف شعب Samnites بباقي الشعوب قد وصلنا. وبفضلكم لن يتجاوزنا إلى غيرنا. هكذا سنكون يا معشر الرومان، محصنين وآمنين تحت ظل سلاحكم. كل ما نملكه من بعدها وكل ما سنكون عليه سترونه ملكا لكم. من أجلكم ستُحرث أراضينا وستُعمّر مدينتنا. سنحسبكم من جملة مؤسسي مملكتنا وآبائنا وآلهتنا الخالدة. ولا مستعمرة من مستعمراتكم ستتفوق علينا في الولاء والوفاء لكم".

"مجرد إشارة برؤوسكم أيها الآباء الأجلاء، تكفي لتوعد شعبنا بحمايتكم الإلهية التي لا تقهر، وتجعلهم يأملون في نجاة مدينتهم. هل تستطيعون تصوّر العدد الهائل من مواطنينا ومن كل الطبقات الذين علّقوا كل آمالهم على مجيئنا إليكم ؟ وكم هي المتمنيات والدموع الصادرة من كل مكان ؟ وما هو الحال الآن الذي تركنا عليه وراءنا مجلس الشيوخ ونساءنا وأطفالنا ؟ هذه الجموع كلها، هي الآن واقفة أمام الأبواب وأبصارها شاخصة إلى الأفق ترقب طريق عودتنا، مع يقيننا معشر الآباء الأجلاء، أن عقولها قلقة وغير مطمئنة بخصوص الجواب الذي ستكلفوننا بإبلاغه إليها. فقط كلمة واحدة منكم ستحمل لهم النجاة والنصر والحياة والحرية. أما الكلمة الأخرى فنحن نرتعش من مجرد التفكير في ما ستحمله لهم. ونكرّرها لكم، إما أن نكون حلفاءكم وأصدقاءكم أولا نكون. أنتم الذين تقررون".

"فانسحب السفراء وأخذ مجلس الشيوخ في مداولة عرضهم. كانت Capoue مدينة المستنجدين بروما هي الأوسع والأكثر ثراء بكل إيطاليا، علاوة على أراضيها الخصبة والمطلة على البحر. رأى فيها العديد من أعضاء المجلس خزان حبوب للشعب الروماني في وجه مواسم فلاحية متقلبة. لكن النوايا الحسنة تغلبت على الجشع والطمع في تلك الامتيازات كلها. فعاد السفراء وأخذ القنصل الكلمة باسم مجلس الشيوخ ليجيبهم قائلا : "معشر Campaniens، لقد اعتبركم مجلس الشيوخ جديرين بحمايته. لكن من الإنصاف ألا يضر عقد معاهدة التحالف معكم بأي صداقة وتحالف سابق. كما تعلمون، نحن تجمعنا مع قوم Samnites معاهدة سلام وصداقة. إن نحن حملنا السلاح ضدهم فسنكون مذنبين في حق الآلهة قبل الرجال. لذا لن نستجيب لمطلبكم. إلا أنه بالنظر في قضيتكم وجدنا أن العدل يفرض علينا أن نبعث إلى حلفائنا وأصدقائنا Samnites برسلنا نلتمس منهم بألا يصيبوكم بأي عدوان".

موقع مدينة Capoue من بلاد شعب Campaniens

"وعلى هذا الأساس، ووفق التعليمات التي تلقوها من زعماء مدينتهم، رد السفراء بقولهم : "بما أنكم لم تقبلوا بالدفاع العادل عن مصالحنا ضد العدوان والظلم، فلن ترفضوا على الأقل الدفاع عن مصالحكم. لهذا نضع أخيرا بين أيديكم أيها الآباء الأجلاء، ونسلم للشعب الروماني شعبنا ومدينة Capoue وأراضيها ومعابدها وكل ما بها من أمور البشر والآلهة. من الآن فصاعدا كل من اعتدى علينا فقد اعتدى على رعاياكم". مباشرة بعد قولهم هذا انحنوا راكعين وأياديهم ممدودة نحو القنصل والدموع تملأ أعينهم".

وعلق تيت ليف على ذلك الموقف بقوله : "كان في ذلك المشهد مثال جد مؤثر على تقلبات مصير الشعوب. هذا شعب غني وقوي، عُرف ببريق ترفه وبصلابة عزته، وقد استنجد به جيرانه فقط منذ مدة قليلة. ثم ها هو اليوم يُهين ويذل نفسه بهذا الشكل المؤسف والمخجل ليطلب بمحض إرادته بأن يصبح هو نفسه وكل ثرواته تحت سلطان غيره. لم يعد بوسع شرف مجلس الشيوخ أن يسمح لنفسه بالتخلي عن أناس استسلموا له كلية. صار يرى أنه من الظلم والحيف أن يعتدي قوم Samnites على أراضي جيرانهم وعلى مدينتهم Capoue التي أصبحت كلها وبمحض إرادة شعبها في ملك الشعب الروماني". لكن بذلك الاستسلام لروما لم يصبحوا من مواطنيها بل صاروا فقط من رعاياها. ليست لهم حقوق المواطنة التي كانت للبطريقيين ثم صارت للعوام بالتدرج من بعد صراع سياسي مرير. كون أهالي Campaniens قد صاروا من رعايا روما فعلاقتهم بالرومان قد صارت كعلاقة العبد بسيده. كان لهم الاستقلال الذاتي لكن السيادة كانت لروما تحميهم وتأخذ منهم وتملي عليهم ما تريد ولا يحملون السلاح إلا بإذنها.

ثم يقول تيت ليف : "قرر مجلس الشيوخ بروما بعث رسله ومن دون تأخير إلى قوم Samnites كي يذكروهم أولا بالتزام روما بمعاهدة الصداقة المبرمة معهم، ثم يخبرونهم بشكاوى وبطلبات Campaniens وبقبول مجلس الشيوخ استسلامهم كلية للشعب الروماني، ويطالبونهم أخيرا، وبموجب نفس معاهدة الصداقة، بالحفاظ على سلامة Campaniens الذين أصبحوا من الآن فصاعدا من رعايا روما. لن تقبل روما من أحد أن يحمل السلاح ضد أراضي سُلّمت لها من طرف أهلها. إلّم يلاقي هذا المطلب المقدم برفق ولطف قبول قوم Samnites، فعلى سفراء روما حينها أن يكونوا حازمين معهم فيخبرونهم بأن الشعب الروماني ومجلس الشيوخ يأمرانهم باحترام سلامة تراب مدينة Capoue وأراضيها. لما سمع مجلس Samnites عرض سفراء روما أجابهم بالتحدي متبجحا بمواصلته للحرب. وأمام السفراء استدعى زعماؤهم قواد الجيش وأمروهم بصوت عالي بالذهاب في الحين لنهب وتخريب أراضي Capoue".

"ولما سمعت روما بذلك الرد تخلى مجلس الشيوخ عن كل شيء وتفرغ لهذا الأمر. بعث برسل من الكهنة إلى زعماء Samnites لثنيهم باسم الآلهة عن غيّهم ولدعوتهم لسلوك سبيل الرشد. لكن مع رفض Samnites لذلك المسعى السلمي قرر المجلس عرض الأمر على استفتاء الشعب. فوافق الشعب على إعلان الحرب ثم أعلنها المجلس بشكل رسمي. وخرج القنصلان على رأس جيشين. توجه أحدهما إلى مدينة Capoue لصد الهجوم على أراضيها. وتوجه الآخر رأسا إلى أراضي العدو لردعه وعقابه على رفض مساعي الصلح والهدنة". واللافت هنا هو اللجوء للمؤسسات مع سيادة الشعب الذي صار بيده قرار السلم والحرب من بعد ما كان محتكرا من طرف المجلس. فكان في ذلك قوة لجيشها الذي يتشكل جنوده من شعبها الموافق بمحض إرادته الحرة على خوض الحرب.

ثم يقول تيت ليف : "وجد الجيش الأول العدو في انتظاره لما علم أن بداية الحرب ستكون بذلك الجانب. وقد كان حاقدا على أصحاب الأرض الذين استنجدوا بروما. فكان جنوده جد متحمسين لخوض المعركة مع الرومان على أمل الانتصار عليهم كما انتصروا منذ مدة قليلة على قوم Sidicin وعلى حليفه من قوم Capoue. من بعد ما جرب القنصل العدو في بعض المناوشات استعد للحرب وخاطب جنوده قائلا : "هذه الحرب الجديدة مع أعداء جدد ليس من شأنها أن ترعبكم. بقدر ما ابتعدتم عن وطنكم بقدر ما ستجدون أقواما غير متمرسين على الحرب. لذا يجب ألا تحكموا على شجاعة Samnites بانتصارهم في معركتين على من قبلكم. لما يتعارك طرفان فلا بد من منهزم. وسبب هزيمة Campaniens يعود يقينا لترفهم الباذخ ولمجونهم ولرخاوتهم وجبنهم، وليس لقوة وشجاعة عدوهم. ثم ماذا يساوي الانتصاران الأخيران لشعب Samnites، أمام أمجاد وانتصارات روما التي يفوق تعداد حروبها وانتصاراتها تعداد سنين عمرها منذ تأسيها ؟ أنتم جنود روما التي روّضت بفضل أسلحتها كل الشعوب المحيطة بها، وتغلبت على قوم الكّول الهمجي في عدة لقاءات، ولم تترك له ملجأ بإيطاليا سوى اللجوء لسفنه بالبحر"

"فلا بد لكل منكم وهو ذاهب للحرب أن يكون مؤمنا بمجد جيشه العسكري وبشجاعته. عليكم أن تحكموا عليّ كقائد لكم بالأفعال وليس بمجرد الأقوال. فلا تطلبوا مني أوامر بل انتظروا مني مثالا تقتدون به. أنا لم أتقلد ثلاث مرات منصب القنصلية ولم أنل المجد والشرف بالدسائس والمناورات، بل حصلت على كل ذلك بفضل ساعدي هذا. كان بالإمكان في وقت سابق القول بأنني من أسرة بطريقية ساهمت في تحرير الوطن، وأنها نالت شرف تقلد منصب القنصلية في نفس السنة التي عرفت فيها روما أول قنصل". ثم أصر الجنرال على الإشارة إلى التطور السياسي العظيم الذي حصل في روما والذي صار يعول عليه في خوض الحروب لإقليمية، فقال : "أما اليوم فولوج منصب القنصلية صار مفتوحا ومن دون تمييز، لنا نحن البطريقيين ولكم أيها العوام، ولم يعد متعلقا، كما في السابق، بمنبت ونسب المرشح، بل فقط بالاستحقاق. وعليه، فتطلعوا أيها الجنود لكل المناصب العليا. الوقت اليوم يزحمنا. فتعالوا معي ومع حماية الآلهة لحصاد أول وأكمل انتصار على هذا العدو".

"وإثرها خاض الرومان الحرب مع العدو وانتصروا عليه في المعركتين. قتلوا جنوده شر تقتيل واحتلوا معسكريه وغنموا كل ما فيهما، وعاد ما تبقى من رجاله للاختباء وراء أسوار مدينتهم، فارتاح من شرهم كل الجيران. هذا الانتصار جر لروما من كان له معها مجرد هدنة مؤقتة إلى طلب معاهدة سلام دائمة من مجلس الشيوخ. من كان منهم يستعد للهجوم عليها حوّل سلاحه لغيرها. ولم ينحصر صيت انتصار الرومان على قوم Samnites في حدود إيطاليا، بل بلغ حتى قرطاجة التي أرسلت للمرة الثانية مبعوثيها لتهنئة روما به ولتشريف آلهتها بإهداء تاج وازن من الذهب كي يوضع بمعبد الإله جوبتير بالكابطول". وهكذا وصل صيت روما إلى ما وراء البحر المتوسط بقرطاج وبغيرها.

وقد قال الجنرال الروماني لجنوده من العوام قبيل خوضهم الحرب : "أما اليوم فولوج منصب القنصلية صار مفتوحا ومن دون تمييز، لنا نحن البطريقيين ولكم أيها العوام، ولم يعد متعلقا، كما في السابق، بمنبت ونسب المرشح، بل فقط بالاستحقاق". فكان في ذلك إشارة منه إلى أنهم لما يحاربون العدو فهم يدافعون عن حريتهم بوطنهم وعلى مجمل الحقوق التي انتزعها أجدادهم من حكم البطريقيين. وهكذا كانت وظلت الانتصارات المتلاحقة والمحققة على الأعداء من ثمار الحرية بروما، والتي بفضلها صمدت روما إلى حين صارت قوة إقليمية عظمى احتلت واستعمرت كل الأقاليم المحيطة بالبحر المتوسط. ثم تأمل فيما يلي حكمة الرومان في القضاء على تمرد عسكري من دون سفك للدماء.

عفو الشعب عن متمردين عسكريين

قال تيت ليف: "استقبلت مجلس الشيوخ مبعوثين من مدينة Capoue جاؤوا طالبين منه جحافل من الجيش الروماني لتستقر بأرضهم فتحميها وتحميهم من عدوان Samnites في فصل الشتاء، وهو الفصل العصي على الانضباط العسكري. استجاب المجلس لطلبهم، لكن المدينة الباذخة ما لبثت أن أسرت قلوب الجنود الرومان لما تعاطوا لجميع ما فيها من الملذات بعيدا عن قتامة وشظف العيش بالوطن. فصاروا يفكرون في التمرد على روما لاستخلاص تلك المدينة المزدهرة لأنفسهم باستلابها من أهلها الحاليين من المهاجرين الإغريق الذين استلبوها سابقا بقوة السيف من أهلها الأصليين. صاروا يقولون فيما بينهم : "من حقنا أن نعاملهم بمثل ما عاملوا به غيرهم من قبل. بأي حق تبقى هذه المدينة الجميلة وهذه الأراضي الأكثر خصوبة بكل إيطاليا بيد من لم يستطيعوا حمايتها وحماية أنفسهم، ولا تكون من حق من حموها بسلاحهم وبدمائهم وطردوا منها قوم Samnites ؟ هل من العدل أن يتمتع هذا الشعب الذي أصبح من رعايا روما بكل هذه الخيرات والملذات الوفيرة، ونحن المتعبون بالحرب ما نزال نكابد من حول روما في تربة قاحلة وموبوءة ونعاني بداخل روما نفسها من شرور الديون ومن فوائدها التي تتعاظم يوما بعد آخر ؟".

"كانت تلك المشاريع تحاك وتحبك في اجتماعات سرية، ولم تخرج بعدُ للعلن. لكنها لم تخفى على القنصل الجديد (سنة 342 ق.م.)[1] الذي آل لنفوذه وبالقرعة إقليم مدينة Capoue، وترك فيه زميله لينوب فيه عنه. قدّر أن خير وسيلة لتأخير حصول تلك المؤامرة هو إعطاء الأمل لأصحابها في تنفيذها وقت ما شاءوا. فبث بينهم شائعة تقول بأنهم سيبقون مرابطين في فصل الشتاء القادم بنفس الحاميات العسكرية المقامة بنفس الإقليم. أحس حينها المتآمرون براحة البال واستكانوا إلى حين. لكن القنصل أخذ في تطهير تلك الحاميات تدريجيا بالاستغناء عن خدمات الأكثر شغبا وتأثيرا من بين المتآمرين. كان يتعذر بشتى الذرائع لتشتيتهم، لكن من دون أن يثير شكوكهم. ولما كانوا يصلون إلى روما كان القنصل الثاني يراقبهم ويحول دون تجمعهم مرة أخرى بشتى الأسباب. لكن المتبقين منهم بالإقليم فطنوا للعبة وخشوا على أنفسهم وعلى من رُحّلوا من الانتقام والعقاب من بعد زحزحتهم كلهم عن ذلك الإقليم. لما رأوا أن عددهم لا يزال كبيرا وقادرا على التمرد تجمعوا وخرجوا قاصدين وطنهم روما للتفاوض معها تحت تهديد السلاح، وشكلوا بذلك جيشا كاملا لا ينقصه سوى قائد متمرس. فتمترسوا بالجبال القريبة من روما إلى حين جاؤوا بقائد سابق كان متقاعدا، وبالرغم عن أنفه. ثم خرجوا من مخبئهم مهددين وطنهم بأسلحتهم. وما توقفوا إلا حين اقتربوا من روما ورأوا أمامهم جيشها تحت إمرة ديكتاتور عيّنه مجلس الشيوخ ليعترض طريقهم ويكف أيديهم عن الإضرار بوطنهم".

"وما أن تواجه الجمعان حتى طغى حب الوطن على المشاعر وهدأت النفوس. لم يعد يرى كل طرف في الآخر أعداء بل مواطنين وإخوة في النسب وفي السلاح. فلا مجال أبدا لسفك الدماء بين جنود رومان لم يتعوّدوا طيلة كل تاريخهم سوى على قتال الأجانب. لانت حينها القلوب لإيجاد حل سلمي بين الطرفين يُنهي الأزمة كلية بينهما. ولما تقدم الديكتاتور ساد الصمت الجميع من الجانبين تقديرا لمقامه. فبادر بالقول للمتمردين : "معشر الجنود، لما خرجت من المدينة توسلت لآلهة الوطن التي هي آلهتكم وآلهتي. توسلت إليها كي توفّقني في الحصول على مجد جلبكم للصلح والوفاق وليس لهزيمتكم. كان لي وستكون لي فرص كثيرة كي أتميز في الحرب. لكن هنا جئت فقط للحصول على السلم. هذا الأمل يمكنكم من مساعدتي على تحقيقه إن أنتم تذكرتم أنكم لستم في أرض العدو بل إنكم في وطنكم وأن جنودي هم مواطنوكم وأنني قنصلكم الذي سبق لكم أن حاربتم تحت قيادته وانتصرتم معه مرتين على قوم Samnites وانتزعتم منهم معسكراتهم".

"أنا من أحسستم بنُبل منبته عبر حسن معاملته لكم. وما سبق لي أبدا أن أهنتكم. ولن أغيّر الآن سيرتي معكم بصفتي ديكتاتورا. لن أطالب لا بقانون يدينكم ولا بمرسوم قاسي من مجلس الشيوخ ضدكم. لن يكون عطفي عليكم أقل من عطفي على من ترون أمامكم من جنودي وجنود الوطن. لن أسلّ سيفي ضدكم قبل سلّكم أنتم سيوفكم ضدي. إن كنتم تريدون الحرب فأنتم من سيبدأ بصيحة إعلانها. فتجرؤوا إذا على ما لم يسبق أن تجرأ عليه أحد من آبائكم ولا أجدادكم لما اعتصموا مسالمين بالجبل المقدس. تجرؤوا إذا على بدء هذه الحرب القدرة ضد وطنكم ومواطنيكم".

"ثم توجه إلى قائد المتمردين الذي كان يعرف أنهم جاؤوا به بالرغم عنه، وقال : "أما أنت يا كوينكتيوس، فمهما كان حضورك هنا برضاك أوبالرغم عنك، ارجع إلى الصف الأخير لما تندلع المواجهة. سيكون لك حتى مجد وشرف الفرار وتولي الدبر في وجه الجنود من مواطنيك بدلا من القتال ضد الوطن. أما للتفاوض من أجل السلم فيحسن بك ويشرفك أن تبقى في الصف الأول حتى تكون خير وسيط صلح بين الإخوة المتقابلين. ثم اطلبوا واقترحوا أمورا عادلة. وأخيرا فنحن نفضل تحمل شروط مجحفة بدلا من خوض حرب قدرة".

"حينها توجه كوينكتيوس للمتمردين وعيْناه تفيضان بالدمع، وقال : "حتى أنا معشر الجنود، لا يمكنني خدمتكم. أفضّل أن أقودكم للسلم على أن أقودكم للحرب. أنتم لم تسمعوا ما سمعتم من عدو لكم، بل سمعتموه من مواطن رماني مثلكم. وهو قنصلكم وجنرالكم. سبق لكم أن جربتموه في الحرب ضد العدو فلا تجربوه على حسابكم. من أجل حربكم من دون هوادة، كان بوسع مجلس الشيوخ تعيين غيره ديكتاتورا. لكنه فضل عليهم من يعطف على من أصابهم الغرور من جنوده. ها هو القائد القادر على النصر يطالب بالسلم. فماذا بوسعنا أن نفعل سوى التخلي عن مساوئ الغضب والجشع والاستسلام للقيم النبيلة التي تعارفنا عليها من أجلنا ومن أجل مصالحنا".

"صاح حينها جميع المتمردين بالموافقة على ما جاء في خطاب قائدهم كوينكتيوس، الذي تقدم وصرح للديكتاتور أنهم أصبحوا كلهم تحت إمرته. لكنه أوصاه بأخذ قضية هؤلاء المواطنين الأشقياء بيده وبالدفاع عنهم بكل أمانة، كما تعوّد على خدمة الجمهورية بكل أمانة. لم يطلب هو لنفسه من الديكتاتور سوى الاعتراف ببراءته. أما بالنسبة للمتمردين فقد طالبه بالتوسط لهم لدى أعضاء مجلس الشيوخ كي لا يتابعوا منهم أحدا، كما سبق لمن قبلهم أن عفوا على المعتصمين بالجبل المقدس وبالعفوعلى الجنود الذين تمردوا وانسحبوا من المعركة. فشكر الديكتاتور للقائد كوينكتيوس جميل سعيه، وامتطى فرسه ورجع مسرعا لروما، حيث أخذ من مجلس الشيوخ وعدا كي يأخذ من الشعب موافقته على قانون يقضي بعدم متابعة أي من المتمردين وألا يشطب على أي منهم من سجلات الجيش إلا بموافقة منه، وألّا يلومهم أحد من الرومان

[1] وهي السنة 168 من عمر الجمهورية الرومانية

على ما فعلوه لا بالجد ولا بالهزل. هكذا انتهت تلك المأساة بسلام لصالح الشعب الروماني ولجمهوريته". ثم جاءت الأحداث لتؤكد مقام روما كقوة إقليمية محورية بإيطاليا.

دور روما كقوة محورية بإيطاليا

يقول تيت ليف : "كالعادة ومرة أخرى قوم الڤولسك، أعداء روما التقليديون، تحرشوا بحلفائها في موقعين مختلفين. وخرج لهم أحد القنصلين وانتصر عليهم. أما زميله فقد توجه لأراضي Samnites وعاث فيها فسادا. حينها جاءه سفراؤهم يطلبون منه الصلح وإحياء اتفاقية السلام من جديد. فأرسلهم إلى مجلس الشيوخ بروما، حيث تكلموا وقالوا متنازلين عن كبريائهم : "نطلب منكم تجديد معاهدة السلام، لكن مع الإبقاء على حقنا في قتال قوم Sidicins". وعلق تيت ليف على ذلك بقوله : "قد كان شرطا معقولا لأنهم لما التمسوه من الشعب الروماني كانوا في زمن الرخاء، ولم يكونوا في أزمة حرب كما كان حال جيرانهم Campaniens. ثم إن قوم Sidicins الذي يحملون ضده السلاح كانوا دائما عدوهم التقليدي وما كانوا يوما أصدقاء للرومان، وما سبق لهم أن طلبوا صداقة روما وهم في الرخاء كحال قوم Samnites، ولا طلبوا دعمها في الحرب كحال قوم Campaniens سابقا، وما كانوا تحت حمايتها ولا تابعين لها".

"فخرج سفراء قوم Samnites من مقر مجلس الشيوخ، وأخذ المجلس في التداول حول طلبهم. ولما انتهى استقبلهم من جديد، وقام أحد أعضائه وقال لهم : "حاربناكم وهزمناكم. ولم يكن للشعب الروماني حينها ذنب في ألّا تبقى معاهدة السلام بيننا دائمة. وها هو اليوم لا يرفض طلبكم بتجديدها، من بعد ما جربتم الحرب التي تسببتم فيها ثم تعبتم منها. أما بخصوص جيرانكم Sidicins، فالشعب الرماني يترك لكم الحرية في اتخاذ قرار السلم أوالحرب معهم". وتم التوقيع على الاتفاق وعاد السفراء إلى بلادهم[1]. وفي الحال أصدر مجلس الشيوخ أمرا يقضي بخروج الجيش الروماني من أرضيهم وبعودته إلى الوطن".



مواقع مختلف أقاليم الشعوب المعنية

"حوّل وقتها قوم Samnites جيشهم من قتال الرومان وتوجه به لقتال أعدائهم Sidicins على أمل احتلال مدينتهم. فعرض هؤلاء على روما الاستسلام لها لحمايتهم من عدوهم على غرار استسلام Campaniens. لكن مجلس الشيوخ رفض طلبهم المتأخر والذي جاء منهم فقط في وقت الشدة. لدفع عدوان Samnites تحالف حينها Sidicins مع اللاتين الحلفاء التقليديين لروما، ومع وقوم Campaniens الذين تذكّروا ما لاقوه من مهانة من Samnites أكثر من تذكرهم لما لاقوه من حماية روما منهم، فلم يترددوا في تحديها بالمشاركة في تلك الحرب على عدوهم".

"تجمعت الشعوب الثلاثة في جيش ضخم تحت قيادة جنرال من اللاتين وهاجموا حدود أراضي Samnites الذين جددوا فقط منذ مدة قليلة تحالفهم مع روما. لكن بالرغم من تفوقه على العدو تعب جيش اللاتين من تلك الحرب وانسحب من أراضيه. الأمر الذي أعطى الفرصة لقوم Samnites كي يبعثوا بسفرائهم إلى روما يشتكون من نفس المتاعب التي كانت تلحق بهم من قبل تجديد معاهدة السلام معها". قالوا لمجلس الشيوخ بما يليق به من الوقار : "بما أن شعب اللاتين وقوم Campanien هم رعايا روما، فقد أصبح من واجبكم منعهم من الهجوم على أراضينا، إما طائعين لأوامركم أو مكرهين بقوة سلاحكم". لكنهم لم يتلقوا من المجلس سوى رد غامض. كان الرومان يخجلون من الاعتراف بأنهم قد فقدوا السيطرة على حلفائهم من اللاتين، وكانوا خائفين من أن يخسروهم تماما بإغضابهم. لأنه لم يكن في معاهدتهم مع روما ما يمنعهم من رفع السلاح في وجه من يريدون. أما بخصوص Campaniens فقد كان الموقف مختلفا. لأن علاقتهم بروما لم تكن علاقة حلف وتبعية بل كانوا مقيدين بعلاقة خضوع واستسلام لها. فكان من المفروض عليهم وضع السلاح طوعا أوكرها".

"الجواب المتذبذب على طلب Samnites أخاف قوم Campaniens من روما بقدر ما جرّأ عليها اللاتين الذين لم يعودوا يشكّون في أنها قد اضطرت للتخلي كلية على حقها في السيطرة عليهم. هكذا صاروا يتذرعون بالاستعداد لحرب

[1] سنة 341 ق.م. وهي السنة 169 من عمر الجمهورية الرومانية

Samnites من أجل عقد اجتماعات سرية يستعدون فيها بالأحرى لمجابهة روما. وكان قوم Campaniens متواطئين معهم ضد من أنقذهم. لكن بالرغم من ذلك التكتم علم الرومان بنواياهم عبر بعض اللاتين الذين ظلوا يدينون لهم بالولاء والوفاء. وما كان الرومان يخشون على أنفسهم من خيانة اللاتين ومن تآمرهم على روما بقدر ما كانوا خائفين على حلفائهم Samnites. فأرسلوا إليهم عشرة مبعوثين ليطمئنوهم على دعم روما لهم. واستدعى مجلس الشيوخ وُلاته من اللاتين على قومهم ليستفسرهم عن نواياهم. وقبل الذهاب إلى روما جمع الولاة مجلس اللاتين ليسألوهم بماذا سيجيبون عن استفسارات الرومان". هنالك غضب الرومان من سفرائهم وطردهم القنصل لما تجرأوا وطلبوا من مجلس الشيوخ إدماج قومهم في الجمهورية مع اقتسام السلطة مناصفة.

طرد سفراء الحلفاء من اللاتين

يقول تيت ليڤ : "كانت الآراء في مجلس اللاتين مختلفة ومتفرقة. فقام Annius أحد الولاة، وقال : "بالرغم من أنني أنا من طلبت استفساركم عن جوابكم للرومان، فأظن أنه من أخطر مصلحة لنا في هذا الظرف البحث في ماذا يجب أن نفعل بدلا من التفكير في ماذا يجب أن نقول. من بعد اتخاذ موقف حازم سيسهل علينا حينها إيجاد الكلام المتوافق مع ما نكون قد قررنا فعله. إذا كنا سنظل نتحمل نيْر العبودية تحت رحمة التحالف مع روما، فلماذا إذاً لا نخون قوم Sidicins الذين استنجدوا بنا ؟ ولماذا لا نذعن ليس فقط لإرادة الرومان بل حتى لإرادة Samnites ؟ ولماذا لا نستجيب لمجلس الشيوخ متى ما أمرنا بوضع السلاح ؟ أما إذا كانت قلوبنا تتحرق من شدة الأسى على فقداننا للحرية، وإذا كانت كل معاهدة تحالف تعني الندّية في الحقوق بين المتعاقدين، وإذا كان يجري في عروقنا نفس الدم الذي يجري في عروق الرومان، وهو الاعتراف الذي كان عصيبا علينا قديما ويشرفنا اليوم، وإذا كان جيشنا، ، يُضاعف من قوتهم العسكرية لما يستنفروه، وجنرالاتهم لا يستغنون عنه في كل الحروب، فلماذا لا تكون الحقوق فيما بيننا وبينهم متساوية ؟ لماذا لا يكون أحد القنصلين بروما من قومنا نحن اللاتين ؟ أليس من حق من يساهم في حروب الحليف بنصف القوة أن يتقاسم معه الحكم والسلطة مناصفة ؟ ولن يكون ذلك المطلب مجحفا لما نسلم للرومان بأن تكون روما هي عاصمة كل بلاد اللاتين. لكنه سيكون مجحفا في نظرهم فقط لأننا تساهلنا معهم طويلا وتحملنا حيفهم بصبر كبير".

"إذا كنتم، على كل حال، تريدون أن تكونوا شركاء في الحكم وأن تستردوا حريتكم، فها هي الفرصة الذهبية بين أيديكم. لا تفوّتوها واقبضوا عليها بشجاعة وبمعونة الآلهة. لقد جربتم صبر الرومان بامتناعكم عن تزويدهم بالجنود، وتحملوا منكم ذلك التحدي. وهم الذين كانوا يحرموننا من حقنا في حمل السلاح في وجه المعتدين علينا، تحديناهم مرة أخرى وحاربنا أعداءنا من دون أن يتدخلوا فينا. فهل تظنون أنهم سينفجرون اليوم غضبا في وجهكم لما تطالبونهم بفك رقابكم من نيْرهم الذي طال أكثر من مائتي سنة ؟".

"ها هم اليوم قوم Sidicins قد دخلوا تحت حمايتنا، وتخلى قوم Campaniens عن خضوعهم واستسلامهم للرومان ليتحالفوا معنا. خرجوا معنا جميعا للحرب على قوم Samnites حلفاء روما التي تعرف كل ذلك ولم تحرك ساكنا. من أين لها بذلك الاعتدال سوى بفضل يقينها من كبر وعظمة قواتنا ؟ من خلال جواب مجلس الشيوخ على طلب قوم Samnites الذين اشتكوا منا، فأنا على يقين من أن الرومان لمّحوا لحلفائهم في ذلك الجواب بأنهم لم يعد لهم لا نفوذ ولا سلطان علينا. فخذوا منهم فعلا حقكم في الحرية الذي يكفيكم المطالبة به منهم، وقد منحوكم إياه ضمنيا. وإذا ما كان الخوف منهم يمنعكم من الحديث معهم فيه، فأنا لها. نعم، في وجه الشعب الروماني ومجلس الشيوخ وحتى الإله جوبتير المقيم بالكابطول، ألتزم بأن أقول لهم جميعا أننا نطالب روما باقتسام منصبي القنصلية والعضوية في مجلس الشيوخ معهم مناصفة، إن كانوا هم لا يزالون حريصين على صداقتنا وعلى التحالف معنا". وعلق تيت ليڤ على ذلك بقوله : "لم يكتفي الرجل بتقديم اقتراح شجاع لمجلس اللاتين بل التزم بأن يتحمل هو بنفسه ولوحده تبعات تنفيذه".

"فلم يصدر عن الجمع سوى صيحة واحدة بالرضا عن المقترح. وسمح له بقول وفعل كل ما يراه وكل ما يمليه عليه ضميره في صالح قومه اللاتين. ثم وصل المبعوث Annius هو ومن معه من سفراء اللاتين إلى مجلس الشيوخ، الذي استقبلهم بالكابطول ليستفسرهم. فبدأ القنصل بأمرهم بالامتناع عن حمل السلاح ضد قوم Samnites حلفاء روما. حينها انتصب Annius كالمنتصر في الحرب وليس كمجرد مبعوث للدفاع عن حقوق قومه، وقال : "أيها القنصل، ويا معشر الأباء الأجلاء، لقد حان الوقت أخيرا كي تتخلوا عن معاملتكم لنا كعبيد. أنتم ترون اليوم بلادنا بلاد اللاتين قد صارت بفضل الآلهة أقوى من قبل بالسلاح وبالرجال، وترون انتصاراتها على قوم Samnites وتحالفها مع قومَي Sidicins وCampaniens، كما ترون عددا من مستعمراتكم قد تخلت عن الولاء لكم والتحقت بشعب Volsques أعدائكم التقليديين".

"وبما أنكم لن تستطيعوا إقناع أنفسكم بوضع حد لاستبدادكم بنا وبوطننا، وبالرغم من كوننا قادرين على انتزاع استقلالنا عنكم بقوة السلاح، فإننا باسم الدم الذي يجمعنا نقبل باقتراح شروط سلام متساوية بالنسبة لشعبينا، ولا سيما وقد

أنعمت الآلهة عليهما وسوّت بين قوتيهما. فلا بد من تولية قنصل منكم وقنصل منا، وبأن نقتسم العضوية بمجلس الشيوخ مناصفة، وبأن يصبح الشعبان شعبا واحدا بجمهورية واحدة وموحدة، وأن لا تكون لها سوى عاصمة واحدة واسم واحد. وبما أنه لا بد في مثل هذه الحال من أن يتنازل أحد الطرفين للآخر من أجل المصلحة المشتركة، فإننا نقبل بأن تكون مدينة روما هي عاصمة الوطن المشترك ونتسمى كلنا بالرومان".

ونذكرك بأن قوم اللاتين كانوا في وضعية رعايا روما، مثل ما صار كذلك مؤخرا أهالي Campaniens. فجاء سفراؤهم هنا يطالبون بأن يصيروا مواطنين رومان كما حصل ذلك من قبلُ مع قوم الصابيين في عهد الملك روميلوس، ومع شعب آلبا لما غدر حاكمها بالرومان في الحرب، فدمروا مدينتهم وضموا شعبها إليهم كمواطنين. لكن لا نجد فيما تقدم من أخبار كيف فقد اللاتين السيادة على أرضهم وصاروا من رعايا روما.

ثم يقول تيت ليف : "وشاء القدر أن تجد روما في قنصلها آنذاك خصما لسفير اللاتين Annius، لا يقل عنه حماسا وعنادا وغطرسة. لم يتمالك نفسه وفجر غضبه وصرخ يقول : "إن أنتم أيها الآباء الأجلاء أصابكم الجنون وقبلتم بقوانين هذا الأجنبي، فسأخرج ثم أعود مسلحا بسيفي وسأقتل بيدي كل لاتيني وجدته هنا بالمجلس أمامي". ثم توجه لتمثال الإله جوبيتير وقال : "اسمع يا جوبتير هذا الحديث الآثم. اسمع أنت أيها المستقيم العادل. يريدون تنصيب قناصلة من الأجانب، وتعيين أجانب أعضاء بمجلس الشيوخ. وتجرأوا ولم يستحيوا فتفوهوا بتلك الوقاحات هنا بمعبدك. لو قبل مجلس الشيوخ منهم بتلك المطالب لوجدت نفسك هنا أسيرا مقهورا". ثم عاد ليصرخ في وجه مبعوثي اللاتين وقال لهم : "أهذه هي معاهدة الملك طالوس مع آبائكم ؟ هل نسيتم هزائمكم وفضائلنا عليكم ؟ هل نسيتم كل شيء ؟"

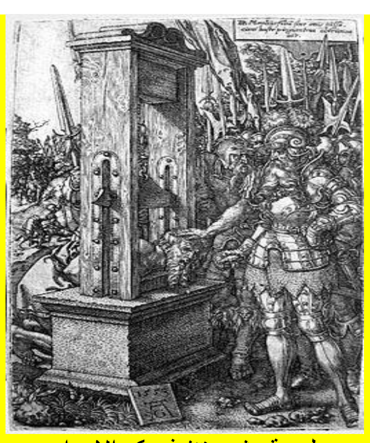
"من بعد ذلك الخطاب الناري تعالت أصوات أعضاء مجلس الشيوخ منددة بوقاحة مطالب Annius سفير اللاتين. إلا أنه سُمع وهو يستخف بهم ويستهزئ حتى بإلههم جوبتير. وتحت وطأة الغضب خرج مسرعا من دهليز المعبد لكنه عثر وسقط يتدحرج من أعلى الدرج إلى أسفله واصطدم رأسه بحجرة فأغمي عليه. قيل أنه مات من ذلك. وبما أن هذا الأمر لم يُجمع عليه كل المؤلفين أتركه للشك هو وسماع دوي الرعد المتبوع بعاصفة، والذي قيل أنه كان إشارة غضب من الآلهة ضد مطلب اللاتين. قد يكون ذلك حقيقة كما قد يكون مجرد خرافات من نسيج الخيال للتعبير به عن غضب السماء".

"وأرسل مجلس الشيوخ القنصل ليطرد الوفد اللاتيني. لما خرج ورأى رئيس الوفد Annius مُلقى على الأرض، صاح بصوت عالي، كي يسمعه الشعب والمجلس، وقال : "حسنا، ها هي الآلهة تريد الحرب. فأنت موجود بعنايتك الإلهية يا جوبتير العظيم. لم نؤمن بك أبا للآلهة وللبشر عبثا، ولم نخصص لك هذا المعبد اعتباطا. ماذا تنتظرون معشر الرومان ومعشر الآباء الأجلاء كي تحملوا السلاح ؟ الآلهة تسير معنا. وسألقي بجحافلكم أرضا أيها اللاتين مثل مبعوثكم هذا الذي ترونه ملقى هنا عند أقدامنا". فلقي خطاب القنصل رضا كل الشعب الروماني. وألهم العقول حماسة كانت ستخرق الأعراف التي تحمي السفراء، وتجعلهم فريسة لغضب الجموع، لولا حضور الحرس الذي أمره القنصل بمرافقتهم وحمايتهم في طريقهم لبلدهم".

"وافق مجلس الشيوخ بدوره على الحرب. وجهز القنصلان جيشين وخرجا بهما ليلتحقا بجيش حليفهما Samnites. ثم سار الجميع ليقيموا معكسراتهم أمام مدينة Capoue حيث اجتمعت جيوش العدو اللاتيني وحلفائه. وقيل أن هنالك رأى كل من القنصلين نفس الرؤيا في منامهما. رأيا رجلا يقول لهما أن النصر من الآلهة رهين بتضحية أحدهما بنفسه فدية للشعب الروماني وتكفيرا عن ذنوبه. فصدّقا ما رأياه من بعد ما تأكد لهم صدقها بذبح الكهنة للأضاحي ونظرهم في سقْطها. وبما أن الأمر يتعلق بحرب اللاتين فقد كانت هواجسهما الدينية أكبر. لذا شددا على الالتزام بالانضباط في الجيش وأصدرا قرارا يحرّم تحريما قاطعا أية معركة مع العدو من خارج المعركة الرئيسية تحت قيادتهما". لكن ابن أحد القنصلين خالف أوامر أبيه فأعدمه.

يقول تيت ليف : "بعيدا عن المعسكر حصل أن لقي بالصدفة ابن أحد القنصلين كتيبة من جيش اللاتين. وصار بينه وبين قائدها حوار كان فيه استفزاز لابن القنصل بالضبط، لما قال له ذلك القائد اللاتيني : "هل تريد مبارزتي قبل يوم المعركة الحاسمة، حتى يتبين لكم كم هو الفارس اللاتيني أقوى من الفارس الروماني ؟". حينها وتحت وطأة الغضب نسي ابن القنصل أمر أبيه بالامتناع عن خوض أي قتال قبل اليوم الموعود، فتقدم للمبارزة، وقتل خصمه وأخذ سلبه وجاء به لوالده يفتخر به. لكن القنصل الأب بالرغم من قسوة القرار على قلبه، قضى بإعدام ابنه، ونفذ الحرس القرار تحت نظر القنصل، وكل الجيش يعتصر ألما من حوله. حينها كان فزع الجنود من قسوة قائدهم أكبر من أساهم وتأسفهم على إعدامه لإبنه. فصار انضباطهم من شدة الخوف مثاليا.


لوحة مشهد القنصل يحكم فيه على ابنه بالإعدام


لوحة مشهد تنفيذ حكم الإعدام

"فمما زاد في انضباط الجنود وفي عزمهم على انتزاع النصر هو تضحية القنصل الآخر بنفسه الذي افتدى الشعب الروماني بروحه تنفيذا للرؤيا التي رآها هو وزميله كل منهما في منامه. حصل ذلك لما ارتمى لوحده يوم المعركة في صفوف العدو ليقتل كل من اعترض طريقه، إلى أن سقط قتيلا مثخنا بالجراح. الأمر الذي زرع المزيد من الحماس في جنود الجيش الروماني بقدر ما زاد من الرعب في جيش اللاتين وحلفائهم. فانقضّ عليهم الرومان بقوة مفزعة اقتداء بقائدهم الذي فداهم بروحه. وما كادت المعركة تحتدم بين الطرفين حتى فر العدو في كل اتجاه وطاردهم الرومان يفتكون بكل من طالته سيوفهم. وتجمع ما تبقى من جيش اللاتين وحلفائهم مرة أخرى، علاوة على الشباب الذين لم يشاركوا في الحرب الأخيرة، وهموا بمعاودة القتال. لكن ما أن هموا بالاستعداد للحرب بقيادة أحدهم حتى هجم عليهم القنصل بقواته وفتت صفوفهم، وتم بذلك الانتصار عليهم نهائيا في المعركة". من بعدها تجددت الصراعات السياسية بداخل روما وتسبب في مساهمة قنصل بطريقي في تمرير قوانين كبرى لصالح العوام.

الشعب يصوت على قوانين كبرى لصالحه

يقول تيت ليڤ : "تُوِّجت هذه السنة (340 ق.م.)[1] بالانتصار على العديد من الشعوب القوية وعرفت في حربها الأخيرة تضحية أحد القنصلين بنفسه والقرار القاسي من زميله القاضي بإعدام إبنه. وفي متمّمها انتُخب قنصلان جديدان، كان أحدهما بطريقيا والآخر من العوام. إلا أنهما اهتما بمصالحهما الخاصة على حساب مصالح الجمهورية. لكن اللاتين، من شدة الحسرة على فقدانهم لأراضيهم، عادوا لحمل السلاح في موقعين. فخرج القنصلان في جيشين لحربهم من جديد. وهزمهم جيش القنصل من العوام في الموقع الأول واستولى على معسكرهم ونهبه. ولما رأى اللاتين أن جل شبابهم قد أبيدوا استسلموا للقنصل من المنتصر عليهم. حينها كان زميله البطريقي لا يزال في طريقه إلى الموقع الثاني بمدينة Pédum. ولما وصلها خاض الحرب على العدو وعلى حلفائه وانتصر عليهم، لكن من دون إسقاط المدينة. وما أن سمع بالاحتفال بنصر زميله من العوام بروما حتى تخلى عن إتمام مهمته وعاد مسرعا مطالبا بنفس التكريم. فاستاء مجلس الشيوخ من استعجاله الاحتفال بنصر لم يحققه بعد. ورفض تلبية طلبه إلى حين أن يحصل على استسلام مدينة Pédum. إلا أنه تمرد على المجلس، ومن دون اعتراض من زميله لكونه من العوام. فظل يتزعم طيلة المدة المتبقية من ولايته حركة احتجاج العوام ضد البطرقيين متهما إياهم بالإجحاف في توزيع الأراضي المحتلة ببلاد اللاتين على المواطنين".

"لذا كان مجلس الشيوخ متلهّفا على إنهاء ولاية هذين القنصلين، فأمرهما بتعيين ديكتاتور للقضاء على ما تبقى من تمرد ببلاد اللاتين. ونكاية في المجلس عين القنصل البطرقي زميله من العوام ديكتاتورا. فانتهز هذا الأخير ما يخوله له القانون من سلطات استثنائية لتمرير قوانين تكاد تسوي تماما في الحقوق السياسية بين الفئتين. أولها قانون يجعل من نتيجة استفتاء العوام plebiscite استفتاء ملزما لكل الرومان. ثانيها قانون يقيّد تصويت الهيئات الميئية على القوانين بالموافقة القبلية عليها من طرف مجلس الشيوخ. وثالثها قانون يمنح الشعب حق انتخاب أحد الناظرين من العوام من بعد ما سبق له أن حصل على الحق في انتخاب كلا القنصلين من العوام. هكذا كانت هذه السنة (339 ق.م.)[2] في نظر مجلس الشيوخ والبطرقيين هي الأكثر كارثية سياسيا بروما".

وكلمة plébiscite لا تزال حتى يومنا هذا تُستعمل في اللغة الفرنسية بمعنى نتيجة التصويت الهائلة في الاستفتاء الشعبي. وأصلها كما ترى من كلمة plèbe التي تعني فئة العوام في تاريخ الرومان.

[1] وهي السنة 170 من عمر الجمهورية الرومانية
[2] وهي السنة 171 من عمر الجمهورية الرومانية

والجديد بحسب هذا القانون أن نتيجة تصويت هيئات العوام الترابية صارت ملزمة للبطريقيين كذلك. وينبغي التفريق هنا بين الهيئات الترابية المختلطة التي كانت نتيجة تصويتها ملزمة للجميع، وبين هيئات العوام الترابية التي صارت نتيجة تصويتها بموجب هذا القانون ملزمة للجميع، من بعدما كانت ملزمة للعوام فقط. والذي لا نفهم مصلحة العوام فيه هو تقييد نتيجة تصويت الهيئات الميئية على القوانين بالموافقة القبلية عليها من طرف مجلس الشيوخ. أما بفضل القانون الثالث فما بقي للعوام من حقوق للتساوي مع البطريقيين سوى الحق في ولوج منصب القضاء préteur والعضوية في مجلس الشيوخ.

شعب روما يضم إليه شعوب بلاد اللاتين

يقول تيت ليڤ : "انتخب قنصلان جديدان (سنة 338 ق.م.)[1]. ونكاية في القنصل البطريقي السابق، ومن أجل إهانته، قرر مجلس الشيوخ استكمال الحرب التي كان قد بدأها هو السنة الفارطة ثم عاد إلى روما مستعجلا الاحتفال بالنصر من قبل إنهائها. فأمر المجلس القنصلين الجديدين بإعداد كل ما يلزم من الرجال والسلاح لاحتلال وتخريب مدينة Pédum اللاتينية. وكانت شعوب اللاتين في وضع لا تستطيع معه تحمل لا أعباء الحرب ولا تضحيات السلم. لم يكن لها ما يكفي من القوات لخوض الحرب. أما السلم فكان سيكلفها فقدان جزء كبير من أراضيها، فكانت ترفضه بذلك الثمن. لذا اتخذت موقفا وسطا يقضي بالاحتماء بجدران مدنها. ظنت بذلك أن الرومان لن يكون لهم مبرر لمهاجمتها. ثم إن حاصروا أية مدينة من مدنها ستهبّ باقي المدن اللاتينية من كل جهة لمساعدتها وفكه عليها".

"إلا أنهم بحصار الرومان لمدينة Pédum لم يحصلوا سوى على مساعدة القليل من باقي شعوب اللاتين. قاتلهم القنصلان جميعا وانتصرا عليهم واحتلا المدينة. لكنهما تطلعا للرفع من أطماعهما فوسعا من أهدافهما بانتقالهما من مجرد احتلال Pédum إلى احتلال كل بلاد اللاتين. وانتهيا فعلا بإخضاع كل مدنها. ثم عادا إلى روما من بعد ما تركا في كل من تلك المدن حامية لحراستها. ونالا شرف الاحتفال بنصرهما بموافقة الجميع. بل حظيا بتشريف استثنائي وغير مسبوق يخلد نصرهما، والذي تجسد في تشييد تمثال فارس لكل منهما بالساحة العامة".

"وقبل انتخاب القنصلين الجديدين قام Camillus، أحد القنصلين المنتهية ولايتهما، وخاطب مجلس الشيوخ بخصوص شعوب بلاد اللاتين، فقال : "معشر الآباء الأجلاء، لقد تم ببلاد اللاتين كل ما يمكن للحرب والقوة العسكرية تحقيقه بفضل عناية الآلهة وشجاعة الجنود. لقد تم انتزاع كل المدن اللاتينية. وتوجد كل منها اليوم تحت سلطة حامية من حامياتكم. بقي علينا فقط العمل على الوقاية من تمرد شعوبها الذي قد يتفجر في كل لحظة ويقلقنا على الدوام. فلا بد من إيجاد الوسائل التي تبقيها في حالة سلم صلب ودائم. عناية الآلهة الخالدة وضعت بين أيديكم السلطة عليها. وبذلك جعلت منكم السادة الذين يقررون ما إن بلاد اللاتين ستكون أو لن تكون أبدا. أنتم في خيار بين ضمان سلم شعوب اللاتين إما كرها بالقوة والقهر أوطوعا بالرفق واللين. هل تريدون التعامل بقسوة مع هذه الشعوب الخاضعة والمنهزمة ؟ فأنتم أحرار في تخريب كل بلادها وفي جعل أرضيها قاعا صفصفا وهي التي أعطتكم من أبنائها جيوشا رائعة في حروب عظيمة وعديدة. أم تريدون، على غرار أسلافكم، الزيادة في قوة روما بمنح تلك الشعوب المنهزمة حق المواطنة ؟ الفرصة اليوم سانحة كي تزيدوا من عظمتكم وتمنحوا لأنفسكم المجد. فنظام الحكم الأكثر صلابة يوجد يقينا حيث تسود المجتمع الطاعة عن طيب خاطر".

"أيد كبار مجلس الشيوخ مجمل ما اقترحه عليهم القنصل بخصوص منح حق المواطنة لشعوب اللاتين. لكنهم رأوا تعميم ذلك الحق لا يليق بكل شعوب اللاتين المختلفة في ولائها لروما. فقرروا التعامل مع كل شعب بمقدار استحقاقه من بعد إنجاز تقرير في حقه وخاص به. فحصلت جل شعوب اللاتين على حق المواطنة الكاملة علاوة على من ورائهم من قوم Campaniens الذين رفض خيالتهم مشاركة اللاتين في التمرد على روما. أما شعب Antium فقد حصل على حق المواطنة لكن من بعد مصادرة أسطوله البحري وحرمانه من خوض البحر".



مدن بلاد اللاتين

"وحصل شعبان آخران على حق المواطنة لكن من دون الحق في الانتخاب. حصل ذلك فقط بفضل ما سبق منهما من تيسير مرور الجيش الروماني عبر أراضيهما. بينما عوقب شعب Véliterae على خياناته بترحيله إلى ما وراء نهر

[1] وهي السنة 172 من عمر الجمهورية الرومانية

التبير. وكل من وُجد منهم دونه يؤسر ويصبح عبدا. ووُزعت أراضيهم على المستعمرين الرومان. وعوقبت شعوب صغيرة أخرى على سابق تحالفها مع الأعداء بمنعها من التجارة والمصاهرة مع باقي الشعوب اللاتينية ومنع حتى الاتصال فيما بينها. ولما حصلت تلك الشعوب اللاتينية وغيرها على حق المواطنة كان الإحصاء الدوري على رأس كل خمس سنوات قد تم وانتهى فلم تُحصى. فظلت تنتظر موعد الإحصاء التالي سنة 333 ق.م، كي تُحصى أخيرا في سجلات الضرائب وكي تقسّم أراضيها إلى مقاطعتين انتخابيتين تضاف للخمس وعشرين مقاطعة بروما وأريافها، وكي تتمتع أخيرا بحقوقها السياسية من مشاركة في التصويت على القوانين وفي الانتخابات وفي الترشح للمناصب بمختلف مؤسسات الدولة. وفي تلك الفترة حصل أن انتُخب بمؤسسة القضاء قاضي من بين العوام. ولم يعترض مجلس الشيوخ عليه لما رأى أن كل المناصب الرفيعة من قنصلية وديكتاتورية ونظارة قد ولجها رجال من العوام".

مرة أخرى لا ندري ما إذا توزعت شعوب اللاتين بين البطريقيين والعوام من الرومان. وما إذا ازداد عدد أعضاء مجلس الشيوخ بضمها لروما. سوى أن كل الممارسات السياسية من انتخابات وتصويت على القوانين ومحاكمات قضايا أمن الدولة فقد ظلت حبيسة أسوار روما العتيقة. وكل ما ذُكر في الفقرة الأخيرة من الامتيازات السياسية التي حصلت عليها تلك الشعوب اللاتينية هي نفس الامتيازات والحقوق التي كانت للبطريقيين ثم صارت للعوام. وتدل في مجملها على معنى المواطن le citoyen في مقابل الرعية le sujet. المواطن سيّد في بلده، لا يُحكم فيه إلا بتفويض منه ووفق تشريع شارك في صنعه مباشرة أو عبر ممثليه. أما الرعية فمَسودة في بلدها، وبذلك تقع تحت حكم سيدها بالرغم عن أنفها، ووفق تشريع من صنعه.

وانتخب هذه السنة أحد العوام لشغل منصب القضاء ولم يعترض عليه مجلس الشيوخ لما رأى أن كل المناصب الرفيعة من قنصلية وديكتاتورية ونظارة قد ولجها رجال من العوام. لكن كيف ترشح لذلك المنصب من دون قانون يسمح بذلك، ولا سيما أنه سيفصل في القضايا التي سيكون من بين أطرافها بطريقيون ؟ لا ندري. على كل حال لم يعد هناك من عائق يحول دون المساواة الكلية بين الفئتين لما يصير من حق العوام ولوج مجلس الشيوخ. ولا سيما أن الحق في تلك العضوية كان يتطلب من المرشح أن يكون قد انتخب لممارسة مهام باقي المؤسسات الدستورية تصاعديا من محافظ للمدينة ثم أمين مال الدولة ثم قاضي ثم قنصل وأخيرا ناظر.

وقد تستغرب من قبول مجلس الشيوخ بضم شعوب اللاتين لروما بمحض إرادته من بعد ما رفضه منذ مدة قليلة بطلب من ولاتهم. لكن ما أن تعرف السبب حتى يطير العجب. رفضه لما طُلب منه من طرف رعاياه اللاتين وقد جاؤوه معتزين بقوتهم ومتعالين عليه وعلى كل الرومان. جاؤوه يطالبون اقتسام السلطة والعضوية في مجلس الشيوخ مناصفة. لو قبله منهم لصار لهم حزب سياسي مسلح ومستقوي بمُدنه الغنية خارج أسوار روما، ولصاروا يساومونه به على ما يحلو لهم من امتيازات ومكاسب قد تُفقد الرومان حريتهم فيصيروا رعايا اللاتين من بعد ما كانوا هم السادة واللاتين هم الرعايا. أما هذه المرة فقد ضموهم بمحض إرادتهم وهم منتصرون في حرب عليهم، ومن باب العطف عليهم الذي تقاطع مع مصالح روما الاستراتيجية في بيئة عدوانية. فبالكاد سيطالب اللاتين المساواة مع الرومان في الحقوق. من بعدها عرفت روما قضية ربات البيوت المُسمّمات لكبار رجال الدولة الرومان.

علق تيت ليف على ظروف الحدث بقوله : "عُرفت واشتهرت هذه السنة (331 ق.م.)[1] في روما بالربط بين تعفن الجو وفساد الأخلاق. ووددت لو أن المؤلفين قد أخطأوا، لأن الشهادات غير مجمعة على ذلك الربط. لكن ليس بوسعي تكذيب أية شهادة. وسأعرض عليكم الحدث كما وصلنا". فقال : "لما كان كبار المواطنين الرومان يهلكون كلهم تقريبا بسبب أمراض متشابهة وبنفس الطريقة، تقدمت أمَة لمحافظ المدينة ووعدته بكشف سبب تلك الوفيات إن هو ضمن لها الأمن على نفسها. فبلّغ المحافظ الخبر للقنصلين اللذين بلغاه بدورهما لمجلس الشيوخ. فوافق المجلس بالإجماع على منح تلك الأمَة الأمان التام على نفسها. حينها صرحت أن السبب في مآسي المدينة هو فساد نسائها. قالت أن بعض ربات البيوت كن يحضّرن سموما، وإن أرادوا التأكد من قولها فما عليهم سوى اتباعها على الفور للوقوف على الدليل. فتبعوها وفاجأوا فعلا بعض ربات البيوت وهن منهمكات في طهي نباتات مخدرة، كما وجدوا بجانبهن سموما مخبأة. جيء بكل ذلك للساحة العامة مع عشرين ربة بيت تقريبا متهمات بتحضير تلك السموم. إثنان من بينهن، وكانتا بطريقيتين، زعمتا أن تلك التحضيرات ما هي سوى مشروبات صحية. فعارضت الأمة قولهما بالنفي، وأمرتهما بالشراب منها إن كان قولهما

[1] وهي السنة 184 من عمر الجمهورية الرومانية

صحيحا. فطلبتا مهلة للتشاور. وسمحت الجموع لهن بذلك. فتشاورن بينهن وقبلن برفع التحدي. شربت كل من السيدتين من الشراب الصحي المزعوم وهلكتا على الفور بفعل سمهن".

"فقبض حينها على كل الأخريات، اللائي كشفن بدورهن عن باقي ربات البيوت المتواطئات معهن في الجريمة. وكان عددهن مائة سبعين امرأة مدانة بتسميم كبار رجال المدينة. ولم يسبق أن حوكم أحد بروما قبل ذلك اليوم بجريمة التسميم. تشاءم الرومان بذلك الحدث واعتبروه من فعل عقول ضالة بدلا من فعل إجرامي. وعلى عادتهم الوثنية عيّنوا ديكتاتورا فقط ليغرس مسمارا في الأرض دفعا للشر وتكفيرا عن خطايا المدينة، ثم استقال فور غرسه للمسمار".

وهذه القضية يلفها كثير من الغموض. ليس فيها ذكر لسبب جريمة التسميم، وهو الأمر المهم. فقيل أنه من فعل عقول ضالة بدلا من فعل إجرامي. وليس فيها ذكر لنوع العقوبة التي طالت المتهامات. لكن الأهم من كل ذلك والذي جعلنا لا نقفز على ترجمة ذلك الخبر هو الدقة في التأريخ عند المؤرخ تيت ليڤ. فهو كذلك عنده شك في صحة الخبر. فيقول أنه ليس بوسعه تكذيبه، ولكنه يورده كما وصله. بمعنى أنه لا يكذبه ولا يصدقه أيضا. وهذا ما يفرق بين الإخباري والمؤرخ. الإخباري، كحاطب ليل، يورد كل ما مر من تحت يده من أخبار ولا يعلق عليها. أما المؤرخ فيدقق في المصادر ويقارن بينها. ولما يخامره شك في صحة الخبر إما يتركه أويورده مع التعليق عليه. أما القصاص فهو الذي يتعمد الزيادة والنقصان في الأخبار، وحتى اختلاقها اختلاقا وينمّقها كي تروق للسامعين. لكن قصص القصاصين لا تخلو كذلك من فائدة، بالنظر لما فيها من تأريخ لأذواق وقيم المجتمع الذي يستمتع بسماعها. ثم حصل أن مجون مرابي عجّل بالتصويت على قانون منع استرقاق المدينين المفلسين.

الشعب يمنع استرقاق المدينين المفلسين

علق تيت ليڤ على ذلك بقوله : "دخل العوام بروما هذه السنة (326 ق.م.)[1] في عهد جديد من الحرية. ألغيّ فيها قانون استرقاق المدينين المفلسين. حصل ذلك بسبب اجتماع مثلبة حب المتعة مع رذيلة القسوة، في شخص المُرابي المسمى Papirius" ثم روى القصة قائلا : "شاء القدر أن استرقّ هذا المرابي الشابَّ Publilius الذي ضحى بحريته من أجل إنقاذ أبيه المفلس من العبودية. لكن صغر عُمره الذي كان من شأنه جلب عطف ورحمة سيده Papirius أشعل بدلا من ذلك نار شهوته الجنسية. فاعتبر زهرة شباب الولد وجماله فائدة إضافية في ذمة أبيه المُفلس. وصار يتحرش به بكلام فاحش. لكن الشاب Publilius ظل يتجاهله ويصم آذانه عن تحرشه به. فصار Papirius يخاطبه بلغة التهديد. ولما تبين له أن عبده الشاب لا يزال متشبثا بشرف منبته ومستعليا عن سوء حاله الجديد، أمر بتعريّته وبجلد ظهره بالسياط."

"وتحت وطأة الإهانة التي طالته هرب الشاب وتسلل إلى شوارع المدينة ليطوف فيها وهو يشتكي من قسوة وفحش سيّده. فتبعته الجموع متأثرة لحاله ومشفقة على صغر سنه وغاضبة من إهانة كرامته وشرفه. وخاف المواطنون على أنفسهم وعلى أبنائهم من التعرض لنفس المصير. فانطلقوا من الساحة العامة، حيث كانوا متجمعين، إلى مقر مجلس الشيوخ. ووجدوا القنصلين قد استدعيا أعضاءه لتدارس ذلك الأمر الطارئ. فكانت الجموع تعترض طريقهم وهي تعرض عليهم قصة الشاب العفيف وحال ظهره الممزق بجلد السياط".

"فتسبب يومها عنف وفحش رجل واحد في تحطيم واحدة من أقوى العادات التي كانت محل تقديس عام. وذلك لما أمر مجلس الشيوخ القنصلان باقتراح قانون على تصويت الشعب يقضي بتحريم وتجريم استرقاق أي مواطن وتكبيله في الحديد، وبتحديد العقوبة المستحقة على كل مخالف، وبجعل ممتلكات المدينين فقط ضامنة لديْن الدائنين، وليس أبدا حريتهم، وبتحرير كل من استرق سابقا بسبب الإفلاس. وتم تصويت الشعب الروماني على القانون المحرّم للاسترقاق بسبب الإفلاس، والمحرر لكل مواطن استرق من قبلُ لنفس السبب". ثم حصل أن تشفع الشعب عند جنرال لأحد ضباطه الذي أخل في غيابه بالانضباط العسكري في ساحة القتال واستحق عقوبة الإعدام.

الشعب يتشفع في ضابط استحق عقوبة الإعدام

[1] وهي السنة 179 من عمر الجمهورية الرومانية

يقول تيت ليف : "عُين هذه السنة (325 ق.م.)[1] ديكتاتور لخوض الحرب الثانية على شعب Samnites. ولما وصل الجيش أمام بلاد العدو أخبر ضابط الاستقسام بالطيور الجنرال بأن الفأل يُنذر بخسران الحرب، وعليه العودة لروما كي يأخذ من جديد وعدا بعناية الآلهة من كهنة المعبد. إلا أن ذلك الطالع لم يكن سيئا بالنسبة للحرب التي انتصر فيها الجيش، بل كان نذير شؤم بالنسبة للعلاقة بين الديكتاتور وقائد خيالته. لما عاد الجنرال لروما من أجل تجديد طلب عناية الآلهة ترك الجيش تحت قيادة نائبه الشاب فابيوس وأمره بالحفاظ على موقعه وعدم خوض أية معركة مع العدو في غيابه".

"من بعد ذهاب الديكتاتور جاءت عيون قائد الخيالة فابيوس لتخبره بأن العدو في غفلة من الأمر، وكأنه لا علم له بوجود ولا جندي روماني واحد على أرضه. ثم إما من فرط العزة بنفسه قد استنكف ذلك الضابط من تواجد كل السلطة بيد الديكتاتور أو بسبب حب استغلال الفرصة لنيل نصر سهل ومؤكد، أعدّ الجيش للهجوم، وسار به للقاء العدو. وحصل النصر الباهر بحيث لو تواجد الديكتاتور على رأس الجيش ما كان أفضل قيادة من نائبه ولا كان النصر أكمل. ومن المؤلفين من يروي أن فابيوس خاض معركتين مع العدو وانتصر عليه مرتين. والمؤكد أنه جمع كل أسلاب جيش العدو وأحرقها. ومن المؤلفين من يقول أن ذلك بسبب نذر للآلهة شرطه على نفسه قبل خوض الحرب. وقال آخرون أنه فعل ذلك نكاية في الديكتاتور حتى لا يعود بتلك الأسلاب لروما وينسب النصر لنفسه".

"وبعث فابيوس بخبر النصر إلى مجلس الشيوخ وليس لقائده الديكتاتور، حتى لا يُشركه فيه. بالتأكيد أن ذلك الخبر أثار غضب وسخط الديكتاتور بقدر ما سُرّ به كل الشعب الروماني. أمر الديكتاتور Papirius برفع جلسة المجلس وخرج منه للتو وهو يردد في كل مكان "إن ظل استخفاف قائد الخيالة بسلطات المؤسسات من دون عقاب فإن ذاك النصر ما تحقق ضد العدو، بل سيدمر هيبة مؤسسة الديكتاتور وسينسف واجب الانضباط العسكري". وسار مسرعا إلى المعسكر، لكن من دون أن يكون أسرع من خبر قدومه. سبقه إلى المعسكر من يخبر الجيش بغضبه وبتهديداته، وقد كان لا يكف عن ذكر قصة القنصل Manlius الذي أعدم إبنه بسبب نفس جريمة عصيان أوامر الأب القائد".

"جمع حينها قائد الخيالة فابيوس الجيش الذي حقق به النصر على العدو، والتمس منه الحماية من تهديدات وشطط الديكتاتور. وكان يقول : " الديكتاتور منزعج من شجاعتي ومن سعادتي، وقد أعْمته الغيرة من تحقيقنا لنصر يخدم شرف الجمهورية في غيابه. ولو استطاع تغيير الأمور لجعل الانتصار من نصيب العدو. ترونه يتحدث عن الاستخفاف بسلطته وكأن سبب منعنا من القتال في غيابه كان شيئا آخر غير خوفه من تحقيق هذا النصر الذي يغيظه الآن. بدافع الغيرة والحسد كان يريد كبث شجاعة غيره. كان بوده، لو استطاع، نزع أسلحة جنوده المتعطشين للمجد، حتى لا يقاتلوا من دونه. حتى الآن الذي لا يزال يُسخطه ويغيظه هو أن الجنود لم يعدموا لا أسلحة ولا سواعد تحت قيادتي. أراد أن أكون مجرد أحد أعوانه وليس نائبا عنه وقائد خيالته"".

""وها هو يهددني بالعقاب لأنني قدّمت للجمهورية خدمة لم يستطع هو تقديم أفضل منها. ماذا كان سيفعل بي لو انهزمت أمام العدو ؟ وبما أنه ساخط عليّ فهو ساخط على الجميع ؟ لو استطاع، لاقتصّ منكم أيضا. وبما أنه عاجز عن ذلك فها هو يصب جام غضبه عليّ لوحدي. الغيْرة، كلهيب النار، تبدأ بلفح ما هو أعلى من قبل أن تحرق كل الباقي بالأسفل. لذا فهو يهاجم الآن الرأس وقائد ذلك الإنجاز. ولو استطاع القضاء على الرجل ومجده معا، لاستأسد وطغى، وفعل كما يفعل المنتصر بالأسير. حينها كل ما يستطيع فعله بقائد الخيالة سيفعله بباقي الجنود. هكذا بمساندتكم لقضيتي أنتم تخدمون حريتكم جميعا. إذا ما رأى الديكتاتور أن الجيش كله كان راضيا بالسير للقتال، ولا يزال متحمسا للدفاع عن انتصاره، وأن نجاتهم مرتبطة بنجاة قائدهم، فإنه سيأخذ بعين الاعتبار عزمكم وحزمكم، وسيميل لمشاعر أكثر رقة وليونة، فأنجو وتنجون"".

"فتعالت أصوات جموع الجنود تشجعه وتعده بألا تمتد إليه يد أحد لتؤديه ما دامت الجحافل الرومانية متواجدة هناك. من بعدها بقليل وصل الديكتاتور للمعسكر، وأمر للتو المنادي بتجميع الجيش. فساد الصمت ونودي على فابيوس قائد الخيالة، الذي تنحى عن المنصة التي كان يعتليها ثم مَثُل أمام الديكتاتور الذي قال له : "أنت تعرف أن الديكتاتورية هي أسمى وأرفع مؤسسات الدولة. وتعرف أن باقي المؤسسات من قنصلية وقضاء ملزَمة بطاعتها. فأريد أن أعرف منك، هل من واجب قائد الخيالة السماع لأوامر الديكتاتور والالتزام بها أم لا ؟ أنت تعرف أنني، وقت خروجي للحرب، لم أكن مقتنعا بنذر الكهنة المتذبذبة. فأخْبِرْني، ألم يكن من واجبي العودة لروما من أجل تجديد النذر حتى لا أغامر بمصير الجمهورية من دون الحصول يقينا على عناية الآلهة ؟ وأخيرا كيف يمكن للورع أن يوقف الديكتاتور عن القيام بأي عمل من دون عناية الآلهة إذا كان يحق لقائد خيالته أن يكون مستخفا بها ومتحررا منها ومستغنيا عنها ؟"".

---

[1] وهي السنة 185 من عمر الجمهورية الرومانية

""لكن، لماذا كل هذه الأسئلة ؟ هب أني انصرفت من دون أن أنطق بكلمة واحدة. فقد كان عليك أن تخمن ما كنت أنوي فعله وتجعل واجباتك وتصرفاتك موافقة له. أجبْني، ألم أعهد إليك بالإمساك عن محاولة فعل أي شيء في غيابي، وبالأخص الامتناع عن القيام بأي هجوم ضد العدو؟ لكنك عصيت أوامري. وبالرغم من الشك في توفر عناية الآلهة، وفي تحدي سافر لكل القوانين العسكرية وللانضباط الذي سنه الأسلاف، تجرأت وأخذت المعركة ضد العدو. أجب على أسئلتي من دون غيرها. وأحذرك من أن تقول ولو كلمة واحدة خارجة عن الموضوع. اقترب منه أيها الحارس"".

"الجواب على كل سؤال من أسئلة الديكتاتور لم يكن بالأمر الهين. قام فابيوس قائد الخيالة يشتكي مرة من كون الجنرال خصما وحكما في آن واحد، وكان في أخرى يقول بأنه يفضل انتزاع روحه بدلا من انتزاع شرف نصره على العدو. كان دفاعه عن نفسه يتأرجح بين تبرير إنجازاته وبين كيل الاتهامات لخصمه الديكتاتور، الذي استشاط غضبا من ذلك، وأمر حراسه بتعرية المتهم وبتحضير السياط والبلْطة لإنزال العقوبة المستحقة عليه. حينها دفع فابيوس الحراس الذين بدأوا بتمزيق ثيابه واستنجد بوعود الجنود ولجأ للحماية بصفهم الثالث الذي كان يتحرك ويحمّس الجموع ضد الديكتاتور بصيحات تنديد عمّت كل المعسكر. صار الديكتاتور يسمع التوسلات المتشفّعة في المتهم من الصفوف الأمامية القريبة منه والتهديدات من باقي الصفوف البعيدة عنه، والتي كانت على وشك التمرد. نصحه حينها كبار الضباط من مستشاريه بتأجيل المحاكمة إلى يوم الغد خوفا من حصول الأسوأ الذي لا يليق لا بمقامه ولا بعمره ولا بخبرته. وأكدوا له أنهم ليسوا متعاطفين مع فابيوس وإنما ينصحونه بذلك خدمة للمصلحة العليا للجمهورية. حاولوا إقناعه بأنه من دون الذهاب بالانتقام إلى مداه فقد أهان ذلك الشاب بما يكفي للحط من شأن انتصاره. فما كان في حاجة للمزيد من تمريغ سمعته وسمعة أسرة Fabia في التراب".

"إلا أن الديكتاتور غضب من نصح مستشاريه فأمرهم بالنزول من منصته وطالب الجموع بالصمت. لكن الجنود رفضوا الاستجابة لنداء المنادي واستمر الهرج والمرج حتى جاء الليل وسدل عليه ستاره، فأُجلت المحاكمة للغد، وبُلِّغ قائد الخيالة بمعاودة المثول أمام قاضيه وخصمه الديكتاتور Papirius. إلا أن رفاقه نبهوه وأكدوا له أن حقد الديكتاتور قد ازداد بسبب ما حصل. فتسلل فابيوس وهرب من المعسكر ليلحق بروما. هناك التقى بأبيه الذي كان من قبل قنصلا ثلاث مرات وكان مرة ديكتاتورا، والذي نصحه باستدعاء مجلس الشيوخ ليشكوه قسوة وحيف الديكتاتور. اجتمع المجلس، وما كاد يستمع لشكوى قائد الخيالة حتى سُمع ضجيج وصول خصمه محفوفا بحراسه، الذي سمع بهروبه فلحق به".

"تجدد الجدل والصراع وأمر Papirius حراسه بالقبض على فابيوس. لم تنفع معه توسلات كبار أعضاء المجلس ثم المجلس بأكمله. حينها تدخل الأب ليقول للديكتاتور : "ما دمت قد تحديت هيبة مجلس الشيوخ واستهنت بتوسلاته واستخففت بمقامي وبشيخوختي وبشجاعة إبني وبنُبل منبته وهو الذي اخترته بنفسك قائدا للخيالة، فإننا نلجأ لسلطان نواب العوام ولعدالة الشعب. بما أنك رفضت تحكيم جيشك وتحكيم مجلس الشيوخ، ما بقي لنا إذا إلا أن نفرض عليك تحكيم الشعب. الشعب وحده له يقينا القوة والسلطة التي تفوق قوة وسلطة ديكتاتوريتك. وسأرى هل ستنحني لسلطانه كما انحنى له في الماضي ملك روما Tullus Hostilius".

"فانتقل الجميع من مقر مجلس الشيوخ إلى الساحة العامة مكان تجمع الشعب. وما كان الديكتاتور Papirius محفوفا سوى بقلة من أعوانه. في حين كانت الجموع الغفيرة تسير من وراء ومن حول خصمه فابيوس الذي اعتلى منصة الخطابة فور وصوله للساحة. إلا أن خصمه أمره بالنزول عنها إلى مكان أقل علوا. فأجابه الأب الذي كان برفقة إبنه قائلا : "حسنا فعلت. من هناك نستطيع على الأقل نحن المواطنون العاديون الكلام بكل حرية". في البداية غلبت المشادات الكلامية على إلقاء الخُطب الرزينة، إلى حين طغى على ذلك السجال المضطرب صوت الأب الغاضب الذي استنكر وهاجم طغيان وقسوة الديكتاتور، وقال له : "كنت أنا أيضا ديكتاتورا. لكني ما أهنت أحدا من الشعب. أما أنت فتطالب بالانتصار على جنرال من جنرالات الجيش الروماني كما لو كان أحد جنرالات جيش العدو. وسبق لديكتاتور أن أنقذ قنصلا من حصار العدو، ولمعاقبته اكتفى بجعله مجرد ضابط صغير بالجيش بدلا من تركه قنصلا. ألا ترون الفرق بين اعتدال ورفق الأمس وطغيان وقسوة اليوم ؟ ""

""والشعب نفسه، الذي يملك بيده السلطة العليا في كل شيء، ما عاقب يوما بعقوبة قاسية، وهو في حال غضب من الذين قادوا بتهورهم الجيش للهلاك، سوى معاقبتهم بدفع غرامات مالية. ما سبق حتى اليوم أن دفع جنرال روماني رقبته ثمنا لفشله في الحرب. واليوم ها هو جنرال الشعب مُهدد بالجلد بالسياط وبقطع الرقبة بالبلْطة. ما كان مستحيلا حتى في حق الجنرالات المنهزمين صار اليوم يجوز في حق المنتصرين والمستحقين لاحتفالات تليق بنصرهم وبمجدهم. بماذا إذا كان سيعاقب الديكتاتور إبني لو أنه انهزم أمام العدو وفر من المعركة ونُهب معسكره ؟ حينها، إلى أي مدى أبعد من الجلد والقتل كان سيصل عقاب إبني بسبب عنف وغضب هذا الرجل . هل هكذا صار من المعقول والمقبول أن يُعرّى ويُجلد من كان سببا في فرح المدينة بنصره وغمره الشعب بحبه وباركته الآلهة لما استجابت لدعواته ووهبته عنايتها في معركتين ضد العدو؟ كيف سينظر لكل ذلك الجيش الذي انتصر تحت قيادته ؟ فيا له من حزن بالمعسكر الروماني ! ويا له من فرح بمعسكر العدو !"".

"هكذا كان الأب يهْدر ويئن ويتوسل للآلهة وللشعب. ثم التفت لابنه ليعانقه وأعينهما تفيض من الدمع. كان إلى جانب الجنرال الشاب مجلس الشيوخ بجلاله، علاوة على دعم الشعب ونواب العوام والجيش بالمعسكر بعيدا خارج روما. إلا أن خصمه لم يكن أقل عزما وثباتا ودفاعا عن موقفه لما قام وقال : "بموجب سلطة الشعب الروماني الذي لا يقهر، فأنا ملتزم بموقفي ومعتمد فيه على واجب الانضباط العسكري وعلى واجب الالتزام بأوامر الديكتاتور وكأنها من وحي الآلهة، وعلى سُمو مثال القنصل Manlius الذي حكم بالإعدام على ابنه ونفذه فيه مضحيا بعطفه الأبوي في سبيل الحفاظ على الصالح العام[1]. أنا معتمد أيضا على مثال مؤسس الجمهورية بروتوس نفسه، الذي لم يتوانى عن عقاب اثنين من أبنائه بنفس العقوبة لما تثبت من صحة تآمرهما على حرية الشعب الروماني[2]. أما اليوم فنجد أنفسنا أمام آباء وديعين، وكهول متسامحين مع الاستخفاف بالسلطة التي لم تعد بأيديهم. يطالبونني بالتساهل مع من نسف واجب الانضباط العسكري وكأنه خطأ بسيط. لكنني أنا الديكتاتور، لا زلت متشبثا بقراري. لن أغير شيئا من العقوبة التي استحقها من حارب بالرغم من أوامري وغامر بالجيش في معركة مشكوك في موافقة الآلهة عليها وفي الحصول يقينا على عنايتها"".

""لا بد من الالتزام باحترام حصانة أوامر القيادة. فلا يسعني أبدا السماح بالإخلال بذلك الاحترام الذي له حصانته المقدسة والتي لن أكون أبدا أنا سببا في إضعافها أو في نسفها. أتمنى من سلطة نواب العوام، التي لها نفس الحصانة المقدسة، بألا تخرق هي كذلك باعتراضها على قراري حصانة وسيادة قوانين روما. كما أتمنى من الأمة كلها بألّا تنسف تلك الحصانة بنسْفها لقراراتي ولحقوق الديكتاتورية. إن فعلتم، فلن تدينني الأجيال القادمة على اندثار الانضباط العسكري وعلى إضعاف الجيش الروماني لما يغيب احترام كل جندي أوامر من هو أعلى منه رتبة. بل ستدينكم أنتم نواب العوام وأنت أيها الشعب على سوء تقديركم وعلى فساد حكمكم لمّا لن يعود هناك بروما تقدير لا للرجال ولا للآلهة، ولما يُستهان بأوامر الجنرالات وبنذر الكهنة، ولما يغادر الجنود المعسكرات من دون رخصة، ولما ينتشرون في فوضى بين صفوف الحلفاء وصفوف العدو، ولما ينسون قسمهم العسكري ويصبحون تحت حكم أهوائهم فينسحبون من المعارك كيف ومتى يشاءون، ولما لا يستجيبون للنداء وللتجنيد، ولما يخوضون المعارك ليلا أونهارا وكيف ما كانت الأوضاع مواتية أوغير مواتية، وبأمر من قوادهم أومن دونها. حينها يصبح جيش روما مجرد مجموعات لصوص وقطاع الطرق من دون لا قوانين ولا ضوابط، بدلا من أن يظل ذلك الجيش القوي والمنضبط. اقبلوا إذاً بكل هذه الجرائم وعرّضوا بها أنفسكم لحكم التاريخ. قدموا أنفسكم للخزي والعار من أجل تطييب خاطر فابيوس وخاطر أسرته".

"كان نواب العوام جد مذهولين من خطاب وحجج الديكتاتور حتى صارت شفقتهم على أنفسهم أكبر من شفقتهم على الضابط المذنب الذي يطالبهم بمساعدته. ما أخرجهم من دهشتهم وحيرتهم سوى الشعب الذي تجرأ وتقدم للديكتاتور بتوسلات متشفعا في الشاب فابيوس. فتبعه نواب العوام ملتمسين من الجنرال الصفح عن نائبه لضعفه البشري ولصغر سنه ولكونه قد نال بسبب كل ما حصل معه ما يكفي من العقاب. وأخيرا تخلى الشاب فابيوس وأبوه عن كبريائهما وعن المقاومة، وجثيا أرضا عند قدمي الدكتاتور لتسكين غضبه ولثنيه عن قراره".

"فرض حينها الجنرال الصمت على الجميع وقال : "حسنًا، لا بأس أيها الشعب الروماني. باعترافكم جميعا بذنب وجريمة فابيوس فقد انتصر أخيرا بروما الانضباط العسكري وانتصر جلال سلطة القيادة، اللذان كانا مهددين بخطر الاندثار من بعد هذا اليوم. المذنب فابيوس هوعلى كل حال مدان. وما حصل على عفوي سوى من بعد حصوله على عفو الشعب وعفو نواب العوام. حصل على عفو روما فقط من باب العطف عليه وليس أبدا من باب عدالة القانون. فعشْ يا فابيوس وانعم بمساعدة ودفاع روما عنك، وليس بالنصر الذي كنت منذ قليل تتبجح وتتغنى به. عشْ من بعد اقترافك لجريمة لو كان أبوك مكاني ما عفى عنك بسببها. لستَ من الآن مدينا لي بشيء. لكنك ستظل مدينا للشعب الروماني بحياتك. لن تردّ له جميله سوى باستيعابك وتقبلك لدرس هذا اليوم فتنصاع دائما في الحرب والسلم لأوامر القيادات الشرعية". نزل بعدها الديكتاتور من المنصة وأطلق سراح فابيوس قائد خيالته. ثم استُقبل بحفاوة وفرح وحرارة من قبل الشعب ومن قبل مجلس الشيوخ اللذان صارا يهنئان كلا الرجلين. لم ينقص ذلك شيئا من هيبة وسلطة الجيش، مع مزية تفادي خطر معاقبة الجنرال الشاب بالجلد والإعدام، تماما كما تقوّت نفس الهيبة من بعد العقاب السيئ الذكر الذي طال الشاب Manlius بأمر من القنصل الذي كان هو أبوه". لكن القصة لم تتوق عندذلك الحد بل كانت لها تداعيات بالمعسكر الذي لم يعرف الجمود فيه ما دار بروما.

فيقول تيت ليف : "المعرفة العدو بما حصل للجنرال فابيوس بروما صار يتحرش بالجيش الروماني كل مرة غاب فيها الديكتاتور عن المعسكر. صار حينها خوف نائبه من انتقام قائده أشد من خوفه من تحرشات العدو بجنوده. وحصل أن استغاث حليف لروما بنفس الجيش ولم يستجب لندائه بسبب غياب الديكتاتور عن المعسكر. فزاد بذلك استياء

---

[1] *Manlius* هوالجنرال الذي أعدم ابنه لما جاءه بسلب من قتل من الأعداء من بعد ما منع الجنرال خوض أية معركة جانبية مع العدوقبل بداية المعركة الرئيسية.

[2] و*Brutus* هوالذي تزعم ثورة القضاء على عهد الملكية وأقام مكانها نظاما جمهوريا.

الجنود من الجنرال الذي لم يسمعوا خطابه وحججه ضد فابيوس بروما، والذي قبل بتوسلات الشعب فيه هنالك من بعد ما رفضها منهم بالمعسكر. فصاروا لا يعبأون بوجوده بينهم. انتهز العدو الفرصة وجمع جيشه للحرب على المعسكر. خرج حينها إليهم الديكتاتور في جيش محبَط. كل ترتيباته العسكرية والظروف المواتية للقتال لم تنفعه في المعركة مع جنود كانوا يميلون لحرمان قائدهم من النصر نكاية فيه وانتقاما منه. كان عدد القتلى أكبر من جهة العدو وعدد الجرحى أكبر من جهة الجيش الروماني ومن دون أن تحسم المعركة لأي من الطرفين".

"فطن حينها الجنرال إلى ما يحول دون نصره. واقتنع بواجب تليين طبيعة مزاجه وبواجب المزج بين اللين والقسوة في تعامله مع جنوده. فسار في موكب من الضباط يتفقد الجنود الجرحى بخيامهم وينحني ليطل على كل واحد منهم ويسأله عن حاله ويواسيه ويسجل اسمه ويوصي كبار أعوانه بالعناية اللازمة به. توفق بذلك السلوك الإنساني في جبر الضرر الذي أصاب سمعته، والذي كسب به قلوب الجنود قبل مداواة جراح أجسادهم. لم يكن هناك شيء يخدم علاج جراحاتهم أكبر من تلقيهم لتلك المواساة اللطيفة من قائدهم. ولما استرجع الجيش عافيته لم يعد أحد يشك في قدرته على الانتصار. فخرج به الجنرال ليقضي على العدو قضاء مبرما، لم يعد معه يجرأ مرة أخرى على مواجهة الديكتاتور وجيشه. ثم لمكافأة جنوده على تصالحهم معه أطلق أيديهم في أراضي الأعداء ليستبيحوها ويحتفظوا لأنفسهم بما غنموه منها. فروّضت تلك الكوارث قوم Samnites، وجاؤوا يطلبون السلام من الديكتاتور الذي قبل طلبهم بشرط دفع ثمن لباس وراتب سنة لكل واحد من جنوده. بالاستجابة لذلك الشرط تم السلام مع العدو وعاد الجيش إلى روما". ثم حصل أن أفلت حلفاء روما من قسوة عقاب انتقامي بفضل استجابة الشعب الروماني لتوسلاتهم.

الشعب يتشفع في حلفاء استحقوا العقاب على خيانتهم

يقول تيت ليف : "في هذه السنة (323 ق.م.)[1] اقترح نائب العوام Flavius على الشعب كي يصوت على قانون يعاقب بموجبه قوم Tusculans الذين نصحوا الأعداء وحرّضوهم على مهاجمة روما. كان القانون المقترح يقضي بجلد وإعدام الذكور البالغين وبيع النساء والأطفال في المزاد العلني، وفق قوانين الحرب. سمع بذلك رجال Tusculans وجاؤوا مباشرة إلى روما بنسائهم وبأطفالهم يطوفون على كل الأحياء الرومانية حاملين بأيديهم ملابس المتهمين، ويتوسلون عفوها جاثين على رُكبهم. ولما عُرض القانون للمناقشة بالساحة العامة ثم طُرح للاستفتاء عليه صوتت كل الأحياء ضده عدى واحدة. بذلك كانت رحمة الشعب الروماني بقوم Tusculans أكثر توفيقا في تجنيبهم ذلك العقاب القاسي من لو ركبوا رؤوسهم وجاؤوا ليدفعوا عن أنفسهم التهمة حين عُرض القانون للنقاش. لم ينسى قوم Tusculans قسوة الحي الوحيد التي صوت للقانون ضدهم. فظلوا يعملون دائما وجيلا بعد جيل على إفشال كل من ترشح لمناصب الدولة من ذلك الحي". ثم جاء دور المؤلف تيت ليف ليعبر عن اعتزازه بمجد الجمهورية وبعظمة رجالها في مقابل مجد وعظمة الإسكندر المقدوني كأحد أكبر الغزاة في التاريخ.

قوة الشعب بروما في مقابل قوة الإسكندر المقدوني

فقدم لذلك بقوله : "من الملاحظ أنني حرصت منذ بداية هذا الكتاب على عدم الابتعاد كثيرا عن تسلسل الأحداث وعلى تفادي قصص جانبية، بالرغم مما فيها من متعة للقارئ ومن استراحة لفكر الكاتب. إلا أنني لم أستطع مقاومة التعرض لحياة الإسكندر المقدوني كملك وكجنرال، كي أبسط هنا في حقه أفكارا طالما راودت عقلي وشغلت بالي. فلننظر فيما لو أن هذا الجنرال توجه بجيشه غربا، ماذا كان سيحصل معه في حربه على الجمهورية الرومانية ؟". وحتى نفهم جيدا المقصود ببحث تيت ليف، فلا بد من تذكير مقتضب بتاريخ الملك والجنرال الشهير الإسكندر المقدوني. ولد الإسكندر في صيف سنة 356 ق.م، وهو إبن ملك مقدونيا فيليب الثاني. تلقى تربية خاصة من الناحية التعليمية. تولى تعليمه وهو في الثالثة عشرة من عمره الفيلسوف اليوناني الكبير أرسطو (384 - 322 ق.م). وورث عن أبيه الجلد والحزم والمهارة في معالجة الأمور، كما ورث عن أمه تأجج العواطف وسرعة الانفعال والغضب، وجاءت تعاليم أستاذه أرسطو فكان لها أبلغ الأثر في نضج تفكيره واتساع أفقه.

ومنذ موته حتى الآن، كانت حياة الإسكندر وشخصيته وأعماله من أكثر الموضوعات التي طرقها وأفاض في بحثها مؤرخو العصر الهيلنستي القدماء والمعاصرون. ويواكب هذا الفيض من الدراسات اختلافات بيّنة في تفسير وتعليل جانب أو آخر من جوانب حياة وأعمال هذه الشخصية الاستثنائية. لكنها أجمعت على عظمته وعلى عبقريته في السياسة والإعمار كما في الحرب. وهذا هو

[1] وهي السنة 187 من عمر الجمهورية الرومانية

بالضبط ما ظل يشغل بال المؤرخ تيت ليف وأصر على عرضه هنا في كتابه هذا، لمقارانته بعظمة نظام حكم روما العتيقة و وبأمجاد رجالها، فقال : "لم أستطع مقاومة التعرض لحياة الإسكندر المقدوني كملك وكجنرال، كي أبسط هنا في حقه أفكارا طالما راودت عقلي وشغلت بالي. فلننظر فيما لو أن هذا الجنرال توجه بجيشه غربا، ماذا كان سيحصل معه في مواجهة الجيش الروماني ؟ من الظاهر أن العوامل التي تحقق النصر في المعارك هي عدد وشجاعة الجنود بمعية مهارات الجنرالات. ثم يأتي الحظ كعامل مؤثر في كل الشؤون البشرية وبالخصوص في العمليات العسكرية. وبتفحص كل تلك العوامل متفرقة ومجتمعة فمن السهل الاقتناع بأن الجمهورية الرومانية لم تكن، بالمقارنة مع غيرها بالشرق، أقل قابلية للهزيمة من طرف الإسكندر".

ويستطرد تيت ليف قائلا : "بداية بالنسبة للمقارنة بين القادة، فلا أنكر أن الإسكندر كان جنرالا فذا. لكن الذي زاد في لمعان إنجازاته هو انفراده بالقيادة، علاوة على موته شابا وهو في أوج عطائه، قبل فرصة التعرض لامتحان واختبار سوء تقلبات الحظ. حتى لا نذكر كل الملوك والجنرالات الأفذاذ، نكتفي بذكر أول ملوك فارس Cyrus أو كورش الكبير (560- 529 ق.م.) الذي بجّله وعظّمه الإغريق. ومع ذلك ما حط من شأنه وحطم آماله سوى طول العمر الذي عرّضه لسوء تقلبات الحظ. ومثله في زمننا هذا[1] الجنرال Pompée".

"والآن دعونا نستعرض جنرالات الرومان، ليس كلهم، ولكن فقط الجنرالات والقناصلة الذين كان سيواجههم الإسكندر لو أنه قرر الحرب على روما[2]. كان الإسكندر سيواجه حينها رجالا عظاما، لو أنه هاجم إيطاليا من بعد اجتياح قرطاجة، ومن بعد التقدم في عمره. من بين من ذكرت لا يوجد من كان أقل قوة وحنكة من الإسكندر، علاوة على الانضباط العسكري، وهي مزايا مكتسبة ومتوارثة أبا عن جد منذ نشأة روما، وجعلت الجيش الروماني محكوما أكثر من غيره بمبادئ وقواعد ثابتة لا تتغير. فهي نفس المبادئ التي اتبعها ملوك روما في حروبهم من قبل. واتبعها من بعدهم من خلعوا ملكهم وأسسوا الجمهورية. وهي نفس المبادئ التي كان سيتبعها الجنرالات الذين كان سيواجههم الإسكندر في مراحل متقدمة من عمره. كان الإسكندر يستعمل ويستغل جسارة الجندي في عملياته العسكرية. لم يكن ذلك من بين أقل ما ساهم في مجده. لكن هل كان ذلك سيجديه نفعا ويتسبب في تراجع قواد جيش الرومان الذين تميزوا في الحروب كجنود من قبل أن تميزوا كجنرالات ؟. من دون ذكر أولئك الرجال العظام، هل كان أخيرا بإمكان عبقرية رجل واحد كالإسكندر أن يتفوّق على مجلس الشيوخ الذي صوّر نفسه بصورة حقيقية لما وصف نفسه بـمجلس ملوك ؟".

"ما كان بلا شك بإمكان الإسكندر أن يكون أكثر حنكة من أي رجل من الرجال الرومان الذين ذكرتهم، لا في اختيار مكان المعسكرات ولا في تثبيت الجنود في المعركة ولا في تفادي الكمائن ولا في اختيار الوقت المناسب للمعارك ولا في ترتيب وضبط مستلزماتها. ولو أن الإسكندر تواجه مع أي منهم لأدرك أنه لا يواجه ملك فارس Darius ، الذي كان يجرّ من حوله في كل حرب حريمه المكون من النساء والعبيد المخصيين مع جر خزائنه من الذهب والأرجوان، كما كان مثقلا بكل البهرجة التي كان يحلو له أن يبرز بها عظمته وجلاله. بذلك كان ملك الفرس فريسة وغنيمة أكثر مما كان عدوا بالنسبة للإسكندر الذي انتصر عليه من دون عناء. لذا ما كان له من مجد في قتال ذلك الملك وجيشه سوى تحدي ومواجهة مجرد فزّاعة واهية".

"مهما كانت التقديرات من حول عظمة قدر وشأن الإسكندر فلن تكون أكثر من عظمة شخصية جاءت كثمرة لفقط أكثر بقليل من عشر سنوات من المجد. وترى هؤلاء يرفعون من شأنه عاليا، بالرغم من أن الرومان لم ينهزموا في أية حرب وانهزموا فقط في عدة معارك. بينما هو لم يدخل في معركة إلا وحالفه فيها الحظ. فلا يرون أنهم يقومون بمقارنة مع وجود فارق في القياس. يقارنون إنجازات مدتها عمر رجل توفي في مقتبل العمر، مع إنجازات شعب حارب مدة ثماني قرون متصلة حتى عهده. كيف تصح تلك المقارنة لمّا نعدّ من جهة أجيالا عددها أكبر من عدد سنين مجد الإسكندر، وحيث الحظ يتقلب أكثر في زمن مدته دامت قرونا من تقلبه في زمن مدته ثلاثة عشر سنة فقط ؟ فلماذا لا نقارن رجلا برجل وجنرالا بجنرال وحظا بحظ ؟"

"كم بوسعي ذكر عدد من الجنرالات الرومان الذين لم يعرفوا ولا هزيمة واحدة في كل معاركهم. ويمكننا تفحص سجلات روما المتعلقة بكل رجالها الذين لم يسجل عليهم فيها الشعب الروماني يوما لا قلة شجاعة ولا سوء حظ. والذي يميزهم عن الإسكندر أو عن غيره من الملوك هو مدة ولايتهم التي لا تتعدى أكثر من عشرة أو عشرين يوما بالنسبة للديكتاتور وسنة واحدة بالنسبة للقناصلة. كما تميزوا عن غيرهم بتعرضهم لإشكال حق نواب العوام في الاعتراض على

---

[1] زمن تيت ليف المتوفى سنة 17م

[2] وذكر منهم :

M. Valerius Corvus, C. Marcius Rutilus, C. Sulpicius, T. Manlius Torquatus, Q. Publilius Philon, L. Papirius Cursor, Q. Fabius Maximus, les deux Decius, L. Volumnius, Manius Curius.

تسجيل الجنود لخوض الحرب، مع ما كان يترتب عن ذلك الحق من إشكال خروج الجيش متأخرا عن الوقت المناسب للمعارك. كما كانوا بموجب القانون مضطرين لمغادرة الجبهة أحيانا حتى في الوقت الحرج من أجل الإشراف على الانتخابات السنوية. وكانوا بموجب القانون أيضا مضطرين لمغادرة مناصبهم والتنازل عن قيادة الجيش في أوج عطائهم وإنجازاتهم، بسبب نهاية مدة ولايتهم السنوية. ولتفادي الاستبداد سنت الجمهورية ثنائية الرجال في ولاية كل منصب من مناصب الدولة وحددت مدة كل ولاية في سنة. فكان أحيانا الكيّس من الرجلين عرضة مرة لتهور زميله وأخرى لسوء نيته، فيخرّب مخططاته وتدابيره الحربية. وكان القنصلان الجديدان غالبا ما يتوليان مهامهما السنوية ويرثان ما اتخذاه من سبقهما من تدابير عسكرية غير سليمة بالنسبة لتتمة المعارك. كما كانا يتسلمان أحيانا قيادة جيش مكون من جنود جدد وغير منضبطين".

"أما الملوك فلم يكونوا فقط أحرار في تصرفاتهم من كل تلك العراقيل والمشاكل. بل كانوا يتحكمون في كل الأمور وفي اختيار الوقت المناسب لتنفيذ ما يقررونه من دون أي اعتبار لما يقرره من دونهم. ... أما الجيش الروماني فكان بوسعه أن يجابه الإسكندر مرة واحدة بعدة جنرالات من طينته بفضل ما لهم من خبرة ومجد كرجال دولة ومن إنجازات عظيمة كعسكريين، والذين موت أو حياة كل منهم ما كانت لتأثر سوى على مصيره الشخصي، ومن دون أي تأثير على مصير الجمهورية ولا على جيشها. ...فكان باستطاعته مواجهة ودحر ألف جيش أقوى من جيش المقدونيين بقيادة الإسكندر، وقد دحرها وسيدحرها دائما. وذلك فقط بفضل عشق شعبنا لما كان ينعم به من سلم فيما بين أبنائه، وعشق الوئام المدني الذي كان يتشبث به وبحماس بحاضرتنا".

هكذا أصر تيت ليف على التعرض لقصة الإسكندر للتباهي والتفاخر وبحق بالحضارة السياسية التي عرفتها روما في مقابل الحضارة الثقافية التي تميزت بها أتينا. باختصار شديد إذا كانت الحضارة الثقافية من الحاجيات فالحضارة السياسية من الضروريات لتكريم بني البشر. تأمل معنا ذلك في ما جاء في حديث المؤرخ الفرنسي لابولاي، وهو يعرّف الحضارة، لما قال : "أنها مركبة ومعقدة، من حيث تشمل عناصر مختلفة، من تشريع وفنون وعلوم وصناعة وتجارة ونوع من الذوق العام ونوع من التفاعل الاجتماعي. وهي الأمور التي قد توجد عند مختلف الشعوب متفرقة وبدراجات متباعدة جدا. فتساهم كل منها في تشكيل آداب أجيال أو أمة. هكذا نقول بأن حضارة اليونان كانت أرقى من حضارة روما لما أخضع الرومان اليونانيين لسلطانهم. في حين كانت المؤسسات السياسية الرومانية أرقي من نظيراتها اليونانية. وهكذا نجد اليوم[1] أن عشق الحرية والاستئناس بفنون الحياة العامة هما أعظم وأقوى ببريطانيا مما هما عليه بفرنسا وألمانيا وإيطاليا[2]. ومع ذلك من يجرأ على الادعاء بأن مدينة لندن البريطانية أرقى حضارة من مدينتي باريز الفرنسية وفلورنسا الإيطالية ؟ فهؤلاء الآلاف من الأجانب الذين يزورون بلدنا (فرنسا) كل سنة بحثا عن سحر مجتمع أكثر نعومة، سيحتجون على مثل هذا الادعاء"[3]. ذلك لأن الحضارة الثقافية غالبا ما تبهر عقول الشعوب فتحجب عنها الحضارة السياسية، التي هي بالنسبة لعموم البشرية نعمة بفضل نور الحرية الذي يبدد ظلم وظلمات الاستبداد، مهما ارتقت فيه الحضارة الثقافية.

ومن يقرأ كتب تاريخ شعوب الغرب، ككتب ميكيافلي[4] ومنتسكيوه[5] وغيرهما، سيلمس فيها ثراء الآثار الفكرية والسياسية التي خلّفتها في تلك الشعوب التقلبات السياسية في مختلف أنواع الحكم بسبب الصراع الذي احتدم فيها بين المستضعفين المطالبين بالحرية وبين فئات السادة من كبار القوم الميالين بطبعهم البشري للاستبداد على حساب حرية الرعية. فأنتج ذلك الصراع الطويل وعبر العصور وعلى مراحل هذا الواقع الذي يميزها اليوم عن باقي شعوب العالم. فلا تجد مؤرخيها يتكلمون فقط عن الأحداث والأشخاص، كما هو حال الإخباريين بباقي العالم، بل سرعان ما تجدهم يتعدّونها إلى الحديث عن الظروف والآليات والقواعد والقوانين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت ولا تزال تتحكم فيها وفيهم. فخلقت عندهم وعيا سياسيا قل نظيره بباقي العالم. لذا تجدهم ينظرون للحياة السياسية في كل مكان وزمان كما ينظر الطبيب بعقله إلى داخل جسم المريض من بعد ما رأى بعينه مظهره الخارجي. ومما

---

[1] في عصره القرن التاسع عشر

[2] في أواسط القرن التاسع عشر وهو عصر المؤلف EDOUARD DE LABOULAYE

[3] Édouard-René Lefebvre de Laboulaye, « *HISTOIRE POLITIQUE DES ETATS UNIS* » Charpentier, Paris, 1866, vol 1 page 262

[4] انظر كتاب المقالات *DISCOURS SUR LA PREMIERE DECADE DE TITE-LIVE* de Nicolas Machiavel

[5] Charles Louis de Secondat, baron de La Brède et de Montesquieu, *DE L'ESPRIT DES LOIS*, Barrillot & fils, Genve, 1748

تميزت به تلك الحضارة السياسية تفاعلات الجمهورية الرومانية مع هزيمة جيشها المخزية في ثالث حرب مع Samnites.

تفاعلات الشعب مع هزيمة جيشه

يقول تيت ليف : "تميزت الجمهورية الرومانية في تلك العصور العتيقة عن باقي الدول والشعوب من حولها وحتى عن حاضرة أثينا اليونانية بالتفاهمات الحاصلة بين فئتي النبلاء والعوام. من بعد صراعات سلمية طويلة بينهما كادت الفئتين فيها أن تكونا متساويتين في كل الحقوق وكل الواجبات. الأمر الذي شكل قوتها الذاتية وقوة جيشها بكل إيطاليا. وبذلك كانت روما مخيفة لكل جيرانها. ما كانت تخرج من حرب مع أحدهم حتى تدخل مع غيره في أخرى. من بعد قوم الإتريسكيين شمالا والفولسك والإيك جنوبا وقوم الگول بالبحر غربا، خرج على روما شعب Samnites مجددا كعدو من الشرق الذي خاضت معه ثلاث حروب طويلة. انتصرت عليه حتى الآن في كل المعارك، وكان آخرها مع الديكتاتور Papirius. كانت تلك الحروب حروب وجود في بيئة عدوانية لا مكان فيها للضعيف الذي كان إما تحتل أرضه ويُستعبد شعبه أويكون حليفا طيّعا في يد القوي الذي يهيمن عليه".

"لم يكن قوم Samnites يرضون بأقل من أن يكونوا قوة إقليمية يحسب لها ألف حساب. لم يتقبلوا هزيمتهم في المعركة الأخيرة مع روما. ونقضوا عهدهم معها وعاودوا للتحرش بها بتحريض من أحد قناصلتها. من بعد مد وجزر بين الجيشين انهزموا مرة أخرى على يد نفس الدكتاتور Papirius. ولما رأوا تدمير قواتهم صاروا يقولون : "لا عجب من انهزامنا في حرب فاجرة خُضناها خيانة للعهد. كانت منا حربا خاسرة ضد الآلهة أكثر من كونها حربا خاسرة ضد الرجال. لا بد لنا من التكفير عنها إما بهذر دم بعض المذنبين أو بهذر الدم البريء لكل الأمة". فصارت الأصابع تشير لـ Brutulus Papius، الذي تزعم تحريض الشعب على نقض العهد مع روما. وكان من النبلاء الأقوياء والنافذين".

"فحكم قضاة Samnites بتسليم Brutulus Papius لروما مع كل الأسرى الرومان وكل ما غنموه في الحرب معها كثمن للصلح ولتجديد عهد السلام الذي نقضوه. توجه مبعوثوهم لروما بتلك الرسالة علاوة على جثمان Brutulus Papius الذي فضل الانتحار على التعرض لذل ذلك العقاب المخزي وعلى ما كان سيتبعه من تعذيب على يد الرومان. بل ذهبوا حتى بكل ممتلكاته المنقولة. لكن روما رفضت عرض الصلح وتجديد معاهدة السلام. ما قبلت منهم سوى باسترداد جنودها الأسرى وما سُلب من جيشها كغنائم، وردت للمبعوثين جثمان Brutulus Papius وممتلكاته".

"رجعت سفارة Samnites من روما خالية الوفاض. إثر ذلك جمع جنرال جيشهم Pontius، قومه وقام فيهم خطيبا ليقول : "لا تحسبوا أنكم لم تجنوا شيئا من هذه البعثة. بل بفضلها هدأ غضب الآلهة الذي تسبب فيه نقضنا لمعاهدة السلام. إلا أنني على يقين من أن نفس الآلهة التي أجبرتنا على عرض ما عرضنا على روما كثمن لنقضنا لتلك المعاهدة، فهي ساخطة اليوم على رفض الرومان لذلك العرض وباستعلاء. لنيل رضا الآلهة وتهدئة الرجال ما كان بوسعنا القيام بأفضل مما قمنا به. كل ما غنمناه منهم وفق قواعد الحرب رددناه لهم. الرجل المفتعل للحرب من بيننا والذي كان من واجبنا تسليمه لهم حيا سلمنا لهم جثمانه من بعد ما انتحر. وحتى لا يبقى في ملكنا شيء يذكر من جريمته سلمناهم حتى ممتلكاته بأكملها. فماذا بقي في ذمتنا لهم وللمعاهدة وللآلهة الشاهدة على تلك المعاهدة ؟ لن نرفض أي شعب ولا أي رجل كي يحكم فيما بيننا على استعلائهم في مقابل توسلاتنا. إذا كان الضعيف أمام القوي لا ينتظر شيئا من عدالة البشر، فنحن نلجأ للآلهة التي تنتقم من الغطرسة التي لا تطاق. نلجأ إليها كي تحوّل غضبها عنا وتوجهه ضد من لم يقنعوا باسترداد ما أخذناه منهم في الحرب من أسرى ومن غنائم مع ثروات من أذنب منا في حقهم، ولم يليّن من قسوتهم لا انتحار ذلك المحرض على حربهم ولا تسليمهم جثمانه. ما بقي لتهدئة حقدهم ولإشباع نهم انتقامهم سوى تقديم دمائنا كي يشربوها وأمعاءنا كي يمزقوها. كما تعلمون معشر قوم Samnites، الحرب تصبح عادلة ومشروعة كلما صارت ضرورية. وتكون الأسلحة بريئة حين لا يبقى لحاملها من ملجأ إلا الأسلحة. بما أن أهم شيء في العالم هو رضا أوغضب الآلهة في السلم والحرب، فاعلموا أن الحروب السابقة قد خضتموها ضد الآلهة أكثر مما خضتموها ضد الأعداء، وأن الحرب التي تهددكم اليوم ستخوضونها بالرضا من نفس الآلهة"".


رسم لجبال أسنان مذراة كودين

"من بعد ما أقنع الجنرال Pontius شعبه بتلك الكلمات سار بالجيش ليُعسكر بمنطقة قريبة من ممر ضيق ووعر بين جبلين مكونين من سلسلة قمم متقاربة وشامخة ورقيقة كأسنان المذراة. وتدعى أسنان مذراة كودين les Fourches Caudines. ثم أرسل جنديين مستخفين في صفة رعاة يطلقان إشاعات موهمة للمعسكر الروماني بأن جيش Samnites في طريقه لمحاصرة حليف وفيّ لهم. بلع جنرال الرومان الطعم فتوجه بجيشه لنجدة حليفه، ومن أقرب طريق، وهي الطريق الضيقة والوعرة، الواقعة بين جبلي أسنان مذراة كودين ، حيث نصب له بالضبط جنرال Samnites كمينا محكما".

"وما أن دخل الجيش الروماني كله في الممر، بشقيه وبقيادة القنصلين، حتى وجد نفسه محاصرا بجنود العدو من كل الجهات. ما كان يستطيع التقدم إلى الأمام ولا الرجوع للخلف. كان تحت رحمة الرماح والسهام التي برزت من فوقه والتي خرجت من تحت الأشجار الكثيفة على طول جانبي السلسلة الجبلية. اضطر الجيش المحاصر للتوقف عن السير من دون تلقي أوامر بذلك. وخيم عليه الصمت ولبسه الذهول التام. عرف الجميع أنهم في ورطة لا مخرج منها سوى بالاستسلام. في انتظار ما سيفعل بهم العدو أخذوا في الانشغال بإقامة معسكر من حول ما وجدوا به من مياه ومن حول خيمتي القنصلين، لإلهاء العقول عن التفكير في النهاية المخزية والمحتومة".

"لكن قوم Samnites لم يكونوا أحسن حال من الجيش الروماني المحاصر بسبب جنرالهم الذي كان في ارتباك شديد من أمره. كان لا يدري ماذا سيفعل بالعدو من بعد نجاح الكمين. فأرسل إلى أبيه، صاحب الخبرة العسكرية الطويلة ليستشيره. وأفتاه الشيخ بالمنّ على الجيش الروماني وبتسريحه من دون إصابة أي جندي بأي أذى. رُفضت استشارته وطُلبت منه أخرى. حينها أفتى الجنرال إبنه بإبادة كل جنود العدو عن آخرهم. ثم جيء بالشيخ إلى المعسكر محمولا في عربة. لما وصل واجتمع له كبار الضباط، قال لهم : "أنا أفضّل فتْواي الأولى. وأعتبرها هي الأفضل. لأنه بالمنّ السخي على الجيش الروماني سنعزز عُرى الصداقة والسلام والتحالف مع شعب قوي جدا. أما بفتواي الثانية سنؤخر الحرب مع روما لمدة طويلة قد تدوم عدة أجيال، ستحتاج إليها لإعادة بناء جيشها من جديد من بعد خسارة جيشين مرة واحدة. وفي ما عدا ذلك فلا أرى لما أنتم فيه حلا ثالثا"".

"ثم استشاروه بخصوص حل وسط بين ما أفتاهم به، والذي يقضي، وفق قواعد الحرب، بتسريح الجيش المهزوم من بعد تجريد كل جنوده من أسلحتهم ومن ملابسهم وتمريرهم مثنى مثنى عراة ومنحنين وذليلين من تحت النّيْر. فأجابهم بقوله : "بهذا الحل لن تكسبوا حتما أصدقاء ولن تتخلصوا أبدا من الأعداء. بتسريحهم أحياء من بعد إذلالهم لن تستطيع الأمة الرومانية أبدا أن تبقى في سلم معكم. لن تستريح حتى تنتقم منكم مرات عديدة وبما يكفي لرد الاعتبار لها ولجيشها"".

"انصرف الشيخ وبقي قومه في حيرة من أمرهم. أما الرومان فقد بدأ ينقصهم كل شيء بين تلك الجبال المليئة بجنود العدو من فوقهم ومن تحتهم. فاضطروا لبعث رسل للتفاوض بخصوص سلام عادل. وإلم يستجب لهم العدو فكروا في استفزازه كي يجروه للقتال. رد الجنرال Pontius بقوله للرسل : "انتهت الحرب. وبما أنكم لا زلتم تجهلون بأنكم قد انهزمتم فيها وأنكم أسرى بأيدينا، فسنجردكم من أسلحتكم ومن ملابسكم عدا ما يستر عوراتكم وسنمرركم مثنى مثنى وعراة من تحت النير، ثم نسرحكم بشروط المنتصر على المنهزم. تنسحبون من أراضينا وتتخلون عن مستعمراتكم فيها. وحينها يعيش شعبانا حرين كل في ظل قوانينه، بموجب معاهدة سلام عادلة. على أساس ما سمعتم فأنا على استعداد للقاء القنصلين. وإلم يعجبهم ولو شرط واحد من تلك الشروط فإنني آمركم بألا تعودوا إلي مرة أخرى"".

"عاد الرسل إلى المعسكر وانتشر خبر ما جاؤوا به. فتعالت الأصوات مستنكرة وتفضل الموت على ذلك الاستسلام المخزي. بين خيار الاستسلام المر ومرارة خيار المغامرة بفك الحصار لزم القنصلان الصمت. حينها انبرى أحد كبار الضباط ليقول لهما : "أسمع دائما بأن أبي كان الوحيد من بين أعضاء مجلس الشيوخ يعارض فداء روما بالذهب لما كانت محتلة من طرف قوم الگول. وذلك لما كان كل من تبقى في روما من سكانها متحصنين بجبل الكابطول وكان بوسعهم ومن دون كبير مخاطر إحداث اختراق في صفوف العدو المتكاسل والمتهاون حينها. مع ذلك لم يغامروا بتحمل احتمال إبادة الشعب الروماني مهما كان ضئيلا. أما اليوم، فجميل جدا أن نموت في سبيل إنقاذ شرف الوطن. وسأكون أنا أول المستعدين للتضحية بحياتي في سبيل مجده ومجد الشعب الروماني. سوى أنني أرى كل الوطن موجودا هنا. أراه هنا في هذه الجحافل التي تشكل كل جيشه. إن هي ضحت بحياتها فعلى ماذا ستحافظ من بعد موتها ؟ قد يقول قائل أنها ستحافظ بذلك على أحياء

روما وعلى أسوارها وعلى أهلها. بالعكس، وبإسم الآلهة، أقول كلّا. تدمير هذا الجيش سيؤدي حتما إلى تسليم كل شيء للعدو وليس الحفاظ عليه. من دونه، من سيدافع عن الوطن وعن شعبه ؟ أهي جموع الأهالي المرتعشة والعُزّل من السلاح ؟ بمن ستستنجد تلك الجموع من بعد تدمير كل جيشها هنا ؟ هنا توجد كل الآمال وكل مخزون قوات روما. بإنقادها من الهلاك ننقذ الوطن، وبالتضحية بها نتخلى عنه ونخونه. سيقال أن في الاستسلام ذل وخزي وعار. ومع ذلك، الاستسلام هو ما يمليه علينا حب الوطن. هنا ننقذه بذلك من الاحتلال والاستعباد ولو على حساب شرفنا، كما ننقذه منهما في مواطن أخرى بالتضحية بحياتنا. علينا تحمل ذلك العار على فظاعته، ونستسلم لما تمليه علينا الضرورة القاهرة حتى للآلهة وليس فقط للبشر. هيا أيها القنصلان لفداء روما بتسليم أسلحتنا للعدو كما قرر أجدادنا سابقا لما فدوها بالذهب"".

"فالتحق القنصلان بالجنرال Pontius للتفاوض معه. وبما أنه كان يلح على إمضاء معاهدة سلام قالا له بأن مصداقية ذلك تستلزم موافقة الشعب الروماني بمحضر الكهنة مع إقامة مراسيم دينية رسمية معينة. لهذا اكتفى Pontius منهما بالوعد بعرض طلبهم لاحقا على شعبه وعلى مجلس شيوخه لينظرا فيه. واشترط لفك الحصار على الجيش الروماني أخذ ستمائة فارس كرهائن كي يساوم بهم روما على عقد معاهدة سلام بشروطه. ثم حُدد المكان والزمان الذي سيسلّم فيهما باقي الجنود الرومان أسلحتهم ويمرون عراة من تحت النّيْر".

"فازداد الإحباط بين الجنود مع عودة القنصلين للمعسكر. بالكاد كانوا يستطيعون الامتناع عن رفع أياديهم على الجنرالين اللذيْن غامرا بالسير بهم إلى هذا المأزق من دون حذر ولا تبصّر حتى وقعوا في الكمين مثل طرائد البراري التي تسقط في فخاخ الوحوش المفترسة. ثم هاهما قد وافقا، بسبب جُبنهما، على شروط مخزية لإخراجهم من ذلك المكان. صاروا ينظرون لأسلحتهم التي سيسلمونها للعدو، ويتخيلون أنفسهم تحت رحمة الجنود المنتصرين المسلحين الذي سيشتمونهم ويضحكون منهم قبل وأثناء وبعد مرورهم من تحت النير. ثم صاروا يتصورون أنفسهم عائدين إلى وطنهم عراة وعزلا من بعد المرور على عدة مدن وعدة شعوب في طريقهم إلى روما، أذلة وعرضة لسخرية ولشماتة الأعداء. كانوا يتصورون التحاقهم أخيرا بأهلهم وبالكهول وبالشيوخ الذين تعودوا في عز شبابهم على العودة من الحروب منتصرين للاحتفال بمجد الجيش الروماني وبتخليد عظمة ومجد روما. بقبول القنصلين لذلك الاتفاق سيكونون الوحيدين الذين انهزموا من دون سل السيوف من غموضها ولا خوض معارك ولا حتى مجرد خدشهم لجلد أي جندي من جنود العدو. بذلك استعداداتهم وتهيئتهم القبلية للحرب كانت كلها من دون جدوى".

"من بعد التشكي دقت ساعة الهوان. كانت الحقيقة أشد وأمرّ من التصورات. ألزم العدو جنود الرومان بالخروج من خنادقهم، من دون سلاح وفي ثوب واحد يستر عوراتهم. بدأ بإيداع الرهائن في السجن. ثم جاء دور القنصلين كي يُفصلا عن حرّاسهما. ونُزع عن ظهريهما معطافاهما كجنرالات رومان. جلب هذا المشهد المهين العطف عليهما حتى من طرف جنودهم الذين كانوا يتمنون لو قطعوهما إربا إربا. نسوا مآسيهم أمام هول مأساة قائديهم. سيق القنصلان شبه عاريين ليمرا هما الأولين من تحت النير. وتبعهم باقي عناصر الجيش الروماني ليمروا من تحته مثنى مثنى. كان جنود العدو من حولهم يسبونهم ويضحكون منهم. وكانوا يوخِزونهم برؤوس سيوفهم فيجرحونهم، بل ويقتلون كل من تجرأ منهم وتحداهم أواستفزهم بنظراته أو باحتجاجه".


لوحة لمشهد تمرير الجنود الرومان من تحت النير

"الذين خرجوا أحياء من تلك المحنة كانوا كمن وُلدوا من جديد ورأوا النور لأول مرة. في طريقهم إلى روما قريبا من مدن حلفائهم كانوا متوجسين من وفائهم لهم وخجولين من حالهم. كانوا كلما حان الليل يفضلون النوم على الأرض في الخلاء. لكن الحلفاء من أهل Capoue صُدموا من هول ما رأوا، فرقّت قلوبهم، وبادروا بإرسال كل ما يلزم من سلاح وألبسة وخيل وأغذية للقنصلين ولجنودهما حتى يظهروا للناس في أحسن أحوالهم العادية. ولما وصل الجيش المهزوم للمدينة الحليفة وجد في استقباله كبار رجالها المدنيين والعسكريين وأحسنوا ضيافته. لكن كل تلك الحفاوة لمواساتهم لم تستطع انتزاع ولا كلمة واحدة من القنصلين ومن جنودهما، ولا حتى الجرأة على رفع رؤوسهم للنظر إلى من حولهم. مرارة الحزن على حالهم والخجل مما أصابهم كان يدفعهم لاجتناب مخالطة غيرهم واجتناب الحديث معهم. نصر Samnites لم يكن فقط لامعا بل حاسما بالنسبة للمستقبل. هم لم يحتلوا روما مثل قوم الكَول سابقا، لكنهم انتزعوا من الرومان ما هو أهم وبكثير. انتزعوا منهم أنفتهم وكبرياءهم ومجدهم".

"كانت روما على علم ببدايات ما حصل. وما أن دخلت في استعدادات لإنقاذ جيشها حتى وصلها خبر استسلامه المهين. نزل عليها كالصاعقة، وقامت بها تلقائيا حالة الطوارئ وخيمت عليها كل مظاهر الحداد والحزن أكثر ربما مما عرفه المعسكر من أسى. لم يطال غضب أهلها فقط القنصلين ومن أشار عليهما بقبول ذلك الاتفاق البئيس، بل شمل سخطهم حتى الجنود بالرغم من براءتهم من كل ذنب في ما حصل، وعزموا على منعهم من دخول المدينة ومن الوصول لبيوتهم. لكن لما وصل الجيش المهزوم وبقي على ذلك الحال من التدمّر والإحباط، خفّت النقمة العارمة عليه، وراح كل جندي ليختبئ ببيته لا يخرج منه أبدا وليختفي في زاوية منه حتى على أنظار أهله. إلا أن أحد كبار رجال روما، استبشر خيرا بذلك التصرف من الجنود المنهزمين، وقام ليقول في مجلس الشيوخ : "هذا الإصرار على الصمت وهذه الأعين التي لا تفارق النظر إلى الأرض وهذه الآذان التي لا تقبل سماع أية مواساة وهذا الخجل من إبصار حتى النور، كل هذا يؤشر على تواجد براكين تغلي بالغضب في قلوب جنودنا. فإما لا أعرف طبيعة المزاج الروماني، وإما كل ذلك الغضب سيملأ قريبا قوم Samnites نحيبا وأنينا وبكاء. سيكون الاتفاق على شروط Caudine أكثر مرارة بالنسبة لهم مما هو اليوم بالنسبة للرومان. سيكون كل جندي روماني في كل معركة مسلحا بشجاعة منقطعة النظير. لن يعرف قوم Samnites أبدا يوم نصر كيوم نصرهم بموقع Caudine"".

"اهتم القنصلان بحياتهم الخاصة من دون أية مهمة رسمية، سوى تنفيذ مرسوم من مجلس الشيوخ يقضي بتعيينهما لديكتاتور يخلفهما في الإشراف على انتخابات جديدة. فانتُخب قنصلان جديدان. وأول موضوع طرحوه للنقاش هو اتفاق Caudine المهين مع قوم Samnites الذين لا يزالون يحتفظون بستمائة فارس روماني كرهائن تُقطع رقابهم وقتما رفضت روما التفاوض معهم على معاهدة سلام. فتوجه أحد القنصلين الجديدين إلى القنصل السابق الذي وافق على الاتفاق المخزي، وقال له : "تكلم Postumius". فقام الجنرال على نفس الهيئة المذلة التي مر بها من تحت النيْر، وقال : "أعلم جيدا أنكم تستفسرونني بوصفي مذنبا ومسؤولا عن كل ما حدث. وبما أن الأمر لا يتعلق في تقاريركم لا بخطئي ولا بمعاقبتي عليه، فلن أتكلم عن التبريرات والحجج المقنعة التي بوسعي تقديمها أمام رجال خبروا الحرب وتقلبات الظروف فيها. أما الاتفاق الذي تم من دون أمر من الشعب الروماني، فليس لقوم Samnites بموجبه الحق في أي سلام مع روما سوى أن نفديا أنا وزميلي رهائننا بأنفسنا. سلّمونا لهم عراة ومقيّدين في الأصفاد، وخلصوا بذلك ضمير الشعب من كل التزام إن كنا قد ربطناه بأي التزام مع العدو. من بعد ذلك فلا شيء معقول ومشروع لا عند الآلهة ولا عند الرجال يمنعكم من معاودة حربه حربا عادلة ومشروعة. أعدّوا له ما استطعتم من قوة، لكن من دون اقتحام أراضيه من قبل تسليمنا له وفق القواعد والأصول المعمول بها بين الأمم". ثم اتجه Postumius بالدعاء للآلهة كي تقبل منه ومن زميله التكفير عن ذنبيهما بتسليم أنفسهما للعدو مقيدين في الأغلال لفداء الرهائن، وكي تمنّ من جديد على روما بالنصر في حروبها على كل الأعداء كما عودتها على ذلك من قبل".

"بسماعه أحس كل من الحاضرين نحوه بخليط من التقدير ومن الشفقة عليه. كبُر عليهم تسليمه مع زميله مهانين للعدو كي يفعل بهما ما يشاء في مقابل الإفراج عن الرهائن. ولما كان الجميع، مع ذلك، يوافقه الرأي، انبرى نائبان من نواب العوام ليعترضا عليه بقولهما : "تسليم القنصلين للعدو مقابل إطلاق سراح الرهائن لن يخلص ضمير الأمة. الذي يخلصه هو عودة الأمور إلى ما كانت عليه مع قوم Samnites من قبل ذلك الاتفاق بموقع Caudine. فلا يستحقان أي عقاب ولا أية تضحية بسبب ما قدموه بذلك الاتفاق من أجل إنقاذ الجيش الروماني من التدمير. بالنظر لما كان لهما من حرمة وحصانة فلا يجوز تسليمهما للأعداء كي ينتهكوها". فرد Postumius بقوله : "لكن سلمونا للعدو نحن اللذيْن لم تعد لنا حرمة يُخدش بانتهاكها الدين. ثم سلموا له هذين النائبين كذلك فور رفع حصانة الدين عنهما بانتهاء ولايتهما. لكن سلموهما من بعد جلدهما بالمعبد للتكفير عن تأخير موعد تسليمهما. يزعمان أن الشعب غير مدين للعدو بتسليمنا له حتى يخلص ضميره من أي التزامات. هل يوجد من بيننا من ليس له علم بالأصول حتى يرى أنهما يزعمان ذلك خوفا من واجب تسليمهما هما أيضا للعدو بحسب نفس الأصول ؟ أنا لا أنفي أن الوعود المقدمة للعدو لها نفس القدسية التي للاتفاقيات والمعاهدات، والتي تمليها النوايا الحسنة بقدر ما تمليها تعاليم الدين. لكنني أنفي أنه بمقدور أي كان أن يُلزم روما بوعود مقدمة للعدو من دون سابق موافقة شعبها"".

""قوم Samnites، الذين بغطرستهم انتزعوا منا الوعد بأن ينظر الشعب ومجلس الشيوخ في معاهدة السلام، هب أنهم أرغمونا بنفس الغطرسة على التلفظ بالعبارات التي تُسلّم بها المدن للعدو، هل كنتم أيها النائبين ستسلمان لهم روما ومعابدها وأريافها ومياهها ؟ دعكما من ذلك. الأمر لا يتعلق سوى بوعد للعدو بالنظر في معاهدة السلام. ماذا كنتما فاعلين لو وعدناهم بتخلي الرومان عن مدينتهم أو بحرقها أو بإلغاء قوانينها وبنسف مؤسسات الجمهورية وتعويضها بنظام ملكي ؟ تقولان لا قدّرت الآلهة. لكنكما ما كنتما لتوافقا حينها على إلزام روما بوعود لم يوافق عليها الشعب. أما نذالة شروط خروج جيشنا من ذاك المأزق والتي وافقنا عليها فإنها لا تعفينا من الوفاء بها. واجب الوفاء بأحد الشروط يلزم بالوفاء بالبقية. لا يهم ما سيلحق ببعض رجال الدولة منتهية ولايتهم من أذى كضامنين لتلك الشروط، قناصلة كانوا أوديكتاتورات أوقضاة، أونواب عوام، ما دامت روما وشعبها سالمين من أي أذى. قوم Samnites يعون ذلك جيدا فلم يكتفوا بضمان القنصلين لذلك الاتفاق، بل طالبوا بضمان باقي كبار ضباط ورجال الجيش"".

"""وليس من حق أحد محاسبتي الآن على ما قدمت للعدو من وعود. لأنني ما وعدت قوم Samnites بما يفوق صلاحيات القنصل. ما كان بوسعي أن أضمن لهم تحقيق وإنجاز سلام مع روما لا باسمي ولا باسم الشعب، لأنني ما كنت أملك منه تفويضا بذلك. ما ضمنت لهم سوى التضحية بشخصي وبشخص زميلي فداء للرهائن. أما روما وشعبها فهما في حل من أي التزام بأي سلام، ولا يزالان حرين في الاختيار بين السلم والحرب مع العدو. معشر السيناتورات، لم يحصل شيء في هذه الواقعة وفق حكمة الرجال. الآلهة عاقبت بالعمى جنرالاتكم وجنرالات العدو. من جهتنا لم نأخذ ما يكفي من الاحتياطات في هذه الحرب. أما هم، فقد أفسدوا انتصارا لم يحصلوا عليه بجدارة، لما تسرّعوا ونزعوا السلاح من رجال وُلدوا بالسلاح في أيديهم. لو لم تكن عقولهم مضطربة، لاستفتوا حكماءهم، ولأرسلوا رسلهم إلى روما للتفاوض على السلام وعلى شروطه مع مجلس الشيوخ ومع الشعب الروماني، أصحاب القرار في الحرب والسلم. من بعد هدنة تدوم على أكثر تقدير ثلاثة أيام، كانوا سيحصلون من روما على نصر محقق ومعاهدة سلام مدعمة بموافقة الشعب"".

"""أما ما حصل بالفعل فلا يلزم سوى الأشخاص الذين التزموا به من الطرفين. نحن أنقذنا الجيش مما أوقعناه فيه. ونحن مستعدون لفداء رهائننا بأنفسنا. أما هم فقد خسروا السلام. فصار انتصارهم عقيما من دون ثمار. وأما أنتم أيها الآباء الأجلاء، فما عقدتم مع العدو أية معاهدة. ليس له من حق عليكم في أي شيء. ولا يستطيع أحد الادعاء بأنكم خدعتموه، لا العدو ولا أي مواطن روماني. لم تعدوا العدو بشيء. لم تكلفوا أي مواطن بالالتزام باسمكم للعدو بأي شيء. فليس لكم ما تناقشوه معنا كمواطنين لم تكلفوهم بشيء، ولا مع العدو الذي لم تلتزموا له بشيء. أما نحن الإثنين فمدينان للعدو، وقادران على تسديد ما في ذمتنا من ديْن له مما نملك ونستطيع دفعه، من أشخاصنا وحياتنا. فليفعلوا بها ما يشاؤون. فليشحذوا ضدها سيوفهم وسخطهم. أما بخصوص نواب العوام فانظروا هل تسلمونهم الآن أم تؤجلون تسلمهم. أما نحن فسنسلم حالا رؤوسنا البئيسة للعدو للوفاء بالتزاماتنا معه ولرد الحرية لأسلحة الرومان ولرجالهم"".

"أثرت تلك الكلمات في الجميع، مجلس الشيوخ والشعب، بما فيهم نواب العوام الذين أعربوا عن استعدادهم للامتثال لأوامر المجلس، وتنازلوا للتو عن ولاياتهم فرفعوا بذلك الحصانة عن أنفسهم، وانضموا للقنصلين من أجل تسليمهم جميعا للعدو. بذلك ظهر وكأن الظلام الذي خيم على روما قد انجلى، وصارت المدينة تبصر النور من جديد. وصار اسم الجنرال Postumius على كل الألسن، يُشكر ويرفع عاليا في السماء. بنصائحه وبتضحيته بنفسه صارت روما متحررة من عقد أي سلام مهين. سيسلم هو نفسه لتعذيب وغضب العدو كي يكفر بذلك عن ذنوبه من أجل حرية الشعب الروماني. صار النداء العام يدعو للسلاح وللحرب مع الشوق للوقت القريب الذي تحصل فيه المواجهة المسلحة مع العدو. تشكل الجيش من نفس الجنود وتوجه بقيادة القنصلين الجديدين نحو معسكر Samnite. لما وصل كان الكهنة في مقدمته فقاموا بتعرية كل الضباط الذين تعهدوا بالسلام للعدو وربطوا أيديهم وراء ظهورهم. واحتراما لمقام الجنرال Postumius ترفّق به المكلف بربط يديه، فصاح في وجهه : "لماذا لا تشد الوثاق ؟ فعليك أن تسلمني للعدو كما يجب وحسب الأصول"".

"ثم اقتاد الكهنة الضباط المكبلين إلى مجلس Pontius جنرال Samnites. وقال له أحدهم : "بما أن هؤلاء الرجال وعدوك بمعاهدة سلام من دون إذن ولا أمر من الشعب الروماني ومن مؤسساته، وبما أنهم ارتكبوا بذلك خطيئة في حق روما، فها أنا أسلمهم لك حتى لا يبقى الشعب الروماني مدين لك بشيء من جريمتهم". وما أن انتهى من كلامه حتى وكزه الجنرال المكبّل Postumius بركبته في فخذه، وصاح قائلا : "ها أنا قد أصبحت منذ الآن أحد مواطني قوم samnite. وهذا الكاهن هو سفير روما. وقد وكزته بركبتي. بذلك وبحسب الأصول فقد انتُهكت حرمة السفراء. فصار من حق روما أن تعلن الحرب على قوم samnite". فقال الجنرال Pontius : "أنا لا أقبل بهذا التسليم، وشعبي لا يؤيده. أما أنت يا Postumius إذا كنت تعتقد أن ما تقوم به الآن هو من وحي الآلهة، فلما لا تصرح بأن كل ما حصل لاغي وأنك تتنكر لما وعدتنا به ؟ بل أنتم ملزمون بعقد معاهدة السلام لشعبي ولكل من ينوب عنه. لكن لما أتوجه بالخطاب لك أنت الذي بتسليم نفسك أسيرا للمنتصر تريد الوفاء بكلمتك بقدر ما تستطيع ؟ بل أتوجه بخطابي للشعب الروماني. إذا تنكر للوعد الذي قطعه على نفسه، فليعد جيشه حيث كان محاصرا من طرف قواتنا أول مرة. فليعد لمعسكره مع كل ما كان بيده. فيصبح حينها كل ما سبق الاتفاق عليه لاغيا، ولا يحصل خداع من أي طرف. حينها ارفضوا التزاماتكم بالسلام وأعلنوا علينا قراراتكم القوية بالحرب. ولنستأنف القتال بما كان لنا فيه من امتيازات وحيث كنا من قبل التفاوض والاتفاق على السلام. حينها فقط يكون الشعب الروماني في حلّ من التزامات قنصليْه، ولن نشتكي نحن من سوء نواياه. ولما يصبح منهزما لن تكون له مبررات للتنكر لالتزاماته"".

"""عقدتم معنا سلاما مقابل الإفراج عن جنود جيشكم. وها أنتم تتنكرون لذاك السلام وتُزينون سوء نيتكم بمبررات واهية. الشعب الروماني رفض سلاما مهينا في نظره مقابل الإفراج عن جنوده. فله ما يريد، لكن مقابل رد جيشه المهزوم لأسر الجيش المنتصر. هذا هو ما يليق بحسن النوايا وبالوفاء بالعهود وبأصول طقوس الكهنة. ما طالبتم به من إنقاذ حياة جنودكم نلتموه مقابل السلام. وأنا لم أنل السلام الذي قايضت به الإفراج عنهم. هل هذا أيها الكهنة هو ما تسمونه حقوق الناس ؟ لهذا لن أقبل بتسلّم ضباطكم الذين تتظاهرون بتسليمهم لي. لن أمنعهم من العودة لوطنهم ملزمين دائما بما قطعوه على أنفسهم أمام كل الآلهة التي تستخفون بقداستها. قوموا بحربنا وبقتالنا بذريعة وكز Postumius بركبته لفخذ الكاهن والسفير الروماني. ثم تعتقدون أن الآلهة ستعتبر Postumius مواطنا من شعبنا، وأنه أهان سفيرا رومانيا، وبذلك تكون

حربكم علينا مشروعة ؟ ثم لا تخجلون من عرض هذه المهزلة الوقحة وفي واضح النهار أمام باقي الشعوب ؟ ولتبرير الإخلال بمتطلبات حسن الخلق تجد في روما كهولا ورجال دولة سابقين يتبنون مثل هذه المراوغات التي لا تليق حتى بالأطفال الصغار. قم أيها الحارس واطلق قيود هؤلاء الضباط، ولن يُمنع أي منهم من الذهاب حيث شاء"".

وعلق تيت ليف على ذلك بقوله : "بذلك يكون أولئك الضباط الرومان قد وفّوا للعدو بما عليهم شخصيا وبما على الأمة كذلك. فعادوا أحرار وسالمين لمعسكرهم. ولما وجد شعب Samnite نفسه أمام حرب مقبلة شرسة مكان سلام مهين للعدو صار يتصور أنه يرى بأم عينه المصير الأسوأ الذي ينتظره. اعترف حينها ولكن متأخرا ومن دون نفع يرجى منه، بصواب نصائح الشيخ والد قائده Pontius. شعر أن جنراله باتخاذه موقفا وسطا بين ما أشار عليه به والده، قد استبدل نصرا محققا بسلام غير مضمون، فصار لزاما عليه قتال نفس العدو الذي كان بوسعه إما التخلص منه كلية أو اتقاء شره باتخاذه صديقا دائما. انقلبت الأحاسيس كليا بالجانبين، من حيث أصبحت صورة الجنرال Postumius تشع لمعان عند قومه الرومان بفضل ما قدم من تضحية بشخصه للتكفير عن ذنبه، وصار قوم Samnites يشعرون بأن العدو قد انتصر عليهم منذ أن قرر العودة لقتالهم. فبادروا بالهجوم على مستعمرة رومانية وقتلوا كل من فيها ثم أحرقوها".

"تقاسم القنصلان مهمة رد العدوان بتوجه أحدهما بجيشه إلى مدينة Lucérie لتحرير خيالة الرومان الذين أخذوا رهائن، وبقي الآخر مكانه لقتال العدو بالقرب من معسكره (سنة 322 ق.م.)[1]. هنالك حارت وتشتت أفكار قوم Samnite . ما كان بمقدورهم تقسيم جيشهم على غرار ما فعل الرومان. فتخلوا عن المغامرة باتباع القنصل المتوجه لفك الرهائن وفضلوا توجيه كل جيشهم لقتال من بقي لحربهم. كان غضب الجنود الرومان مما سبق أن لحقهم من عار وسوء معاملة من طرف العدو، كان حاسما في انتصارهم الساحق بالمعركة التي تحولت سريعا إلى مجزرة لجنود جيش Samnites بساحة القتال ثم بداخل معسكرهم. لم يفلت منهم من القتل سوى القليل الذين تمكنوا من الهرب وتشتتوا في الأرض. وحاصر القنصل الآخر مدينة العدو Lucérie. لكن ما استطاع إلجاء أهلها المحاصرين للمواجهة إلا من بعد ما لحق به جيش زميله المنتصر والذي قطع عليهم المؤن التي كانت تأتيهم عبر الجبال وحوّلها للجيش الروماني الذي كان يعاني من ندرتها. فخرج جنود المدينة من أسوارها بأسلحتهم وعسكروا مقابل الجيش الروماني مستعدين للنزال. حينها تدخل مجلس مدينة Tarente وبعث برسل للطرفين يأمرهما بوقف القتال تحت طائلة التهديد بحمل السلاح إلى جانب الطرف الممتثل لذلك الأمر ضد الرافض له".

"كان أصل Tarente مستعمرة يونانية بجنوب إيطاليا. وكان بها ميناء طبيعي شكل عماد ازدهارها التجاري والاقتصادي حتى أنها هيمنت في وقت مّا على باقي المدن اليونانية. من بعد ما سمع أحد القنصلين لخطاب أولئك الرسل زاد مع زميله في التحضير للحرب، وقال لهم : "لقد قررنا خوض الحرب بمباركة الآلهة". وسار فعلا مع زميله بجيشيهما نحو معسكر العدو، مستخفا ومستهزئا بغرور وجنون حكام Tarente الذين ما كادوا يسيطرون حتى على شؤون حاضرتهم الداخلية بسبب ما تعرفه من انشقاقات وقلاقل تمزق كيانها، وكانوا يعتقدون مع ذلك أن لهم الحق في إملاء إرادتهم على غيرهم".

"ولما رأى جنرلات العدو Samnites الجيش الروماني بشقيه يتقدم ويقارب من معسكرهم قدروا أنه لا قبل لهم بقتاله، فقرروا التخلي عن منازلته خوفا من مجزرة محققة، وتظاهروا بالامتثال لمطالب سفراء Tarente للتغطية عن تخاذلهم. فصاروا يصيحون من وراء تحصينات معسكرهم أنهم لن يقاتلوا حتى ولو اقتُحم عليهم معسكرهم. إلا أن القنصلان ردوا على العدو بأن الآلهة أوفت بما وعدتهما من نصر لما أوحت إليه بالامتناع حتى عن الدفاع عن معسكره. ثم بغصّة المنتقم مما لحقه من خزي وعار سابقا اقتحم الجيش الروماني معسكر Lucérie من دون مواجهة أية مقاومة وشرع في قتل وذبح كل من وجدوه فيه سواء قاوم أوألقى السلاح وهرب، وسواء كان حرا أم عبدا. لم يتوقف عن تلك المجزرة الرهيبة وعن تخريب المعسكر إلا بأمر صارم من القنصلين. قال القنصلان للجنود أنه كانت لهما نفس الرغبة في الانتقام الجامح لولا تواجد خيرة شباب الرمان الخيالة كرهائن بالمدينة، والذين قد يفزع محتجزوهم من مصير محتوم، فيقرروا قتلهم قبل أن يُقتلوا".

"حينها توارى الجنود الرومان عما تبقى في معسكر Samnites المخرّب وشددوا الحصار على Lucérie. وبعث كبار المدينة مبعوثيهم للقنصلين يعرضون عليهما مقايضة تسليم الرهائن بفك الحصار عن مدينتهم. فأجابهم أحد القنصلين بقوله : "قبل عرضكم هذا كان حريّ بكم استشارة جنرالكم Pontius الذي سبق أن أذل الجيش الروماني لما كان في مثل وضعكم اليوم كي تعرفوا منه المعاملة التي تنتظركم كمنهزمين في عُرفه. أما وقد فضلتم عليه الاحتكام لعدالتنا، فإننا نأمركم بإخراج كل رجالكم القادرين على حمل السلاح، ومغادرة المدينة من دون أي متاع من أي نوع. ونأمركم بنزع ملابس الجنود من بينهم، عدى ما يستر عوراتهم، لتمريرهم مثنى مثنى من تحت النّير. بذلك ننتقم منكم بمثل ما اعتديتم علينا سابقا ومن دون أن نكون نحن المبتدئين". فما كان من خيار لأهالي Lucérie سوى الامتثال لأوامر القنصلين من بعد

[1] وهي السنة 188 من عمر الجمهورية الرومانية

الإفراج عن الخيالة الرهائن. ثم توجه الجنرالان لتأديب كل الحلفاء والأعداء الذين انتهزوا فرصة محنة روما مع Samnites للانقلاب عليها وللوقوف إلى جانب عدوها. كما اكتسبا بقواتهما حلفاء جدد. وبذلك استعادت الجمهورية الرومانية مكانتها و هيبتها على جل إيطاليا".

"وتقلّد القنصلان فابيوس و Decius مهامهما كزميلين للمرة الرابعة. وقد اشتهرا بالتوافق فيما بينهما بقدر ما اشتهرا بعظيم إنجازاتهما. الأمر الذي انتهى هذه المرة بسبب الخلاف بين البطريقيين والعوام، وليس بينهما شخصيا. أراد البطريقيون أن تكون قيادة الحرب ببلاد الإتريسكيين بصفة استثنائية من نصيب القنصل فابيوس. في حين حرّض نواب العوام القنصل Decius على الدفع بإسناد تلك القيادة بواسطة الاقتراع بين القنصلين. فحصل نقاش في الموضوع بمجلس الشيوخ وتم الاتفاق فيه على إسناد المهمة للقنصل فابيوس. عندها أحال نواب العوام القضية للشعب كي يحسم فيها".

الشعب يفصل في خلاف بين قنلصلين

يقول تيت ليف : "في ذلك التجمع الشعبي حيث تعوّد الجنود على العناية بالأمور العسكرية أكثر من الأمور السياسية لم تنل القضية كبير اهتمام. فقال فيهم القنصل فابيوس : "من الإجحاف في حقي أن أغرس شجرة ثم يجني ثمارها غيري. أنا من فتح السبل في الغابات والفجاج في الجبال لتيسير مرور الجيش الروماني. فلماذا استدعيتموني في هذا العمر المتقدم ما دمتم مصممين على خوض الحرب بقيادة جنرال غيري ؟ بحسب ما سمعته منكم من لوم فقد تبين لي أنني قد اخترت Decius كخصم وليس كشريك لي في القنصلية، حتى صار نادما على توافقنا ثلاث مرات كزملاء. وأخيرا أنا لا أرغب سوى في الذهاب للإقليم الذي ترونني أستحق الذهاب إليه. وها قد صار ذلك الخيار للشعب من بعد ما كان بيد مجلس الشيوخ".

"أما القنصل Decius فقد كان يشتكي من ظلم مجلس الشيوخ، ويقول : "سبق للبطريقيين أن بذلوا ما في وسعهم من جهد لإبعاد العوام عن ولوج المناصب الرفيعة. ولما صار الاستحقاق، حيثما ظهر في مختلف فئات المجتمع، هو وحده المعيار لتقلد تلك المناصب، صاروا يحاولون ليس فقط القفز على اقتراع الشعب بل حتى على ما حكمت به التجربة، كي يستبد البعض فقط بسلطة الاختيار والقرار. كل القناصلة من قبلي تولوا التوجه للأقاليم عن طريق القرعة. وها هو مجلس الشيوخ يولي اليوم القنصل فابيوس التوجه لإقليم من دون قرعة. إن حصل ذلك بمعيار الشرف فإنني قد نلت باستحقاق نفس الشرف من فابيوس نفسه ومن الدولة. اللهم إذا صارت إهانتي شرطا لتلميع صورة فابيوس. وإلا من سيشك في أن أحد القنصلين يصبح زائدا وغير ضروري لما تسند قيادة الجيش لزميله بالتعيين ومن دون قرعة ؟ ما دام فابيوس يفتخر بإنجازاته بإقليم الإتريسكيين، فمن حقي أنا كذلك أن آخذ الفرصة لتحقيق نفس الإنجازات كي أفتخر بها. هكذا أنا من سيطفئ نهائيا تلك النار التي كان فابيوس يخنقها، لكن سرعان ما تشتعل وتتسبب في حريق. وأخيرا فأنا مستعد للتنازل لزميلي عن حقي في المجد والمكافآت احتراما لسنّه وتقديرا لشخصه. لكنني لن أتنازل له عنها بتلقائية في حال الخطر المحدق بالجمهورية. لهذا أريد هنا على الأقل أنّ ما يملكه الشعب يُعطى بأمر من الشعب بدلا من أن يعطى جزافا وتفضلا من أعضاء مجلس الشيوخ. وأدعوا الإله جوبتير الطيب والعظيم، والأرواح الخالدة بأن تهبني بإجراء القرعة فرص متساوية مع فرص زميلي فابيوس. فمن الإنصاف ومن الطبيعي، ومن أجل سنّ القدوة الحسنة ومجد الشعب الروماني أن يكون كل من القنصلين قادرا على حسن قيادة الحرب ببلاد الإتريسكيين""

"ومن دون مزيد من الخطابات، اكتفى القنصل فابيوس بتلاوة رسالة الجنرال أبيوس، المرابط بجبهة القتال، على الجموع الناخبة قبل الاقتراع، ثم انصرف. ففضلت الجموع الاقتراع على إجراء القرعة وصوتت لصالح فابيوس. ولم يكن الاتفاق بين الجموع المقترعة على اختيار القنصل فابيوس لقيادة الجيس بتلك الجبهة، أقل من الاتفاق عليه بمجلس الشيوخ. لكن ما أن وصل للجبهة حتى ظهرت له الحاجة لزميليه Decius مع جيشه. وفي إحدى المعارك جلب قوم الكُول على جيش Decius بخيله وعرباته الحربية فهرب جنوده من الفزع. حينها قرر القنصل التضحية بنفسه مثل أبيه سابقا للتكفير عن سوء سلوك جيشه، متوسلا بذلك النصر من الآلهة. فارتمى في صفوف العدو الذي أصيب بالذعر من تصرفه وقاتل حتى هلك. ولما علم زميله فابيوس بمقتله مضحيا بنفسه لحق بتلك الجبهة وانتقم له من جيش قوم الكُول ومن حليفه من Samnites فهزمهم جميعا وغنم وأسر منهم الكثير، وعاد بجثمان زميله Decius إلى روما لتأبينه ودفنه بها في جو ملأته دموع الجموع من الحزن على الجنرال فقيدها أكثر من دموع الفرح بالنصر على العدو. إلا أن ذلك الانتصار لم يجلب السلم. بل استمرت الحرب سجالا بين روما ونفس الأعداء بمعية غيرهم سنين طويلة". وحصل أن تنافس نساء البطريقيين مع نساء العوام على التديّن بالعفة.

فيقول تيت ليف : "في نفس السنة ظهرت في روما علامات شؤم تُنذر بحصول كوارث. ولاستبعاد شرورها قرر مجلس الشيوخ تخصيص يومين للتوجه بالصلاة للآلهة. ووفرت الخزينة لتلك الصلوات ما يكفي من الخمور والبخور. فتوجه العديد من الرجال والنساء للمُصليات بقصد استجداء عطف ورحمة الآلهة. والذي زاد في روعة تلك الصلوات هو

ما حصل في مُصلّى العفة البطريقية[1]، والقريب من سوق البقر. استبعدت منه النساء البطريقيات السيدة البطريقية ڤيرجيني لكونها زوجة القنصل Lucius Volumnius وهو من العوام. نشأ عن تلك المهانة مشادات كلامية تطبعها الحدة النسوية متبوعة بصراع محتدم. فتبجحت ڤيرجيني بقولها : "أنا دخلت لمصلى العفة البطريقية لكوني وبحق بطريقية وعفيفة ومتزوجة من رجل واحد. وقد جيء بي إليه عروسة وأنا عذراء. ولست نادمة على زواجي منه، بل مفتخرة به وبما تقلده من مناصب رفيعة وبما حققه فيها من إنجازات مشرفة "".

"ثم أضافت لخطابها المترفع صنيعا متميزا. خصصت جزءا من بيتها لإقامة مُصلى صغير من جهة الشارع الطويل حيث كانت تسكن. فاستدعت له نساء العوام واشتكت فيه لهن من المهانة التي تعرضت لها من طرف البطريقيات. ثم قالت لهن : "لقد خصصت هذا المُصلى لعفة نساء العوام. وأحثكنّ على التنافس في العفة كتنافس أزواجكن في الشجاعة. فأحثكن على التحلي بأكبر قدر من الطهارة حتى لا يقل مصلاكن قدسية عن مصلى النساء البطريقيات". وعرف مصلى نساء العوام الجديد نفس الطقوس التي كانت تقام بمصلى البطريقيات. وما كانت تصلي فيه منهن سوى من عرفن بعفة مثبتة، ولم يكن لهن سوى زوج واحد. لكن سرعان ما تقهقرت سمعة المصلى لما صارت تصلي فيه نساء من كل الفئات الاجتماعية، إلى أن طاله النسيان".

وقد تم الإحصاء التاسع عشر لسكان روما سنة 293 ق.م.[2]. فيقول فيه تيت ليڤ : "بدخول هذه السنة انتهت ولاية نواب العوام فانتخب نواب جدد. وخمسة أيام من بعد تقلدهم مهامهم تم إعفاؤهم بسبب عيب في الاقتراع فاستبدلوا بغيرهم. وفي نفس السنة تمت الخُمسية[3]، فقام الناظران بعملية إحصاء سكان روما. فأحصيا مائتان وإثنان وستون ألف وثلاثمائة وواحد وعشرين نسمة[4] [262 321]. فكان ذلك هوالإحصاء التاسع والعشرون منذ إحداث مؤسسة النظارة".

وقد كتب المؤرخ الروماني تيت ليڤ المتوفى سنة 17م، موسوعته بخصوص تاريخ روما العتيقة مُوزعة على مائة وإثنان وأربعون جزء. ولم يبقى منها سوى خمسة وثلاثون جزء وهي [ج1 حتى ج 10] كاملة بالإضافة إلى قطع جد متناثرة من الجزء 21 حتى الجزء 45 لا تفي ترجمتها بالمطلوب.

وبهذا القدر من ترجمة كتاب المؤرخ تيت ليڤ نكون قد استوفينا أحداث الأجزاء العشرة الأولى من مألفه والممتدة مدتها من فترة ما قبل تأسيس روما سنة 753 ق.م. حتى سنة 292 ق.م. من عهد الجمهورية. بتعليقاتنا ضمنناه ما ما يكفي من الفوائد والدروس والعبر بخصوص جزء من قصة الصراع بين الحرية والاستبداد بروما العتيقة. والجزء المتبقي يمتد إلى حين اندلاع الحرب الأهلية التي أنهت عهد الجمهورية سنة 27 ق.م.



وهذه صفحة من أحد أجزاء الموسوعة بخط المؤرخ تيت ليڤ وبلهجة بلدته Padou بشمال إيطاليا

وقد تتساءل عن ظروف وأسباب سقوط الجمهورية التي تلتها الإمبراطورية وأقبرت فيها الحرية. معك حق في ذلك، وما عليك سوى تتبع بقية الأحداث في ما تراه مناسبا من كتب التاريخ المتوفرة. سيكون على كل حال بوسعك استيعاب كل ما كتب في شأن التجربة السياسية الرومانية من دراسات

---

[1] *la chapelle de la Pudeur patricienne*

[2] وهي السنة 217 من عمر الجمهورية الرومانية

[3] مدة خمس سنوات *le lustre* التي على رأسها كان يتم إحصاء جديد لسكان روما من الرجال وثرواتهم العقارية بالخصوص وبحسبها كانت تحدد مراتبهم في الجيش ومراتبهم في الهيئات الانتخابية البطريقية، كما تحدد قيمة مبالغ الضرائب الواجب دفعها. ومن تخلف عن الإحصاء كان ينبذ طيلة الخُمسية. لكن من تعذر عليه الحضور كان بإمكانه تكليف من ينوب عنه.

[4] *on recensa deux cent soixante-deux mille trois cent vingt et une têtes*
والمقصود بـ كلمة "*têtes*" هم الرجال فقط الذين كانوا يحصون مع ثرواتهم.

وتأملات من طرف مؤرخين وكتاب متقدمين من مثل نكولا ميكيفلي ومنتسكيوه وغيرهما ومن طرف المؤرخين المتأخرين. وندعوك للبقاء في رفقتنا عبر الكتب الباقية من سلسلة "من قصص الصراع بين الحرية والاستبداد في تاريخ البشرية". سنتابع فيها على التوالي قصته بجمهورية البندقية، ثم قصته بإنكلرا، وأخيرا قصته في الولايات المتحدة الأمريكية.



لماذا هذه السلسلة من أربعة كتب ؟

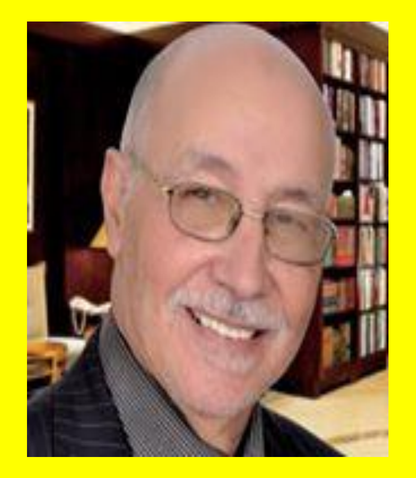
فقط في منتصف القرن الماضي مرت ثلاث دول أوربية من الاستبداد إلى الديمقراطية بسلاسة ومن دون عناء. يتعلق الأمر بالبرتغال سنة 1974 وبإسبانيا سنة 1975 وباليونان في نفس السنة. وحصل الشيء نفسه لدول أوروبا الشرقية إثر سقوط جدار برلين سنة 1989. ولما جاء دور الدول العربية سنة 2011 كي تعرف نفس المسار وبنفس اليسر، خابت الآمال وتحوّل ما سُمي بالربيع العربي إلى خريف عربي، مليء بالفوضى والحروب. فما نجت من مآسيه سوى تونس.

تساءلنا حينها عن سبب ما تيسّر في البرتغال وإسبانيا واليونان ودول أوروبا الشرقية فقط منذ أقل من نصف قرن من الزمن، وتعذر تحقيقه في البلدان العربية التي عرفت ثورات 2011. فالتمسنا الجواب على ذلك السؤال في تتبع ما سميناه بقصص الصراع بين الحرية والاستبداد في تاريخ البشرية. ونعني بالحرية الحرية السياسية كما نعرفها اليوم في الدول الديمقراطية. فما هي الشعوب التي عرفتها وعاشتها ؟ وكيف نشأت فيها ؟ وما هي العناصر التي ساهمت في نشأتها وبأي مقدار ؟ وهل تنشأ بنفس الطريقة من بلد لآخر ؟ وهل لنشأتها نفس القصة هنا وهناك ؟ فوجدنا أن للحرية قصصا عديدة في تاريخ البشرية. وبالنظر لما توفر لنا من مراجع اقتصرنا على تتبعها في تاريخ شعوب كل من روما العتيقة وجمهورية البندقية وبريطانيا والولايات المتحدة. وهذا هو أول كتاب منتلك السلسلة.

كعربي قد تتساءل وبحق، عما إذا كانت لها قصص في تاريخ أسلافك أم لا. يسرّنا ذلك كثيرا، لأنه المقصود بالذات من تأليف ونشر تلك الكتب الأربعة. ونفضل أن لا نجيبك عليها، لأنه مهما اجتهدنا لن نوفي تلك الأجوبة حقها مثل ما توفيه قراءة أي من كتبنا الأربعة. ومع ذلك لن نكتفي هنا بترجمة المراجع التي اعتمدناها. بل سنرافقك في تلك الرحلات الشيقة. تقرأ الكتاب ونحن برفقتك نتصور ونخمن أنك تضع تساؤلات حول الأحداث التي ستكتشفها. ولا يسعنا حينها إلا أن ندلي لك بتعليقاتنا عليها. قد لا تتفق معها، لكنك ستستأنس بها كي تشكل أراءك وتعليقاتك الخاصة بك.

وكلمة "قصة" في العنوان مقصودة، لأننا أردناها كتُبا ميسرة الهضم لعموم القراء، وليس فقط لخاصتهم. لذا كتبناها على شاكلة الأفلام الوثائقية من دون ما كان ينبغي من الدقة والصرامة الأكاديمية. ومن يريد ذلك فليعد إلى المراجع.

بتتبعنا لتلك القصص اتضحت لنا عدة أمور، وتجددت عندنا تفسيراتها. فلم نعد نراها كما كنا نراها من قبل. اكتشفنا مجال بحث لا يزال، على حد علمنا، بكرا بالعالم العربي. ونتمنى أن تفتح كتبنا هذه شهية الأساتذة الباحثين كي يغنوه بدراساتهم الأكاديمية، فيملأوا الفراغ بنتائجها التي من شأن تبسيطها وتعميمها أن ييسر لشعوبنا التشبع بنفس ثقافة الحرية التي يسرت الانتقال إلى الديمقراطية لبعض جيراننا بشمال البحر المتوسط من دون عناء ولا قلاقل.



ذ. المصطفى حميمو

حاصل على الإجازة في الاقتصاد
والماستر في إدارة الأعمال
من جامعة لييج ببلجيكا

وعلى دبلوم الدراسات الجامعية العامة
مسلك الدراسات الإسلامية
من كلية الآداب والعلوم الإنسانية
بعين الشق بالدار البيضاء

من تأليفه :

- مقترح حل أزمة التعليم بالمغرب بتحديث هندسته التنظيمية
- Proposition de réforme structurelle inédite POUR UN SYSTEME D'ENSEIGNEMENT EFFICACE ET PERFORMANT

GSM : 0622569305
hmimost@gmail.com